أندريه ميكيل

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الرابع

الأعمال والأيام

القسم ١ و ٢

ترجمة:
ابراهيم خوري

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

العنـوان الأصـلي للكتـاب :

ANDRÉ MIQUEL

La géorgraphie humaine

du monde musulman

jusqu'au milieu du 11e siècle

Les travaux et les jours

جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر :
La geographie humaine du monde musulman jusqu'au
milieu du 11e siecle / اندريه ميكيل ؛ ترجمة ابراهيم خوري.-
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . - ج ٤ : مص ؛ ٢٤ سم .

١ - ٩١٠ م ي ك ج ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازى
٤ - ميكيـل ٥ - خوري

مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ١٣٤٣ /١٩٩٥/٩

تنبيه

سيتمت ثلاثة كتب هذا الكتاب الذي تَختتم به هذه السلسلة ، وحملت كلها عنواناً واحداً . وأعاد الكتاب الأول منها إدراج ما اتفق على تسميته الجغرافية العربية . في مجمل الأدب العربي وإدخال ما عرف بالنظام الثقافي في تلك الفترة (حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادى) في إطار هذا الأدب ذاته . ودرس الكتاب الثانى مضمون المؤلفات الجغرافية . وبدأه بوصف الأرض والأقوام الغريبة مثلما فعل الجغرافيون . وضيّق الكتاب الثالث الرؤية . فاقتصر فيها على شرح الوسط الطبيعي في دار الإسلام (مملكة الإسلام) . مركز العالم وأفضل أجزائه . وحان الآن وقت إنهاء الأبحاث باستعراض وجود المسلمين في دارهم .

ولن نعمل في هذا الكتاب عمل المؤرخ بالمعنى الدقيق ، وقد امتنعنا عن هذا النهج في الجزئين السابقين أيضا . فالواقع لا يهمنا بحد ذاته لدراسة إحدى الحقب أو الحضارات . بل لأجل مايعبر عنه في أذهان الناس الذين عاشوه . ولا نأخذ معرفته بعين الاعتبار . إلا لتسمح لنا بقياسه وإدراكه . ولنرى إذا كان إدراكنا له يصوّره بأمانة أو يبتعد عنه . وإلى أي مدى وحتى في الحلم وعند الصمت . ومهما يكن .

قد تنطوي هذه الطريقه على شيء من التاريخ . إذا صح أن التاريخ ينبغي أن يعتبر الأفكار والأحداث معاً وقائع .

ونحن نحاول أن نستخلص هذه الصورة من النصوص ، بل أن ننتزعها انتزاعاً منها ، لأنها لم تكتب دوماً بوضوح تام ، ووردت أحياناً مشوشة ، أو لا شعورية ، أو مترددة حيال نفسها . ونأخذها من أشخاص عاديين من حيث أصلهم الإجتماعي . وحرصهم على دار الإسلام معتدلة وموحدة ، ومستوى ثقافتهم . ولن أعود إلى الحديث عن هذه الأمور إلا لإبراز قيمة هذا الأدب من جديد . ونتصور الجغرافية ؛ بمعناها الواسع ، تمثيلا للعالم وتمثيلا « للمسلم الورع » المثقف ثقافة ملائمة فحسب ، ونقابلها بالصورة الأخرى ، أعني صورة العلماء من شتى الأجناس ، فنحصل على مملكه إسلام واقعية إلى حد كبير ، مثلما شاهدتها عيون الذين رأوها ، ومختلفة عن فحوى تخاليل الباحثين . وهذه ناحية لابديل لها .

وهذه الجغرافيه بشرية . ولن أرجع . هنا أيضاً ، إلى وصفها بالبشرية : فهذا الأدب كله إنساني ، لأنه يركز في دراسته على الشخص المدرك والمفكر ،سواء وصف — ماعدا المؤلف نفسه الذي يظل شخصاً على الدوام — الإنسان أو الخليقة التي سخرت من أجله . شريطة أن يميز ، هنا وهناك ، عند الحيوان أو النبات ، في السماء أو الماء ، أو الجماد أوالريح ، الفائدة المرجوة ، على مستوى المنفعة الصرفة أو التأمل : وقد بلغت الجغرافية العربية أوج تطورها في بحثها الانسان ، ، انشطته . أو معتقداته أو تقاليده . وتنقلنا مادة هذا الكتاب إلى صميم المشهد وجوهر النقاش .

أقول : هذا الكتاب وكل الكتب التي ألهمته أكثر من سواها . بالفعل . ينحصر موضوعه في بحث دار الإسلام . فماذا نرى؟ أمامنا ، في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، مصنّفون اعتمدوا على معارف جزئية ، دوّنت من قبل حسب مبادىء الأدب . وعزموا على تمحيص معطياتها واعادة النظر بها في اطار كل عظيم صمّموا على التمسك به ، وهو في الواقع مملكة الاسلام . وقرروا أن يتجولوا في أراضي هذه المملكة . وأن يسجلوا بأقلامهم ماشاهدوه ، وأن يمضوا حياتهم في هذه المغامرة ، وأن يجازفوا بها أحياناً ، مثلما يشهد المقدسيّ في بيان مقدمته وفي رواية هذه المغامرة أو تلك الواردة في كتابه . ومن هنا ، جاءت وفرة المعطيات الهائلة التي جمعها قبلنا مؤرخون من أمثال لومبار وكاهين واستور وكثيرون غيرهم. إلا أني على يقين أن تلك المعطيات الوافرة ناقصة . فما تزال ميادين كاملة تنتظر استكشافها في مجالي التاريخ والجغرافية الخاصين بالغذاء والصحة واللباس والهندام والتقاليد واللغات . : . وسوف نستعرض جميع الميادين الأخرى استعراضاً عابراً . ما دامت تلتقي مع حديثنا نحن . وتعمل الحواشي ماتبقى ، ليفيد منها الذين يأتون في المستقبل .

وتتجه أفكاري وأنا أنجز هذا المشروع . إلى الأستاذ المأسوف عليه دوماً . ريجيس بلاشير ، أول من دربني في يوم بعيد من عام ١٩٥١ . في شهادة دراسات عليا . على هؤلاء الجغرافيين العرب . وأملني بتذوقهم والإفادة منهم . وقد حبوني المتعة والمنفعة المرجوتين . وأنا آدين بألف فضل لصحبتهم القديمة التي أظن أنها سوف تدوم ما دمت حياً .

أقول أيضاً كلمه أعبّر فيها عن عرفاني الجميل لمن ساعدوني :
الآنسة استريد كابيلون . والسيدات ايف باريه ، وماري فرانس بوشمور ، ودانييل سيبيل في الضرب على الآلة الكاتبة ، ثم السيدة دانييل جيليس في الفهارس ، والسيدة مرغريت سيرونفال للايقونات . والسيدة ماري لويز دوفور ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الإجتماعية اتكرمهم بقبول هذا الكتاب . . . والكتب السابقة :

باريس ، ٢٦ كانون الاول ١٩٨٦

المصادر والمراجع

نذكر هنا أسماء المؤلفات التي وردت في مصادر المجلدات الثلاثة السابقة ، مع ذلك نكرر فيما يلي ثبت المؤلفين (بالرموز) لأسباب بديهية لتيسير العودة إليها . وسوف تأتي مصادر ومراجع المجلد الرابع قبل فهارس القسم ٢–٣ مباشرة .

أبل (ف.م.) ، جغرافية فلسطين ، باريس ، جزءان ، ١٩٣٨

أبل (ف.م.) ، الدليل الأزرق لسورية وفلسطين ، باريس ، ١٩٣٢

ابستين (هـ) اصل الحيوانات الأهلية الافريقية ، نيويورك — لندن — مونيخ ، جزءان ١٩٧١ .

ابن البيطار ، جامع المفردات ، ترجمة ل . لوكلير ، باريس ، ٣ أجزاء ، ١٨٧٧ ١٨٨٣

ابن الفقية ، كتاب البلدان ، ترجمة هـ . ماسيه « بعد وفاته » (راجعها ش . بيلا) ، دمشق ، ١٩٧٣ . حافظت على ذكر ترقيم صفحات النص العربي ، الوارد في الترجمة أصلا ، لكي أوحد الاحالات مع حواشي الجزئين السابقين .

اتشيكوبار (ر . د .) وهو (ف) طيور الشمال في افريقية ، باريس ، ١٩٦٤

الادريسي ، وصف افريقية والاندلس ، طبع وترجمة ر . دوزي و م . ج . د خويه ، إعادة طبع القديم ، لايدن ، ١٩٦٨ .

الوز (ب .أ) ، مراجع فقريات العراق والبلدان المجاورة ، ج٤ ، الاسماك ،بغداد، ١٩٥٥

الياد (م.) ، الاقيان والخيميائيون ، باريس ١٩٧٧

الياد (م.) ، كتاب تاريخ الأديان ، باريس ، ١٩٥٤

اليسيف (ن.) ، نور الدين ، أمير مسلم سوري عظيم في زمن الحروب الصليبية ، دمشق ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٧ .

انستاس الكرملي (ب .) ، « نظرات في كتاب التبصر بالتجارة » . مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣ روماني ، ١٩٣٥ ، ص ٢٨٧ — ٢٩٥ .

اوغنيف (س .ا.) ، ثدييات الاتحاد السوفييتي والبلدان المجاورة ، ٣ روماني: الحيوانات اللاحمة (المفترسة) ، ترجمة انكليزية لـ ا . بيرون و ز . س . كول ، القدس ، ١٩٦٢

بدار (ف . ا.) ، كتاب الحيتان ، لندن ، ١٩٠٠

بديكر (ك .) ، فلسطين وسورية ، لا يبزيغ ، ١٨٩٣

بديكر (ك .) ، مصر والسودان ، لا يبزيغ — باريس ، ١٩١٤

بديكر (ك .) ، مصر العليا ، لا يبزيغ — لندن ، ١٨٩٩

بيراتز (س. هـ) ، كتاب الحيوانات الهندية ، الطبعة الثانية ، بمباي ، ١٩٦٥

برك (ج .) ، من الفرات إلى الاطلس ، باريس ، جزءان ، ١٩٧٨

برنتجس (ب .) Die Haustierwerdung in Orient ويتنبرغ ، ١٩٦٥

بلاشير (ر .) — شويجي (م.) — دنيزو (ش .) ، معجم عربي فرنسي انكليزي، باريس ، ١٩٦٤ (وبعدها)

بلانشار (ر .) ، انظر الجغرافية العالمية .

بلانفورد(و . ن .) ، حيوانات الهند البريطانية ، الثدييات ، لندن — كلكوتا— بمباي — برلين ، ١٨٨٨ — ١٨٩١

بلا نفورد (و . ن.) ، فارس الشرقية . تقرير رحلات لجنة الحدود الفارسية ، لندن ٢ روماني ، ١٨٧٦ .

بلانهول (كزافيه دي) ، الاسس الجغرافية لتاريخ دار الاسلام ، باريس ، ١٩٦٨

بلانهول (كزافيه دي) ، « ثور الحمل في الشرق الأدنى وفي افريقية الشمالية » . مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي ، ١٢ روماني ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٨ - ١ ٣

بلانهول (كزافيه دي) ، « خمور افغانستان وجبال هيمالايا الغربية » . مجلة جغرافية الشرق ، ١٧ روماني ، ١-٢ ، كانون الثاني - حزيران ، ١٩٧٧ ، ص ٣ - ٢٠

بلدشينو (ج.) ، ترجمة المقدسي الجزئية (انظر هذا اللفظ) ، جزءان ، اطروحة دكتوراه دور ثالث ، جامعة باريس ٣ ، ١٩٧٨

بليغفاد (هـ.) ولوينثين (ب .) ، التقصيات العلمية الدانماركية في فارس ، ٣ روماني: أسماك الخليج الفارسي ، كوبنهاكن ، ١٩٤٤ .

بولنز (ل.) ، طرق الزراعة في القرون الوسطى في كتب الفلاحة الاندلسية : التقاليد والتقنيات ، جنيف ، ١٩٧٤ .

بولي ويسونا . Real - Encyclopadie der Classissshen Altertumsw issenschaft ستوتغار ، ١٨٩٤ وبعدها .

تيسيجر (و .) ، مفازة المفاوز . مع البدو ، آخر المتبدين في جزيرة العرب الجنوبية ، ترجمة فرنسية لـ م. بوشيه — فورنيز ، باريس ، ١٩٧٨ .

جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ١و ٢ : ميكيل (ا.) ، باريس — لاهاي ، ج ١ ، طبعة ثانية ، ١٩٧٣ ج ٢ ، ١٩٧٥ .

الجغرافية العالمية ، نشرت باشراف ب . فيدال دي لا بلاش ول . غالوا ، باريس .

بلانشار (ر .) ، ج ٨ : آسية الغربية ، ١٩٢٩ ، ص ١ — ٢٣٤

كامينا دالميدا (ب .) ، ج ٥ : الدول البلطيقية ، روسيا ، ١٩٣٢

غرينار (ف .) ، ج ٨ : آسية العليا ، ١٩٢٩ ، ص ٢٣٥ — ٣٧٩

موريت (ف .) ، ج ١٢ : افريقية الاستوائية والشرقية والجنوبية ، ١٩٣٨

الحيوان ، انظر النقد

دوسو (ر .) ، الطوبوغرافية التاريخية لسوريا القديمة وسورية القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧

الدينوري ، كتاب النبات :

ا — كتاب النبات ، أبو حنيفة الدينوري ، جزء من القسم الابجدي (ز) . نشره ب. ليزين ، ابسالا — ويسبادن ، ١٩٥٣ (مع معجم ألفاظ ، ص ٢٠ — ٥٢ ، اعتمد على مراجعة مصنفات قديمة — منها مصنفات ابن البيطار وابن العوام — ومصنفات حديثة .

ب — معجم نبات أبي حنيفة الدينوري (كتاب النبات ، ص — ي) ، مأخوذ من استشهادات مصنفات متأخرة ، طبعة م . حميد الله ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

روبرتز (ت . ج .) ، ثدييات باكستان ، لندن - نونبريدج ، ١٩٧٧

سرجنت (ر . ب .) ، انظر لومبار النسيج .

سزكين (ف .) ، تاريخ التراث العربي ، ج ٣ ، ١٩٧٠

سليم علي ، وريبلي (س . د) ، كتاب طيور الهند وباكستان ، اكسفورد ١١٠ روماني ، ١٩٦٩ .

شوارتز (ب .) ، Iran in Mittelater nach den arabischen Geographen لايبزيغ ، ١٨٩٦ - ١٩٢٩ ، ٩٥٧ صفحة في ٧ أجزاء ، مع فهرس ، وجزءان ملحقان ، ستوتغار برلين ، ١٩٣٤ و ١٩٣٦ .

عزيز فكري (م .) ، القمح المصري ، القاهرة (مستخلص من مجلة اتحاد المزارعين في مصر ، الجمعية الملكية الزراعية ، رقم ٢٩٦ و ٢٩٧ ، تشرين الأول والثاني ، ١٩٣٨ .

غالب (ا .) ، الموسوعة في العلوم الطبيعية ، ذكرت من قبل في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ : تنطوي على مراجعة مصنفات قديمة وحديثة ، خاصة لمصطفى الشهابي . إلا أن اهتمامها انصب على مفردات اللغة العربية الجاري استعمالها أو العلمية ، ويبدو المنظور التاريخي ضعيفاً فيها .

غرينار (ف .) انظر الجغرافية العالمية .

غوتنر (ا.) ، « رسالة في أسماك نهر دجلة » ، حوليات ومجلة التاريخ الطبيعي ، السلسلة الرابعة ، ١٤ روماني ، ١٨٧٤ ، ص ٣٦ - ٣٨ .

فانيان (ا.) ، اضافات إلى المعاجم العربية ، الجزائر ، ١٩٢٣

فليش (هـ.) ، كتاب فقه اللغة العربية ، ج ١ : مقدمات ، علم الأصوات ، الصرف ، بيروت ، ١٩٦١

فهد(ت.) ، « العجيب في الحيوان والنبات والجماد» ، في الغريب والعجيب في دار الاسلام في القرون الوسطى . مؤتمر جمعية تقدم الدراسات الاسلامية (باريس ، ١٩٧٤) ، باريس ، ١٩٧٨

فولرز (ج.د.)، معجم اشتقاق فارسي ، تيبي ، بون ، ٣ أجزاء ، ١٨٥٥ - ١٨٦٤ (ملحق ١٨٦٧)

فيليبس (و.و.ا.) ، كتاب ثدييات سيلا ن ، سيلا ن. — لندن ، ١٩٣٥

كامينا دالميدا (ب .) ،انظر الجغرافية العالمية

كوتيير (هـ.) ، عالم الأحياء ، باريس ، ٥ أجزاء ، ١٩٢٧ — ١٩٣٠

كووك (ج .) ، جامع المصادر العربية الخاصة بافريقية العربية من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر ، باريس ، ١٩٧٥

لا ووست (هـ .) ، مفصل قانون ابن قدامة ، بيروت — دمشق ، ١٩٥٠

لوروا لا دوري (ا.) ، فلا حو نغدوك ، باريس ، جزءان ، ١٩٦٦

لوسترانج (ج.) ، أراضي الخلا فة الشرقية ، كمبريدج ، ١٩٠٥

لومبار (م.) ، دار الا سلا م في عظمتها الأولى ، باريس ، ١٩٧١

لومبار (م.) ، النسيج في دار الا سلا م ، من القرن السابع إلى القرن ١٢ ، باريس — لا هاي ، نيويورك ، « معطيات لكتابة ناريخ النسيج الا سلا مي حتى الفتح المغولي » ، مجلة الفنون الا سلا مية ، ٩ روماني — ١٦ روماني ١٩٥١

ليفي بروفنسال (ا.) ، تاريخ الا ندلس الا سلا مية ، باريس — لا بدن ، ٣ أجزاء ١٩٥٠ و ١٩٦٧ . المعجم العالمي للتاريخ الطبيعي ، باريس ، ١٣ جزء ، ١٨٤١ —١٧٤٩

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الا قاليم ، ترجمة جرئية لـ ج . بلداشينو (انظر هذا الا سم (و ا .ميكيل ، « مصر كما رآها جغرافي عربي من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلا دي : المقدسي » ، حوليات اسلا مية ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ (مجلد مخصص لا حياء ذكرى غستون وايت) ، ص ١٠٩ — ١٣٩ . انظر أيضاً جغرافية دار الا سلا م البشرية ، ج ١ ، ص ٤٨ روماني .

مورو (ف .) ، (باشراف) ، النبات ، باريس ، ١٩٦٠

موريت (ف .) ، انظر الجغرافية العالمية .

ميزيون (كزافيه) ، تحليل جغرافي حيواني لثدييات فارس ، بروكسيل ، ١٩٥٩

النقد ، ٣٧٥ — ٣٧٦ ، آب — أيلول ، ١٩٧٨ ، عدد خاص ، الحيوان .

نورمان (ج . ر .) وفريزر (ف . ش .) ، عمالقة البحر ، ترجمة فرنسية لـ ج. مونتاندون ، باريس ، ١٩٣٨

هاريسون (د.ل.) ، ثدييات جزيرة العرب ، لندن ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٤ – ١٩٧٢

هاسنجر (ج.د.) ،مسح ثدييات افغانستان ، شيكاغو ، ١٩٧٣

الهروي ، كتاب الزيارات ، دمشق ١٩٥٣ ، وترجمته لـ ج . سورديل – تومين ، دمشق ١٩٥٧

هوزيه (ج .) ، نباتات الحبوب ، باريس ، ١٨٩٦

هويه (ف .) وانشيكوبار (و . د .) ، طيور الشرقين الأدنى والأوسط ، باريس ١٩٧٠.

* * *

ثبت المؤلفين ومصنفاتهم (بالرموز)

نكرر هنا ثبت الجزء السابق مع بعض الاضافات لتيسير الرجوع إليه

اسم المؤلف	اسم المصنف	الرمز
ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الاصطخري ، أبو اسحاق	كتاب المسالك والممالك	اصط
ابراهيم بن وصيف شاه	مختصر العجائب	وص
ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي	رحلة إلى أوربة الغربية	ابرا(١)
الطرطوشي	رحلة إلى الصقالبة(١)	ابرا(ص)
احمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي ، أبو العباس	كتاب البلدان	يعق
أحمد بن عمر ابن رسته ، أبو علي	كتاب الأعلاق النفيسة	رست
أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد	رسالة	فض
أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمذاني ، ابن الفقيه	كتاب البلدان	فق
أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر	صفة الأندلس	راز
اخوان الصفاء وخلان الوفاء	رسائل	اخ
اسحق بن الحسين	كتاب آكام المرجان	اسح
تميم بن بحر المطوعي	رحلة في بلاد خاقان التغزغز (٢)	تم

(١) لأسباب تتعلق بتيسير المراجعة ، سوف نشير ، بعد الاحالة الى طبعة الحجي .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٤ .

الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود من بني همدان ، أبو محمد ، ابن الحائك أو ابن ذي الدمينة .	صفة جزيرة العرب	هم
الحسن بن أحمد (محمد) المهلبي	مقاطع من أبي الفداء	مه (ف)
	مقاطع من صلاح المنجد	مه (م)
	مقاطع من ياقوت	مه (ي)
سهراب (ابن سرابيون) مع احالات إلى طبعة فون مزيك	كتاب عجائب الاقاليم السبعة	سر
عبدالله بن احمد بن سليم الاسواني ، أبو محمد	كتاب أخبار النوبة	اسو
عبدالملك بن محمد بن اسماعيل ، أبو المنصور الثعالبي	لطائف المعارف	ثعا
عبيدالله بن أحمد ابن خرداذبه ، أبو القاسم	كتاب المسالك والممالك	خر
علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن	مروج الذهب	مس (م)
	التنبيه والاشراف	مس (ت)
علي بن محمد الشابشتي ، أبو الحسن	كتاب الديارات	شاب
عمرو بن بحر بن محجوب ، الكناني بالولاء ،	كتاب الامصار وعجائب البلدان	جا (ا)
أبو عثمان الشهير بالجاحظ	كتاب الحيوان	جا (ح)
	كتاب التبصر بالتجارة	جا (ت)
قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، البغدادي أبو الفرج	كتاب الخراج وصناعة الكتابة	قد
ماشاء الله بن سارية	كتاب الاسعار	ماش
محمد بن أحمد بن أبي البناء الشامي المقدسي البشار شمس الدين ، أبو عبد الله	أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	مقد
محمد بن أحمد بن يوسف ، أبو عبدالله ، الكاتب البلخي الخوارزمي	مفاتيح العلوم	خو (م)
محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب ، ابن النديم	الفهرست	

محمد بن حوقل البغدادي الموصلي	كتاب صورة الأرض	حو
محمد بن موسى الخوارزمي ، أبو عبد الله	صورة الأرض	خو(ص)
محمد بن يزيد السيرافي ، أبو زيد	ملحق أخبار الصين والهند	سيرا
محمد بن يوسف الوراق ، أبو عبدالله	كتاب المسالك والممالك	ر
	ترجمة جزئية للبكري لف. مونتيل	ور(م)
	ذكر في جغرافية دار الاسلام البشرية ج ٢ قسم أول ، ص ٢٨	
مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ، أبو دلف	الطريق إلى آسية	مس (ا)
	الرسالة الثانية	مس(ب)
مطهر بن طاهر المقدسي	كتاب البدء والتاريخ	مقب
المغرورون	قصة رحلتهم	مغ
يحيى بن الحكم البكري الجياني، الملقب بالغزال	رحلة إلى القسطنطينية	غز(ق)
	رحلة إلى بلاد النورمان	غز(ن)
يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي	رسائل فلسفية	كن (ر)
مجهول	أخبار الصين والهند	اخب
مجهول	تقويم قرطبة	تق
مجهول	حدود العالم	حد
مجهول	عجائب الهند	عج

* * *

القسم الأوّل

الخلفيّة التاريخيّة

الفصل الأول

التاريخ والسلطات

لاريب أن الشعور بالمصير المشترك وعقباته ورهاناته يعدّ إحدى ركائز الأدب العربي في القرون الوسطى ، في النثر في الحد الأدنى ، وفي الشعر أيضاً أحياناً . ويخضع الجغرافيون إلى هذا الإحساس ، لكن لابد من تحديد المقصود بالجغرافية في البحث الذي يهمنا : فقد كانت الجغرافية ، لاسيما في بدايتها ، مثلما قلنا من قبل ، نبذة يعثر عليها في أعمال تتناول مواضيع أخرى : مثال ذلك قصص البحارة أو تقارير السفراء ، التي ترد فيها الجغرافية بصيغة تدوين معيّن ، نعت بالجغرافي في وقت لاحق : وكانت معرفة العالم والبلدان ، على حدّ التعبير المصطلح عليه آنذاك ، تدخل عنصراً أساسيّاً في معارف توصف بالعامة ، مهيأة ليحفظها إما كتاب الدواوين في بغداد أو الرجل المثقف المطلوب منه الإلمام بحدّ أدنى من المعارف الموسوعية : وكانت الجغرافية تجتمع في مثل هذه المصنفات مع التاريخ ومبادىء الفلك والتنجيم والشريعة والفقه والأدب ذاته . إلا أن التاريخ لم يدخل بابحاثه في أي حالة من تلك الحالات ، كجزء متمم في كتب الجغرافية الصرفة .

وبداهة ، كلّ حال يتبدّل ، ويتبدّل معه اهتمامنا : فمنذ اللحظة التي تظهر فيها جغرافية تعي نفسها ومرادها ، أي جغرافية تستقطب التاريخ ، وتعتبره عنصراً ضرورياً في بحث البلدان التي تعني بها . وهذه الغاية المبيّنة على هذا النحو ، تحدد مجموعة الوثائق المعتمد عليها في القسم الأول من هذا الكتاب . لذلك سوف نميّز هنا ونفصّل حصراً ممثلي « معرفة البلدان » على طريقة إبن الفقيه أو وصف أرض مملكة الإسلام : فرائدهم اليعقوبي واساتذتهم العظام الاصطخري وابن حوقل والمقدسي(١).

التاريخ والجغرفية

يدرس الجغرافيون بلداناً تعيد ذكريات ماض قديم جداً ، يبدأ تاريخه في الحقيقة بخلق الكون . ويخالفون الموسوعيين أمثال المسعودي ، فلا يحاولون مثلهم رسم لوحة كاملة ، بل يبرزون هنا وهناك ، الرجال العظام من ملوك وفاتحين وأنبياء . بالتالي تبدو رؤيتهم اصطفائية ، وتفترض من ناحية ثانية معرفة تفاصيل الأحداث العامة في تاريخ الأرض الذي يتضح تسلسله متى ذكرت بعض الأسماء العظيمة : ويختار الجغرافي ، وهو يقوم بهذا العمل ، الطريق الثانية من الطريقين المفتوحتين أمام المؤرخ حسب ليفي ستروس ، وهما عرض كثير من الأحداث مع قليل من التعليل أوعرض قليل من الأحداث مع كثير من التعليل (٢) : بهذا النهج ، يصمم التاريخ ، بعد تعديل الجغرافية له ،

---

(١) بالمقابل ، سوف نشير في الحواشي الى المعطى المعبر عنه تعبيرا خاصا عند المؤلفين غير المختصين في الجغرافية بشكل من الأشكال . من جهة ثانية ، فحرص على تخفيف الحواشي ، فلا نحيل (الا في حالة استثنائية مثل التناقض) الى الاصطخري الذي أخذ ابن حوقل نصه وطوره .

(٢) ليفي ستروس ، الفكر المتوحش ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٣٤٧ .

على التعويض عن الزمن الكامل المحصور في أبرز أطواره اهمية ، فيكشف، أنه اعتاد أن يتجاوز الحاضر ، ويستعين باصول الزمن الأسطوري الأول (٣) .

ولعل التاريخ درج أيضاً ، دون أن يعلم ، علي ادخال الزمن بعداً رابعاً في الرقعة الأرضية المدروسة (٤) ، لأن التساؤل ، متى تناول أصلنا أي « من أين جئنا » ، يستتبع لازمة دائمة تتمثل في المعاينة الحاضرة التي تلزم بدورها المستقبل الزاماً اجبارياً . ولا يتم هذا التساؤل المزدوج هنا بنصوص فلسفية ، بل يطرح نفسه عند مشاهدة الأشياء المرئية والبلدان المجاورة والمدن المندثرة أو المحافظة على ازدهارها : بالتالي ، لايعد تاريخ الماضي وتاريخ المستقبل فقرة مروية في هذه الجغرافية ، لأنه يرتبط ارتباطاً تاماً ، مثلما تصوره ابن الفقيه بحق ، بانسجة البلدان وبلاحمها ، ويسهم بجعل الجغرافية العربية لا وصفاً جامداً ، بل رؤية ديناميكية قد تفقد قسماً كبيراً من ذاتها ، إذا خلت من يقظة الوعي الدائم لماض غابر وتحوّل حاضر ومستقبل عابر .

ويظهر التداخل الأول الأوضح من تداخلات التاريخ والجغرافية ، عندما يحاول المؤلفون أن يبيّنوا موقع دار الإسلام في تسلسل أحداث

(٣) م . الياد ، مظاهر الاسطورة ، باريس ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠ ، ٩٠ — ٩١ ، ١٦٥ — ١٦٧ . لعلنا نلاقي هنا أيضاً من خلال تسلسل الأحداث العالمية قضية الخلود ونهاية العالم المؤلفة — والخطرة نظريا — انظر بشأن هذه الفكرة ، المسعودي (م) : فقرة ١٤٢٩ — ١٤٣٨ ، المسعودي (ت) : ٢٦٣ — ٢٨٦ ، المقدسي ، ج ٢ ، ٥٤ — ٥٥ ، ٥٧ — ٦٣ ، ٦٥ وما يليها ، ١٣٤ — ١٤٥ و ج ٣ ، ١ — ١٤٢ .

(٤) خاصة عند مؤلف مثل ابن الفقيه مع لجوئه المنهجي لاخبار الموصوف من البلدن أو المدن .

الأرض وعلى خريطتها : ويعرف هؤلاء جيداً أن هذا التداخل لم يستوف، ولن يستوفي على الأرجح ، لازمان العالم ولا مكانه ، بل على النقيض ، يحتمل أن يحذو الكتّاب حذو المنظّرين ومن سبقهم من الموسوعيين، ويحلّلوا موضوع ملوك العالم الذين توزعوا على كرتنا وما زالوا يتوزعون ، ويقارنوا ، على غرار مافعل اخوان الصفاء (٥) توزيع « أقاليم الأرض » العلمي — المصطنع — بتقسيم آخر واقعي جداً ناشيء عن الحضارات والسلطات والمساحات الأرضية : وهم يقلّدون الإخوان أيضاً من ناحية أخرى ، فيذكرون مثلهم ، هنا وهناك ، في الأراضي التي خصّ بها التاريخ دار الإسلام ، أسماء ملوك يدعون افريدون ، وتبّع ، والإسكندر ، وارد شير بن بابك ، أي ممثلي العصور القديمة الوثنية أو التوراتية ، في فارس وجزيرة العرب القديمة ، نعني أنهم يكتبون تاريخاً لابد من تدوينه .

من التوراة إلى الإسلام

يبدو التاريخ ، من خلق الكون حتّى ظهور الإسلام ، توراتياً فارسياً عربياً في جوهره عندما يعيد الجغرافيون قراءته أو يكتشفونه . وتبرز هنا وهناك بلا ريب عهود أخرى يجسّدها بعض الأبطال العظام ، من امثال الاسكندر ، مع ان طابع خريطة الماضي شرقي حصرا تقريبا، يعرض هلالا خصيبا توراتيا ، تجاوره فارس في شماله الشرقي ، وجزيرة العرب قبل الاسلامية في جنوبه .

وترد في النصوص المقدسة اسماء انبياء قدامى بشروا بمجيء محمد خاتمهم ، وسوف نذكرهم مشتتين وموزعين على البلدان الموصوفة

(٥) اخوان الصفاء ، ج ١ ، ١٦٦ حيث قيل ان الاقاليم اختراع الملوك الاول الذين ارادوا ان يعرفوا ، وهم يتجولون في ربع الأرض المعمور ، معرفة حدود البلدان. بشأن هذه الاقاليم ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفصل الثاني .

في كتب الجغرافية . فالى العراق ، ينتمي دانيال الموضوع تابوته في سرير نهر السوس ، ويونس المبعوث إلى أهل نينوى وأهل الكوفة . وإبراهيم الخليل الذي طرحه النمرود كنعان في ناره ، ونوح في سفينته ومن كان معه ، وعيسى بن مريم وحواروه في مدينة تكريت ومنديله في مدينة الرها (٦) . وعدد الأنبياء المنتمين إلى اقليم الشام أكبر بكثير . فابن حوقل يسمي في بضع صفحات لوط وداود وابراهيم ومريم ويوسف ويحيي بن زكريا (٧) . ويبالغ المقدسي في اعطاء التفاصيل : فيشتق اسم دمشق من اسم دمشق بن قاني بن مالك بن ارفخشذ بن سام ، ويذكر سليمان بن داود باني تدمر وهي على مثل الكرسي من مدنه ، وأيوب في طبرية قصبة الأردن وبلد وادي كنعان ، ولوط في قرياته

(٦) سوف نلاقي عددا من هؤلاء الأنبياء فيا بعد في حديثنا عن « الجغرافية الروحية للشفاعات » (الفصل ٢) بشأن دانيال ، انظر ابن حوقل : ٢٥٥ المقدسي : ٤٠٢ آخر ٤٠٧ - ٤٠٨ ، ٤١٧ (وابن الفقيه : ١٤٣ : رسم دانيال صور الأنبياء المحفوظة في القسطنطينية) . بشأن يونان ، ابن حوقل : ٢١٧ ، المقدسي : ١٣٠ ١٣٦ ، ١٣٩ بشأن ابراهيم : ابن حوقل : ٢٤٤ - ٢٤٥ — ٢٤٥ ، ٢٧٨ ، ٢٦٧ ، المقدسي : آخر ١٢٠ — ١٢١ ، ٤٤٥ . بشأن نوح ، ابن حوقل : ٢٢٩ ، المقدسي : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٩ (اشارة الى بناء اول مركز بشري بعد الطوفن / ثمنين. بشأن عيسى بن مريم ، ابن حوقل : ٢٢٧ : أخذ الروم منديل عيسى ، لم يذكر الاصطخري شيئاً من ذلك) ، ٢٢٨ . يشار أيضاً الى وجود سليمان في فارس (ابن الفقيه : ١٢٦ ، ابن حوقل : ٢٧٨ ، بخت نصر واليهود في اصفهان (ابن حوقل : ٣٦٣ ، المقدسي : ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ج١) أهل ارمينية واذربيجان وبلدان فارس من ذرية نوح (المقدسي : ٢٦١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥) ، وحية جنة عدن في اصفهان (ابن الفقية : ٢٦٨) صخرة موسى بشروان ، قتل الغلام بقرية خزوان ، بنواحي بحيرة طبرستان (ابن خرداذبة : ١٢٣ — ١٢٤ مكرر عند المقدسي : ٤٦) .

(٧) ابن حوقل : ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٥ .

على بحيرة صغر ومرقد إبراهيم ، وبني اسرائيل في أريحا ، وجالوت وقصره في عمان وبها قبر أوريا ، وسليمان ، وموسى وعيونه في مدين على حدود جزيرة العرب (٨) . اخيراً تظل مصر دوماً البلد الذي هاجرت اليه مريم بعيسى ، وبلد موسى ويوسف الذي يقال إنه اتخذ لأهل الفيوم مجرى من النيل وزنه ليدوم لهم دخول الماء فيه ، وقد دفعته حكمته إلى بناء اهراءات تخزين الحبوب للسنين العجاف ، وايده بالتشريع فوضع اعرافاً محلية لاستيفاء ضريبة العقارات (٩) .

ونتنقل الآن إلى فارس ، ونتحدث أولاً عن مؤسسيها . فهم ينحدرون في الغالب من نوح . واطلقت اسماؤهم على بعض المدن

---

(٨) المقدسي :آخر ١٥٩ (دمشق)، ١٥٦ (تدمر)، ١٦٠ (ايوب)، ١٦١ (طبرية)، ١٧٣ و ١٧٨ (ابراهيم ولوط) ، آخر ١٧٤ (اريحا)، ١٧٥ (عمان في الحديث عن جالوت، ملك البربر الذين هاجروا باتجاه الغرب بعد موته ، انظر ابن خرداذبة : ٩١ (كرره ابن الفقيه : ٥٣ ، المسعودي (م) :فقرة ١١٠٦ ، وابن حوقل: ١٠٠ آخر ١٠٤) ، ١٧٩ (موسى . انظر أيضاً ابن حوقل : آخر ٣٢) . وقيل ان سليمان بن داود أمر الشياطين ببناء ثلاثة قصور لبلقيس احدها غمدان وكلها بصنعاء في اليمن (ابن الفقيه : ٣٥) . أخيرا لا ننسى باب ابراهيم ف الكعبة (اين حوقل : ٢٨ ، المقدسي : ٧٣ ، ذكريات اخرى لا براهيم وموسى في جزيرة العرب : المقدسي : ٦٧ اهباط حواء في جدة (جدة : ابن الفقيه : ٢٦٨) .

(٩) انظر بشأن موسى وخروج العبرانيين عن طريق « تيه بني اسرائيل » : ابن حوقل: ١٤١ ، ١٥٠ أو يقال انه دفن بمصر موسى وهرون واسباط اسرائيل ، لكن الخبر غير موجود عند الاصطخري) ، ١٥٨ ، ١٦٠ . المقدسي : ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢١١ . بشأن مريم وعيسى ، ابن حوقل : ١٥٠ (ولد عيسى بمصر ، الخبر غير وارد عند الاصطخري)، المقدسي : ١٩٣ ، ٢٠٩ . بشأن يوسف : ابن حوقل : ١٤٧ ، ١٥٠ (يوسف مدفون بمصر ، الملاحظة ذاتها بالنسبة الى الاصطخري ، المقدسي : ٦٥ (ح ك من ص ٦٤) ، ١٩٣ ، ٢٠٠ (مسجد يعقوب ويوسف) ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ . اسماء فرعون ابراهيم وفرعون موسى وفرعون يوسف عند ابن الفقيه :٢٧ — ٢٨ (ابن حوقل : ٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٤) . اسم مصر مشتق من اسم مصر بن حام بن نوح : ابن خرداذبه : ٨٠ (المقدسي : ١٩٣) .

والمناطق ، مثل همذان ، وفارس ، وارجان ، وسيراف ، ودارابجرد ، وشيراز ، وسابور ، واصطخر . . . وجاء بعدهم الأخمينيون الحذرون ، ثم الساسانيون ، ثم ظهرت الزرادشتية ، وشيدت بيوت النار . . . وخلّف جميع الملوك السابقين مباني تشهد على مرورهم على الأرض : مثل ايوان كسرى في المدائن ، وسد الشاذروان الذي بناه سابور على نهر تستر وقام بغيره من الأعمال المائية الهائلة ، وطربال اردشير في جور (١٠) . ومنذ البداية ، لوحظ في معالم التاريخ المنظور ، خلال معاينتها العامة ، امايز الجدل الشعوبي القديم ، والإدعاء بوجود تباين ثقافي داخل الامبرطورية العربية الإسلامية . اذن تبدو فارس من جهة ، وإزاءها جزيرة العرب كما كانت في دار الإسلام ، وقبلها شبه جزيرة العرب في الجاهلية ، بخاصة اليمن وسبأ ، وفيها تعاقبت ثمود ، قبيلة الأقوام البائدة مثلما تروي الأساطير ، ثم التبابعة ، ملوك الماضي ، والنّبيان هود وصالح ، والعماليق مع الفراعنة الذين يقال انهم منهم . وقد وردت اخبارهم في قصة حركة القبائل اليمنية في أثناء هجراتها الكبرى نحو الشمال (١١) .

---

(١٠) بشأن المؤسسين الذين اطلقت اسماؤهم على مدن أو مناطق ، انظر ابن الفقيه : ١٩٦ ، ٢١٨ – ٢١٩ ، المقدسي : ٣٨٥ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ (سيراف : رسمها نمرود بن كنعان ، ثم عمرها سيراف بن فارس) – ٤٢٤ . انظر أيضاً بهذا الشأن ذاته المقدسي ، ٣٧٤ (ارمينية) و ٣٧٥ (اذربيجان) . بشأن الأخمينيين والساسانيين ، ابن الفقيه ، ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢١٩ – ٢٢٠ ، ابن حوقل ، ٢٦٤ ، ٢٧٣، آخر ١٧٧ – ٢٧٩ ، ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، المقدسي، آخر ٤٢٥ – ٤٢٦ ، ٤٤٧ (ح ب) . حول اعمال هؤلاء الملوك ، ابن حوقل آخر ٢٥٢ ، ٢٧٩ ، المقدسي ، ١٢٢ . انظر أيضاً ابن الفقيه ، ١٥٨ – ١٥٩ . بشأن الدين ، ابن حوقل ، ٢٥٦ ، (المانوية) وما يلي الفصل الرابع حول بيوت النار .

(١١) انظر ابن الفقيه ، ٢٧ – ٢٨ ، ابن حوقل ، ٣٢ – ٣٨ ، ١٥٨ ، المقدسي ، ٦٧ ، ٨٤ .

ويتراءى الإسلام في جميع هؤلاء ، وتتمثل صورة الإنطلاقة الكبرى التي اندفع بها العرب وفتحوا العالم : فيصل التبابعة — اسياد بلدي الشحر وحضرموت على وجه الدقة — إلى أماكن بعيدة مثل بابل وحتى سمرقند (١٢) . لكن لنصغ إلى ما يقوله إبن حوقل (١٣) : « وكانت هذه الديار عظيمة خطيرة الملوك ملكها الفراعنة والتبابعة . ومنهم من ملك اكثر أهل الأرض في سالف الزمان ، كتبّع ، الذي مدّن مدينتي صنعاء وسمرقند ، وكان يقيم بهذه حولا وبهذه آخر . ومن أهلها فرعون إبراهيم ، وهو سنان بن علوان ، وفرعون موسى ، مصعب بن الوليد . وبعث فيها كثير من الأنبياء ،، وكان من أكرمهم نبينا صلى الله عليه وسلم » .

ويعدّ الإسكندر وجهاً بارزاً أساسياً في هذا الماضي الذي يتم احياؤه ، ويعاين ، مع تباعد الزمن ، ويعتبر تصوراً مسبقاً لتاريخ سوف يأتي في وقت لاحق . فهو نصف فاتح نصف نبي ، يتوق إلى السيطرة على جميع أنحاء الأرض ، التي خص الله رسالة الإسلام بها (١٤) . ونحن نستشفّ ذكره في اسم جميع المدن التي أسسها ، من أكبرها على ساحل مصر ، إلى بابل وما بعدها باتجاه الشرق ، بعيداً عنها . ففي مرو : أضاف ذو القرنين إلى القهندز الذي بناه طهمووث (نمرود) ،

---

(١٢) عرف المسعودي بالتبابعة في المروج ، فقرة ١٠٨٧ ، بشأن ما تبقى ، انظر ابن حوقل ٢٣ ، آخر ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٤٩٤ .

(١٣) ابن حوقل ٢٣ (هذا النص غير موجود عند الاصطخري) .

(١٤) انظر و . مونتغومري وات « الاسكندر » في م١(٢) ، مجلد ٤ ، ص ١٣٣ . بشأن الاسكندر والاسكندرية انظر ف . دي بولونياك ، « الاسكندرية » : عين العالم وتخم المجهول » ، منوعات المدرسة الفرنسية في رومة ، ٩٦ روماني(١) ، ١٩٨٤ ، ص ٤٢٥ — ٤٣٩ .

مدينة كاملة ، فتعدل عمل الملك الشرير بعمل الملك الصالح الورع . ويقال ان الإسكندر ، عند ابتنائه سور شهرستان (أصبهان = اليهودية + شهرستان) جعل فيه ثلاث مائة وخمسة وستين برجاً ، لكل ضيعة برج ، (١٥) ، ليتحصن فيه عند الفزع ويأوي اليه أهلها عند الحصار. وتغلب الأشرار ، ذلك أن نواحي اصبهان كانت في قديم الأيام ثغراً من ثغور الترك والديلم . وتحتكر ديار العرب ذي القرنين أيضاً ، إذ ملكها كالتبابعة ، ويروي البعض أنه دفن فيها (١٦) . خلاصة القول ان الإسكندر بطل تجول في العالم ، يبدو وكأنه في بلاده في ديار الإسلام العتيدة ، بل انه يبشر بها كما فعل عند منابع دجلة . وكان أول من دخل كهف الظلمات الذي يخرج منه هذا النهر ، وانطلق فيه في مغامرة تقوده إلى أراضي جديدة واقعة تحت الأرض ومجهولة قبله . لكن هنا أيضاً ، شق ذو القرنين طريقاً سوف يسلكها المسلمون بعده ، نعني مسلمة بن عبد الله فاتح تلك الرحاب (١٧) .

---

(١٥) حول المدن المسماة اسكندرية ، انظر ١ . ميكيل ، م١ (٢) م ٤ ، ١٣٦ – ١٣٧ . مدينة ذي القرنين في مصر : المقدسي ، ١٩٧ . لباقي الاسكندريات ، انظر ابن الفقيه . ٧٠ (مات ببابل وحمل الى الاسكندرية) ، ابن حوقل ٣٦٣ ، ٤٨٤ ، المقدسي ٢٩٨ . انظر أيضاً من أجل همذان ، ابن الفقيه ، ٢١٩ ، ٢٤٣ ، مسعر (ب) ، ٢٧ – ٢٨ ، بشأن نمرود وهو طمهورث الملك الشرير مع نبوخذ نصر ، وكلاهما بخلاف سليمان والاسكندر ، انظر ابن رستة ، ١٩٩ . حول مماثلة الاسكندر وذي القرنين ، انظر ش . بيلا ، كتاب التربيع ، الترجمة ، ص ٢٢ ، وف . دي بولينياك ، مقال مشار اليه ، و . مونتغومري وات ، مقال مشار اليه . بشأن التجوال خارج ديار الاسلام انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفهرس .

(١٦) الهمداني ، ١١٨ ، ابن حوقل ، ٢٣ .

(١٧) المقدسي ، ١٣٦ ، ١٤٦ (وحاشية م) . مع ذلك حوفظ على وضع البطل =

الاسلام وريث مقيم

يعتبر تصور التاريخ المسبق على هذا النحو شرقياً إلى أقصى حد ، مثلما قلنا . ولا نجد شيئاً يستحق الذكر في أقصى الغرب وفي الشمال . فنبرز جلاء البربر إلى المغرب . فبعد أن قتل داود ملكهم جالوت ، انتقلوا اليه ، ونزلوا جباله ، وكرهوا نزول المدن ، وتركوها للروم حتى افتتحها الإسلام (١٨) . وكان ملك الأندلس حين فتحت يقال له لوذريق من أهل أصبهان ، وبأصبهان سمي أهل قرطبة الإسبان . وكان في قصره بيت سري ، فيه مائدة سليمان وتيجان ملوك الأندلس القدامى ، فخالف لوذريق جميع الأعراف ، ولم يأبه للتنبؤات المتشائمة ، وفتح بابه ، فإذا فيه تصاوير العرب على خيولهم . وكانت العرب على أبواب الأندلس ، فدخلتها في السنة التي فتح فيها البيت (١٩) . ويتكرر التصور ذاته في الشمال بالنسبة إلى بيزنطة ، بخاصة إلى أتباعها غساسنة الشام . فقد جاءت احدى سفارات المسلمين الملك (جبلة بن الأيهم الغساني في الغوطة) ، ورفضت التقيد بالمراسم التي تقضي بأن تكلمه ، إجلالاً له ، عن بعد برسول ، وقالوا له ان نبيهم أخبرهم أن ثيابه

= الخارق : وحرص مسلمة بن عبد الله في دخول كهف الظلمات ، واستعد المشاعل والشموع ، فانطفات ورجع .

(١٨) ابن خرداذبة ، ٦١ – ٩٢ (ذكر من قبل في الحاشية ٨) ، ابن الفقية ، آخر ٨٣ ، المسعودي (م) ، فقرة ١١٠٧ . يشار أيضاً الى ابن الفقية ، ٧٦ : اسم تونس القديم قرطاجنة .

(١٩) ابن خرداذبة ، ٩٠ ، كرره ابن الفقية ، ٨٢ – ٨٣ (ابن رستة ، ٧٩ ، ترجمة ٨٧ ، والمصادر ، حاشية ١) . حول أحد الاكتشافات في اثناء الفتح ، انظر المقدسي ، ج ٤ ، ٨٨ .

السود لن تحمي سلالته من مصيرها المشؤوم . وهكذا أصبح الإسلام يفرض نفسه بسفاراته ، وسوف يخرج (إبن الأيهم) من دار مملكته ، وتجمع دويلات ملك الروم في مملكة عظمى واحدة (٢٠) . لكن يلاحظ أن هذه الرؤية عند مصنفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، ولو كانت بيزنطة مهددة عبر حلفائها ، (٢١) ترتبط ، فيما يبدو ، بماض سعيد ، أما المستقبل فتباشيره متباينة ، مثلما سوف نرى فيما بعد .

لكن ، لنبق بعض الوقت أيضاً في أوائل الإسلام . ففي جميع الشرق ، تذكر المدائن والبلدان بوعد التاريخ الجديد : فايلة (ويلة) على بحر القلزم واردة من قبل في القرآن ، وفي دمشق حل المسجد محل البيعة ، وذخائر الحسين بن علي محل ذخائر يوحنا المعمدان ، إذ على باب جيرون نصب رأس الحسين بن علي بالموضع الذي نصب فيه رأس يحيى بن زكريا . وأصحاب الرس مذكورون أيضاً في القرآن، ويرد اسمهم في عداد اسماء المرتفعات الجبلية في أرمينية . وشيراز مدينة فارسية ، اعيد بناؤها في الإسلام (محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج) . وتذكر مرو بيزدجرد آخر الملوك الساسانيين وبمعسكر الإسلام في أثناء الفتح . وما يزال الناس يتحدثون في قاشان عن العقارب التي حملها اليها أبو موسى الأشعري لما عجز عن فتحها .

(٢٠) ابن الفقية ، ١٤٠ — ١٤١ .

(٢١) انظر النصوص المحللة في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، بشأن هذا الموضوع.

وفي جميع أنحاء فارس ، تنافس القناطر (الجسور) المحدثة القناطر التي شيدت في الجاهلية (٢٢)

مع ذلك ، تتميز فلسطين ، دون سائر البلدان ، بجمعها على أفضل وجه تاريخ الماضي والحاضر والمستقبل . على ضوء الإيمان وفي منظور الخلاص . وقد أشرنا من قبل ، استناداً إلى تاريخ التوراة ، إلى بعض مشاهير العظماء الذين ماتزال اسماؤهم وذكراهم تتردد هنا وهناك في تلك المنطقة . ففي بيت المقدس ، تذكر بالحاح أبواب المسجد الأقصى ومصلياته إلى جانب وادي جهنم وجبل زيتا (الزيتون) ، والكتب المقدسة القديمة إلى جانب القرآن ، والعينان المقدستان سلوان (سلوام) وزمزم ، ومريم مع الصحابة ، ويسوع مع عمر (٢٣) .

فإذا فتحنا فصل اقليم الشام ، وجدنا أن المقدسي يعرض في تعداد فوضوي له مغزاه ، ما يجعل هذا الإقليم مقدساً بين سائر الأقاليم ، من أسماء آماكن وأسماء أشخاص ، مثل موضع الحشر والمسرى ،

---

(٢٢) عن ايلة ، انظر المقدسي ، آخر ١٧٨ (ترجمة ٢١٢ وحاشية ٢٧٧) . عن دمشق ، ابن حوقل ، ١٧٥ . عن اصحاب الرس ، المقدسي ، ٣٧٣ وجغرافية دار الاسلام ج٣ ، ١٨ (حاشية ٣) و ١١٩ . عن شيراز المذكورة من قبل ، ابن حوقل ٢٧٩ (جعلها اسلامية تاسيسا) . انظر الاصطخري، آخر ٧٦ – ٧٧، الذي يدقق ويقول « مدينة اسلامية ، غير قديمة ») ، المقدسي ، ٤٢٣ ،(بناها شيراز بن فارس ومصرها الاسلام) . عن مرو ، ابن حوقل ،٤٣٦ . عن قاشان ، المقدسي ، ٣٩٠ . عن القناطر ، المقدسي ، آخر ٤٤٥ . انظر أيضاً المقدسي ، ٤٢٥ (فتح ارجان عثمان بن ابي العاصي ومسجد بناه الحجاج) .

(٢٣) المقدسي ، ١٧٠ – ١٧٢ .

والأرض المقدسة ، والرباطات الفاضلة ، والثغور الجليلة ، والجبال الشريفة ، ومهاجر ابراهيم ، وديار أيوب ، ومحراب داود وبابه ، وعجائب سليمان ، وتربة اسحاق ، ومولد المسيح ومهده ، وقرية طالوت ، ومقتل جالوت ، وجب أرميا ، ومسجد أوريا ، وقبة محمد ، وصخرة موسى ، وربوة عيسى ، ومحراب زكريا ، ومعرك يحيى ، وقرى أيوب ، وقبر موسى ، وموضع لقمان ، ووادي كنعان ، ومدائن لوط ، ووقف عثمان ، وشعب اسرائيل ، وداود أيضاً ، وقبر مريم وراحيل ، اضافة إلى ما جاء في القرآن من أماكن يوم الدين ، عندما تأتي الكعبة وتستقر على الصفاة المقدسة (٢٤) . فهنا في آخر الزمان ، يتقرر مجرى التاريخ ، ويقتل عيسى الدجال على باب كنيسة اللد (٢٥) . وتكون الساهرة في بيت المقدس أرض القيامة البيضاء (٢٦) . ويخص المقدسي أرض بيت المقدس المقدسة — واصله منها ويحمل اسمها (٢٧) . — بصفحات طويلة ، وكانت في الماضي تعرف بأنهار اللبن والعسل وبالقيامة في أخر الزمان ، ويقول عنها : وحدّ القدس ، ما حول ايلياء ، إلى أربعين ميلا (حوالي ٧٦ كم) يدخل بعضها (١٢ ميلا) في البحر من جهة الغرب ، والبادية من جهة الشرق ،

(٢٤) المقدسي ، ١٥١ ، وحاشية الترجمة ، ١٤٥ — ١٥٢ .

(٢٥) المقدسي ، ١٧٦ (ترجمة٢٠٨ ، حاشية ٢٥٦). يخرج الدجال من سوق اصفهان حسب رواية اخرى : المقدسي ، ٣٩٦) وابن الفقية ، ٢٦٨) .

(٢٦) المقدسي ، ١٦٦ ، ١٧٢ (ترجمة ١٩٩ ، حاشية ٢١٧) .

(٢٧) المقدسي أو المقدسي قياساً على البيت المقدس أو بيت المقدس .

ويعتمد في كل ذلك ، في مناقشات كثيرة ، على ذكريات التوراة والقرآن والاحاديث النبوية والجغرافيه وفقه اللغة (٢٨) .

إذن يعنى التاريخ بالإسلام في الوقت الحاضر . ويستحيل أن نشير هنا ، استناداً إلى أعمال الجغرافيين ، إلى مالا يحصى من الصفات التي يتسم بها دخوله في الحياة العامة وبقاؤه فيها . لكن نستطيع في الحد الأدنى أن نميز بعض المواضيع الكبرى . ويأتي الفتح في طليعتها (٢٩) تليه تدوينات كثيرة عن الآثار البشرية العائدة إلى التاريخ الإسلامي . وأذكر لاعلى التعيين كثرة بناء المدن الجديدة ، كالكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، وسامراء ، والقاهرة وغيرها ، والمشاريع المائية ، والقصور ، ومكتبات البويهيين في فارس ، والقناطر (الجسور) وخاصة المساجد ، التي تعتبر أوضح معالم التغيير الطارىء على مصير العالم القديم ، من نيسابور إلى بيت المقدس ، ودمشق حيث ترسخ الإسلام حيال سلفيه اليهود والنصارى .(٣٠). ولم يخل هذا الوضع من بعض الإضطرابات : فالبلدان والوثائق المكتوبة تحتفظ بذكرى بعض الثورات الكبرى ، الناشئة عن

---

(٢٨) المقدسي ، آخر ١٧٣ (ترجمة ، ٢٠٢ ولوحة ٩ روماني) ، آخر ١٨٦ - ١٨٨ .

(٢٩) بشأن المدن المذكورة (انظر ما تقدم عن قاشان وابي موسي الأشعري . بشأن فتوح المناطق ، انظر مثلا من أجل اذربيجان وتخوم قزوين ، ابن الفقية ، ٢٨٠ — ٢٨٢ . ٢٨٤ .

(٣٠) بشأن المدن ، انظر ما تقدم عن شيراز التي أعيد بناؤها ثانية ، واليعقوبي ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ وما يليها ، و ٢٥٦ وما يليها ، وابن حوقل ، ١٤٦ . عن اعمال البويهيين في فارس ، المقدسي ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ — ٤٥٠ . عن القناطر ، انظر ما سبق . عن المساجد المشار اليها هنا ، ابن الفقيه ، ١٠٨ ، ابن حوقل ، ١٧٤ — ١٧٥ ، المقدسي ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ٣١٦ (وما تقدم بشأن ذخيرة الحسين ويوحنا المعمدان) .

التوتر الإجتماعي ، والميل إلى الإنفصال ، والمذاهب الدينية ، أو عنها جميعاً أحياناً . منها ثورة أحد ولاة خراسان ، والتمرد في جنوبي قزوين وأرمينية ، وبدعة بابك في أذربيجان ، والقرامطة في البحرين ، وثورة الزنج ، وهم العبيد السود الذين أخافوا بغداد (٣١) .

فالواقع أن السلطة العليا اقترنت بوجود سلطات أخرى . لكن السلطة الشرعية الوحيدة هي سلطة الخليفة، وقد كان ينظر اليها قبل كل شيء نظرة تحيي ذكرى أصولها وتبرز دوام رمزها حيال الجميع وضدهم. اذن من جهة أولى يُلَحّ على أمجاد الأمويين الغابرة في دمشق وأمجاد ولاتهم الحازمين مثل الحجاج . ومن جهة ثانية ،يُثْني على بغداد وخلفائها ، ويُشار إلى أوائل حكمهم ، بخاصة إلى هارون الرشيد ، أحد أعظم خلفائهم وإلى وزرائه البرامكة (٣٢) . ويعدد اليعقوبي في قوائم دقيقة ولاة هذا الإقليم أو ذاك مثل خراسان وسجستان ، لكن يظهر فيها مباشرة ما يعترض السلطة المركزية من صعوبات كادت تحول دون ابقاء جميع أجزاء الامبراطورية الهائلة (٣٣) في هيئة سياسية واحدة متحدة تماماً . في النهاية سوف تهيمن رؤية متوازية للوضع السياسي المجزأ في وصف بلدان دار الإسلام منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي خاصة .

---

(٣١) انظر اليعقوبي ، ٢٥٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ابن الفقيه ، ٥٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤– ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٥ – ٣١٠ ، ٣١٤ ، ابن حوقل ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ – ٢٩٦ المقدسي ، ٩٤ ، ١٩٨ ، ٤٠٦ .

(٣٢) انظر ابن الفقية ، ٢٨٢ ، ٣٢٣ – ٣٢٤ ، ابن حوقل ، آخر ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٦٨ ، المقدسي ، ٩ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٣١ – ١٣٣ ، ١٥٦، ٢٩٣ ، آخر ٤٠٩ .

(٣٣) اليعقوبي ، ٢٨٢ وما يليها ، ٢٩٥ وما يليها .

البلدان والسلطات

أجمعت الآراء على النظرية التي تقضي بأن تدير سلطة وحيدة شؤون دار الإسلام في جميع أراضيها . لكن برزت الخلافات في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وانصبت على تحديد من يتولى هذه الصلاحيات العليا . وكان الخليفة العباسي في بغداد على رأس الدولة . إلا أن بني أمية في الأندلس نازعوه على السلطة ، وهم الأبعدون عنه لحسن الحظ . ونازعه عليها أيضاً الفاطميون في القاهرة ، وهم الأقربون منه والطماعون . لكن ، في الغرب ، كان الأمويون مضطرين أن يقاوموا ضغوط ممالك النصارى من الشمال ، فاقتصرت أطماعهم على المغرب المتاخم لهم تقريباً : مثل سبته وناحية فاس (٣٤) . أما الفاطميون ، فاخطر منهم بكثير ، وقد بدأت مغامرتهم في هذا المغرب ذاته ، وحالفها الظفر في القاهرة (٣٥) ، ثم شرعت تمتد من مقر الخلافة الجديدة المناوئة لخلافة بغداد ، إلى أماكن أبعد من مصر ، بفرض سلطتهم أو محاولة فرضها عل ساحل جزيرة العرب وعلى اقليم الشام الجنوبي وبالدعوة في كرمان ومكران وحتى في وادي مهران (٣٦) .

---

(٣٤) ابن الفقية ، ٨٨ ، اليعقوبي ، ٣٥٤ — ٣٥٥ ، ابن حوقل ، ٧٨ — ٧٩ آخر ١٠٩ — ١١١ ، المقدسي ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٣٥) ابن حوقل ، ٧١ ، ٧٨ — ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٤٣ (مع انتقاد غير متوقع للفاطميين : انظر المرجع ذاته ، ١٥٣ ، الذي يعطي الأسباب على الأغلب ، وجغرافية دار الاسلام ج١ ، ٣٠٠) ، ١٤٦ ، آخر ٢٠٠ — ٢٠١ ، المقدسي ، ٩ ، ١٩٣ ، ١٩٧ وما يليها ، ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ (حاشية ب) .

(٣٦) ابن حوقل ، ٣١٠ ، المقدسي ، ١٠٤ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٤٨٥ (وحاشية ج) .

وتعتمد هذه السلطات الثلاث العليا — أو التي تدعي أنها عليا — في بغداد والقاهرة وقرطبة ، اعتماداً أسياسياً — بالنسبة إلى الأوليين — على عدد كبير جداً من السلطات المحلية ، التي تمثل ركائز لأطماعهم تتفاوت طاعتها لهم ، وتحوي دعاة لقضيتهم وابطالا في نزاعاتهم ، يتباين ثباتهم . وتفرض الثقافة العامة آنذاك وحرص الجغرافيين على ربط وصف الأماكن بحقبة ازدهارها في الماضي ، ذكر الأسر العريقة التي صنعت التاريخ هنا وهناك . لكن لايهتم أحد بتحديد التواريخ ولا بالقول إذا كان الحدث انقضى أم لا ، أو يخطؤون بالتواريخ مثلما فعل ابن الفقيه ، الذي أخفى أنه نقل عن القدماء ، وجزم أن مدينة وليلة (فولوبيلس) غالب عليها المعتزلة ،وأن عميدهم اليوم اسحاق بن محمد بن عبد الحميد . هذا ماكتبه حوالي ٢٦٠ هـ / ٦٠٣ م : بينما توفي اسحاق المذكور سنة ١٦٢ هـ / ٨٠٨ م (٣٧) .

لكن لابأس . فالأصل استعراض مجموعة مذهلة من البلدان والسلالات مع مطالعة صفحات الكتاب . وفي هذه الناحية ذاتها ، اكتشف المقدسي فكرة من أفكاره الرئيسية ، نعني أن النزوع إلى الإستقلال السياسي الذاتي شبه الناجز يقترن دوماً بشكل من الأشكال بوضع غريب ناشيء عن الجغرافية نفسها (٣٨) . لذلك قامت في الجهات الغربية

(٣٧) ابن الفقية ، ٨٤ و د . اوستاش ، ادريس بن ادريس في م١ (٢) ج٣ ، ١٠٥٨ .

(٣٨) انظر بشأن اكبر هذه الكيانات الأرضية الاقليم ، وبالنسبة للوحدات الصغرى أيضاً ، جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٣٢٤ — ٣٢٥ و ١ . ميكيل ، الامبراطورية العربية الاسلامية (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) في مفهوم الامبراطورية باشراف م . دوفيرجية ، باريس ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ . سوف نرجع فيما بعد (الفصل السادس) الى هذه التقسيمات .

امارات كبرى ، منها الإدريسيون في فاس ، والرستميون في تاهرت ، والأغالبة في تونس . وقد ذكروا جميعاً في سياق وصف الأحداث التي رافقت تأسيس سلالاتهم والحديث عن عظمتها وانهزاماتهاأيضاً (٣٩) . ومتى اجتيزت مصر التي حكمها الطولونيون ردحاً من الزمن ، يبدو الحمدانيون في حلب والجزيرة وملكهم العظيم سيف الدولة . وقد حنق عليهم إبن حوقل لضعف مقاومتهم الروم في الشمال ، وشدة مقاومتهم فاطمي القاهرة المفضلين لديه في الجنوب (٤٠) .

ويكثر الجغرافيون ، الشرقيون ولادة ونزعة ، في بغداد وما بعدها باتجاه الشرق ، من اعطاء تفاصيل الخريطة السياسية القديمة والمعاصرة لهم ، ويخلطون الماضي والحاضر أحياناً . ولايقتصرون على العرض العام اقليماً اقليماً على غرار المقدسي (٤١) ، بل يتهافتون على التاريخ متى سنحت الفرصة لهم . فتاريخ سلالة من السلالات المحلية لايعثر عليه في لوائح الملوك أوفي الحديث عن عهودهم فقط ، بل أيضاً في أحد الإجراءات الإدارية ، وتأسيس أحد المباني ، وصيانة الطرق ومراقبتها وهنا يلعب البويهيون الدور الأول . فقد اعلنوا

---

(٣٩) اليعقوبي ، ٣٤٧ وما يليها ، ٣٥٣ وما يليها ، ٣٥٧ — ٣٥٨ ابن الفقية ٧٩ — ٨١ ، ابن حوقل ، ٨٠ — ٨١ ، المقدسي ، ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٤٠) ابن حوقل ، آخر ٣ — ٤ — ١٨ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ — ٢٢٦ ، المقدسي ، ١٨٩ ، ٣٧٥ . عن الزيريين خلفاء الأغالبة ، انظر ابن حوقل ، ٧٨ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٧ . يلاحظ ضعف الاهتمام بطولونيي مصر (اليعقوبي ، ٣٧١ — ٣٧٢ ، ابن حوقل ، ١٤٦ ، المقدسي ، ١٦٢ ، ١٤٦ . . اشارة واحدة عن الدولة كدولة ، ابن حوقل ١٥٣ (تدوين نقص عند الاصطخري) .

(٤١) بعنوان الولايات في اغلب الأحيان .

ارتباطهم ظاهرياً بخليفة بغداد ، لكنهم فرضوا عليه وصايتهم ، ولم يتخلوا عن سلطتهم ، مباشرة أو عن طريق عملائهم ، في موطنهم الأصلي أي الديلم ، جنوبي بحر قزوين ، وفي الجبال وفي خوزستان وفارس وكرمان . ودعي لهم على المنابر في أوقات الصلاة ، في اليمن والهند وحتى في الصين . وهم ملوك عتاة — بجميع معاني هذا اللفظ — ومنظمو السلم المدني القساة ، ورجال في القتال ، وبناة ثابتون على اشادة القصور وقباب المدافن والقناطر والقلاع والمكتبات (٤٢) .

اخيراً ، ظهرت سلالات أخرى في مشرق دار الإسلام ، حول مرتفعات خراسان التي تعتبر السيطرة عليها رهاناً رئيسياً في ستراتيجية السياسة والتجارة . ويأتي الطاهريون في الطليعة ، وهم ولاة بغداد ، الذين لا يعزلون من مناصبهم ويتوارثونها ، وهم حكام عقلاء أيضاً (٤٣) . وسوف يدوم حكمهم نصف قرن تقريباً ، حتى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣م ، قبل أن يأخذ محلهم الصّفاريون (٤٤) الذين أسسو سلالة حقيقية في سجستان ، واحتفظوا بها حتى منتصف القرن السادس الهجري / الثاني

---

(٤٢) ابن حوقل ، ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، المقدسي ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ (حاشية ك) ، ٤٣٤ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ و(حاشية ١) ٤٤٧ (حاشية ب)، ٤٤٨ ، ٤٤٩ — ٤٥٠ (وحاشية ب) ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ (ح ٥٠) ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٨٥ (و حاشية د) ٤٨٧ (حم) .

(٤٣) اليعقوبي ، ٣٥٧ وما يليها ، ابن الفقية ، ٣١١ ٣١٢ ، ابن حوقل ، ٣٤٣ ، آخر ٤٦٧ ، ٥٥٥ ، المقدسي ، ١٦٤ ، ٣٣٢ .

(٤٤) اليعقوبي ، ٣٥٧ ٣٥٣ ، ابن الفقية ، ٣١٢ ٣١٣ ، ابن حوقل آخر ٢٥٦ ، ٣١٥ . ٤١٥ ، ٤١٤ ٤٢٥ ، آخر ٤٣١ ، المقدسي ، آخر ٣٥٥ ٣٥٦ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٣٧) وحاشية ب . ، ٤٦٤ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ .

عشر الميلادي . ثم توسعوا باتجاه فارس وخوزستان وكرمان وافغانستان وخراسان . واصطدموا ، خاصة في الشمال ، بملوك آخرين ، لعلهم أعظم ملوك تلك المناطق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : نعني السامانيين « امراء خراسان » ، « المخلصين لأمير المؤمنين » ، لكنهم في الحقيقة « ملوك المشرق » ، وعواهل حقيقيون — ومستنيرون — في بلاد واسعة تشمل القوس الشمالية الشرقية من أراضي دار الإسلام . وقد أثنى ابن حوقل والمقدسي بلا تحفظ تقريباً على السامانيين .فحدائق سمرقند وبخارى وقصورهما بهية وكثيرة . ونضالهم دائم ضد أعدائهم وجيرانهم ، لاسيما البويهيون على تخوم قزوين الجنوبية . فبنوا أمجاد هم عليه ، ووصل اشعاعهم إلى حبرون التي مولوا فيها مأوى . واعتمدوا على مشورة معاونين ماهرين(٤٥) .

ويكتمل هذا النظام الهرمي في تولي السلطات ، من الخلفاء إلى الإمارات المحلية ،في أدنى القاعدة ، بعدد كبير من السلالات المحلية ، منها المؤقت ومنها ما يدوم بعض الوقت . انظر مثلا وضع جزيرة العرب (٤٦) عند إبن حوقل . أما اليعقوبي ، فيشير إلى وجود مملكة في شمالي فارس ، تعيش على هامش مملكة الإسلام ، لم يزل ملكها

(٤٥) ابن الفقية ، آخر ٣١٢ ٣١٣ ، ابن حوقل ، ٣٨٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٧ ، آخر ٤٦٧ ٤٦٤–٤٦٩ ، ٤٨٣ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، المقدسي ، ٦ (حاشية ١ ، انظر الترجمة ١٨ ، حاشية ٢٥) ، ٩ (حاشية ب الترجمة ، ٢٧ ، حاشية ٦٩)، ١٧٣ (حاشية د) ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٣٣٧ (وحاشية ب) ، ٣٣٨ (وحاشية ت) ، ٣٣٩ (وحاشية د و ح) ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، آخر ٣٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ (حاشية يو) ، ٤٩٣ (حاشية وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ٨٨ — ٩١ ، ١٥١ — ١٥٢

(٤٦) ابن حوقل ، ٢٣ — ٢٧ ، المقدسي ، ١٠٤ .

يسمى الأصبهبذ (قائد الجيش) ، كان يكتب إلى الخلفاء من جبل جيلان اصبهبذ خراسان ، موالي امير المؤمنين ، لايقول مولى أمير المؤمنين ، وهو اللقب المتوقع من أحد أتباع الخليفة (٤٧). ونلاحظ أماير استقلال ذاتي محلي مماثلة في المغرب ، في نطاق العصيان البربري(٤٨) ويذكر ابن الفقيه الترك في قزوين ، ومحاولة الخلافة الشيعية جنوبي قزوين(٤٩) . وفي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، دقق ابن حوقل والمقدسي في الخريطة السياسية ، خاصة في الجهة الشرقية (٥٠) . فتميزت البلدان الممتدة من أذربيجان إلى أرمينية المسيحية ، اضافة إلى جبل القبق المجاور ، بنزوع طبيعي لايمكن كبحه إلى أي نير خارجي لايحتمل(٥١) . وكلما اتجهنا إلى الشرق ، نحو البلدان الواقعة على ساحل بحر قزوين ، المسماة جيلان وطبرستان وجرجان ، وجدنا فيها جملة امارات تعتمد على « ألف قلعة » ولكل قلعة الضيعة والضيعتان ، وكلها أي الإمارات والقلاع لاتؤدي ما عليها من مال الا عندما تريد(٥٢) .

وعلى تخوم دار الإسلام ،التي تلاصق بلاد الهند ، تمثل بلدان نهر مهران وسهوب مكران سلطنات لم تعتنق الإسلام بعد ، أو اعتنقته

---

(٤٧) اليعقوبي ، ٢٧٧ ، ابن الفقية ، ٣٠٥ — ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

(٤٨) اليعقوبي ، ٣٤٣ — ٣٤٦ ، ٣٥٢ — ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ابن الفقية ، ٨٠ .

(٤٩) ابن الفقية ، ٢٨٠ ، ٣١١ — ٣١٣ .

(٥٠) انظر مع ذلك عن المغرب ، ابن حوقل ، ٦٧ — ١٠٧ واماكن متفرقة .

(٥١) ابن حوقل . ٣٣١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ — ٣٤٨ . عن امارات جبل القبق على حدود دار الاسلام . انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٥٩ — ٢٦٩ .

(٥٢) ابن حوقل ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، المقدسي ، ٣٧١ (حاشية س من ٣٧٠) تذكر امارة لا تطيع الا العلويين في اليمن .

سلاطينها أحياناً ، وأعلنوا بزهو بين الذهب والفيلة ، تبعيتهم النظرية الصرفة للفاطمي أو للعباسي :وفي الحالة الأخيرة تارة للخليفة وطوراً لحاميه البويهي (٥٣) . وقد اقتطعت أسرة محمد الياس لها امارة في واحات كرمان من ناحية الغرب ، وبقيت مدة من الزمن تابعة لسلطة السامانيين في خراسان لتسهل عليها مقاومة الضغوط البويهية القادمة من فارس (٥٤) .

وتبدو باقي الأصقاع على المستوى ذاته : فهنا وهناك ، تسود سلطات تقوم بنفسها (٥٥) . ولا نتحدث عن الأمراء الأتراك الصغار على حدود الدويلات السامانية الشمالية من جهة وادي نهر سيحون (سير داريا)(٥٦) بل نشير إلى فرغانة التي وصلت سلطة أسيادها حتى سمرقند ، ودامت بعض الوقت (٥٧)، وخاصة إلى بلدان الأفغان (٥٨) . فهنا في الباميان ، يقيم ملك حقيقي يحمل لقب شير الباميان . والوضع في الأماكن الأخرى شبيه بهذا الوضع :فالجوزجان ، عمل آل أفرغون،

---

(٥٣) ابن حوقل ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ — ٣٢٥ ، المقدسي ، ٤٨٤ — ٤٨٥ (وحاشيةج)

(٥٤) ابن حوقل ، ٣١٥ ، ٤٢٤ ، المقدسي ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ .
انظر س . ١ . بوسورث ، آل الياس في م١ (٢) ج٣ ، ١١٨٥ .

(٥٥) استعمل تعبير يقوم بنفسه الوارد عند المقدسي ، ٤١٤ في حديثه عن احدى مدن خوزستان .

(٥٦) المقدسي ، ٢٧٥ .

(٥٧) ابن حوقل ، ٤٦٨ ، ٤٩٨ ، المقدسي ، ٢٧٩ .

(٥٨) فيما يتعلق بما يلي ، انظر ابن حوقل ، ٤٢٤ ، ٤٤٣ — ٤٤٤ ، آخر ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، المقدسي ، ٣٤ ، ٣٥ (حاشية ح) ، ٧٤ ، ١٧٣ (حاشية د) ، ٢٩٥ (حاشية ١) ، ٣٠٩ ، ٣٣٧ (وحاشية ب) .

واقعة بين مرو وبلخ على تخوم خراسان ، وتبدو الشاهية في كابل وغزنة تقليدية لا يستحقها الملك إلا إذا عقدت له في كابل ، ولها أطماع بالهند المجاورة ، أما الغور ، فإنها دار الكفر وإنما تذكر في دار الإسلام لأن فيها مسلمين ، ويؤخذ منها الرقيق بالقوة . اخيراً غرج الشار ، والغرج هي الجبال والشار هو الملك ، فتفسيره جبال الملك بين الباميان ومرو : وهي بلاد أمينة ، شارها حكيم جداً ، تصل عطاياه إلى مكة وتجتمع في حبرون مع هبات السامانيين .

السلطة : من الشك إلى زوال الوهم ومن زوال الوهم إلى القلق

لم تمنع تجزئة السلطة قيام مجتمع اسلامي على اراضي مملكة الإسلام ، حول رمز الخلافة . وسوف تتاح لنا الفرصة لكي نحيا هذا الواقع ونتحسس هذا الشعور الجماعي في الأحداث على غرار الجغرافيين ، يوماً بعد يوم ، ومرحلة اثر مرحلة . لكن لم يعد الوضع بعيداً عن القلق . فقد توارثوا نظرية سياسية ، افترضت من بدايتها أن السلطة البشرية لاتخلد ، ولم تخطئها حتى عظمة الخلافة العباسية في أول عهدها ، بل زادتها رواجاً في زمن الإضطرابات في أيام ابن حوقل والمقدسي .

ولنبدأ من البداية ، ولنعد إلى هذه النظرية التي لانستغني عنها هنا . فقدامة يرسيها على مبدأ وحدة السلطة : فلابد أن ينطبق على المجتمع البشري ، ما ينطبق على العالم الذي لا يشارك الله أحداً في حكمه إياه . إذن الملك ، بالتعريف ، شخصية فريدة ، ترتكز سلطتها على الدين ، يجب عليها أن تعتمد على العدل ، لاعلى الإكراه ، وعلى النخبة ، لاعلى الجماهير . فمتى تقررت هذه المقدمات المنطقية ، تستطيع الآليات الإجتماعية أن تعمل عملها بسرعة : فالإنسان مخلوق محدود وفاني ،

لكنه ذكي يستخدم مواهبه ليخترع أو يتقن ، لكي يؤمّن على وجه أفضل فافضل متطلباته التي تسمى غذاءاً ولباساً ومسكناً وأود حياة . وتنشأ عن تنوع استجاباته آلاف ضروب الأنشطة في الزراعة والحرف ، وكلها تؤدي إلى نشوء المدن والفنون والتجارة والعملة (٥٩) .

وهذا إنشاء ذهني كامل ، لكنه خيالي طبعاً . ويفتش المسعودي(٦٠) عن أسباب الشك في تاريخ الشعوب وتقاليدها . فالحكمة تقضي أن يصغي المرء « إلى الأموات يتكلمون نيابة عن الأموات » إلا أن هذا المبدأ السليم . طبقته فارس وحدها ، فيما يبدو ، وهو فعلا حالة شاذة تثبت القاعدة : « وهم يراعون من تواريخ ما سلف ما لا يراعيه غيرهم لأن الفرس تدين بما وصفنا قولا وفعلا، وغيرهم من الناس يقول ذلك قولا ولا ينقاد اليه فعلا ، لتباين أهل الشرائع » .

والعبرة واضحة في الدين ، خاصة بالنسبة إلى الإسلام ، الذي يحارب المعتقدات الأخرى مهما كان رأي المسعودي ، ويتعرض إلى انشقاقات داخلية . ويأسف المقدسي وخاصة ابن حوقل لهذا الوضع . ولا يلام التاريخ ، مثلما نلاحظ ، ويكمن الخطأ في سوء استعماله أو في نسيانه . ولا يحسم اخوان الصفا الموضوع تماماً . فالتاريخ في اعتقادهم يخضع إلى قرانات الكواكب بمددها المتفاوتة بين يوم واحد والف سنة . وإلى تأثيرها في التمتع بالصحة أو حدوث الأمراض ، وفي كثرة الخيرات أو القحط ، وفي تغيير الدول والسلالات :

---

(٥٩) قدامة ، م ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ وعلى وجه العموم الكتاب الثامن من عمله .

(٦٠) المسعودي (م) ، فقرة ٥٦٢ ، ٩٨٦ — ٩٩٠ .

« اعلم ان الاحداث على الارض تتقلب وتتغير ، فتتطوّر عند البشر من عصر الى عصر ، ومن امة الى امة ، ومن بلد الى بلد . واعلم ايضا ان لكل دولة زمنا محدّداً لتنشأ ،وذروة ترتفع اليها ، ونهاية تنقرض فيها : ومتى بلغت مسارها ، وانقضى عمرها حتى آخره ، عندئذ وبسرعة ، يبدأ الانحطاط والانحدار ، ويظهر عند رعاياها السر والذكر » (٦١) :

إذن مجرى التاريخ دوري ، لايجر شؤماً عظيماً . ويكفي انتظار أيام أسعد متى اقتضت (٦١) الحال . وهذا هو الوضع في الوقت الحاضر ، الذي يبدو فيه الأفق مكفهراً، ويتوقع أن يصبح مدلهماً في وقتقريب ، وقد أعقب زوال الوهم الشك، وبدت أمايره وما يفوقها عند اليعقوبي . فصحيح أن كتابه يعطي انطباعاً آخر لأول وهلة ، وينظم العالم من بغداد ، ويشيد إلى أقصى حد بهذه العاصمة : فهي مدينة مدورة . مبانيها فخمة ، انشأتها ارادة خليفة واحد أوحد ، ونسقتها على صورة العالم ، حول عرش قائم في وسطها ، وجعلت شوارعها وحماماتها لاتحصى ، وهي ، باختصار ، مدينة مثالية ، قررت النجوم خلودها لاسعاد العالم أجمع (٦٢) .

وهذه الفكرة قديمة ، شاعت من أيام بابل ، وتهافت عليها مؤلفون غير اليعقوبي (٦٣) . لكن من لايلحظ الشبهة الكامنة في هذا

---

(٦١) اخوان الصفاء ، ١ روماني ، ١٥٤ — ١٥٥ ، ١٨٠ — ١٨١ .

(٦٢) اليعقوبي ، ٢٣٣ — ٢٣٧ .

(٦٣) قدامة ، ٢٣٤ ، ابن الفقية ، ٦ ، المسعودي (م) فقرة ٣٩٥ ، ٥٢٢ ، =

الإلحاح ؟لأن جميع هذه الأمور تُقال وتُكتب ضد مجرى التاريخ الحقيقي ، بدءاً من اليعقوبي نفسه ، الذي تقيد ، في جميع الأحوال ، بفلسفة عصره التي تتلخص في القول المأثور : « هكذا تزول أمجاد الدنيا » وعلق على إنهيار آل طاهر ولاة خراسان ، فقال: « ومع انقضاء الدول ، تزول الأمور ، وتتغير الأحوال ، ويقع العجز ، ويظهر التقصير » (٦٤) . من جهة أخرى ، يعرف اليعقوبي جيداً جداً قوى التفكك التي تنتاب امبراطورية بغداد ، ويتشبث بتمجيد عظمتها خلافاً لكل ما يجري : فجده الثالث اشترك في مؤامرة هلك فيها ، وآلت إلى انفصال أدارسة المغرب . ولا يسعه أيضاً أن يتجاهل ثورة الأمويين في الأندلس ، ولا استقلال آل طولون شبه الكامل في مصر ، وقد تغنى بجلال ملكهم الغابر (٦٥) . ويحذو حذو اليعقوبي سائر المؤلفين ، ويشيدون ببغداد بعد مرور مايقرب من قرنين على تأسيسها ويثنون على بلد العراق ، كما لو أن شيئاً جديداً لم يحدث بعد : فهم يكذبون على أنفسهم ، وإن كانوا احياناً يكشفون زاوية من زوايا الستار . مثالهم إبن الفقيه ، الذي يكرر الأخبار القديمة وينبىء المدن بدمارها في المستقبل ، يقول : « إنا نجد في الكتب أن الأرض كلها ستخرب قبل الشام بأربعين سنة . فمكة يخربها الحبشة ، والمدينة الجوع ، والبصرة الغرق ، الكوفة الترك ، والجبال تخرب بالصواعق والرواجف ، وخراسان بأصناف العذاب ، والري يغلب عليها الديلمية

= ٩٨٦ – ٩٨٧ ، المسعودي (ت) ، ٥٥ وما يليها ، الثعالبي ، ١٠٥ – ١٠٧ ، الجاحظ مناقب الترك ، ١٦ .

(٦٤) اليعقوبي ، ٣٠٨

(٦٥) انظر رثاء هذه السلالة ، اليعقوبي ، ٣٧١ – ٣٧٢ .

والطبرية ، وأما أرمينية وأذربيجان ، فيهلكان بسنابك الخيل من الجيوش ، وبالصواعق والرواجف ، ويلقون من الشدة ما لا يلقاه غيرهم . وأما حلوان فتهالك بهلاك زوراء » (٦٦) . وتقترن الإشادة بالماضي السعيد ، عند المسعودي ، بالتحسر على الحاضر إذا ما حدث في دار الإسلام لم يكن سوى سيرورة أقدم قانون بشرى في الدنيا ، نعني أن الإنحطاط يعقب حتماً الأزدهار والمجد ، وقد علق المسعودي على الثورات في الصين فقال : « وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته ، كتغلب ملوك الطوائف ، حين قتل الإسكندر بن فيلبوس المقدوني دارا بن دارا ملك فارس ، وكنحو ما نحن في سبيله في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثماية » (٦٧) .

ساور الشك الجغرافيين ، ثم زال الوهم من أذهانهم ، وظهر القلق الصريح . ثم خطوا خطوتهم الأخيرة في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وأولهم المقدسي . فقد دون اثر وفاة عضد الدولة البويهي أبيات شعر انشده اياها بعض الخدم ، وذكروا أنهم سمعوها

---

(٦٦) ابن الفقية ، ٢٥٧ — ٢٥٨ . عوضاً عن « ترك » ، يمكن ان نقرأ أيضاً « تورك » . الجبال اي الهضبة الايرانية ، الري رهاجس القديمة قرب موقع طهران الحالية . وحلوان مدينة واقعة على الحدود العراقية الايرانية . وخراب الزوراء وارد في مخطوط آخر (انظر ترجمة ماسيه — بيلا ، ٣١١ ، حاشية ١ : « زلزلة تقلبها رأسا على عقب ») .

(٦٧) المسعودي (م) فقرة ٣٣٥ . انظر أيضاً الفقرات ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٩٥ ، ٥٠٤ (هامة وفيها عوامل انحطاط تقاومها فارس على وجه أفضل ، في منظور الذهنية المبينة من قبل) ، المسعودي (ت) ، ٥٠٧ . بشأن الاشادة بالحقب السعيدة ، انظر المسعودي (م) ، ج٧ ٢٧٥ وما يليها ، ج ٨ ، ١١٣ وما يليها ، وقبل ذلك ، ابن خرداذبة ، ٩٩ — ١٠١ .

من فم السلطان عند موته ، تضمنت أن لابقاء للملوك في الدنيا ، وأن مصيرهم اخلاء قصورهم الفخمة والإنتقال إلى حفرة اللحد (٦٨) . وهذه الفكرة تافهة بحد ذاتها . لكنها ترسخت في الأذهان على ضوء أحداث الساعة . فكل شيء ينطلق في هذه الحالة نوعاً ما ، من الوضع الذي أوجدته الخلافة الجديدة في القاهرة والمقدسي يتعاطف معها — وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنه من هذه الناحية (٦٩) — ويعلن صراحة أن « بغداد نسخت إلى يوم الدين » (٧٠) . لكن لم يقل أحد أن مصير القاهرة نفسها آيل أيضاً إلى الإنحطاط في يوم من الأيام . وبالمقابل ، يلح الجغرافيون على بغداد ، ويكيلون لها المديح (٧١) الذي يبدو شكلياً ويمتزج بشعور الأسى على الماضي، لأن معاينة الإنحطاط تلي مباشرة الإطراء : فالعراق وبغداد « في كل يوم إلى الوراء » ، ويخشى أن تعود بغداد في وقت قريب كسامراء ، منافستها العابرة ، يسود فيها « كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان » (٧٢) . وتجري جميع هذه الأمور في ظل تهديد مزدوج، يتمثل في خطر خارجي آت من بيزنطية التي تضغط على المناطق الشمالية وعلى شواطىء اقليم الشام، وفي خطر مرض داخلي ناجم عن قلة اهتمام المسلمين بلغتهم وثقافتهم (٧٣) .

---

(٦٨) المقدسي ، آخر ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٦٩) المقدسي ، الترجمة ، ص ٢٥ — ٢٨ روماني .

(٧٠) المقدسي ، ١٩٣ ، بشأن مدح القاهرة ، المرجع ذاته ، و ١٩٧ ، ١٩٩

(٧١) المقدسي ، ١١٣ ، ١١٩ — ١٢٠ .

(٧٢) المقدسي ، آخر ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٣١ .

(٧٣) المقدسي ، ١٥٣ ، آخر ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٧ (الرباطات الساحلية دليل على الخطر القادم من البحر) ، ١٨٣ ، آخر ١٨٨ — ١٨٦ (ترجمة ، ٢٣٨ ، حاشية ١١٧) .

جغرافي مصمم على التشاؤم : ابن حوقل

وسوف يتخذ الخطران المنوه بهما شكلا بارزاً جداً عند ابن حوقل. ويبدو تشاؤم المقدسي أدق وأضعف نهجاً : فهل تأثر البحث بتنظيم المصنف الإجمالي وبدقة تفاصيله وتوزيعه إلى أقاليم ، كما لو أن عرض مملكة الإسلام في خريطة وفي كتاب ككتلة متماسكة مقسمة تقسيماً عقلانياً ، يثبت ويقنع أن وحدة دار الإسلام « ما تزال قائمة » في الحقيقة والواقع ؟ مهما يكن ، يتميز كتاب ابن حوقل بالحماس الضعيف والسياق الحر ، ممايسمح بسهولة بانتهاز فرص التباكي التي لاتحصى . فغارات الروم زادت عند ابن حوقل عما كانت عند المقدسي . ومن يطالع كتاب صورة الأرض ، يشعر كما لو أنه يقرأ خريطة الإجتياحات والخراب . فالبكاء على مآسي الدهر (٧٤) لاينتهي فيه ، ويستغرق صفحات طوالا .ويبدو اقليما الشام والجزيرة أراضي مدمرة ، ويرد اسم القائد البيزنطي نقفور فوقاس في النص (٧٥) ، وتدخل جيوشه البلاد . فخربت الأرياف التي عاد اليها البدو ، وأحرقت المدن ، وأستعبد الأهالي، وفرضت ضريبة تدفع للغزاة ، ودمرت القرى . فتوقفت القوافل عن المجيء ، وفقدت مناطق واسعة ، وانتشر النصارى في جميع الأماكن تقريباً.وفي هذا القدر ما يكفي من تعداد الكوارث الأليم .

لكن هل تقع المسؤولية برمتها على الروم؟ ان المشهد حزين في الأقاليم الأخرى حتى لو كانت بعيدة . ف « ليس بجميع الأندلس مسجد خراب » (٧٦) ، وهي زاهية . وقد أشرنا إلى فخامة سمرقند وبخارى

---

(٧٤) ابن حوقل ، ١٧٦ – ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٠ ، آخر ٢١٢ – ٤١٣ ، ٢٢٣ ، آخر ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

(٧٥) ابن حوقل ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٧ .

(٧٦) ابن حوقل ، ١٩٦ .

أو إلى روعة طبيعة جبال أذربيجان(٧٧) . مقابل ذلك ، ينتشر الخراب بكثرة من العراق إلى أفغانستان (٧٨) . إذن ما هو مصدر الشر ؟ الحكومة بلا أدنى شك . فالولاة العقلاء ، أقران ساماني خراسان ، سعداء ونادرون : فهم يرزقون جندهم وعملاءهم بانتظام ، ويجبون ضرائب عادلة ، ويسهرون على وجود الإدارة الحكومية على كافة اراضي أقاليمهم ، حرصاً على الطاعة والتضامن عند الرعية وعلى بقاء العرش(٧٩) هؤلاء الولاة سعداء وحكماء ، فما هو وضع الآخرين ؟

تنتهز السلطات المحلية الفرصة عندما تسوء أحوال الدولة في القمة . ولنفتح سجل النقد . ففي صقلية ، انهال ابن حوقل باللوم على المعلمين ، وحوالي قزوين على التجار والنساخ والجيش ، وفي أفغانستان على الجيش أيضاً (٨٠) ، وفي جميع الأماكن تقريباً على الولاة (٨١) الذين يتسببون بتدني الأخلاق العامة . وعلى هذا الأساس ، علل وضع احدى المدن الواقعة على التخوم التركية ، وقال عنها : « قد شربت من الإختلال شربة ليست بالقوية » (٨٢) . وعليه أيضاً ، قال أيضاً في كتاب صورة الأرض ان نشأة الميل إلى الجغرافية عنده ارتبطت باضطراره إلى التغرب في أعقاب « تواصل الشدائد على أهل

---

(٧٧) ابن حوقل ، ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٧٨) ابن حوقل ، آخر ٢٤١ — ٢٤٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٨٢ — ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٥٠ .

(٧٩) ابن حوقل ، ٤٦٩ — ٤٧٢ .

(٨٠) ابن حوقل ، ١٢٦ — ١٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٤٥٠ .

(٨١) انظر صيغا اخرى . ابن حوقل ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٨٢ ، ٤٢٥ ، ٤٩٦ (نموذج سعيد في خراسان) .

(٨٢) ابن حوقل ، ٣٨٣ .

المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان»(٨٣) . وحدث كل ذلك في جو من الكوارث الطبيعية ، كما لو أن المصائب تقترن بالأذية .

والحقيقة أن أفدح أخطاء السلطة أن تتدخل في النظام القائم . وينطبق هذا النقد ، الجارح في الغالب ، على الحمدانيين في الشام والجزيرة ، وعلى البويهين في الجبال ، وأحياناً على الفاطميين أنفسهم في القاهرة (٨٤) رغم مايلقون فيها من تأييد . ونلح كثيراً على الحمدانيين ، لأن الروم الذين ينازعونهم على أقليم الشام الشمالي وعلى قطاعات كاملة من الجزيرة ، لايعللون جميع الأحداث . فقد استطاعوا أن يتسللوا بسهولة إلى هذه المنطقة وأن يتجولوا في جميع أنحائها ، لأن الحمدانيين اثروا باعمالهم مباشرة أو بنتائجها الثانوية ، فافقروا البلاد ، وجعلوا أهلها انهزاميين وخائري القوى وفاسدين . ويخص ابن حوقل هذه الناحية (٨٥) بحوالي ٣٠ صفحة ، احصيت فيها مالا يقل عن ٢٨ مناسبة ، أنّب فيها ، سواء بكلمة أو بجمل طويلة ، انحطاط الأخلاق والتهاون العامين عند السلاطين وعند العامة .

ولنستعرض هذا الثبت ، لنختار منه بعض الصيغ المقنعة جداً .

ونذكر التقريع أولا :

---

(٨٣) ابن حوقل ، ٣ .

(٨٤) ابن حوقل ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٧٧ وما يلي ، ٣٦١ .
انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٤٢٥ بشأن سجستان ، حول الموضوع العام : « في الماضي عندما كانت الأمور تسير جيداً » .

(٨٥) ابن حوقل ، ١٧٦ — ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ — ٢٢٣ .

« ويجوارها من السلاطين والبوادي والقروم والملوك من قد أشغله يومه عن غده ، وحرامه وحطامه عما أوجب الله تعالى والسياسة والرياسة عليه. فهو يلاحظ مافي أيدي تجار بلده ، ويشتمل عليه ملك رعيته ، ليوقع الحيلة على أخذه ، والشبكة على صيده ، والفخ على مانصب له . . . لأن سلاطينهم أكثر ما يظهر منهم الرغبة فيهاارادة التسمية على منابرها ، والدعاء لهم بها ، دون مايجب لأهل الثغور على الملوك من تقوية بالمال والكراع والرجال والعدة والعتاد . . . لأنهم بالجمع والمنع في شغل عن صلاح الرعايا وتأمل الرزايا » (٨٦) .

وننتقل الآن إلى الرثاء : « ثم هادن الروم أهله خوفاً مما علق ببلاد المسلمين من الخذلان وهلاك السلطان وقلة الإيمان ... وكان الناس في وقتنا هذا في شغل باحزانهم عن ذكر سلطانهم وهلاك أديانهم . . . غير أن للاسلام فيما عليه نفوس أهله وقلوبهم ، شأناً في انتشار الكلمة وفساد الحال ، وكثرة العناد والخلاف والإشتغال بطلبه يعضهم لبعض ، ما خلا به الروم سربهم ، فطالت أيديهم إلى ماكانت مغلولة عنه وأطماعهم محسومة منه » (٨٧) .

وتتبدل اللهجة في أماكن أخرى ، ويتناول الحديث التنبؤ باشكال متنوعة ، أو التثبت من حدوثه عندما يتحقق : « وهلك . . . من المتاع والجهاز . . . مافي اعادته على وجهه إرماص لمن سمعه ، ووهن على الإسلام وأهله » [. . .]وقد أقام كثير من أهلها (اللاذقية) فيما

---

(٨٦) ابن حوقل ، ١٨٠ ، ٢٢٣ .

(٨٧) ابن حوقل ، آخر ١٧٨ – ١٧٩ ، ٢٠١ (انظر الترجمة المختلفة قليلا ، جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٧٣) .

رضوا منهم فيه بالجزية . . . وأظنهم بآخرة صائرين إلى النصرانية أنفة من ذلة الجزية ، ورغبة مع حذق المؤونة في العزّ والراحة[....] وقد اختلت ، وتغيرت ، وانتقلت املاكها (الجزيرة) ، وباد رجالها وأربابها ، وتنصر أبطالها » (٨٨) .

ويتراءى الرثاء في بعض الأحيان الأخرى في وصف لوحة طبيعية . مثال ذلك الإشارة إلى أحد الأرياف المهجور : « والاوسل نزه ، كثير الشجر والتمر والخضر والفواكه والكروم . . . فهو الآن كالبور مع شرف حال هذا الاوسل ومكانه من الريع ، إذا زرع . وفي أعاليه ساقية نسقي شيئاً من الأرض إذا زرعت بماء تافه ترب » (٨٩) . وفيما عدا ذلك تحل اللعنة : « لولا مامنعوا (أهل راس العين) به من الجور الغالب ، والبلاء الفادح ، ممن لارحم الله منهم شعرة ، ولا ترك من نسلهم أحداً ، ليجعلهم آية وعبرة » (٩٠) .

أخيراً يستعين ابن حوقل بالآيات القرآنية وبالشعر : فساءت النيات ، وفتحت الأعمال ، وارتفعت البركات ، ولج الملوك في الإستئثار بالأموال ، والعامة في المعاصي على الإضرار . فهلك العباد وتلاشت البلاد ، وانقطع الجهاد . وبذلك نطق وحيه تعالى إذ يقول : وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها . . . فهلكت وهلكوا ، وذهبت وذهبوا ، وكأنهم لم يقطنوها ، وعفوا وكأنهم لم يسكنوها ، حتى لصاروا كما قال جلّ ذكره : هل تحس منهم من أحد أو تسمع

---

(٨٨) ابن حوقل ، ١٧٧ ، آخر ١٨٨ ، ٢١٠ .

(٨٩) ابن حوقل ، ٢٢٠ ، مستشهد به في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٤٩ .

(٩٠) ابن حوقل ، ٢٢١ .

لهم ركزا . . . فلم يبق (ناصر دولة) لهم باقية وبلدهم في كل قتر وزاوية . ولم يبق لهم ثاغية ولا راغية حتى أكلتهم الشدائد، وصبت عليهم بشؤمه المصائب ، فهم كما قال بعض سكان مكة من خزاعة عند خروجهم منها :

كأن لم يكن بين الحجوين إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر (٩١)

فهل في حديثنا عن التشاؤم شيء من المغالاة ؟ فنحن نلاحظ ، في الحد الادنى ، أن جميع عناصر هذا التشاؤم متوفرة في الوضع . فالشك بالذات قائم . والفوضى بأس السلطة نفسها متفشية (٩٢) . والإنغماس بالملذات سائد مع ماينجم عنه من لامبالاة . والردة حاصلة (٩٣) مع أنها أسوأ مايمكن أن يطرأ لأنها تقضي على الإيمان . ولاريب أن دار الإسلام ظلت تمثل كلا يحيا حياة مبنية على عقيدة مشتركة رغم تباين المذاهب ، وعلى اللغة العربية ، كلغة تفاهم من أقصى أراضيها إلى إقصاها . إلا أن ابن حوقل يرى أن زوال هذا الكل ، كهيئة سياسية موحدة ، هو الفترة الكبرى الواجب استخلاصها من التاريخ ، فقيام ثلاث خلافات في القاهرة وقرطبة وبغداد حدث

---

(٩١) ابن حوقل ، ١٨٢ (القرآن ١٧ / ١٧) ، ١٨٤ ، القرآن ١٩ / ٩٨ : وارد في جغرافية دار الاسلام . ج٢ ، ٤٧٤ .

(٩٢) يتجلى قانون الانحطاط المحتوم في جميع هذه الأحداث ، لا سيما ان التذكير بالحقب السعيدة السابقة مستمر ، هو والاشارة الى السلوك الجيد في البدء لدى الحكام الذين أصبحوا اشراراً في وقت لاحق : انظر مثلا ابن حوقل ، ١٨١ — ١٨٤ ، آخر ٢٠٩ — ٢١٠ ، ٢١٣ .

(٩٣) تقف ضد الاسلام عند المرتدين الذين يحملون السلاح ، ابن حوقل ، ٢١١ ، ٢١٣ .

يتجاوز حدود المقبول . وسوف يقضي المغول عليها جميعاً بعد انقضاء مايزيد قليلا عن قرنين ونصف . وقد يكون تشاؤم ابن حوقل سابقاً لأوانه ، لكنه واضح بجلاء ، أوحى له بالقدح والذم اللذين اختتم بهما هذا الفصل : « لاغياث ولا ناصر ، ومن للمسلمين بناظر ، والملك فيهم هامل شاغر . والملك جماع مناع ، والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتي بالباطل على مايبلع ، ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً . والفقيه ذئب أدرع ، في كل بلية يشرع ، وبكل ريح يسري ويقلع ، والتاجر فاجر مسقع ، لايعاف حراماً ولا مطمعاً . والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة . والأملاك مغتصبة مصطلمة . والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة » (٩٤) .

* * *

(٩٤) ابن حوقل ، ٢٠٥ (وارد في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٧٤) :
مناع : يمكن فهم هذا اللفظ مثلما فهمته من قبل ، في مقطع آخر : مشغول دوماً بالمحافظة على نفسه .

الفصل الثاني

دار الإسلام

المذاهب ، الشعائر ، الأماكن

لاشي يوضح التنوع في دار الإسلام مثل الإزدهار الخارق في مواقفها وتصرفاتها ومعتقداتها ، في ظل قول لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله (١) . ولابد لنا أن نبدي رأساً ملاحظتين . الملاحظة الأولى نهجية مرتبطة بعجزنا عن الدخول في هذه المتاهة ، إذ يقتضي بحثها افراد كتاب كامل لهذه الناحية ، وتوفر اختصاصي بالدراسات الكلاسيكية (٢) . لكن يجوز لنا ، في الحد الأدنى ،ان نبرز بعض

(١) سواء ختم الوحي بالنبي (موقف السنة) أو استمر في ذريته (آله) مدة من الزمن أو ما يزال مستمرا (موقف بعض مذاهب الشيعة) . وهنالك رأي خاص لكن محدود تقول به الغرابية ، وتظن ان الملاك جبريل اخطأ بنقل الوحي الى محمد لا الى علي ، لأنهما يشبهان احدهما الآخر كما يشبه الغراب الغراب (وفي رواية اخرى ان جبريل مرتد عصا الأمر الالهي عن سابق عمد وتصميم) : انظر . غولزيهر ، م ١(٢) ، ج٣ ، ١١٢٤ — ١١٢٥ .

(٢) يجب على هذا الاختصاصي ان يستعين بأسماء المذاهب والطوائف الواردة بدقة في معجم الألفاظ في مكتبة الجغرافيين العرب : انظر مايلي الحاشية ٤٦ .

الخطوط الرئيسة التي يسهل استخلاصها أصلا : أما الملاحظة الثانية ، فلها علاقة بأهمية العرض الديني عند مؤلفي الجغرافية : فالمصنفون درجوا على تناوله ، بل توسعوا به ، حتى جاء المقدسي فجعله أحد العناصر المحتومة في وصفه دار الإسلام اقليماً اقليماً . وأضاف اليه تدوينات متفرقة هنا وهناك وفصلا خاصاً في مدخل كتابه احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (٣) .

الاعتدال في الاسلام

تعد الجغرافية في العصور الوسطى ، كالتاريخ(٤)، في أغلب الأحيان ، شيعيةً في جوهرها ، عند ممثليها الكبار (٥) : إلا أن هذا التعريف لايستبعد البنة السنة، أعني السنة الحكيمة . فصحيح أن هذه الجغرافية تعد أدباً متوسطاً من جهة اصل مؤلفيها الإجتماعي وثقافتهم ، لكنها متوسطة أيضاً بتعقل يدفعها غريزياً إلى رفض الغلو عند السنة والشيعة على حد سواء . ونود أن نحاول توضيح هذه الفكرة بشيء من الدقة :

فالنهج العام ظاهر عند ابن حوقل والمقدسي (٦) . فابن حوقل

---

(٣) المقدسي ، ٣٧ — ٤٣ .

(٤) انظر شارل بيلا ، اللغة والأدب العربيان ، الطبعة الثانية ، باريس ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٧ (تاريخ في جوهره معادي للامويين) و ف . روزنتال تاريخ نتاج المؤرخين المسلمين ، لا يدن ، ١٩٦٨ ، ص ٦٠ — ٦٥ ، واماكن اخرى .

(٥) انظر بشأن اليعقوبي ، ترجمة وايت ، ١١ روماني (وحاشية ٢ — ٣) . عن ابن الفقيه والمقدسي ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج١ ، ٣٠٠ — ٣٠٢ و ٣١٦ — ٣٢٢ ، والمقدسي ، ترجمة ، ٢٠ روماني و ٢٦ . عن باقي المؤلفين ، جغرافيين أو غيرهم ،جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، اماكن متفرقة .

(٦) ابن حوقل ، ٣٥٠ — ٣٥١ ، المقدسي ، ٣٨ ، ٣٩ .

يذكر في سياق حديثه عن حقوق الذميين على جانبي الحدود مايلي : « قال عليه السلام : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يقوم بذمتهم ادناهم ، وهم حرب على من سواهم . فلو أن رجلا من أفناء المسلمين ، رضيته فئة منهم ، وهم في ثغر ، وأمرّته عليهم ، واختبرته ، فوجدته عالماً عدلا ، وحكم فيه على طريق النظر والمصلحة ، لهم ولمن وراءهم من المسلمين ، بشروط رآها فيمن جاوره من دور الحرب ، لم يكن لأحد نقضها شطراً وبطراً وذهاباً بالإعجاب إلى ما ليس للإنسان فعله » . أما المقدسي فيروي أن جماعة من المرجئة احتجت بخبر النبي صلعم : يفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، إثنتين وسبعين في الجنة ، وواحدة في النار : وقال بقية الأئمة لامصيب إلا من وافق الحق ، وهم صنف واحد ، واحتجوا بالخبر الآخر اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة بالجنّة . وهذا أشهر إلا أن الأول أصح اسناداً . وهذا يعني أن المسلمين بأكثريتهم الساحقة على الصراط المستقيم . وتدعم أحاديث أخرى هذا الرأي ، منها « ألا ترى أن أصحاب النبي صلعم قد اختلفوا ، وجعل اختلافهم رحمة . وقال بأيهم اقتديتم اهتديتم . وقال سفيان بن عيينه إن الله تعالى لايعذب أحداً على مااختلف عليه العلماء » (٧) .

وقبل أن نعرف من ينبغي أن نستبعد ، نبقى لحظة أخرى مع المقدسي . فهو يرى أن كل شيء مبني على الرباعيات (٨) ذات الأصل الكوني والإلهي ، لأن لها نظائر في الأصول ، وهي أن خلق الأنسان

---

(٧) عن سفيان ، انظر الذهبي ، ج١ ، ٢٦٢ — ٢٦٥ ، بشأن هذا التأويل ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ٦٥ ، ح ٣٥ .

(٨) المقدسي ، ٤٢ — ٤٣ ، بعد العدول عن السباعيات (المقدسي ، آخر ٤١) .

من أربع ، والطبائع أربع ، والفصول أربعة ، وأركان الكعبة أربعة ، والقرآن نزل أربعة أرباع ، أخيراً الكتب الأربعة والأشهر الحرم الأربعة تدل أن الأمر على هذا المنوال في كل مايتعلق بالدين ، حتى لو أعلن المؤلف ، بسذاجة حقيقية أو متكلفة « أن الرباعيات اتفقت وما تقصدناها » (٩) .

وهكذا نشأت بانتظام في المذاهب : أربعة في الفقه ، وأربعة في الكلام ، واربعة في الحكم فيهما أي في الفقه والكلام ، وأربعة في الحديث ، وأربعة مندرسة ، وأربعة رستاقية ، وأربعة غلب عليها أربعة ، وتشكلت رباعيات أيضاً في الألقاب التي تستعمل أحياناً للدلالة عليها ، وهي أربعة ممتدحة ، وأربعة منكورة ، وأربعة مختلف فيها ، وأربعة معناها واحد ، وأربعة يميزها النحارير ، وأربعة لقب بها أهل الحديث . وأصل مذاهب المسلمين كلها متشعبة من أربع ، وأصحاب القراءات القرآنية على أربعة أقسام (أربعة حروف ضمن الأقسام الأربعة الكبرى) . وعدلوا في أربع ، في النقاط المختلفة عليها في هذا المذهب أو ذاك أو فيها جميعاً بلا تمييز ، أو في نقاط يقبلها أحد المذاهب من أقوال المذاهب الأخرى . والصفات ونواحي الضعف أربع هنا وهناك . أخيراً الأديان الذين هم ذمة أربعة (١٠) .

يلاحظ إذن أن تصنيف المقدسي العام رباعي ، دون أن يعلن عنه صراحة ، وحتى دون أن يشعر به ، أو ثنائي إذا شئنا ، مع مضاعفة

---

(٩) المقدسي ، ٤٢ .

(١٠) المقدسي ، ٣٧ – ٤١ .

كل فئة . فمن جهة يعرض الإيمان حسبما يرى في مجمل تعاليم الإسلام أو في كل مذهب . . وتعرض المذاهب ذاتها من جهة أخرى ، وتخفف الخلافات فيما بينها أو تضخم .ويتضح بجلاء أن آخر الحالات المعروضة ، أي التمييز بين المذاهب ، تنطوي على توزيع رباعي لأنها تنظر إلى مجالات التعاليم (فقه ، كلام ، حديث) ، والأطر الجغرافية (الأرياف على أنها مقابل المدن ضمناً) ، والتاريخ (طوائف أصلية أو فرعية أو مندرسة) ، وتقويمها (بلقبها أحياناً) . ويؤول جميع ذلك إلى إعتبار شتى التعاليم نسبية مهما كانت ، وإلى إدراج نسبيتها في نظام الكون الطبيعي حسب مشيئة الله .

لكن مهما كان المرء متسامحاً ، فلا بد له أن يختار في وقت من الأوقات . ويعلق المقدسي على خبر النبي المذكور سابقاً ، فيعلن : « إن صح الخبر الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثاني فالناجية السواد الأعظم » (١١) . وبذا نرى أن هذا المؤلف يتدبر أمره لكي تشمل النجاة في جميع الأحوال جميع المسلمين أو كلهم تقريباً . وقوله اللاحق أهم من تعليقه السابق : « ولم أر السواد الأعظم إلا من أربعة مذاهب أبي حنيفة في المشرق ، وأصحاب مالك بالمغرب ، وأصحاب الشافعي بالشاش وخزائن نيسابور ، وأصحاب الحديث بالشام وأقور والرحاب(١٢)،وبقية الأقاليم ممتزجون،قد بينت ذلك في شرح الأقاليم من هذا الكتاب » .

وتعبير النجاة الجماعية واضح في الحالة الأولى : فمعظم المسلمين ينجون لأنهم عقلانيون ضمناً ، ولا يستثنى إلا الشيعة الباطنية ، من

(١١) المقدسي ، ٣٩ . عن الباطنيين ، انظر ما يلي .

(١٢) اقور تعني الجزيرة ، والرحاب مجمل البلاد الجبلية الواقعية بين ارمينية واذربيجان .

أنصار الباطن . والإستنتاج حاسم أيضاً في الحالة الثانية ، والنجاة حاصلة ، لكن بطرق غير مباشرة : تؤدي دراسة بعض البلدان وحتى بعض الأوساط الخاصة إلى التثبت من أن النجاة محصورة بالذين يتفقون حيثما كانوا . وقطعاً يبدو هذا الإتفاق نادراً جداً ،فيشار إل إبراز احتمال نجاحه . وهكذا يرفض المقدسي الصيغة العامة الواردة في الحالة الأولى ، ويحتج بالإيحاءات المحلية ، ليصون الناحية الأساسية وقد يقال ، وهذا القول حق في ظاهره ،إنه يتخذ موقفاً يبين فيه أن الأكثرية الضرورية لنجاة المسلمين لا تتوفر دوماً في دار الإسلام .لكن يعوض المقدسي عما يفوته على المستوى الواقعي، بما يكسبه على مستوى الإيمان والعظة . ويعطي أمثلة تظل قطعاً أمثلة لما ينبغي عمله. فكلام المرء لايتغير ، سواء جلس يكتب مؤرخاً، أم اعتلى المنبر داعية . وماينبغي عمله هو : اتحدوا تنجوا . ويذهل المرء إلى حد كبير لهذا الإستنتاج ، لأنه يصدر عن مؤلف التزم بالتشيع — دون أن يذكره إلا ليشجب تطرفه — وأبدى تعلقاً قوياً جداً بأبي حنيفة (١٣) ولا يزعم أنه يفرضه على أحد :

بعض اصحاب الاصالة : الصوفيون

لاريب البتة أن كل ما يحيد عن الأكثرية والإعتدال في الإسلام ، سواء صدر عن السنة أو الشيعة ، يثير الإهتمام أحياناً ، والتحفظ حتماً . لنستمع إلى ما يقوله ابن حوقل (١٤) : « وقد انتحل قوم من الفرس ديانات ومذاهب ، خرجوا بها عن المذاهب المشهورة ، فدعوا إليها ،

(١٣) انظر المقدسي ، ترجمة ٢٠ روماني . سنعود اليه فيما يلي .

(١٤) ابن حوقل ، ٢٩٤ .

وانتصبوا لها ، ولو أن إهمال ذكرهم وترك وصفهم ضرب من العصبية على الدين ، وباب من التحامل عليه ، لاضربت عنه » . بالتالي صلب الحلاج حياً حتى مات (١٥)باسم الموضوعية التي يتحلى بها المؤمن الحق ،والمعرفة الضرورية للتمييز بين الخير والشر تمييزاً سليماً . ووصف بلا حقد ولا مراعاة ، سيره نحو حلول روح الله فيه وصلبه . ولم يذكر الحلاج وحده ، بل سميت معه وجوه شهيرة (١٦) . وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الحلاج أثار قضية انتماء الصوفية ، كاملة برمتها ، إلى الإسلام الحقيقي ، وأبان أن الفضول الذي أثارته مغالاته نفسها تتناسب في ظني مع قلق المؤمن المتوسط .

وهكذا يصبح ابن حوقل قدوة ، ولا يصاغ موقفه دوما صياغة واضحة تماماً ، لكنه يتكرر وينقل من كتاب إلى كتاب : ويبدو الزهاد والصوفيون الآخرون المذكورون في النصوص الجغرافية ، وكأنهم أناس غريبو الأطوار . مثال ذلك طائفة جبل اللكام (أمانوس) ، شمالي انطاكية ، المؤلفة من سبعين عضواً ، بلا زيادة ولا نقصان ، يحل فيها عضو جديد محل العضو القديم المتوفى (١٧) . والمثال الآخر أيضاً ، خلق من العبّاد ، في جبل عظيم بين بلاد قومس ونيسابور ، يأكلون من ثماره (١٨) ، ويأوون إلى كهوف . ويشار إلى أن الجبل مع ملاجئه يمثل في الحالتين عالماً منزوياً ، هامشياً ، وسرياً (١٩) . وسوف يشعر المقدسي بهذه الناحية هو وغيره من المؤلفين .

---

(١٥) ولد في البيضاء ، في فارس ، انظر ابن حوقل ، ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(١٦) انظر فيما يلي عن مواقف ابن حوقل من التشيع المتطرف .

(١٧) الثعالبي ، ٩٥ .

(١٨) المسعودي (ت) ، ٧٤ .

(١٩) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٣ ، ٥٩ وما يليها .

ويهتمّ المقدسي بالصوفية الشعبية ، ويدرسها واقعياً ، باستثناء سفيان الثوري ، الذي يعتبر أحد ممثلي التصوف ، وإن كان بالأحرى محدثاً وعالم كلام (٢٠) . ففي شيراز وجد كثيراً من الصوفية(٢١) . وكتب (٢٢) عن صوفية خوزستان مايلي : « ولما دخلت السوس ، قصدت الجامع في طلب شيخ ، اسمع منه شيئاً من الحديث ، وعليّ جبة صوف قبرصية وفوطة بصرية . فدفعت إلى مجلس الصوفية فلما قربت منهم ،لم يشكوا الا وأنا صوفي (٢٣) . فتلقوني بالترحيب والتحية ، وأجلسوني فيما بينهم . وجعلوا يسألوني ثم بعثوا رجلا ، فأتى بطعام ، فجعلت انقبض عن الأكل . وما كنت صحبت هذه الطائفة من قبل ذلك . فجعلوا يتعجبون من انقباضي وعدولي عن رسومهم . وقد كنت أحب أن أخالط هذه الطائفة ، وأعرف طريقتهم ، وأعلم حقائقهم . فقلت في نفسي هذا وقتك ، هذا موضع أنت فيه مجهول . فانبسطت اليهم ، فكشفت ثوب الحياء عن وجهي . فمرة كنت اراسلهم ، وكرة أزعق معهم ، وتارة أقرأ لهم القصائد ، وأخرج معهم إلى الرباطات ، وأذهب إلى الدعوات ، حتى والله حللت من قلوبهم وقلوب أهل البلد بحيث لا غاية ، ووقع لي بها اسم وقصدني الزوار ، وحملت إلي الثياب ، والصرر وكنت آخذه ، وأدفعه اليهم برمته في الوقت ، لأني كنت غنياً ، في وسطي نفقة وافرة ، وأنا كل يوم في دعوة وأي

---

(٢٠) المقدسي ، ١٣٠ ، ١٨٨ (حول تلامذته في الجولان ، انظر مايلي) ، ٣٩٥ ، و هـ . لا ووست ، الانشقاقات في الاسلام ، الطبعة الثانية ، باريس ، ١٩٥٧ ، ص ٨٧

(٢١) المقدسي ، ٤٣٠ .

(٢٢) المقدسي ، ٤١٥ .

(٢٣) بسبب الصوف اشارتهم المميزة التي اعطتهم اسمهم .

دعوة . وكانوا يظنون أني أفعله زهداً ، وجعل الناس يتمسحون بي ، ويذيعون خبري ، ويقولون : لم نر فقيراً قط أفضل من هذا حتى إذا وقفت على سرائرهم (٢٤) ، وعرفت ماأردت منهم ، هربت منهم في سجو ليلة ، فاصبحت وقد قطعت أرضاً . فبينما أنا يوماً بالبصرة ، وعليّ ثوبي ، وغلام يتبعني ، إذ رآني رجل منهم ، فوقف ينظر إلي شبه المتعجب ، فجزت عليه شبه المنكر » .

يصف هذا النص صميم الواقع ، ويقص حكاية صغيرة وسيرة حياة لهما اهميتهما، لكنه يمثل وثيقة هامة مزدوجة عن النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . فنحن هنا في طور انتقالي بين تجارب أوائل الصوفية الفردية أو المقتصرة على فئات صغيرة من التلامذة حول معلمهم ،وبين الحركة الكبرى التي نظمت الأخويات الحقيقية ، بفروعها ، التي ازدهرت بدءاً من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على وجه التخصيص (٢٥) . لكن أخذ تطور

---

(٢٤) سرائر جمع سريرة ،تلميحا الى الباطنية الصوفية . يمكن العثور على اسماء اخرى : فيما تقدم ، سمي صوفيو الا مانوس الابدال ، وهي مرتبة من مراتب الصوفية (انظر هـ . ج . كيسلنغ ، م١ (٢) ج ١ ، ٩٧ — ٩٨) . هنا يمكن تدوين : طائفة ، طريقة . بشأن المعنى الدقيق ، انظر ل . ماسينيون ، م١ ج٤ ، ٧٠٠) ، حقائق (مبادىء ، حرفياً حقائق سرية ، انظر و . مديلونغ ، م(٢)، ج ٣، ٧٤ و ل . غرديه، المرجع ذاته ، ٧٨) ، زعق (رتل ، حرفياً صرخ ، انظر م ج ع ج٤ ، ٢٥٤ صاح ، مطبقة في الذكر عند الصوفيين ، رباط (دير ، لكن ربما كان ماوى ، دعوة (صلاة أو مأدبة جماعية : انظر دوزي ، ج١ ، ٤٤٥ — ٤٤٦ ،) فقير (متعبد ، حرفيا : فقير امام الله : ك . ١ نظامي ، م١ (٢) ، ج٢ ،٧٧٦) .

(٢٥) انظر د . سورديل الاسلام في القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٧٩ ، ص ١١٠ . ١١٤

هام يظهر في الذهنيات منذ الآن : فقد أصبح بوسع الصوفية ، حتى لو تكونت من تجارب فردية ، أن تنتشر ، بشهرتها في الحد الأدنى ، بين فئات واسعة من السكان . في الوقت ذاته ، صارت الأحكام المسبقة الأولية النظرية عليها ، مدعوة إلى التلاشي ، وفي النهاية سوف توافق عليها السنة المتشددة ذاتها .

إلا أن هذه الموافقة لن تشمل مباركة تطرف التصوف . فالإسلام المتوسط ، السني وغير السني ، أي إسلام الأكثرية ،سوف يبقى في منتصف الطريق مثل المقدسي ، نعني أنه يهتم ويحبذ المثل الأعلى الصوفي في الأخلاق والطهارة ، لكنه يناوىء كل مايحيد عن الإيمان المقبول عند الجماعة المؤمنة بكاملها . وتدعونا نصوص أخرى من المقدسي إلى الإشتراك في هذا الشعور . فقد كتب المقدسي (٢٦) في مدخل كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم مايلي ، عندما كان يذكر القارىء بالمواقف الحرجة التي مر بها ، لكي يجمع مادة كتابه ، وقال : « . . . وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقانيين (٢٧) الثرائد ، ومع النواتي العصائد . . . وصحبت عباد جبل لبنان » . إذن هؤلاء فئات هامشية ، لا يجتمع بها الإنسان إلا استثناءاً وفي أماكن نائية ، كالبحر ، والمبنى المغلق المحجوز ، والجبل . وسوف يذكر الجبل مرة أخرى في مصنفه (٢٨) : « . . . وجبل لبنان كثير الأشجار والثمار

---

(٢٦) المقدسي ، ٤٤ ، وترجمة ١١١ (وحاشية ٨ — ١٠) .

(٢٧) حرفيا : أهل الخانقاه (قطعا من مذهب الكرمية) . انظر ج . شبي ، م١(٢) ج٤ ، ١٠٥٧ ، والمقدسي ، ١٧٩ ، ١٨٢ ز ، ٢٣٨ ، ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ .

(٢٨) المقدسي ، ١٨٨ و ١٨٩ (حاشية١) .

المباحة .. وفيه عيون ضعيفة ، يتعبد عندها أقوام ، قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش ، يأكلون من تلك المباحات ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي (٢٩) والمرسين وغير ذلك . وقد قلوا به . أما جبل الجولان . . . وبه لقيت أبا إسحاق البلوطي (٣٠) في أربعين رجلا ، لباسهم الصوف ، ولهم مسجد يجتمعون فيه . ورايته فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوري . ورأيت تقوتهم بالبلوط ، ثمرة على مقدار التمر ، يفلق ويحلى ثم يطحن . وثم شعير بري يخلط به» .

حالات خاصة جدا : الخوارج ، والمعتزلة ، والمرجئة

ظن الخوارج (٣١) بعض الوقت أنهم يمثلون طائفة ثالثة في الإسلام مع السنة والشيعة ، واسترعوا إنتباه الجعرافيين إلى حد كبير . ويلاحظ أن وجودهم يقتصر اليوم على بعض الفئات المستقرة عل التخوم الشمالية في الصحراء الكبرى ، أو على السواحل الشرقية في جزيرة العرب وافريقية . اما في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فقد كان انتشارهم أوسع بكثير ، عل أرض دار الإسلام أو في الذكرى الحية من تاريخهم المضطرب . ويتحدث عنهم ابن حوقل والمقدسي ليس في الأماكن التي بقوا فيها فقط ، أعني طرابلس

---

(٢٩) قصب فارسي ، قصب دوناكس المستعمل في البناء . انظر دوزي ،ج٢ ، ٣٥٢ .

(٣٠) البلوطي ، رجل البلوط : سوف ياتي الشرح فيما بعد .

(٣١) عن وضعها واتجاهاتها (الازارقة ، الصفرية ، الا باضية) انظر اليعقوبي ، ٣٤٣ — ٣٤٤ ، ٣٥٣ . ابن الفقية ، ٦٩ — ٨٠ ، ابن رسته ١٧٤ وترجمة ٢٥٨ وما يليها ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٢ ، المسعودي (ت) ، فقرة ١١٨ ، ابن حوقل ، ٣٧ ، ٧١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٢٥٧ آخرها — ٢٥٨ ، ٣١٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٩ ، المقدسي ٣٠٥ — ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٤٦٩ .

الغرب الداخلية التي انطلقوا منها وسيطروا على جنوبي تونس والجزائر ، بل أيضاً في اليمن ، وفي بعض جهات خراسان وخوزستان ، وفي كرمان وسجستان من ناحية الشرق . واشتهر الخوارج بالتدين القوي وبالشجاعة المطلقتين : فاربعون من شراتهم قتلوا نحو ألفين من الجند . وهم متطرفون بلا شك : فلا منابر في مساجدهم . لهذا السبب وربما لأسباب أخرى ، يعتبر المقدسي أن وجودهم في أحد البلدان يسبب له احراجات . ويعدهم ابن حوقل أصحاب بدعة . مع ذلك ، لما انقضت الإضطرابات السياسية الكبرى في أوائل تاريخهم ، بدوا موزعين هنا وهناك لكن جماعة ثابتة : فهم يملكون نصف بعض المدن ، ويتحالفون مع السلطات الرسمية ، ويبدون تماسكاً مايزال حتى الآن صفة من صفاتهم المميزة ، وقوة تعينهم على البقاء . والخوارج قلائل في مدينة بم في كرمان ، لكنهم متضامنون وأهل يسار ، ولهم فيها مسجد جامع فيه بيت مالهم للصدقات .

والمعتزلة (٣٢) سنة ، اعترفت الخلافة العباسية بقضاياهم الكلامية مدة من الزمن . وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كان رسوخ عقيدتهم مايزال قوياً جداً من التبعية البربرية إلى ضواحي قابس واطراف الصحراء الكبرى ، وحتى كرمان ، مع غلبة بارزة في خوزستان . وعرف اثنان من مشاهير وجوههم ، هما واصل بن عطاء

---

(٣٢) انظر ابن رستة ٢٠٠ ، وترجمة ٢٥٨ وما يليها ، ابن الفقية ، ٨٠ ، ٨٤ ، ابن حوقل ، ٧٠ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ، آخر ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، آخر ٢٩١ – ٢٩٢ ، المقدسي ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٩٦ ، ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ (حاشية١) ، ٤٦٤ ، ٤٨١ .

مؤسسهم ، والجبائي الذي قال عنه ابن حوقل انه « معلم ماهر ، وامام المعتزلة ورئيس علماء كلام زمانه » . ولا يجوز أن نغتر كثيراً بهذا الإطراء ، فابن حوقل نفسه يرى في المعتزلة مروقاً من الدين ترافقه اعمال سلب في وسط البربر . أما المقدسي فيقول عنهم : « قد بغّضوا أنفسهم إلى الناس بعلم الكلام ، وخالفوا بالإعتزال جميع الإسلام » ، ويقصد مخالفة مبنية على التصميم على الوقوف على الحياد في النزاعات بين جماعة المؤمنين (٣٣) .

مع ذلك يعود المقدسي إلى صيغة متنافرة جداً. ويراعي في مكان آخر حقوق الإعتزال المتوازن . فيعلن في مدخل كتابه مثلا (٣٤) ان الممتدحة أهل السنة والجماعة وأهل العدل والتوحيد والمؤمنون وأصحاب الهدى . ، ويعني بأهل العدل والتوحيد في الواقع المعتزلة (٣٥) . من ناحية أخرى ، يتحدث مراراً عن النجارية ،ويبرز توافقها مع مذهب أبي حنيفة المفضل لديه ، لكنّه يرى أن النجارية ليست سوى فرع من الإعتزال (٣٦) ويتقيد المقدسي بموضوعية كبيرة ويدوّن رجود مذهب الإعتزال في جميع الأماكن في أراضي دار الإسلام ماعدا السند (٣٧) . ويذكره أيضاً في حديثه عن المدن، وفي جملة شؤون الأقاليم فيدرجه دوما (٣٨) في تعداد المذاهب . بتعبير آخر ، ينتشر اصحاب الإعتزال في جميع الجهات باعداد متفاوتة :

---

(٣٣) انظر سورديل ، مشار اليه ، آخر ٩٣ — ٩٤ .

(٣٤) المقدسي ، ٣٧ .

(٣٥) انظر سورديل ، مشار اليه آخر ٩٥ .

(٣٦) المقدسي ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٢٦ ، ٣٨٤ ، ٣٦٥ ، ولا ووست ، الانشقاقات ، آخر ١٠٦ = ١٠٧ وأماكن متفرقة .

(٣٧) المقدسي ، ٤٨١ .

فهم أحياناً نادرون ، محتقرون ، ومضطهدون ، كما في الشام والأندلس ، أو يحدثون جلبة كبيرة ، كما في مصر أو نيسابور ، أو يشكلون أكثرية ، كما في خوزستان التي يلح ابن حوقل (٣٩) على كثرتهم فيها. وعلى وجه الإجمال ، يقدم ابن حوقل والمقدسي صورة متباينة ، ان جاز هذا القول ، تتناسب مع مذهب تناول مباشرة قضايا الإيمان الكبرى ، وأثار بلاشك نقاشاً واسعاً ، لكنه طبع بطابعه دار الإسلام في القرون الوسطى (٤٠) .

بقي أن نقول كلمة موجزة عن مذهب المرجئة . فابن حوقل يذكره مرة واحدة فقط ويعرفه على الوجه التالي : لا يجوز أن يقطع المرء على تخليد أهل الكبائر في النار (٤١) ويرى أن المرجئة ظاهرة عراقية على التخصيص ، بينما يشير اليها المقدسي في حديثه عن جبال اقليم الجبال : « وجبال الخرمدينية ممتنعة . وهم قوم مرجئة . . . لايغسلون من جنابة ، ولا رأيت في قراهم مساجد . وجرى بيني وبينهم مناظرات فقلت ألا يغزوكم المسلمون ، وأنتم تعتنقون هذا المذهب، قالوا : السنا موحدين قلت : كيف وقد أنكرتم فرائض ربكم ، وعطلتم الشريعة قالوا إناندفع الى السلطان في كل سنة اموالا جمة »(٤٢) .

ويشتط هؤلاء الأتقياء ، فيفصلون أعمال الإيمان بعضها عن بعض ، ويواضعون الله في قبولهم الإعتراف بشيء من أعماله (٤٣) . لكن

(٣٨) مقابل المرور بالنجارية أو باثارة نقطة اساسية من مذهبها ، مثل خلق القرآن : المقدسي ، ٣٦٥ ، ٣٩٥ (عن الوعد والوعيد ، انظر ابن حوقل ، ٧٠ ، آخر ٢٥٤ ، آخر (٢٩١) . عنوان مذاهب كرمان لايذكر المعتزلة ، لكن يشار اليها في احدى مدن الاقليم ، السيرجان : المقدسي ، ٤٦٤ ، آخر ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٣٩) المقدسي ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٦ ، ٣٢٣ ، ٣٧٩ ، ٤١٥ .

(٤٠) انظر سورديل ، مشار اليه ، ١٠١ .

(٤١) ابن حوقل ، ١٢٨ .

(٤٢) المقدسي ، آخر ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٤٣) انظر لاووست ، الانشقاقات ، آخر ٢٩ — ٣٠ واماكن متفرقة .

هل لهم هذه الأهمية الكبرى ؟ فلو استثنينا مغامرة المقدسي أوجدناه يضعهم في مقدمته حيث يعرض القضايا النظرية (٤٤) ، أي أنه ينتهز الفرصة ويصنفهم بالنسبة إلى سائر المذاهب . ولا يضيف شيئاً آخر ، ولا يعين توزعهم المكاني ، وهذا يعني أن هذه الفئة من المؤمنين تهادن الآخرين ، وتدفع المال ليهادنوها . ولا يمثلون مذهباً منظماً ، بل اتجاهاً متعدد النواحي تتخيره احياناً المذاهب الحقيقية (٤٥) .



جماعة من المثقفين أمام المسجد تصوير المكتبة الوطنية، باريس

(المصدر : مقامات الحريري ، القرن الثالث عشر ، الكوفة)

(المكتبة الوطنية ، المخطوطات العربية ٥٨٤٧ ورقة ٤٢)

---

(٤٤) المقدسي ، ٣٧ — ٣٩ .

(٤٥) انظر لا . ووست ، مشار اليه ، ٤٤٨ — ٤٤٩ والفهرس ، وسورديل ، مشار اليه ، ١٠٣ وأماكن متفرقة .

التنوع والوحدة

يستحيل إنجاز عرض جميع مذاهب الإسلام ، على أتم وجه ، بتفاصيلها المتنوعة البارزة التباين بتفاوت ظاهر . وهذا ماقلته في مطلع هذا الفصل . فقد احصيت في مصنف ابن حوقل ، وخاصة في كتاب المقدسي الشديد العناية بهذا الموضوع ، مالا يقل عن ثلاثة وسبعين اسماً لشتى المذاهب والإتجاهات في الإسلام (٤٦) . فماذا نعمل بهذه المعطيات ؟ هل نرسم لها خريطة ؟ لكن ينبغي رسم عدة خرائط ، بل عشرات الخرائط لكل اقليم ، ولكل بلد ضمن حدوده ، وأحياناً لكل مدينة حياً حياً . فالتنوع والتداخل هما قطعاً القاعدة من أقصى

---

(٤٦) بالنسبة إلى الأسماء والتعابير التالية ، احيل اجمالا الى معجم الفاظ م ج ع ج٤ ، الذي يعطي الاجالات والشروح احيانا . واذكر ثلاث تسميات عامة : الشيعة والخوارج والصوفية ، و ١٧ لقبا : هم المؤمنون،الشراة (الأسم شراية) ،الشكاك ، غالية ، أهل الكلام ، اصحاب الحديث ، أهل السنة والجماعة ، اصحاب الهدى ، الباطنية، أصحاب الراي ، أهل العدل والتوحيد ، النواصب ، الروافض ، الزنادقة ، مراق ، المشبهة ، غير المذكورين في معجم الألفاظ ، لكن انظر المقدسي ، ١٢٦ ، الحشوية (نفس المعنى) ، اخيراً ٥٣ تسمية خاصة يتوافق بعضها احيانا ، لا سيما انها تدل في هذا البلد أو ذاك على مذهب معين باسم آخر أو على مذاهب فرعية كالابيضية (بيض الثياب) ، أهلية ، عاملية ، عروسية ، اشعرية ، عطائية أو زراعية ، ازرقية (غير واردة في الألفاظ لكن انظر ابن حوقل ، آخر ٢٥٧) بربهارية ، داودية ، فضليون ، جهمية ، غيلانية ، حمرية (لكن انظر في معجم الألفاظ هذه التسميات) ، حنفية ، حنبيلة حسنيون ، حبية ، خرمدينية ، خوارزمية (غير مذكورة في معجم الألفاظ) لكن انظر المقدسي ، ٣٢٠ ، مع ذلك يمكن أن يقصد به أهل خوارزم) الاباضية ، الادريسية (غير واردة في معجم الألفاظ ، انظر المقدسي ، ٢٣٨) الاسماعيلية ، الكرمية ، الكيسانية ، الكلابية ، المالكية ، المامونية ، المجبرّة (المعجم : المُجبِّرة) ، المنذرية، المرجئة ، المروشيين (القراءة مشكوك فيها : انظر معجم الألفاظ) ، الموسويّن ، المعتزلة ، النجارية ، النكارية ، القدرية ، القرامطة ، القطعية ، الراهوية ، الرستاقية، الرافعية ، السالمية ، السمكية ، السرخسية ، الصدقية ، الطاقية ، الثورية ، العثمانية ، الوهبية ، الواقفية ، الزعفرانية ، الزيدية .

دار الإسلام الى أقصاها . ويجب مضاعفة تلك الخرائط ، مراعاة لما طرأ هنا وهناك من تغييرات في مجرى التاريخ .

اذن لنبق في بعض الخطوط الكبرى التي أبرزها بجلاء الجغرافيون أو التي تنبثق بوضوح تام من وصفهم . ففي غربي دار الإسلام ، يبدو ان المغرب،أرض دعوة للخوارج والإعتزال والتشيع،حفز مجيء الفاطميين تزايد نشاطها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ؛ بينما هيمنت السنة المالكية على نطاق واسع يقارب الحصر ، في الأندلس ، والسنة الحنفية في صقلية (٤٧) . وتتركز السنة نفسها ، حسب المقدسي ، مع الإتجاه الى الشرق ، فتتغلب في مصر والشام والجزيرة والسند وخوزستان بواسطة المعتزلة ، وفي كرمان بواسطة الشافعية (٤٨) . لكن حتى هذه الأرجاء ، يظل التنوع مقبولا ، إذ ان المؤلف يدقق فكرته بعد أن يجزم بوجود أكثرية معينة . مثال ذلك فارس . فقد أعلن أنها سنة لكن تبين فيما بعد احتلال الشيعة والمعتزلة نطاقاً واسعاً (٤٩) على سواحله . أما في سائر الأقاليم ، فيتم التخلي عن هذا النوع من الإنتشار ، ويدخل عنوان مذاهب الإسلام مباشرة في صميم الجدل أي إظهار الفوارق ، أو يجعل التنوع نفسه عنوان البحث (٥٠) .

---

(٤٧) عن الخوارج والمعتزلة ، انظر ما تقدم . عن المذاهب الأخرى ، انظر ابن حوقل ، ٩١ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، المقدسي ، ٢٣٦ – ٢٣٨ .

(٤٨) المقدسي ، ١٤٢ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، آخر ٢٦٨ – ٤٦٩ ، ٤٨١ .

(٤٩) المقدسي ، ٤٣٩ .

(٥٠) انظر ما تقدم ، مدخل ذكره المقدسي : « أما الاقاليم الاخرى ، ففيها تشتابك . . . يلاحظ ان وصف الاقاليم دقق تدقيقاً كبيراً ما ورد في هذا المدخل . بحث بلا عنوان : جزيرة العرب وفارس : المقدسي ٩٦ ، ٤٣٩ ، عنوان معلن عنه في مظهر التنوع : =

أخيراً ، أعلن المقدسي أربع مرات (٥١) أن مذاهب أحد الأقاليم مستقيمة ، مما يثير قضيتين : في تساؤلين : ماهي هذه الإستقامة ، وهل يخفي هذا التعبير الوحيد وحدة حقيقية ؟ .

نقرأ ماكتبه المؤلف عن إقليم المشرق (٥٢) للإجابة على هذين التساؤلين : « ومذاهبهم مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة ، كَرَوُخ ، واستربيان ، كثيرة . وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة . وللشيعة والكرامية بها جلبة . والغلبة في الإقليم لأصحاب أبي حنيفة ، إلا في كورة الشاش وايلاف ، وطوس ، ونسا ، وابيورد ، وطراز ، وصنغاج ، وسواد بخارى ، وسنج ، والدندانقان ، واسفراين ، وجويان ، فانهم شافعية كلهم . والعمل في هذه المواضع على مذهبهم . ولهم جلبة بهراة ، وسجستان ، وسرخس ، والمروين (٥٣) . ولا يكون قاضياً إلا من الفريقين (٥٤) . وخطباء المواضع التي استثنينا ، ونيسابور أيضاً شافعية ، وأحد جامعي مرو (٥٥) أيضاً . إلا ان الإقامة (٥٦) به وبنيسابور مثنى . وللكرامية جلبة بهراة ، وغرج

= العراق ، الديلم ، الجبال ، وخوزستان (حيث صحح التدوين مباشرة بالاشارة الى الاكثرية المعتزلة) : المقدسي ، ١٢٦ ، ٣٦٥ ، آخر ٣٩٤ ، ٤١٥ .

(٥١) المقدسي ، ١٧٩ (الشام) ، ٢٠٢ (مصر ، شبيهة بالشام) ، ٣٢٣ (المشرق) ، آخر ٣٧٨ (الرحاب) .

(٥٢) المقدسي ، ٣٢٣ .

(٥٣) عجائب الهند : مرو الشاهجان ومرو الروذ ، كلاهما على نهر مرغاب في خراسان .

(٥٤) يشار الى المذهبين بلفظ الفريقين : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١٥ .

(٥٥) لا شك انها الأكبر : مرو الشاهجان .

(٥٦) اقامة : انظر ت . و . جينبول ، م١(٢) ، ج٣ ، ١٠٨٣ .

الشار . ولهم خوانق (٥٧) بفرغانة ، والختل ، وجوزجان ، وبمرو الروذ خانقة وأخرى بسمرقند. وبرساتيق هيطل أقوام يقال لهم بيض الثياب (٥٨) ، مذاهبهم تقارب الزندقة ، وأقوام على مذهب عبد الله السرخسي ، لهم زهد وتقرب (٥٩) . وأكثر أهل ترمذ جهمية . وأهل الرقة شيعة . وأهل كندر قدرية . والشار يصلي العيدين ،على قول عبد الله بن مسعود ومذهب أبي حنيفة (٦٠) يوالون بين القرائتين ، ويكبرون أربعاً (٦١) .

وهذا المقطع نموذجي . فاولا ، نجد فيه إيضاحات عامة ، تصحح بسرعة ، تكاد تكون ممحوة ضمن الكثير من الحالات الخاصة العائدة إلى المناطق والمذاهب ، وحتى المناصب الإجتماعية ، مع القضاة . ويعثر فيه أيضاً على نتائج عملية تتعلق بالمذهب ، كالشعائر أو قراءات القرآن ، بالإستناد إلى ابن مسعود . لكن نحن هنا على وجه التخصيص أمام تصنيف أساسي ، يعطي مفتاح موقف المقدسي وابن حوقل معاً من المذاهب الإسلامية . لدينا إذن ثلاث درجات أو بالأحرى ثلاث دوائر ذات مركز واحد . فعلى محيط دار الإسلام ، على أطرافه ذاتها ، تقع الزندقة الموصوفة ، التي تسخر من شريعة الوحي ومن الدولة التي

(٥٧) خوانق : انظر مقالة ج . شبي ، م١(٢) ، ج٤ ، ١٠٥٧ .

(٥٨) البيض (ابيضية) : انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٦ .

(٥٩) تقرب (انظر دوزي ، ج٢ ، ٣٢٢) ، مرادف (حاشية ر) : تقوى.

(٦٠) من الصحابة ، محدث ، قارىء ، ومفسر : انظر ج . ش . فادية ، « ابن مسعود » ، م١ م١(٢) ، ج٣ ، ٨٩٧ — ٨٩٩ . عن العلاقة بين فكرته وفكرة ابي حنيفة ، انظر لا ووست الانشقاقات ، ٨٥ .

(٦١) عن هذه الصلاة ، انظر ا . ميتوش ، م١ ،(٢) ، ج٣ ، ١٠٣٢ و ه . لاووست ، شريعة ابن قدامة ، بيروت — دمشق ، ١٩٥٠ ، ص ٤٢ .

يجب عليها أن تستلهم منها سلوكها (٦٢) . ويشار اليها كما هي أو مخففة في عدد من بلدان دار الإسلام مع معتنقي الإسلام الجدد أو غير الثابتين أو المرتدين ، المتمردين على الدوام ، والمنزويين أصلا في منعاتهم الجبلية ، كما في مكران وعمان وأفغانستان ، وعلى التخوم الجنوبية لقزوين والجبال ، معقل الخرميين أو الخرمدينيين ، أتباع بابك ، الذين لايدينون في الباطن بدين غير الإباحة (٦٣) .

لنعد الآن إلى الوسط ، إلى المذاهب السليمة المستقيمة التي يتحدث عنها المقدسي . فهي تفهم أولا بالنسبة إلى جميع الضلالات التي لاتهدد كيان الإسلام ، بل تمنعه أن يدرك ذاته على الوجه الأكمل ، وتقع بين النواة والمحيط : كالخوارج والمعتزلة والمرجئة وحتى الصوفية في بعض مظاهرها . إلا أن ابن حوقل والمقدسي يدينان بوضوح تام على وجه العموم التطرف العقائدي عند أكبر مذهبين فكريين تتبعهما الجماعة . فابن حوقل يميل إلى المالكيين من أهل السنة ، في المغرب في الحد الأدنى ، لاسيما أنهم غلاة ومتطرفون وأصحاب يسار (٦٤) ومن الشيعة ، إلى قرامطة أبي سعيد الجنابي في البحرين ومحمد بن علي الشلمغاني (٦٥) ، ويقسو جدا بألفاظه على هذين الأخيرين ، مع أنه هو شيعي ، ويقول : « . . . وأما الجنابي . . . لعنة الله عليه . . .

(٦٢) زندقة ، لاوست ، الانشقاقات ، ٥٢ واماكن متفرقة .

(٦٣) ابن حوقل ، آخر ٣٨ – ٣٩ ، ٣٢٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٤١٩ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٥٠ ، المقدسي ، ٢٧٥ . آخر ٣٩٨ – ٣٩٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ .

(٦٤) ابن حوقل ، ٩١ – ٩٢ .

(٦٥) ابن حوقل ، ٢٩٥ – ٢٩٧ .

فقتل رجالها (هجر) ، واستعبد الأولاد من الصبيان والبايا ، واستباح حريمهم[. . .]فكان من لعنه الله منهم ولده الأصغر (أبو طاهر سليمان)[. . .]مخرب مكة ، وآخذ الحجر ، وفاعل كل كبيرة ، ومستحل كل عظيمة . » . وأما الشلمغاني « فإنه أيضاً ممن ظاهر بامور من العلم ، ودعا الى الفقه والزهد ، وتزيّن بالورع والعفة [. . .] مع ذلك يسر شقاق الأمة ، ويعتقد بكفرهم ، ويرى أن الدار دار كفر ، وأهلها وأموالهم ومناكحتهم وحجبهم وغزوهم فاسد ، وجهادهم لازم[. . .] إلى أن هلك أيضاً صلباً ، وكفى الله أمره » (٦٦) .

مرة أخرى ، يمعن المقدسي النظر ويحلل . ويمقت الغلاة ، مع أنه شيعي . فاهل قم مثلا شيعة غالية ، قد تركوا الجماعات ، وعطلوا الجامع إلى أن الزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه (٦٧) . إلا أنه حذر جداً من السنة ، أولا من جهة المشبهة الذين يشبهون الله ويصفونه بصفات المخلوقين (٦٨) ، ومن جهة معاوية ، أعدى أعداء

---

(٦٦) بشأن تدوينات اخرى عن الطوائف والمذاهب ، انظر أيضاً ابن حوقل، ٣٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ (اكثرية قم شيعية) ، ٣٧٠ (الجبال شيعية باجمعها : احالة لم اذكرها من قبل في الخطوط الكبرى للخريطة ، لأنها تتناقض جزئياً مع السابقة ، ومتدرجةجيداً جداً عند المقدسي،آخر ٣٩٤ — ٣٩٥)،٤٣٤،٤٣٩ — ٤٤٠ واماكن اخرى .

(٦٧) المقدسي ٣٩٥ انظر أيضاً ما قيل من قبل حول خبر عن النبي يجعل الشيعة الباطنية فرعا هالكا في الاسلام ، والمقدسي ، ٢٣٨ (عن بعض الفاطميين المتمردين على الجماعة) .

(٦٨) المقدسي ، ١٢٦ ، ٤٠٤ (حاشية ١) ، ٣٦٥ ،٤٠٧ ، ٤١٥ . عن الحبية ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١١ .

الشيعة (٦٩) الذين يعدونه ملكاً عادياً ، وينازعون في صحة خلافته . ويذكر المقدسي أنه جازف بحياته مرتين لامتداحه معاوية علناً ، مع أنه لايتحمل افراط الوعاظ الذين يقولون إن الله يدني معاوية يوم القيامة، فيجلسه الى جنبه (٧٠) .

وهنالك مأخذ آخر يماثل الطعن السابق : استطاع معاوية والأمويون في النهاية أن يبسطوا سلطتهم على جميع أراضي دار الإسلام نتيجة السنة الواقعية ، التي تفضل ، عند حدوث الأزمات ، أن تساوم على شرعية السلطة لاعلى السلام الضروري للجماعة . فهم ،على حدّ قول المقدسي ، « يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السماء » (٧١) . ويتراءى خصم وحيد وراء هذه الإنتقادات ، يتمثل في غلاة الحنابلة الذين يشبهون غلاة الشيعة ، ويعتبر وجودهم في احد الأقاليم ارباكاً له(٧٢) .

الله مع الاكثرية

أخيراً يبرز استنتاج واحد لايتغير من جميع ماخصصه المقدسي لمذاهب الإسلام واتجاهاته (٧٣) من تدوينات ، وملاحظات ، وتعليقات

---

(٦٩) لأنه نازع عليا على الخلافة . يكره الشيعيون ابنه يزيد معه لأن الحسين بن علي قتل في عهده .

(٧٠) المقدسي ، ١٢٦ ، ٣٦٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ (حاشية ب) ، ٣٩٦ .

(٧١) المقدسي ١٥٢ ، ترجمة ١٥٤ ، حاشية ٥٣ .

(٧٢) المقدسي ، ٣٧٥ (حاشية س) ، آخر ٣٧٨ — ٣٧٩ . ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٧ ، ٤٨١ (عدم وجود الحنابلة في السند اطراء له) .

(٧٣) المقدسي ، آخر ٣٧ — ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، آخر ١٣٣ ، ١٤٢ ، ، ١٥٢، ١٧٩ — ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٦ — ٢٣٨ ، آخر =

ومناقشات : هو أنه يدافع عن وحدة الإسلام . ففي حديثه عن جملة شؤون اقليم السند ، يعدد المذاهب فيه على عادته ، ، ثم يعبر عن رضاه (٧٤) ، ويقول : « وليس به مالكية (٧٥) ولا معتزلة ، ولا عمل حنابلة . انهم على طريقة مستقيمة ، ومذاهب محمودة ، وصلاح وعفة . قد أراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة » . ويشعر بالسعادة ذاتها في بلدان التبعية السامانية . والسامانيون ولاة سنيون يقرون ولو اسميا بسيادة بغداد ، وتسمح سياستهم الحكيمة أن يعيش جميع الناس بسلام (٧٦) : فلعلهم النموذج لما ينبغي عمله في جميع الأماكن ، لإبقاء حد أدنى من تماسك الجماعة ضمن تنوعها ، ولإنقاذ رمزهم المعرض للخطر ، أي بغداد المخربة التي أصبحت ريفية . . .

تكلمت عن دفاع وحدة الإسلام . وعلي أن أنهي بحثه بهذا المقطع (٧٧) من المقدسي : « وكل من رجع إلى أبي حنيفه أو إلى الشافعي

= ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ — ٣٠٦ ، ٣١٠ ، آخر ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٧ — ٣٥٩ . ٣٦٥ — ٣٦٧ ، ٣٧١ — ٣٧٥ ، آخر ٣٧٨ — ٣٧٩ — ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ (حاشية ب) ، ٣٩١ آخر ٣٩٤ — ٣٩٥ ، آخر ٣٩٨ — ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، آخر ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٥ (وحاشية ج) ٤١٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ (حاشية ا) ، ٤٦٤ ، آخر ٤٦٨ — ٤٦٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ .

(٧٤) المقدسي ، ٤٨١ .

(٧٥) هذا من المقاطع النادرة في المصنف حيث يظهر نقد للمالكية (انظر ما تقدم عن ابن حوقل) . وفي مكان آخر (المقدسي ، ٤١) يصف المؤلف اصحاب مالك بالثقل والبلادة والديانة والسنة . انظر الألفاظ المذكورة فيما بعد .

(٧٦) انظر ما تقدم . الفصل الأول ، وابن حوقل ،آخر ٤٦٣ — ٤٧٢ ، وجغرافية دار الاسلام ج ١ ٣١٧ — ٣١٩ .

(٧٧) المقدسي ، ٣٦٥ — ٣٦٧ ، يأتي الحديث بعد دفاع عن الكرامية المتهمين بالابتداع ، في حين يرجعون الى ابي حنيفة ، وتعاطف المؤلف مع ابي حنيفة معروف .

أو إلى أئمة الحديث الذين لم يغلوا فيه ، ولم يفرطوا في حب معاوية ، ولم يشبهوا الله ، ويصفوه بصفات المخلوقين ، فليس بمبتدع . وأنا عازم على أن لا أطلق لساني في أمة محمد صلعم ، ولا أشهد عليهم بالضلالة ماوجدت إلى ذلك طريقاً » . ثم يروي المقدسي أقوالا « جميلة ونبيلة » منسوبة إلى ابن مرة (٧٨) أحد أئمة الحديث .

فقد جاءه رجل ، قال له : إني رجل دخلت في جميع هذه الأهواء . فما ادخل في هوى منها إلا القرآن أدخلني فيه . ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه ، حتى بقيت ليس في يدي شيء ، فاجاب ابن مر ة : « أرأيت هل اختلفوا في أن محمد رسول الله ، وأن ماأتى به من الله حق . قال : لا : . قال : فهل اختلفوا في القرآن أنه كتاب الله . قال : لا . قال : فهل اختلفوا في دين الله أنه الإسلام ؟ قال : لا . قال فهل اختلفوا في الكعبة أنها القبلة ؟ ؟ قال : لا . قال : فهل اختلفوا في الصلوات أنها خمس ؟ قال : لا . قال : فهل اختلفوا في رمضان أنه شهرهم الذي يصومونه ؟ قال : لا . قال : فهل اختلفوا في الحج أنه بيت الله الذي يحجونه ؟ قال : لا . قال : فهل اختلفوا في الزكاة انها من مائتي درهم خمسة ؟ قال : لا . قال : فهل اختلفوا في الغسل من الجنابة أنه واجب ؟ قال : لا . قال : فذكر هذا واشباهه ، ثم قرأ « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم القرى وأخرى متشابهات » (٧٩) . قال فهل تدري ماالمحكم ؟ قال : لا . قال : المحكم مااجتمعوا عليه ، والمتشابه ما اختلفوا فيه . شد نيتك

(٧٨) متوفي سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م . انظر الذهبي ، ج١ ، ١٢١ – ١٢٢ .
(٧٩) القرآن ، ٣ ، ٥/٧ .

المحكم وإياك والخوض في المتشابه » . ثم يستأنف المقدسي كلامه ويقول : « فرحم الله عبداً تدبر هذه الحكاية ، ولزم أحد المذاهب الأربعة الذين هم أهل السواد الأعظم، وكف لسانه عن تمزيق المسلمين ، والغلوّ في الدين ، وشهدت مجلس القاضي المختار (٨٠) يوماً ، وهو أجل إمام لقيته ، وأعقلهم وأدينهم . وقد جرى فيه ذكر اختلاف الأمة ، وتعصب أهل الفرق . فاشار بيده إلى القبلة ، ثم قال : من صلى إلى هذه القبلة ، فهم اخواننا المسلمون » (٨١) .

الايمان بالاعمال وفي الاسفار

لايمثل الفقه كل شيء . فالإسلام يحدد ، بالإجماع أو في آراء متنوعة ، جملة حركات أو مواقف أو الفاظ ، قد يثير عددها وطرقها نقاشاً يرمي إلى تحديد الأصل والفرع . ويتعلق هذا الأمر بالصلاة ، والآذان ، والوضوء ، والشهود والعدل ، وصلاة الجنائز أو التزويج . ولا يفوت المقدسي تدوين جميع هذه النواحي (٨٢) .

---

(٨٠) القاضي المختار المشار اليه هو بلا ريب المهدى اليه المصنف، الخراساني أبو الحسن علي بن الحسن : المقدسي ص ٨ (حاشية ، د) ٦٦ (حاشية ك من ص ٩٤) ٢٦١ (حاشية هـ) ٤٩٨ .

(٨١) يسمي المقدسي مرجعاً آخر فيما بعد ، ويروي عنه ما يلي (المقدسي ، آخر ٣٦٦ — ٣٦٧) : « وأعلم ان هذا التعصب الذي ترى ، انما ثَوَّرَهُ الجهال والمتسرّفون من القصاص وغيرهم. عن القصاص وقصصهم ذات المغزى التي تستعمل للدعاية لشتى المعتقدات، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٢١٥ (حاشية ٢) ، ٣٤٣ ، وش . بيلا ، م١(٢) ج٤ ، ٧٦٣ — ٧٦٥ .

(٨٢) احيل بشأن صلاة الجنائز أو التزويج الى ما سوف يقال عن الحياة اليومية فيما بعد . وعن النواحي الأخرى ، انظر المقدسي ٤٠ — ٤١ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٨ ، ٣٢٧ — ٣٢٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٩٥ ، آخر ٤١٤ — ٤١٦ ، ٤٣٩ — ٤٤١ (وحاشية ١) ، ٤٦٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ .

كذلك القراءات التي يخصص لها عنواناً مستقلا (٨٣) في كل اقليم من الأقاليم . لكن ينبغي ابداء بعض الملاحظات بهذا الشأن . فطرق القراءة ست عشرة مثلما جاء في تمهيدات كتابه ، في حين أن المستعمل منها أربع عشرة ، مع تفضيل واضح اسبع منها ، أو عشر إذا شئنا . ويذكر المقدسي في القراءات اختيارين ، بمعنى منحيين تجديديين . وهذا يعني أنه يدعو إلى شيء من الحرية (٨٤) ، ولو باسمه شخصياً . لكن ما هو وضع هذه القراءات في الواقع ؟ إذا نظرنا بإمعان إلى خريطة هذا التنوع في مجمل أقاليم دار الإسلام ، لاحظنا أن جميع البلدان ، ما عدافارس (٨٥) ، تستعمل احدى القراءات السبع المقبولة على نطاق أوسع من سواها ، وأحياناً السبع في آن واحد (٨٦) . هنا أيضاً ، نرى أن الناس يميلون في بلدانهم إلى تنسيق تسوية بين الوحدة الضرورية والتنوع المحتوم .

مع ذلك ، لاتكفي العقائد والطقوس لإتمام الدين ، أي دين كان . فجميع الأديان بحاجة إلى أماكن مفضلة ، تلتقي فيها الروحانية والطقوس .

---

(٨٣) المقدسي ، ٣٩ ، ٩٧ ، ١٢٨ ، ١٤٢ — ١٤٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ — ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٣٩٥ ، ٤٤١ (وحاشية ١) .

(٨٤) غير خالية في هذه الحالة من التفكير المبطن الشيعي . عن هذا التصنيف ، انظر المقدسي ، ترجمة ، آخر ٩٦ — ٩٨ وحاشية ٤٠ — ٤١ ، ٤٣ (مع احالات الى بلاشير ، قرآن١) و ر . باريه ، م١(٢) ، ج٥ ، ١٢٩ — ١٣٢ .

(٨٥) المقدسي ، ٣٩٥ : قراءة ابي عبيد (انظر هـ . ل . غوتزشالك ، م١(٢) ، ١٦١ — ١٦٢) وقراءة ابي حاتم (انظر ب . ليوين ، المرجع ذاته ، ١٢٩) وكلتاهما غير داخلتين في القائمة ولو اعتبرناها ١٤ : عن دور هذين الفقيهين . انظر بلا شير ، قرآن ١ ، ٩٧ ، ١١٦ .

(٨٦) حالة العراق خاصة (المقدسي ، ١٢٨) مع الاشارة في الأيام الغابرة الى قراءة حمزة في بغداد لما كان أحد السبعة ، يجب الادراك ان هذه القراءة زالت من العاصمة ،

وينبذ الإسلام كل ما يمتُّ بصلة إلى الأوثان (٨٧) من قريب أو بعيد ، إلا أن البلدان الداخلية في داره ، تقدم للمؤمنين في جميع أنحائه تقريباً ، أماكن خشوع وصلاة ، تنبىء في هذا القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، بتشكيل الخطوط العريضة لجغرافية الشفاعات الروحية (٨٨) وتفوقها جميعاً الأماكن المقدسة التي ترتبط مباشرة بالوحي القرآني وبحياة النبي : وهي مكة والمدينة وبيت المقدس . ولا تندرج في عدادها ويشك فيها . ولا طرافة فيجميع مايكتبه الجغرافيون في هذا الموضوع ، لأنهم يسلكون في وصفهم وتعليقاتهم طريقاً رسمت قبلهم (٨٩) . ولا يستثنى إلا المسجد لأنه مكان صلاة الجماعة ، ويتبع المدينة وسوف نتكلم عنه معها .

وتبقى جميع الأشياء الأخرى ، كالذكرى الخاصة بمعبد ، أو زاوية أوضريح، أو أيضاً كذكرى لاترتبط بأثر مادي،وتلازم الأماكن بما يروى عنها جيلا بعد جيل . ولا يفوت أي جغرافي أن يكتب قليلا

لكن بقيت في مناطق اخرى من العراق) والى قراءة يعقوب الحضرمي ، أحد العشرة النظر بلاشير ، القرآن ، ١ ، ١٢٢ — ١٢٩) في البصرة .

(٨٧) عن تطور الذهنيات التي سمحت بظهور ادب متخصص بالأماكن المقدسة وزيارتها ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١٤٩ — ١٥١ ، و ج . سورديل — تومين ، المدخل الى ترجمة كتاب الزيارات للهروي ، دمشق ، ١٩٥٧ ص ٢٠ — ٢١ ، ٢٣ ، ٣٠ .

(٨٨) انظر ف . مونتيل ، عند ماسينيون ، الوعد ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٢٧ ، ٦١ .

(٨٩) عن مكة والمدينة واماكن جزيرةالعرب الأخرى ذات الصلة بحياة النبي، انظر ابن حوقل ، ٢٨ — ٣٠ (مع اضافات نسبة الى نص الاصطخري ، ٢١ — ٢٣) ، ٣٢ المقدسي ، ٤٦ ، ٧١ — ٨٤ ، ١٧٩ (تبوك ، مذكورة في اقليم الشام) . عن مسجد بيت المقدس ، ابن حوقل ، ١٧١ ، المقدسي ، ١٦٨ — ١٧١ .

أو كثيراً عن هذه الذكريات ، لكن لايجارى أحد منهم المقدسي في ابرازها . فقد خصص فصلا من مدخله يحكي فيه ادعاءات بلدان تتنازع على احدى تلك الذكريات (٩٠) . ثم إنه أفرد عنواناً مستقلا تحدث فيه عن المشاهد في الإقليم الموصوف (٩١) متى سنحت له الفرصة . أقول متى سنحت له الفرصة . لكن اليس الأمر محض صدفة ، أو نقصاً ملحوظاً هنا وهناك بوجود أماكن مقدسة ؟ لو تأملنا وضع المشاهد العام ، للاحظنا أن معظمها قائم في الأقاليم العربية ، ماعدا المغرب الذي لم يزره المقدسي ، ويبدو مرة أخرى بلداً هامشياً في هذه الجغرافية الشرقية أصلا بنشأتها وتعبيرها . فلا مشاهد (٩٢) متى تجاوزنا العراق ، ماعدا بلدان تبعية السلالة السامانية الحائزة على الإعجاب . فجغرافية الشفاعات الروحية ، لاتتحرر ، مثلما نرى ، من تفضيل العواطف أو السياسة .

اماكن مقدسة واماكن مكرمة

فما هي الدلالة التاريخية لهذه المشاهد ؟ يقول المقدسي عن أقليم الجبال : « ولا أعرف به مشاهد ، بل به من عجائب الأكاسرة . . . (٩٣)

---

(٩٠) المقدسي ، ٤٦ .

(٩١) المقدسي ، ١٠٢ – ١٠٣ – ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٨٤ (تحيل الى ١٥١) ، ٢٠٩ – ٢١٠ ، ٣٣٣ – ٣٣٤ ، آخر ٣٦٧ – ٣٦٨ ، ٣٩٩ .

(٩٢) تقع النبذة عن مشاهد الديلم (المقدسي ، آخر ٣٦٧ – ٣٦٨) في سطرين . وتقتصر نبذة الجبال (الجبال ، المقدسي ٣٩٩) على القول بانه لا توجد مشاهد . وتذكر نبذة المشرق نفسها (المقدسي ، ٣٢٣ – ٣٣٤) خمسة قبور فقط . ويحيل الباقي الى رباطات .

(٩٣) المقدسي ، ٣٩٩ .

إذن يميز الجغرافيون الذكريات الدينية عن الماضي الدنيوي الذي يشار اليه بتعبيري العجائب والخصائص ، وتعيد المشاهد عندهم إلى الأذهان التاريخ المقدس ، أي تاريخ الإسلام أو تاريخ الكتاب المقدس الذي يبشر به (٩٤) .

ولنبدأ بذكريات التوراة . فتدويناتها لا تحصى ، وتثبت أن اقليم الشام يحوي معظم المشاهد(٩٥) ،لكن بشيء من المزاحمة احياناً ، لأن جزيرة العرب وحتى الهند تتنازعانه على ضريح آدم ، وكرمان وخراسان على مدائن لوط ، وبلدان قزوين على بعض ذكريات موسى (صخرة موسى بشروان) (٩٦) . . . وتقارب مصر وجزيرة العرب والجزيرة وغيرها من البلدان غرضياً جداً . واختار من هذا الحشد من الذكريات (٩٧) بعض النقاط الهامة ذات المغزى البليغ . فاولا لابد من ذكر قلب هذا التاريخ في فلسطين ، الذي يطيب للجغرافيين أن يمتدحوه ، لأن فيه قبور الآباء ، والأرض المقدسة (٩٨) ، والأماكن التي

---

(٩٤) نحيل الى الفصل الرابع بشأن الذكريات أو الأماكن المقدسة الخاصة باليهود أو النصارى وغير المقبولة في الاسلام .

(٩٥) انظر خاصة اسحاق بن الحسين ، ٤٤٩ ، المقدسي ، ج ٤ ، ٧٧ — ٨٤ ، مسعر (ب) ، ٤٤ المسعودي (م) فقرة ٥٢٠ ، ابن الفقيه ، ٩٦ ، ١٧٣ — ١٧٤ ، ٢٦٤ ، ابن حوقل ، ٢٨ وما يليها ، ٣٨ ، ١٧١ — ١٧٢ ، ١٧٤ ، المقدسي ، ٤٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠٢ ، آخر ١٢١ — ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، آخر ٤٠٧ — ٤٠٨ ، ٤٣٣ .

(٩٦) المقدسي ، ٤٦ . انظر أيضاً المرجع ذاته : قوم مدائن لوط بين فلسطين والحجاز .

(٩٧) احيل أيضاً الى ما قلته عن تاريخ التوراة واشخاصها في الفصل الأول .

(٩٨) انظر صيغة المقدسي ، أحد ابناء البلد . هذا صحيح لكنه ليس الوحيد الذي يلح =

ارتادها سليمان أو داود أو المسيح ، ثم المعبد المصري ، وتشريد بني إسرائيل وهربهم ، وملاذ مريم ويسوع الطفل ، ثم إلى الجزيرة ، بلد ابراهيم ، ومسجد يونس وآثاره عند نينوى القديمة ، ويزعمون أن سبع زورات له يعدلن حجة إلى مكة .

والإسلام وريث هذا الماضي الروحي . لذلك قبل أماكنه المقدسة ، وأضاف اليها أماكنه الخاصة به . وتبرز دلائل عديدة على هذا الإستمرار على الأرض (٩٩) . فتـارة ، تتجاور المواضـع ، كما هي الحال على حدود جزيرة العرب والشام ، وفيها مدين حيث البئر التي استسقى منها موسى لسائمة شعيب ، وذكريات النبي والصحابة الذين ماتوا في حملات الإسلام الأولى (١٠٠) . وطوراً تنتقل من جهة إلى أخرى ، مثلما حدث لأصحاب الكهف الذين كانوا في طرسوس في الامبراطورية البيزنطية ثم جعلوا في الهوية في اقليم الشام (١٠١) . وأحياناً تتطابق المواضيع كمـا يحصل في بيت المقدس ملتقى الطرق (١٠٢) . اخيراً يجري استبدال بسيط تـام ، في دمشق

= على المميزات الروحية في فلسطين : فلو ذكرنا كل المشاهد في عنوان الأقليم، لطال الكتاب لكن نقول ان أكثرها بايلياء ثم بسائر فلسطين ، ثم بالاردن (المقدسي ، ١٨٤) .

(٩٩) انظر أيضاً الفصل الاول : الاسلام وريث قائم .

(١٠٠) ابن حوقل ، آخر ٣٢ — ٣٣ ، المقدسي ، آخر ١٧٨ — ١٧٩ .

(١٠١) المقدسي ، آخر ١٥٢ ـ و ١٧٥ — ١٧٦ ، ترجمة ٢٠٦ وحاشية ٢٥٠ جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ٤٦٠ — ٤٦١ و ر . ليسكو ، معبد أهل الكهف في الاردن ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ٣٦ روماني (١) ، ١٩٦٨ ، ص٣ — ٩ .

(١٠٢) انظر مثلا اسماء الأبواب والمحاريب في المسجد (المقدسي ، ١٧٠) . تجاور في اماكن اخرى ، كما على جبل الزيتون : الكنيسة ومسجد عمر (المقدسي ، ١٧٢).

مثلا ، فيحل المسجد محل الكنيسة ، ورأس الحسين محل رأس يوحنا المعمدان (١٠٣) إذن يطالب الإسلام في جميع الأماكن التي تنبأت بمجيئه ، بأن يكون هو فيها جميعاً مركز المعتقد الجديد ، على ما هو عليه في مكة مركز التاريخ الجديد ، إلى جانب بيت المقدس مركز التاريخ الأخير في نهاية الأزمنة ، والحجاز مركز بدء التاريخ ، عندما تم الخلق فيه ، وبرزت الأرض من العدم ، تلبية لنداء الله (١٠٤).

وحد هذا التطور الأقصى في مسجد الكوفة . ففي هذا البيت صلى تسعون نبياً (١٠٥) ، وفيه التنور ، وخرجت منه السفينة . وفيه عصا موسى وخاتم سليمان . فمن أين جاء كل هؤلاء الأنبياء ، ولماذا صلوا هنا حيث لم يوجد شيء في الجاهلية ؟ لأنهم كانوا يعرفون قبل الأوان أنهم سيلقون فيه الإسلام . ولا يبالغ المرء إذا قال إن هذا الوضع ينطبق نوعاً ما على جميع المشاهد الخاصة بالمعتقد الإسلامي (١٠٦) ، التي يتلقى الناس فيها البركة الإلهية في مواضع لم تكن معروفة من قبل . لكن ماذا يستخلص من قائمة هذه المشاهد الخاصة بالإسلام حصراً ؟

---

(١٠٣) انظر الفصل الأول ، مشار اليه (ما تقدم ، حاشية ٩٩) .

(١٠٤) المقدسي ، ٤٦ وترجمة ، ١١٧ (وحاشية ١ مكرر و ٢) حيث تتعارض هذه السرة مع الادعاء الفارسي .

(١٠٥) ابن الفقية ، آخر ١٧٣ .

(١٠٦) عنهما ، انظر خاصة مسعر (ب) ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، المسعودي (م) ، ج ٤ ، ٤١٦ ، و ج ٦ ، ٢ . ابن الفقية ، ١٧٣ — ١٧٤ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ ، ابن حوقل ، ٢٨ وما يليها ، ٣٥ ، آخر ٤٠ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٤٣٤ ، المقدسي ، ٤٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٢ — ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ — ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ ، ٣٣٣ — ٣٣٤ آخر ٣٦٧ — ٣٦٨ .

أولا المحاولة الشيعية التي تتبدى بهذا الشأن عند ابن حوقل أكثر مما تتبدى عند المقدسي. فالمقدسي يكتفي بالإشارة إلى ضريحي علي وابنه الحسين (١٠٧) . أما ابن حوقل، فيذكر مرتين (١٠٨) أرض صفين التي قضت على آمال أنصار علي . وهذا تصور مسبق لفناء الأبطال الذين يموتون في سبيل القضية : « ويرى من كان بالفرات منه عجباً . وذلك أنه يرى قبوراً في موضعين : أحدهما أعلى من الآخر ، ويعد أحد الموضعين دون العشرة قبور . وفي الآخر نحو عشرين قبراً . ويصعد إلى المكان ، فلا يرى لذلك أثراً ، ولا يحس منه خبراً . وإني أستقبح أن أحكي هذه الحكاية ولكني بلغتني فكذبتها . ثم رأيتها ، فلزمني حكايتها ».

مع ذلك ، لا تضير رؤية هذه المشاهد وغيرها (١٠٩) الآثار الباقية هنا وهناك من الإسلام الغالب، وهو الإيمان الأساسي. فهنا ضريح النبي ، ومنبره، والأماكن التي مرّ بها ، والأشياء التي لمسها. وهناك جبل أحد الذي آواه في أحد شقوقه وحماه لما جرح في معركته ، وهنالك بردته ، وعهده المكتوب في أديم (١١٠) . وبعد وفاة الرسول ، جاءت مشاهد جديدة لاجدل حولها مثل قبور الصحابيين والعلماء والأتقياء ، المنتشرة في جميع الأقطار تقريباً ، ثم قرآن الخليفة عثمان الذي لم يتهم

---

(١٠٧) المقدسي ، ١٣٠ .

(١٠٨) ابن حوقل ، ٣٥ ، ٢٢٦ .

(١٠٩) انظر خاصة ابن حوقل ، ١٧٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٤٣٤ ، المقدسي ، ٣٣٣ .

(١١٠) ابن حوقل ، ٣٠ ، المقدسي ، ٨١ – ٨٣ ، ١٣٧ (يكررها جزئياً ابن الفقية ، ٢٥) ، ١٧٨ .

بتعاطفه مع الشيعة (١١١) . ثم ذكريات الأموي الورع عمر بن عبد العزيز : قرآن أيضاً ، ومسجد ، وقبر لم يدنسه أبداً أعداء الأمويين(١١٢). وهكذا نرى أن خريطة الشفاعات تتبع بدقة العقيدة التي يدعو اليها الجغرافيون ، وتحث مشاهير اموات الإسلام إلى أداء أعظم واجب ديني ، نعني توحيد الجماعة .

الرباطات : من التعبد العسكري إلى التعبد عامة

لن تكتمل لوحة المشاهد ، إذا لم تضف اليها الرباطات التي يدخلها المقدسي ضمنها . ونحن نعرف المقصود بالرباطات : فهي أماكن محصنة ، متفاوتة الحجم في الكبر ، يوزع متطوعوها أوقاتهم على التعبد وحماية حدود الإسلام (١١٤) . فهكذا تبدو لنا الرباطات النشيطة في تواليها على طول السهوب التركية الفسيحة ، أوعلى تخوم الأمبراطورية البيزنطية . ويثني عليها — وهذا واجب — لدورها ، وعلاقتها الإجتماعية ، وعددها الذي قيل إنه يناهز الآلاف . ويشار اليها أحياناً بظاهرة واحدة : عين أو قبر ولي بنيت حوله (١١٥) .

---

(١١١) ابن حوقل ، ١٧٧ . عن موقف الشيعة منه ، انظر لاووست ، الانشقاقات ص ٧ .

(١١٢) المسعودي (م) ، ج ٥ ، ٤١٦ ، ابن حوقل ، ١٧٩ ، ١٨٢ .

(١١٣) المقدسي ، ٣٣٣ ، آخر ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(١١٤) انظر ج . مارسه ، رباط في م١ ج٣ ، ١٣٣٠ — ١٢٣٣ .

(١١٥) ابن حوقل ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٤٤٥ (مرابطون) ، ٤٨٩ ، ٥٠٤ — ٥٠٥ انظر أيضاً ٤٦٧ — ٤٦٨ و ٥٢٥ ، دون ذكر لفظ رباط صراحة ، الا ان السياق واضح) ، المقدسي ، ٢٧٢ (سطر ٧) ، ٢٧٣ (س٣ — ٤) ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، آخر ٣٣٣ — ٣٣٤ ، آخر ٣٥٨ — ٣٥٩ ، آخر ٣٦٧ — ٣٦٨ ، آخر ٣٧٣ (عن ٣٦١ و ٢٨٣ نفس الملاحظة التي ابديناها عن ابن حوقل).

وأنيطت بالرباطات مهمة دفاعية مماثلة على البحر ، خاصة بحر الروم الذي يتجول فيه العدو البيزنطي : فيتوزع خط من الحصون على ساحله من تونس في اقليم المغرب إلى اقليم الشام (١١٦) . لنسمع مايقوله ابن حوقل عن منستير : « بين المهدية وسوسة رباط يسكنه أمة من الناس على مر الأيام والساعات ، يعرف بالمنستر ، ويقصده أهل افريقية (١١٧) لوقت من السنة ، فيقيمون به أياماً معلومة ، ويحضر بفاخر الأطعمة ، ونفيس المآكل ، ويقيم جميعهم به مدة ، ثم يتفرقون إلى أوطانهم ، وهـو على نحر البحر . وبينه وبين المهدية أيضاً قصر رباط ، يعرف بشقانص ، دونه عندهم في المنزلة ، وهو حصين منيع ، وبه أيضاً أمة مقيمة على صيد السمك . وهما قصران عظيمان على حافة البحر للرباط والعبادة (١١٨) ، عليهما أوقاف كثيرة بافريقية ، والصدقات تأتيهما من كل أرض » .

وأما على البحر باتجاه الشرق ،فيبدو أن الرباط لايكتفي بحراسة الساحل ، بل يهتم بفداء الأسرى حسب رغبة الروم . ويكتب المقدسي عن ذلك ويقول : (١١٩) « ولهذه القصبة (كفر سلام) رباطات على

---

(١١٦) ابن حوقل ، ٦٩ آخر ٧٠ ، ٧٣ ، ٨١ — ٨٢ (سله، لكن ضد البربر الذين يحددون هنا حسب المؤلف بداية العالم غير الاسلامي) ، ١٢١ ، ١٧٥ (بلا لفظ رباط) ، المقدسي ، ١٧٧ ، ٢٠٢ .

(١١٧) القسم الشرقي من المغرب . في النص التالي مباشرة ينبغي ان نفهم : ياتون تباعا .

(١١٨) الرباط والعبادة (ابن حوقل ، ٧٣ ، نفس المرجع ، آخر ٧٠ : محارس مبنية للرباط) .

(١١٩) المقدسي ، ١٧٧ (المقصود سواحل فلسطين ، اذ ان الكورة الرملة) . البرج والمنارة مؤديان بلفظ المنارة . عن الشلنديات والشناني ، انظر م ج ع ، ج ٤ ،=

البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم ، معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون اليهم في الرسالات ، ويحمل اليهم أصناف الأطعمة ، وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم . فإن كان ليل . أوقدت منارة ذلك الرباط . وإن كان نهار دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيهـــا أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ، ثم التي تليها ، ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد انفر بالقصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة ، واجتمع أحداث الرساتيق ، ثم يكون الفداء ، فرجل ، يشتري رجلا ، وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم » .

وتقوم رباطات أخرى بالحراسة داخل حدود دار الإسلام (١٢٠) ، فتشهد على وجود سلطة واعية في شكل مسلحة مثلا واستعداد لقمع محتمل دوماً ، جهز له رجال وسلاح وخيل . لكن يمكن أن توقف الرباطات على سابلة الطريق ليستجار بها في شدة البرد من الثلوج وفي شدة القيظ من الحر . وهكذا نرى أن صفة الرباطات الحربية

= ٢٧٦ و ٢٧٩ احداث ، عن وجود مثل هذه الجماعات حول رئيس في قرى اقليم الشام ، انظر ك . كاهين ، الحركات الشعبيةو الاستقلال الذاتي في آسية المسلمة في القرون الوسطى مسحوب مستقل من مجلة ارابيكا ، ٥ روماني ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢٦ — ٢٥٠ ، انظر ص ٢٤٤ خاتم . جلد يميستر روماني، ص ١٨٨٤ ، ص ١٧٠ ، حاشية ٨٦ . عن هذه الأفدية للاسرى التي اشار اليها المسعودي أيضاً انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٧٠ —٤٧١ .

(١٢٠) ابن حوقل ، ١٢١ (لم نأخذ بعين الأعتبار تحفظات المؤلف الضمنية أو الصريحة تجاه صقلية .

تظهر متقطعة تبعاً لوجود أعداء ، وتزول كلياً . ومتى زالت ، فليست الإستجارة بها التحول الوحيد الذي يطرأ عليها ، بل تصبح الإقامة فيها اجتماع أصدقاء بسيط ، كما كنا نقدره في منستير . وتكفي خطوة أخرى ليصل الرباط إلى مستوى محل لهو وحتى تهتك . وهذا ما يحصل لي على حد قول ابن حوقل (١٢١) في صقلية : « فيها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق ، متمردين ، شيوخ وأحداث ، وغثاث رثاث ، قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات . . . ويقصدهم من اعوزه المكان لبطالته والموضع لعيارته » .

ويشاء حسن الحظ أن نجد ماهو أرصن . ففي المدن كما في المفاوز ، تستعمل الرباطات فنادق أو مأوى للفقراء (١٢٢) . وفي بعض الأحيان ، تبدو التسمية مرادفة لخانقاه أي دير الصوفيين (١٢٣) وأجد الرباط مستعملا بهذا المعنى في بلدان نهر سيحان ، أو مدن الصغد أو خراسان أوخوزستان . ويبنى الرباط حول قبر أو ذخيرة ، على نمط واحد أحياناً عند أبواب المسجد الاربعة ، ويحتمل أن يذكر بوظيفته الحربية ، إلا أن النصوص جافة وغير دقيقة ، لاتسمح دوماً

---

(١٢١) ابن حوقل ، آخر ٣٤٩ ، ٤٠١ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤ ، المقدسي ، ٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٤٣ وما يليها ، ٤٠١ ، ٤٥٥ ، ٣٦٣ — ٤٩٥ .

(١٢٢) انظر م ج ع ، ج٤ ، والمقدسي ، ٢٩١ (س ١٧) ، ٣٠٩ ، ٤٢٥ (س ١٥ في النص المترجم من قبل ، في بحث الصوفيين) ، ٤٧٨ .

(١٢٣) انظر ج . شبي ، م١(٢) ، ج٤ ، ٤ ، ٢٠٥٧ . عن الأمثلة المذكورة هنا ، انظر المقدسي ، آخر ٢٧٢ — ٢٧٣ ، ٢٨١ (مرابطون) ، ١٩١ (س ١٠ — ١١) ، ٣٣٣ ، ٤١٢ ، آخر ٤١٤ — ٤١٥ رباط مقترن بالتصوف) .

باتخاذ رأي حاسم . مع ذلك إذا حكمنا في غاية النهاية ، على مجموع انتاج الجغرافيين ، تبين لنا الفكرة والمصطلح قيد التطور التام، وتؤكد أنّ وجود صوفية ديرية متزايدة القوة ، تفرض نفسها بشكل من اشكال الورع الإسلامي ، وهو ورع يقره الجميع تدريجياً .

* * *

الفصل الثالث

العرب وغير العرب

تثبت كثرة المذاهب والشعائر والإتجاهات أن الإسلام كان متراصاً في الماضي وأنه مايزال متماسكاً في الحاضر . وينبغي إضافة ناحيتين دقيقتين : الأولى اتنية تجعل العرب على صلة بلغات وثقافات مختلفة ضمن دار الإسلام ، والثانية دينية تتمثل في أن بعض الطوائف ، العربية أو غير العربية، تقطن في دار الإسلام دون أن تؤمن بإيمانها . ونخصص هذا الفصل للناحية الأولى .

نقاش اساسي

ورث الجغرافيون في هذا المجال خلافاً صيغ بأشكال متنوعة ، تناول مكانه العرب في دار الإسلام التي أسسوها ودورهم فيها . فهل هم الأسياد فيها أم اسياد، بين اقران لهم ،أم أقران بين أقرانهم ؟ هذه هي القضية المطروحة. ونعرف جيداً أنها أثارت ما لا نهاية له من مناقشات، سوف نستعرضها بإيجاز عند الجغرافيين الذين عني عملهم بما اتفق على تسميته علم البلدان . ثم نتساءل عما تبقى من هذا النقاش بعد اختبار الأحداث ، نعني من اللوحة الحسية التي تعتمد على الأسفار مثلما

مارسها الجغرافيون في أوج نشاط الجغرافية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ويتناول الجدل وضع البدو والحضر أولا . ويقول المسعودي(١) إن البدو يضمون أقواماً شتى ، خاصة البربر والأكراد والأتراك ، وطبعاً قدماء العرب الذين يمثلون على أفضل وجه هذا النمط من الحياة ، ويدافعون عنه باسم الحرية والصحة ، ويرون أن « جولان أرض ، وتخير بقاعها على الأيام أشبه بأولي العز ، والبق بذوي الأنفة ، وقالوا : لنكون محكمين في الأرض ، ونسكن حيث نشاء ، أصلح من غير ذلك » . هذا بالنسبة إلى الحرية ، أما الصحة ، فيجب فهمها بمعنيين . فحذار من المدينة ، لأنها مصدر جميع المصائب الجسدية والمعنوية « وزعموا أيضاً أن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه عن المرور ، وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح الذي لايخافون فيه من حصر ومنازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الاقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن ، مع صحة الأمزجة ، وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ومتانة الأجسام » .

ويتناول الجدل خراسان أيضاً . فمنها انطلق التمرد على الأمويين العرب . ويصف محمد بن مسلم بن قتيبة أهلها بأنهم أنصار الدولة (٢) ، على حد قول ابن الفقيه نقلا عنه ، ويلح على ذكائهم ، ويقول إنهم

---

(١) المسعودي (م) ، فقرة ١٠٨٦ — ١١٢١ .

(٢) ابن الفقيه ، ٣١٥ . عن ابن الفقية والجغرافية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ٥٩ — ٦٨ .

انتزعوا الملك من بني أمية من أكبر ملوكهم سناً ، وأشدهم حنكة ، وأحزمهم رأياً ، ثم يمتدح المناطق الشرقية في دار الإسلام . ويستأنف ابن الفقيه كلامه ، فينقد نقداً المناطق الشرقية (٣) ، ويجعل خراسان، على ماجاء في الحديثين (٤) ، حامية الحق ودين الله ضد الأمويين .

وينظر المسعودي إلى النقاش الأساسي من زاوية حياة الإنسان ، ويتأمله ابن قتيبة وابن الفقيه من زاوية المثالية السياسية في زمن أو بلد معينين ، أو عند أحد الأقوام ، لكن يظل هذا النقاش في الحالتين وفي التحليل الأخير نزاع الشعوبية أو « النزعة القومية الفكرية » (٥) الفارسية بالدرجة الأولى ، التي تطالب حيال التقليد العربي ، بما نسميه اليوم بالتباين . وأذكر هنا الموسوعي ابن عبد ربه (٦) الذي يلخص الجدل

---

(٣) يبدو الجاحظ من خلال هذاالنقد عن طريق موضوع البخل ، انظر ابن الفقية ٣١٦ .

(٤) فيهما ميل شيعي أو قريب من الشيعة (علي وعبد الله بن مسعود : بشأن هذا الأخير ، انظر ج . س . فادية ، م١ (٢) ، ج٣ ، ٨٩٧ – ٨٩٩ ، وما تقدم ، فصل ٢ حاشية٢) : ابن الفقية ، ٣١٧ – ٣١٨ .

(٥) انظر ج . فون غرونباوم الاسلام في القرون الوسطى : تاريخ وحضارة ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢٣ ، ومحسن عزيزي ، السيطرة العربية وازدهار الشعور القومي في فارس في القرنين الثاني والثالث ، باريس ١٩٣٨ ، اماكن متفرقة . مثال على تناول النقاش بصيغ الادب عند التوحيدي ، الإمتاع ، ج١ ، ٧٠ – ٨٩ وأماكن متفرقة

(٦) العقد الفريد ، ج٣ ، ٤٠٣ – ٤١٢ . بشأنه ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ص ٢٧ روماني ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ .

في عرض لايتجاوز بضع صفحات ، ويقول : الشعوبية ، بلا تنميق ، تعني المساواة ، وعلى وجه الدقة المطالبة بمساواة لاوجود لها في الواقع (٧).

والمساواة بالدين أولا . فجميع البشر من طينة واحدة عند الله . ولعل التحدث عن فروق وتفوقات كان وارداً في العهود الوثنية . أما « بعد أن نالت البشرية الإسلام ، فقد أصبح الأعجام (٨) نصفه » ثم إن النبي أعلن في خطبة الوداع أن لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . « تلي الحجة القومية المبنية على التاريخ ، مثل موضوع ملوك العالم الذي يشارك كسرى الإسكندر وفرعون وامبراطور الروم وملوك الهند في أمجاد العالم . وأسوأ من ذلك الحديث عن الأنبياء ، لانطوائه على الخداع . فقد زعم أن جميع الأنبياء الذين دعوا إلى الإله الحق ليسوا عرباً ، ماعدا هود وصالح واسماعيل ومحمد . ويدعي غير العرب بهذا الشأن أنهم « الجذع والعرب الغصن » . أخيراً يعطى الإثبات الحضاري : فقيمة فارس ناشئة عن فن الحكم والعدل وتأسيس المدن وانتاج الأعمال الذهنية . وحتى بالشعر ، لاتتمتع جزيرة العرب بالتفوق الذي تنسبه لنفسها : فالبعض يشيد بالروم في هـــذه الناحية .

ويتيح ابن عبد ربه فرصة الكلام لابن قتيبة : فيقوم هذا الاخير بهجوم معاكس شديد ، يبدأ فيه بالدين ، ويقول : لا ريب ان المؤمنين متساوون بالايمان وبالحساب الاخير . اما في الحياة الدنيا فلا . فمستويا الحياتين يظلان مختلفين على الدوام ، لأن الطبيعة قضت بتباينهما اصلا ، وجعلته مفيدا ، بل ضروريا في المجتمعات البشرية ، المحكوم عليها ، لو لا وجوده ، بالفناء ، مثلما يفنى الجسد لو لا تركيبه من عناصر متمايزة . ويجيب انصار الشعوبية لحسم الجدل بقولهم : انما

---

(٧) الشعوبية وهم أهل التسوية . الموضوع يتعلق بالتسوية (تحقيق المساواة) وليس (مساواة ملحوظة)

(٨) الأعجام ، بالدرجة الاولى الفرس . له أيضاً معنى آخر اندر : وثني : انظر اليعقوبي ، آخر ٢٥٥ ودوزي ، ج٢ ، ٩٨ .

الكريم من كرمت افعاله . ويشبه هذا الكلام قول موليير : لا جدوى من المجتهد الكريم بلا فضيلة . (٩) .

وترد المطالبة ذاتها ، صراحة أو ضمناً ، في النصوص الجغرافية في كثير من المواضع . ففي الجغرافية الإدارية ، يذكر اليعقوبي أنهم كانوا في أحد بلدان آسية الوسطى (اسروشنه) يمنعون العرب أن يجاوروهم (١٠) . وفي جغرافية الأدب ، يعيد ابن الفقيه الكرة ، ويؤكد أن عقيدة القرآن لم تميز بين العرب والعجم ، بل ساوت بين الفريقين (١١) . وإذا استعرضنا الجغرافية في احدى الموسوعات ، وجدنا أن ابن رسته يشير إلى المساواة ذاتها بطريقة غير مباشرة ، فيعدد مهن مشاهير الرجال ، لاسيما أشراف العرب الذين يتعاطون أعمالا يدوية متواضعة (١٢) . ويدعو قدامة إلى الأخوة الاسلامية ، ويبرز أن الفرس في الجاهلية أعطوا مثالا على الدفاع عن المملكة ضد الروم (١٣) . أخيراً لا ريب أن المسعودي أصرح جميع الجغرافيين . فهو يرى ، بالنسبة إلى الماضي ، كما قلنا (١٤) ، أن الفرس يراعون من تواريخ ماسلف مالا يراعيه غيرهم ، وكانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام ، وتطوف به ، وتزمزم على بئر اسماعيل (١٥) . أما

(٩) موليير ، دون جوان ، فصل ٤ ، مشهد ٤ .

(١٠) اليعقوبي ، ٢٩٤ (حول علاقاته بالجغرافية الادارية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١٠٢ — ١٠٤ و ٢٨٥ — ٢٩٢ .

(١١) ابن الفقية ، ١٧ — ١٨ . صفات اخرى للشعوبية ز المرجع ذاته ، ١٩٧ ، ٣١٧ ، واماكن متفرقة .

(١٢) ابن رستة ، آخر ٢١٤ — ٢١٦ ترجمة ، ٢٥٤ ، حاشية ١) .

(١٣) قدامة ، ٢٥٢ (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٧٢ و ٢٧

(١٤) الفصل الأول : « السلطة : من الشك الى زوال الوهم » .

(١٥) المسعودي (م) ، فقرة ٥٧٣ — ٥٧٥ ، المقارنة بزمزم ميسر المستعمل في الصلوات الزرادشتية : زمزم (تمتم) . انظر الاحالات في كت

بالنسبة إلى المستقبل ، فالمسعودي عربي أصيل ، يترك الكلام لفارس ، عندما تحلم مجدداً بقيادة العالم (١٦) . وهذه تنبؤات لاأساس لها ، تتأسى بها الأمة المهزومة . فلنجر النقاش بوضوح تام دون أن نخفي شيئاً منه .

الفرس والعرب

فهل نقول إن الجغرافيين عادوا إلى الجدل القديم ذاته في آخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ؟ فقد كان يمكنهم أن يرفضوا مثل هذا التراث أو أن يستخدموه لأغراض أخرى . في الواقع يلاحظ أن الجدل يتخذ عند ابن حوقل والمقدسي شكل الرحلة في اختبار الأرض والأحداث . فيجوز طبعاً أن يكال المديح لأحدى السلالات الفارسية ، مثلما أثني على السامانيين ، أو على النقيض أن يلام الحمدانيون في حلب والموصل ، لكن ، كما رأينا ، لحكمة أو جهل سياسيين صريحيين ، لاباسم ماض يدعو لصالح فريق أو ضده . كذلك ، قد يشاد بالمدن والمناطق الفارسية ، إلا أن الميزان يميل دوماً إلى التوازن لصالح العرب . ولا يختلف الوضع في مسألة النقد .

ونقول بإيجاز إن الأمور تجري ، كما لو أن ابن حوقل والمقدسي يتهربان من جدل المنهج العلمي والتاريخ (١٧) ، ولا يحتفظان إلا بما

=ودمنة ، ترجمة ا . ميكيل ، باريس ، ١٩٥٧ ، اعادة طبع ٨٠ - ١٩٨٠)ص ٣٢٦ ، حاشية ١٤ . انظر أيضاً المسعودي (ت) ، ١٥٥ .

(١٦) المسعودي (ت) ، آخر ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٦ . عن اشكال اخرى لهذا التمجيد ، المرجع ذاته ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

(١٧) يترك التاريخ بالمقابل آثارا كثيرة في نواحي اخرى : انظر مثلا اليعقوبي، ٣١٢ ، الفقية ، ١٢٨ ، ١٧٨ ، ابن رستة ، ٢٢٦ ، المسعودي (م) فقرة ١٥٦٤ .

يشاهدانه عياناً . وفي الحقيقة ، إذا نظرنا نظرة عامة إلى الشعبين العربي والفارسي ، لاحظنا أن الفرس يبدون في مصنفي ابن حوقل والمقدسي أناساً مستقرين بعيدين جداً عن الفضول العلمي ، خلافاً لغيرهم من الأمم ، أعني أصلا بدو الماضي والحاضر ،وفي طليعتهم العرب الذين يناقضونهم في مملكة الإسلام ، وهي مجال التجارة والمدن الشاسع .

إذن لدينا من جهة أولى الفرس الذين يشار إشارة عابرة إلى ندرة وجودهم خارج بلدانهم ، وإلى تقويمهم أو إلى إنتشار لغتهم الواسع في الغالب (١٨) . ولدينا من جهة اخرى مجال التوسع العربي غرباً نحو واحات مصر وحتى المغرب ، وشرقاً نحو التخوم الشرقية في العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وحتى وادي نهرمهران (١٩) .ولابد من اضافة موطن العرب الأصلي ، أي بادية العرب ، التي يأتون منها أحياناً ، ليتمونوا من المدن الواقعة على الحدود ، مثل عمان (٢٠) قبل أن يرجعوا إلى حياة الفاقة ، يتغذون غذاءاً سيئاً بنوع من الخبز الرديء ولحم الأفاعي واليرابيع ، ويحرسون القوافل أو يسلبونها ، بما فيها قوافل الحجاج (٢١) .

---

(١٨) المقدسي ، ٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٤١٤١٣ – ٤٤٢ ، وما يلي الفصل ١٤ من أجل الجغرافية اللغوية .

(١٩) ابن حوقل ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ز ، آخر ١٧٦ ، ٢١١ – ٢١٣ ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ – ٢٢٢ ، ٢٢٥ – ٢٢٦ – ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، آخر ٢٤٩ ، المقدسي ، ١٧٥ (حاشية ى) . ٣٠٣ ، ٤١٤ ، ٤٦٢ ، آخر ٤٨٠ ، حدود العالم ، ١٠٨ .

(٢٠) المقدسي ، ١٧٥ (حاشية ى) ، انظر أيضاً ابن حوقل ، ٢١٧ (الجزيرة)

(٢١) المقدسي ، ٢٥٢ (انظر أيضاً جغرافية دار الاسلام ، ٣ ، ٧٨ – ٨٠) .

ويتحضر هؤلاء البدو متى خرجوا من حيزهم التقليدي ، كما حصل في مدينتي العراق الجديدتين البصرة والكوفة ، اللتين هاجر البدو منهما في وقت لاحق إلى الموصل وإلى غيرها من مدن الجزيرة وأريافها (٢٢) . مع ذلك ، فضلوا أحياناً تطبيق نمطي حياة (٢٣) في بعض الأماكن ، أو المحافظة على تبديهم . وعملوا مرتزقة حتى في خدمة الروم ، وقطاع طرق كقبائل كاملة متى سنحت لهم الفرصة،وأحاطوا المدن بخطر داهم دائم ، عدّه المقدسي أحد مزعجات البلدان التي زارها (٢٤) . وهذا الوصف قاس كما نرى ، لايعوض عنه تدوين عرضي عن صفاء اللغة أو جمال الوجوه (٢٥) .

البربر

الإهتمام بالبربر قديم قدم النصوص الأولى التي بدأت ترتسم فيها معالم الجغرافية العربية . فابنخرداذبه يظن أن فلسطين دار البربر ،وان ملكهم جالوت ، الذي قتله داود ، فجلت البربر إلى المغرب ، ونزلت الجبال والرمال ، وكرهت نزول المدن ، وتركتها إلى الرومية . ويرى اليعقوبي أن أهل برقة قوم من أبناء الروم القدامى الذين كانوا أهلها قديماً ، وقوم من البربر . وينسب المقدسي البربر إلى عمالقة فلسطين الذين أمعن يشوع بن نون بتقتيلهم،وذهب الناجون منهم إلىالمغرب.

---

(٢٢) ابن حوقل ، ٢١٥ ، ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٢٣) ابن حوقل ٢٢٨ ، ٢٤٧ .

(٢٤) ابن حواقل ، آخر ١٧٦ ، ٢١١ – ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، المقدسي ، ١٤١ ، ٤١٤ .

(٢٥) المقدسي ، ١٢٦ .

ويعيد إبراهيم بن وصيف شاه نسبهم إلى حام ، لكنه يذكر نظرية أخرى ترجع أصلهم إلى اليمن . أخيراً يتردد المسعودي بين حام واليمن وربما قبيلة الغساسنة ، وقيس عيلان من عرب الشمال (٢٦) .

مع ذلك بلاد البربر معروفة جيداً . فهي تشمل المغرب بأجمعه من سودان نيجيرية إلى البحر المتوسط ،وإلى بحر الظلمات غرباً ، ويضاف إلى بربر المغرب جماعات منهم دخلت الأندلس (٢٧) . ويشار إلى دورهم في تجارة الصحراء الكبرى ، لاسيما تجارة الرقيق (٢٨) ، وهم حضر أحياناً ، وبدو في الغالب ،ويؤلفون قبائل تذكر أسماؤها عند الحاجة (٢٩) . ولهم عادات مستغربة أحياناً ، مثل أكل لحوم الكلاب التي تباع على الفنارات كسائر اللحوم (٣٠) . إلا أن صفتهم الرئيسة هي الغلظة مع غشامة وسوء خلق ، حتّى قيل : الحدة عشرة أجزاء تسعة منها في البربر وجزء في الناس (٣١) .

هنا أيضاً يمحص جغرافيو آخر القرن ٤ هـ/ ١٠ م المعرفة الموروثة ، ويكتفون بتدوين مايعاينونه أو يثقون بصحته . ويختلف ابن حوقل

---

(٢٦) انظر ابن خرداذبه (ورد من قبل الفصل ١ ، الحاشيتان ٨ و ١٨ ، اليعقوبي ، ٣٤٣ ، المقدسي ، ج ٤ ، ٦٤ ، وصيف شاه ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١١٢ – ١١٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ١١٦٧ .

(٢٧) المقدسي ، ج ٤ ، ٦٤ – ٦٥ ، الاصطخري ، ٤٥١ – ٤٥٢ ، الرازي ، ٨٣

(٢٨) المقدسي ، مشار اليه .

(٢٩) الاصطخري ، ٤٥١ ، ابن الفقيه ، ٨٣ ، المسعودي (م) ، فقرة ١١٠٤

(٣٠) الاصطخري ، ٤٥٢ . انظر أيضاً المقدسي ، ٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢٤٣ بشأن مصر ومدينتين في المغرب ، دون الاشارة الى البربر (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ٣٣٦ ، حاشية(١) .

عن المقدسي اختلافاً بيناً . فالمقدسي لم يزر المغرب قط ، ويتحدث عنه سماعاً أو من خلال مطالعاته ، ويقتصر على الإشارة ، عند الحاجة ، إلى وجود البربر حول قابس مثلا ؛ أو إلى الشبه بين طباعهم وطباع سائر الشعوب (٣٢) . ويعتبر التدوين التالي المطنب بعض الشيء شاذا (٣٣) :
« والغالب على بوادي هذا الإقليم (اقليم المغرب) البربر ، أكثرهم بكورة السوس (٣٤) ، وهم قوم على عمل الخوارزمية ، لايفهم لسانهم ، ولا ترضي طباعهم ، مع خسة وشدة » .

ويتخذ وصفهم أهمية كبرى عند ابن حوقل ، أفلأنه يعتبر االبربر احتياطياً بشرياً جاهزاً تستعين به مغامرة الفاطميين الذين يتعاطف معهم ؟ (٣٥) . مهما يكن فيما يلي ماكتبه عنهم (٣٦) :

« لايقارب (بلد الروم) أسباب المغرب وحدّه ، ولايدانيه ولايشاكله في وجه من الوجوه لأني قد ذكرت من قبائل البربر المتبدين في صحارى المغرب ، ما يستولي على ضعف عدد من تحوزه نواحي الروم ، وما

---

(٣١) المقدسي ، مشار اليه ، ابن الفقية ، ٨٤ .

(٣٢) المقدسي ، ٢٢٤ ، ٢٨٦ ، (مقارنة مع الخوارزميين في المقطع اللاحق) .

(٣٣) المقدسي ، ٢٤٣ ، مع احالة الى أكل لحوم الكلاب غير منسوبة بصراحة لى البربر : انظر ما تقدم في الحاشية . اضف عن اللغة ، ابن حوقل ، ١٤ : لهجات ولغة مشتركة .

(٣٤) المغرب الأقصى الجنوبي .

(٣٥) انظر ج . س . غرسين ، ابن حوقل والمشرق والمغرب مجلة المغرب المسلم والمتوسط ٣٥ روماني(١) ، ١٩٨٣ ، ص ٨٧ .

(٣٦) ابن حوقل ، ٢٠٠ .

عندهم من القوة والجلد ، ومحلهم في البأس والشدة ، فإنهم بحيث إذا دخل لهم جيش من المغرب إلى أرض الروم (٣٧) أباده وأباره وأهلكه وأتى عليه . وتتسرب العدة اليسيرة في أقطاره ، فتنشفها ، حتى أن لأهل المغرب على أهل قلورية في كل سنة جزية آلاف دنانير كثيرة تقبض منهم » .

يبدو الشعور بأن البربر رأس مال بالرجال والقدرات واضح جداً في كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، لإتساع المساحة المشمولة أولا . ويستغرب المرء اغفال الحوقلي الإشارة إلى وجود البربر في الأندلس ، مع أنه يتتبعهم من المغرب الأقصى أو أعماق الصحراء الكبرى إلى صقلية ومصر (٣٨) . ويسمي قبائلهم أو يعددها ، ويعلن مع ذلك أن عمله جزئي وأن عرضه كاملا أمر مستحيل . (٣٩) . ويصف أيضاً نمط حياتهم . فهم حضر ، يستقرون بين أشجار الزيتون أو في حقول القمح والشعير والقطن ، أو يلزمون مخازنهم في المدينة ، أو يلتحقون بالجيش (٤٠) . مع ذلك، يظلون في حالات كثيرة أنصاف بدو : فيربون عندئذ قطعان الحيوانات ، متنقلين بين السهول والجبال ، ويعملون في الزراعة متى كانت التربة صالحة لها(٤١) . أخيراً البربري

---

(٣٧) ايطالية الجنوبية كما سوف نرى .

(٣٨) ابن حوقل ، ٦٨ — ١٠٧ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٤٠١ ، آخر ٤٤٤ .

(٣٩) ابن حوقل ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ — ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، آخر ١٠٧ .

(٤٠) ابن حوقل ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٨ .

(٤١) ابن حوقل ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ١٠٢ — ١٠٤ .

البدوي سيد طرق القوافل ، وسلاب وطالب فدية (٤٢) . وله معرفة بأوضاع المغاور التي يسكنها . وهو فقير بائس ، لم يَرَ الحنطة ولا الشعير ، يغلب عليه الإتشاح بالكساء ، لايعرف الطعام ، ولم يشاهد قط حاضرة،حتى عبر الكوخ الذي يأوي اليه أحياناً.لكنه متمرس – مثل قرينه التركي أو الخوارزمي البعيدين عنه في آسية الوسطى – على معرفة أوضاع البر وأشكاله رالهداية فيه (٤٣) .

والبربر قوم أباة ، بهم جلد وبسالة وذكاء وكرم على المارة يصل إلى حد الإفراط : فهم وأولادهم يبذلون أنفسهم لأضيافهم على سبيل منتهى الكرم . فهذه هي صفات البربر التي تتلخص في التناقض بين الغلظة والرقة ، وبين الشرف والخسة ، وبين الحياء والفسق (٤٤) . ويرى تنافر مماثل في السياسة والدين : فمن جهة أولى ، يتهورون بالإتجاه إلى الإعتزال أوالمشتبهة أو حتى المروق من الدين ومن جهة أخرى ، يتشيعون ، بل يعقدون الآمال على ترسيخ الإخلاص للفاطميين لكي يزدهر المغرب حيال الأندلس الأموي (٤٥) . خلاصة القول ، البربر محيرون ،لكنهم واعدون في نظر ابن حوقل المسحور بالأقوام الجديدة(٤٦)

---

(٤٢) ابن حوقل ، ٧٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٠ ، ١٠٣ .

(٤٣) ابن حوقل ٨٤ ، ١٠١ – ١٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٤٠١ .

(٤٤) ابن حوقل ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٥ – ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ (يتلثمون وهم اطفال ، ويزعمون ان الفم سوءة تستحق الستر كالعورة) ، ١٠٣ (جمال الابدان) .

(٤٥) ابن حوقل ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، آخر ٩١ (غير منسوبة الى البربر : المالكيون من فظاظ الحشوية في المغرب الأقصى الجنوبي .

(٤٦) غرسين ، ابن حوقل ، ٨٧ .

الاتراك في دار الاسلام

ويعد الأتراك من نخبة البدو أيضاً . وشخصيتهم ذات وجهين جغرافياً ودينياً ، لأن بعضهم يقطن في دار الإسلام ، وبعضهم خارجها . وقد وصفتهم في كتاب سابق (٤٧) ، فلن أكرر وصفهم هنا . وأكتفي بما ينسب اليهم من خصال فيما وراء الحدود . وهم قلائل هناك . وإذا استثنينا أتراك التخوم ، الذين اعتنقوا الإسلام (٤٨) ، ولا يختلفون عن اخوانهم في الخارج ، تجلت أمامنا صورة جندي من جنود النخبة في جيوش بغداد أو الإمارة السامانية في خراسان (٤٩) . ولا يفاجيء هذا الوصف الموجز أحداً ، لأن الأتراك لن يتدفقوا من مرتفعات آسية الوسطى ، كأقوام بقبائلهم كاملة إلا بعد القرن العاشر .

مع ذلك، نسوق كلمة موجزة عن بقعتين بدا وجودهم فيهما يتثبت . البقعة الأولى المجرى الأسفل من جيحون (أكسوس ، أموداريا) ، أو خوارزم، وهي بلاد فارسية قديمة ، تعرضت للضغط التركي ، الذي اشتد قبل ان يظفر كلياً بدءاً من القرن ٥ هـ / ١١ م (٥٠). ففي أواخر القرن ٤ هـ / ١٠ م ، اعتبرت هذه البقعة حواراً بين السهوب والواحة الكبرى المروية بتشعبات النهر (٥١) . ولأهلها بنية ولحى تنم عن قسوة المناخ . وهم يعرفون مفازتهم معرفة جيدة مثل معرفة البربر

(٤٧) جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٠٣ - ٢٥٥ .

(٤٨) انظر مثلا ابن حوقل ، ٥١١ .

(٤٩) ابن حوقل ، آخر ٣ - ٤ ، ٤٦٨ - ٤٧١ .

(٥٠) انظر س . ا . بوسورث ، م١ (٢) ، ج٤ ، ١٠٩٣ - ١٠٩٥ .

(٥١) ابن حوقل ، آخر ٣٥ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ - ٤٨٠ ، المقدسي آخر ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ .

لمفازتهم (٥٢) . ويصطادون السمك من مصب جيحون في بحيرة خوارزم . ومحاصيل زراعتهم جيدة (٥٣) . إلا أن الأسفار هي التي تجتذب الخوارزميين : فهم يغزون الترك المجاورين لهم ، ويأسرونهم ، ويأخذونهم رقيقاً ، ولهم تجار يتوغلون بعيداً في أعماق آسية أو يصلون إلى بلدان نهراتل ، ويحصلون على الفراء والرقيق (٥٤) .

وخوارزم غريبة قطعاً . ويقال لنا انها اقليم منقطع عن خراسان وعن ماوراء النهر ، وتحيط به المفاوز من كل جهة . مع ذلك ، لم يضم إلى سائر أصقاع التبعية السامانية (٥٥) . ولا تقضي التجارة وحدها على عزلتها . فنحن نعرف أنها كانت أحد أنشط مراكز الثقافة العربية الإسلامية . ويمتدحها المقدسي بحق لهذا السبب ويقول : « وأقل إمام في الفقه والأدب لقيته ، إلا وله تلميذ خوارزمي » (٥٦) . لكن أين نحدد بوضوح موقع هذا البلد على خريطة الأمم التي تتألف منها دار الإسلام ؟ بالفعل لدينا فارس من جهة : وابن حوقل يحكم على طرافة خوارزم في نطاق خراسان (٥٧) ، وتؤيد تسمية الأماكن وحدها معنى هذا المرسى في أحد أقنية الماء العميقة أو الخطرة ، المعروفة باللغة

---

(٥٢) ابن حوقل ، آخر ١٠١ — ١٠٢ ، ٤٥٣ ، المقدسي ، ٣٦،٣٤ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ .

(٥٣) ابن حوقل ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، المقدسي ، ٢٨٦ .

(٥٤) ابن حوقل ، ٣٤٢ ، ٤٦٧ ، آخر ٤٧٧ ، ٤٨١ — ٤٨٢ ، المقدسي ، آخر ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ٢٨٩ .

(٥٥) ابن حوقل ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٩٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، المقدسي ، ٣٣٧

(٥٦) المقدسي ، ٢٨٤ آخرها .

(٥٧) ابن حوقل ، آخر ٤٨١ .

الفارسية بـ « غاو خوار » أي لحم الثيران (٥٨) ، أو معنى خوارزم ذاتها ، الشهيرة باللحم (خواره بالفارسية) ، وحطب التدفئة (رزم) (٥٩) .
إلا أن الأعراف بلا ريب تشبه الخوارزمي بالتركي : فلهما زي واحد : القراطق والقلانس (٦٠) ، ويدبغون الجلود بطريقة مماثلة (٦١) ، ولهم خيم مستديرة واحدة (٦٢) .

ونترك الكلمة الأخيرة للمقدسي . فلديه قصة تاريخية ، تدخل خوارزم في وقت قريب ضمن عالم الأتراك ، الذي تتراءى لنا صورته بين السطور . ويقال (٦٣) ان ملك الشرق في القديم غضب على أربع مائة رجل من أهل مملكته ، فأمر بحملهم إلى موضع منقطع عن العمارات . ثم أمر أن يحمل اليهم أربع مائة جارية تركية . « فإلى اليوم ، قد بقي فيهم شبه من الترك » . وسئل أحد الخوارزميين لم رؤوسهم تخالف

---

(٥٨) ابن حوقل ، ٤٧٩ ، من الفارسية غاف ، ثور ، وخوار غذاء (الصحيح لحم) .

(٥٩) المقدسي ، ٢٨٥ .

(٦٠) ابن حوقل ، ٤٨١ (مقارنة لم يبرزها المؤلف ، لكن انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ٢٣٤) .

(٦١) ابن حوقل ، ١٦٢ (هنا المقارنة بارزة) .

(٦٢) المقدسي ، ٢٨٥ : كاخاخات ، دي خوية (م ج ع ، ج ٤ ، ٣٣٨) يتردد ويرى فيها على سبيل الاحتمال جمع كوخ بالفارسية . اميل انا الى الظن بان الكلمة تحريف خركاهات جمع خرجاه بالعربية أي خيمة مستديرة . انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٢٢ (حاشية ٤) ، ٢٢٦ (حاشية ٧ من ٢٢٥) ، ٢٦٥ (حاشية ١) ، ٢٧٦ (مصحح في المقطع سطر ١٣ : الموضوع يتعلق بمحاربين خوارزميين بلا تدقيق آخر) ، ٢٩١ حاشية ٧) .

(٦٣) المقدسي ، ٢٨٥ — ٢٨٦ .

رؤوس الناس ، فقال : « كانوا يغزون الترك ، فيأسرونهم وفيهم شبه من الترك ، فما كانوا يعرفون . فربما وقعوا إلى الإسلام ، فبيعوا في الرقيق . فأمروا النساء إذا ولدن أن تربط أكياس الرمل على رؤوس الصبيان من الجانبين ، حتى ينبسط الرأس . فبعد ذلك لم يسترقوا ورُدَّ من وقع فيهم إلى الكورة » . اذن يقال ان الفرق بسيط ، مثلما نرى ، ولم يلبث الأتراك أن تدفقوا على البلاد ، فزال الفارق .

وننتقل الآن إلى البقعة الثانية ، إلى أرض جبال الغور في وسط أفغانستان . فمياهها واسعة ، تشمل أربعة أنهار تنزل منها إلى بلخ ومرو وهراة وسجستان . وهي حصينة ومنيعة وشبه مجهولة في النهاية (٦٤) . ويجمع الجغرافيون على اعتبارها دار كفر في دار الإسلام . وقد أقيم فيها خط من الرباطات والحصون ، غايتها الهجوم لا الدفاع : فصارت تلك الجبال ميدان حرب يؤخذ منها الرقيق (٦٥) ويجلب منها الأسلحة والأغنام (٦٦) لكن بطريقة سلمية بلا ريب .

لكن من يلوذ بجبال الغور ؟ يحدثنا كتاب حدود العالم عن قوم بشرتهم فاتحة ، أو على النقيض داكنة نوعاً ما ، وعن ملكهم غورشاه الذي يتبع هو وجار له شمالي ، ملك الغرج ، عاهل الجوزجان شمالي

---

(٦٤) ابن حوقل ، ٤١١ (الخريطة) ، ٤٤٤ ؛ المقدسي ، ٢٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٩ – ٣٣٠ ، ٣٤٩ – ٣٥٠ ، حدود العالم ، ٦٣ – ٦٤ ، ٧٣ ، ١٠٤ ، آخر ١٠٥ ، ١١١ ومينورسكي ، المرجع ذاته ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ – ٣٤٤) .

(٦٥) ابن حوقل ، آخر ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٤٤ ، المقدسي ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، حدود العالم ، ١١٠ (الغور وثنيون من قبل ، لكن مسلمون على نطاق واسع اليوم : تقدير مبالغ فيه في الحد الأدنى ، انظر مينورسكي ، المرجع ذاته ، ٣٤٤) ، ١١١ .

(٦٦) ابن حوقل ، ٤٥٢ ، حدود العالم ، ١١٠ .

غربي بلخ (٦٧) . ويوضح لنا الإصطخري بعض الشيء أصل أهل الغور . ولا شك أننا هنا ، كما في خوارزم ، على أرض تخوم عالمي الفرس وطوران . فمن جهة ، يقال بأن لغة الغور تختلف عن اللغة الخراسانية إذن تجري المقارنة ، فيما يبدو ، ضمن أراضي الفرس(٦٨) . من جهة ثانية ، يقول الإصطخري ان « الخلخ صنف من الأتراك ، وقعوا في قديم الأيام إلى الأرض التي بين الهند ونواحي سجستان ، في ظهر الغور . وهم أصحاب نعم على خلق الأتراك وزيهم ولباسهم (٦٩) ولا يقبل الجدل ضغط الأتراك على الغور وعلى حدودهم . وتقترن أسماء هذه الأرجاء باسم الخلج بانتظام (٧٠) . لكن مالم يرد في النصوص الجغرافية القديمة جداً حتى الآن ، هو أن الوضع سوف يتطور تطوراً عكسياً بالنسبة إلى خوارزم : فالخلج ، الأتراك أو ربما الهياطلة القدامى ، لم يسيطروا على أرض فارسية ، بل شكلوا قبيلة غلزاي الأفغانية ، وصارت لغتهم تدعى باتشو (٧١) .

الاكراد

اشترك الأكراد والبربر بشرف إثارة الجغرافيين الذين يعنون بوصف

(٦٧) حدود العالم ، ١٠٦ ، ١١٠ .

(٦٨) الاصطخري ، ١٥٧ .

(٦٩) الاصطخري ، ١٤١ ، كرره ابن حوقل ، ٤١٩ . عن تصحيح لباس بلسان (اجراها مينورسكي في ترجمته الاصطخري ، حدود العالم ، ٣٤٧) . انظر س . ا بوسورث ، خلج ، م١(٢) ، ج٤ ، ٩٥٠ (٢) .

(٧٠) ابن خرداذبة ، ٣١ ، المسعودي (م) ، فقرة ١١١٩ و ٦٣ ٢٠ (عن تصحيح خلوخ (خولوخ ، قرلق) الى خلج ، انظر مينورسكي ، حدود العالم ٢٨٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٧ ، ابن حوقل ، ٤١١ (الخريطة) ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٥٢ ، حدود العالم ، ١١١ .

(٧١) انظر بوسورث ، م١(٢) ، ج٤ ، ٩٥٠ .

أرض البشر . فنطاق سكن هذا الشعب معروف جيداً . ويشار إلى بعض جماعات منهم على تخوم خراسان (٧٢) . إلا أن موطنهم الأساسي يقع في ثلاثة قطاعات : أولها لورستان وفارس وخوزستان وفي مناطق كاملة منها أحياناً (٧٣) ، ثم في غربي إقليم الجبال من أذربيجان إلى حدود العراق (٧٤) ، وأخيراً في الجزيرة بمعناها الواسع حتى الران وارمينية حيث يشتد الضغط الكردي (٧٥) .

ويسترعي الإنتباه لأول وهلة كثرة الأكراد الفائقة . وتعدد احيائهم (٧٦) ، مثلما عددت قبائل البربر من قبل . لكن يُعْتَنَى خاصة بأماكن استيطانهم . ويعدون خمس مائة الف بيت شعر ، وتبلغ أحياؤهم الثلاثة والثلاثين ، وتجمع كلها في خمسة رموم (٧٧) .

---

(٧٢) ابن حوقل ، ٤٤٣ ، آخر ٤٤٦ .

(٧٣) ابن حوقل ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، آخر ٣٠١ ، المقدسي ، ٤٠٨ و م ج ع ، ج٤ ، الفهرس الجغرافي ، لفظ ر م . عن وجود كردي غير صحيح في كرمان ، انظر ا . ك . س ، لمبتون ، م١(٢) ، ج٥ ، ١٥٤ .

(٧٤) اليعقوبي ٢٣٦ ، ابن رسته ، ١٦٥ ، مسعر (ب) ، ١٨ ، ابن حوقل ، ٢٤٧ ، ٣٥٨ (الخريطة) ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، حدود العالم ، ١٣٨ (ومينورسكي المرجع ذاته ، ٣٩٢) .

(٧٥) ابن الفقية ، ٢٤٥ ، ابن حوقل :آخر ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، المقدسي ، ٣٧٧ .

(٧٦) المسعودي (م) فقرة ١١١٨ ، مسعر (ب) ، ١٨ ، ابن حوقل ، آخر ٢١٥ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٣٣٦ ، آخر ٣٧٠ ، المقدسي ، ٤٤٦ .

(٧٧) من الفارسية رام ، رامه، جماعة من الناس . يكتب احياناً زم : انظر م ج ع : ج٤ ، ٢٥٠ . عن هذه الأحياء ، انظر ابن خرداذبة ، ٤٧ (٤ رموم في فارس) . ابن الفقية ، ٢٠٣ ، ابن حوقل ، ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، آخر ٣٠١ ، المقدسي ، ٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ (حاشية ب) .

ويعني العدد والقوة ، القسوة والعنف والسلب (٧٨) . والتمرد الصامت ، والإستقلال (٧٩) . ولم تأت المقارنة بين الأكراد والعرب أو غيرهم من البدو (٨٠) وليدة الصدفة . ويكفي خطو خطوة واحدة أخرى ، لإعطاء الأكراد ، جزاء انفتهم ، محتداً بدوياً أو فارسياً أو توراتياً ، بالحاقهم باماء سليمان بن داود (٨١) . وزال كل ذلك مع مرور الزمن ، فمنهم اليعقوبية والجورقان وهم نصارى ، وفيهم من رأيهم رأي الخوارج (٨٢) . « فحالوا عن لسانهم ، وصارت لغتهم أعجمية ، ولكل نوع من الأكراد لهجة كردية خاصة بهم » (٨٣) .

وكيف يعيش هؤلاء القوم ؟ الحقيقة أنهم مقسومون إلى فئتين ، فبعضهم يجوب السهوب وأصبح متبدياً (٨٤) ، والبعض الآخر استقر في الجبال ، وامتهن الزراعة (٨٥) . مع ذلك ، يبدو أن نمط

---

(٧٨) اليعقوبي ، ٢٣٦ ، ابن رسته ، ١٦٥ ، مسعر (ب) ، ١٨ ، المسعودي (م) فقرة ١١١٠ ، ابن حوقل ، ٢٢٨ ، ٣٦٠ .

(٧٩) ابن الفقية ، آخر ١٢٨ ، ٢٩٣ ، مسعر (ب) ، ١٨ ، ٢٥ ،ابن حوقل، ٢٧١ ، ٣٦٩ .

(٨٠) الجاحظ ، مناقب الترك ، ٤٥ ، ابن حوقل ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، آخر ٣٠٩ (مقارنة بالبلوص)، ٣٢٨ (مع الزط البادية) .

(٨١) المسعودي ، (م) ، فقرة ١١١٣ — ١١١٥ ، ١١١٨ ، ابن حوقل ، ٢٧١

(٨٢) ابن الفقية ، ٢٩٣ ، المسعودي (م) فقرة ١١١٨ .

(٨٣) المسعودي (م) فقرة ١١١٣ .

(٨٤) ابن الفقية ، ٢٤٥ آخرها (عن حمل الملح في فارس مع لفظ الجابدق ، أي الراعي ، من الفارسية جاف أو غاف، ثور وبادق قطيع أو راعي ، ابن حوقل ، ٢٦٥ ، ٢٧١ (مع تنقل محدود) ، ٤٤٣ ، آخر ٤٤٦ .

(٨٥) مسعر (ب) ، ١٨ ابن حوقل ، ٢٦٩ ، ٢٧١ (جماعات نازلة في مناطق باردة) .

الحياة نصف البدوي ونصف الحضري هو القاعدة أحياناً . هكذا يخرج من البيت الكردي الواحد الأجراء والرعاة والخول (٨٦) ، ويقيم الأكراد في مدن وقرى موزعة بين مراعيهم »(٨٧) . ويتناوب البدو التجوال في البادية مع التردد على الأسواق (٨٨) . ويصيفون في مصايف بلدهم ويشتون في مشاتيها ، وينتمون إلى أحد التجمعات البشرية (٨٩) . في النهاية ، يصبح ارتباط الكردي بالأرض قوياً حتى يمكن من فرض ضريبة عليه . من هذه الزاوية ، اعتبر الرم أيضاً منطقة عقارية (٩٠) . خلاصة القول ان الأكراد أقوام دخلت في دار الإسلام ، وتنقلت مثل أهلها بين السهوب ومنازل المدن أو بيوت الأرياف لكنها احتفظت بلغتها وبتنظيمها الخاصين . فهم يختلفون عن دار الإسلام ويشبهونها بآن واحد ، وما يزال نشاطهم مستمراً حتى الآن ، وهذا ما يبعدهم عن إمكانية الإنقراض .

بعض الاقوام الاخرى

لن تتم صورة شعوب دار الإسلام ، إذا لم نستعرض مافيها من أقوام ضعيفة الشأن وإن كانت متميزة إلى حد ، أثار اهتمام الجغرافيين ، ولو بصورة عابرة . ونبدأ بأقوام ، نازلة في وادي نهر مهران ، يتبعون

---

(٨٦) ابن حوقل ، ٢٦٥ ، حيث تستعمل كلمة رعاء الى جانب خول ، جمع خائل أو خولي : مدير ، حارس ، خادم أو راعي ، أيضاً : موظف مسح العقارات أو مزارع أو بستاني (انظر دوزي ، ج١ ، ٤١٣) .

(٨٧) ابن حوقل ، ٢٤٧ ، ٣٣٦ ، ٣٦٩ .

(٨٨) ابن حوقل ، ٢١٧ .

(٨٩) ابن حوقل ، آخر ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٣٣٦ .

(٩٠) ابن حوقل ، ٢٦٩ ، آخر ٣٠١ .

الهند (٩١) على أنهم كفار . ونقول أولا كلمة عن قبائل ميذ : فهم آهل إبل يربون الجمل الفالج لنتاج البخاتي البلخية الشهيرة (٩٢)، وهم كالبدهة ، واسمهم السند هند أيضاً . والبدهة كالبادية من البربر ؛ لهم أخصاص وآجام يأوون اليها ، وبطائح مياه يعيشون بها . ومدينتهم قندابيل ، يقصدونها بحوائجهم ، ويتجرون فيها . وفي رستاق ايل ، قرب قندابيل ، مسلمون وكفار وثنيون من البدهة ، كلهم حضر ؛ ولهم غلات وزروع وكروم ومواشي واسعة وخصب وإبل وغنم وبقر (٩٣) .

والوسط البرمائي نوع من مواطن البدهة ، تزداد صفاتها الطبيعية بروزاً عند الزط ، أسلاف الغجر البعيدين . وفي غربي نهر مهران مياه منه تشكل بطائح كبطائح العراق ، عليها طوائف الزط . فمن قارب منهم هذا الماء ، فهم في اخصاص كاخصاص البربر وطعامهم السمك ؛ وسموكهم كبار جليلة . ومن بعد من الزط عن شط مهران في البوادي ؛ فهم كالاكراد يتغذون بالألبان والأجبان وخبز الذرة (٩٤) أخيراً متى ابتعدنا باتجاه الغرب نحو خوزستان والعراق الجنوبي وحتى إقليم الشام

(٩١) جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ٥٣٥ ، وج٣ ، ٤٨٨ .

(٩٢) الاصطخري ، آخر ١٠٤ - ١٠٥ ، ابن حوقل ، ٣٢٣ - ٣٢٤ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ (حاشية١) .

(٩٣) الاصطخري ، ١٩ ، ١٠٢ ، آخر ١٠٤ - ١٠٦ ، ابن حوقل ، ١٦ ، ٥٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ ، المقدسي ، ٤٨٦ .

(٩٤) الاصطخري ، ٣١ ، ١٠٧ (وحاشية ١) ، ابن حوقل ، ٥٠ ، ٣٢٨ ، المقدسي ، ٤٨٤ .

الشمالي ، نعثر على زط المسيرة الطويلة ، نازلين في بلدان لا برية ولا مائية ، يربون فيها الجاموس المفضل لديهم ، المنفي مثلهم من موطنه (٩٥).

ويعتصم الأخواش والبارز وخاصة البلوص والقفص في سهوب كرمان وجبالها بين السند وفارس . وهم أقوام أصلهم فرس (٩٦) . أما الأخواش أو الخواش أو الخاش فبوادي ، أصحاب إبل ، ولهم أخصاص ينزلون فيها ، وينتجعون المراعي (٩٧) . وللبارز جبال تحمل اسمهم ، يقع فيها الثلوج ، لكنها خصبة ، وفيها أشجار ، وبها معادن لاسيما الحديد . وكانوا على المجوسية في أيام بني أمية ، ثم أسلموا لما ولي بنو العباس . ولم يكونوا دوماً مسالمين : فقد أخذ يعقوب وعمرو ابنا الليث ، واميرا الصفارية،رؤساءهم وملوكهم ، وأخلوا الجبال منهم (٩٨) .

ويثير البلوص (٩٩) الإهتمام أكثر من سائر الأقوام في السراء والضراء . ويجاورون القفص ، وينزلون في سفوح جبالهم . وبقوا

(٩٥) الاصطخري ، ٦٥ ، ابن حوقل ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، المقدسي ٤٢٠ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٤٧ ، ٣٢٠ — ٣٢١ ، عن حومة(الزط) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢١ .

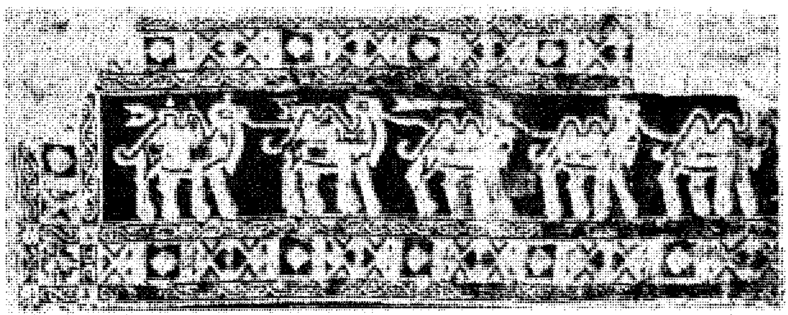
(٩٦) انظر ا . ك . س . لمبتون ، كرمان ، م ١ (٢) ، ج٥ ، ١٥٤ .

(٩٧) الاصطخري ، ٩٨ ، ابن حوقل ٣٠٩ . (ترجمة ، ٣٠٣ ، اقرأ : الاخواش ؛ ٣١٣ ، المقدسي ، ٤٧١ (الأخواس ولمبتون ، مشار اليه ، ١٥٤ .

(٩٨) الاصطخري ، ٩٨ ، ابن حوقل ، ٣٠٩ — ٣١١ ، المقدسي ، آخر ٤٧٠— ٤٧١ ، لمبتون ، مشار اليه ، ١٥٤ — ١٥٥ .

(٩٩) الاصطخري ، ٩٨ ، ابن حوقل ، آخر ٣٠٩ — ٣١٠ ، المقدسي ، ٤٦٩ (حاشية ب) ، آخر ٤٧٠ — ٤٧٢ ، ٤٨٧ (حاشية م) ، ٤٨٩ — ٤٩٠ ، جغرافية=

مدة طويلة يقطعون الطرق ، ويخيفون السبيل وجميع من حولهم . ولا يخاف القفص إلا منهم . ويعيشون في بيوت من شعر ، ويزعمون أنهم عرب ، لكنهم صنف من الأكراد ، وحي من أحيائهم ، ويكونون على ماقاله أهل نواحيهم نحو عشرة آلاف رجل ، مستظهرين وممتنعين . وقد استأصل السلطان (عضد الدولة) شأفتهم ، وكسر شوكتهم ، وشتتهم ، والجأهم إلى خدمته في أعمال قمع القفص . وباختصار ، قضى على شرورهم . وهؤلاء البدو رجالة (١٠٠) ، والغالب على خلقتهم النحافة والسمرة . وقد أصبحوا لايعترضون ابناء السبيل إلا بخير . وكانوا في دعوة أهل المغرب . وتذكر طائفة ثطأ أخبارهم أن ببلادهم أموالا مجموعة وذخائر نفيسة . ويقولون إنها مدخرة لامام



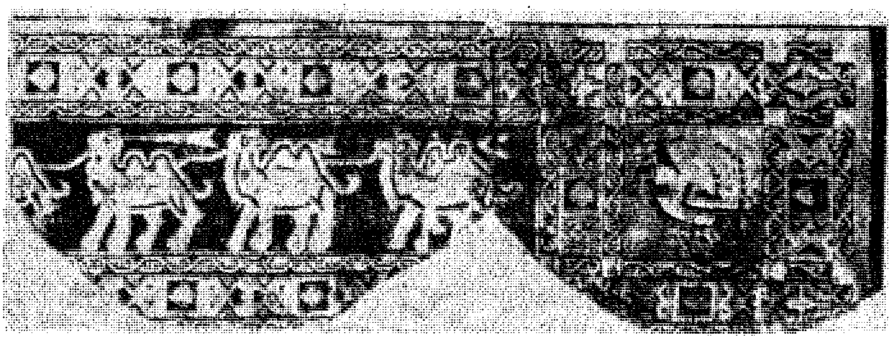
روسم المتاحف الوطنية   متحف لوفر ، القسم الاسلامي ، ٧٥٠٢

كفن القديس جوس . قطعة حرير

فارس الشرقية ، منتصف القرن العاشر (تصوير ا.شوزفيل)

= دار الاسلام ، ج٣ ، ٧٦ (ح ٣٠) و ر . ن . فراى و ج . الفنيين ، بلوشستان في م١ (٢) ، ج١ ، ١٠٣٦ – ١٠٣٨ .

(١٠٠) المقدسي ، ٤٨٩ ، تدقيق بهذا الشأن عندما يقول أنهم يركبون الجماز . (الجماز ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٦) .



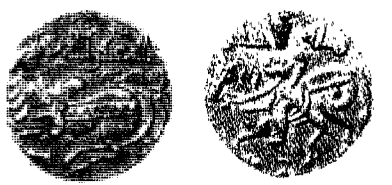
روسم المتاحف الوطنية متحف لوفر ، القسم الاسلامي ، ٧٥٠٢
كفن القديس جوس . قطعة حرير
فارس الشرقية . منتصف القرن العاشر (تصوير ا. شوزفيل)

الزمان وصاحبه . وهذا الوصف عجيب ، إلا أن المقدسي مر في تلك الناحية ، فعدل معطيات الإصطخري وابن حوقل ، وقال ان عند بويهي فارس أبدا أمة رهائن يذهب قوم ويرجع آخرون . والبلوص أصبر خلق الله على الجوع والعطش ، زادهم شيء من الجوز يتخذ من النبق (١٠١) ، يتقوتون به . يدعون الإسلام ، وهم أشد على اخوانهم المسلمين من الروم والترك . ويقال إن عندهم أنهم لايظفرون إلا بأموال لاتزكى ، ويرون أن ما يأخذونه حق لهم واجب . وإذا أسروا رجلا ، أمروه بالعدو معهم نحو عشرين فرسخاً حافي القدمين (١٠٢)

والقفص أسوأ من الجميع (١٠٣) . وهم شيعة ، ويتكلمون لهجة فارسية . ومع أن السلطان جاس ديارهم ، وأخذهم رهائن هم أيضاً ،

(١٠١) نابق : انظر جغرفية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٤٢ – ٤٤٣ .
(١٠٢) على ما يقرب من ٢٠ فرسخا اي حوالي ١١٥ كم .
(١٠٣) الاصطخري ، ٩٨ ، ابن حوقل ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، المقدسي ، آخر ٤٧٠ ، ٤٧١ (و ح . ١) ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ (و ح . م و به) –=

فإنهم قطاع طرق يرتكبون أبشع الجرائم ، ويقول عنهم (١٠٤) المقدسي : « يسيرون اليها من جبل كرمان . قوم لا أخلاق لهم . وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس ، وجلادة ، لايبقون على أحد ، ولايقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار ،كما تقتل الحيات . تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ، ويضربونه بالحجارة ، حتى ينصدع ، وسألتهم عن ذلك ، قالوا لاتفسد سيوفنا ، ولايفلت منهم أحد إلا ندر ، ولهم مكامن ، وجبال يمتنعون بها . وكلما قطعو في عمل ، هربوا إلى آخر » .



درهم عباسي عليه صورة جاموس (المقتدر ، ٢٩٥هـ/٩٠٧م — ٣٢٠هـ/٩٣٢م)
المحرف وتاريخ السك مجهولان
المكتبة الوطنية ، لاف ، ١٢١٩ ثالث

لنجتز الآن مفازة فارس الكبرى باتجاه الشمال الغربي ، حتى مشارق قزوين . ففي هده النواحي التي تسمى جيل وديلم، تعيش

= ٤٨٩ — ٤٩٤ حاشية س من ٤٩٣) ، جغرافية دار الاسلام ج٣ ، ٥٠ (ح ١ .) ، ٥٩ — ٦٤ ، و س . ا بوسورث ، قفص ، في م١ (٢) ، ج ٥ ، ٣٥٣ — ٣٥٤ .
(١٠٤ المقدسي ، آخر ٤٨٨ — ٤٨٩ ، مترجم في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٦٤ .

أقوام يرجح أنها من أصل فارسي قديم ، تتكلم لهجة فارسية (١٠٥) . ومنهم انحدرت السلالة البويهية التي فرضت نفسها على خلفاء بغداد ، بمزاياها العرقية وعيوبها الممكن اختصارها بكلمة واحدة ، هي القوة المكبوحة أو المفرطة (١٠٦) . ويميز الإصطخري وإبن حوقل السهل المحصور بين البحر والجبل ، ويمتلكه الجيل ، وهم أهل زرع وسوائم ، ولسانهم متفرد عن الفارسية والرانية والأرمنية . وفي بعض الجيل فئة وطائفة تخالف لسان الجيل والديلم . أما الديلم ، أعني الديلم « المحض » – ربما لأنهم لايزوجون إلى غيرهم في رأي المقدسي – فسكان جبال اعتنقوا الإسلام متأخرين ، وفيهم كفار حتى الآن . . . والغالب على خلقهم النحافة وخفة شعر الوجه وكثافة شعر الرأس ، والطيش وقلة المبالاة والإكتراث . فلديهم على الدوام نشاط وحيوية عفوية تبدو وكأنها حافز كيانهم (١٠٧) .

ولنغير الوسط مرة أخرى ، وننتقل إلى مصر ، بلاد القبط (١٠٨) الذين يتحدثون بالقبطية (١٠٩) ، ولهم تقويم خاص بهم (١١٠) .

---

(١٠٥) انظر ف . مينورسكي ، الديلم ، م١(٢) ، ج٢ ، ١٩٦ ، و ب . سبولر ، جيلان ، المرجع ذاته ، ج٢ ، ١١٣٧ – ١١٣٨ .

(١٠٦) انظر ما تقدم ، الفصل ١ .

(١٠٧) الاصطخري ، ١٢١ ، ابن حوقل ، ٣٧٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، المقدسي ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ – ٣٦٩ .

(١٠٨) عن القبط ، انظر ا . س . عطية ، م١ (٢) ، ج٥ ، ٩٢ – ٩٧ .

(١٠٩) المقدسي ، ٢٠٣ .

(١١٠) المسعودي (م) فقرة ٧٧٨ – ٧٧٩ ، ابن حوقل ، ١٣٦ – ١٣٧ ؛ المقدسي ، ٢٠٦ ، آخر ٢١١ – ٢١٢ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٨١ .

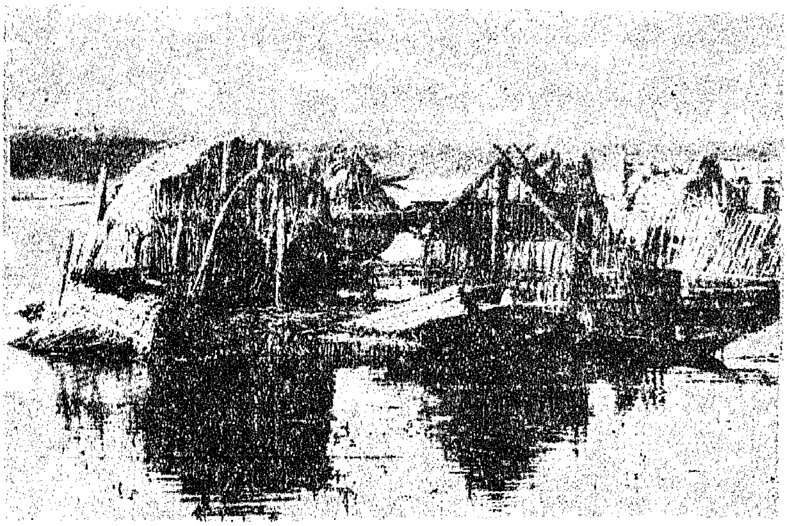
وهم معروفون بأنهم نصارى (١١١) . ولا احد ينازعهم في كونهم اعمروا مصر قبل سواهم : ويرجع الإصطخري(١١٢) الى الاخبار القديمة ، ليذكر اراضي العرب واليونان والعمالقة والاقباط الذين يسميهم الكلبي علوج مصر ، على حد قول ابن الفقيه (١١٣) . لكن هذا التاريخ القديم يندرج جيدا مع ذلك في التاريخ الذي بدأ بالإسلام ، اذ ان القبطية يعبدون الها واحدا يسمونه ابنوذه (بتوني) (١١٤) . ومن اولاد القبط المعروفين في الدين الحقيقي ، هاجر ام اسماعيل ، ومارية القبطية ام ابراهيم ابن النبي (١١٥) .

ويرتبط الأقباط بطبيعة مصر ، على الأصح ، بأرضها التي يحرثونها في جميع الأماكن تقريباً ويستغلونها استغلالا يفيض عن حاجتهم ، وبنظامها الضريبي والعقاري ، وببيعها المنتشرة هنا وهناك وقد خرب منها الكثير العظيم — مما يدل على توسع الإسلام — وبتلك القرى الكبيرة التابعة إلى الوجهاء المحليين الأثرياء والمتنفذين (١١٦) . والقبطي متوقد الذهن ومولع بالغناء . والقبطيات رائعات الجمال في الغالب ، كثيرات الإنجاب ، ربما ولدت إحداهن الولدين والثلاثة والأربعة في بطن واحد في حمل واحد، ذلك أن ماءهم من النيل، أنثى على قولهم (١١٧) . لكن لديهم عيوب أيضاً . فقد قال يحيى بن

---

(١١١) ابن الفقية ، ٧٧ ، ابن حوقل ، ١٥٥ ، المقدسي ٢٠٢ .
(١١٢) الاصطخري .٢٠ . ابن حوقل ، ١٩ .
(١١٣) ابن الفقية ، آخر ٣٥ .
(١١٤) ابن الفقية ، ٧٨ .
(١١٥) ابن الفقية ، ٥٩ ، ابن حوقل ، ١٦١ .
(١١٦) ابن حوقل ، ١٥٥ — ١٥٦ ، ١٦١ ، المقدسي ، ١٩٣ ، ٢٠٢ .
(١١٧) ابن الفقية ، ٥٩ ، ١٤٢ (شعر كشعر القبط ، بلا شرح اضافي) ، ابن حوقل ، ١٦١ ، عن الماء الا نيث ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٤٥ — ١٤٧.

محفوظ (١١٨) عنهم : خلق الله الغنى وخلق معه الذل وأسكنه مصر . ومن يقل مصر، يقصد بلاد القبط الذين قال عنهم كعب القرطبي : خلق الله السرقة تسعة أجزاء ، سبعة منها في القبط . ويقول عنهم المقدسي إن رسومهم في إقليم مصر عالية وإنهم يشكلون أكثرية سكان تنيس (١١٩) . ولا شك أن هذه الأحكام جائرة ، تنسجم مع الأعراف الأدبية ، ويريد أصحابها أن يظهروا أنهم يعرفون مصر . أما أنا فابرز قول إبن حوقل (١٢٠) إن الأقباط مندمجون ومنصهرون في مصر المسلمة أو الأزلية ، يقيمون في قرى يتجاور فيها المسجد والبيعة ، ويؤلفون شعباً صبوراً نشيطاً ودمثاً ، الا حيال جباية الخراج والجزية . باختصار ثبتوا وقبلوا .



قرية قصب في بطيحة الفرات الكبرى (في العراق)

---

(١١٨) ابن الفقية ، آخر ٧٥ — ٧٦ (وترجمة ، ٩٢ ، حاشية ١) المسعودي (م) فقرة ٩٨٥ .

(١١٩) المقدسي ، ١٩٣ (وحاشية ح) ، ٢٠١ .

(١٢٠) ابن حوقل ، ١٥٥ — ١٥٦ .

ونختتم هذا الفصل بكلمة موجزة جداً عن العبيد . فنصوص الجغرافيين لاتغفلهم ، بل تنسبهم إلى بلدهم الأصلي في افريقية الغربية والشرقية ، وتسميهم السودان أو الزنج . وعلى هذا الأساس درسناهم في كتاب آخر (١٢١) . أما في داخل دار الإسلام ، فإن وجودهم ، وثوراتهم (١٢٢) لم يخلفا أثراً في الجغرافية التي تتوخى وصف هذه الدار وحدها (١٢٣) . ونحن نكتشفهم من خلال باب السودان في صقيلية ، أو من خلال قول ابن حوقل ، نقلا عن الكندي ، إن السودان إذا توالدوا في بلد البيضان سبعة أبطن ، عادوا في صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء . يضاف إلى ذلك بضعة أسطر فقط عما يجهز من المغرب من الخدم المجلوبين من بلاد السودان وعن صحتهم وخدمتهم الدائمتين . باختصار ، خلافاً لسواهم لايؤلفون قوماً في مملكة الإسلام وهم متفرقون في كل الجهات من أراضيها الشاسعة ويبعدون كثيراً عن مدينتهم . وعندما تستخدمهم دار الإسلام ويندمجون بها ، تصهرهم فيما يبدو . فهم يشبهون أهل الأرياف من مساكين المساكين ، ويتوزعون مثلما نعرف في جميع الأماكن ، يقومون باعمال الحفر الأساسية ، وفي المحارف والدكاكين ، وفي المعسكر أو المنزل . لكنهم منسيون محلياً في قطاعات كاملة من الادب ، مثل قومهم ، ومتوارون دوماً تقريباً وراء عملهم الظاهر الذي لايحمل اسمهم :

---

(١٢١) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٢٧ - ٢٠٢ .

(١٢٢) عن اشهرها في العراق الجنوبي في القرن ٣ هـ / ٩ م ، انظر ا . بوبوفيك ، ثورة الزنج في العراق في القرن ٣ / ٩ ، باريس ، ١٩٧٦ .

(١٢٣) باستثناء الغارات على بلاد الزنج التي نحيل بشأنها الى ج . دار الاسلام ، ج٢

(١٢٤) ابن حوقل ، ٧٣ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٢٢ .

الفصل الرابع

أهل الذمّة

ينظر الجغرافيون العرب إلى جميع الذين لايعتنقون الإسلام ، وتؤويهم داره أو تتساهل بوجودهم فيها ، ويقفون متسائلين . ونظن أنهم لم يكونوا أول من فعل ذلك . فعلى غرار الفصل السابق ، سوف نقول كلمة في البدء عن مصنفات مؤلفين لم يكونوا جغرافيين صراحة ، أو كانوا جغرافيين أحياناً ، لكنهم أسهموا بظهور الجغرافية بالمعنى الصحيح ، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ونشرع بسؤال الموسوعيين عن رأيهم الأساسي في أديان غير المسلمين(١). ثم نتخير بعض المعلومات البعيدة عن المفهوم النظري الصرف ، عن سلوك أو موضع الأقليات المعنية . أخيراً ، نعتمد على ابن حوقل والمقدسي ، ونحاول أن نرى مصير تلك الأقليات في وصف دار الإسلام . في نهاية العام الف .

في تبعية فارس

لايخلو الجدل ، المنوه به ، بين العرب والفرس ، من خلفية دينية أشرنا

---

(١) نحيل لهذا الموضوع على الاجمال الى ما قيل عن مختلف المؤلفين في جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، في اماكن متفرقة .

اليها من قبل . فمنّي اجتيزت الجزيرة : تحوم الشكوك دوماً حول ما بعدها من بلدان، ويتهم بممارسات آثمة، مستوحاة من المانوية والمجوسية التي تعتبر حركة اجتماعية متطرفة تدعو فيما تدعو اليه من قبائح الى شيوع النساء(٢). وتعد المجوسية ووجهها البارز زرادشت، وريثةفارس، وهذا الدين مقلق أحياناً ، وتتردد دار الإسلام بالإعتراف به معتقد وحي ، لكنها بلا ريب تسمي اتباعه « أهل كتاب » في أفضل الإحتمالات إنما من الدرجة الثانية . (٣) . وهذا ما يعبر عنه المقدسي بطريقته فيما يلي : « فالمجوس إلى هذا الوقت ، يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل » ، فصار علماؤهم وموابذتهم يحفظون اسباعاً من هذا الكتاب وأرباعاً وأثلاثاً ، ويجتمعون إذا أرادوا سماعه على الكمال (٤) .

وتثير المجوسية الفضول ، بل تسحر الألباب (٥) : أولا بشخص نبيّها ، زرادشت ، الذي أتى بالمعجزات ، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها ، ثانياً بغنى لغتها المقدسة (في كتاب الزمزمة) الذي يدور معجمه على ستين حرفا ، وليس في سائر اللغات حروف

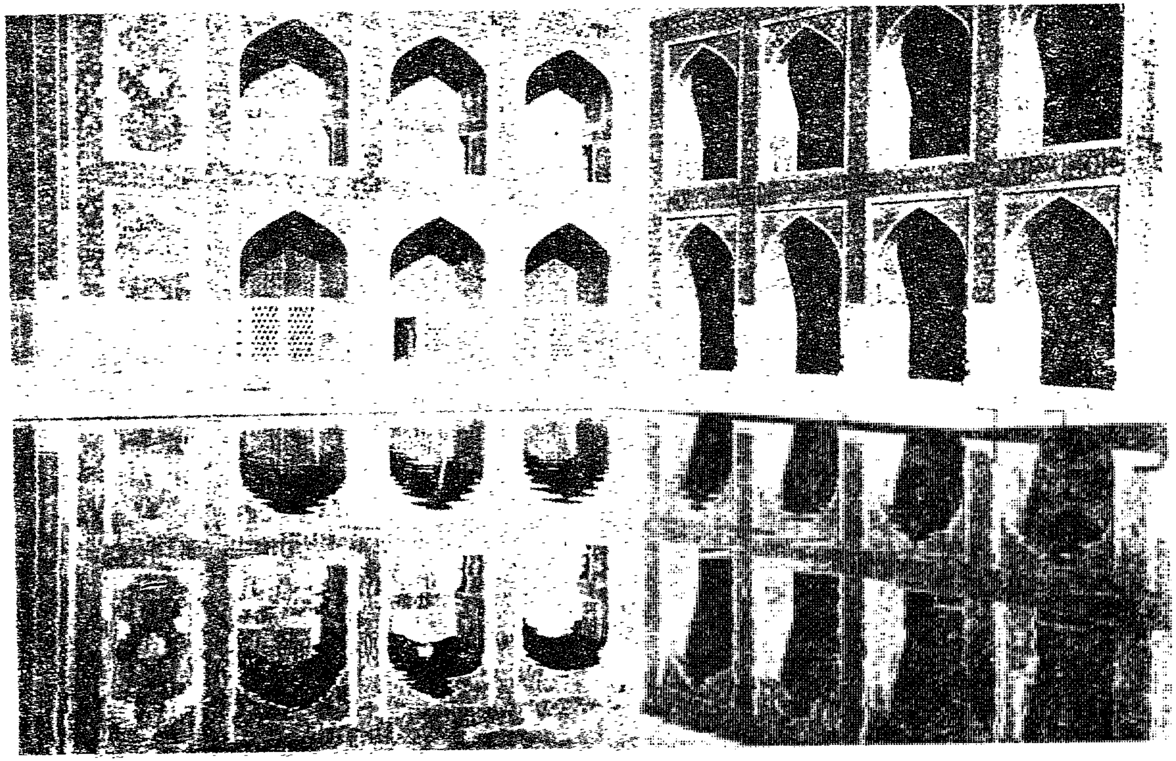
---

(٢) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٦١٧ — ٦١٨ ، المسعودي (ت) ، ١٤٤ — ١٤٥ ، المقدسي ، ج٣ ، ١٧٠ — ١٧١ ، عن المجوسية وعلاقاتها بالزرادشتية والمانوية ، انظر م . غيلدي ، م١ ، ج٣ ، ٤٩٢ — ٤٩٥ . عن المانوية ، انظر كتاب هـ . ش . بويش خاصة ، المانوية مؤسسها وعقيدتها ، باريس ، ١٩٤٩ ، و « المانوية » في تاريخ الأديان ، باريس ١٩٧٣ ، ص ٥٢٣ — ٦٤٥ . انظر أيضاً ، م . تارديو ، المانوية ، باريس ، ١٩٨١ .

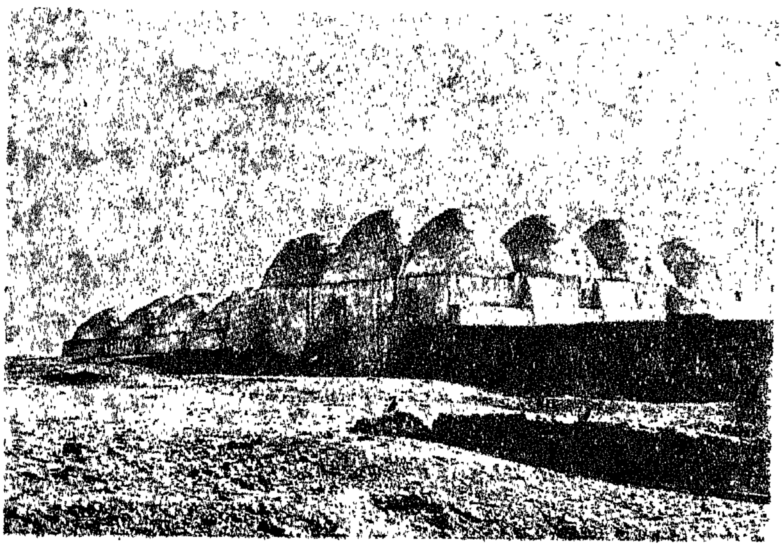
(٣) انظر م . موروني ، « المجوس » ، م١(٢) ، ج٥ ، ١١٠٥ — ١١١٤ .

(٤) المسعودي (م) ، فقرة ٥٤٩

(٥) عن المعطيات التالية ، انظر المسعودي (م) ٥٤٧ — ٥٥٠ ، ٥٩٤ ، ١٣٩٩ — ١٤٠٦ ، ١٤١٢ ، المسعودي (ت) ، ١٣١ — ١٣٦ .



جامع الشاه ، اصفهان ، المحراب (تصوير مارك ريبو) الأكبر



(تصوير ش. بستين و ج . افرارد . بروكسيل)
دير قبطي مبني بالطين المضغوط ، تود ، وادي النيل ، مصر

أكثر من هذا ، وحرر بلغة يعجز عامة الناس عن ايراد مثلها ، وعمل له تفسير (الزند) ، ثم عُمل للتفسير تفسير (بازند) : وعمل العلماء بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحا لجميع ما تقدم (باردة) . وكتب كتاب زرداشت بالذهب في إثني عشر الف جلد بقر : أخيراً رمز المجوسية المنظور ، ورمز فارس ، بيوت النيران التي ازدهر بناؤها بعد مجيء زرادشت . ويبدو أن كل ملك من ملوك فارس القديمة أشاد بيت نار أو عدة بيوت في عهده ، على حد قول المسعودي . وبيوت النار كثيرة في الهند والصين وأذربيجان وخراسان . وتأتي في طليعتها بيوت نيران فارس الثلاثة الكبرى : في سابور قرب عين ماء شهيرة ، ثم في اصطخر وقد خرب والناس يذكرون أنه مسجد سليمان ابن داود الذي حبس فيه الريح التي يسمع لها فيه هبوب ودوي ، وفي دارابجرد خاصة حيث النار المعظمة .

ويستدعي نشوء دين المجوس بعض الشروح عند المسعودي (٦) . ففي البدء كان ديناً شعبياً ثم حوله ملوك فارس إلى دين دولة . ويرى المجوس أن النار من جنس الألهة النورية ، وأنها واسطة بين الله وبين خلقه . ولا يعبد النور كنور ، بل لأصله المنبثق منه الذي يحمله . وهو أدنى مرتبة من الماء.أصل كل حي،الذي يتفوق على النار باطفائه لها — وفي أصل النار صلاح العالم ونبله، خلافاً لفوضى الظلمة وشرورها .

وينكب المقدسي ، مؤلف كتاب البدء والتاريخ ، هو أيضاً ، بحماس مماثل ، على المجوسية ، ويتناول نواحيها التنظيمية والإجتماعية (٧). ريدرس بعض الفاظ من مفرداتها ، ويشير إلى بعض النقاط البارزة

---

(٦) المسعودي (م) فقرة ١٣٩٩ .

(٧) المقدسي ، ج١ ، ٥٧ ، ج٢ ، ٣ ، ٤ ، ٢٤ — ٢٨ .

فيها ، مثل السماح بالزواج من الأخت أو الإبنة ، وحظر استعمال أواني الخشب والخزف في الطعام ، والإيمان بعودة أرواح الموتى ، مما يجعل منازلها تمتلىء بروائح العطور والأطعمة تكريماً لها ، في الأيام التي يتوقع فيها أنها ستأتي زائرة . وفي النهاية ، تبرز عند المقدسي المقارنة بين الإسلام والمجوسية ، وإظهار الفوارق بينهما ، كما في الصلوات اليومية التي تجري ثلاث مرات عند المجوس وهم متوجهون إلى الشمس ، أو كالطهارة الإجبارية عندهم مرة واحدة في اليوم دون أن ترتبط بأوضاع خاصة يقتضيها الإسلام (٨) . وتتقارب المقايسة بوضوح في ميادين أخرى ، ويمكن الحديث عن نوع من التصورات المسبقة لموقف الإسلام : ففي كليهما يحظر أكل لحوم بعض الحيوانات ، والعطاء طوعي من الأموال الخاصة بالمزكي ، والعقوبات تدريجية وتزداد شدتها في حالة تكرار الجرم ، بالنسبة إلى قطاع الطرق واللصوص (٩) . خلاصة القول يشبه موقف المقدسي موقف المسعودي ، ويقع في منتصف الطريق بين الإهتمام المتعاطف وبين التحفظ الصريح .

ونترك فارس ، ونرجع الى الجزيرة ، فنجد ديناً آخر ، انتشر في يوم من الأيام ، واعترض الإسلام على وضعه مثلما فعل بالمجوسية . فعلى مسافة ٤٠ كم جنوبي شرقي الرها ، تقوم حران أو كار هاي

---

(٨) مع ذلك تجب عند لمس أحد الموتى ، المقدسي ، ج٤ ، ٢٦ .

(٩) تذكر ضروب البتر المتتالية والمتشددة قصاصا للصوص في حالة تكرار الجريمة (المقدسي ، ج٤ ، ٢٧ بالعقوبة المسماة «الأموات التسعة» (انظر ا . كريستنسن ، فارس في عهد الساسانيين ، كوبنهاغن – باريس ، ١٩٣٦ ، ص ٣٠٥ ، وعلى العموم من أجل النظام القضائي في فارس في عهد الساسانيين ص ٢٩٤ وما يليها) .

الرومانية ، عماد عقيدة الصابئة (١٠) ، الشهيرة بمترجميها ، رواد الثقافة العربية الإسلامية في أوائل الخلافة العباسية . وقد قلدت الصابئة ، حسب المسعودي ، (١١) اليونانيين القدامى تقليداً خالياً من الطرافة ، فرتبت الكهنة في هياكلها مراتب على ترتيب الأفلاك التسعة . ثم وردت بعدهم النصارى ، فرتبت الكهنة في كهانتها على ما تقدمت به الصابئة في مذهبها ، وسمتهم الطغمات ، وجعلتهم تسعاً ، هن السلط ، وأعنسط ، ويودنا ، وشماس ، وقسيس ، واسقف ، ومطران . وهذا الكلام تقليد محض لتنظيم الكنيسة الملكية ، إلا إذا رأينا فيه تأثير المانية ، وإن كان ماني رئيس هذا الدين جاء بعد عيسى بن مريم .

ويكرر المقدسي هذه الصلة (١٢) ، ويعرف الصابئة في البداية بأنهم مؤمنون صادقون ، يبحثون بإسهاب في الخالق ، وفي رسالة الأنبياء الذين كونوا عنهم صورة سامية جداً ومتشددة جداً ، وفي القضايا الفلسفية والأخلاقية إجمالا . وننتهز هذه الفرصة ،ونبرز في هذا السياق ميل الصابئة إلى العلـــم ، الذي يعتبرونه ، كمـــا فعل أرسطو طاليس ،أحد أنشطة الإنسان السائغة،بل المرغوب بها.وتوحي بعض الدلائل أنهم يكادون يكونون قريبين من الإسلام ومن نمط الحياة العربية : أولا بصلواتهم الثلاث اليومية في الفجر والظهر والعشاء ، التي يتوجهون فيها يوماً بعد يوم إلى أحد الكواكب السبعة المؤثرة ،

---

(١٠) خاصة عامة بقلم ب . كارادي، فو م١ ج ٤ ، ٢٢ – ٢٣ ،لكن انظر بخاصة المقالة الاساسية لـ م . تارديو في المجلة الاسيوية ، ١٢٤ روماني ، (١ – ٢) ، ١٩٦٨ ،ص ١ – ٤٤ .

(١١) المقدسي (م) ، ٢١٠ – ٢١١ ،١٣٨٩ – ١٣٩٧ .

(١٢) المقدسي ، ج٤ ، ٢٠ – ٢٣ .

ثم بصيامهم ومحارمهم الجنسية أو الغذائية الخاصة بالخنزير والفول والثوم ، ثم بفرض استهلاك لحوم حيوانات مذبوحة حسب الطريقة الشرعية ، وحظر استرجاع الزوجة المطلقة ، والمساواة بين الرجل والمرأة في قضايا الإرث ، وبأهمية الإبل . . .

لكن من أين جاء دين الصابئة ؟ يقارنه المقدسي بالثنوية التي يدرج فيها ، بمعنى واسع جداً ، اتباع المجوس ، والمزدقية ، ومرقيون ، وابن ديصان أيضاً . ويتساءل : هل يجب أن نميز بين مواقف مختلفة : فالصابئة تدين بالثنوية الخالصة على طريقة ماني ، رتؤمن بوجود أصلين : النور الحي الخلاق العالم ، والظلمة الشريرة ، الجاهلة ، العمياء . يؤكد آخرون إيجابية الأصلين ، ويبالغ آخرون أيضاً بالتقسيم العام : فالمرقونيون يدخلون بين النور والظلمةقوة ثالثة متوسطةبينهما، ويفضل البعض تنظيم العالم حسب العناصر الأربعة الكبرى ، ويضيفون اليها جوهراً خامساً . ويظن على الإجمال أن هذا التردد ذاته وتنوع التصنيفات يؤيدان الحكم الضمني على تطبيق الممارسة الطقسية والإجتماعية، الذي يقع مرة أخرى على منتصف الطريق ، ويقول بوجود ناحية جيدة في دين الصابئة ، ولا شيء غير ذلك .

ويتجاوز الجو الروحي فارس ، ويستمر ، ويدوم بعد الحدود الزمنية التي كان ينبغي أن يعينها له ظهور الإسلام .إنما يستشف دوماً هنا وهناك ، بعد الوحي القرآني ،آثار المانية . وتكمن النار المعبودة عاناً في بعض بيوت النيران ، في جميع الأماكن تقريباً ، وتتحفز

للاضطرام . والخرمية أو الخرمدينية (١٣) شاهد على ذلك . فهل هي دين أم مروق مـن الدين ؟ لاريب أنها تماثل المزدقيـة مبدئياً ، ولا شك أيضاً أنها تتفق وبعض المزايا المشار اليها من قبل : مثل إجلال الأنبياء ، أياً كانـوا ، حتى ان جميـع الأديـان تتساوى في وحي متصل بلا انقطاع ، ومثل الإيمان باصلي النور والظلمة ، ومثل تعميم المتعة مع شرب الخمرة وحتى الإفراط بتناولها ، وشيوع النساء بموافقتهن (١٤) . لكن تعد الخرمية في جوهرها تفجر « مختلف الطوائف الفارسية المناوئة للعرب ، التي نشأت متأثرة ببعض عقائد غلاة الشيعة»(١٥)حول بعض ابطال الحرب مثل أبو مسلم وبابك.وبالتالي ليست الخرمية مذهباً جاء قبل الإسلام الذي يتساهل معها ، بل حركة حقيقية قامت ضمن الإسلام ، وسرطاناً نما في وسط ملائم له بين جميع السرطانات التي تحتضنها دار الإسلام الواسعة . وكان هذا السرطان رهيباً (١٦) ، فتحتم استئصال شأفته بثمن باهظ .

اليهود والنصارى

أما « أهل الكتاب » الحقيقيون ، في نظر الإسلام ، فهم اليهود والنصارى. ونود أن نقول كلمة موجزة عن الأسامرة (١٧) قبل الحديث

---

(١٣) اشير اليها من قبل حول وجه بابك المركزي : انظر الفصل ١ و ٢

(١٤) المقدسي ، ج٤ ، ٢٤ ، ٢٨ — ٢٩ .

(١٥) انظر و . مدلونغ ، م١ (٢) ، ج٥ ، ٦٥ — ٦٧ ، مع المراجع واحالة الى المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٩٨ — ٢٤٠٠ .

(١٦) ضمن برنامج أحد زعماء هذه الحركات ، وهو سنباذ ، القضاء على الامبراطورية العربية وتهديم الكعبة (مدلونغ ، مقال مشار اليه ، ص ٦٥) .

(١٧) عرض عقيدتهم لم . غاستر ، م١ ، ج٤ ، ١٢٨ — ١٣٤ . انظر أيضاً « الأدب السامري » ، ملحق م١ ، ج٤ ، عامود ٢ واماكن متفرقة .

عن اليهود . فالمسعودي (١٨) يوطنهم في بعض قرى فلسطين ، ويعرف جوهر عقيدتهم : فهم يأبون أن يكون بعد موسى نبي ، وينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء . وللأسامرة على جبل طوريك صلوات في أوقاتها ، ولهم بوقات من فضة ينفخ فيها عند وقت الصلاة ، وهم الذين يقولون « لامساس » ، وينحدرون ، كما نزل في القرآن ، من الإنسان الذي أوجد عبادة عجل الذهب (١٩) . فهم على هامش الديانة اليهودية ، وصنف من اليهود ، على حد قول المقدسي (٢٠) ، أو نادرة من النوادر .

ويستدعي اليهود ، أعني اليهود الأقحاح ، مزيداً من التعليق حتماً . ولا يتحدث عنهم المسعودي إلا عرضاً ، عندما يقوده اليهم سياق بحثه، لأنه مؤرخ أكثر منه فيلسوف (٢١) : ومن هنا جاء تذكيره ببعض الأحداث التاريخية ، واعطاؤه نبذة عن التوراة أو التقويم اليهودي (٢٢)

---

(١٨) المسعودي (م)، فقرة ١٠٩ ، المسعودي (ت)، ٢٨٥ ، المقدسي، ج ٤ ، ٣٢ — ٣٣ يجعلهم يرفضون عددا من الشرائع اليهودية وبعض الأنبياء الذين جاؤوا بعد يشوع بن نون .

(١٩) القرآن ، ٢٠ ، ٨٧ / ٨٥ — ٩٧ : انظر ترجمة بلاشير ز ، مشار اليها ، وتخريج جرىء لم . حميد الله ، القرآن ، ترجمة ، باريس ، ١٩٥٩ ، ص ٣٠١ .

(٢٠) المقدسي ، ٤٢ .

(٢١) المسعودي (م) ، فقرة ١٣٩٧ : عرض العقائد بالتفصيل يؤول ، مثلما يقول، الى الخروج عن الغرض من كتابنا الى وصف الآراء والديانات . انظر أيضاً المرجع ذاته ، فقرة ٢١٢ : لا نتناول النظريات ، الا فيما يتشعب الكلام اليه ، ويتغلغل الوصف نحوه . وصحيح ان المؤلف يحيل صراحة (المرجع ذاته ، فقرة ١٨٠٣) الى أحد كتبه المفقود في اصول الديانات .

(٢٢) انظر مثلا المسعودي (ت)، ١١٥، ١٥٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ — ٢٩٢ — ٢٧٠ (التوراة ، التقويم ، تحديد الفصح) واماكن متفرقة (الفهرس) من أجل شتى المعطيات التاريخية أو اللغوية .

لكنه يبيح لنفسه التعمق في شؤونهم مرة واحدة على أقل تقدير ، ليطعن بهم (٢٣) . فالمسعودي يبدأ باظهار التماثل بين الديانة اليهودية والديانة المجوسية في حالة خاصة ، فيقول على لسان أحد الأقباط لطبيب ابن طولون اليهودي : أنت يهودي ، وفي دينك أن أخيك يتزوج ابنتك ، ، وعليك أنت أن تتزوج امرأة أخيك إذا مات : فاذا حصل تكون قد تزوجت ابنتك . وبذا أنت مجوسي ومرتكب محارم (٢٤) :

يلي ذلك مآخذ أخرى . منها أن الله خلق آدم على صورته . ويرى الإسلام في هذا القول ارتكاب كبيرة هي التشبيه الذي ينتقص من سمو الله ، ويساويه بالبشر . وهنالك أيضاً عبادة عجل الذهب ، ورد موسى الرسالة مرتين ، واظهاره معجزات لفرعون فعلت السحرة مثلها ، والتقرب إلى الله بدماء ذبائح الحيوان ولحومها ، والمبالغة في العبادة ، وأخيراً تحكمهم بالعقل ومنعهم من النظر . وذكر القبطي عن اليهود « أقاصيص ، وتخاليط كثيرة ، ومناقضات واسعة » . وهذا حكم قطعي .

أما المقدسي ، ففيلسوف بجميع معاني هذا اللفظ . فهو يتساءل ، بلا حماس ، ظاهر ، عن العقيدة والتقاليد (٢٥) ، فيقول إن اليهود طوائف عديدة ، يشكلون فئتين كبيرتين تختلفان في قضايا التشبيه . فعلى الهامش يأتي الأسامرة والأصفهانية ، نسبة إلى أبي عيسى الأصفهاني ،

(٢٣) المسعودي (م) ، فقرة ٨٠١ — ٨٠٣ .

(٢٤) مثال آخر بنات لوط .

(٢٥) المقدسي ، ج٤ ، ٣٢ — ٣٩ .

وهو نبي دجال ، زعم أنه رفع إلى السماء ليمسحه الله ويلتقي بمحمد(٢٦). وينتقل المقدسي بعد اعطائه هذه الصورة العامة ، إلى شعائر العبادة . فالصلوات الثلاث تجري في الفجر والظهر و العشاء . ولا تصح إلا إذا قط قاطها ريح أو رعف أو تقيء ، وإذا كان اللباس حسب الشعائر ، و سبقها الوضوء الشرعي بدءاً من الرجل اليسرى ، دون الرأس . والحج ثلاث مرات سنوياً إذا كان الهيكل قائماً . أخيراً يدوم الصوم أربعة أيام ،منها يوم ذكرى دخول بخت نصر بيت المقدس .

وتزداد المقارنات أو المقابلات بالإسلام ، عند تناول قواعد الحياة الفردية أو المدنية . وهكذا تصبح الطهارة اجبارية ، إذا لمس الإنسان أحد الأموات ، والزامية جداً إلى المرأة في أيام الطمث . ويسمحون ببيع الأطفال ، لكن تقسو نصوص الشريعة في قضية الزواج ، الذي لايصح إلا بحضور شهود وتحديد مهر ، ولا يجوز الطلاق أو التفريق إلا في ثلاث حالات : الزنا والسحر والمروق في الدين . إذن الحياة الجنسية مسألة خطيرة ومنظمة بدقة ، يجب مراقبة نتائجها وتقويمها : مثلا الإتصال الجنسي بالعبد يحرره تلقائياً .

وتسن قوانين تسهم بحماية المجتمع ، وتفرض عقوبات شرعية عددها خمس : اعدام القاتل ، ثم احراق مرتكب المحارم مع الحماة أو الكنة ،ثم رجم مرتكب الجرائم الجنسية الخطيرة كالخيانة الزوجية(٢٧) ،

---

(٢٦) انظر س . م . سترن ، م١ (٢) ، ج١ ، ١٣٣ الذي يشير الى ان هذه الطائفة دامت حتى القرن ٤ هـ /١٠ م . يضيف المقدسي عن اصفهان ان يهود هذه المدينة يفكرون بان المسيح الدجال يخرج منهم (انظر ما تقدم ، الفصل ١ ، حاشية ٢٥) .

(٢٧) تناقض مع ما قيل من قبل من ان الزنا يوجب الطلاق .

واللواط ، والحيونة بالنسبة للمرأة ، ثم القرع بالعصا في حال النميمة، وأخيراً فرض غرامة على السارق . اضافة إلى ذلك ، يحظر القيام بـ ٣٧ عملا من الأعمال اليدوية يوم السبت وعشيته ، وعقوبة المخالف الإعدام .

وتظهر ذهنية مماثلة ، تؤيدها تدوينات مشابهة في الحديث عن النصارى . ويستعرض المقدسي (٢٨) صيامهم خمسين يوماً ، والعشر ، والحج إلى بيت المقدس ، والعمادة ، وتطهير اليدين والوجه ، ونبذ السكر ، وعدم فرض الختان أو حظر نوع الغذاء . وهنالك بعض المواضيع التي أصبحت معروفة : مثل صحة الزواج بحضور القس وشهود، ووجود مهر ، وتحرير العبد الذي تجري معه علاقات جنسية (٢٩) والطلاق المقتصر على الزنا الذي يمكن قصاصه بالرجم ، وموت القاتل ، باختصار ، هنالك أنظمة كثيرة مأخوذة من أسفار موسى الخمسة .

اخذت بعض الأنظمة ، لكن لم يؤخذ الإيمان . فجزاء القتل غير المتعمد ، النفي فقط . ويبرز المقدسي أصالة هذا الموقف ، وينسبه إلى عقيدة الصفح في النصرانية . وفي الواقع ، يعرف هذا المؤلف جيداً هذه العقيدة المسيحية ، ومراتب القسس والكهنة والأساقفة والمطارنة والبطاركة . ويعدد طوائفها كالملكية ،واليعاقبة ،والنساطرة ، والمرقونيين والبولصيين . ويعرض الإيمان بالثالوث والنقاشات اللامتناهية حول طبيعة المسيح ، ويختم بتشتت الفكر المسيحي .

---

(٢٨) المقدسي ، ج٤ ، ٤٠ — ٤٥ .

(٢٩) التحرير في اي حال الزامي بعد مرور سبعة أعوام خدمة .

ومرة أخرى ، يتحدث المسعودي أيضاً باسهاب ، من الناحية التاريخية ، عن يسوع ، وعن نجمة الميلاد ، وأخبار الرسل في الأزمنة الأولى ، وكتاب الطقوس ، والمجامع المقدسة ، والبطريركيات ، والطوائف ، كالملكية ، وهي أهمها وعنها يصدر كل شيء ، والنساطرة واليعاقبة ، والأقباط ، والنوبية ، والأرمنية ، والمارونية ، والكلدانية (٣٠) . فالإهتمام بالنصارى ثابت . ويظهر بصورة غير مباشرة في الكلام عن جزيرة العرب في الجاهلية (٣١) : « واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام القبلة . والجاهل منهم ومن لاعلم له يشرك الأصنام بالهية الخالق . . . وان عبادتهم الاصنام تقربهم إلى الله زلفى ، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه ، وان عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة اليه » .

وقد كتبت الأسطر السابقة تمجيداً للقرشيين آل النبي ، ويمكن أن نجد امتداداً طبيعياً لها عند النصارى وصور تقواهم . وقد يقال إن هذه الناحية غير صريحة . يجوز . لكن لنرجع عندئذ إلى أحد مقاطع مروج الذهب (٣٢) . وفيه سئل عالم الأقباط المصريين عن الدليل على صحة دين النصرانية ، فقال : « « دليلي على صحتها وجودي اياها متناقضة متنافية ، تدفعها العقول ، وتنفر منها النفوس ، لتباينها

---

(٣٠) المسعودي (م) ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٧١٩ — ٧٢٥ ز ، ٧٣٦ ، ٧٤٩ — ١٢٩١ ، ١٤٠٥ ، المسعودي (ت) ، ١٩٥ — ١٩٧ ، ٢٠١ — ٢١٣ ، ٢١٧ — ٢٢١ . احيل من أجل تاريخ الكنيسة وتنظيمها الى جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٥١ — ٤٥٦

(٣١) المسعودي (م) ، فقرة ٣٢٥ .

(٣٢) المسعودي (م) ، فقرة ٧٩٩ — ٨٠٠ .

وتضادها ، لانظر يقويها ، ولا جدل يصححها ، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها . ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكاً عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي ، قد انقادوا اليها ، وتدينوا بها . فعلمت أنهم لم يقبلوها ، ولم يتدينوا بها — مع ماذكرت من تناقضها في العقل — إلا لدلائل شاهدوها ، وآيات علموها ، ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها » .

وعدد العالم القبطي بعد ذلك ، تلبية لطلب سامعيه ، التضاد في النصرانية من الثالوث إلى الصلب ، وقال : « وهل في التشنيع أكبر وأفحش من إله صلب ، وبصق في وجهه ، ووضع على رأسه الإكليل من الشوك ، وضرب رأسه بالقضيب ، وسمرت يداه ، ونخس بالأسنة والخشب جنباه ، وطلب الماء ، فسقي الخل في بطيخ الحنظل ؟ » . وختم المسعودي بهذه الكلمات : « فامسكوا عن مناظرته ، وانقطعوا عن مجادلته ، لما قد اعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه » . ولا يتبع المسلم الموضوع ظاهرياً . بل يدين ويصمت بعد اصغائه حتى النهاية إلى « جنون الصلب » يقدمه واعظ فذ .

نظرة عامة إلى الجماعات الدينية

يسيطر الإسلام نفسه في وصف داره ، مثلما ارتسم بدءاً من اليعقوبي حوالي ٢٧٥ هـ / ٨٩٠ م . وقد استقر في جميع الأماكن تقريباً ، وتغلب في مواضع كثيرة على أديان الشرق القديمة . ويدخل اعتناق الإسلام في التاريخ ، لكنه يندرج بعد ذلك في مشهد البشر ، فيهم الجغرافيين أحياناً على هذا الأساس . والشاهد مصر . فمن خلافة عثمان إلى خلافة معاوية ، أي على مدى جيل واحد ، انخفضت جباية

الخراج مع جزية رؤوس الرجال بنسبة ٥٠٪ ونيفاً بعد أن أسلم السكان، وبلغت في أيام هارون الرشيد ربع ماكانت عليه قبل قرن ونصف القرن ، على حد قول اليعقوبي (٣٣) .

وهكذا ضعفت الأديان القديمة ، لكنها بقيت حية . واحتفظت دار الإسلام ، وريثتها ، برمزها وبوجودها . أما فيما يتعلق بالرمز ، فقد عثر في عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ ه / ٨٦٨ م — ٢٧٠ ه / ٨٨٤ م) في احدى أهرامات مصر (٣٤) على صورتين من ذهب ، احداهما صورة رجل بيده حية ، والأخرى صورة رجل على حمار بيده عكاز (٣٥) ، وفي الجانب الآخر صورة رجل على ناقة بيده قضيب . وقد أجمع العارفون على أن الصور لموسى وعيسى ومحمد ، الذين نالوا بركة واحدة .

ونعود إلى الجغرافيين العرب لنتحرى وجود الجماعات اليهودية والنصرانية وغيرهما في أماكن متفرقة . فالرازي يقول لنا (٣٦) إن جميع حصون منطقة لاردة في الأندلس بيد أسر مسيحية تنفيذاً لاتفاق تعايش مع المسلمين عند مجيئهم . وما أكثرها في أراضي دار الإسلام . وإذا عدنا إلى مصر ، وجدنا رغم اعتناق كثير من أهلها الإسلام ، انها بقيت أحد معاقل النصرانية في الشرق . ففي شرق نهر النيل يقع دير القديسة كاترينة بدرجه المؤلف من ٦٥٠٠ درجة ، الذي يوصل

---

(٣٣) اليعقوبي ، ٣٣٩ .
(٣٤) ابن حرداذبة ، ١٦٠ .
(٣٥) عن معنى عكاز ، انظر دوزي ، ج٢ ، ١٥٦ . عن القضيب ، رمز السيادة عند النبي والخلفاء ، انظر د . سورديل ، م١ (٢) ، ج٤ ، ٣٩٤ .
(٣٦) الرازي ، ٧٤ .

إلى الكنيسة المبنية في قلة الجبل (٣٧) . وتمتد مصر القبطية على مجرى النيل ، وتصل إلى النوبة (٣٨) . ويذكر ابن الفقيه بقول النبي : « إذا إستفتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإني لهم صهر » . وقالوا : « لو عاش ابراهيم ، ما ملكت قبطية أبداً » (٣٩) . ويذكر اليعقوبي بعض الأديرة : مثل دير بوشنودة في اخميم على النيل الأعلى ، ويقال إن فيه قبر رجلين من حواري المسيح ، والدير الكبير المعروف ببومينا ، في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وبرقة (٤٠) . فمصر إذن معقل ، لكنه ليس معزولا ، بل على النقيض متصل بسائر العالم المسيحي ، بدءًا من إقليم الشمال القريب(٤١) . ويجمعهما ابن الفقيه(٤٢) ويقول : والقبط والشام كلّهم نصارى : يعقوبي ، وملكي ، ونسطوري ونيقولائي ، وركوسي ، ومرقيوني ، ويدخل الصابىء والماني معهما .

وللنصرانية امتداد في العراق . فصببا ، على شطّ دجلة ، في منطقة واسط ، في مدينة النعمانية ، بني دير هزقل (حزقيال) الذي يعالج فيه المجانين ، ويشرف عليه النصارى ، وهو مشهور جداً حتى أصبح تعبير « هارب من دير هزقل » يعني « مجنون » (٤٣) . ويشار في

---

(٣٧) ابن اسحاق ، ٤٤٨ ، مع مبالغة بعدد الدرجات : حوالي ٣٠٠٠ درجة .

(٣٨) ابن الفقية ، ٧٧ ، عن النوبة المسيحية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٥٦ .

(٣٩) ابن الفقية ، ٥٨ — ٥٩ ، اشارة الى مارية القبطية (اشير اليها من قبل في الفصل ٣) التي أنجبت للنبي ابنه ابراهيم الذي توفي حدثاً .

(٤٠) اليعقوبي ، ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ترجمة ، ١٨٧ (وحاشية ٦) ، ٢٠١ .

(٤١) اليعقوبي ، ٣٢٨ (ترجمة ، ١٨٠ — ١٨١) يشير أيضاً إلى وجود السامرة في جميع الأماكن في فلسطين تقريباً .

(٤٢) مع النوبة (منطقة علوا) ومدينة تكريت في العراق : ابن الفقية ، ٧٧

(٤٣) اليعقوبي ، ٣٢١ ، ترجمة ، ١٦٤ (وحاشية ٥)

بغداد إلى الدير العتيق الذي ينزله الجاثليق رئيس النصارى النسطورية(٤٤). وفي منطقة الكوفة ، تبدو الحيرة بعليّة أهلها مركز الإرستقراطية النصرانية (٤٥) ، وتتوزع فيها جميع أنواع الأديرة (٤٦) . أخيراً ، صعداً ، على مقربة من دجلة ، تنتشر جماعات مسيحية في تكريت والموصل التي بنيت فيها عدة كنائس (٤٧) .

ويعطي أبو دلف مسعر (٤٨) بعض التفاصيل عن أرمينية . ففي بحث الموت ، يتحدث عن الإعتراف وعن الكاهن الذي يأخذ بيد المحتضر كلما أقر بخطيئة ، ويكرر له قوله : « آخذ خطاياك على عاتقي » . ثم يغيب لحظة ، ويعود ليقول : « رميت خطاياك في الصحراء » . ويضيف أبو دلف أن هذه الظاهرة محلية وخاصة بفئة أرمنية ، ويثني على طريقة ترتيلهم الترانيم والإنجيل ، ويراها أجمل من ترتيل سائر الكنائس ، ورقيقة ، يستعذبها القلب الحزين في جزيرة العرب .

وفي جزيرة العرب ، يشير الهمداني إلى وجود جماعة يهودية قوامها مئتا شخص في منطقة المدينة ، وإلى نصارى نجران في اليمن الشمالي وكنيستهم المنقورة في الحجر (٤٩) . مع ذلك ، عندما يتحدث عن اليهود ، على غرار المجوس يقصد وضعهم في ماض قديم

---

(٤٤) اليعقوبي ، ٢٣٥ . انظر ١٠١ .دوري ،«بغداد» ، في م١ (٢) ، مجلد ١ ، ٩٢١ (٢) ، و «دير الجاثليق » المرجع ذاته ، مجلد ٢ ، ٢٠٣
(٤٥) اليعقوبي ، ٣٠٩
(٤٦) ابن الفقية ، ١٣٥ ، ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤٧) ابن الفقية ، ٧٧ ، ١٢٩ (الذي يشير الى وجود يهود في الموصل أيضاً)
(٤٨) مسعر (ب) ، ١٦ — ١٧ .
(٤٩) الهمداني ، ١٥٢ .

كانوا يعدون فيه بالآلاف في نواحي المدينة، ثم تزامن نزوح بعضهم من تلك الأرجاء إلى الحجاز مع خروجهم من مصر ، وخاصة الى مدينة يثرب التي شكلوا فيها هذه المرة « مستعمرة أرستقراطية مسيطرة » (٥٠)

وتكثر نار المجوس وبيوت نيرانهم في أرجاء فارس . وبيت نار المدائن خرب ، إلا أن بيوت النيران الأخرى باقية ، ويرتادها المؤمنون من أقاصي الدنيا ، « والنار أيضاً باقية فيها » (١٥١) . ويتحدث ابن الفقيه عن زردشت والملك الذي يشهد له ويعود ناراً، وعن أهم بيوت النيران ، وثورة مزدق الذي قال ينبغي أن تبطل النيران كلها إلا الثلث الأوائل ، وعن رد الناس النيران إلى أماكنها لما قتل مزدق ، واخيراً عما اتخذ من احتياطات في أثناء الفتح العربي لتلافي اطفاء جميع النيران(٥٢)

ديارات الشابشتي

يمكن قراءة خريطة الطوائف المسيحية ، التي رسمنا خطوطها العريضة من قبل ، في مصنف متخصص ، نعني كتاب ديارات الشابشتي ، المتوفى في أواخر القرن العاشر (٥٣) . ففي الجهة الغربية ،

---

(٥٠) الهمداني ، ١٤٩ ، ابن رستة ، ٦١ — ٦٢ .

(٥١) ابن رسته ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٦ ، قدامة ، ٢٠٩ (المجوس في منطقة مرو) ، مسعر (ب) ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٢) ابن الفقية ، ٢٤٦ — ٢٤٧ ، كرر المسعودي (م) ، فقرة ١٤٠٢ بآخرها معطيات حماية النار عند مجيء الاسلام .

(٥٣) عن الشابشتي ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ص ٢٥ روماني ، ١٤٩— ١٥٠ (عن كتابه ، يرجع الى التتمات الوافية والتعليقات التي اعدها الناشر) . عن الاديرة انظر د . سورديل ، ١ . ١ . دوري و س . ١ . العلي م١ (٢) ، ٢٠٠ — ٢٠٥ .

تنتشر ديارات وادي النيل ، خاصة القاهرة وتستمر حتى مشارف مقبرة القرافة الشهيرة (٥٤) . ثم تأتي ديارات بلاد الشام من جبال بحيرة طبرية حتى الفرات ، مروراً بجبل الطور وببلاد دمشق (٥٥) . أخيراً نصل إلى ديارات الجزيرة . فمن جانب نهر دجلة ، تشاهد الأديرة الأولى في واسط ، ثم تتوزع صببا ، لكنها تبدأ بالظهور فعلا في بغداد وضواحيها القريبة ، بحيث أحصيت ١١ ديراً (٥٦) . وتتواصل صعداً في منطقتي سر من رأى وتكريت اللتين تحويان اثني عشر ديراً (٥٧) ، ثم في الموصل ونينوى ، وفيهما ستة أديرة (٥٨) ، وتنتهي في أودية دجلة العليا وروافدها (٥٩) . وتتوالى الأديرة على نهر الفرات من الأنبار على حوالي ٦٠ كم غربي بغداد ، باتجاه مدينتي عانة والرقة على شاطئه ، أو نحو بلاد نصيبين في وادي نهر الخابور رافد الفرات (٦٠) . إلا أن كثافة الأديرة تقع صببا في منطقة الكوفة حيث يوجد اثنا عشر ديراً ، احدها خرب وتحول إلى أطلال (٦١).

---

(٥٤) الشابشتي، ١٨٤، ١٨٧ – ١٨٨ ، ١٩١، ١٩٤، ١٩٩ (سيناء)، ٢٠٠ – ٢٠٢

(٥٥) الشابشتي ، **١٣٠** ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ٢١٧ .

(٥٦) الشابشتي ، ٣ ، ٩ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ٢١٥ .

(٥٧) الشابشتي ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٩، ١١١ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٥٨) الشابشتي ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، .

(٥٩) الشابشتي ، ١٢٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٦٠) الشابشتي ، ١٢١ ، ١٣٩، ١٤٧ ، ١٦٦ .

(٦١) الشابشتي ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ (اديرة عديدة تحمل اسماً واحداً) ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢١٦ .

وهكذا تحدد الخريطة وحدها نطاق وجود الديارات ، التي يعين النهر ، أو ، كما في العراق ، قناة فرعية منه ،موقعها ومباهجها . فالماء متوفر في جميعها يسحب لها بالنواعير . كذلك البساتين والفواكه وكروم العنب والزيتون والكباد والنخل (٦٢) . وتتنوع المشاهد فيها : فبجوار دير العلث ، موضع من دجلة صعب ، ضيق المجاز ، كبير الحجارة ، شديد الجرية ، تجتاز فيه السفن بمشقة . وإذا وافت السفينة إلى العلث ،آرست بها ،فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهادٍ من أهلها يكترونه(٦٣) وفي أغلب الأحيان تسترعي الإنتباه قضايا المياه.فاذا كان الدير بعيداً عن النهر ، تصبح العين بديلا عنه ، ويفتح عند الحاجة صهريج . ويسحب الماء في هذه الحالة ، ويسقي خضرة البساتين أو الأزهار البرية (٦٤) .

يقترن هذا الوصف العجيب أو الفردوسي في بعض الأماكن ، باهتمامات دفاع تحل أحياناً محل العجيب. عندئذ يبتعد الدير عن النهر والأرض المنبسطة المكشوفة ، التي يشرف عليها ، ويرفع حوله جدار سور يعزله تماماً عما بجواره (٦٥) . ويمكن أن يكون دير الأعلى بالموصل نموذج هذا الوصف من الأديرة ، فله درجة منقورة في الجبل تفضي إلى دجلة بنحو المائة مرقاة ، أو دير القصير جنوبي القاهرة ، المبني في أعلى جبل المقطم ، على سطح قلته ، وله بئر منقورة في الحجر (٦٦) .

---

(٦٢) الشابشتي ، ٩ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٩٦ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٨٧ — ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ (حاشية ٢) ، ٢١٧ .

(٦٣) الشابشتي ، ٦٢ .

(٦٤) الشابشتي ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٦٥) الشابشتي ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١٩٨ .

(٦٦) الشابشتي ، ١١٢ ، ١٨٤ . بشأن هذين الديوين انظر ياقوت ،معجم البلدان، ج٢ ، ٤٩٨ — ٤٩٩ و ٥٢٦ — ٥٢٨ .

ويزداد ابتعاد الدير في أماكن أخرى ، ويتوغل في أعماق أراضي الداخل ، ويفضل المرتفعات ، فيجثم على نشز منعزل أوينقر في الصخر ذاته (٦٧) .

والدير في نظر الشابشتي ، مكان مأهول ، يعيش فيه على حدّ قوله الرهبان والنساء المترهبات في قلايات فردية . وهو واسع جداً أحياناً ، يضم ٤٠٠ راهب في قلالي خاصة انفرادية (٦٨) : ويتبع كل دير احدى الطوائف النصرانية ، كالكنيسة النسطورية أو الملكية أو اليعقوبية . ويسمى رئيس الدير القائم أو القيم . وقد يكون الدير نفسه مقر اسقف أو مطران (٦٩) . وتقام فيه الصلوات ، ويعيش النساك منفردين في صوامع قرب الدير (٧٠) .ويصوم الرهبان (٧١) ، ويناولون القربان لنصارى جوار الدير (٧٢) ، ويحيون الأعياد ، مثل عيد قديس الدير ، وأحد الشعانين ، والفصح ، وصعود العذراء إلى السماء (٧٣) :

وهكذا يبدو الدير مكاناً مقدساً ، بما فيه من لوازم عبادة أولا ،

---

(٦٧) الشابشتي ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٧١ .

(٦٨) الشابشتي ، ٦٠ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٧١ (مع اشارة الى تبايع الرهبان القلالي ، باثمان باهظة) ، ١٧٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٧ .

(٦٩) الشابشتي ، ١٠٩ ، ١٧٦ (و ١٧٧ ، ح١) ، ١٩٧ (قائم في كل دير ملكي أو يعقوبي ، لكن ليس في الاديرة النسطورية) ، ١٩٨ .

(٧٠) الشابشتي ، ١٨٤ ، ١٩٧ (ح٢) .

(٧١) الشابشتي ، ٧٠ (و ح٦) : صيام ثلاثة أيام قبل الصوم الكبير .

(٧٢) الشابشتي ، ٩ .

(٧٣) الشابشتي ، ٩ ، ٣٠ ، ١١٢ ، ١٥٥ ، ٢٠١ (و ح ٦) .

كالأناجيل ، والصلبان ، والمجامر ، وصورة مريم وفي حجرها صورة المسيح (٧٤) ، ثم باعادته إلى الذاكرة تاريخاً مقدساً مدوناً فيه ، كما في دير فيق ، الذي دعا فيه المسيح الحواريين وفيه حجر يجلس عليه ، أو في دير الطور (المسمى أيضاً دير التجلي) ، الذي يذكر بتجلي المسيح لتلامذته بعد أن رفع ، أودير القصير الذي يطل على قرية شهران التي القت منها أم موسى موسى إلى البحر في التابوت (٧٥) وأخيراً بضروب الشفاء التي تظهر فيها الهالة المقدسة ذاتها والقدرات الخارقة : فالدير نفسه أو العين القريبة منه أو البئر تبرىء الكلب من الكلب ومن الخنازير والجرب والبهق والبثور والدمامل (٧٦) . فأهل سرياقس يذكرون اعجوبة ، هي أن من كانت به خنازير ، يقصد بيعة أبي هور ليعالج به . فيأخذه رئيس الموضع ، فيضجعه ، ويأتيه بخنزير ، فيرسله على موضع الوجع ، فيأكل الخنزير الذي فيه ، لايتعدى ذلك الموضع . فاذا تنظف الموضع ، ذر عليه من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ، ومن زيت قنديل البيعة ، فيبرأ . ثم يؤخذ ذلك الخنزير ، فيذبح ويحرق ، ويعد رماده لمثل هذه الحال (٧٧) .

ولا تقتصر الاديرة على الناحية المقدسة ونتائجها ، فلديها مهام أخرى : فالدير ينزله المنحدرون والمصعدون ، كما في دير باشهرا

---

(٧٤) الشابشتي ، ١١٢ ، ١٥٥ ، ١٨٤ .

(٧٥) الشابشتي ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٥٧ (اشارة الى ترهب هند بنت النعمان آخر ملوك الحيرة) ، ١٨٤ ، ١٩٩ (سيناء حيث تجلّى الله لموسى).

(٧٦) الشابشتي ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٧٧) الشابشتي ، ٢٠٠ .

بين سامراء وبغداد (٧٨) : ويربي الحيوانات (٧٩) ، ويبيع غلات بساتينه (٨٠) ، ويحمل خمور معاصره إلى الجوار (٨١) . إلاأن الخمور تندرج في مشهد آخر لايتوقعه إنسان ، أي العيد ومسراته : ولا بأس أن يصبح الدير وماحوله متنزهات مقصودة كثيراً ، تسحر الناس فيها بهجة الماء والخضرة ، وأفر اح الصيد البري أو المائي ، ولطف الهواء(٨٢). لكن يستهلك الخمر محلياً في بعض الأماكن ، خاصة في العراق ، في حانات ملاصقة للأديرة : ويشرب فيها النصارى والمسلمون ويغنون ، ويرقصون ، ويسرفون في الأكل ، وما إلى ذلك . . . وتتكرر عند الشابشتي الفاظ اللذة والخمول والفجور : فتختلط النساء والرجال ، « فلا يرد أحد يده عن شيء ، ولا يرد أحد أحداً عن شيء ». ولا يمنعه هذا الكلام عن الحديث عن منتهى سحر المواضع والعيد (٨٣) :

وفي كتاب الشابشتي عنوان « الديارات المعروفة بالعجائب » ، يتبسط في صفحاته الطويلة في الكلام عن ضروب العجيب في بعض الأديرة : وتأتي حالات الشفاء في طليعتها ، وتتم بالعلاج الطبي البسيط ،

---

(٧٨) الشابشتي ، ٥٢ .

(٧٩) الشابشتي ، ١٣٧ .

(٨٠) الشابشتي ، ١٧١ .

(٨١) الشابشتي ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٤٧ ، ٢١٥ .

(٨٢) الشابشتي ٣ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٤١ ، ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،

(٨٣) الشابشتي ، ٣ ، ٩ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣٥ ، آخر ٦٠ – ٦١ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ، ١٥٠ (دير خرب في منطقة الحيرة – الصحيح في طيزباذ بين الكوفة والقادسية) لكن يبدو انه لم يبق منه الا قباب خراب وحجر على قارعة الطريق) ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٨ ، ١٩٧ .

لا بالطرق الخارقة . فيحدثنا عن عين تشفي البثور (٨٤) والخنازير ، المشار اليهما ، وعن دير الكلب بناحية الموصل ، حيث يعالج من عضة كلب ، ويبرأ ، إذا لم تمض له أربعون يوماً على العضة (٨٥) :

وتعقب عجائب الحيوان عجائب حالات الشفاء . فدير الخنافس ، تظهر فيه الخنافس عشية عيده حتى تغطي حيطانه وسقوفه وأرضه ، ثم تغيب في اليوم التالي حتى لايرى منها شيء (٨٦) : وفي دير العجاج بركة ، فيها سمك أسود طيب الطعم (٨٧) . وفي بيعة أتريب تجيء حمامة بيضاء في عيدها ، فتدخل المذبح ، لايدرون من أين جاءت (٨٨) . أخيراً بنواحي اخميم ، في صعيد مصر ، دير قرب جبل الكهف . وفي موضع من هذا الجبل ، شق ، إذا كان يوم عيد هذا الدير ، تأتي جميع طيور بوقير اليه بكثرتها وصياحها . ثم لايزال الواحد منها يدخل رأسه في ذلك الشق بعد الواحد ، ويصيح ويخرج ، ويجيء غيره فيفعل كفعله ، إلى أن يعلق رأس أحدهم وينشب في الموضع ، فيضطرب حتى يموت ، حينئذ ينصرف الباقون (٨٩) .

وتتخذ العناصر الطبيعية هي أيضاً شكل العجيب في الحيز المقدس من الدير ومن جواره . فالماء يشفي ، أما دير القيارة ، في منطقة

---

(٨٤) الشابشتي ، ١٩٧ .
(٨٥) الشابشتي ، ١٩٦ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٣٦ .
(٨٦) الشابشتي ، ١٩٥ .
(٨٧) الشابشتي ، ١٩٩ .
(٨٨) الشابشتي ، ٢٠١ (و ح ٦) .
(٨٩) الشابشتي ، ٢٠١ آخرها — ٢٠٢ (وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ٣٥٣ — ٣٥٤) . طير بوقير صنف من ابي قرين — بوسيروس ، بوكوراكس (نوع من طوقان افريقية) .

الموصل ، فتحته عين القير ، وهي عين تفور بماء حار تصب في دجلة ، ويخرج منه القير . فما دام القير في مائه فهو لين يمتد . وهناك قوم يجمعون هذا القير ، ويطرحونه على الأرض ، وينخل له الزمل ، فيطرح عليه ، ويختلط بالرمل ، ويقلب على الأرض قطعاً مجمدة ، ويحمل إلى البلدان ، ومنه تقيرّ السفن والحمامات (٩٠) . وفي كنيسة الطور نار يزعم النصارى أنهم يوفدون منها في كل عشية وهي بيضاء ضعيفة الحر لاتحرق ، ثم تقوى أذا اوقد منها السرج (٩١) .

ويجوز أن يتصف أحد عناصر بناء الدير بسر غريب : مثلا ، لدير باطا حجر ، ذكر النصارى أن فتحه ميسور على يد شخص أو اثنين وحتى سبعة ، فإن تجاوز عدد الأشخاص سبعة ، لم يقدر أحد منهم على فتحه (٩٢) ، وفي دير الجودي الذي استقرت عليه سفينة نوح ، اعجوبة سطحه ، إذ لايعطي شبره نفس المساحة أبداً (٩٣) .

أخيراً يمثل جثمان الشهيد مظهر العجب الأخير . ففي دير يحنس بدمنهور ، من أعمال مصر ، إذا كان يوم عيده ، اخرج شهيده من الدير في تابوت ، فيسير التابوت على وجه الأرض ، لايقدر أحد أن يمسكه ، ولا يحبسه ، حتى يرد البحر ، فيغطس فيه ، ثم يرجع إلى مكانه (٩٤) .

---

(٩٠) الشابشتي ، ١٩٦ (دير القير ، أو دير القيارة : دير العين البيتومية).

(٩١) الشابشتي ، آخر ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٩٢) الشابشتي ، ١٩٨ (ح ٤) . انظر ياقوت معجم البلدان ، ٢ ، ٥٠٠ (دير باطا) . .

(٩٣) الشابشتي ، ١٩٩ .

(٩٤) الشابشتي ، ٢٠١ .

وفي جبال أرمينية ، في دير برقوما ، بميافارقين شهيد (شاهد) في خزانة خشب ، لها أبواب ، تفتح أيام الأعياد ، فيظهر منه نصفه الأعلى ، وهو قائم وأنفه وشفته العليا مقطوعتان . وذلك أن امرأة احتالت عليه ، لأنه ممن شهد المسيح ، ومضت بهما ، فبنت عليهما ديراً في البرية في طريق تكريت (٩٥) .

قد نعجب لكثرة المواضيع ، التي يتضاءل إلى حد كبير اتفاقها مع ماتتوقعه من صورة الدير . إلا أن عمل الشابشتي يكاد يخلو من الطرافة : فالعجيب يندرج في صميم ثقافة عصره العامة وفي صميم الأدب . واشتهرت الحانات والخمر المصنوعة من عصير كرمة الدير والمستهلكة بجواره ، بإلهامها قطاعات كاملة من الادب العربي ، خاصة الخمريات . فهل نستغرب أن تسمي الناس خرائب دير سرجس معصرة أبي نواس ، سيد الخمريات والمجون (٩٦) : في النهاية ، نرى أن كتاب الديارات لايكشف إلا النزر القليل جداً عن هذه المؤسسات ذاتها . لذلك لابد أن يؤخذ على علاته ، مادامت النواحي الأخرى تنقصه : فهو شبه خريطة ، معممة جداً ، حتى انها تعد أدلة منظورة على وجود مالم تقتلع جذوره من الطوائف المسيحية في المشرق .

مع اقتراب العام الف

قلنا ، وكررنا أن المؤلفين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي رجال ميدان في المقام الأول . إلا أنهم طالعوا الكتب

(٩٥) الشابشتي ، ١٩٧ .
(٩٦) الشابشتي ، ١٥٠ .

أيضا ، وتأثروا بمدينتهم ، وبنظرتها إلى معتنقي أديان اخرى . بالتالي ، لايستغرب أن يرى ابن حوقل أو المقدسي أتباع بقية المعتقدات ، اليهود والنصارى خاصة ،من خلال ماتعلمه : فرؤيتهم متضادة ، عدائية تارة ، أشد تنوعاً طوراً ،ان خلت من المديح أو التفهم الحقيقيين.

ويشمل لفظ واحد غير المسلمين ، هو لفظ «الذمة» التي منحهم اياها الإسلام . ويعدد المقدسي أديان الذمة ويجعلها أربعة : اليهود والنصارى والمجوس والصابئين (٩٧) : ثم يجمعهم معاً مجدداً ويشير إلى كثرة أهل الذمة في واسط ، وفي إقليم الشام ، وإقليم الديلم على مقربة من بحر قزوين (٩٨) . ويندد بهم مجتمعين في أماكن أخرى : فيعتبر وجودهم في اقليم الشام احد مربكاته (٩٩) ، بينما هم في الواقع مشركون وعبدة أوثان (١٠٠) في وادي نهر مهران (اقليم السند) : وهذا يعني ضمناً أن هؤلاء يمكن أن يكونوا مؤمنين صادقين في بلدان أخرى .

ولا يذكر إلا النزر القليل عن الأديان التي اسميها هامشية ، أي السامرة ، وهم صنف من يهود فلسطين (١٠١) ، والصابئين ، المشار اليهم اشارة عابرة (١٠٢) . وليس بفارس صابئة ولا سامرة (١٠٣)

(٩٧) المقدسي ، ٤١ ، ٤٢ (ح ١) .
(٩٨) المقدسي ، ١٦٢ ، ١٧٩ ، ٣٦٥ .
(٩٩) المقدسي ، ١٥٢ .
(١٠٠ المقدسي ، ٤٧٤ ، ٤٨١ .
(١٠١) المقدسي ، ٤٢ ، ١٧٩ .
(١٠٢) ابن حوقل ، ٢٢٦ ، المقدسي ، ١٤٢ (ينزلون فقط في حران والرها)
(١٠٣) ابن حوقل ، ٢٩٢ .

والسامرة موجودون في اقليم الشام (١٠٤) . أما المجوس فهم منهم . ويضعهم ابن حوقل في فارس خاصة ، ويعتبرها قلب هذا الدين ، وتكثر فيها بيوت نيرانهم : في أصفهان ، وجبال هرات حتى منطقة سمرقند ، حيث اعفوا من الجزية لقاء قيامهم بحراسة الأراضي التي تخصص غلاتها لدائرة المياه (١٠٥) . وتبرز في عرض ابن حوقل : الثروة العقارية العائدة إلى الجماعات المحلية ، حول أصفهان (١٠٦) ، ووجود بيت نار على تل عظيم يقال ان ناره من قديم النيران الأزلية ، وقد توكل بهذه النار سدنة عليها من المجوس ، يتخذون الأشربة فيعتقونها ، ويقصدون لجودتها عندهم ، فيبيعونها ، ويربحون فيها (١٠٧) . وحصون فارس التي يتدارس فيها المجوس علومهم المكتوبة باللغة البهلوية (١٠٨) ، وأخيراً نار منسريان في فارس أيضاً ، التي يقضي دين المجوس أن المرأة ، إذا زنت في حملها أو حيضها ، لم تطهر إلا بأن تأتي هذه النار ، فتتعرى لبعض الهرابذة ، ليطهرها ببول البقر في هذه الناحية (١٠٩) .

ويرى المقدسي أن المجوس (١١٠) ورثة التقاليد الفارسية :

---

(١٠٤) المقدسي ، ١٧٩ .

(١٠٥) ابن حوقل ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ — ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ (في جبال البارز ، وفي كرمان حتى مجيء العباسيين) ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٣٣ ، ٤٩٣ .

(١٠٦ ابن حوقل ، ٣٦٦ .

(١٠٧ ابن حوقل ، آخر ٣٦٥ .

(١٠٨ ابن حوقل ، ٢٧٣ .

(١٠٩) ابن حوقل ، ٢٧٤ .

(١١٠) لا يعتبر دينهم دين أهل كتاب : انظر المقدسي ، ١٢٦ : (عن العراق) وبه مجوس كثيرة وذمته نصاري ويهود : يرى ان التمييز واضح .

والبرهان قبة كازرون التي يزعمون أنها وسط الدنيا (١١١) . بالفعل . يعتبر المقدسي مثل ابن حوقل أن فارس قلب بلادهم . ويقول : ليس باقليم الشام واقليم الجزيرة مجوس (١١٢) ، واقليم خوزستان غير كثير المجوس (١١٣) ، وباقليم العراق مجوس كثيرة (١١٤) على أي حال ، يختلف الوضع تماماً في فارس : ففيها اكثر الجماعات المجوسية عدداً ، وبكاريان بيت نار يعظمونه ، ويحملون ناره إلى الآفاق ، وبه رسوم المجوس ظاهرة ولا ترى على مجوسي غياراً ، لشعورهم بانهم أقوياء (١١٥) .

ويهتم ابن حوقل قليلا باليهود ، ويكتفي بذكر وجودهم في قابس ، وبالرمو ، وفارس ، وربض كابل (١١٦) ، بلا أي تعليق ماعدا النص التالي الذي يهاجم فيه أهل صقلية هجوماً مقزعاً ، يقول فيه : « وليس يشبه وسخهم في دورهم أقذار اليهود » (١١٧) . ويقدم لنا المقدسي توزعاً مكانياً لهم رصيناً ، إذ يقول لنا ان اليهود كثيرون في اقليم المغرب ، قلائل في مصر (١١٨) ، واليهود بجزيرة العرب أكثر من النصارى ، ولا ذمة غيرهم فيها . وتقع قرح المسماة وادي القرى شمالي غربي المدينة (١١٩) ، والغالب عليها اليهود .

---

(١١١) المقدسي ، ٤٦ ، ترجمة ، ١٧ حاشية ١ مكرر .
(١١٢) المقدسي ، ١٤٢ ، ١٧٩ .
(١١٣) المقدسي ، ٤١٤ .
(١١٤) المقدسي ، ١٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٩٤ .
(١١٥) المقدسي ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٩ .
(١١٦) ابن حوقل ، ٧٠ ، ١٢٢ ، ٢٩٢ ، ٤٥٠ .
(١١٧) ابن حوقل ، ١٣١ .
(١١٨) المقدسي ، ٢٠٢ ، ٢٣٦ .
(١١٩) المقدسي ، ٨٤ ، ٩٥ .

والغالب في بيت المقدس النصارى واليهود . وفي اقليم الشام ، أكثر الجهابذة والصياغين ، والصيارفة والدباغين (١٢٠) يهود . ويعثر على جماعات يهودية اخرى في العراق خاصة في حلوان ، على حدود فارس . وثم كنيس لليهود يعظمونه خارج البلد من الجص والحجارة كنيس بيت المقدس أكبر وأجل وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها (١٢١) . أخيراً ، في أقصى الشرق ، أقليم خوزستان قليل النصارى، غير كثير اليهود والمجوس (١٢٢) ، على نقيض بلدان فارس الكثيرة اليهود، خاصة في أصبهان التي تذكر قصبتها اليهودية باجلاء بخت نصر بني إسرائيل من الأرض المقدسة (١٢٣) .

ولا شك أن معاملة النصارى أفضل من معاملة سائر الذمة . فتوزعهم المكاني على الخريطة أدق بكثير مما ورد في خريطة التصانيف السابقة ، وإن كان الإنتشاران يتطابقان: فابن حوقل والمقدسي يبرزان إقليماً إقليماً وجود النصارى ، بقلتهم وكثرتهم . ففي الغرب ، نجدهم في الأندلس وصقلية (١٢٤) ، ثم عامة ذمة اقليم مصر نصارى يقال لهم القبط ، كما أشرنا من قبل (١٢٥) ، وللذمة في العراق مراكز متفرقة أكثر أهلها نصارى (١٢٦) . وفي اقليم الشام كثافة النصارى مرتفعة

---

(١٢٠) المقدسي ، ١٦٧ (في نطاق مقابلة خصائص ومثالب البلد) ، ١٨٣ .
(١٢١) المقدسي ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ .
(١٢٢) المقدسي ، ٤١٤ وجماعات نصارى ومجوس) .
(١٢٣) المقدسي ، ٣٢٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح ب) ، ٣٩٤ .
(١٢٤) ابن حوقل ، ١١١ ، ١١٨ — ١١٩ ، المقدسي ، ٢٣٢ .
(١٢٥) ما تقدم الفصل ٣ ، انظر ابن حوقل ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٥ ١٥٦ (مع نوع من الانحطاط في الواحات) ، ١٦١ ، المقدسي ، ١٩٣ ، ٢٠١ — ٢٠٣ ، ٢٠٩
(١٢٦) ابن حوقل ، ٢٢٨ ، المقدسي ، ١٢٣ ، ١٢٦ .

أحياناً ومتصلة (١٢٧) . في كتلة الجزيرة أرمينية (١٢٨) . أخيرا يعثر على جماعات منعز لة في جميع أراضي فارس حتى آسية الوسطى ، أو في مفازة فارس الكبرى . (١٢٩) .

ومن البديهي أن تكون البيعة أحياناً أحد الدلائل المنظورة على النصراني وتطوره : وهي ماتزال قائمة ومقصودة أو مشتركة مع المسجد أو احتلها الجامع . ففي الحالة الأولى نشير إلى كنيسة الرها ، إحدى الروائع العالمية ، وكنيسة بيت لحم أو جبل الزيتون (١٣٠) . لكن لابد من التفكير أيضاً بكنائس الأديرة الشهيرة في سينا وفي دير الكلب في منطقة الموصل (١٣١) ، وفي دير توما في أرمينية ، وفيه جسد قائم يزعمون أنه من الحواريين (١٣٢) ، وفي دير مريم قرب دبيل في أرمينية أيضاً (١٣٣) أو في اقليم الشام للملكية (١٣٤) . وفي مجال بقاء النصرانية ، لايجوز اغفال الإشارة إلى دق النواقيس الذي يستفز المسلمين ، وإلى ضرب الصنوج التي تدعو إلى الصلاة (١٣٥) .

---

(١٢٧) ابن حوقل ، ١٧٦ ، المقدسي ، ٤٤ (ترجمة ، ١١٢ ، ح١٤) ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨٢ — ١٨٣ .

(١٢٨) ابن حوقل ، ٢١٧ ، ٢٢٦ — ٢٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، المقدسي ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(١٢٩) ابن حوقل ، ٢٥٥ (وكان أهل الكتاب يديرونه — تابوت دانيال قرب سوسه — في مجامعهم ويتبركون به ويستسقون) .

(١٣٠) المقدسي ، ١٤١ ، ١٧٢ .

(١٣١) انظر ما تقدم عن ديارات الشابشتي .

(١٣٢) المقدسي ، ١٤٦ .

(١٣٣) المقدسي ، ٣٨١ .

(١٣٤) المقدسي ، ٤٤ ، ترجمة ، ١١٢ ، ح١٤ .

(١٣٥) المقدسي ، ٤٤ (وترجمة . ١١١ ح١١) مع ذلك ، يمكن ان تكون الصنوج ، حسب السياق ، جهاز الذار لوصول السفن الرومية الى السواحل الشامية (انظر المقدسي ، ١٧٧) .

وذكرت قسمة البيعة إلى كنيسة ومسجد في حمص في اقليم الشام ، وفي دبيل المذكورة من قبل (١٣٦) . وفي دمشق (١٣٧) ، تم احتلال الكنيسة وتحويلها إلى مسجد . وفي ميركى ، في منطقة اسبيجاب في آسية الوسطى ، كان الجامع في القديم كنيسة (١٣٨) . وعندما أراد هشام بن عبد الملك بناء جامع في الرملة في فلسطين ، طلب من النصارى أعمدة رخام مدفونة تحت الرمل ومهيأة لبناء كنيسة ، وهددهم بهدم كنيسة اللد (١٣٩) إن لم يسلموها ، ففعلوا .

فمن هم هؤلاء النصارى ؟ إنهم جماعة لاتعتنق الإسلام، يمكن أن يمثل وجودهم أحد مربكات هذا البلد أو ذاك، على حد قول المقدسي(١٤٠) ويستغرب المرء أحياناً أخرى ، أن يكون أهل الطيالس سكارى ، ويلبسه المكدون والنصارى (١٤١) . إلا أن الحكم على النصارى يتنوع في مكان آخر : فيعتبرون مؤمنين صادقين(١٤٢)، أُسيْأَتْ معاملتهم تاريخياً بلا وجه حق ، مثلما حصل في أرمينية ، إحدى أراضيهم

(١٣٦) ابن حوقل ، ١٧٦ ، ٣٤٢ . في دبيل مسجد جامع إلى جانب البيعة ، كمسجد حمص في مشاركة البيعة) ، المقدسي ١٥٦ ، ٣٧٧ (في دبيل البيعة والمسجد الجامع متلاصقان)

(١٣٧) ابن حوقل ، ١٧٤ - ١٧٥ (من ابنية الصابئين ، ثم صار في ايدي اليونانيين ، ثم صار اليهود ، ثم تغلبت عليه النصارى ، ثم صار للمسلمين واتخذوه مسجدا) . انظر أيضاً المقدسي ، ١٥٩ (سياسة الوليد في بناء المساجد لاشغالهم عن جمال بيع النصارى في اقليم الشام) وما تقدم الفصل الأول (الاسلام وريث مستقر) .

(١٣٨) المقدسي ٢٧٥ .

(١٣٩) المقدسي ، ١٦٥ .

(١٤٠) في مقابلة احدى المناطق أو المدن: المقدسي، ١٦٧، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٣٧٤ .

(١٤١) المقدسي ، ٤٢٩ .

(١٤٢) المقدسي ، ١٢٦ ، ذكر من قبل والحاشية : تمييز بين النصارى واليهود وبين المجوس .

المفضلة ، مع أنهم كانت بايديهم العهود باقرارهم على حالهم (١٤٣) . ويلاحظ المقدسي أن إقليم الشام يستعمل شهور النصارى ، ويقدر الفصول بأعيادهم (١٤٤) ، ويثني على المسيحيين أحسن ثناء (١٤٥) ، ويقول : « وأقل ماترى في إقليم الشام . . . مسلماً له كتابة . . . (١٤٦) وإنما الكتبة به وبمصر نصارى ، لأنهم اتكلوا على لسانهم ، فلم يتكلفوا الأدب كالأعاجم . كنت إذا حضرت مجلس قاضي القضاة ببغداد ، أخجل من كثرة مايلحن ، ولا يرون في ذلك عيباً » . هؤلاء هم النصارى ، العرب وغير المسلمين ، الذين وضعوا على نفس مستوى الأعاجم ، المسلمين وغير العرب ، من أجل الدفاع عن الثقافة واللغة والخدمة العامة . وهذا تقليد ثابت في الماضي وفي الحاضر حتى أيامنا مثلما هو معروف .

* * *

(١٤٣) ابن حوقل ، ٣٤٣ .
(١٤٤) المقدسي ، آخر ١٨٢ – ١٨٣ .
(١٤٥) المقدسي ، ١٨٣ .
(١٤٦) كتابة ، فيما بعد كتبة (كتبة وكتاب جمع كاتب) . تلاحظ أهمية هذا النص لاثبات دور غير العرب أو غير المسلمين في عهد الخلافة .

الفصل الخامس

الأبنية العجيبة

يعد وصف الأبنية العجيبة من أبدع ماكتبه الجغرافيون العرب . ونحن في الحقيقة ، لاننوه به لأول مرة . فقد تناول الجزءان الثالث والثاني السابقان نوادر البلدان الواقعة خارج دار الإسلام ، ثم غرائب الطبيعة ضمن هذه الدار ذاتها . بقي علينا إذن أن نتأمل ملياً روائع ما ابتكره الإنسان فيها ، أي أبنيتها العجيبة ، وآثارها ، على وجه التخصيص ، فهذه الأبنية ، شأنها شأن سائر العجائب ، تقود إلى الله بوسائل جمة : فاسرار الطبيعة تدعو إلى النظر في أعمال القدرة الإلهية ووجود الخالق في جميع الأماكن ، إلا أن آثار الأبنية التي خلفتها احدى الحقب الغابرة تدفع إلى التفكير ببطلان الأمجاد العظمى والنزوع إلى تعفية الرسوم خلال تاريخ طويل ، قد يصنعه البشر ، لكن يبقى الله فيه وحده أزلياً . ولا يفوت مؤلف أن يكتب في هذا اسوضوع (١) ، موسوعياً

(١) يكتب الشابشتي نفسه في هذا الموضوع ، وهو المؤلف المتخصص في ذكر الديارات (انظر الفصل ٦) : وقد مر معنا حديثه عن الديارات ، وعن آثار القصور القديمة : الشابشتي ، ١٥٢ .

كان أم جغرافياً مختصاً . وقد برز استمرار مطلق في الكتابة في هذه الناحية ، بدأ برواد علم البلدان ، مثل الجاحظ (٢) ، ووصل إلى الإختصاصيين بوصف مملكة الإسلام كابن حوقل والمقدسي : فثقافة العصر العامة ، أي الأدب ، تفرض على المطلعين اعطاء نظرة شاملة كاملة عن الأبنية العجيبة ، أو ، في الحد الادنى ، ذكر بعضها ، ليثبتوا أنهم يعرفون أصول التصنيف . ويبرهنون على ضلاعتهم في ذلك – بصرف النظر عن الإشارة العابرة – بثلاث طرق ، وردت عند ابن الفقيه : هي استعراض نماذج الأبنية أو شرح شهرتها ، أو تعدادها حسب البلدان طبعاً .

القلاع وآثار اخرى

يدخل أدب الآثار – ولا بد من التأكيد على هذه الناحية – ضمن أحد أكبر موضوعات الادب ، نعني معرفة الأبنية القديمة وغير القديمة . ويلح المسعودي على كلاسيكيتها ، ويستشهد بأبي معشر والخوارزمي والمدائني الذي ألف كتاباً عن أخبار الحصون (٣) . أما المقدسي ، فقد أعطى قائمة بأعظم أبنية العالم ، وذكر أسماءها ، واسماء نباتها ، والتنبؤات المتعلقة بمصيرها (٤) . ويذهب الحصري إلى أبعد من ذلك ، ويستعرض التعابير النموذجية الخاصة بوضع القلاع والقصور (٥) ؛

---

(٢) الجاحظ (١) . اماكن متفرقة .

(٣) المسعودي (م) ، فقرة ٥٠١ ، ١٣٧٠ وما يليها .

(٤) المقدسي ، ج٤ ، ٩٣ – ٩٩ .

(٥) زهر الاداب ٦٨٨ – ٦٨٩ .

بصورة مقتضبة أشبه بمفكرة امتحان يجري دوماً بين أناس ينتمون إلى دنيا واحدة ، مرفقة بتمارين إنشاء .

ونرجىء إلى وقت لاحق اعطاء التفاصيل عن الأبنية ، بلداً بلداً ، ونكتفي هنا بذكر مجموعاتها كما جاءت عند الجغرافيين ، صراحة أو في سياق الكلام عن الأحداث . ونبدأ بالمدن ، كمدن سليمان ابن داود ، أي تدمر وبعلبك (٦) ، ثم ننتقل إلى القناطر (٧) فالمساجد (٨) ، وخاصة القصور ، المحصنة وغيرها ، والكنائس . وتنفرد ببناء القصور التبعية العربية والفارسية حتى حدود العراق (٩) : ويعدّ هذا الوضع حصيلة نزاع الشعوبية ، أي الصراع الثقافي المحتدم بين التراثين الكبيرين في دار الإسلام . وتقع الكنائس في انطاكية وحمص ومنبج (بمبيس ، هييرا بولس)شمالي شرقي حلب، والرها أشهرها قاطبة : وتقول الروم ، حسب محمد بن موسى الخوارزمي ، مامن بناء بالحجارة

(٦) المقدسي ، ١٥٦ ، ١٨٦ ، مع ادخال بناء صور وعكا في نفس قائمة العجائب . والموضوع الموازي موضوع المدن الكبرى (الأمصار) وخصائصها : ابن خرداذبه ، ١٧١ – ١٧٢ ، ابن الفقية ، ٥٧ – ٥٨ ، ١٩٢ .

(٧) مجموعة القناطر اقل دقة ، حول اشهرها نعني قنطرة سنجه التي سنتحدث عنها فيما بعد : انظر مع ذلك القناطر التي يعددها مسعر (ب) ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ – ٤٦ ، وابن الفقية ، ٢٥٥ وقناطر فارس عند المقدسي ، آخر ٤٤٥ ٤٤٦ (ح١)

(٨) نكتفي هنا بذكر المساجد (دمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس) الواردة في قائمة عجائب الدنيا : ابن الفقية ، ١٠٦ ، المسعودي (ت) ، ١٩٨ ، المقدسي ، ج٤ ، ٨٤ ، ٨٧ ، المقدسي ، ١٨٦ . انظر أيضاً المقدسي ، ج٤ ، ٧٧ – ٨٤ (ذكر المساجد الشهيرة : في مكة ، والمدينة ، والقاهرة ، وبيت المقدس والرملة ، ودمشق ، والبصرة والكوفة) .

(٩) انظر ابن خرداذبة ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، اليعقوبي ، ٢٧٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٥٠٥ ، ابن الفقية ، آخر ١٥٦ – ١٥٩ ، ١٧٦ – ١٧٩ ، آخر ٢٥٥ – ٢٥٦ ابن رسته ، ١٦٤ وما يليها ، الهمداني ، ٧٦ – ٧٩ ، ٢٠٣ ، المقدسي ، ٢٩٩ .

أبهى من كنيسة الرها ، ولا بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج لأنها بطاقات من خشب العناب ، ولا بناء بالرخام أبهى من قسيان انطاكية ، ولا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص (١٠) .

ولهذه الأبنية مراتب ثابتة ، وإن كانت مبهمة أحياناً ، تقول أوضحها إن عجائب الدنيا أربعة قنطرة سنجة في حوض الفرات الأوسط ، ومنارة الإسكندرية ، وكنيسة الرها (١١) ، ومسجد دمشق . وتحذف كنيسة الرها من هذه القائمة أحياناً ، ويجعل المسجد الأقصى بدلها . فلما هدمته الزلزلة جعل موضعه جامع دمشق (١٢) . لكن لدمشق أهمية أخرى : فإضافة إلى مسجدها العظيم ، تعد غوطتها احدى عروسي الدنيا ، وإحدى جناتها ، حتى ان الجغرافية تدعم التاريخ ، والعجيبة تجمع عمل البشر الصرف والعمل الذي يرتكز على هبة طبيعة يباركها الله (١٣) .

---

(١٠) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ابن الفقية ، ١٣٤ ، ابن رسته ، ٨٣ ، ابن حوقل ، ١٨١ ٢٢٦ ، المقدسي ، آخر ١٤١ ، ١٤٧ .

(١١) ابن الفقية ، ١٠٦ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٧٢ : عجائب الدنيا اربعة مراة معلقة بمنارة الاسكندرية ، وفرس نحاس عليه راكب من نحاس بأرض الأندلس ، ومنارة من نحاس بأرض عاد ، وشجرة من نحاس بأرض رومية . انظر جغرافية دار الاسلام ٢ ، ٣٧٦ و ٥٣٩ و ٥٣٩) المسعودي (ت) ، ١٩٨ ، المقدسي ، ج٤ ، ٨٤ ، الثعالبي ، ٩٤ — ٩٧ ، ابن حوقل ، ١٨١ ، المقدسي ، آخر ١٤١ .

(١٢) المقدسي ، ١٤٧ . حول هذه الزلزلات (سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م وحوالي ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م) انظر ف . بهل ، لفظ قدس ، م١ ج٢ ، ١١٦٢ ، س . د . غواتين و و . غرابار ، م١ (٢) ، ج٥ ، ٣٢٥ ، ٣٤٢ .

(١٣) حول موضوع (وتبدلاته) : مدن الجنة (ومدن النار المناقضة لها) ، انظر ابن الفقية ، ٣٧ ، ١٠٣ — ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ٢٠٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، الثعالبي ، ٩٦ . انظر ايضاً م . زغلول سلام ، ابن قتيبة ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٨٨ .

ويختلط التصنيفان السابقان في المراتب الدنيا . فابن الفقيه يوسع قائمة العجائب ، ، ولا يضيف اليها قصوراً وأسواراً وتماثيل فقط ، بل التمساح بالنيل ، والرعاد ، والفرس النهري ، والسقنقور (١٤) أيضاً . ويندفع بحماس في مكان آخر ، فيقول : من عجائب الشام أربعة أشياء : بحيرة طبرية ، والبحيرة المنتنة ، وأحجار بعلبك و . . . ومنارة الإسكندرية (١٥) . ونود أن نحد من طموحنا ، ونكتفي بذكريات خلّفها البشر . وهذا كاف لأن كثيراً من العجائب تنتظرنا ، وهي أصغر من العجائب الثلاث أو الأربع المعترف بها عالمياً . ونحن نوجزها قبل زيارتها في مواضعها ، معتبرين ذلك جائزة ثانوية تعتمد على الحاح النصوص ، نمنحها إلى الأمجاد التالية : الأهرام، والإسكندرية ، قصور اليمن ، سبأ وسد مأرب ، بعلبك وتدمر ، وفي النهاية آثار فارس الساسانية مثل طاق قطسيفون (طيسفون أو المدائن فيما بعد) ، والقصور ، وسد تستر ، وبرج بُنِيَ بحوافر حُمُرِ الوحش .

وقطعاً تعوز الدقة هذه الصورة الإجمالية ،لكنها تحدد بعض الرؤى (١٦) ، أولاها تولي دار الإسلام زمام زمن مستمر ، أصبحت

---

(١٤) ابن الفقية ، ٥٠ – ٥١ ، ٢٥٥ (حول هذه الحيوانات ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٤٢ ، ٣٦٨ – ٣٧٤ . يلاحظ هنا أيضاً : (انظر ما تقدم ، ح١١) توسع آخر : باتجاه عجائب الغرباء : رومية مجددا) . خليط متنافر آخر عند الثعالبي ، ٩٧ – ١٠٢ (من أجل مصر) .

(١٥) ابن الفقية ، ١١٨ .

(١٦) من أجل شتى قوائم العجائب أو ذكرها ، انظر ابن خرداذبه ، ٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، اليعقوبي ، ٣٣٧ ، الهمداني ، ١٣٥ ، ابن الفقية ، ٥٠ – ٥١ ، ٧١ – ٧٣ ، ١٧٩ (الأبنية الشهيرة) ، ١٩٩ ، ٢٤٥ – ٢٥٦ ، ابن رسته ، ٨٣ ، المسعودي (م) فقرة ٧٩٢ وما يليها ، المقدسي ، ١٨٦ ، ٢١٠ – ٢١١ ، ٣٩٩ ، ٤٤٦ و (ح١) .

هي إنجازه الأخير على الأراضي التي استملكتها . فوجود بناء تهدم بكامله تقريباً ، مثل طيسفون ، أو بقي قائماً جزئياً مثل منارة الإسكندرية ، أو يعد حديثاً نسبياً ، مثل مسجد دمشق ، تعتبر حجارته دليلا على الإستمرار ذاته الذي كان يحييه في الأذهان إحياء ذكرى الإسكندر أو فارس أو أجداد التوراة : فالبناء بحد ذاته لايضيف شيئاً إلىالتاريخ ، لكنه يعطيه شكلا . مثال ذلك طيسفون التي تضم أبنيتها ذكرى الساسانيين ، وذكرى الروم باسم رومية ، وذكرى المسلمين الأوائل مع سلمان الفارسي والمحدثين مع الخليفة العباسي المنصور (١٧) . وعند ابن الفقيه (١٨) مقطع ذو مغزى بين آلاف المقاطع حيث يقول : « بين بيت المقدس والرملة ١٨ ميلا . وهي من كورة فلسطين . وكانت دار ملك داود وسليمان ورحبعم بن سليمان وولد سليمان . ولما ملك الوليد بن عبد الملك ، ولى سليمان بن عبد الملك جند فلسطين ، فنزل اللد ، ثم أحدث مدينة الرملة ومصّرها » . ويلتقي سليمان التوراة وسليمان الإسلام ، مثلما نرى ، في موضع واحد ، وهكذا يُحْتَجُّ بالتاريخ مرة أخرى (١٩) .

قد يقال بأن الحال لم تكن دوماً على هذا المنوال ، وأن صورة ماضٍ مصيره الفناء إلى الأبد ، تتردد كثيراً في نصوص الجغرافيين في

---

(١٧) اليعقوبي ، ٣٢١ .

(١٨) ابن الفقية ، ١٠٢ .

(١٩) يمكن تكرار القول بالنسبة الى التاريخ اليوناني القديم ، حتى خلاف اشهر مثال نعني مثال الاسكندر : قبر جالينوس اليوناني في الفرما ، وقبر ارسطوطاليس في بلرم ، وبدقة خشبته (نعشه) المحفوظة في الجامع الأكبر الذي كان بيعة للروم (ابن حوقل ، ١١٨ ، ١٦٠) اصبحا مسلمين .

موضوع زوال أمجادالدنيا(٢٠).وهذا صحيح،وصحيح أيضاً أنالبناء القديم والآثار تمثل في وصف العجائب الإجمالي أكبر حيز بتفوّق عظيم. لكن مع ذلك، أموات الإنسانية أكثر من أحيائها. على أن أهم مافي ذلك، هو أن وجود البناء الرائع، المطمئن، هنا أو هناك، سواء كان قصراً أو قنطرة أوقلعة أوسوراً، يرتق شرخ السيرورة، رغم حضور الماضي المفكك، حتى ان المسافر يتضاءل تفكيره في مصيره الشخصي بالمقارنة باهتمامه بمصير الإنسانية. وتقترن زيارة هذه العجائب الصامتة أو الحية، بزيارة القبور، ويقرأ دليل الغرائب هو «وجغرافية الشفاعات الروحية». وتتألف الدنيا من كل هذه الأشياء، تضاف اليها المدن، والمفاوز، والجبال، والمسالك، والأنهار، تلك الدنيا التي أنعم الله علينا نحن الأحياء بمعرفتها.

المغرب الرزين ومصر الوقور

ونكرر أن هذه الجغرافية شرقية في صميمها، نشأة ومصيراً: فالمغرب يبدو في مجال الأبنية أقل شأناً مما هو عليه في سائر الميادين. وما يحويه منها ضئيل حقاً.ففي القيروان،ينضح بالماء عمودان كل يوم جمعة قبل شروق الشمس: وهذه العجيبة نادرة جداً، فرفض بيعهما من عاهل الروم (٢١) بثقلهما ذهباً. ويذكر اليعقوبي أن منازل بني الأغلب على ميلين من مدينة القيروان في قصور (٢٢). ويتحدث المسعودي عن منارة قادس (٢٣) على غرار اسطورة اعمدة هرقل (أركلش). ويعرف أيضاً قنطرة السيف في مدينة القنطرة الواقعة على

---

(٢٠) انظر مثلا القصائد الوردة عند ابن الفقية، ١٥٦ — ١٥٩، ١٦١.
(٢١) اسحاق، ٤٥١.
(٢٢) اليعقوبي، ٣٤٨.
(٢٣) المسعودي (ت)، ١٠١.

نهر تاجه ، وهي اجمل من قنطرة سنجه (٢٤) . ويولي الرازي – وهو أندلسي ، وقطعاً على هامش أدب الأبنية – مزيداً من الإهتمام بعجائب بلاده ، مما يدل على أنه يريد أن يعكس الميل الشرقي المفرط . ويذكر منها قنطرتي القنطرة وطليطلة ، وطريقا رومانية ماتزال مستعملة (٢٥) لكنه يمثل حالة استثنائية . وفي الطرف الآخر ، في مشرق جغرافيي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، يغفل ذكر الأندلس في سياق الحديث عن الأبنية ، ولا يلمع إلا إلى مبان مجهولة الأسماء في اشرشال وطنجة (٢٦) ، تشير إلى ماض لاوجود له .

ويبدأ أدب العجائب في مصر ، والحق يقال : ففيها أبنية كثيرة لايجوز اغفالها . وتذود شعوبية حية باستمرار عن هذا الكنز ، وتجابه ابنية سائر البلدان . وهذا القول بوجود هوية ثقافية خاصة خفي عند المسعودي الذي أقام في هذه البلاد بآخر عمره ، ويزداد وضوحاً عند ابراهيم ابن وصيف شاه مؤلف مختصر العجائب . ولا يتعذر عليه العثور على مايغذيه على ضفاف النيل . فالمنارة أو آثارها منتصبة أمام متحف مصر القديمة : بشكل خرائب ماتزال جليلة ، وخاصة بشكل أساطير (٢٧) .

---

(٢٤) المسعودي (م) ، فقرة ٣٩٩ .

(٢٥) الرازي ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٥ .

(٢٦) ابن حوقل ، ٧٧ ، ٧٩ .

(٢٧) التدوينات اللاحقة مأخوذة مما يلي : ابن خرداذبه ، ١١٤ – ١١٥ ، اليعقوبي ٣٣٨ ، ابن الفقية ، ٧٠ – ٧٢ ، ابن رسته ، ٧٨ ، ٨٠ ، آخر ١١٧ – ١١٨ ، المسعودي (م) ، الفقرات ٨٣٠ – ٨٣١ ، ٧٣٤ – ٨٣٩ ، ٨٤١ ، المسعودي (ت) آخر ٧٣ وقد انهارت ١٣٠ ذراعا من اعلاها على طول الزمان وترادف الزلازل ثم تهدم منها في شهر رمضان سنة ٣٤٤ / ٥ كانون الثاني ٩٥٦ نحو من ثلاثين ذراعا من اعاليها بالزلزلة ، اسحاق ، ٤٤٦ ، ابن حوقل ، ١٥١ ، المقدسي ، ٢١١ ، انظر أيضاً ف . بولينياك ، الاسكندرية عين العالم وتخم المجهول ، منوعات المدرسة الفرنسية في رومة ، القروض الوسطى ، العصور الحديثة ، ٤٦ روماني (١) ، ١٩٨٤ ، ص ٤٢٥ – ٤٣٩ و س . لبيب م١(٢) ، ج٤ ، ١٣٨(٢) .

وعندما يقطع المسافر طريقاً طويلة، عن يمينها ويسارها النخيل والبساتين والضياع ، يصل إلى سور الإسكندرية ، ويشاهد ، على حد قول ابن رسته ، مسناة من حجارة في البحر ، على طرفها منارة الإسكندرية التي يبلغ ارتفاعها في الهواء حوالي مائتي متر (ثلاث مائة درجة) في كل درجة كوة يُنظَر منها إلى البحر : أي مايعادل مثلي الطول الأصلي، وأربعة أمثال الخرائب التي كانت ماتزال قائمة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي إذا اعتمدنا على شهادة المسعودي (٢٨) . وهذه الخرائب جميلة ، لاسيما عندما تسطع من جانب الغرب بفعل الشمس المائلة إلى المغيب . وهي ضخمة لأن في المنارة ثلاث مائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفرسه (٢٩) .

أما باقي وصف المنارة ، فمأخوذ من الذكريات أو الخرافات . وقد كان لهذه المنارة في الماضي عمودان من نحاس على صورتين ، إحداهما من زجاج والأخرى من نحاس . أما النحاس فعلى صورة عقرب ، والزجاج على صورة سرطان . وتروي قصة أساسات الإسكندرية في سياق الحديث عن بنائها . وكانت دواب البحر متى جن الليل ، تخرج ، وتأتي على جميع مايشاد في النهار ، ويعجز الحراس عن منعهم من تخريبه فقلق الإسكندر ، ودعا الصناع ، فاتخذوا له تابوتاً من خشب ، وجعلت فيه جامات من زجاج ، ودخل الإسكندر في التابوت هو ورجلان من كتابه ، وانزلوا في الماء فغاص التابوت حتى إنتهى إلى قرار عرض البحر . فنظروا إلى دواب البحر من ذلك

---

(٢٨) المسعودي (م) فقرة ٨٣٨ . انظر بولي ويسووا ، ١٩ روماني (٢) ، ١٨٦٩ .

(٢٩) أخذت هذه الصفات من المقدسي ، ٢١١ .

الزجاج الشفاف ،فإذا هم شياطين على مثال الناس ، رؤوسهم على مثال رؤوس السباع ، وفي أيدي بعضهم الفؤوس ، وفي أيدي البعض المناشير والمقامع ، يحاكون بذلك صناع المدينة ومافي أيديهم من آلات البناء . فاثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور ، وأحكموها بالتصوير على القراطيس . فلما خرج الإسكندر من التابوت ، أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة ، فصنعوا تماثيل تلك الدواب على ماكان صوره وصاحباه . فلما فرغوا منها ، وضعت على العمد بشاطيء البحر . فلما جن الليل ، ظهرت تلك الدواب من البحر ، فنظرت إلى صورها على العمد ، فرجعت . وعلى هذا النحو ، يعلل إرتكاز المنارة على سرطان أو أربعة سرطانات من زجاج ، تعتبر مع حيواني العمودين المجاورين طلسمات تحمي المنارة ذاتها .

وموضوع منارة الإسكندرية أحد الموضوعات المفضلة عند الجغرافيين العرب . فقد جعلت المرآة في أعلاها ، وصارت تُرى فيها المراكب البعيدة جداً حتى الأفق ووراءه ، الجارية في عرض البحر بينها وبين القسطنطينية . هنا أيضاً تكثر طلسمات الحماية . فقد جُعل في أعلاها تماثيل من نحاس وغيره ، وفيها تمثال أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك ، يدور حيث دارت . ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر ، إذا صار العدو منه على نحو من ليلة . فإذا دنا ، وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة ، سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة . ومنها تمثال ، كلما مضى من الليل والنهار ساعة ، سمع له صوت بخلاف صوت الساعة التي قبلها ، وصوته مطرب .

وأوليَ البحر حوالي المنارة عناية خاصة أيضاً ،لأنه كان فيه مغاص ، يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منها فصوص الخواتم . ويقال إن الجواهر من الآنية النفيسة التي كان الإسكندر اتخذها للشراب . فلما مات ، كسرتها أمه ،ورمت بها في تلك المواضع من البحر . ومنهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر ، وغرقه حول المنارة ، لكي لايخلو من الناس ، لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوباً أبداً في كل عصر في معدنه برّاً أو بحراً ، فيكون الموضع على دوام الأوقات معموراً بالناس .

وماتزال الخرائب القديمة شامخة حتى الآن ، ويمكن تصورها جيداً ، ويبعث تصور ماتوحي به من فرط إجلال ورهبة ، إلى حكاية قصة مرعبة عنها جرت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عند وصول جيوش الفاطميين إلى المغرب . وفي رواية أخرى ، قريبة من الواقع ، وردت باختصار ، أن جماعة من الفرسان هووا من كرسي المنارة . إلا أن المسعودي يفضل قطعاً رواية ثالثة ، ويقدمها على غيرها ويفصلها فيقول : « إلا أن من يدخل المنارة يتيه فيها ، إلا أن يكون عارفاً بالدخول والخروج فيها ، لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها . وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا في خلافة المقتدر في جيش صاحب المغرب ، دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة ، فتاهوا فيها ، وفيها طرق تؤول إلى مهاو تهوي إلى سرطان الزجاج ، وفيها مخارق آلى البحر ، فتهوروا بدوابهم ، وفقد منهم عدد كثير ، وعلم بهم بعد ذلك » .

أخيراً ابن حوقل رحالة موضوعي ، وواقعي ، ودقيق الملاحظة ، ويصحّح على الدوام ،مايروى له بما يعاينه ، وينفرد دون سائر الجغرافيين

بدعوته إلى قبول مايظنه الحقيقة ، ويقول : المنارة قصيرة حالياً ، لكن ، كان سمكها في الماضي يزيد على ثلاث مائة ذراع ، أي على مائة متر ونيف ، وكانت مبنية بالحجارة المركبة المضببة بالرصاص . ويستدل بها على مماكة كانت قاهرة لملك عظيم ذي حال جسيم ، دون ذكر الإسكندر (٣٠) . وأطرف مافي الأمر أن استقصاء الحقيقة باسم جميع العامة والخاصة من أهل الدراية ، وخلافاً لما يدعي المغالون في حماقات ورقاعات مصنفة » ، آل في النهاية إلى زعم خاطيء عن الغاية من بناء المنارة : فلم يبنها مؤسسها لمراقبة المراكب في البحر ، ولم يجعلها طلسماً يمنع إغراق مصر بمياه النيل ولم يقصد بها اعطاء اشارات لايتحدث أحد عنها ، بل رصد الفلك » . لإنكشاف فضائها وسعة سمائها وقلة أبخرة صحرائها » .

وقطعاً ترتبط المنارة بسحر الإسكندرية ، المدينة الرائعة التي أنشأتها إرادة مؤسس شبه اسطوري (٣١) . ويقال إن ست ماية الف يهودي كانوا خوَلاً لأهلها . وقد بنيت في ثلاث ماية سنة ، وخمرت نورتها ثلاث سنين . ولايمشي أهلها في النهار ، إلا بخرق سوداء خوفاً على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ، وماأسرج فيها أحد سراجاً في الليل لشدة بياض رخامها . وكان عليها ، على مازعم الإخباريون ،

---

(٣٠) ويزعم قوم ان بانيها وباني الهرمين ملك واحد ، ويروي آخرون غير ذلك . ونحن نعلم ان المهندس المعمار سوسترات الكنيدي بنى المنارة في عهد البطالسة .

(٣١) حول الاسكندرية ، انظر ابن خرداذبه ، ١٦٠ ، وابن الفقية ، ٧٠ - ٧٣ ، وابن رسته ، ٨٠ ، ١١٧ - ١١٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٦٧٩) بقايا قبر الاسكندر) ، ٨٢٧ - ٨٣٩ ، اسحاق ، ٤٤٦ ابن حوقل ، ١٥٠ - ١٥١ وبولينياك ، مقال مشار اليه من قبل .

سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الوانها ، وكان بناء الإسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، عليها طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، عليها دور المدينة ، يسير تحتها فارس وبيده رمح ، وقد عمل لتلك العقود والأزاج مخاريق ومتنفسات للضياء ومنافذ للهواء .

وتسترعي انتباه المسافر بيعٌ وآثار ماتزال قائمة كالمسال ،والعمد الكبيرة الحجارة ، المسمرة تسميراً خفياً ، المصنوعة قاعدتها من صفر أو نحاس ، الموضوع فوق رؤوس أساطينها أحجار لاتُقلّ القطعة منها إلا بالوف الناس ، المصنوعة بغرائب الألوان وبدائع الأصباغ ، الشبيهة بالجزع والزمرد . ويحاول ابن رسته ايراد بعض التفاصيل ، فيتحدث عن موضع يسمى باب فرعون ، وهو مابقي من قبة فرعون التي كانت مرفوعة بست عشرة اسطوانة منقورة كلها صخر ، فيها نقوش ، ويتكلم أيضاً عن قصر سليمان الذي تهدم ، ولم يبق منه إلا سواري قائمة لاسقوف لها ، وبقي الباب الذي كان يدخل منه ، وهو باب له مصرعان قد نقرا من حجر ، وكذلك العضادتان والأسكفة ، وهو في الملوسة والصفاء مثل المرآة ، إذا نظر في ذاك الباب ،شوهد الغيم الذي في الهواء ، وبدت خضرة البحر فيه . وعليه نقط من كل صبغ .

وينافس فسطاط مصر وضواحيه الإسكندرية . وتأتي الأهرام في الطليعة ، وعددها عشرة لاسيما الهرمان الكبيران (٣٢) . وهما

---

(٣٢) من أجل ما يلي ، انظر ابن خرداذبه ، ١٥٩ – ١٦٩ ، ابن الفقية ، ٦٨ ابن رسته ، ٨٠ ، آخر ١١٥ – ١١٦ ، اسحاق ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٨١٤ ، ١٢٨٣ ، المسعودي (ت) ، ٢٨ وما يليها ، ابن حوقل ، ١٢٥ ، آخر ١٥١ – ١٥٢ ، المقدسي ، ٢١٠ – ٢١١ ، ابن وصيف شاه ، ٢٠٢ – ٢٢٨ .

مبنيان بحجارة كلس أو مرمر أو رخام . وسمك كل حجر منها وعرضه وطوله من العشر أذرع إلى ثمان . وهو مهندز ومهندم . وجوانب الحجارة الأربعة ملساء ، لايصعد فوقها إلا كل شاطر وتلتقي حروفها الحادة على مرمى سهم من الأرض . وكلما ارتفع بناء الهرم ، ضاق حتى يصير أعلاه مثل مبرك جمل (٣٣) . والبناء غاية في الكمال ، ارتفاعه أربع ماية ذراع ، وعرض قاعدته كارتفاعه ، وغاية في الضخامة يرى من مسيرة يومين وثلاثة ، بذلت في اشادته جهود هائلة حتى ان خراج مصر ، بل قيل خراج الأرض ، لايقوم بهدمه . وفي داخل كل من الهرمين الكبيرين طريق كان يسير فيه الناس رجالة إلى أعلاه . وفي مابين الهرمين مخترق في باطن الأرض واضح إلى الآخر . وبالهرمين عقود وطروح كثيرة .

ومازال الجدل محتدماً بشأن الغاية من بناء الأهرام . فقد ذكر قوم أن ماحدا على عملها أنه قضي بالطوفان وهلك جميع ماعلى وجه الأرض ، إلا ماحصن في مثلها ، فخزنت فيها الذخائر والأموال . ورأى آخرون أنها اهراء يوسف التي كان يجمع فيها محاصيل مصر . وقيل إنها قبور ، ويشيرون إلى وجود صور منها صور موسى وعيسى ومحمد — وإلى وجود مومياء وقطعة من جلد ثور ، ملفوفة عليها حواشي ثياب ، نشرت ، فنقطت منها نقطة دم ، وذلك كله في جرن مسدود برصاص ، اوقد عليه حتى ذاب الرصاص ،وفتح ، فاذا فيه شيخ ميت . وقيل في تأويل أخير إن الكتابة اليونانية أو اليونانية

(٣٣) في النادر ، عشر للهرم الكبير .



جزء من مأطورة الحمامات
الخشب : كريته (Buttiro Spernum)
مصر ، العصر القبطي العربي ، القرن الثامن (تصوير إء شوزفيل)
متحف لوفر ، القسم الا سلا مي آآ ١٦٢
روسم المتاحف الوطنية

والقبطية (المسند في الأصل) تملأ حيطان الأهرام ، وفيها كلّ سحر وكلّ عجب من الطب وكل طلسم وكل خلقة طير .

ويقع في خارج المدينة السجن الذي حبس فيه يوسف . وفيه حمام فيه مثل جارية ، ذكر أنّها من جواري فرعون ، مسخت . . . وأن الماء الذي في ذلك الحمام قد احتيل له حتى يجري في فمها ، ويخرج من قبلها (٣٤) . مع ذلك ليس هذا الحمام البناء الذي كنا نتوقع

(٣٤) ابن رسته ، ١١٦ .

رؤيته في هذه الأرجاء : فأبو الهول غير وارد في نصوص الجغرافيين تقريباً . ويخصه المقدسي وحده ببضعة أسطر ، ويقول : « وثم صنم ، يزعمون أن الشيطان كان يدخله ، فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتاه»(٣٥) .

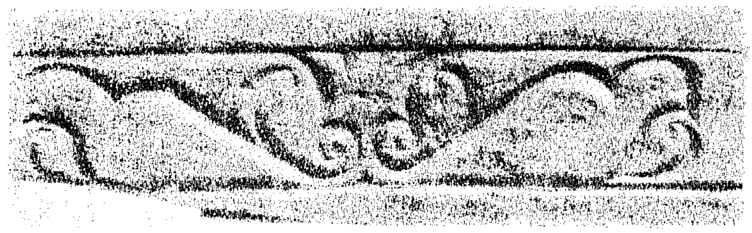
وماتزال ذكرى منف حية في الأذهان (٣٦) . وهي مدينة فرعون ، التي كان ينزلها . واتخذ لها سبعين باباً ، وجعل حيطانها بالحديد والصفر ، وفيها كانت الأنهار التي تجري من تحت سريره ، وهي أربعة . ودار فرعون فيها ، كلها حجر واحد منقور أو حجارة ملاحكة بدقة بالغة ، حتى لايستبين مجمع حجرين ولا ملتقى صخرتين . وعين شمس ومنف مسكنا فرعون . وبعين شمس اسطوانتان من بقايا أساطين كانت بها . وهما قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة وطوق من نحاس ، وتسميان المسلتين . وثم أيضاً على هذا العمل دونهما ، وقيل إنهما طلسمان للتماسيح التي لاتضر مع عظمتها وكثرتها . ويقطر من إحداهما ماء من تحت الطوق إلى نصف الاسطوانة ، لا يجاوزه ، ولا ينقطع قطره في ليل ولانهار ، فموضعه من الأسطوانة أخضر رطب ، ولا يصل الماء إلى الأرض . ويتحدثون أيضاً عن تمثالين يبكي أحدهما ويضحك الثاني ، وعن تمثال ثالث يقال إنّه لمزينة استحجرت كانت لزوج فرعون (٣٧) .

---

(٣٥) المقدسي ، ٢١٠ ، و ش . ﻫ . بيكر ، أبو الهول ، م١(٢) ، ج١ ١٢٩

(٣٦) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، ابن الفقية ، ٥٨ ، ٧٣ ، ١٧٦ ، ابن حوقل . ١٦٠ .

(٣٧) ابن خردازبه ، ١٦٠ ، اليعقوبي ، ٣٣٧ ، ابن الفقية ، ٧١ – ٧٣ ، ابن رسته ، ٨٠ ، اسحاق ، ٤٤٩ ، ابن حوقل ، ١٦٠ ، المقدسي ، آخر ٢١٠ – ٢١١ ، و ش . ﻫ . بيكر ، م١ (٢) ، ج١ ، (٢) ٨١١ .



رسم المتاحف الوطنية   متحف لوفر ، القسم الاسلامي ، م ١ و ٤٥٣
قطعة من طنف (افريز) الطيور المنمنمة
الخشب : تين فرعون (الجميز)
مصر ، القرن التاسع أو العاشر
(تصوير ا.شوزفيل)

ويستمر استعراض غرائب الفسطاط في أرض بابل مصر القديمة . ففيها عند قصر الشمع امرأة ممسوخة ، على رأسها سفل من حجر ، يقال إنها كانت غسالة لآل فرعون ، وإنها أذت موسى ، فمسخت (٣٨) . وعلى رأس جبل المقطم ، في قلته المشرفة على الفسطاط ، بناء يقال انه كان مطبخ فرعون ، فغُيّر ذلك ، وبني فيه مسجد يجتمع الناس فيه ليالي الجمعات (٣٩) .

ويطغى الفسطاط والإسكندرية على باقي أنحاء مصر ، التي يذكر فيها حائط العجوز . وهذه العجوز ملكة اسطورية يقال لها دلوكة ، بنت على بلاد مصر حائطاً يحيط بها جميعاً يمنع سباع البر والبحر ومن جاور أرضها من الملوك من الوصول إلى وادي النيل . وجعلت عليه المحارس والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض . ويقال

---

(٣٨) المقدسي، ٢١١ ، ابن الفقية يعطي رواية اخرى « وبالفسطاط صورة امرآة من حجر عظيمة ، قاعدة ، على رأسها اجانة ، وعلى كل واحدة من ركبتيها درجة الى غرفة تسمى أم يزيد الخولانية » .

(٣٩) ابن رسته ، ١١٧ ، ابن حوقل ، آخر ١٦٠ تصحح الترجمة ص ١٥٩ . ليس في « هذه النقطة » ، لكن في القصر الآخر » .

إن ذلك الحائط كان طلسماً ، وكان فيه تماثيل كل أقليم على هيئتهم وزيهم والدواب والسلاح وكل أمة مصورة في الطرق التي تجيء منها . والواقع أن هذا الحائط سور يضم مجموعة أبراج بنيت مناظر في طرف الأودية الرافدة من جانب البرية ، لقد سقطت الحاجة اليها بالإسلام (٤٠) .

وبوسعنا سرد المزيد من الأخبار . فابن رسته (٤١) يقول إن في قرية اسمها بدرسانة العرا من أرض مصر ، كنيسة للروم ، ينزل الناس اليها نيفاً وعشرين مرقاة . وهناك سرير تحته رجل ميت ، مشدود في نطع ، وفوق السرير ثور من رخام عظيم ، في جوفه باطية زجاج تمتلىء بالزيت بطريقة مبتكرة ، وتملاء ثور الرخام ، فيسرج به قناديل الكنيسة . فهل تدل هذه الظاهرة على مهارة أم على سحر ؟ على أي حال ، إذا أخرج ذلك الميت من تحت السرير ، لايفيض الزيت . وذكر أهل القرية أن الصبي الميت ، إذا ظنت المرأة حملا ، فحملته في حجرها ، تحرك ولدها ان كانت حبلى ، وإن لم تجد حركة ، علمت أنه ليس بها حمل . وهذا سحر .

وتحكى قصة أخرى عن الأموات ، ترد عند إبن حوقل (٤٢) حيث يقول : « وبتنيس تلان عظيمان ، مبنيان بالأموات منضدان

---

(٤٠) ابن الفقية ، ٦٠ ، المسعودي (م) فقرة ٨٠٩ ، ابن حوقل ، ١٦٠ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٣٤٦ ، و ش . بيلا ، م١(٢) ، ج٣ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٤١) ابن رسته ، ٨١ — ٨٢ والترجمة ، ٨٩ ، ح٢ .

(٤٢) المسعودي (م) ، فقرة ٨١٣ ، الاصطخري ، ٤٢ ، ابن حوقل ، ١٦٠ وترجمة ، ١٥٨ ، ح ٧٥٦ .

بعضهم على بعض . . . ويشبه أن يكون ذلك من قبل أيام موسى عليه السلام وبعثه ، لأن أهل مصر في أيام موسى كان في شريعتهم الدفن ، ثم صارت للنصارى ودينهم أيضاً الدفن ، ثم صارت للإسلام . وعليهم أكفان من خشن الخيش ، وعظامهم وجماجمهم فيها صلابة إلى يومنا هذا » .

في الختام ، بقي علينا أن نذكر أجمل مافي مصر : نعني البرابي (جمع بربا) لاسيما في اخميم وسمنود (٤٣) . والبرابي بنيان قائم عجيب ، عليه كثير من الكتابة والصور ، تساءل الباحثون عن أسرارها : هل هي طلسمات ، أو شروح قوانين الطبيعة ، أوحكم ، أوتنبؤات ، أو الواح معارف أو جداول أحكام نجوم . . . إلا أن لفظ برابي يقترن بتفصيل جميع مايشاهد في مصر القديمة من مدافن وقبور ونواويس ، وموميات مع أثاثها وطيبها وكنوزها التي يحفظها السحر أو آليات رهيبة ، تعمل باللوالب والحركات ضد كل متطفل يدخل مالا يجوز رؤيته من أماكنها . ولا ينطبق هذا الوضع في مصر على جميع الباحثين عن الكنوز (أصحاب المطالب) الذين تشرف عليهم الدولة (٤٤) وتراقبهم جهد المستطاع . على أن مصر ماتزال تحتفظ حتى الآن

---

(٤٣) اليعقوبي ، ٣٢٤ ، المسعودي (م) ، فقرة ٨١١ – ٨١٤ ، ٨٢٣ – ٨٢٦. المسعودي (ت) ، ٣٣ – ٣٥ ، ابن حوقل ، ١٥٩ ، المقدسي ، ٢١١ ، و ج . وايت ، م١(٢) ، ج١ ، ١٠٧٠ .

(٤٤) م . لومبار ، معادن العالم القديم من القرن الخامس الى القرن الحادي عشر ، باريس ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٩ – ٢٠١ ، اليعقوبي ، ترجمة ، ١٨٩ ، ح٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٨٢٢ وما يليها .

باسرارها — وهي أثمن وأقوى مالديها وأشد إثارة دون سائر الأشياء — رغم كنوزها الأسطورية المكتشفة أو المسلوبة .

جزيرة العرب والشام : المدن والقلاع

تعتز جزيرة العرب في النزاع الثقافي الشعوبي الذي تعارض به سائر الأمم ، لاسيما فارس ، بما يعترف لها به أصلا جميع الناس تقريباً ، نعني كلام الله ، خاصة ما يعبر منه عن الإيمان . وتضيف إلى إشعاع مكة والمدينة ، وقبر النبي ، والحرمين اللذين أصبحا مركز دنيا المسلمين ، سجل مآثر تاريخها القديم المدفون في اليمن . ولا ريب أن أشدها غموضاً ذكرى شعب إرم ذات العماد ومدينته التي يستمر البحث عنها منذ وردت في القرآن (٤٥) . وعبثاً حاول المحاولون تحديد موقعها . فالبعض يظن أنها جيرون ، الهيكل العظيم البنيان في مدينة دمشق ، ويزعم آخرون أن موضعها في مستوى من الارض في أطراف اليمن الشرقية ، تراها تشرق من بعد ، فإذا قربت لم تر شيئاً ، وماء عدن من ثم .

وتمثل القلاع وكنات عقبان إنهدم بنيانها أو استرجعها الوجهاء المحليون . ويستفيض الهمداني اليمني في الحديث عنها ، ويستعرض عجائبها : مثل سلالمها الطويلة ، وآبارها ، ومناهلها ، التي لاتحصى وأشجارها العملاقة التي يستظل تحتها نحو مائة رجل ، والكنوز الموزعة

(٤٥) القرآن ، ٨٩ ، ٦ / ٧ ابن الفقية ، ١٢٣ ، الهمداني ، ٨٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٩٢٦ ، ١١٤٣ ، ١٤١٤ — ١٤١٥ ، المقدسي، ٨٧ و و . مونتغوميري وات في، م١(٢) ، ج٣ ، ١٣٠٣ . عن فارس النحاس في بلاد عاد انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٩١ .

في أرجائها (٤٦) . لكن تختلف القلاع بعضها عن بعض ، وتبقى القصور أشهرها ، لاسيما غمدان ، مقر تبابعة اليمن (٤٧) ، الذي خرب ، فخلّف آثاراً عظيمة تشرف على جميع صنعاء ، وتشكل تلا كبيراً . يثير اعجاب ابن حوقل وليس باليمن بناء أرفع منه على خرابه . ويصور آخرون غمدان على ماكان عليه ، ويروون أنه كانت فيه بئر يستقى منها الماء إلى هذه الغاية ،ويذكرون الكوس (الطبل) المنصوب عليه ، الذي يعلن صوته عن بدء منع التجول . ويقولون إنه قصر عجيب بني على أربعة أوجه: وجه بالجروب الأبيض،ووجه بالجروب الأصفر،ووجه بالجروب الأحمر،ووجه بالجروب الأخضر—والجروب الحجارة — . وابتُني في داخله ، على مااتقن من أساسه ، قصر على سبعة سقوف ، بين كل سقفين أربعون ذراعاً ، وسقفه من رخامة واحدة . وجعل في كل ركن تمثال أسد من شبه ، كأعظم ما يكون من الأسد . فكانت الريح إذا هبت من ناحية تمثال ، من تلك التماثيل ،دخلت جوفه من دبره ، ثم خرجت من فيه ، فيسمع له زئير كزئير الأسد. وكان يؤمر بالمصابيح فتسرج في بيوت الرخام إلى الصبح ، فتشير إلى الخلود والوعد به (٤٨) ، وتجعل القصر يلمع من ظاهره لمعان برق شديد لانهاية له .

---

(٤٦) الهمداني ، ٧٦ — ٧٩ وما يليها .

(٤٧) ابن خرداذبه ، ١٣٦ ، ١٧٦ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٣١٦ ، ابن رسته . ١١٠ — ١١١ ، ١١٣ (مع ذكر مدينة شبام : انظر ا . غروهمان ، م١ ، ج٤ ، ٣٧١ — ٣٧٢) المسعودي (م) فقرة ١٠٢٦ ، ابن حوقل ، ٣٧ ، و و . لوففرين ، م١ (٢) ج٢ ، ١١٢١ — ١١٢٢ .

(٤٨) نماذج اخرى من القصور الفاتنه المنورة على هذا النحو ، في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٨٩ (و ح٢) .

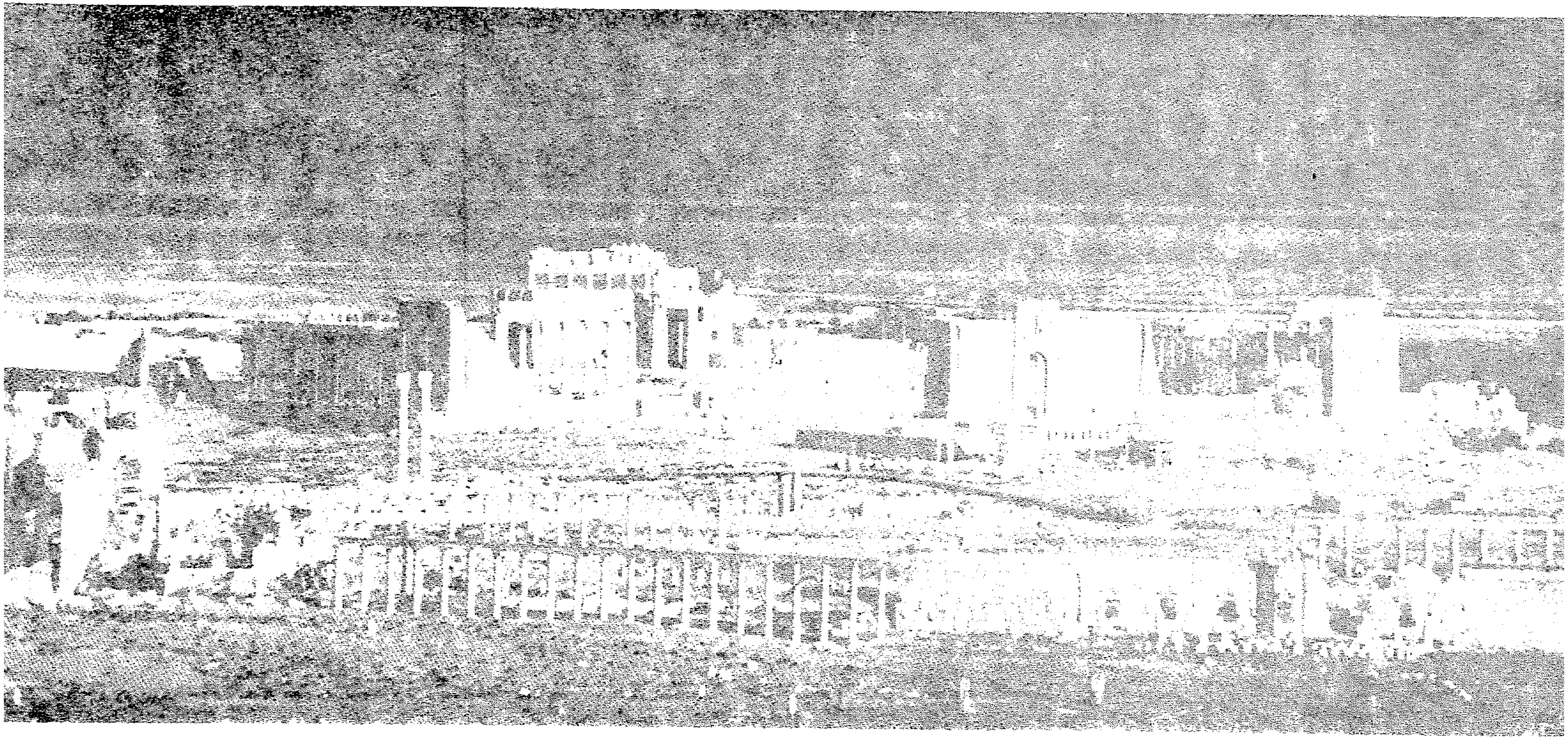
ورّثت الحضارة القديمة في جزيرة العرب الجنوبية أبناءها أثراً آخر ، هو أعمال الري الهائلة ، التي برع بها أهلها ، لاسيما السدود ، خاصة سد مأرب (٤٩) . ويقال إن هذا السد بني من جبل إلى جبل على طول فرسخ ، وكانت وراءه جبال وأنهار عظام . وكانت مياهه تظهر من مخرق من الحجر الصلد والحديد ، فيه ثلاثون نقباً مستديرة ، تخرج منها ، وتجري حتى تأتي الجنان والحقول فترويها سقياً . وتجيء النذر المشؤومة في وقت لاحق . وقد بدأت بسحابة غشيت الأرض فأحرقت ماوقعت عليه ، تلتها رؤية الشجر يتكفأ من غير ريح ، والمياه تنقض الأساسات ، والجرذ يقلب برجليه صخرة مايقلبها خمسون رجلا ، وظهور الحصباء في سعف النخل . أخيراً كفر أهل سبأ بالله (٥٠) ، فأرسل عليهم الماء (سيل العرم) من بثق ، فلم يبق لهم مال ولاضياع ولا مواش ، وتحولت بلاد ملكة سبأ الجميلة إلى صحراء (٥١) . وكان فيها أشجار ملتفة وجنان كثيرة وكان السائر يسير بين أشجارها المثمرة ، وعلى رأسه مكتل ، فلايمشي إلا قليلا حتى يمتلىء المكتل من ثمار تلك الأشجار عن غير قطف ولا التقاط . وكانت بلاد سبأ من أكثر أرض اليمن جناناً ، حتى إن الراكب المجدّ يسير فيها أكثر من شهر من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها ، لاتواجهه الشمس ، ولا تعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها .

---

(٤٩) ابن الفقية ، ٣٤ ، ٣٧ ، ١٧٦ ، ابن رسته ، ٦٣ ، ١١٤ — ١١٥ ، اسحاق ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، المسعودي (م) فقرة ١٢٥٠ — ١٢٦٠ (انظر أيضاً ح ١ من الفقرة ١٢٥٣) و ١٢٦٤ — ١٢٧٨ .

(٥٠) القرآن ، ٣٤ ، ١٤/ ١٥ — ١٨ / ١٩ .

(٥١) وصف متصل بوصف مأرب : انظر أيضاً ابن رسته ، ١١٣ .



تدمر ، سورية : منظر عام لهيكل بعل

(تصوير جورج رودجر / الأكبر)

وتحرص الشام العربية ، هي أيضاً ، على مضاهاة عجائب جارتها ، عجيبة عجيبة ، فالنضارة البالغة في العربية السعيدة القديمة تماثلها غوطة دمشق الغناء (٥٢) . ويقابل معبد دمشق القديم ، الذي نصب رأس يحيى بن زكريا (٥٣) على بابه المسمى باب جيرون ، مسجدي مكة والمدينة . أخيراً تباهي صروحها الفخمة القلاع اليمنية . لكن يستغرب ألا يخلف الأمويون ، وهم البناة العظام ، أثراً يسترعي إنتباه الجغرافيين (٥٤). الذين يظهر ان تشيعهم دفعهم إلى إغفال هذه الناحية، شأنهم شأن زملائهم المؤرخين ، واتخاذ هذا الموقف جواباً على موقف حكام الشام المناوئين للعلويين . مهما يكن ، فضل الجغرافيون التحدث عن الماضي البعيد وذكر تدمر وبعلبك . وقالوا عن تدمر انها على مثل كرسي من مدن سليمان بن داود ، الذي كان ينزل بملعبها المتخذ فيها . وهي بنيان عجيب من الحجر ، وكذلك الملعب الذي فيها ، كثيرة الصور والتماثيل . وتضم دار سليمان مقاصير وأروقة وحجرات وإيوانات . وسطح الحجرات والمقاصير حجر واحد بقطعة واحدة (٥٥) . لكن يبدو في النهاية أن بعلبك تفوق تدمر بجلالها ورونقها ، وهي من مدن سليمان أيضاً ، مبنية على جبل ، وبها قصور من حجارة شيدت على اساطين شاهقة . ويعرف المقدسي هيكل

(٥٢) انظر ما تقدم : القلاع وآثار اخرى .

(٥٣) انظر ما تقدم ، الفصل الأول الاسلام وريث مقيم .

(٥٤) ما عدا حالات استثنائية نادرة تقريباً ، كما في حالة قصر الخضراء في دمشق (ابن الفقية ، آخر ١٠٨ — ١٠٩ ، المقدسي ، ١٥٩ ، ترجمة ١٧٣ و ح ١٢٠) وقصر القطيفة الذي ذكر اليعقوبي ، ٣١١ .

(٥٥) اليعقوبي ، ٣٢٤ ، ابن الفقية ، ١١٠ ، ١٧٦ ، المسعودي (م) ، فقر ١٤٠٣ ، المقدسي ، ١٥٦ ، ١٨٦ .

بعل ونقوشه العجيبة ، وقد ذكر على الرغم منه قول الله أمام بيتيه العظيمين اللذين يتحدى بقاؤهما الزمن : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (٥٦) .

ولاتنتهي عجائب الشام عند هذا الحد.فيقال إن عند جامع حمص بالسوق ، قبة ، على رأسها شبه رجل من نحاس ، واقف على سمكة تديرها الأرياح الأربع . وفيه أقاويل لاتصح (٥٧) ، منها انه طلسم جعل للعقارب . فمن أخذ طيناً وطبعه عليه ، نفع من لدغ العقارب . واخبار ملعب فامية (٥٨) أو سور أنطاكية أرصن . فالمسعودي قال بعد ابن الفقيه : بنى انطيخش انطاكية ، وكانت دار ملكه ، وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم في البناء على السهل وفي الجبل . ومسافة السور اثنا عشر ميلا . عِدَّةُ الأبراج فيه مائة وستة وثلاثون برجاً ، وجعل عدد شرفاته أربعة وعشرين الف شرفة ، وجعل كل برج من الأبراج ينزل فيه بطريق برجاله وخيله ، وجعل كل برج منها طبقات إلى أعلاه . فمرابط الخيل في أسفله وأرضه ، والرجال في طبقاته ، والبطريق في أعلاه (٥٩) . وجعل كل برج منها كالحصن ، عليه

---

(٥٦) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، المقدسي (م) ، فقرة ١٤١٣ (القرآن ، ٣٧ ، ١٢٥) ، الاصطخري ، ٤٦ ، ابن حوقل ، ١٧٥ ، المقدسي ، ١٦٠ ، ١٨٦ .

(٥٧) ابن الفقية ، ١١٢ (أعلى الصورة صورة انسان واسفلها صورة عقرب) ، المقدسي ، ١٥٦ (ترجمة ، ١٦٤ ، ح٨٧) ، ١٨٦ (ترجمة ٢٣١ ، ح ٩٣) . انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٣٩ ، ح٥ (يضاف الى عدد هذه الممارسات ابن الفقية ، ٢١٤ : ومن ٢١٤ : ومن أخذ من طين قرية كركان في فارس ، فطين به داره أو بيته ، لم يقربها عقرب الى قابل ذلك الوقت) .

(٥٨) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، ابن الفقية ، ١٧٦ .

(٥٩) ابن الفقية ، آخر ٥٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٠٤ ، ابن حوقل ، ١٧٩

أبواب حديد . وآثار الأبواب ومواضع الحديد بينة إلى هذا الوقت .
وفي أنطاكية ذاتها ، على يمين مسجدها الجامع ، ينتصب هيكل غريب يعرف بالديماس ، لعله بيت نار قديم . وهو مبني بالآجر العادي والحجر ، عظيم البنيان . وفي كل سنة ، يدخل القمر عند طلوعه (٦٠) من باب من أبوابه ، ومن أعاليه في بعض الأهلة الصيفية . أخيراً يزدان إقليم الشام بالكنائس التي بنتها الملكة هيلانة ، على حد قول المسعودي ، في بيت المقدس ومنبج وحمص واللد وأنطاكية ، وجميعها فخمة ، ولو استعملت بعض أساطينها في بناء مساجد المسلمين (٦١) .

العراق : تاريخ طويل

تميزت بعض الأزمنة البارزة في ماضي البلدان التي استعرضناها من قبل . أما العراق ، فلا يفرق بين العصور ، بل يجسد في النهاية التاريخ في بناء من أبنيته غير المؤرخة أو الموصوفة بالقديمة ، بلا تدقيق إضافي (٦٢) . مع ذلك ، وفي معظم الأحيان ، يتضح مرة أخرى أن دار الإسلام ورثت جميع التواريخ . اذن ، تبدو في جهة أولى مآثر بغداد وسامراء وقصور العباسيين ورجالات الخلافة (٦٣) ، وفي الجهة الثانية ذكريات بابل وابراهيم . فنمروذ أسس بابل ، وهي الآن

---

(٦٠) المسعودي (م) فقرة ١٤١٨ .

(٦١) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، ابن الفقية ، ١١٧ ، المسعودي (م) فقرة ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ١٢٩٢ المسعودي (ت) ١٩٧ ، ١٩٨ ، ابن حوقل ، ١٧٦ ، المقدسي ؛ ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٧٦ وما تقدم ، القلاع وآثار اخرى .

(٦٢) مسعر (ب) ، ٢١ — ٢٢ ، من أجل التخوم الفارسية العراقية .

(٦٣) اليعقوبي ، ترجمة ١٤٥ (و ح ٨) ، ابن الفقية ، ١٨٤ ، الشابشتي ، ٩٦ وما يليها . انظر أيضاً مسعر (ب) ، ٢١ — ٢٢ (ذكريات ابي نواس ، المنطقة ذاتها) .

قرية صغيرة ، واقدم ابنية العراق عهدا . وترتبط بها ذكرى بلبلة الالسن ، وبناء اسوارها بعد الطوفان قبل غيرها مع اسوار حران ودمشق . ونمرود اول من اظهر القول باحكام النجوم وقرب فهمها إلى قلوب الناس ، واول من اتخذ المنجنيق ، وقتل وصلب ، ومثل ، واحرق بالنار ، وبقر البطون ، وسمل العيون (٦٤) . وبابل بلد ابراهيم الخليل ، الذي ولد في كوثا ربّا القريبة منها ، وبها تلال رماد عظيمة ، يزعمون انها رماد النار التي طرح فيها النمرود ابراهيم ، واخمدها الله لينقذه (٦٥) .

وفي الجنوب ، تحتكر فارس واتباعها من لخميي الحيرة العرب ، المجال التاريخي ، على مشارف نهر الفرات . ولم يبق من حاضرتهم(٦٦) الا ذكريات في الاذهان : فهي الآن قرية مفترشة البناء ، خف اهلها بل لم يبق منهم الا القليل منذ ظهور الاسلام وتأسيس الكوفة ، جارتها وغريمتها . لكن خلدت ذكراها . ويقال ان الحيرة اول من كتب بالعربية ، وكان عمرانها إلى ان خربت في وقت بناء الكوفة ، خمس مائة سنة وبضعا وثلاثين ، واشتهرت بطيب هوائها ورقة اصائلها ولياليها . والكلمة الاخيرة عنها للمسعودي حيث يقول « وكان فيها

---

(٦٤) ابن الفقية ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ابن رسته ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٥٣٨ (بئر دانيال) ، ابن حوقل ، ٢٤٤ — ٢٤٥ (تأسيس منسوب الى نمرود ، أو الفراعنة ز ، أو الكنعانيين ، أو ملوك فارس القدامي أو اليمن ، عن الضحاك انظر المسعودي (م) ، فقرة ٥٣٧ ، المقدسي ، ١١٥ — ١١٦ ، ١٢١ .

(٦٥) المسعودي (م) فقرة ٧٦ (انظر قرآن ، ٢١ ، ٦٩) ابن حوقل ، ٢٤٥ ، ٢٩٧ ، المقدسي ، آخر ١٢١ — ١٢٢ ، ١٣٠ .

(٦٦) ابن الفقية ، ١٨١ ، ٢٦٢ ، ابن رسته ، آخر ١٩١ — ١٩٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٠٧٣ — ١٠٧٤ ، ابن حوقل ، ٢٣٩ .

ديارات كثيرة فيها رهبان ، فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعي الخراب اليها . واقفرت من كل انيس . وفي هذا الوقت ليس بها الا الصدى والبوم » .

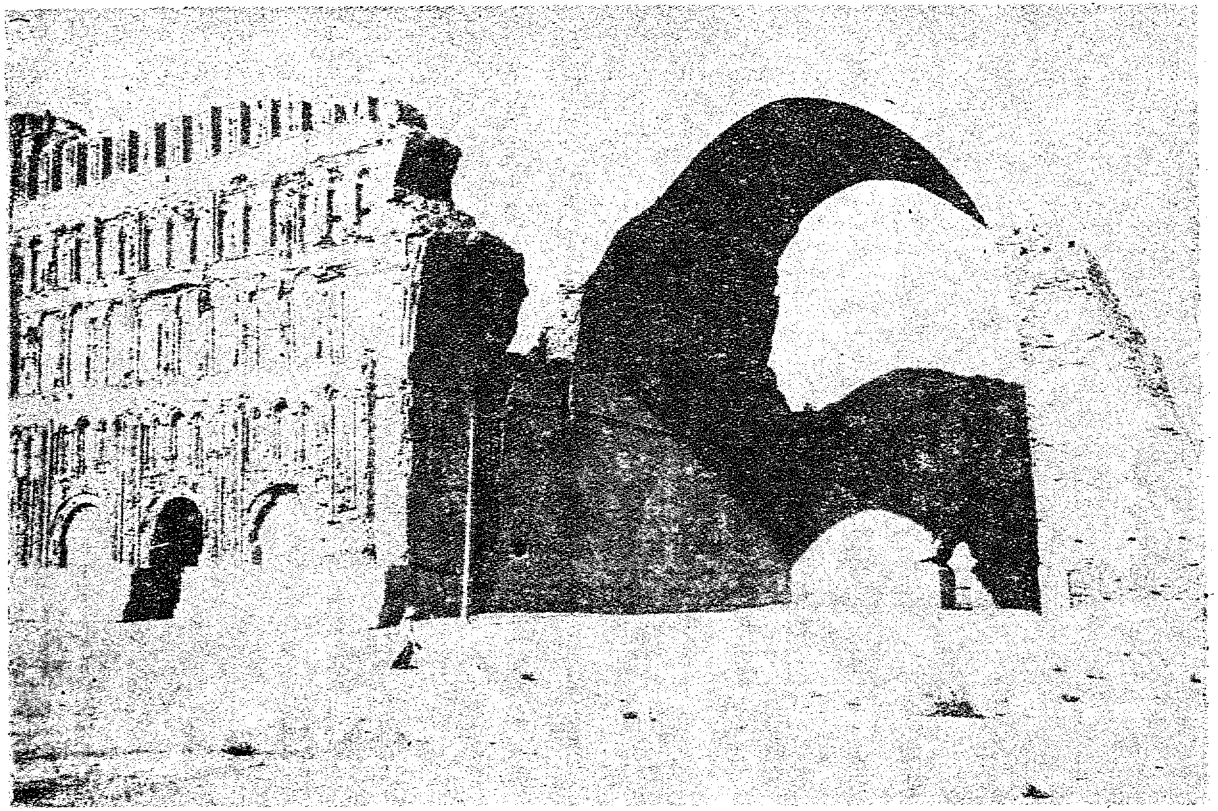
ومن أجلّ مآثر الساسانيين طيسفون (المدائن) ، وقد عقد جسر لها على دجلة من الآجر ، وبها آثار قصر كسرى المسمى ايوان كسرى (٦٧) . فالايوان معقود ، عظيم ، جسيم ، من الآجر والجص ، وليس للاكاسرة اثر ولا بناء مثله . وقد نقلت عامة ابنية طيسفون ، واستعملت مواد بناء في تشييد بغداد الجديدة . وذكر عن الرشيد انه اراد هدم الايوان رمز المجوسية ، فشرع في هذا العمل الضخم ، ثم نظر ، فاذا ما يلزمه في هدمه يبلغ اموالا عظيمة لا تضبط كثرة ، فامسك عن ذلك .

وتمثل ابنية اخرى وقصور اخرى امجاد فارس الساسانية واتباعها عرب الحيرة . ويذكر ابو دلف مسعر (٦٨) على الحدود الفارسية العراقية آثارا متنوعة تبين بطلان الاعمال البشرية مع بعض الغرائب في المواضع : مثل الايوان المنفرد الذي يتأثر بالثلج من جهة الجبال ، ولا يتأثر به من الجهة الاخرى . والسدير بظاهر الكوفة شمالي نهر

---

(٦٧) ابن خرداذبه ، ١٦٢ ، اليعقوبي ، ٢٣٥ ، ابن الفقية ، ٥١ ، ٢١٢ – ٢١٣، ٢٥٤، ٢٦٧، ٣١٦ ، ابن رسته ، ٨٣، ١٨٦ ، المسعودي (م) فقرة ٦٠٩ – ٦١٠ . ابن حوقل ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، المقدسي ، ١٢٢ .

(٦٨) مسعر (ب) ، ٢٠ – ٢٢ (مع جسر خانقين في منطقة الكوفة ، وله ٢٤ قنطرة كل واحدة منها عشرون ذراعا) .



ايوان طيسفون (المدائن) العراق

(تصوير رانج موراث الأكبر)

الغدير ، وهو قصر عظيم من ابنية ملوك لخم ، وما بقي الآن منه : فهو ديارات وبيع للنصارى (٦٩) .

وبظاهر الكوفة ايضا الغريان . وهما مبنيان بالحجر ونسجت حولهما الاساطير . ويمثلان ويشبهان طربالين أي صومعتين ، امر المنذر بن امرىء القيس ببنائهما فوق حفرتين دفن فيهما نديمين له راداه بعض الكلام . وقد جعل هذا الملك لهما في السنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم . فيذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ، ويغرو بدمه الطربالين ما كان من شيء آدمي او وحشي . والغري في اللغة ما يبس عليه الدم من صنم وغيره . ومنه تسميته الطربالين الغريين . وفي يوم بؤسه قتل عبيد بن الابرص الاسدي الشاعر . وتسبب في ترك الملك لهذين اليومين رجل من طيء يقال له حنظلة همّ المنذر بقتله ، فتكفل به شريك ابن عمرو بن شراحيل ، على ان يرجع لاهله ، ويصلح حالهم ، ثم يعود اليه . فانقضت السنة ، ولم يرجع حنظلة ، فهم الملك بشريك ، ووضع السيف على عنقه ، فاذا بحنظلة قد اقبل متحنطا متكفنا . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما ، فعفى عنهما وابطل السنة اللئيمة (٧٠) .

والخورنق اعظم ايضا (٧١) . وينسب التاريخ بناءه إلى النعمان

---

(٦٩) ابن خرداذبه ، ١٦٢ ، ابن الفقية ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، الشابشتي ، ١٥٢ ، المقدسي ، ج٣ ، ١٦٨ ، انظر أيضاً اليعقوبي ، ٢٧٠ (دسكرة الملك) و ل . ماسينيون ، اخيضر ، م١ ، ج٤ ، ١٠٤٧ .

(٧٠) ابن الفقية ، ١٧٩ — ١٨١ .

(٧١) ابن خرداذبه ، ١٦٢ ، ابن الفقية ، ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨٤ ، المقدسي ج٣ ، ١٦٨ ، المسعودي (م) فقرة ١٠٦٠ ، المسعودي (ت) ، ١٤٤ ، **ابن حوقل**، ١٨ ، ٢٣٩ (الاصطخري ، ٢٠ ، ٢٨ : بلدة عادية) : و ل . ماسينيون . م١(٢) ، ج٤ ، ١١٦٥ .

بن امرىء القيس ، ويقول الكلبي بل اشاده بهرام بن يزدجرد بن سابور ذي الاكتاف . وقد بنى الخورنق للنعمان رجل رومي، يقال له سنمار . وكان يبني السنتين والثلثة ، ثم يغيب الخمس سنين . فلما انتهى البناء بعد ستين سنة شاء سوء الحظ ان يقول سنمار للنعمان : اني اعلم موضع آجرة ، لو زالت ، زال هذا القصر كله . فقال له النعمان ايعرفها احد غيرك ، قال لا . فامر النعمان فقذف سنمار من فوق القصر ، وذهب سره معه . لكن ما هو حد تمادي جنون البشر ؟ فقد جلس النعمان ذات يوم في مجلسه من الخورنق ، فاشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار مما يلي المغرب ، ومما يلي المشرق على الفرات الذي يدور على هذا القصر في عاقول كالخندق . فاعجبه ما رأى ، وغمرته السعادة ، فقال لوزيره : هل رأيت مثل هذا المنظر ؟ قال لا ، لو كان يدوم . قال النعمان وما الذي يدوم . قال ما عند الله في الآخرة ، الذي ينال بترك الدنيا والتعبد . فترك النعمان ملكه من ليلته ، ولبس مسوحه ، وخرج هاربا ، لا يعلم به احد .

نحو الشمال الغربي : ذكريات متناثرة

وتختلف الجزيرة وارمينية عن ابنية العراق . فهي تعبر عن تسلسل تاريخي منظّم تنظيما متقنا يرتبط ببغداد التي تقع على طرفه ، وتبرز وجود اسلام يثبت استمراره وسعيه وراء غايته . وهما موزعتان على شتى الاماكن ، اذا جاز هذا القول ، ولا تستمدان نفوذهما الا من ذاتهما . لذلك نتبع فيهما الخريطة لا التاريخ .

وقال ابن حوقل : حكي عن تكريت ، الواقعة بعد سامراء صعدا ، انه كان في ايام الفرس قد عقد بها على دجلة جسر من آجر ، يعبر

عليه في ايام الهياطلة (٧٢). وقد ادرك أثراً من ذلك وتقع مدينة الحضر جنوبي الموصل في برية سنجار (٧٣). وكانت آثارها الباقية تزيد كثيرا عما يرى اليوم . ويتحدث ابن الفقيه عن بنائها بالحجارة البيض وعن بيوتها وسقفها وابوابها . وهي على تل ، ولها ستون برجا كبيرا وبين البرج والبرج تسعة ابراج صغار ، على رأس كل برج قصر ، واسفله حمام ، وقد حمل اليها نهر الثرثار ، وعلى حافتيه القرى والجنان . ويقال انه كان على حضر باب يغلقه رجل ، ولا يفتحه الا خلق كثير (٧٤) . وهذا امر عجيب . ولا يشار إلى الفرثيين الارشاقيين الذين بلغت حضر ابهى امجادها في ايامهم ، بل يذكر خروج فرقة من قضاعة العربية إلى الجزيرة ، وكان عليهم ملك يقال له الضيزن . فنزلوا مدينة الحضر (حترا) . وكان بناؤها على طلسمين الا يهدمها الا حمامة ورقاء ، مطوقة بحيض امرأة زرقاء .

فاخرج ضيزن كل امرأة عارك . واغار على السواد ، فاصاب ماه اخت سابور . فحاصر سابور حضر سنتين ، لا يظفر منهم بشيء ، حتى عركت النضيرة بنت الضيزن . فاخرجت إلى الربض ، فنظر اليها سابور ، فعشقها وعشقته . وباحت له بسر حضر ، وقالت له :

---

(٧٢) ابن حوقل ، ٢٤٥ (حول الهون الهياطلة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ : ٢١٠ ، ٢٢٤) . ادخلت تكريت ضمن العراق احياناً (المقدسي ، ١١٥) وأحياناً اخرى في الجزيرة (ابن الفقية ، ١٢٩ ، ابن حوقل ، ٢٢٨) .

(٧٣) ابن الفقية ، ١٢٩ – ١٣١ ، المسعودي (م) ، ١٤٠٧ – ١٤١٠ و ش. ببلا م١(٢) ، ٥٢ – ٥٣ . موضوع شد امرأة الى الخيل (ما يلي) وارد في مخطوط مجهول المؤلف مزدان بالصور ، اسمه عجائب المخلوقات، باريس ، المكتبة الوطنية، ملحق فارسي ، ٣٣٢ .

(٧٤) نص مختلف لباب الدير وارد من قبل ، الفصل الرابع ، ديارات الشابشتي.

اعمد إلى حيض امرأة زرقاء ، فاكتب به في ورقة ، ثم اجعلها في عنق ورشان ، وسرحه ، فاذا وقع على القصر ، ارفض باهله . ففعل فقتل من قضاعة نحو مائتي الف رجل ، وافنى قبائل كثيرة . وشك سابور المنتصر باخلاصها له ، وقال لم تكافيء ابويها على حسن صنيعهما لها ، ولم تف لهما ، فكيف تفي لي . فامر بمعاقبتها ، فشدت ذوائبها إلى ذنب فرسين جموحين ، ثم استحضرا ، فقطعاها .

وفي موضوعنا ، تعد الموصل ، في جهة الشمال ، مرادفة لنينوى بلد يوسف بن متى (يونان) ، الواقعة في الجانب الشرقي من دجلة . فماذا بقي من مؤسسها نينس ، ومن ملوكها او ملكاتها الثلاثة والعشرين، وعلى راسهم سميرا ميس، وقد حكموا امبراطورية مترامية الاطراف، وخاضوا حروبا متصلة، ومن مدنهاخيرا، ماذا بقي؟لا شيء سوى منازل موزعة بين آثار تعبث بها الريح، وبقايا تماثيل واسوار(٧٥).

وبلدان حوض الفرات اهم مما تقدم في عرف هواة الماضي . وتأتي حران (٧٦) في الطليعة . ففيها هيكل معظم للصابئة ، وهو البيت الوحيد الباقي من بيوتهم النارية المعظمة . وتحته اربعة سراديب ، متخذة لانواع صور الاصنام ، التي تتكلم ، او بالاحرى ، تمر من افواهها

---

(٧٥) المسعودي (م) ، ٥٢٠ — ٥٢١ (وترجمة ، ج١ ، ص ١٩١ ، ح١ ، ح١ و ١٩٢ ، ح١ و ٢) ، ابن حوقل ، آخر ٢١٦ — ٢١٧ المقدسي ، ١٣٩ .

(٧٦) المسعودي (م) فقرة ١٣٩٢ — ١٣٩٥ . ابن حوقل، ٢٢٦ . من أجل جدر حران ، انظر ما تقدم الحديث عن بابل ، من أجل الكتابة المشار اليها فيما يلي ، انظر م . ترديو الصابؤون في القرآن والصابؤون في حران ، المجلة الاسيوية ، ٢٧٤ روماني (١ — ٢) ، ١٩٨٦ ، ص ١ — ٤٤ .

ما تتكلم به سدنتها من وراء الجدر من انواع الكلام الذي يجري في مخاريق ومنافيخ ، فيظهر منها نطق . فيصطادون به العقول لاسيما عقول اطفالهم الذين يحدث لهم اصفرار في الوانهم امام تماثيل يسمعون اصواتها . وقد كتب على مدقة باب مجمع الصابئة ، ورثة اليونان في زعمهم ، بالقرب من الهيكل ، بالسريانية ، قول لافلاطون هو « من عرف ذاته تألّه » وذلك حسب ترجمة مالك بن عقبون للمسعودي.

وتحوي بلدان الفرات على وجه التخصيص عجيبتين واقعيتين محسوبتين من عجائب الدنيا هما كنيسة الرها وقنطرة سنجة . ويقال ان كنيسة الرها اعظم كنائس النصارى ببنيانها المتقن ، وآزاجها البديعة الملبسة بالفسيفساء ، والمنديل الذي تنشف به يسوع الناصري حين خرج من ماء المعمودية (٧٧) . اما قنطرة سنجة ، فنموذج كامل على حجر مخوخ (٧٨) . وتطغى امثال هذين النموذجين على سواها مما ذكر من قبل ، او مما يرى باتجاه بحر قزوين في اذربيجان ، على جانبي نهر الرس ، على حد قول ابن حوقل ، او مما يمكن تصوره تحت رواسي الجبال ، حسب الجغرافيين الآخرين ، من آثار مدن

---

(٧٧) المسعودي (م) فقرة ٧٥٣ ، المقدسي ، آخر ١٤١ . أعطيت الاحالات الاخرى من قبل في مستهل الفصل .

(٧٨) . مخوخ ، تقيدت بتأويل دي خويه (م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٠) ودوزي ، ج ١ ٤١١ ، لجن يمحن التفكير بـ « مقطوع مستدير » قياساً على خوخ . حول قنطرة سنجة ، انظر ح في مطلع الفصل وابن الفقية آخر ٥٠ ، ٢٥٥ ، المسعودي (ت) آخر ٩٤ — ٩٥ ، الاصطخري ، ٤٦ ، المقدسي ، ١٣٩ (ح ن) ، ١٤٧ (ح ه) .

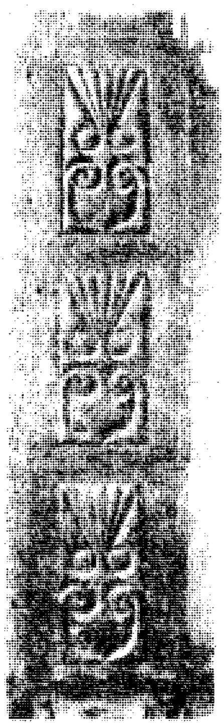
قلبت اعاليها اسافلها وخسفت لكفرها ، تصديقا لقوله تعالى في القرآن « وعادا وثمودا واصحاب الرس » ... (٧٩) .

هضبة فارس (اقليم الجبال) قلعة الماضي

تتجاوز فارس كثيرا حدودها الحالية ، اذا اخذناها في نطاق الشعوبية ، مثلما تسنى لنا ان ندرك ذلك . لكن يعلو شأن تاريخها وحلمها بالخلود من خلال ابنيتها ، في اراضيها بداهة ، وفي طليعتها الهضبة القديمة في ميدية ، وهنا ايضا يقترن تأثير منظر البناء بتأثير الكلام ، ويتفوق على ما يحصل في العراق وغيره من البلدان من تأثير مماثل . فلا يجوز ان ننسى ان فارس موطن القصة ، وبلد عبور قصص بيدبا من الهند إلى سائر الجهات ، ومهد الف ليلة وليلة ، اذن تعتز فارس بما يرى وبمايقال.ويعدّ ابن الفقيه احد افضل ممثلي المسلمين الذين كتبوا باللغة العربية . وهو لا ينكر اصله الفارسي ، ويبدو ضليعا في هذا المجال وليس وحيدا .

ولاول وهلة ، يلفت النظر التنوع في احصاء ابنية بلدان فارس . وتغلب التماثيل والقصور على هذه القائمة ، لكنها لا تستنفد كل ما تحتويه . ففي المشاهد مجموعة كاملة من شتى الذكريات ، تشهد على

(٧٩) القرآن ، ٢٥ ، ٤٠ / ٣٨ ، ٥٠ ، ١٢ ، مسعر (ب) ١٣،ابن حوقل، ٣٤٥ ، المقدسي ، ٣٨٠ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٨ (ح٣) ،٢١٤ — ٢١٥ الفهرس (الرس)



روسم المتاحف الوطنية
متحف لوفر ، القسم الاسلامي آ آ ٢٦٧
مصراع باب مصدره تكريت ، العراق
سامراء (؟) ، القرن التاسع
الخشب : ساج
(تصوير ا.شوزفيل)



(تصوير ج . ب . فيلومينه / رافو)
جسر على طريق برزجان في كازرون (فارس)

ذلك القناطر ، وعلى رأسها قنطرة الصيمرة وقنطرة النعمان (٨٠) . وقد تأثر الملك العربي النعمان بغرق طفل على حدود فارس والعراق ، فاستأذن كسرى ببناء جسر هناك . فرفض كسرى طلبه ، لأنه لا يجوز ان ينجز العرب مأثرة في ارض فارس ، ولم تبن القنطرة الا في وقت لا حق ، عندما تحالف النعمان وبهرام جوبين الذي كان يحارب ملكه ابرويز (برفيز) .

وتذكر اعمال شهيرة اخرى ايضا ، منها في الدامغان نظام الري الذي يجمع مياه الجبال ويوزعها على ١٢٠ كورة مجاورة . ومنها في اصبهان بناء يقال له الساروق على مثال الحصون ، لا يعرف بانيه لقدمه ، فقد بني قبل الطوفان . وكان زيج الشاه الذي يعمل عليه اصحاب الحساب مدفونا به ، فلم يصل الماء اليه ، وقد رصد في ايام المأمون (٨١) . ويبعد الدكان ستة اميال عن فرماسين . وهو من بناء الاكاسرة ، قد بني بالجص والآجر . والدكان مربع طول ضلعه اربع مائة ذراع ، وقد فرش بمرمر ، هندم وسمر بمسامير الحديد ، ومن حوله نهر جار يسقي الزروع . وقد اجتمع عليه ملوك الارض من الصين والترك والهند والروم وفارس (٨٢) . على ان اطرف بناء بلا ريب هو ذات الحوافر (٨٣) . وهي منارة عظيمة مبنية من حوافر حمر الوحش في

---

(٨٠) مسعر (ب) ، ٢٣ — ٢٦ .

(٨١) مسعر (ب) ، ٣٧ ، ابن رسته ، ١٦٢ .

(٨٢) ابن رسته ، ١٦٦ ، ابن الفقية ، ٥١ ، ٢١٧ ، ٢٥٥ .

(٨٣) ابن الفقية ، ٢٤٧ — ٢٥١ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٣٧ .

احد رساتيق همذان . ولهذا البناء قصة ، فيها ، كما سوف نرى ، مواضيع كلاسيكية تضم الحب الصافي ، ومرور الزمن ، وزوال المجد والحكمة الملكية والذكريات .

وكان سبب تشييده ان منجمي سابور بن اردشير قالوا له ان ملكه سيزول ، وانه يشقى اعواما كثيرة حتى يصير في حد المسكنة وثم الفقر ، ثم يعود ملكه اليه . وطلبوا منه ان يختار متى يريد ان يلقى الشقاء في شبابه ام في كبره . فسألهم عن علامة رجوع ملكه اليه ، فقالوا : « اذا اكلت خبز الذهب على مائدة حديد ، فتلك علامة رجوع ملكك اليك » . فاختار ان يكون ذلك في شبابه ، واعترل ملكه ، واخذ تاجه ومقرعته وقميصه في جراب . ثم خرج ترفعه ارض وتخفضه ارض إلى ان اجر نفسه الى عظيم احدى القرى ، واودعه الجراب . فكان يحرث النهار كله ، ويطرد الوحوش اذا جن الليل لكي لا تتلف الزروع .

فبقي على ذلك حولا كاملا . فرأى الرجل منه ثقة وامانة ، وزوجه كبرى بناته . فلم يقربها سابور . فلما اتى لذلك شهر ، شكت إلى امها ، فاختلعها منه ، وبقي سابور يعمل معه . ثم ان الرجل سال سابور ان يتزوج ابنته الوسطى ، فقبل ، لكنه لم يقربها . فلما اتى لذلك شهر ، شكت إلى امها ، فاختلعها منه ، وبقي سابور يعمل معه . ثم ان الرجل سأل سابور ان يتزوج ابنته الصغرى ، ففعل ، لكنه لم يقربها . فلما تم لها شهر ، سألتها امها عن حالها مع زوجها ، فاخبرتها انها باحسن حال وأسّره . وبلغ الخبر سابور ، فاستفرشها . وولدت له ابنا .

فلما اتى على سابور اربع سنين ، اتفق يوما من الايام ان عرسا كان في القرية ، ما بقي احد من اهل القرية الا حضره . وكانت امرأة سابور فيمن حضر العرس ، وسابور في الحقل لم يحمل اليه شيء من الطعام طيلة اليوم . وذكرت امرأة سابور روجها بعد العصر ، وحملت له رغيف جاورس . وكان سابور يسقي ، وبينه وبين زوجته ساقية عريضة وعميقة ، فلم تتمكن ان تصير اليه . فمد لها المر ، ووضعت عليه الرغيف . وكسره سابور ، فوجده اصفر شديد الصفرة ، ووجده على الحديد ، وذكر ما كان المنجمون قالوه له . فلما انصرفت عنه المرأة ، قام فاغتسل في الساقية ، وصار إلى منزله ، وامر ان يخرج اليه الجراب . فاخرج منه التاج والقميص ولبس ثياب ملكه . فلما رآه ابو زوجته ، كفر له ، وسجد وحياه بتحية الملوك . فقال له علق المقرعة على باب سور القرية .

لم تكذب العلامة . فقد وردت الخيل على القرية . وكان الفارس اذا راى المقرعة ، نزل عن دابته ، وسجد ، حتى اجتمع الوزراء وعظماء الدولة . فقال بعض الوزراء : « اسعدت ابها الملك ، وعمرك الله طويلا . اخبرنا ما الذي استفدت في طول هذه المدة » . فاخرج زوجته اليهم وقال : « هذه . فمن اراد كرامتي فليكرم هذه » . واقبل الناس عليها من كل وجه يلقون عليها الحلي والحلل والدراهم والدنانير حتى اجتمع من ذلك ما لا يحصى عدده . ثم قال لابي المرأة : دونك هذا المال كله فخذه لابنتك « وقال لسابور وزير آخر : ما اشد شيء مر عليك . قال : طرد الوحوش عن الزروع بالليل ، فانها اتعبتني ، واسهرتني ، وابلغت الي . من اراد كرامتي ، فليصد لي

منها ما امكن لابني من حوافرها بنيانا يبقى ذكره لنا على غابر الدهر وعلى مر الليالي والايام » . فتفرق الناس في صيدها فصيد منها ما لا يحصى كثرة . ثم امر بقطع ايديها وارجلها ، واخذ حوافرها . واحضر البنائين ، فبنوا له منارة عظيمة ، تكون ثلاثين ذراعا في عرض عشرين ذراعا . وبناها مصمتا بالكلس والحجارة ، ثم ركب فيها الحوافر ، وسمر بمسامير حديد . فصارت كأنها منارة من حوافر .

اما الخاتمة فمضحكة . فلما فرغ سابور من بنائها ، قال للذي بناها وهو عليها بعد : هل بنيت مثلها لاحد ؟ قال لا . قال وان امرك احد ان تبني له مثلها ، هل كنت تقدر على ذلك . قال نعم وعلى احسن منها . قال سابور والله لا اتركنك تبني لاحد بعدي مثلها . فقال بانيها . ما دمت قاتلي ، فلي اليك حاجة ان اعطى خشبا لأسوّى لنفسي قبة ، اكون فيها حتى يأتيني الموت لئلا تمزقني النسور والعقبان .فاجابه سابور لطلبه . فسوّى لنفسه اجنحة من ذلك الخشب . فلما كان في بعض الليل ، شدها على بدنه ،ثم حمل نفسه ، فوقع الى الأرض ، ولم يصبه شيء ، فهرب على وجهه ، وطلب فلم يقدر عليه . فلما بلغ سابور الخبر ، قال : « قاتله الله ما كان احكمه واصنع كفيه » .

ولعل هذا النص يستحق التعليق عليه . فالناحية الرومانسية فيه تبرز في قصة ، يصبح فيها الملك فلاحا ، والفلاحة ملكة ،تحت اضواء مزدوجة رصينة . وهناك حلم الطيران ، العزيز على باشلار ،ويتحقق بخشب ضعيف الفائدة ،حتى لو كان اغصانا ،وفى هذا النوع من التمرين تلميح محتمل إلى شخص شهير هو الشاعر عباس بن فرناس ،الذي حاول ايضاً ان يطير . اخيرا ،يشار إلى اله طيب ميال إلى الدعابة لا إلى فرض

العقاب في محاولة الاخلال بالنظام الطبيعي القائم بين الكائنات والاشياء: ففي هذا الفيض من المواضيع، يتم، فيما يبدو، اغفال البناء الذي اصبح ذريعة لسرد احدى القصص. ولعل هذا الوضع حد، تتجاوز فيه القدرة على ذكر البناء، الناشئة عن طرافته ذاتها وحدها، وتثير قضية تعليل ينفتح انفتاحا تاما على الخيال الصرف.

لننتقل الآن إلى صنع التماثيل وإلى النقوش العائدة إلى بعض المواضع الهامة. فبهمذان صخرة عظيمة، بمكان يقال له تبنابر، طاقان مربعان، نقر في كل طاق كهيئة الالواح ثلاثة طولا، في كل لوح منها عشرون سطرا، قُرِأت على الاسكندر، وكانت: الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل. والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور(٨٤). واشهر من ذلك السمكة والثور بنهاوند، من حجر او من ثلج لا يذوب في شتاء ولا صيف، حسب آخرين مولعين بالعجائب، وهما قوتان جهنميتان ومائيتان، وطلسمان للماء الا يقل بها (٨٥). ومن عجائب همذان الاسد الذي من حجارة على باب المدينة (٨٦). يقال انه طلسم للبرد، وهو عمل بليناس الرومي لحماية الفرسان من الثلج. وقد انشدت فيه القصائد. وهو يشبه الطلسمات التي تبعد العقارب والافاعي والفيضانات والبراغيث والحميات (٨٧). وقد كان المكتفي

(٨٤) ابن الفقية ٢٤٣ - ٢٤٥.

(٨٥) ابن الفقية، ٥١، ٢٥٥، ٢٥٩، مسعر (ب)، ٢٩، وجغرافية دار الاسلام، ج٣، ١٣٩.

(٨٦) ابن الفقية، ٢٤٠ - ٢٤٣.

(٨٧) اضافة الى طلسمين في اعقاب نزاع ابو لونيوس وأهل البلاد الذين كانوا فطين وخونة ويتعاطون الحرب.

بالله قد همّ بحمل الاسد إلى مدينة السلام، لكنه امسك عن ذلك لصعوبة تنفيذ النقل . وهذا ما يحدث لابنية او تماثيل يفكر بهدمها او نقلها .

لكن يرى افضل تمثال من تماثيل الساسانيين في غرب اقليم الجبال في منطقة كرمنشاه في جبل بهستون الشهير على وجه التخصيص . ويخيل للمرء احيانا ان في المشهد اشباه حجر تمثل الملوك ، وفيه صورة مكتب ومعلم صبيان من حجارة ، ومطبخ طباخه قائم وقدوره منصوبة لكن، تطغى تحفة شَبْديز (شبِنْديز) على جميع ذلك ، وتسمى اليوم طاق بستان . وهو طاق منقور في الجبل ، فيه صور انواع الطير وغيرها من الصور . وفي الصور من الطاق ، صورة رجل على حصان قد البس الدرع ، وقدامه صورة امرأة تنظر إليه ، ويقال انها صورة شيرين ، زوجة كسرى . وفي جانب من الطاق صورة انسان يخرج من تحته عين ماء مقدار مايدير حجري طاحونة. وفي الجانب الآخر درج منقور في الصخر من اسفل الطاق إلى اعلاه ، نحو مائتين وخمسين درجة . وقد اعطى شبديز اسمه إلى الموضع ، واعطى رائعة التمثال . وكان كسرى يعتز به . فقد كان من اعظم الدواب خلقا ، واظهرها خلقا ، واصبرها على طول الركض ، مؤدبا لا يبول ولا يروث ما دام عليه سرجه ولجامه ، وكانت استدارة حافره تزيد على ستة اشبار . وتمثاله اعجب تصوير في الجبل اغبر وراءه ، وهو احمر في الموضع الذي يحتاج إلى حمرة ، واغبر في موضع حاجته إلى الغبرة ، واسود في موضع حاجته إلى السواد ، وابيض في موضع حاجته إلى البياض .

وقد امر الملك فطوس بن سنمار الرومي بتصويره . فلما فرغ منه ، تأمله كسرى الامين ، واستتبره باكيا ، كما لو كان يندب انسانا(٨٨).

وتكثر جدا القلاع والحصون والابنية الاخرى . فقد احصي ما يزيد على عشرة عند أبي داف مسعر وحده «٨٩» من الحدود المتاخمة العراق الى مشارف حراسان ، ومن اشهرها قصر اللصوص ، المبني من جص وآجر ، وفيه اساطين محكمة . وهو قائم على تل علوه عشرون ذراعا . وكان ابرويز يرتاده ويصطاد فيه الكثرة الطرائد بجواره ، ويتذوق طيب هوائه وجمال مياهه الجارية (٩٠) . وقصر شيرين

قريب من قصر اللصوص ، وقد فرشت منصته الكبيرة بالرخام وبنيت قاعة الاجتماع بالجص والآجر ، وفيها ابواب تؤدي الى الحجر الملاصقة .

وقصر الملك بهرام جور فريد نوعه . فكله حجر واحد منقور ، وفيه كتابة بالفارسية من اوله إلى آخره ، وفي كل ركن من اركانه

---

(٨٨) ابن خرداذبه ، ١٦٢ (ترجمة ، ١٢٤ ، ح٢) ، ابن رسته ، ٨٣ ، ١٦٦ ، ابن الفقية ، ٢١٤ — ٢١٥ ، مسعر (ب) ، ٢٤ ، ٢٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٦٣٥ ، المقدسي ، ج٣ ، ١٧٤ — ١٧٥ ، ابن حوقل ، ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، المقدسي ٣٩٦

(٨٩) مسعر (ب) ، ٢٠ — ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، أنظر أيضاً اليعقوبي ، ٢٧٠ ، ابن رسته ، ١٦٧ — ١٦٨ (ومنها قصر من بناء الأوائل فيه تصاوير من خشب وسقوفه مزوقة بألوان التزاويق وفي القصر بستان وعين ماء تنبع من أصل شجرة) المقدسي ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ .

(٩٠) ابن رسته ، ١٦٧ ، ابن الفقية ، ٢١٧ ، مسعر (ب) ، ٢٦ .

(٩١) ابن الفقية ٥١ ، ١٥٨ — ١٥٩ ، آخر ٢١١ ، ٢٦٧ ، ابن رسته ، ١٦٤ ، مسعر (ب) ، ٢٠ — ٢١ ، اليعقوبي ، ٢٧٠ ، المقدسي ، ٣٩٩ و م . ستريك — ج . لاسنر ، م١ (٢) ، ج٤ ، ٧٥٩ — ٧٦٠ .

صورة جارية . وعلى مقدار نصف فرسخ من هذا القصر ، يشاهد على تل مشرف ، ناووس الظبية الذي يذكر بقصة جارية بهرام جور . ذلك ان هذا الملك خرج يتصيد ومعه جارية له . فلما فرغ من صيده ، نزل في قصره ، وجلس يشرب مع جاريته . وأخذهما الشراب . فقالت له الجارية التي رأت ظبية ترعى على ذروة جبيل هناك : اريد ان ترمي هذه الظبية ، فتصل ظلفها باذنها وقرنها بسهم واحد . ففعل ثم قام إلى الجارية ، فذبحها ، ودفنها مع الظبية ، وبنى عليهما ناووسا من حجارة ، وكتب عليهما بالفارسية خبرهما (٩٢) .

فارس الجنوبية : حيث المياه اوفر

بداهة ، لن يتغير التاريخ ، اذا اتجهنا إلى فارس وخوزستان . فماضي فارس حاضر دوما هنا ، ويتنوع تنوعا مماثلا لما سبق . واشير إلى بيوت النيران (٩٣) ، وإلى القباب ايضا ، المجهولة المغزى ، الا اذا دلت على وسط الدنيا (٩٤) حسب العرف المحلي ، وإلى وجود التماثيل والقصور على الهضبة العالية في ميدية . فبسابور خادم من حجر اسود ، متوشح بازار ، قائم وسط الطريق ، وسطه ستة اشبار ، وطوله قامة وذراع ، ومكتوب على عضده بالفارسية كتابة منقورة في الحجر الاسود (٩٥) . وبسابور ايضا جبل قد صور فيه كل ملك ومرزبان يعرف للعجم (٩٦) . ويقع اشهر موضع على فرسخ من النوبندجان ،

---

(٩٢) ابن الفقية ، ٢٥٥ – ٢٥٧ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٦٤ .

(٩٣) المسعودي (م) فقرة ١٤٠٤ ، ابن حوقل ، ٢٧٣ ، حدود العالم ، ١٢٨ ، وما تقدم الفصل الرابع .

(٩٤) ابن حوقل ٢٧٨ ، المقدسي ، ٤٤٥ .

(٩٥) المقدسي ، آخر ٤٤٤ .

(٩٦) المقدسي ، ٤٤٥ ، حدود العالم ، ١٢٨ .

وفيه صورة سابور على باب كهف ، عليه تاج ، تحته ثلاث اوراق خضراء ، مشط رجله ثلاثة عشر شبرا ، ومن رأسه إلى قدميه احدى عشرة ذراعا ، وخلفه ماء واقف ، لا مد له ولا منفذ ، وثم ريح تخرج شديدة (٩٧) .

وأبرزُ من بين القصور الوارد ذكرها عند ابي دلف مسعر ، ، قصرا كان يجتذب الملك قباد كثيرا جدا حتى ان والدته استعملت طرقا سحرية للقضاء على الطرائد بجواره ، ولارجاع نجلها إلى ادارة شؤون الدولة (٩٨) . وتعد القلاع موضوعا مميزا آخر يهتم به ابن حوقل (٩٩) . لكن تسترعي الانتباه آثار اصطخر دون غيرها (١٠٠) ، لأنها ترتبط بذكر سليمان وبيت النار ، وتمثل في نظر المقدسي انقاضا تشاهد فيها اساطين سود وتماثيل ومحاريب وحمام ومشرفة كبيرة عالية ،يصعد اليها في مدرجة حسنة من حجارة . وترى منها حتى الافق البعيد ، حقول المزروعات بجوارها .

مع ذلك تندرج معظم ابنية فارس وخوزستان في عداد الانشاءات المرتبطة بعلاقة الانسان بالماء الواجب عبوره أو الافادة منه . فهنا ، على حد قول المقدسي ، بنيت قناطر عجيبة محدثة وجاهلية (١٠١) .

---

(٩٧) المقدسي ، آخر ٤٤٤ — ٤٤٥ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١١٠ (و ح ٣) ، ٣١١ .

(٩٨) مسعر (ب) ٤٣ — ٤٤ .

(٩٩) ابن خرداذبه ، ١٦١ ، ابن حوقل ، آخر ٢٧١ — ٢٧٣ ، سنعود اليها في الحديث عن المدن .

(١٠٠) المسعودي (م) فقرة ١٤٠٣ ، المقدسي ، ٤٤٤ ، وما تقدم الفصل ٤

(١٠١) المقدسي ، آخر ٤٤٥ .

بالفعل اعجب الجغرافيون بالماضي والحاضر على حد سواء ، لاسيما ان هذه الاعمال منتزعة من ارض متمردة غالبا ما تهتز . ومن تلك القناطر قناطر ايذاج ، وخوارذ ، وسيوك ، وارجان ، وابو طالب او عضد الدولة . وكلها منشآت مبنية بالحجارة ، طولها احيانا اكثر من ثلاث ماية ذراع (على وادي ارجان) ، وطيقانها فريدة ، سعة الطاق الواحد منها ما بين عموديه على وجه الارض ثمانون خطوة . فهي ابنية جديرة بالادخال في عداد عجائب الدنيا (١٠٢) .

ويتجلى الاستمرار ذاته في تقاليد المشاريع المائية . وقد تحدثت في مكان آخر ، اعتمادا على المقدسي ، عن عمل السلطان البويهي العظيم عضد الدولة في الاهواز ، عاصمة خوزستان . فعلى نهر هذه المدينة ، دواليب عدة يديرها الماء تسمى النواعير ، ثم يجري الماء في قنى متعالية إلى حياض البلد (١٠٣) . وقد سكر عضد الدولة النهر الذي بين شيراز واصطخر بحائط عظيم ، جعل اساسه بالرصاص .فتبحّر الماء خلفه ، وارتفع . فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب ، وتحت كل دولاب رحى . وبنى ثم مدينة ،وجر الماء في قنى ، فاسقى ثلاث مائة قرية (١٠٤) . ويتبع هذا السلطان المسلم سياسة سابقة ، ويقلد تقنيات قديمة ، كما حصل في جور حيث بنى الملك اردشير طربالا رائعا(١٠٥)

---

(١٠٢) ابن خرداذبه ، ٤٣ ، ابن الفقية ، ١٩٩ ، ابن رسته ، ١٨٩ ، مسعر (ب) ، ٤١ ، ٤٥ — ٤٦ ، ابن حوقل ، آخر ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩٨ ، المقدسي، ٤٤٦ (ح ١) .

(١٠٣) مسعر (ب) ، ٤٢ ، المقدسي ، ٤١١ — ٤١٢ ، جغرافية دار الاسلام ، الاسلام ، ج٣ ، ١٥٠ — ١٥١ (اقرأ شاذروان) .

(١٠٤) المقدسي ، ٤٤٤ .

(١٠٥) ابن حوقل ، آخر ٢٧٨ — ٢٧٩

او كما تم في تستر التي بنى سابور الملك على نهرها الشادروان ، وهو من اعجب البناء واحكمه ، قد رص بالحجارة ، ورصف كله على اعمدة الحديد ، واستعمل فيه ملاط الرصاص (١٠٦) . وهكذا ينتظم الاستمرار الفارسي ، ويدرك ، ويعبر عنه ، بالماء الممجدة والمروضة .

على تخوم فارس الشمالية : تجاوز حدود الخريطة

وتمتد فارس باتجاه الشمال ، في بعض الاماكن ، مثلما امتدت من جهة الجزيرة . ولم يكتف ملوك ساسان بترك بعض الآثار على سواحل بحر الخزر في مدينة دربند ، فبدل كسرى انوشروان مشهد باب الابواب المحصنة بين جبل القبق والبحر . ومجّد الجغرافيون سورها النازل من الجبل إلى البحر ، والماد على مقدار ميل بعد الشاطىء في البحر ، وسدها المبني بالحجر والرصاص ، المغلق على الماء والمحكم وصيده بعقد ، والسلسلة الممدودة على فم المدخل ، ولا يخرج المركب ولا يدخل الا منه (١٠٧) . واذا اتجهنا إلى الجنوب ابعد من ذلك ، نحو تخوم فارس واذربيجان ، نجد ان مدينة شيز تحتفظ من آثار خلفاء الاسكندر ، بابنية تصاوير تمثل السماء والنجوم ، والارض وثمارها ونباتها وحيوانها (١٠٨) . واذا صعدنا نحو بحر الخزر ، نلقى قلعة سميران ، وعليها صور رائعة لسباع من ذهب وللشمس والقمر . وقد استجلب الملوك المحلبون من شتى البلدان ، باجور باهظة ، خمسة آلاف بناء

---

(١٠٦) ابن خرداذبه ، ١٦٢ ، مسمر (ب) ، ٤٥ ، ابن رسته ، ٨٣ ، المسعودي (م) فقرة ٦٠٦ ، ابن حوقل ، آخر ٢٥٢ — ٢٥٥ .

(١٠٧) المسعودي (م) فقرة ٤٤٢ ، ٥٠٥ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٣ مع احالات اخرى .

(١٠٨) المسعودي (ت) ، ١٣٧ ، تلحق مدينة شيز على الحدود الفارسية الأذربيجانية بالبلدين ، لكن عملياً وفي الواقع ، بفارس في نطاق الدفاع وايضاحه : انظر ابن الفقية ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٨٦ .

اشادوا قربها مدينة ملكية (سلاروند) ، وابقوهم بعد البناء لانجاز تلك الاعمال الفنية (١٠٩) . اخيرا ، بنى احد تابعة اليمن قصرا فخما بين طوس ونيسابور ، وهو في طريقه إلى الصين ، واخفى فيه كنوزه . وبقي كل الناس يجهلونه ، بما فيهم القوافل المارة بجواره ، إلى ان جاء ملك عربي آخر ، سمع بخبره ، فاتى واخذ تلك الكنوز(١١٠)

نظرة عامة إلى الهند المسلمة

في الختام نقول كلمة عن بلدان الهند ، وعن وادي نهر الهندوس على وجه التخصيص ، اي عن اقليم السند ، الهامشي حقا ، بموقعه وثقافته (١١١) . مع ذلك لن تكتمل ابنية دار الاسلام ، اذا لم نذكر هيكل بوذا وتمثاله (١١٢) في مدينة الملتان . ومكان هذا الصنم في قصر مبني في اعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصف الصفارين . وفي وسط هذا القصر قبة ، والصنم فيها ، ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه . وهذا الصنم صورة على خلقة الانسان ، متربع على كرسي من جص وآجر ، علوها عشرون ذراعا ، وعمرها الفا سنة فيما يقال . والبس الصنم جلدا احمر ، لا يتبين منه غير عينيه ، وهما جوهرتان . وعلى رأسه إكليل ذهب ، قد مد ذراعيه على ركبتيه ، وفرق اصابع يديه . كمن يحسب اربعة . ولهذا الصنم اربعة وجوه. كأنه ينظر إلى زائريه مواجهة على

---

(١٠٩) مسعر (ب) ، ١١ ، المقدسي ، ٣٦٠ (و ح ى) ، لا يجوز الخلط بين هذه البلدة والبلدة المسماة باسمها في فارس .

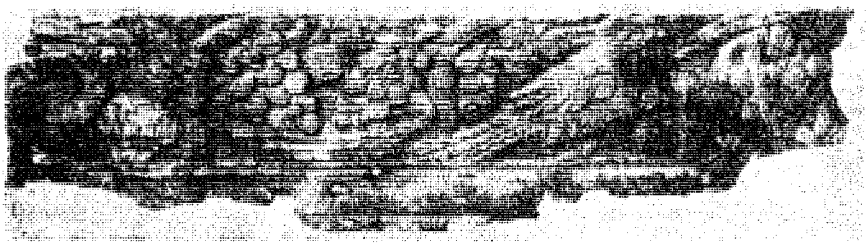
(١١٠) مسعر (ب) ، ٣٩ — ٤٠ . حول اكتشاف اسطوري على يد الفاتحين المسلمين ، انظر المقدسي ، ج٤ ، ٨٨ .

(١١١) لذلك الحق ذكره بالهند : انظر جغرافية دار الاسلام،ج٢،١٢٣ (ح٦) وأماكن اخرى .

(١١٢) انظر الاحالا ت في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٢٣ ، ح٧ .

الدوام ، او يضطرهم إلى رؤيته وجها لوجه ، كما يليق بالاله . فهذا الصنم اله نزل من السموات ، وامر بعبادته.

ولا ريب ان هيكل هذا الصنم يعج بالحياة ، على خلاف ما استعرضناه من ابنية . ويتخلد الماضي فيه بدوام حركة الكهنة والسدنة والناس . وهو غني بضياعه والهبات التي تجلب له في كل سنة اموالا طائلة . وتحج اليه الهند من اقاصي بلدانها ، بعد سنة من المسير واكثر من سنة ، محملين بالهدايا حليقي الرأس ويطوفون حوله سبع مرات من جهة اليسار ، ويتمرغون بالتراب ، ويتقشفون ، ويبترون احد اعضائهم ويقدمون له احدى عينيهم ، وينتحرون احيانا بعصا مدببة يبقرون بها بطنهم . وينذر كهنته وسدنته العفة ، فلا يأكلون اللحم ، ولا يقربونه — وحدهم يقربونه — الا معطرين . اما النساء اللواتي يرقصن امامه زاعمين تقديم الغذاء له، فهن ممتهنات العهر تكريما له في الغالب (١١٣) . وتشجب هذه الحياة التي كلها ثراء واسفار وتعطر وهذيان . وهي مشجوبة فعلا (١١٤) . اما الآن ، فننتقل إلى الحياة ضمن حدود دار الاسلام .



روسم المتاحف الوطنية　　متحف لوفر ، القسم الاسلامي آ آ ١٦٤
جزء من افريز الثمار والطيور . مصر . الحقبة القبطية العربية ، القرن الثامن
الخشب : صنوبر حلب . (تصوير ا . شوزفيل)

(١١٣) انظر الاحالات في المرجع ذاته ، ص ١٢٢ ، ح١١ .
(١١٤) انظر الاحالات في المرجع ذاته ، ص ١٢٢ — ١٢٤ .

القسم الثاني

دار الإسلام

عضوية كبيرة حية

الفصل السادس

تنظيم دار الاسلام

كان المثال الفرنسي ، المقبول حتى العقود الاخيرة في الحد الادنى ، ماخوذا عن نظام نابوليون . وكان تصوره ميسورا من علامة واحدة ، هي الحاحه بشيء من الحنو على ابراز تنظيم الامبراطوريات الحقيقية ، اذا جاز هذا التعبير ، من الاخمينيين حتى امبراطورية سنة ١٨٠٤ ، مرورا بالاسكندر وروما وغيرهما ، باستثناء الامبراطوريات التي لم يكتمل تنظيمها مثلما اكتمل في النظام المتوازن تماما ، حسب الصيغة الشهيرة : « شرطيّ ، محافظيّ ، مطارنيّ » . وبقيت في بعضها الاعراف والانواع المحلية ، فاعتبرت بطيبة خاطر ، رغم حجمها ، امبراطوريات من الدرجة الثانية ، مثل امبراطورية المانية القديمة ، او شارل الخامس ، او النمسة — المجر ، او العثمانيين (١) . اما مملكة الاسلام ، كما يصفها الجغرافيون في عهد العباسيين ، فتشبه

---

(١) انظر بهذا الشأن مفهوم الامبراطورية ، باشراف م . دوفيرجي ، باريس ، ١٩٨٠ ، السعادة بواسطة الامبراطورية أو حلم الاسكندر ، باشراف ج . ب . شرنيه باريس ١٩٨٢ .

المفهومين . فقد اخذت من تقاليد الشرق ومن وريثتها الامبراطورية الاموية بدمشق ، اسلوب نموذج التنظيم الاداري المطبق في ابعد الاماكن من الاقاليم ، الا ان التاريخ فرض عليها تدريجيا ، انبثاق الاعراف المحلية ، والعادات ، واللغات ، والثقافات الاقليمية . اذن ، تدعونا جغرافية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، إلى رؤية صورة متناقضة لها .

التنظيم النظري : موضوع ثقافة عامة

لا نبغي ان نحل محل المؤرخين الذين درسوا قبلنا تنظيم الاقاليم في دار الاسلام . وتنحصر مهمتنا في تبيان ما حفظته منه فنون الادب التي تجاري ذوق العصر اولا ، ثم جغرافية مملكة الاسلام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ففي البدء ، يلاحظ وجود تردد قوي يرتبط بالزمان او البلدان . مع ذلك ، يبدو ان الاساس هو التمييز بين العامل (محافظ) ، المكلف قبل كل شيء بجباية الضرائب ، وبين الامير (حاكم) المسؤول عن الادارة عامة ، وبخاصة الشرطة والجيش (٢) . في جميع الاحوال ، يجدر بنا ان نشير إلى ان ابن الفقيه اغفل تحديد الرقعة التابعة لسلطة الامير ، واكتفى بالتحدث عن العمل الواسع ، بل الواسع جدا احيانا (٣) .

---

(٢) انظر ا . ا . دوزي ، م١(٢) ، ج١ ، ٤٤٧ — ٤٤٨ ، ٤٥١ — ٤٥٢ ، وسورديل ، الوزارة ، الفهرس (لفظ عامل ، عمال وأمير) .

(٣) ابن الفقية ، ١٣٣ ، ١٦١ ، آخر ١٦١ — ١٦٢ ، ٣٢٨ (انظر في نفس الذهنية ، لوائح هؤلاء الموظفين الكبار ، هنا : ولاة ، عند اليعقوبي أماكن متفرقة) . امثلة اخرى : ابن رسته ، ١٨٤ ، اليعقوبي ، ٣١٤ ، قدامه ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ابن حوقل ، ٦٨ ، المقدسي ، ٥٧ ، ٣٠١ (ح ب) ، ٤١٢ .

والكورة (الجمع كور) اصغر من العمل ، وهي مشتقة من اليونانية (خورا) من جذر (خور) الذي يوحي بالاستدارة . ويقابلها فيما يبدو المقاطعة الريفية في التاريخ الفرنسي . وقد وجدت الكورة مستعملة مع اللاذقية وعكا وصور ومدن اخرى (٤) . وتغفل الاقسام بين الكورة والعمل ، او لا تكون دقيقة ، او تعتبر شاذة وورد عند ابن الفقيه ان كور دمشق كثيرة ، وان دمشق وكورها جزء من الشام ، وانها مدينة الغوطة (٥) . والاستثناء خاص بالشام بدقة : الجند ، اي القسم العسكري ، الذي يعيد إلى الذاكرة — وهو اسم الجيش — معسكرات ما بعد الفتح . واجناد الشام اربعة : حمص ودمشق وفلسطين والاردن ، ثم اضيفت اليها اجناد قنسرين والثغور مقابل العدو الرومي (٦) . وفيما عدا ذلك ، صمت تام . ولم يطلق على ما عرف باقليم في المستقبل ، سوى تسمية الصقع (٧) . او علم المنطقة المبحوثة : المغرب ، مصر ، الشام ، ارمينية ، خراسان ... وعلى النقيض ، قد يرد لفظ الاقليم مرادفا عاديا لكورة (٨) .

---

(٤) ابن الفقية ، ٧٣ — ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٩٩ ، آخر ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٤٠ ، آخر ٢٦٢ — ٢٦٤ ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٣، ٣٠٤ ، آخر ٣٢٨ ، و د . سورديل ، م١(٢) ، م٥ ، ٣٩٩ .

(٥) ابن الفقية ، ١٠٥ .

(٦) انظر د . سورديل ، م١(٢) ج٢ ٦١٦ : تتفق هذه التقسيمات مع تقسيمات الامبراطورية البيزنطية ، وتحفظ بها في المصطلحات : انظر ابن الفقية ، ١٠٩ ، ابن رسته، ١٠٧، ابن حوقل، ١٦٨ المقدسي، ٢، ٤، ٩، ١١٤، ١١٥، ٣١٢، ٣١٣ (ح د) .

(٧) ابن الفقية ، ٢٠٩ .

(٨) ابن الفقية ، ١٠٥ ، يحتفظ عن هذه النقطة بتقليد آخر مأخوذ من الجغرافية الادارية ، مثلما سوف نرى : انظر ا . ميكيل ، اقليم ، م١ (٢) ، ج٣ ، ١١٠٣ — ١١٠٥ (مع احالات ومراجع) .

ويستعمل لفظان ، يعتبران من الابدال (مترادفين) ، ويدلان على تقسيم الكورة ، دهما الرستاق والطسوج . وقد تحدد الطسوج في الاصل حسب المساحة المروية ، وقطعا تبعا لشيوعه في فارس القديمة فقد جاء من فارس مثلما اتى الرستاق من العراق (٩) . مع ذلك ، يستبهم المعنى احيانا ، ويبدو ان احد النصوص ، عند ابن الفقيه مثلا ، يجمع في الرستاق كل اراضي ميدية القديمة (١٠) .

ويلاحظ اجمالا وجود نواقص كثيرة ، بخاصة في التقسيمات الكبيرة . والسبب بسيط فيما اظن . بالفعل كيف نسمي احد التقسيمات الكبرى ، اي « الولايات » التي تتألف منها مملكة الاسلام ؟ اذا استثنينا كلمة « عمل » الجارية على السنة الناس،والموجهة بدقة في هذا الاتجاه انما تعترض سبيلنا صعوبة ندركها من خلال ندرة استعمال هذا اللفظ (١١) لن نجد في جغرافية الادب الا لفظا واحدا تضعه المفردات التقنية تحت تصرفنا لنعني به قسما اوسع من الكورة ، وهو لفظ الاقليم . الا ان كلمة اقليم ترمينا بين نارين ، اذا جاز هذا التعبير ، فقد دلت في البدء ، في علم الخرائط والمصطلحات الموروثة عن اليونان ، على احد الاقسام السبعة الطولانية على الكرة الارضية : وهذا القسم كبير جدا

(٩) انظر ف . مينورسكي ، م ١ ، ج ٤ ، ٧٢٧ ، ابن رسته ، ١٧١ ، قدامه ، ٢٣٥ ، وابن الفقية ، ١٩٩ ، آخر ٢٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٦٣ ، آخر ٦٤ ٢٧٤ ، ٣٠٣ . ٣٠٤ . يلاحظ ان رستاق يمكن ان يعني أيضاً ارضاً ينبغي ريها : مسعر (ب) ، ٣٧ .

(١٠) ابن الفقية ، ٢٦٥ .

(١١) مع اغفال الحديث عن وظيفة العامل الذي يحدد ارض العمل ، وعن التخصص الاداري المفرط للعمل : فهو دائرة اختصاص ، وسلطة قضائية ، وليس منطقة حقيقية بالضرورة ، تتحدد جغرافياً .

يتعذر تطبيقه على الرقعة المعنية . من جهة اخرى ، حرصت جغرافية ابن خرداذبه الادارية على الاشارة إلى مجموعات تتحدد جيدا بالتاريخ والطبيعة ، فوضعت يدها على هذا اللفظ المتميز علميا ، ودلت به على الكورة او على قسم منها (١٢) : وبذا رمتنا في الافراط العكسي . واضيفت إلى ذلك كله جميع ابهامات التاريخ المحلي التي كانت تطرأ على حدود « الولاية » المفقودة المنشودة . فالتزمت جغرافية الادب بالا تدل على القسم الواسع الا باستعمال علمه (اسمه) او كلمات عامة مثل بلاد او منطقة (١٣) . فاذا نظرنا إلى جغرافية البلدان من هذه الزاوية ، على نحو ما ابتكره ابن الفقيه وطبقه ، وجدنا انها تمثل موقفا يرفض احتمالات التاريخ والادارة ، ويقنع بما تتصف به المناطق الكبرى في دار الاسلام من خصائص عامة دائمة ، تحبوها اياها الطبيعة ، ويسمها بها البشر كما سوف نرى .

هذا ما ورد في جغرافية الادب عند ابن الفقيه ، ودام حتى المقدسي (١٤) ، في مقاطع من كتابه ، يتحدث فيها ، حسب العرف ، عن ظواهر معروفة . ويميل الادب إلى الاشياء الغريبة النادرة ، ويُعبّر عن هذا النزوع عنده بالاهتمام بالوقائع المحددة جيدا في التاريخ والجغرافية المحليين ، فيحتفظ بعدد من الالفاظ التي تشبه طبقات مترسبة متوارية بعض الشيء ، تابعة إلى طوبغرافية معينة . والشاهد على

(١٢) انظر ا . ميكيل ، مقال مشار اليه ، وما تقدم ح ٨ .

(١٣) بما فيها أحياناً الاقليم المعنى (أو بمعنى اقليم عالمي) ،ابن الفقية ، ٢٥١ .

(١٤) مثال كلمة طسوج في العراق : المقدسي ، آخر ١١٩ . ١٢٠ ، ١٣٣ . انظر أيضاً هذا اللفظ بعد جعله اسم اسماً علماً يدل على رستاق ،عند ابن حوقل ،آخر ٢٦٦ وعند المؤلفين المذكورين عند مينورسكي ، مشار اليه .

ذلك « الربع » (جمع ارباع) الذي يعادل الطسوج في منطقة نيسابور لسبب بسيط بلا ريب ، هو ان هذه الطساسيج تشكل اربع رقع (١٥) ريفية . ويتحدث المقدسي في مكان آخر عن العراق ويستعمل لفظ « المدينة » ليدل عليه ، على غرار ما جرت به العادة في اللغة الآرامية(١٦)

وفي المغرب ، يستعمل ابن حوقل « النظر » بمعنى منطقة (١٧) . وقد تحدثنا عن الرم (١٨) في البلدان الكردية . وفي جزيرة العرب ، في اليمن على التخصيص ، بقيت الوحدة الادارية القديمة المسماة مخلاف (١٩) . اخيرا ، تعرض المفردات الفارسية ثلاثة مصطلحات هي الخن المرادف للربع (٢٠) في منطقة نيسابور ، والاستن (اوستن) اهم منه ، يمثل تقسيما من تقسيمات العراق الادارية الاثني عشرة

---

(١٥) ابن رسته ، ١٧١ (ترجمة ١٩٩ ، ح ١) ، المقدسي ، ٢٧ ، ٣١٦ – ٣١٨ . معنى آخر : احدى المناطق (الأربع) التي تتألف منها الولاية (الاقليم) (ابن الفقية ، ٣٢١ لخراسان .

(١٦) واللغة العبرية أيضاً : المقدسي ، ١٢٦ (س ١) ، انظر أيضاً ج ع ج٤ ، ٢٤١ ، ودوزي ، ج٢ ، ٥٧٥ .

(١٧) ذكره دي خويه ، م ج ع ، ج٤ ، ٣٦٥ (انظر دوزي ، ج٢ ، ٦٨٦) ، استشهاد منعزل في الحقيقة ، لم نجده في المكان المحدد ، في طبعة كرامرز .

(١٨) ما تقدم الفصل ٣ ، يشار أيضاً في اسماء الاماكن المصرية (دون يصرح به الجغرافيون) بـ ا اللفظ القبطي شبر (٥ ، ١ ، و) ، منطقة ريفية (م ج ع ، ج٤) ، ٢٦٩) ، ابن حوقل ، ١٣٨ ، ١٤٠ – ١٤١ ، ١٦١ ، المقدسي ، ٥٤) (ح م) .

(١٩) امثلة عند ابن خرداذبه ، ١٣٣ ، ١٣٦ وما يليها ، قدامه ، ٢٤٨ ، اليعقوبي ، ٣١٧ ، ابن رسته ، ١٨٤ ، ابن الفقية ، ٣٦ ، المسعودي (م) فقرة ٤٩٠ (بمعنى قلعة) ، الهمداني ، ٨٠ – ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٨ – ١٠٢ ، ١٠٤ – ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ٢٠٧ ابن حوقل ، ١٩ ، المقدسي ، ٦٧ ، ٨٨ – ٩٢ .

(٢٠) المقدسي ، ٣٠٠ (تكرر الخانات الأربعة ذاتها فيما بعد ، وتطلق على الأراضي ذاتها ، المرجع ذاته ، ٣١٦ – ٣١٧ ، باسم الأرباع) و م ج ع ، ج٤ ٢٣١ .

وكل تقسيم مجزأ إلى عدد من الطساسيج (٢١) . اخيرا ، يقع لفظ ماه على الحدود بين الاسماء العادية واسماء الاماكن ، ويشكل ولاية ساسانية قديمة في فارس الغربية ، كان يعرف بأنها تؤدي ضرائبها إلى سكان مدينتين عراقيتين كبيرتين اسمهما الاسلام الفتي . وهكذا صارت منطقة نهاوند ماه البصرة ومنطقة الدينور ماه الكوفة (٢٢) .

موضوع ثقافة عامة آخر : لأمحة البلدان والمدن

اولع الادب بالنادر والغريب والطريف ، واضاف اليها نزعة اخرى غذتها فارس من قبل ، في المقارنات او المقابلات او المقايسات . على هذا النحو ، يحوي كتاب البلدان على طريقة ابن الفقيه ، جنبا إلى جنب ، نبذا من تاريخها وجغرافيتها ، ولوائح بفضائلها او مثالبها ، وحسناتها : فلو فتحنا هذا الكتاب ، واحصينا ما فيه من الامثلة ، نقصد اطولها او اوضحها صياغة ، لحصلنا على ما لا يقل عن اربعة عشر مقطعا ، يقابل فيها مدينة بمدينة ، او بلداً ببلد ، او كلها معا بصيغة اسئلة واجوبة ،

---

(٢١) ابن خرداذبه ، ٦ (و ح ١ ، كررها ابن رسته ، ١٠٧) وقدامه ، ٢٣٥ — ٢٣٦ . يلاحظ ان استان صارت في حالة واحدة اسما علما لاحد الطساسيج (مرتين عند قدامه ومنهجيا عند ابن خرداذبه) وانه يشعر بان مرادف لكورة . ويعثر على أحد هذه التقسيمات الفرعية اي الاستان العالي ، عند ابن الفقيه ، ١٩٩ ، والمقدسي ، ١٣٣ .

(٢٢) انظر ابن خرداذبه ، ٢٠ ، اليعقوبي ، ٢٧١ ، ابن رسته ، ١٠٦ (ترجمة ١١٨ ، ح ٧ و ٨) ، ١٦٦ ؛ ابن الفقية ، ٢٠٩ — ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٥٩ (مع اسم آخر : ماه ديناور ، لنهاوند) ، ابن حوقل ، ٣٥٧ ، ٣٧١ ، آخر ٣٧٢ ، المقدسي . ٢٥٨ ، ٣٨٥ ، آخر ٣٩٣ — ٣٩٤ . حول شتى معاني لفظ ماه ، انظر ل . لوكهارت ديناور ، م١(٢) ، ج٢ ، ٣٠٧(٢) ، و م . مينورسكي ، ماه البصرة ، م١(٢) ، ج ٥ . ١٢٠٢ .

او احاجي ، او امثال مأثورة او دفاعات مناوئة ، او نوادر او تعدادات او حكم (٢٣) . فماذا نستخلص من كل هذا ؟ اخبارا حقيقية عن البلدان لو سلمنا بذلك ، لوجب علينا عندئذ ان نعين نسبة المبالغة سلبا او ايجابا ، في تلك اللوائح ، لأن المعطيات ليست علمية ، بل سياسية . باوسع معاني السياسة ، ولا تشكل بيانا ، بل عرض جدل ، يحصل في بقعة عربية ، كالجدل بين مدينتي البصرة والكوفة المتخاصمتين ، او في بقعة فارسية ، كالجدل بشان همذان مثلا ، او اخيرا من مكان إلى مكان .

ولا يبتعد الجغرافيون عن ميدان التقريظ ولهجته ، او عن التقريع الصريح ، الا في لوائح خصائص شتى المدن او المناطق وما تنفرد به . ويقال ان الله اعطى بلطفه كل صقع نوعا من الخيرات ، لتنشيط المبادلات التجارية وتوثيق العلاقات البشرية ، وجعل لوحة الخليقة متوازنة . (٢٤) . ويتمتع هذا الموضوع هو وايضاحاته ، بحظوة خاصة منذ رواد هذا الادب من الجاحظ إلى المسعودي والثعالبي وغيرهم من الموسوعيين واصحاب المختارات (٢٥) .

---

(٢٣) ابن الفقية ، آخر ٧٥ — ٧٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٤ — ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ — ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٦٤ — ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢ — ٢٥٥ ، آخر ٣١٩ ، ٣٢٠ — انظر في مقاطع اخرى المرجع ذاته ، ٢٧ — ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، آخر ١٠٤ — ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، آخر ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٣١٥ .

(٢٤) ابن الفقية ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٦٠ — ٦٨ .

(٢٥) انظر الجاحظ(١) اماكن متفرقة ، اليعقوبي ، ٢٣٦ ، ابن رسته ، ٨٢ — ٨٣ ، آخر ١٠١ — ١٠٣ المقدسي ، ج٤ ، ٦٦ وما يليها ، الثعالبي ، ٩٢ ، وما يليها المسعودي فقرة ٩٨٥ ، انظر الجدول في الترجمة ، ٩٢ ، ح١ .

وطبعا لا ننسى الجغرافيين . لكن لن التحدث الا عن المقدسي ، لأنه بلا ريب افضل من يمثل علما مُوْرِسَ ميدانيا ليصف به دار الاسلام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . فقد رأى على حد قواه ، كتاب ابن الفقيه (خمسة مجلدات) (٢٦) . وهذا بيّن ، لأنه لا يفوته ان ينقد في عمله جغرافية تجاوزها الزمن ، يريد ان يحل محلها جغرافيته هو الخاصة ، الحقيقية . كذلك لا يفوته ان يأخذ عنها عند اللزوم ، ليثبت انه ضليع في ادبه . والدليل النص المنسوب إلى الملك الساساني قباذ بن فيروز الذي يقول فيه ماالمناطق فارس وماعليها.وقد نقل المقدسي منه (٢٧) ما يتعلق بالهواء والتربة والمياه وتصرف البشر ، ولم يجر عليه الا تعديلات طفيفة جدا .

ويأتي النقل احيانا اقل وضوحا ، لكن بديهيا . فلو عدنا إلى ما جاء عند ابن الفقيه(٢٨)،لوجدناه يقول:ان الله خلق العقل وخلق معه المكر واسكنه العراق . وخلق المكر وخلق معه الجفاء ، فاسكنه الشام . وخلق الفقر وخلق معه القنوع واسكنه الحجاز . وخلق الغناء وخلق معه الذل واسكنه مصر . ويقال ريف الدنيا من التمر ما بين اليمن إلى البصرة . وريف الدنيا من الزيتون فلسطين إلى سورية الشمالية (قنسرين) وقالت الحكماء : احسن الارض مخلوقة الريّ ، واحسنها مصنوعة جرجان ، واحسنها مفروقة طبرستان . والاخلاق سيئة في خوزستان . والغدر في اهل الكوفة . ودقة النظر في اهل البصرة . والبخل في اهل

(٢٦) المقدسي ، ٤ ، ٥ (ح١) ، ١٤ ، ٦٨ (ح ف) ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٤١ .
(٢٧) ابن الفقية ، ٢٠٩ – ١١١ المقدسي ٢٥٧ – ٢٥٨ .
(٢٨) ابن الفقية ، آخر ٧٥ – ٧٦ ، آخر ١١٤ – ١١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣، آخر ٣١٩ – ٣٢٠ .

الاهواز . وسوء المعاشرة في اهل بغداد . واهل سمرقند احسن اهل خراسان ضيافة . واهل خوارزم اسوأهم طاعة . واضعفهم رأيا وتدبيرا اهل نيسابور . وادقهم نظرا اهل الري ....

في النهاية ، تسمح هذه الاقوال وكثير غيرها (٢٩) برسم لوحة موحدة ، او متضادة الالوان ، اومتناقضة من مقطع الى مقطع ، لجميع البلدان بلدا ، بلدا او لبلد واحد منفردا . ويحلو التنهيج للمقدسي ، فلا يكتفي في توالي صفحاته بتدوين سيئات الاراضي والبشر (٣٠) وحسناتها ، بل يجمع بعضها في مدخل كتابه بشكل فصل عنوانه « ذكر الخصائص في الاقاليم » (٣١) . ونورد فيما يلي بضعة فقرات تبين إن لم يكن ما اشرت اليه من قبل من وضوح نقل المضمون بالمعنى الضيق ، فاخذ الاساليب والمواضيع ، اذ يقول المقدسي : « اظرف الاقاليم العراق ، وهو اخف على القلب ، واحد للذهن . وبها تكون النفس اطيب ، والخاطر ادق ، اذ كانت كفاية . واجلها ، واوسعها فواكه ، واكثرها علما واجاداً وبردا المشرق . واكثرها صوفا وقزا ودخلا على قدره الديلم . واجودها البانا واعسالا والذّها اخبازا وامكنهازعفرانا الجبال . واكثرها ثمارا وارخصها اسعارا ولحوما واثقلها قوما الرحاب . واسفلها قوما واشرهم اصلا وفصلا خوزستان . واحلاها تمورا واوطأها قوما كرمان . واكثرها فانيذا وارزازا ومسكا وكفارا السند . واكيسها قوما وتجارا واكثرها فسقا فارس . واشدها حرا وقحطا ونخيلا جزيرة

---

(٢٩) انظر الاحالات الواردة في ما تقدم ، حاشية ٢٣ .

(٣٠) انظر ما يلي الفصل الحادي عشر .

(٣١) المقدسي ، آخر ٣٢ – ٣٦ .

العرب . واكثرها بركات وصالحين وزهادا ومشاهد الشام . واكثرها عبادا وقرّاءاً واموالاً ومتجرا وخصائص وحبوبا مصر . وأجودها خيلا واوسطها قوما اقور . واجفاها واثقلها واغشها قوما واكثرها مدنا واوسعها ارضا المغرب . » .

وهكذا بدأ التمرين ، وجرت العودة إلى الاصول وإلى الثقات من ائمة الادب ، وفي هذه الحالة إلى الجاحظ الذي سئل عن البلدان فاجاب باستعراض قائمة امصار ، وقال : « الامصار عشرة ، المروة ببغداد ، والفصاحة بالكوفة ، والصنعة بالبصرة ، والتجارة بمصر ، والغدر بالري ، والجفاء بنيسابور ، والبخل بمرو ، والصلف ببلخ ، والحرفة بسمرقند » . وخلص المقدسي إلى القول ان كلام الجاحظ صدق . واجرى عليه بعض الاضافات . فبدأت لوائح جديدة تناولت معطيات عن الامصار المذكورة عند الجاحظ وعن غيرها او عن بلدان كاملة . وشملت اسطرا كثيرة تحدثت عن الهواء والزروع والمساكن والمحاصيل ، والحرف والسلوك والاخلاق والحضارة والسياسة . وعندما شارف المقدسي على الانتهاء ، شعر بالاسف ، وباشر بعرض تصنيف جديد على اساس اللغة والجغرافية ، فقال : « واعلم ان كل بلد فيه صاد ، فاهله حمق الا بالبصرة . فان اجتمعت صاد ان مثل المصيصة (٣٢) وصرصر ، فنعوذ بالله . وكل بلد نسبت صاحبه اليه ، فلقيت الزاي الياء ، فهوداه ، مثل رازيٍ ومروزي وسجزي (٣٣) . وكل بلد آخره « ان » ، فله خاصية او طيبة ، مثل

(٣٢) الصاد الاولى ليست مزدوجة يؤدي الاداء الناقص الى سد الحرف الساكن ، لا الى ازدواج حقيقي . من أجل الاسماء المنتهية بان (ما يلي) انظر أيضاً المقدسي ، ٤٦٧ .

(٣٣) من أجل هذه الصيغة انظر المقدسي ، ترجمة ٨٠ حاشية ١٨ .

جرجان موقان ارجان . وكل بلد شديد البرد فاهله اسمن واضخم واحسن واكبر لحى ، مثل فرغانة وخوارزم وارمينية . وكل بلد على بحر او نهر فالزنا واللواطة فيه كثير مثل سيراف وبخارى وعدن . وكل بلد يحيط به انهار ، فان اهله شغبا وخروجا ، مثل دمشق وسمرقند والصليف وكل بلد رحب رخي فان المعايش به ضيقة الا بلخ » .

هل نحن بحاجة فعلا إلى القول انه لا يجوز المبالغة في تقدير اهمية مثل هذه اللوائح ؟ فتعداد الاسماء فيها يرتكز على كثير من الابهامات كالقرائن — اللغوية او الجغرافية — المشكوك بصحتها ، وعلى تقويمات تتبدل من مؤلف إلى مؤلف واحيانا من مقطع إلى مقطع عند المؤلف الواحد ، وعلى ضغائن قديمة ضد بلد استقبل المؤلف استقبالا سيئا ، وعلى احياء ذكريات طيبة . يعرض كل ذلك في فوضى مستحبة يسعد بها الادب احيانا . كلا قطعا ، لا شيء يدفعنا هنا إلى استخلاص اي استنتاج ثابت من لوائحها فاهميتها لا تكمن في مضمونها . اوعندما يتم ادخال المدن او البلدان في لائحة ذم او مدح ، يجري تثبيتها على خريطة ، وتكتب جنب اسمائها اهم الاماكن التي كانت في الادب من عناصر الثقافة العامة للبلدان ، ثم صارت في جغرافية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، نقاط ارتكاز معرفة اوسع واعمق . وهذه نظرة بالية إلى العالم ، تتخلد امام اعيننا بوسائل جديدة (٣٤) .

مخطط تنظيم ارضي عام عند الاصطخري وابن حوقل

اتبع المقدسي ذوق اللائحة . فاثبت انه يعرف الاصول . بالتالي

(٣٤) كتاب ج . برونو ، دورة فرنسة من قبل ولدين ، الحلقة المتوسطة ، باريس ١٩٢٥ الطبعة ٣٩١) . الفيلم ، السفر بالمنطاد لا لبير لا موريس (مشاهد جميلة ومفيدة) الاذاعة والتلفاز (العاب) ، الكل تحت عنوان مماثل : ما ينبغي معرفته . . . .

يحق له ان يطالب بوسم مصنفه بسمة الادب ، اي الذوق الرفيع الاجتماعي والكتابي . لكن متى انتهى من هذه المرحلة ، ينفتح المجال امامه واسعا لتقديم تنظيمات مكانية جديدة ، قائمة على الواقع ، والطبيعة ، والتاريخ والمعاينة المباشرة ، اي تتقيد بروح علمية غير معهودة ، مثلما سبق واعلن في مقدمة كتابه .

ونرجع قليلا إلى الوراء ، لنشير إلى ما قام به الاصطخري ، رائد جغرافية مملكة الاسلام . فقد ادخل على مقاربتها تجديدا اولا ، جعلها تقتصر في مصنفه على بحث الاراضي المسلمة . وقرنه بتجديد ثان ، رتب فيه وصفها حسب المقاطعات الكبرى ، التي خص كلا منها بفصل يتضمن كل ما يتعلق بها . وحذا ابن حوقل (٣٥) حذو الاصطخري ، وحافظ على نهجه وتنسيقه . ويعود إلى الاصطخري على وجه التخصيص الفضل في الاعلان بجلاء وبلا ابطاء ، بانه يتخلى عن توزيع الاقاليم اليوناني ، اي عن ترتيب البلدان حسب درجات العرض في نطاقات طولانية بدءا من خط الاستواء . وقال انه يريد ان يربط الاقاليم بالممالك ، يعني انه يتبنى عرض بلدان دار الاسلام على اساس موقعها الارضي في مناطق ثابر على تسميتها اقاليم ، فغير تغييرا كاملا معنى الاقاليم ، والغى مدلوله اليوناني ، واستعاض عنه بمدلول جزء كبير من دار الاسلام (٣٦) . هذا ما طرحه . بوضوح . مع

---

(٣٥) يضاف الى هذه الفصول التي تعالج المناطق الأرضية ، فصول اخرى تبحث في صورة الأرض (المدخل) والبحار الثلاثة : الشرقي وبحر الروم وبحر الخزر ، ومفازة فارس . وتشمل تجديدات ابن حوقل مدخلا مسهبا ومقدمة مستقلة عن نوايا المؤلف . وفصلا خاصا عن صقلية .

(٣٦) الاصطخري — ١٥ .

ذلك لم يتخل الاصطخري كليا ، لا عن التقسيم الاداري المسمى « عملا » الذي لعب دورا في الماضي ، في توسيع الاقاليم او تقليصه ، ولا عن معاني الاقليم الاخرى الطارئة . على هذا الاساس ، استعمل هذا اللفظ ، ضمن بضعة سطور بالمعنى اليوناني وبمعنى الاراضي المحيطة باحدى المدن ، كما في بابل . اما اقاليم دار الاسلام ، فقد عنون بها الفصول ، دون ان تقترن بلفظ اقليم ، واكتفى بذكرها بعلمها او بتسميات عامة مثل بلاد او ارض او تبعية (٣٧) .

وانعكست هذه الابهامات على تفاصيل التقسيمات الارضية وعليها عند ابن حوقل ، وسوف نستعرضها الآن . فقد بدا ، منذ مطلع كتاب صورة الارض (٣٨) ان الفاظ اقليم وعمل وناحية ابدال مترادفة ، تدل على الاقاليم الكبرى في دار الاسلام . وعندما انتقل ابن حوقل فيما بعد إلى الوحدات الارضية الصغرى ، ذكر اصطلاحين هما الصقع والكورة ، وقال : « وقد فصلت بلاد الاسلام اقليما اقليما وصقعا صقعا وكورة كورة لكل عمل » (٣٩) . وتستطيل قائمة الابهامات وتكثر في متن كتاب صورة الارض ، بعد تحديد النهج على هذا النحو . وسوف اعطي بعض الامثلة على ذلك . فعندما يرد الحديث عن افريقية ، اي تونس والجزائر الشرقية على الاجمال ، لا يدقق في وضع التقسيم في داخل المغرب باجمعه (٤٠) . ويقول عن عُمان

---

(٣٧) بلاد ارض ديار الأصطخري ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤٥ (ذكر خراسان) ١٦١

(٣٨) ان حوقل ، ٥ .

(٣٩) ابن حوقل — آخر ٥ — ٦ .

(٤٠) ابن حوقل ، ٦٨ .

انها ناحية ذات اقاليم مستقلة باهلها ، فسحة – يستعمل مصطلح اقليم هنا بمعنى كورة عادية في جزء من اقليم جزيرة العرب (٤١) . ويقول عن الاهواز ، حاضرة خوزستان « الاهواز مدينة تعرف بهرموزشهر ، وهي الكورة العظيمة ، والناحية الجسيمة ، التي ينسب اليها سائر المدن والكور » ، مما يدل على ان كورة وناحية مترادفتان (٤٢) . باختصار ، ترد المصطلحات في متن كتاب صورة الارض في فوضى مطمئنة ، لا تكاد تحدد فيها المراتب عامة ، حتى تخالف بعد قليل (٤٣) .

فهل يجب ان يوجه اللوم إلى ابن حوقل ؟ كلا قطعا . فما يهمه قبل كل شيء هو ما يعاينه : فهو من هذه الزاوية ، لا يمكن الاستغناء عنه على الارجح (٤٤) . ولنصغ اليه بالنسبة إلى ما تبقى (٤٥) « وقد كان يجوز ان تجمع بخارى وكش ونسف كلها إلى السغد ، ولكن افردت لتكون أيسر في التفصيل ، وأخف وليس في جمع هذه

---

(٤١) ابن حوقل ، ٣٨ .

(٤٢) ابن حوقل ، ٢٥٢ (الا اذا كان المؤلف يميز أرضاً اوسع عن ارض اقرب تبعية مباشرة للمدينة ، لكن أيهما لأيّهما) .

(٤٣) ابن حوقل ، ٢٥٢ (اقليم لجزء من خوزستان) ، ٢٦٤ – ٢٦٦ (كور فارس خمس ، مقسمة الى نواحي والنواحي مقسمة الى قرى ، ورساتيق وأعمال ص ٢٦٦ آخرها اقليم يستبدل برستاق) ، ٣٠٨ كرمان ناحية ، والرساتيق مذكورة بين الاقليم والناحية) ٢١٩ – ٢٣٦ (اقليم السند مسمى بلاد ، الناحية تقسيم كبير ، الرستاق والعمل للتقسيمات الصغرى) ، ٤١٨ – ٤٢٠ (اقليم سجستان مسمى ناحية ، وتستعمل الناحية مع الاقليم والرستاق للدلالة على تقسيمات هذا الاقليم) ، ٤٢٦ (العمل والكورة تقسيمات لولاية خراسان المسماة هنا اقليم) ، ٤٣٠ (عمل اطلق على خراسان وما وراء النهر . وعلى تقسيماتهما ، التي تسمى كورا ونواحي مترادفة ، لكن قد تدل الكورة على وحدة الصغر مثل نيسابور) ، ٥٠٣ (اقاليم ما وراء النهر ، تقسيمات هذا الاقليم) واماكن اخرى .

(٤٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٣٠٩ .

(٤٥) ابن حوقل ، ٤٧٥ (وأيضاً ٤٣١) .

الاطراف بعضها إلى بعض ، ولا في تفريقها ، كبير درك ، غير الابانة عما في اعراضها من المدن والانهار ومواقع الكور في صفاتها » . اذن وصف البلدان هو الاساس ، لا ترتيبها على الخريطة او المخطط او في مضمون الكتاب . فقد اعطي لنا ترتيب مناطق دار الاسلام ، الكبرى والصغرى ، على ما هي عليه دون بيان اسباب هذا التوزيع(٤٦) وجملة القول ان ابن حوقل اجرى محاولة — ولم تؤد محاولته إلى نتيجة ، ولا تهمه اصلا مثلما يهمه الواقع الذي يريد وصفه — وبذا يشعرنا بما سوف ينفرد المقدسي وحده بالقيام به ، نعني رسم لوحة تصور البلدان على حقيقتها ،وتفاوت سعتها،وتُعْنَى بمستواها وبما ميّزتها به الطبيعة وابرزه تاريخ اهلها .

لوحة حقيقية معاد تصورها : المقدسي

لم يشأ المقدسي ان ينسلخ عن الماضي ، رغم اصالته ورغبته بالبقاء اصيلا . وقد رأينا انه يشير عرضا إلى التقسيمات الارضية القديمة (٤٧) ولاحظنا انه يتبع التقليد في عرضه العام لسيئات شتى البلدان والمدن وحسناتها في دار الاسلام . الا ان تدوين السيئات نادر ، يضيع في

---

(٤٦) نعتبر بعض التدوينات شاذة ، ولا تدخل في عداد مناهج التفكير . منها ٢٢٥ (طرافة تقسيمات الجزيرة الثلاثة : ديار بكر ، ديار مضر ، ديار ربيعة)، ٣٣١ (جمع اذربيجان واران وارمينية في وصف واحد باسم وحدة السلطة السياسية) ٣٧١) تأمل قصير حول جبال الديلم) ، ٤٥٩ (حدود ما وراء النهر) . بالمقابل يقارن الحاق البلدان أو فصلها عن بعضها بلا بيان سبب معين : ابن حوقل ، ١٦٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ (بشأن الري) ٣٨٠(قزوين موصوفة في اقليمين ، المرجع ذاته ، ٣٦٩) ، ٤١١ ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٧٥ (ترجم من قبل) ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٩٢ ، ٥١١ .

(٤٧) انظر ما تقدم ، الحواشي ٣ ، ٦ ، ١٤ — ١٦ ، ١٨ — ٢٢ .

تضاعيف كتابه . اما الحسنات ، فقد حشرت مع اشياء اخرى في مدخل مصنفه . وبهذه الطريقة ، اصبح المجال مفتوحا امامه ليكتب عمله الحقيقي ، وهو الجغرافية كما يتصورها ، اي وصف دار الاسلام وصفا مبنيا على تقسيم ارضها تقسيما دقيقا ، وعلى استعمال مصطلحات تقنية ملاءمة .

فمملكة الاسلام تشمل اربعة عشرا قليما(٤٨)،ستة منها عربيّة، وثمانية عجمية . فالعربية جزيرة العرب ، والعراق ، والجزيرة ، والشام ومصر والمغرب . والعجمية المشرق (بلدان التبعية السامانية) ، والديلم والرحاب (الران وارمينية واذربيجان) ، والجبال ، وخوزستان ، وفارس ، وكرمان ، والسند . وتضم الاقاليم العربية بادية العرب، واقاليم العجم مفازة فارس . وفي دار الاسلام بحران هما البحر الصيني وبحر الروم ، وفي كل من مجموعتي اقاليمها ، اقليم مزدوج : ففي المغرب جانبا الاندلس وافريقية،وفي المشرق(٤٩) جانبا خراسان وهيطل .

---

(٤٨) يستعمل لها هذا اللفظ بانتظام في متن المصنف وفي عنوان الفصل(ما عدا عنوان جزيرة العرب — ص ٦٧ — الا ان لفظ اقليم استعمل فيما بعد في عنوان الفصل الفرسي المخصص لجمل شؤون الاقليم) .

(٤٩) دون ذكر توازي لفظي المغرب والمشرق . وقسم اليمن ذاته ضمن جزيرة العرب ، الى جانبين بحري وجبلي . حول جميع هذه الكلمات ، انظر المقدسي ٩ — ١٠ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٦٢ — ٦٤ — آخر ٦٧ — ٧٠ ، ٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٩٠ — ٢٩١ ، ٢٨١ ، آخر ٢٨٦ — ٢٨٧ — ٣٠٢ (ح د) . وهناك بعض التدقيقات : فالمقدسي ، آخر ٧ — يقول في مقدمته : كلما قلنا المشرق فهي دولة آل سامان . فان قلنا الشرق اردنا أيضاً فارس وكرمان والسند ، فان قلنا المغرب فهو الاقليم ، فان قلنا الغرب تبع ذلك مصر والشام . الا ان هذا التمييز لم يطبق في متن المصنف الا عرضا : المقدسي ، ٨٥ (ح ز) ٩٢ (س ١١) — ١٩٣ (س ٧) — ٢٠١ (س ١٢) .=

ويتوطد هذا الترتيب شبه الكامل بالنهج المنتظم المتبع في عرض الاقاليم ، الذي يستهل بفقرة رائعة الاسلوب ، مسجوعة ، يحاول فيها المقدسي رسم لوحة البلد المتضادة ، بما لها وعليها ، قبل ان ينتقل إلى التقسيمات الفرعية . ثم يأتي وصف المدن الواحدة تلو الاخرى . ومتى تم تدوين التفاصيل ، يجيء دور فصل عنوانه « جمل شؤون الاقاليم » ، ترد فيه معطيات عامة عن الهواء ، والعملات ، والموازين والمكاييل ، والضرائب ، والعادات ، والطوائف ، والمذاهب ، والقراءات ، والمحاصيل وما ينفرد به كل اقليم ، والعجائب ، والمياه ، والمعادن ، والجبال ، والتقويم ، والمشاهد ، والسلطة السياسية والمسافات وقطعا ، لا تكتمل هذه اللائحة في جميع الاقاليم ، ويختلف ترتيب عناوينها ما عدا المسافات ، فانها توضع في الاخير . لكن يحافظ المنهج على ما هو اساسي في جميع الفصول ، ويستعرض الكيان الاقليمي في كل مرة ، في تقديم مماثل ، واضح تبعا لذلك . وهكذا يسود النظام ، ويتجه إلى الاعلى لتتكون من الاقاليم الاثني عشر ، مملكة اسلام متوافقة ومتوازنة ، وإلى الاسفل ايضا في تشابك الاقاليم ذاتها (٥٠) .

لكن لنتبصر في مراتب التقسيمات الارضية . فالاقليم ينتشر حول

=وبين اقاليم العرب غير المغرب ، بادية العرب (المقدسي ، ٢٤٨) . وبين اقاليم العجم – الا الرحاب وخوزستان مفازة فارس الكبرى (المقدسي ، ٤٨٧) . وليس للمغرب والمشرق مصر واحد مثل سائر الاقاليم ، بل مصران لكل جانب مصر : فللمغرب قرطبة والقيروان ، وللمشرق نيسابور وسمرقند . ولجزيرة العرب مصران أيضاً : مكة وزبيد لجانبي اليمن . أخيرا لدينا اثر آخر للتوازي المغرب المشرق « نيسابور أجل اعمال افريقية بالمغرب » (المقدسي ، ٣٠١ ، ح ب) .

(٥٠) نظام مذهل جداً اذا قورن بنهج ابن حوقل المتبدل .

مصره ، ويتقسم إلى عدة كور . وتحكم قصبة الكورة عدة مدن (٥١) . ويبقى الرستاق والناحية على حده . فالرستاق صغير جدا لا يصح ان يشكل كورة لوحده . مع ذلك يتمتع ضمن الكورة بمكانة خاصة : مثال واحة الغوطة وحوران لكورة دمشق (٥٢) ، والناحية اوسع من الرستاق ، الا ان وضعها يشبه وضعه بالنسبة إلى الكورة او الاقليم . : مثل بلد مرو في خراسان ، احد جانبي المشرق (٥٣) مثلما مر معنا . اما الشيء الجوهري ، اي المراتب ، فتبقى قائمة ، ويقول المقدسي : « اعلم انا جعلنا الامصار كالملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة » (٥٤) ويستأنف المقدسي (٥٥) كلامه عن المصر ويقول : « وقد اختلف في الامصار . فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ، ويحله امير ويقوم بنفقته ، ويجمع رستاقه مثل عثر ونابلس وزوزن . وعند اهل اللغة . المصر كل ما حجز بين جهتين مثل البصرة والرقة وارجان . والمصر عند العوام ، كل بلد كبير جليل مثل الري والموصل والرملة . واما نحن ،

(٥١) المقدسي ، ٩ ، آخر ٤٧ .

(٥٢) المقدسي — ٧ — ١٥٤ واماكن اخرى .

(٥٣) المقدسي ، ٤٧ — ٨٠ آخر ١٤١ ، ٢٩٥،١٤٢ واماكن اخرى . هذا التصنيف ليس مضمونا على الدوام (البقاع معتبرة رستاق أو ناحية : المقدسي — ١٥٤ . وسجستان جزء كبير من المشرق — يسمى مع ذلك كورة ، تابعة أحياناً لكورة نيسابور : المقدسي — ٢٩٧ — ٢٩٩) ، ويعترف المقدسي أحياناً بتردده : المقدسي ، ٣٠٩ (ح ١) .

(٥٤) المقدسي — ٤٧ — انظر أيضاً ١٥٦ ، ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٥٥) المقدسي ، ٤٧ ، حول مصر واقليم انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٨٤ ، ١٩٧ ، آخر ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ٤٢٣ ، ٤٧٥ (هنا امصار بمعنى مدن كبيرة) . حول تعريف آخر للمصر ، انظر ابن الفقية ، ٥٧ (ترجمة ٧٢ ح ١) .

فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم ، وجمعت اليه الدواوين(٥٦) وقلدت منه الاعمال ، واضيف اليه مدن الاقليم مثل دمشق والقيروان وشيراز » .

هذا النص اساسي لتعريف المصر الاقليم . فلو رفضت الصورة التاريخية ـ نسبة إلى التاريخ ، بمعنى الماضي الغابر ، اي المدينة التي اسسها الفاتحون المسلمون ليسيطروا على احدى البلاد ، وينطلقوا منها في حملات حربية اخرى تستهدف فتح اماكن جديدة ابعد منها ، مثالها البصرة الواقعة على تخوم الارض العربية ، وميزتها انها تقابل فارس . ومثالها وقياسا عليها ، الحواجز الموضوعة في الرقة وارجان ، بين الشام والجزيرة ، وبين خوزستان وفارس . بعد هذا الايضاح ، نقول ان المقدسي اخذ عن التعريفين الباقيين ، فاحتفظ من الاول بفكرة المركز الاداري والارضي ، ثم رفض المدن الصغيرة التي قصد من ذكرها (٥٧) رفعها إلى مستوى المدينة الكبرى المعروفة بين الناس ، ووضعها في اعلى سلم السلطة العليا ، والاقليم ـ لا في الرستاق .

وتفيد المدن الثلاث ، الواردة في آخر النص (دمشق ، القيروان ، شيراز) كثيرا في تعريف الاقليم . فالسلطة العليا المنوه بها لا يمكن ان يقصد بها شيراز لأنها كانت آنذاك خاضعة لاسرة البويهيين التي امتدت سيطرتها حتى بغداد ، ولا دمشق التي كانت مقر الخلافة ولم تعد مقرّها ولا القيروان التابعة لحكم الفاطميين في الفسطاط . اذن يجوز الاستنتاج

---

(٥٦) دواوين : سجلات و ، أو ، مكاتب . انظر أيضاً المقدسي ، ٤٢٣ .

(٥٧) عشر ، نابلس وزوزن مدن من جزيرة العرب (على حدود الحجاز واليمن) وفلسطين وقوهستان (بين سجستان وخراسان) .

— الذي تؤيده قراءة احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (٥٨) ، والاحتفاظ عمليا باربعة عشر اقليما — ان الاقليم منطقة طبيعية قيض لها في فترة تاريخية ، اما ان تبسط سلطتها المطلقة على مناطق اخرى ، واما ان تمارسها على ارضها في الحد الادنى ، وفي أسوأ الاحتمالات ، نيابة عن سلطة مركزية خولتها اياها .

ولا يكتفي المقدسي بتحديد اسس تعريف الاقليم ووجوده ؛ بل يحاول ان يبرز بدقة في كل اقليم ، صفات مميزة ، تؤهله لاحتلال مكانته . فكأني به يلبس اقاليمه الاربعة عشر لبوسا استعراضيا تزداد قيمته بلمسات دقيقة خاصة تشبه قليلا الاوسمة او الشعارات الرفيعة . اتغاضى عن مقاطع لا تحصى يثبت فيها المقدسي خريطته او يحدد

---

(٥٨) من أجل ذلك يمكن العودة الى التاريخ وفي المصنف ذاته ، الى جدول الولا يات التي يحددها المؤلف لكل اقليم . جزيرة العرب : مركز الاسلام الديني ، ومركز سياسي في عهد الرسول وفي عهد خلفائه مباشرة ، حتى لو تجزأت السلطات فيهما في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (المقدسي ، ٦٧ ، ١١٤) . العراق : مركز الخلافة العباسية (المقدسي ، ١٣١ — ١٣٣) . الجزيرة (اقور) : لا عنوان عن الولايات ، لكن مقر السلالة الحمدانية (انظر المقدسي ، ٣٧٥) . الشام : مقر الخلافة الأموية . في القرن ٤ هـ / ١٠ م : السلطة موزعة بين الفاطميين (الفسطاط) والحمدانيين (المقدسي ، ١٨٩) . مصر : « قبة الا سلام » الخلافة الفاطمية (المقدس ، ١٩٣) المغرب : الأمويون في الأندلس سلطات متفرقة في غيرهم ، ثم الفاطميون (المقدسي آخر ٢٢٧ ، ٢٣٤—٢٣٥) . المشرق : قلنا إن المقدسي يعني به التبعية السامانية (المقدسي ، آخر ٧ ، ٣٣٧—٣٣٩). الديلم : البويهيون (المقدسي آخر ٣٧٠) . الرحاب (ارمينية ، اران ، اذربيجان) : حالة خاصة : حدث الجمع هنا بهذا اللفظ الوحيد (رحاب : جبال) باسم هامشية مشتركة (بلدان ثغور ضد العدو) لا يمكن الاجتماع بالسلطة هنا (المقدس ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ . لكن (انظر ابن حوقل ٣٣١ : الوصف ككل باسم وحدة السلطة في هذه المناطق) الجبال : البويهيون (المقدسي ، ٣٩٩ — ٤٠٠) خوزستان : لا عنوان خاص ، لكن تخضع لسلطة البويهيين (المقدسي ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٩) . فارس : البويهيون (المقدسي ، ٤٤٩) . كرمان : السلطات متفرقة قبل البويهيين ، التابعين للسامانيين (المقدسي ، ٤٧٢) . السند : سلطات مستقلة أو تبعية بعيدة للعباسيين والبويهيين والفاطميين (المقدسي ، آخر ٤٨٤ — ٤٨٥) .

تخومه ، او يبرز الحاق هذا البلد او ذاك بهذا الاقليم او ذاك (٥٩) . والفت النظر إلى ما فيه مزيد من الاقناع : فالمقدسي يستهل كل فصل ببضعة اسطر يصف فيها الاقاليم كما قلت. كذلك يفعل في مطلع العرض الموسوم « جمل شؤون الاقاليم » ، وفيه تعداد الخصائص الاساسية التي تتألف منها قسمات البلد الاصلية .

اخيرا ، وعلى وجه التخصيص ، يتدخل الجغرافي ، باوسع مدلول هذا اللفظ ، ويحلّق احيانا فوق الاقليم من علو شاهق ، ليصف منظر الارض الطبيعي . وهنا تتجلى اصالة المقدسي في تدويناته ، سواء اعلن عنها بعنوان « وضع الاقليم » ، ام لم يعلن — دون غيرها على الارجح . وقد حللتها في دراسة اخرى (٦٠) . واوجز الآن الاقاليم المحلق فوقها (٦١) فقط . فمثل جزيرة العرب كمثل صُفّة وضع فيها سرير ، تنتصب جبالها على واجهاتها البحرية الثلاث كالحيطان ، وتقابل البادية

(٥٩) بشأن هذه النقاشات أو التدقيقات عن تحديد الأقاليم ، أو غيرها من البلدان أو الأنظمة المتنوعة المتعلقة بالمدن في علاقتها بالبلدان المتسلطة عليها ، وكلها تعتمد على كثير من الحجج التاريخية أو الجغرافية أو اللغوية أو الشرعية ، انظر المقدسي ، ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، آخر ١٧٨ — ١٧٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، آخر ٢٨٩ — ٢٩٠ — ٢٩٨ — ٣٠١ (ح ب) ٣٠٩ (و ح ١) ٣١٣ (ح د) ٣٥٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ — ٣٨٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ — ٤١٣ ، آخر ٤٢١ — ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٧٢ — ٤٧٤ — ٤٨٤ وأماكن متفرقة .

(٦٠) الأهم في الحد الأدنى في «بعض نصوص المقدسي عن تقديم اقاليم دار الاسلام : الجغرافية والذهنية » ، دراسات عربية . تحليل ، نظريات ، عدد خاص ١٩٧٩ (٢ / ٣) ص ٢٧٧ — ٣٠١) .

(٦١) المقدسي ، ٩٤ — ٩٥ (جزيرة العرب) ، ١٢٤ (العراق) ، ١٨٦ (الشام) ٢١٢ (مصر) ، آخر ٣٠٦ (جزء من خراسان وسجستان) ، آخر ٣٥٣ (الديلم . ٤٤٧ — ٤٤٨ (فارس) ، ٤٧١ — ٤٧٢ (كرمان) ٤٨٤ (السند) .

باب الصفة من الجهة الرابعة الحرة المفتوحة .. والعراق محصور بين نهري دجلة والفرات اللذين يرويانه ، ويرنو إلى البحر الذي يصبان فيه . والشام اربعة صفوف . فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل . والصف الثاني الجبل . والصف الثالث الاغوار (الارنط،البحر الميت). والصف الرابع سيف البادية (٦٢) . ومصر قريبة من نموذج الشام . ففيها خمسة صفوف ، هي وادي النيل ، محور الصفوف ، الذي يحف به من جانبيه سلسلة جبلية تقع على تخوم الصحراء ، وتنخفض جميع الصفوف في الشمال في الدلتا المستوية الممتدة على وتيرة واحدة ، التي تؤلف ما يشبه رأس هذا الاقليم المستطيل . وتشمل البلاد الممتدة من بلخ في خراسان إلى سجستان ، مرورا بغزنه في افغانستان ، اربعة صفوف متعرجة . والديلم اقليم جبال عالية تحتضن قوسها بحر الخزر . وتقسم فارس إلى ثلاثة اقسام طولانية مناخية : ففي الشمال الصرود الباردة ، وفي الجنوب الجروم الحارة ، وبينهما الجزء المعتدل . ويشبه تقسيم كرمان تقسيم فارس ، الا ان جرومها ثلثا اقليمها . اخيرا شرقي اقليم السند بحر فارس ، وغربيه كرمان ومفازة سجستان واعمالها ، وشماليه بقية بلاد الهند ، وجنوبيه مفازة بين مكران وجبال القفص .

قلنا من قبل ان الاقليم يقسم ، بعد المصر ، إلى عدة كور ، تسيطر كل منها على عدة مراكز او مدن . ولم يطلق اسم خاص على الارض التابعة للمدينة ، لكنها تضم عدة قرى . والمهم هنا تحديد الفرق بين

---

(٦٢) توزيع تحققه دائرة الأرض المقدسة : انظر ما تقدم الفصل الأول و « بعض نصوص . . . » مقالة مشار اليها ص ٢٧٩ — ٢٨١ .

القرية والمدينة . ويتحدث المقدسي عن بلاد بخارى ، ويقول (٦٣) : « وههنا قرى كبار ، لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها (٦٤) الا الجامع » . ويقول في مكان آخر (٦٥) : « ولم تكثر مدائن مصر ، لأن اكثر اهل السواد قبط (٦٦) ولا مدينة في قياس علمنا هذا الا بمنبر » . وهنا جوهر الموضوع : فالمدينة لا يعترف بها مدينة الا اذا كانت احد مراكز السلطة عن طريق مسجدها الجامع ، ومنبرها الذي يذكر من اعلاه في صلاة الجمعة الجماعية اسم من يتولى الحكم من مكان بعيد او قريب .

لا شك ان هذه القاعدة تحتمل بعض الاستثناءات ، كما في فلسطين في بعض القرى — من امثال اللدّ ، وكفر سابا ، وعاقر ، او يُبْنَا ، او عماوس ، او كفر سَلاَّم . وهذه قرى جليلة ذات منابر « اعمر واجل من اكثر مدن الجزيرة . وهي مذكورة . غير انه لما لم يكن لها قوة المدن في الآئين ، ولا ضعف القرى في الخمول ، وتردد امرها بين الرتبتين ، وجب ان نستظهر بذكرها ، ونبين مواضعها » (٦٧) . مع ذلك ، يعود المقدسي إلى مبادئه بعد عرضه الاستثناء السابق لصالح

---

(٦٣) المقدسي — ٢٨٢ .

(٦٤) الات : ربما مرتكزات المعرفة والثقافة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٢ و دوزي ، ج١ — ٤٤ .

(٦٥) المقدسي ، ١٩٣ . انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٤٠٩ (و ح ى آخرها)

(٦٦) ورد في النص السواد أي البلاد المزروعة ، المزارع .

(٦٧) المقدسي، ١٧٦ . انظر أيضاً ١٥٥، ٢٦٧ (ح ج :ذكر قرى أهم من المدن) والحاشية التالية .

موطنه ، ويقول (٦٨) : « ربما نذكر مدنا هي اصغر من قرى كثيرة في اقاليم أُخرَ . ولكنها مشهورة في المدن . وعلمُنا موضوع على التعارف . الا ترى ان مخا والجامعين والمنيفة مدن بلا نزاع . وكفر سلام وقصر الريح ورأس التين اكبر منهن ، وهي قرى بلا خلاف (٦٩) واعلم ان الكورة لا تجل بكثرة مدنها ، ولكن بجلالة رساتيقها (٧٠) . الا ترى جلالة نيسابور أوبخارى مع قلة مدنها ، وإلى بثيس زبيد وهجر (٧١) مع كثرة مدنهما ».وندرك الآن ان العبرة واضحة . فعظمة احد البلدان ترتبط بسببين : ثروتها الناشئة من القرى والحقول المغذية ، ثم السلطة التي تعتمد على المدينة وجامعها ومنبرها .

هذه هي الجغرافية ، ذلك العلم الذي يفهمه المقدسي على هذا النحو ، ويطبقه . فمملكة الاسلام مؤسسة عامة تزهو باقاليمها الاربع عشرة ، التي يقابلها اهتمام ينصب على تفاصيل ما في كل اقليم . ونود اعطاء بعض الامثلة الاضافية في الختام . فنذكر دوما الحرص على

---

(٦٨) المقدسي ، ٢٢٨ ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٧١ : « واكثر مدن هذه الجزير صغار لكنها على انين المدن » ١٢١ (ذكر مدن العراق الخالية من البهاء ، الشبيهة ببعض قرى فلسطين) .

(٦٩) الأسما الثلاثة الاولى مدن الاولى مخامن جزيرة العرب والثانية الجامعين من العراق والثالثة مجهولة (يقترح دي خويه الكسيفة ، بين البحر الميت وبئر سبع الحالية : انظر المقدسي ، ١٧٣ ، ح ى ، و ٢٥٦ ، ح ب ، لكن لا يرد هذا الأسم الأ في لائحة المدن الشامية المذكورة عند المقدسي ، ١٥٤ – ١٥٥ . ويذكر معجم البلدان لياقوت ج٥. ٢١٧ بهذا الأسم واسم المنيف منهلاً أو قلاعاً في جزيرة العرب). والأسماء الثلاثة التالية قرى في فلسطين (ذكرت من قبل) وفي منطقة نيسابور ، والثالث مجهول أيضاً (رأس في برقة يحمل هذا الأسم حالياً) .

(٧٠) يبدو ان الرستاق وقراه أصبح تقسيماً نظامياً في الكورة .

(٧١) كور جزيرة العرب ، وزبيد (انظر ما تقدم حاشية ٤٩) أحد مصرى الاقليم حول مدن جزيرة العرب ، المعتبرة مدنا رغم حجمها ، انظر ما تقدم الحاشية ٦٨ .

تحديد الاراضي (٧٢) ، وتدقيق تبعية المدينة ، ونطاقها ، والبلد الذي يحيط بها ، فيؤلفان معا رقعة واحدة (٧٣) . واذكر ايضا الحرص الذي يميز وراء التصنيف الرسمي — والمعتبر رسميا عند المقدسي — اي المصر ، القصبة ، المدينة ، القرية ، مراتب اخرى ، لا تتفق دوما معه ، اقصد الترتيب حسب الحجم والثروة ، الذي تدل عليه تفاصيل جمة مثل المدن الامهات او الاساسية او الاولى التي يعثر عليها هنا وهناك (٧٤) .

وتعتمد مصطلحات المقدسي (٧٥) احيانا على الاعراف المحلية . ففي خراسان مثلا ، بل في بلدة نيسابور بدقة ، يبدو ان خزانة (حرفيا اهراء) تدل فعلا بالنسبة إلى المدينة الكبيرة ، على قسم اداري يؤمن لها الغذاء (٧٦) . اخيرا الاندلس (٧٧) . مثال آخر . فالمقدسي لم يزرها ، ويعترف بعجزه عن تكويرها (٧٨) . لكنه لا يعلن عن

---

(٧٢) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٩ .

(٧٣) رقعة : المقدسي ، ٢٦٦ (س ٩) ، ٢٧٣ (ح بي) ، ٢٧٥ (س٥ و ١٢). جمع ، جامع المقدسي ، ٩ (ح لا م) ، ٤٧ ، س ١٠) . قام (بنفسه ، بنفقته) لمرجع ذاته و ٣٠١ (ح ب) .

(٧٤) امهات من أجل المدن والقرى والتقسيمات الادارية : المقدسي ، ٤ (س ١٢) ٢٩٨ (س٧) ، ٣٠٦ (س ١١) . أصل : المقدسي ، ٢٧١ (س ٦) ، ٢٩٨ (س٧). قائد المقدسي ، ٢٧٠ (س ١٥) .

(٧٥) انظر ما تقدم ، التنظيم الاداري . . . الحوثي .

(٧٦) المقدسي ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ — ٣٠١ (ح ب : جعلت خزانة معادلة لخزانة) ٣١٢ ، ٣١٩ (ح ج) .

(٧٧) عن تنظيمها الاداري ، انظر ليفي بروفنسال ، تاريخ الأندلس المسلمة . باريس — ليدن . ١٩٥٠ و ١٩٦٧ — ٣ مجلدات انظر م٣ ، ٤٧ وما يليها .

(٧٨) المقدسي ، ٥٧ — ٢٣٥ .

هزيمته تماما ويقول ان بعض الاندلسيين حدثوه ان في الاندلس (٧٩) ، اضافة إلى بعض النواحي ، ثلاثة عشر إلى تسعة عشر رستاقا ، تعادل بالتالي الكور ، وتقسم إلى اقاليم اي رساتيق حسب نظام المؤلف (٨٠) .

لقد اودت الاحداث بتقسيم دار الاسلام إلى اقاليم على النحو الرائع المعروف . ولم يعد لرقعتها الواسعة عاصمة واحدة ، بل ثلاث عواصم وثلاث خلافات متخاصمة في قرطبة والفسطاط وبغداد ، يضاف اليها التوتر بين اقطاب السلطة الثلاثة وقطب رابع هو قطب الايمان في المدينتين المقدستين مكة والمدينة . ونغفل ذكر السلالات المحلية . فقد تجزأت دار الاسلام سياسيا ، لكنها سوف تصمد : قطعا لا كجماعة تحكمها سلطة موحدة او تتطلع إلى الوحدة ، بل كدنيا حية . بهذا المعنى ، يعدّ مصنف المقدسي نموذجيا . ويؤول تركيبه الكامل إلى التغلب على الواقع ذاته ، لأن البلدان الاربعة عشر ، المقدمة لنا ، تمثل اعلان مبادىء ، وتنبؤنا ان بقاءها يساعد التاريخ والجغرافية ، عند اتحادهما ، على تجاوز تقلبات التاريخ بمفرده . ثم ان هذه الاقاليم المسلمة الاربعة عشر ، ليست بلدانا منعزلة رغم اصالتها . فمن خلالها تتراءى دنيا دار الاسلام او مملكة الاسلام اشبه بهيئة عظيمة كلها حياة ، تضم مدنا وطرقا تنقل عليها السلع والاخبار والثقافة والنظام الاجتماعي . ويبدو ان تنظيم دار الاسلام يكمن في النهاية في الصلات القائمة بين المسلمين على الارجح .

* * *

---

(٧٩) يسميها المؤلف هنا ناحية : المقدسي ، ٢٢٣ .

(٨٠) المقدسي ، ٢٢٣ — ٢٣٥ — ٢٣٦ .

الفصل السابع

الطرق البرّية والمائية

ادرك موريس لومبار جيدا ان مملكة الاسلام ورثت اراضي امبراطورية الاسكندر والنصف الجنوبي من اراضي الامبراطورية الرومانية ، وربطت الشرق الاقصى بحوض البحر المتوسط (١) . ومثلت منطقة ممرات حيوية : بين الاندلس والمغرب وبين البحر المتوسط والبحر الاحمر عبر البرزخ المصري او بين بلاد ما بين النهرين التي تعتبر مفترق طرق اخرى تذهب إلى روسية الأنهار الكبرى او إلى الصين : نعني طريق الحرير الشهيرة . فمن الشمال إلى الجنوب ، ومن الغرب إلى الشرق ، تعد الامبراطورية العربية الاسلامية عالما واسعا يمتد على البر وعلى البحر ، لا كحيزين مغلقين ومنعزلين احدهما عن الآخر ، بل على النقيض ، كحوزين يحل فيهما ، عند بلوغ البندر ، هنا وهناك ، شق السفينة عباب الماء محل تصاعد الغبار وراء القافلة.

---

(١) م . لومبار ، الاسلام في عظمته الاولى ، باريس ، ١٩٧١ ، المدخل الفصول ١ — ٣ .

على البحار الشرقية

ولكل مقام مقال . فلا بد لنا ان نبدأ بحثنا بالحديث عما يمكن تسميته الجادة الامبراطورية الذاهبة من العراق إلى بحار الشرق الاقصى . فقد ازدهرت تجارتها البعيدة العظيمة ، ينشطها استهلاك المدن الكبرى الواقعة في بلاد ما بين النهرين مثل بغداد وسامراء ، ثم تقهقرت قليلا في اعقاب نشوب الاضطرابات في الصين ، لكنها بقيت في نهاية الامر منتعشة ترتكز على البصرة « فرضة البحر ومطرح البر » (٢) ، وتحمل سلعها إلى الهند وإلى شبه جزيرة ملقة وما وراءها . وقد سبق واشرت في مكان آخر إلى مراحلها واخطارها وجزرها العجيبة بعض الشيء ، وتجارها وبحارتها (٣) . لذلك اكتفي هنا بقول كلمة وجيزة عن بذخها الاسطوري الذي يظل السندباد البحري رمزا له حتى في ايامنا . ويقول المقدسي عن تجارة الشرق الاقصى : وبتجارات الصين تضرب الامثال ، ثم قولهم : جاؤوك تجرا او ملكا (٤) .

وتتمم طرق فرعية المحور الحيوي السابق : اولاها طريق البحر الاحمر التي تمون المدينة ومكة ، المركزين المدينيين الكبيرين اللذين يزدحمان بالسكان ابان الحج . وتستقبل فرضتا الجار وجدة السفن القادمة من القلزم وويلة في اقصى الخليجين اللذين نسميهما اليوم خليج

---

(٢) المقدسي ، ص ١٢٨ .

(٣) جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ٧١ وما يليها .

(٤) المقدسي ، ص٩٧ ، في حديثه عن المرافئ العربية الا ان هذه الصيغة صحيحة اجمالا



(تصوير رولان وسبرينة ميشو / رافو)
طريق الحرير : قافلة على جسر تشكرغان في آسية الوسطى

السويس وخليج العقبة (٥) وتضاعف حركة سفن اخرى حركة طريق

---

(٥) اليعقوبي : ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٤٠ . المقدسي : ٧٩ ، ٩٧ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ٢١٥ . تسمى جدة والجار « خزانتي مصر » ، أي انهما تقدمان أغذية مستجلبة من هذه البلاد . وتسمى ويلة » فرضة فلسطين وخزانة الحجاز والقلزم خزانة مصر وفرضة الحجاز ومغوثة الحاج » . ويمكن فهم تعبير خزانة مصر في هذه الجملة بمعنى ان مصر تزود بالأغذية أو تزود غيرها بها ، وفي جميع الأحوال ، بمعنى مرور الأغذية ، لأنه ورد في مكان آخر ان القلزم بلد قديم يابس عابس (المقدسي : آخر ١٩٥ – ١٩٦) . ويعثر على نص يثير الاهتمام عند السيرافي ، ١٣٠ : جدة فرضة تنقل فيها حمولة السفن الكبيرة القادمة من سيراف الى سفن صغيرة ، يسهل عليها تحاشي الصخور والسفر بين جدة والقلزم .

البحر الاحمر او تمددها . فالملاحة الشاطئية تستمر بعد جدة مجارية جميع سواحل جزيرة العرب حتى البصرة وتتميز فيها (٦) بعض النقاط الهامة ، كالفرض التي تخدم الداخل ، وكالممرات الصعبة ايضا ، والطحال ، والاقنية الضيقة الخطرة ، والدردورات ، والصخور الناتئة ، والمضايق المعرضة لمهاب الرياح ، وتتتابع كلها من المكان الذي غرق فيه فرعون إلى الخشبات القريبة من مشارف البصرة . فهنا ، في هذا المكان الخطر إلى اقصى حد ، يسافر اربعون مركبا فيرجع واحد ، فيما يقال . وفيه اغرقت احيانا مراكب مليئة بالحجارة لتخفيف الدوارات الناشئة عن التقاء مياه الأنهر الكبرى بمياه البحر . ونصبت احيانا اخرى جذوع عليها بيوت ، ورتب فيها قوم يوقدون النار بالليل لكي تتباعد عنهم المراكب .

ولجزيرة العرب الجنوبية ، بحد ذاتها ، ادوار اخرى غير دورها كموضع مراحل على الطريق الذاهبة من مصر إلى العراق . فهي تستقبل السفن التي تأتي اليها باستمرار من اثيوبية الغربية (٧) . من ناحية اخرى ، يوصف لنا بندراها الكبيران ، عدن اليمنية وصحار العمانية ، ويقال أنهما « دهليزا الصين » ، « وخزانتا الشرق والغرب » ، ومغوثتا العراق واليمن ، « وفرضتان عالميتان » اجمالا : اذن لهما دور دولي ، خاصة باتجاه عرض البحر الفسيح ، مقابل آسية البعيدة (٨) . الا ان

---

(٦) المسعودي (م) : فقرة ٢٤٢ ، ٣٦١ – ٣٦٢ . ابن حوقل : آخر ٤٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ . المقدسي : ١١ – ١٢ ، ٧٩ ، ٨٦ .

(٧) المسعودي (م) : فقرة ٨٧٧ .

(٨) اليعقوبي : ٣١٩ . ابن خرداذبة : ٦١ . المقدسي : ٨٥ (والحاشية ز) ، ٩٢ ، ٩٧ (حاشية هـ) . انظر أيضاً بالنسبة الى ساحل الخليج الفارسي والمرافئ الواقعة بينه وبين الهند : ابن حوقل : ٣٠٩ ، ٣١١ ، المقدسي : آخر ٩٣ ، ٤٢٦ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

جزيرة العرب تشكل ايضا منطلقا او مرحلة لطريق اخرى تقود إلى متاجر افريقية الشرقية ، في بلاد الزنج معدن الذهب والرقيق (٩) ، التي تدفع هي ايضا إلى رؤية اجن الاحلام . ولما دخل المقدسي عدن ، تذكر ما قيل له عن هذه البلاد من ان تاجرا دخلها بماية دينار فرجع بخمس ماية . وذهب اليها تاجر آخر بالف درهم فرجع بالف دينار .. فها هو يقع في هوة الضلال الذي يصده عن طريق الورع والخلاص . وتبدو له عدن تماما مثاما وصفت له بل اشد اغراءا . ويغره الشيطان ، فيقرر هو ايضا ان يذهب إلى بلاد الزنج ايجرب حظه . ويعد نفسه ويعاقد شريكا يموت . فتزول الغشاوة عن عينيه ، وينقذه الله (١٠) .

بحار اخرى على الاجمال وبعض الانهار

قد يقال مرة اخرى ان غرب مملكة الاسلام يتحمل نتيجة هامشيته في نظر جغرافية شرقية الطابع . ففيه تشير اسماء البنادر إلى الطرق البحرية لزوال روعة المسالك المستمرة التي كانت تدور بالناس حول جزيرة العرب او تقودهم إلى افريقية الشرقية او إلى الصين . والحقيقة ان حصيلة جمع المعطيات هزيلة . ففي اقصى الغرب ، تؤمن السفن ، عبر مضيق جبل طارق ، الاتصال بين واجهة المغرب الشمالي الاطلسية وبين البحر المتوسط (١١) .

ففي الاندلس ، اشتهرت مدينة اشبيلية التي تتم فيها حركة ملاحة كثيفة في نهر الوادي الكبير وفي البحر ، ومدينة طرطوشة التي يرتادها

---

(٩) اليعقوبي : ٣٦٦ — ٣٦٧ . ابن خرداذبة ٦١ . الهمداني : ٥٢ . وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ : ١٢٨ — ١٣٠ و ١٦٧ — ١٧٣ .

(١٠) المقدسي : ٩٧ — ٩٨ .

(١١) ابن حوقل : ٨٠ ، ٨١ (المراكب الاندلسية) .

ملاحو جميع البلدان وتجارها ، خاصة « الافرنج » (١٢) . وتبرز شواطيء المغرب المقابلة للاندلس نشاطها وارتباطها ببعض المدن البحرية الصغيرة — المحصنة احيانا — التي تتعاقب اسماؤها على الخريطة : مثل طنجه ، وسبته ، ونكور ، ومليله ، وارجكوك ، ووهران ، وتنس ، وشرشال ، والجزائر ، ومرسى الدجاج ، ومرسى بني جناد ، وبجايه ، وجيجل ، وبونه وطبرقه (١٣) .

ويقال لنا ان الاستمرار في الاتجاه إلى الشرق يوصل إلى حيث ترتاد سفن الروم (١٤) البحر المتوسط وان المهدية التونسية تؤمن المواصلات البحرية بين جزيرة صقلية وبين مصر (١٥) . ونتوقع ان تذكر لنا الاسكندرية في مصر . لكن تسمى عوضا عنها تنس ودمياط اللتان ترسو فيهما المراكب القادمة من الروم ومن جزيرة قبرص وجزيرة اقريطس ، ومنهما يقطع البرزخ لبلوغ البحر الآخر (١٦) . اما الشام وفلسطين ، فلا يشار فيهما الا إلى المدن باسمائها وعندما تكون حصونا — بسبب تهديد الروم على الدوام — او إلى المرافيء مثل عسقلان ،

---

(١٢) الرازي : ٧٢ ، ٩٣ .

(١٣) ابن حوقل : ٧٤ ، ٧٦ — ٧٩ . المقدسي : ٢٢٨ ، ٢٢٩ . اسحاق : ٤٥٢ .

(١٤) المسعودي : فقرة ٨٧٩ (م) . انظر أيضاً اليعقوبي : ٣٥٣ — ٣٥٤ : تسير السفينة في البحر مسحلة غير موغلة في ذهابها من المغرب الى مصر (انظر أيضاً ، المرجع ذاته : ٣٤٣ : بنادر برقة .

(١٥) ابن حوقل : ٦٨ — ٧٠ (بنادر سرت وطرابلس وسفاقس) ، ٧١ ، آخر ٧٢ (بندر سوسه) . المقدسي : ٢٢٦ . انظر أيضاً اليعقوبي : ٣٤٨ (الركوب من رأس الى صقلية) .

(١٦) اسحاق : ٤٤٦ — ٤٤٧ . المقدسي : ٢٠١ — ٢٠٢ .

ويافا ، وعكا ، وصور ، وصيدا ، وبيروت ، وطرابلس ، وطرطوس وجبلة ، واللاذقية ، والاسكندرون والتينات (١٧) .

ويمثل مجمع ماء الخزر حالة مستقلة . فهل هو بحرام بحيرة ؟ يتحدث الجغرافيون عن خصائصه وعن مصاعبه (١٨) : الا ان له ناحية واحدة ثابتة : هي دوره في تجارة تلك الايام ، بسبب موقعه بين دار الاسلام وبين روسية الرقيق والفراء . ولا تذكر جميع بنادره الموزعة على سواحله، بل يُكْتَفى بالاشارة إلى ثلاثة منها تعد اساسية لحركة الملاحة : هي باكو وخاصة دربند (باب الابواب) في غربه ، ثم ابسكون في زاويته الجنوبية الشرقية ، ويسميها المقدسي « فرضة جرجان ومطرح الرحاب » (١٩) .

ولا تكتمل صورة الملاحة بدون الحديث عن المراكب النهرية : وهذه المراكب عادية جدا ، لا ينوه بذكرها الا عرضا ، كما يجري في مصر ، متى كانت واردة في التاريخ منذ زمن بعيد : والحاجة اليها ماسة جدا ، حتى ليشار اليها فورا اذا كان وضعها غير مستقر او كانت غير موجودة ، كما هي الحال في سجستان او اشروسانة ، شرقي سمرقند (٢٠) . وتهيمن على المشهد الطبيعي ثلاث شبكات

---

(١٧) اليعقوبي : ٣٢٤ — ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ . ابن حوقل : ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٨ . المقدسي : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٤ . يبرز نص ابن حوقل ضغط الروم على الثغور البحرية (غارات بحرية ، حملة نقفور فوكاس) .

(١٨) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ : ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(١٩) المسعودي (م) : فقرة ٤٦٣ . المسعودي (ت) : ٩٣ (فراء تنقل على نهر اتل وتصدر حتى المغرب) . ابن حوقل : ٣٣٩ — ٣٤٠ ، آخر ٣٨٢ — ٣٨٣ ، ٣٨٨، ٣٩٨ . المقدسي : ٣٥٨ — ٣٧٦ .

(٢٠) ابن حوقل : آخر ٤١٧ — ٤١٨ — ٥٠٥ .

نهرية، عدا الانظمة الصغيرة او المنعزلة وهي النيل ، وانهار بلاد ما بين النهرين (خوزستان) ، وجيحون وسيحون في آسية الوسطى (اموداريا وسيرداريا)(٢١) . وتبرز المراكب النهرية بهجة المياه الجارية، تصحبها الحقول المقسمة إلى مربعات باقنية الري ، والطواحين ، وارواء العطش على الدوام : وتظهر مسرات الحياة متشابهة في جميع الاماكن .

ويعبر عنها المقدسي في حديثه عن الاهواز في خوزستان او عن بغداد ، ويقول : « والناس في بغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن، وترى لهم جلبة وضوضاء : وثلثا طيب بغداد في ذلك الشط»(٢٢)

طرق افريقية

لابد لنا ان نسلم بان الطريق ، نقصد طريق القوافل ، عنصر حيوي في الدولة الواسعة التي تشكل مملكة الاسلام : وحجتنا الصفحات الطوال التي افردها لها المؤلفون المختصون في وصف دار الاسلام في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، ثم المسالك ، الرئيسة والثانوية ، والمنازل التي يتكرر شرحها في الاقاليم اقليما اقليما (٢٣) : وينبغي ان

---

(٢١) احيل بشأن هذا البحث الى العرض الكامل لانهار دار الاسلام في حواشي جغرافية دار الاسلام ، ج٣ : ١٣٧ وما يليها ، ١٧٣ — ٢٢٥ .

(٢٢) المقدسي : ١٣٤ (مشار اليه في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ : ١٣٧) ، آخر ٤١١ — ٤١٢ .

(٢٣) عرض منهج عند المقدسي بعنوان خاص : المسافات . يلاحظ ان المسالك يمكن ان تندرج في الأدب بشكل مقاطع : انظر ابن الفقية : ٢٢ ، ٣٠ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ — ١٠٢ — ١١٦ ، آخر ١٣٣ ، آخر ٢٠١ — ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، آخر ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٩ .

يرسم اطلس كامل لجميع هذه الظاهرات ، وان كان عمله لا يجدي وتتخلله صعاب مردها في الغالب إلى نقص في دقة التسميات ، وتبديل محال المنازل او زوالها منذ ذلك الزمن البعيد وحتى ايامنا الحاضرة (٢٤). ويسلك هذه الطرق خليط من الناس يشمل اصحاب البريد ، وعلماء يفتشون عن مستمعين او عمن يرعاهم ، وطلابا يسعون إلى ايجاد استاذ يتتلمذون عليه ، ومتطوعين يريدون الاشتراك في حرب الثغور ، وجنودا وحجابا (٢٥) ، وتجارا ايضا يضعهم المقدسي في طليعة قرائه ويذكرهم في عداد الجماعات التي انتسب اليها هنا وهناك لكي يؤمن اسباب عيشه (٢٦) .

وتنتشر طرق الصحراء الكبرى في المغرب (٢٧) ، وتفرض الحديث عن نفسها قبل غيرها : وينقل التجار عليها الذهب والرقيق والتمور ومنتجات اخرى ، من بلدان السودان النيجيري والواحات ، إلى مراكز تجمع القوافل ، لاسيما سجلماسة القصبة الكبيرة في المغرب الجنوبي ، ويرتادها التجار من سائر البلدان . وفي الشرق ، تقع القيروان وطرابلس وبرقة المعروفة بنشاطها الكبير (٢٨) . ويتلقى

---

(٢٤) حدد ج . كورنو الطرق الرئيسة : اطلس العالم العربي الاسلامي في العهد الكلاسيكي : القرن ٩ — ١٠ ، ليدن ، ١٩٨٣ — ١٩٨٥ .

(٢٥) مثال عند ابن حوقل : ٣٥٣ ، آخر ٣٥٣ ، آخر ٣٥٩ — ٣٦٠ ، ٣٧١ . المقدسي : ٢٤٨ وما يليها ، ٤١٢ ، ٤٦٣ .

(٢٦) المقدسي : ٢ ، ٤٣ (من خلال بعض الألقاب المطلقة على المؤلف (وراق ، مجلد ، تاجر) — ٤٥ ، واماكن متفرقة (انظر الطرفة الواردة سابقاً عن عدن) .

(٢٧) بشأن طرق الأندلس ، الواقعة على هامش المخطط العام نوعاً ما ، انظر ابن حوقل : ١١٥ — ١١٧ المقدسي : ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢٨) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ : ١٣٠ و ١٤٧ — ١٥٣ . اليعقوبي : ٣٤٥. المسعودي (م) : فقرة ١٤٢٠ . ابن حوقل : ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١٠٢ . المقدسي : ٢٣١ ، ٢٤٦ .

المغرب تجارات الاندلس من البنادر التي ذكرناها . وتجاري تلك الطريق الساحل تقريبا على طول امتداده ، وتوازيها طريقان اخريان ، تذهب احداهما من المغرب الجنوبي مباشرة إلى تونس ، وتتبع تخوم الصحراء وتندس الطريق الثانية بين الطريقين السابقتين وتتجه من فاس الى تونس ذاتها وتمر بتاهرت ومسيله . وتتصل الطرق الثلاث بعضها ببعض بشبكة من الطرق العرضانية ، وتلتقي ثلاثها في القيروان التي ينطلق منها المسافرون الى طرابلس وساحل سرت وبرقة (٢٩) واخيرا مصر .

وتشكل مصر ملتقى طرق فريدا ، يضم البحر والنهر والبر . فالبحر ، كما قلنا ، ينفتح على مغرب دار الاسلام والجزر والروم والشام . ويوصل النيل إلى اعماق افريقية في النوبة والحبشة ، وهو شريان حيوي بالنسبة الى المراكب النهرية وإلى الطريق البرية التي تصاقبه . وتصله دروب الصحراء ببنادر البحر الاحمر ، لاسيما درب أسوان عيذاب ، ودرب القاهرة القلزم (٣٠) . اما باقي الطرق البرية فتأتي من المغرب عبر برقة ، ومن بلاد الشام انطلاقا من غزة ، ومن جزيرة العرب مرورا بسيناء (٣١) . وتعد دلتا النيل قلب هذه الشبكة من

(٢٩) ابن حوقل : ٦٦ وما يليها ، ٨٤ — ٩٣ . المقدسي : ٢٢٤ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ كورزنو ، مشار اليه من قبل خريطة ١٢ .

(٣٠) اليعقوبي : ٣٣٥ . المسعودي (م) : فقرة ٨٩٣ آخرها . الأسواني : ٢٥٤–٢٥٧ . ابن حوقل : آخر ١٤٤ — ١٤٥ . المقدسي : ٢١٤ آخرها — ٢١٥ ، وجغرافية دار الأسلام ، ج٢ : ١٦١ — ١٦٧ .

(٣١) ابن حوقل : آخر ١٤٣ — ١٤٤ . المقدسي : ٢٠٠ ، آخر ٢٠٦ ، آخر ٢١٣ — ٢١٥ .

الطرق ، يضاف اليها دمياط وتنيس التي تسمى « متجر الشرق والغرب » (٣٢) ، وبداهة الفسطاط (٣٣) « متجر الانام ... الذي تجيء ابدا اليه ثمرات الشام والمغرب ، ويسير الرفاق (٣٤) اليه من العراق والمشرق ، وتقطع اليه مراكب الجزيرة (٣٥) والروم » .

نحو مفترق طرق بلاد ما بين النهرين

وتقارن مصر والعراق ، لكن لا يذهب احدالىحد انكار اصالتيهما . فالانهار ، وهندسة المياه،والفلاحون، والقدرة على اقامة الدول في هذا الوسط الطبيعي والبشري – وهذه ناحية يؤيدها ، في القرن ٤ هـ / ١٠ م ، وجود خلافتين في القاهرة وبغداد – كل هذه الخصائص تحث على اجراء المقارنة ، التي لا تكتمل اذا لم يضف اليها الترتيب الرائع في كل من المفترقين : بالفعل ، يشعر الانسان في العراق ، كما يحس على ضفاف النيل ، ان بعض الطرق العالمية تتلاقى في بغداد ، وبدقة عند ملتقى نهري دجلة والفرات اللذين ترتادهما السفن ويحرسان القوافل ، وتقترب مياههما بعضها من بعض إلى ادنى حد ، قبل ان يستمر جريانهما إلى بحر الآفاق الواسعة .

لننتقل الآن إلى الوضع في الجنوب والغرب . فجزيرة العرب (٣٦) ترينا ثلاثة مشاهد: اولها البنادر المشار اليها من قبل، ثم الداخل الذيتذهب

(٣٢) المقدسي : ٢٠١ .
(٣٣) المسعودي (ت) : ٣٣ . المقدسي : ١٩٧١ ، آخر ١٩٩ .
(٣٤) رفاق : لعلها رقاق جمع رقيق : العبيد الذين يمرون مرورا بالمشرق والعراق .
(٣٥) قراءة اخرى في المقدسي : ١٩٩ (حاشية بج) : من الشرق الأقصى (الصين)
(٣٦) الهمداني : ١٨٣ – ١٨٥ . ابن حوقل : ٣٩ – ٤١ . المقدسي : آخر ٨٣ – ٩٧ ، ١٠٦ – ١١٣ ، ١٥٢ ، ٢٤٩ – ٢٥١ – ٢٥٢ .

طرقه بالدرجة الاولى إلى مكة والمدينة، مركزي الايمان والحج، واخيرا الواجهة الشمالية التي تقوم فيها دروب اخرى بوظيفة دينية مماثلة وتحمل عليها ايضا السلع التي تجلب من البلدان المجاورة او تستهلك فيها. وعلى هذا الاساس، تؤدي طريقان رئيستان، عبر الصحراء وآبارها المحتمل وجودها إلى المدينتين العراقيتين البصرة والكوفة. الاانوادي القرى هو المنطلق الاساسي، ويمثل منخفضا طويلا يمتد من المدينة إلى خليج العقبة (٣٧) الذي تتفرع منه ثلاث طرق تذهب إلى مصر مرورا بويلة، وإلى الشام عبر واحة تيماء، وإلى العراق من جديد.

وتخترق الشام طريقان رئيستان، تصل اولاهما المدن الساحلية، وتبدأ الثانية من حلب وتتجه الى حماه وحمص وبعلبك ودمشق وعمان وجزيرة العرب عبر تيماء. ويرتبط هذان المحوران بمجموعة من الطرق العرضانية التي تذهب من انطاكية إلى حلب، ومن طرابلس او بيروت او صور إلى دمشق، ومن غزة ومرافىء فلسطين إلى الرملة وطبرية ودمشق ايضا، ومن ويلة إلى الرملة او إلى عمان. وهكذا ترتسم ثلاث عقد تجارية اساسية: هي عقدة دمشق عاصمة البلاد، وعقدة الرملة التي يسميها المقدسي « مطرح البحرين »، وعقدة ويلة مفترق طرق جزيرة العرب ومصر والشام. بقي، لاتمام الخريطة، ان نصل مجموعة مدن الفرات بالدروب الآتية من حلب او حمص او الشام (٣٨).

---

(٣٧) انظر الاحالات فن جغرافية دار الاسلام، ج٣، ١٩٠، حاشية ٨.

(٣٨) انظر ابن حوقل: ١٦٧ (خريطة)، ١٨٠، ١٨٥ – ١٨٨. المقدسي: ٣٦، ١٥٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٩٠ – ١٩٢، ٢٤٩ – ٢٥٠.

باتجاه الشمال والشرق

اذن نحن في بلاد مابين النهرين ، مفترق طرق مفترقات الطرق ، الذي « تجيئك فيه الميرة في السفن الفراتية ، والقوافل من مصر والشام في البادية . وتجيئك آلات من الصين في البحر ، ومن الروم والموصل في دجلة » (٣٩) . وقد جمعناها ، عليا ودنيا (٤٠) ، في رؤية واحدة واصبحنا نعرف ثلاثا من واجهاتها : الواجهات الشامية والعربية والبحرية. وبقي علينا ان نتعرف على ثلاث اخرى ، لا اقل من ثلاث فمن ناحية الشمال ، وراء بلاد الموصل ، نصل إلى ارمينية ، وبعدها إلى امبراطورية الروم ، عن طريق البر او البحر الاسود ، انطلاقا من بندر طرابزندة الكبير (٤١) . وتقع طريقان اساسيتان في الشمال ، وتمران بالهضبة الفارسية العالية وبالري « باب التجار » واحد « ابواب الارض » (٤٢) . وتذهب الطريق الاولى إلى شواطىء بحر الخزر الغربية التي تتلقى تجارة روسية الجنوبية وتجارة قبائل الخزر القاطنين على ضفاف نهر اتل الاسفل . وتأخذ الطريق الثانية من الجهة المقابلة لبحر الخزر اياه إلى

---

(٣٩) المقدسي : ١٢٠ .

(٤٠) بشأن المسالك الداخلية في العراق ، انظر ابن حوقل : ٢٣٥ ، المقدسي : ١٣٤ — ١٣٥ .

(٤١) المسعودي (م) : فقرة ٤٤٣ آخرها — ٤٨١ . ابن حوقل: ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، المقدسي : ١٤٩ — ١٥١ ، آخر ٣٨٣ — ٣٨٤ . بشأن المسالك في منطقة ارمينية — اران— اذربيجان (الرحاب) ، انظر ابن حوقل : ٣٥٠ — ٣٥٤ . المقدسي : ٣٨١ — ٣٨٤ .

(٤٢) ابن الفقية : ٢٧٠ — ٢٧١ .

خراسان وخوارزم التي تتاجر ، على حد قول ابن حوقل ، مع الصقالبة واتراك آسية الوسطى (٤٣) .

وهناك واجهة اخرى واقعة في الجهة الشمالية الشرقية . وفيها تلتقي الطرق الآتية من العراق عبر سواحل بحر الخزر او التخوم الشمالية لصحراء فارس الكبرى ، في نيسابور التي تعد مركزا كبيرا للتجارة والقوافل في خراسان ، وتعتبر بابا مفتوحا على خوارزم وما وراء النهر ، وعلى سهوب آسية الوسطى وصين الحرير (٤٤) . اخيرا ، تقع الواجهة الاخيرة في الجهة الجنوبية الشرقية ، من ناحية خوزستان ، وهي ممر عبور يؤدي إلى فارس ، ثم كرمان ووادي نهر السند ، (مهران) (٤٥) .

وتظل اللوحة ناقصة ، اذا لم تُضَفْ اليها الدروب العرضانية التي تصل المسلكين الذاهبين من بغداد إلى الصين والهند . وهكذا اشير اولا ، من الغرب إلى الشرق ، إلى الطرق التي تتجه من همذان والري على هضبة فارس العليا ، إلى خوزستان واصفهان وفارس ، عبر لورستان ،

---

(٤٣) ابن حوقل : ٣٧٨ ، آخر ٣٧٩ — ٣٨٠ ، آخر ٣٨٣ — ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ، آخر ٤٧٧ ، المقدسي : ٢٨٦ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢ — ٣٧٣ . انظر أيضاً على الاجمال بشأن المناطق المقصودة مسالك ابن حوقل : ٣٥٠ — ٣٥٤ ، ٣٥٨ — ٣٦١ ، ٣٨٣ — ٣٨٤ . المقدسي : آخر ٣٧١ — ٣٧٣ ، ٣٨١ — ٣٨٤ ، آخر ٤٠٠ — ٤٠٢ .

(٤٤) انظر المسعودي (م) : فقرة ٣٨٣ — ٣٨٥ . اليعقوبي : ٣٦٥ — ٣٦٦ ، ابن حوقل : ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، المقدسي : ٣١٥ ، ٣١٨ — ٣١٩ (وحاشيةج) وبالنسبة الى المسالك ، ابن حوقل : ٤٥٣ وما يليها ، ٥١٥ وما يليها ، المقدسي : ٣٤١ وما يليها .

(٤٥) المسالك : عند ابن حوقل : ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ٢٨٢ — ٢٨٧ ، ٣١٣ — ٣١٥ ، ٣٢٦ — ٣٢٧ . المقدسي : ٤١٤ — ٤٢٠ ، ٤٥٣ — ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، ٤٨٥ — ٤٨٦ . انظر أيضاً المقدسي : ٤٧٨ .

وتخوم زغروس ، واطراف صحراء فارس الكبرى (٤٦) . ومتى ابتعدنا إلى الشرق ، نلاقي نيسابور التي لا بديل لها قطعا : فهي تتحكم بالطرق العابرة الصحراء او القائمة على اطرافها ، المتجهة إلى اصفهان وخوزستان وفارس وكرمان (٤٧) . وتصل طريق تدعى بحق طريق التمر ، كرمان بخراسان ، ويحمل الجمالون عليها التمور إلى خراسان منصّفة ويقصدها كل سنة نحو مائة الف جمل ، ويدخلونها في وقت واحد ، ويكثر فيها الزنا والفساد (٤٨) . اخيرا اذا واصلنا الاتجاه نحو الشرق ، وجدنا بلخ على طرف خراسان الشرقي ، وهي مركز تجاري كبير آخر ، تشرف على حركة التجارة عند ملتقى طرق التبت والصين من جهة بطرق الهند عبر كابل من جهة ثانية ، بتواتر مستمر على حد قول المسعودي (٤٩) .

ويشير نص شهير لابن خرداذبه(٥٠)إلى التجار اليهود الراذانية(٥١) الذين تثير مسالكهم الاعجاب . وقد جاء فيه انهم « يتكلمون بالعربية

---

(٤٦) ابن حوقل : ٣٦٠ — ٣٦١ . المقدسي : ٣٨٩ (ح ب) ، ٤٥٦ ، آخر ٤٥٧ — ٤٥٩ ، ٤٩٠ (ح ى) ، ٤٩١ (ح ى من ٤٩٠) .

(٤٧) ابن حوقل آخر ٤٠٤ — ٤٠٩ . المقدسي : ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٨٩ (ح ب) ، ٤٠٩ (ح ى) ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، آخر ٤٦٦ ، ٤٩١ — ٤٩٢ (ح ى من ٤٩٠) .

(٤٨) المقدسي : آخر ٤٦٦ — ٤٦٩ .

(٤٩) المسعودي (م) : فقرة ٢١٨ ، ٣٨٦ . ابن حوقل : ٤٤٩ — ٤٥٠ . المقدسي : ٣٠٢ (و ح د) ، ٣٠٤ .

(٥٠) ابن خرداذبة : ١٥٣ — ١٥٥ ، ملخصة مع بعض الفروق عند ابن الفقية: ٢٧٠ .

(٥١) انظر م . جيل،« التجار الراذانية وارض راذان»،مجلة التاريخ الاقتصادي والأجتماعي في الشرق ، ١٧(٣) ايلول ١٩٧٤ ، ص ٢٩٩ — ٣٢٨ ، الذي يعطي آخر المعلومات عن القضية . احيل الى نصه ومراجعة من أجل ما يأتي .



تصوير المكتبة الوطنية باريس   المكتبة الوطنية ، القسم العربي ٦٠٩٤ ، ورقة ٦٨

السفر بالمركب على النهر (صورة الغرات)

(المصدر : مقامات الحريري ، القرن ١٣ ، الكوفة)

والرفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة (٥٢) في البحر الغربي ، فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود (٥٣) والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي . فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية ، فباعوها من الروم . وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة ، فيبيعونها هنالك . وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي ، فيخرجون بانطاكية . ويسيرون على الارض ثلث مراحل إلى الجابية ، ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الابلة (٥٤) ، ومن الابلة إلى عمان والسند والهند والصين . كل ذلك متصل بعضه ببعض ... فاما مسلكهم في البر ، فان الخارج منهم يخرج من الاندلس او من فرنجة ، فيعبر إلى السوس الاقصى (٥٥) ، فيصير إلى طنجة ثم إلى

---

(٥٢) تدل هذه التسمية على ايطالية على الأرجح : انظر جيل ، مشار اليه ، ٣١٠ — ٣١١ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ٣٦٢ وما يليها .

(٥٣) عود : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٩٨ .

(٥٤) ميناء على خليج دجلة ، عند مصب القناة الآتية من البصرة .

(٥٥) المغرب الأقصى الجنوبي . بشأن شرح هذا المقطع ، انظر جيل ، مقال مشار اليه ، ٣٠٩ .

افريقية (٥٦) ، ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الاهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الصين . وربما اخذوا خلف رومية في بلاد الصقالبة ثم إلى خليج ، مدينة الخزر (٥٧) ثم في بحر جرجان ثم إلى بلخ وما وراء النهر ثم إلى ورب (٥٨) تغزغز ، ثم إلى الصين . » .

وقد علق الباحثون كثيرا على هذا النص الذي يحافظ على قيمته في الحد الادنى بالنسبة إلى ايام كتابة ابن خرداذبة له ، اي منتصف القرن ٣ هـ / ٩ م (٥٩) . وهو موثوق ، ويصف لنا تجارا لا يكلون ، يهودا بالتأكيد . الا ان اصلهم اثار جدلا واسعا . فهل جاؤوا من اوربة الغربية من وادي نهر الرون (رودانس) ؟ ام من الري في بلاد فارس ؟ ام ان اسمهم مأخوذ من الكلمة الفارسية راهدان (عابر طريق ، دليل) ؟ ويرجع التفكير بمنطقة قريبة من بغداد اسمها راذان يكثر فيها اليهود ، فيحتمل ان يكونوا قد خرجوا منها فرادى او مجتمعين (٦٠) ساعين إلى الحصول على ثروات العالم .

---

(٥٦) تونس والجزائر الغربية .

(٥٧) على نهر اتل الأدنى : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٨٦ وما يليها . اسم المدينة الصحيح خمليخ .

(٥٨) ورت (قبيلة) أو يورت (بلاد ، منزل ، يورت) : ابن خرداذبة : ١٥٥ (وحاشية ز) . بالنسبة الى التغزغز انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٠٥ — ٢٠٨ .

(٥٩) دي خويه (ابن خرداذبة ، المدخل ، ص ٢٠ روماني) يشير الى ان النص الخاص بالتجار اليهود والروس (فيما يلي) عائد الى النسخة الاولى من المصنف ، وتاريخها حوالي ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م .

(٦٠) يقول جيل ، مقال مشار اليه ، ٣٢٣ : « لم يمثلوا اتحادا ، ولا تنظيما ، ولا فئة ، والشي الوحيد المشترك بينهم هو بلدهم الأصلي » . وهذا كلام قاطع ، وكل ما يمكن قوله ان ابن خرداذبه لم يتطرق الى هذه الناحية .

والروس (٦١) تجار جسر ايضا. فهم « يحملون،فيما يقال، جلود الخز وجلودالثعالب السود والسيوف من اقصى بلاد الصقالبة إلى البحر الرومي ، فيعشرهم صاحب الروم (٦٢) . ثم يجيؤن في البحر إلى سمكوش اليهود (٦٣) . وان ساروا في تنيس (٦٤) نهر الصقالبة ، مروا بخليج مدينة الخزر (٦٥) . فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان ، فيخرجون في اي سواحله احبوا . وقطر هذا البحر خمس مائة فرسخ . وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل إلى بغداد ، ويترجم لهم الخدم الصقالبة ، ويدعون انهم نصارى ، فيؤدون الجزية » .

ذكرنا الروس واليهود وغيرهم ... مع ذلك ، لم نبحث الا عرضا مشهد الطرق ، ولم نرسم لها سوى خريطة موجزة تشير الى المسارات الكبرى . وكما قلنا من قبل ، لابد لنا ان نغوص في العناوين — او بالاحرى ان نستنطقها ، — وان نجهد أنفسنا لكي نحصل منها على اسماء الاماكن الدارسة ، ونحدد تبدل الاوضاع او ثباتها بين عصر ابن خرداذبه وبين آخر القرن التالي الذي عاش فيه ابن حوقل

---

(٦١) بشأنهم ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣٣١ وما يليها . ترجم المقطع نقلا عن ابن خرداذبة : ١٥٤ وابن الفقية آخر ٢٧٠ — ٢٧١ (يتحدث عن الصقالبة فقط) . ويعثر على اشارة مبهمة الى تجارة الروس عند المسعودي (م) : فقرة ٤٥٨ .

(٦٢) في القسطنطينية طبعاً .

(٦٣) ظاهريا مدينة في شبه جزيرة تامان التي تغلق بحر آزوف في القرم : انظر ابن الفقية : ٢٧١ ح١ .

(٦٤) نهر الدون .

(٦٥) يغفل المؤلف المسار الذي ينبغي على هؤلاء التجار ان يقطعوه بين نهر الدون ونهر اتل الأسفل : انظر ابن خرداذبه ، الترجمة ١١٥ ، حاشية ٣ .

والمقدسي . وعلى الرغم من هذا النهج ، تظل النواحي الاساسية في مجمل النصوص محصورة في المسارات الكبرى ومفترقات الطرق ، وحوار البحر والبر ، والنهر متى تيسر . مهما يكن ، يجب ان نلاحظ ان الطريق ليست خطأ مرسوما على احدى الخرائط فقط : فقد شوهدت على السفينة والدرب وفي المنزلة قبل ان يهتم بها العالم . فهي مغامرة وتبصر .

المعارض والأسواق

ولنبدأ بالاماكن التي تتحكم بها ، وتمر بها ، وتنتهي اليها . وتردد اقلام مؤلفينا كثيرا الفاظ متجر (موكز تجارة) ومطرح (مستودع ، مركز تجارة) وفرضة (ميناء بحري ، مجمع قوافل) ، ونقصد بها الاماكن المتميزة التي تحمل فيها السلع وتنزل ، ويتم فيها الشراء والمبيع والاستهلاك . وقد تضمنها الادب في البدء ، هنا وهناك ، في جزيرة العرب على وجه الدقة . وتحسن ، فيما يبدو ، معرفة المعارض والاسواق ، المحلية او الهامة ، في شبه جزيرة العرب . وقد تناولها الهمداني ، ابن جزيرة العرب ، والمؤرخون ايضا ، والجغرافيون (٦٦) بالتأكيد .

مع ذلك ، ينبغي ان تؤخذ المعطيات الاساسية من كتب المؤلفين الميدانيين ، نعني ابن حوقل والمقدسي . وانا اهمل اعتبار السوق عنصرا

(٦٦) الهمداني : ٦٩ ، ١١٣ ، ١٧٩ – ١٨٠ . اليعقوبي : التاريخ : ج١ ، ٢٧٠ – ٢٧١ . ابن حوقل : ٣٤ ، ٣٦ . انظر أيضاً بشأن الأماكن الأكثر تخصصاً ، المسعودي (م) ج٤ ، ٢٥٣ (فندق في البصرة يقيم فيه التجار واصحاب الأموال) .

من المشهد المديني الكلاسيكي (٦٧) ، اقصد حي الأسواق او ، القيسارية (٦٨) ، واتصدى لثلاث مطالب او حالات . ففي الحالة الاولى ، تشترك السوق في حياة المدينة اشتراكا متقطعا ، حده الاقصى المعرض السنوي . وفي الحالة الثانية التي تمثل الوضع العكسي ، تلخص السوق المدينة او البلدة التي نشأت منها او استمدت وجودها منها ، واحيانا اسمها ذاته ، وتصنفها . اخيرا في الحالة الثالثة ، تتبع السوق المدينة على الدوام ، لكن تبقى معزولة عنها وتقع خارج اسوارها او تشكل مدينة اخرى ضمن المدينة .

وللفئة الاولى اسواق موزعة جيدا على اسامي ايام الجمعة ، حتى ان لكل يوم منها سوقاً (٦٩) في هذه القرية او تلك ، كما هي الحال في خوزستان . وبمحال اخرى ، مجتمع السوق في رأس كل شهر مرة (٧٠) . وفي غيرها ايضا ، في برذعة ، « ام الران وعين تلك الديار » ، يقوم يوم الاحد سوق يسمى الكركي يجتمع اليه اهل الكورة والنواحي حتى ان احدهم يقول في تعداد ايام الاسبوع يوم السبت ويوم الكركي ويوم الاثنين (٧١) ... اما المعارض التي تقوم كل سنة ، فاذكر منها سوق الطواويس في ما وراء النهر ، وينتابها الناس من اقطار ارض خراسان (٧٢) . واشهرها سوق كرينه الواقعة على مقربة

---

(٦٧) سوف نتحدث عنه فيما بعد في بحث المدن (الفصل ٩ و ١٠) .
(٦٨) قيسارية : سنعود اليها فيما يلي (الفصل ١٠ ، حاشية ٢٢١) .
(٦٩) المقدسي : ٣٦٩ ، آخر ٤٠٥ — ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ .
(٧٠) ابن حوقل : آخر ٥٠٦ — ٥٠٧ .
(٧١) الاصطخري : ١٠٩ . ابن حوقل : آخر ٣٣٨ . المقدسي : ٣٨٠ .
(٧٢) ابن حوقل : ٤٨٩ . المقدسي : ٢٨١ .

من اصفهان (٧٣) : « ويجتمع فيه الناس كالموسم للشرب والقصف والعزف ابان النبروز (٧٤) سبعة ايام بانواع الملاذ وغرائب الزينة . قد تأنق حاضروه في الاستعداد لمآكلهم ومشاربهم . وادخر اهل البلد ومن قصده من البعد واطراف نواحيهم ، والنفقات الواسعة والزينة الرائعة والملابس الحسنة والاحتفال باللعب والطرب فيعتكفون على لذاتهم ويتبارون في مجالسهم ونشواتهم بحذاق المسمعين والمسمعات على شاطىء (٧٥) الوادي ، وفي القصور قد ركبوا السطوح وغصوا الاسواق بنهاية الاحتفال في المآكل والمشارب والانقال ، موصولا ليلهم بنهارهم لا يفترون ولا يعارضون ولا يمنعون قد اوسعهم ، سلاطينهم ذلك . واتصلت العادة على مر الاوقات واختلاف السنين والساعات بترك العرض لهم والاخذ على ايديهم . ويقال ان نفقاتهم في هذه السوق عند حلول الشمس الحمل ، يبلغ مائين الوف دراهم » .

وفي بعض الاحيان ، تتوحد السوق والمدينة ، مثلما قلنا ، او بالاحرى ، لا يمكن تصور المدينة دون السوق التي تدعمها ، دائمة كانت ام مؤقتة . وينطبق هذا الوضع على باب الاتراك : في صبران وطراز واوزكند (٧٦) ... وفي الحالة القصوى ، تأخذ المدينة اسم السوق . على هذا النحو ، يمكن الاشارة ، عند ابن حوقل والمقدسي ، إلى عدة اسواق واقعة في طخارستان ، في منطقة تاهرت ، وفي اذربيجان

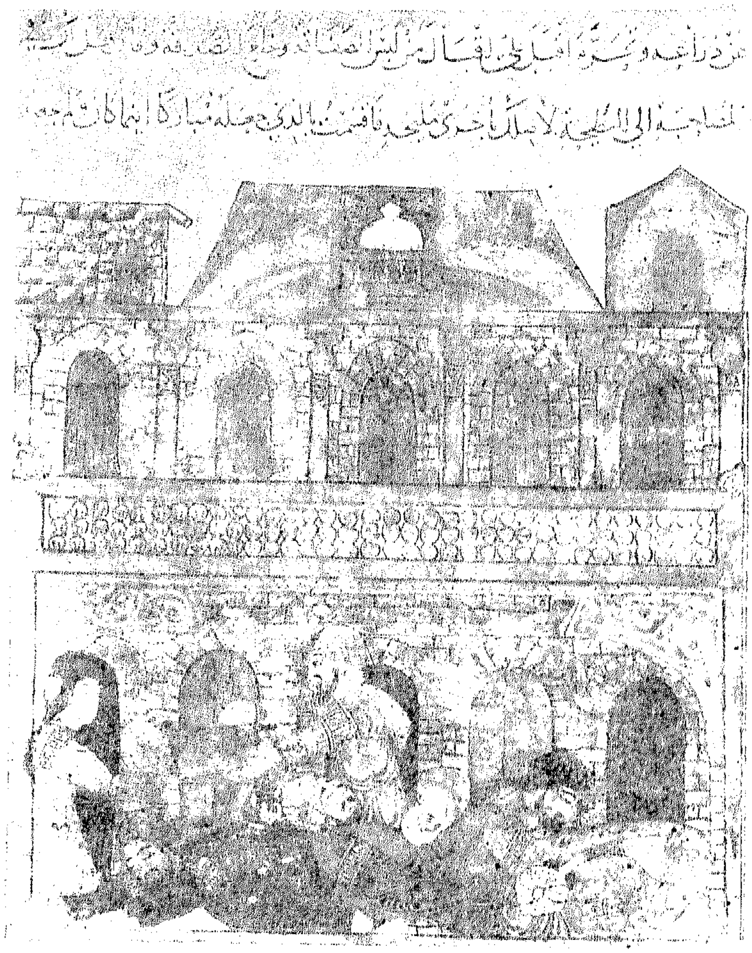
---

(٧٣) ابن حوقل : ٣٦٤ .

(٧٤) النيروز . بد الربيع مثلما يستدل فيما بعد من برج الحمل .

(٧٥) زرنروذ ، نهر اصبهان .

(٧٦) ابن حوقل : ٥١١ ، ٥١٣ .



تصوير المكتبة الوطنية باريس المكتبة الوطنية ، القسم العربي ٥٨٤٧ ، ورقة ٨٩

الخان

(المصدر : مقامات الحريري ، القرن ١٣ ، الكوفة)

وفي خوزستان (٧٧) . فسوق الاربعاء وسوق الاحد تقامان في الجزيرة (٧٨) . ويقترن لفظ سوق ذاته باسم احد ايام الاسبوع السبعة في خوزستان (٧٩) . اخيرا يلي اسم علم (٨٠) كلمة سوق في ست اسواق مغربية .

وتتسع السوق احيانا إلى حد كبير ، ويندرج نشاطها في حياة المدينيين او الزوار حتى تصبح مدينة ضمن المدينة او مدينة جديدة على مقربة منها . واوضح الامثلة على هذه الاوضاع المدن الكبرى بخارى والري ونيسابور . ففي بخارى (٨١) ، داخل الحائط وخارجه ، اسواق متصلة معلومة في اوقات من الشهر ، دارّة المواعيد تجري فيها للشرا والبيع في المواشي والثياب والرقيق . وتبدو الري (٨٢) مدينة عظيمة امام ناظرينا . ولها اسواق مشهورة ، منها روذه وباليسان ، ودهك بر . ونصراباذ ، وساربانان ، وباب الجبل ، وباب هشام ، وباب سين ، واعظمها الروذه وبها معظم التجارات والخانات . « وهو شارع عريض مشتبك الابنية والعقارات والمساكن » .

---

(٧٧) المقدسي : ٢٩ (مدن طخارستان المسماة سوق دون اي تدقيق آخر) ابن حوقل : ٩٠ . المقدسي : ٢٩ ، ٥٦ ، ٢١٩ (سوق كرا أو كران) . ابن حوقل : آخر ٣٣٨ ، ٣٥١ – ٣٥٢ (سوق كورساره بلا وصف) ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ (سوق سنبيل) .

(٧٨) ابن حوقل : ٢١٧ (اضافة اسواق اخرى نظامية ، اكثر تباعدا). المقدسي : ١٣٨ .

(٧٩) ابن حوقل : ٢٥٢ ، ٢٥٩ . المقدسي : ٥٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٩ .

(٨٠) المقدسي : ٢٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، آخر ٢٢٧ .

(٨١) ابن حوقل : ٤٩٠ .

(٨٢) ابن حوقل : ٣٧٨ .

اخيرا نأخذ عن ابن حوقل (٨٣) وصفه اسواق نيسابور . « فاما اسواقها فانها خارج المدينة والقهندز في الربض . وخيرة اسواقها : سوقان : احداها تعرف بالمربعة الكبيرة ، والاخرى بالمربعة الصغيرة . فاذا اخذت من المربعة نحو الغرب ،فالسوق ممتدة إلى مقابر الحسينيين . وفي خلال هذه الاسواق خانات وفنادق يسكنها التجار بالتجارات ، وفيها الخانبارات للبيع والشرا . فيقصد كل فندق بما يعلم انه يغلب على اهاله من انواع التجارة ، وقل فندق منها لا يضاهي اكابر اسواق ذوي جنسه . ويسكن هذه الفنادق اهل اليسار ممن في ذلك الطريق من التجارة ، واهل البضائع الكبار والاموال الغزار . ولغير المياسير فنادق وخانات يسكنها اهل المهن وارباب الصنائع (٨٤) بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصناع ، كالقلانسيين في سوقهم غير فندق فيه الحوانيت والحجر المماوءة بهم، وكذلك الاساكفة والخرازون والحبالون إلى غير ذلك في اضعاف اسواقهم الفنادق المماوءة بذوي الصنائع منهم . واما فنادق البزازين وخانباراتهم بها وبيعهم فيها وشراهم ، فاكثر البلدان يشركهم في ذلك ولا يقصرون عنهم » .

الاسفار المائية

تحمل المياه ، في البحار والانهار ، سفنا كبيرة وصغيرة ، متى تسنى لها . وقد ورد ذكر ما يقرب من خمسين نوعا من السفن واسمائها في كتاب عجائب الهند وفي مؤلفات المسعودي وابن حوقل

---

(٨٣) ابن حوقل : ٤٣٢ (الاصطخري : ١٤٦) .

(٨٤) ارباب الصنائع ، المختلفون عن أهل المهن والصناع (فيما يلي) : انظر مكتبة الجغرافيين العرب ، ج٤ ، ٢٨٢ – ٢٨٣ و ٣٥٧ .

والمقدسي (٨٥) . وجاءت تلك التسميات عامة جدا : مثل سفينة وسنبوك وزورق ... او مبهمة في معظمها ، الا اذا اريد تحديد اصلها : مثل جبلة في بلاد الشام الشمالية وواسط والرقة (٨٦) في العراق ، او تعيين وظيفتها : مثل المكية لنقل الحجاج والجاسوس والعبارة والمساحلة (٨٧) ، او بيان حجمها خاصة الصغيرة منها مثل الحمامة والطيارة ، او دفعها ضريبة مالية كالعشري اي الخاضع إلى دفع العشر ، او تعْريب اسمها مثل بركة اللاتينية وشنكول (قاطع طريق) الفارسية وشلندي الرومية (٨٨) .

لكن شاء حسن الحظ ان نعثر على معطيات اضافية عن تقنيات بناء السفن ، او بالاحرى ، في الحد الادنى ، عن بناء نوعين من السفن التي اسميها كلاسيكية وخاصة بالاسفار البحرية البعيدة . وسثل

---

(٨٥) عجائب الهند : فقرة ١٤ و ١٧ : فلو ومطيال . المسعودي (م) : فقرة ٣٥٨ و ٨٧٩ : التيرماهية ، البوارج (هندية) ، الشواني (رومية) . ابن حوقل : ١٥١ و ١٩٧ (عند الروم : درمون حمال جنود ، شرندي أو شلندي مسلح للقتال م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٤ و ٢٧٦) ، مراكب حربية وصينية : انظر شانية و م ج ع ، ج ٤ ، ج ٤ ، ٢٧٩) ، ٢٣٦ : السميريات . المقدسي : آخر ٣١ - ٣٢ و م ج ع ، ج ٤ ، حسب الأسم : عرداس ، برعاني ، بركة ، برمة ، بيرجة ، براكية ، دونيج ، جبلية جلبة ، جاسوس ، حمامة ، خيطية ، كروانية ، مكية ملقوطة مركب مسيحية معبر مثلثة ، قارب ، رقية ، شابوق ، شذن ، سفينة ، شلندي شموط ، شنكولية ، صيني ، سمارية (انظر سمارية ربما عوضا عن سلاريون)، سوقية، تلوي، طيرة ، طيارة ، عشري ولجية ، واسطية ، زبرباذية ، زبزب ، زورق ، نضيف اسماء الأدقال (دقل ، دولي ، صاري : المسعودي (م) فقرة ٣٨٠ و ١٣٥٥ ، والمسافة البحرية : زام (عجائب الهند ٣٠١ ، ٣٠٣) .

(٨٦) رقية ، لعلها أيضاً رقية بكسر الراء : بمعنى رقة الماء : م ج ع ، ج ٤ ، ٢٤٩

(٨٧) ولجية : م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٩ .

(٨٨) شلندي، خلنديون: م ج ع، ج ٤ ٢٧٤ (شرندي) و ٢٧٦ نسب ابن حوقل هذه السفينة الحربية الى الروم، الا ان المقدسي يذكرها ، ٣٢ مع سائر السفن بلا اضافة اخرى .

هذه الاسفار هوية نبيلة : فقد قيل لنا (٨٩) ان الحجاج بن يوسف ، والي العراق الشهير ، « اول من اجرى في البحر السفن المقيّرة المسمّرة غير المخروزة المدهونة والمسطحة (٩٠) غير ذوات الحآجىء » . اذن لدينا المسمار من جهة ، ومن جهة اخرى الالواح المجمعة حرفا إلى حرف ، المثقوبة بثقوب تمرر فيها الياف الخياطة . وفي الحالتين يستعمل القار لسدّ الشقوق .

ويذكر الجغرافيون هذين النوعين من السفن . فيتحدث المقدسي ، وهو اقلهم تبسطا في الموضوع ،عن مراكب مقيّرة كبار مسمّرة تجري في بحر الخزر (٩١) . ويشير اليعقوبي في المغرب إلى رسو مراكب في بنادره تشبه المراكب التي تعمل بالأبلّه ، ميناء البصرة ، ويركب فيها إلى الصين (٩٢) . وينفرد ابو زيد السيرافي بدقته ، ويميز السفن المخيطة التي يختص ميناء سيراف بعمالها ، على حد قوله ، والسفن المسمرة المصنوعة في بلاد الشام او عند الروم . ويسمي نوعا آخر سيرافيا ايضا ، تسد شقوقه بشحوم الحيتان (٩٣) وتخم لوحة السفينة

---

(٨٩) الجاحظ (ح) ، ج١ ، ٨٢ ، يكرره ابن رسته : آخر ١٩٥ — ١٩٦ (ترجمة ٢٢٧) .

(٩٠) مسطح ، حرفيا : مستوى ، افطس خاصة في الأنف : انظر ريغ ، المعجم ، ٢٥٥١ .

(٩١) المقدسي : ٣٦٢ .

(٩٢) اليعقوبي : ٣٦٠ . اضيف الى النص مماثلة ، وان كان يرد فيه متسمة ، مصنوعة .

(٩٣) السيرافي : ٩٣ ، ١٣٣ . انظر أيضاً المسعودي (م) : فقرة ٤٠٥ . وصيف شاه : ٦١ وموضوع السفينة المصنوعة كلها من النارجيل بما فيها حمولتها : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٠٠ . اخيراً نلاحظ ان كتاب رحلة الى لابونية تأليف رينيار يحوي عدة مقاطع تستعرض هذه المواضيع ذاتها .

بالمرساة التي يفتل بربير (بردى) قبرص (٩٩) احيانا حبالا لها ، وبالسُكّان : وهو محور مثبت في مؤخرة السفينة على طرف غاطسها ومؤلف من لوح جانبي يحرك بحبلين إلى ميمنة السفينة وميسرتها (٩٥) . والحقيقة ان هذا الوصف للسفينة ناقص ، يعوزه الحديث عن الشراع(٩٦) الهام جدا .

كذلك يُعْنَى الجغرافيون بانواع الملاحة ، فيتحدثون باهتمام متزايد عن المراكب النهرية وعن الملاحة الساحلية والملاحة البحرية في الباحة . لكنهم لا يذكرون الملاحة النهرية الا عند الاضطرار إلى نقل حمل احدى السفن إلى سفينة اخرى قرب الحواجز ، كما هي الحال على نهر النيل الاعلى عند الجنادل او في احدى الاقنية العراقية(٩٧) . وتلهم الملاحة الشاطئية المقدسي مقطعا بطوليا ، يصف فيه الطواف حول جزيرة العرب المنوه به في مطلع هذا الفصل . والحقيقة ان ملاحة الباحة استقطبت جلّ الاهتمام ، فذكرت مسافات هائلة ومضخمة : ٤٥٠٠ فرسخ اي ٢٥٠٠٠ كم من السويس إلى الشرق الاقصى (٩٨) ، و٢٥٠٠ فرسخ اي حوالي ١٤٠٠٠ كم من انطاكية إلى جزائر السعادة

---

(٩٤) ابن حوقل : ١٢٣ .

(٩٥) المقدسي : ١٢ ، والترجمة : ٣٣ ، حاشية ١٢ (مع المراجع) .

(٩٦) سوف نتحدث عنه فيما يلي في بحث الحياة البحرية ، لكنها لم توصف ابداً ، ولم يذكر صنعها الا بالنسبة للسفينة المبنية من النارجيل: الاوراق للاشرعة . انظر ما تقدم ، حاشية ٩٣) ، ولا شكله ، المثلثي بصورة رئيسة (انظر ف . بروديل ، المدنية المادية والاقتصادية والرأسمالية ، القرن ١٥ – القرن ١٨ ، ج١ : بنيات الحياة اليومية . الممكن والمستحيل ، باريس ، ١٩٧٩ ، ص ٣٥٣ – ٣٥٥) .

(٩٧) ابن حوقل : ١٤٥ ، آخر ٢٤٢ . انظر أيضاً ابن رسته : ١٨٥ (بطائح العراق ، المرجع ذاته . أيضاً : سد مراقبة على نهر دجلة) .

(٩٨) ابن خرداذبة : ٧١ .

في المحيط الاطلسي (٩٩) . اما تقدير المسافات بايام الملاحة ، فأدقّ بلاشك ، لكن ليس على الدوام : ثمانية ايام لقطع بحر الخزر من الجنوب إلى الشمال ، ٤٨ يوما من شبه جزيرة ملقة إلى عمان ، و١٠ — ٢٠ يوما من جاوة إلى كمبسة ، وشهران (١٠٠) من عمان إلى جهة الزنج .

وحتى ولو تخللت الملاحة الشاطئية الاسفار الطويلة السابقة — قد تعلل شيئا من تضخيم بعض المسافات — تظل الرحلات البحرية إلى البلدان القاصية مرتبطة بملاحة الباحة التي تقتضي معرفة الرياح (١٠١) والكواكب (١٠٢) بدقة ، وتعتمد على الخرائط (١٠٣) والآلات الضرورية لقياس الوقت وسرعة السفينة (١٠٤) . ويظهر طقس رديء على طريق الهند العراق : فيمتنع سفر السفن الثقيلة الحمل عليه في شهر حزيران . ومهما كان الطقس ، يتوقف السفر في سيراف او قبلها ، بالنسبة إلى السفن الصينية او غيرها من السفن الكبيرة ، التي

---

(٩٩) ابن الفقية : ٧ . تقديرات اخرى في اخبار الصين والهند : فقرة ٤ ، ١٣

(١٠٠) انظر على التوالي ابن الفقية : ٢٩٨ ، عجائب الهند : فقرة ٨٣ ، ابن سيرابيون : ٩٨ وابن الفقية : ٢٩٦ .

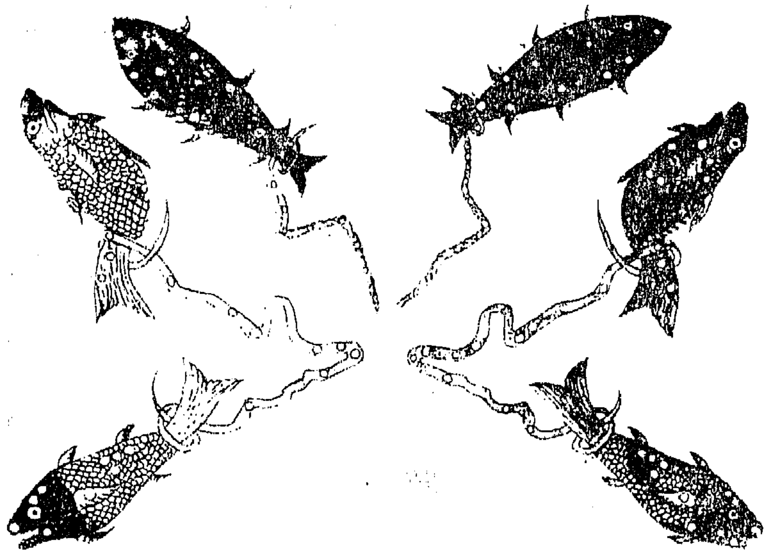
(١٠١) اخبار الصين والهند : فقرة ١٠ — ١١ . المسعودي (م) : فقرة ٢٥٨ . المقدسي : ١١ آخرها (البحر الأحمر) بشأن هذه الملاحة عامة ، انظر الكتاب الاساسي لج. ف . حوراني ، الملاحة العربية في المحيط الهندي في العصور الوسطى القديمة والاولى ، برنستون ، ١٩٥١ .

(١٠٢) عجائب الهند : فقرة ٤٦ مكرره .

(١٠٣) عجائب الهند ، مشار اليه . المقدسي : ١٠ — ١١ (ترجمة ٣١ حاشية ٥) وجغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١١٦ ، حاشية ٢ .

(١٠٤) انظر مناقشة ابن الفقية : آخر ٢٩٦ — ٢٩٧ لدي خوية ، المرجع ذاته ، معجم الألفاظ ص ٤٣ — ٤٤ روماني ، تحت لفظ كنب .

تنقل احمالها بسفن صغيرة حتى نهاية الخليج العربي او حتى جزيرة العرب.(١٠٥)



المتحف البريطاني ، لندن ، القسم الشرقي ، ١٤٠٧ ، ورقة ٧٨ ظ -٧٩
كوكبة السمكتين
(المصدر : عبد الرحمن الصوفي ، صور الكواكب ، تاريخ النسخ ؛ ١٠٩٤ ﻫ)

ويكثر رواد هذه البحار او البنادر : مثل « الرؤساء » بجميع معاني هذا اللفظ ، كالربانيين ، ومراقبي حمولات السفن ، والاختصاصيين بالخرائط البحرية ، ووكلاء البيع والشراء ، والنوتيين (١٠٦) . فهؤلاء المحترفون مشهورون جدا، بقيت اسماؤهم

---

(١٠٥) أخبار الصين والهند : فقرة ١٣ (ح٢) . ابن الفقيه : ١١ . المسعودي (م) : فقرة ٣٥٨ .

(١٠٦) المسعودي (م) : فقرة ٢٤٦ . عجائب الهند : فقرة ٩ ، ١٥ ،وص ٢٠٤ آخرها . المقدسي: ١٠ (الترجمة ،حاشية ٤ : رياضي ترجم محاسب حرفيا عالم رياضيات ، والأصح فلكي - كرتوغرافي يرسم البورتولانات : خبر شفهي من ر . بلاشير ، في كانون الاول ١٩٦٣ . انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، مشار اليها) : ٣١ .

شائعة بين الناس ، منهم ابو علي بن حازم ، تاجر الأسفار البعيدة في عدن ، ومحمد بن زيديون ، وجوهر بن احمد ، واحمد بن جعفر واخوه عبد الصمد اللذان غرقا (١٠٧) . وينتمي كل هؤلاء إلى عالم واحد (١٠٨) . ولهم تعابيرهم الخاصة (١٠٩) واهازيجهم (١١٠) ، ومبادئهم الاخلاقية (١١١) ، وتنظيمات عائلية في الغالب (١١٢) ونفوذ (١١٣) . وتتعرض السفينة إلى ثلاثة اخطار . الخطر الاول العاصفة التي تقضي بتضييق بسط الشراع او تخفيف الحمل برمي بعضه (١١٤) ، واسوأ ما ينجم عنها غرق السفينة والسفار او ويلات البقاء على قيد الحياة المضمنة في مختارات شعرية (١١٥) . ويتمثل الخطر الثاني في الحيتان التي تنفر باصطناع الضجيج (١١٦) ، والا وجب النزول ، بعد صدمها السفينة ، إلى قعرها لرؤية الاضرار

(١٠٧) المسعودي (م) : فقرة ٢٤٦ ، ٣٠٦ . المقدسي : ١١ .

(١٠٨) على البحر ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ٢٥١ – ٢٦٩.

(١٠٩) مثال عند المسعودي (م) : فقرة ٣٧٤ ، ٣٧٩ وما سبق حاشية ٨٥ آخرها .

(١١٠) المسعودي (م) : ٢٤٥ مذكور في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢، ١٦٩ .

(١١١) عجائب الهند : فقرة ١٤ .

(١١٢) المسعودي (م) : فقرة ٢٤٦ عجائب الهند : فقرة ٤٩ .

(١١٣) عجائب الهند : فقرة : ٥١ ، ١١٢ .

(١١٤) اخبار الصين والهند : فقرة ٩ ، عجائب الهند : فقرة ٢٧ ، ٤٦ ، ٤٨ . وصيف شاه : ٦٠ .

(١١٥) اخبار الصين والهند : فقرة ١١ . عجائب الهند : فقرة ١١٢ ، ص ٢٩٥ وغيرها .

(١١٦) بضرب النواقيس : اخبار الصين والهند : فقرة ١ (ح٣) . ابن خردا به: ٦١ . عجائب الهند : فقرة ٩ .

واصلاحها ان امكن (١١٧) . والخطر الثالث والاخير والاهم القراصنة المنتشرون في جميع الاماكن تقريبا في بحار الهند والصين ، وعلى مقربة من جزيرة سقطرة في الجهة الجنوبية ، او في الغرب في البحر المتوسط الذي يعيث فيه الروم فساداً (١١٨) .

وفيما عدا الاخطار ، تنتظم الحياة على ظهر السفينة . ففي الليل ترسو السفينة (١١٩) ، وتتوقف في احدى المراحل،ويُرْمَى الانجر لاجراء الاصلاحات اللازمة او الاستعذاب : وفي هذه الحالة تبقى السفينة بعيدة عن البر عرضة لمخاطر — منها خطران جديدان — الصخور الناتئة والحبال الرملية ، والاقوام غير المعروفة او على النقيض المعروفة بانها من اكلة اللحوم البشرية ، وترسل بعض السنابيق في الواحد منها بحوالي خمسة عشر ملاحا لجلب الماء (١٢٠) . لكن اسعد ما في البحر ، واضمن واسلم ما فيه ، هو وقت مغادرته والعودة إلى

---

(١١٧) عجائب الهند : فقرة ١١ حيث لاحظ السفار ان سمكة نطحت المركب . فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه » ، ونبرز اللفظ الأخير الذي يدل على عدم ثبات شديد .

(١١٨) اخبار الصين والهند : فقرة ١١ . المسعودي (م) : ٨٧٩ ، المسعودي (ت) : ٨٢ ، ٤٥٥ . عجائب الهند : فقرة ٦٣ ، ٨١ ب . وصيف شاه : ٦١ — ٦٢ وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧٢ . انظر أيضاً ، مذكرة عن هجرات الغجر الى أنحاء العالم ، لا يدن ، ١٩٠٣ ص ١٢ — ١٣ (انظر الجاحظ ، البخلاء ، ترجمة ص ٧٠ و ٣٤٥) .

(١١٩) المسعودي (م) : ٨٩٨ .

(١٢٠) اخبار الصين والهند : فقرة ١١ ، ١٣ — ١٦ . عجائب الهند : فقرة ١٨ ، ٤٠ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ — ٢٤٥ . المسعودي (م) : فقرة ٨٧٨ ، ٨٩٨ .

الوطن . ويشعر بهذا الشعور جميع البحارة من سابقي السندباد (١٢١) ومنافسيه او تلامذته .

الأسفار البرية

يسير المرء في البر يوما بعد يوم حتى يصل إلى المنزل التالي . ويعدّ يوم مسيره ذاته وحدة اساسية في قياس المسافات . مع ذلك ، لا يتخلى العلم عن قول كلمته . فالمسعودي يرى ان جميع القياسات تعتمد على قياس غلظ الارض (قطرها) البالغ ٧٦٦٧ ميلا (١٢٢) باعتبار الميل ٤٠٠٠ ذراع بالسواء ، والذراع ٢٤ اصبعا ، والاصبع ست شعيرات . الا ان الميل ثلث الفرسخ (١٢٣) ايضا ويمثل الفرسخ الوحدة الحقيقية في قياس المسافات الطويلة . ويساوي ٥,٧ كم ونيفا . ويعادل الميل سقسا (١٢٤) في الوجه البحري في مصر . ولدينا البريد المشار اليه هنا وهناك في بعض الكتب (١٢٥) ، ويعرف بانه المسافة الفاصلة بين منزلين . وفيه خلاف حسب البلدان : فيبلغ فرسخا في آسية الصغرى الرومية ، واربعة فراسخ في العراق وفي بادية جزيرة العرب ، وفرسخين في اغلب الأحيان (١٢٦) ، وبهذا الرقم اخذ

---

(١٢١) عجائب الهند : آخر ٢٠٥ ، ٢٣٧ .

(١٢٢) المسعودي (ت) : ٤٤ — ٤٥ (مع اختلافات عن الدرجة : من ٥٦ و ٢/٣ الى ٨٧ ميلا) انظر أيضاً المسعودي (م) : فقرة ١٣٢٦ .

(١٢٣) بشأن وحدات قياس داخلة في النظام ذاته ، انظر جغرافية دار الاسلام، ج٢ ، ١٧ — ١٨ ، (مع احالات أخرى) تضاف صيحة(انظر مجع ، ج٤ ، حرف صاد . يلاحظ بشأن الفرسخ امكانية وجود تقديرات : انظر مثلا المقدسي ، ٤٨٧ (فراسخ قريبة اقصر من المتوسطة) .

(١٢٤) ابن حوقل : ١٣٨ وما يليها (ترجمة : ١٣٦ ، حاشية ٦٣٨ ، تصحيح احالة الحاشية) . م ج ع ٤ ، ٢٦١ .

(١٢٥) ابن حوقل : آخر ١٤٤ . المقدسي : ١٣٤ — ١٣٥ ، ١٩٥ .

(١٢٦) ابن حوقل : ١٩٥ .

المقدسي . أما الهمداني ، فيعتمد القيمة اولى (١٢٨) ، ويتحدث ايضا عن بريد جلذان ، اي عن بريد ونصف او ستة فراسخ (١٢٩) .



روسم المتاحف الوطنية متحف لوفر . القسم الاسلامي ا و آ ٤٠٨٧
صوة ميلية . فلسطين . القرن الثامن . حجر كلسي أبيض

حجر منقوش عليه : «أمر بشق هذه الطريق وصنع الحجارة عبدالله عبد الملك أمير المؤمنين رحمة الله عليه . من اورسليم إلى هذا بالميل ثمانية اميال» تنتشر صوات مماثلة ، صنعت في عهد الخليفة الأموي . عبد الملك (٦٨٥–٧٠٥) على طريق دمشق بيت المقدس (تصوير ا .شوزيفيل) .

وترد تعابير اخرى تسم الرحلة وتعداد ارقامها ذاته بمزيد من الواقعية . مثال ذلك لفظ منزل (او منزلة) اي مسير يوم ، او بدقة المسافة بين استراحتين (١٣٠) . ويضيف لفظ منهل (منهلة) فكرة

(١٢٧) المقدسي : ٦٦ . انظر أيضاً الخوارزمي (م) : آخر ٦٣ .
(١٢٨) كما يستخرج من الأرقام الواردة عند الهمداني : ١٨٥ و ١٨٧ .
(١٢٩) الهمداني : ١٨٧ .
(١٣٠) ابن حوقل ، ٤٢٢ و م ج ع ، ج ٤ ٣٦٣ .

وجود الماء الذي ينتظره البشر والحيوان (١٣١) . الا ان المرحلة هي اللفظ الحقيقي والاساسي وحتّى المقلق اي مدة السير ومسافته (١٣٢) . ولا تذكر تفاصيل عن المرحلة ، بل توصف بأنها كبيرة او صعبة او خفيفة (١٣٣) ، وتبقى كما هي في الطبيعة . وتقوم احيانا حسب نظام اساسي . فعند الهمداني (١٣٤) .:

٢٢ مرحلة = ٣٥ بريدا = ٤٢٠ ميلا

اي ان المرحلة ١٩ ميلا تقريبا او حوالي ٣٦ كم . وجعل المقدسي (١٣٥) المرحلة ستة فراسخ اوسبعة ، أي بين ٣٤و٤٠كم ، فان زادت نقّط على الهاء نقطتين ، وان جاوزت العشرة — ٥٧ كم تقريبا — نقّط تحت اللام نقطتين . فان نقصت عن الستة ،نقّط فوق الهاء نقطة . . ويلاحظ ان جمع المكان والزمان الذي يحدد المرحلة ، قد يميل ، مثلما نرى ، لصالح الحد الاول : فالمسافة هي الاولى في حكمنا ، وتتلاشى احالتها المبدئية إلى مسيرة اليوم . الا ان الحالة العكسية واردة : عندئذ . يحتل الزمن المقام الاول ، ويكفي اليوم وحده للدلالة على المرحلة (١٣٦) كذلك الشهر (١٣٧) في الرحلات الطويلة .

---

(١٣١) المقدسي ، ٢٥٠ (و ح ١) .
(١٣٢) احياناً أيضاً رحلة : م ج ع ، ج ٤ ، ٢٤٥ .
(١٣٣) ان حوقل ، آخر ٣١٣ — ٣١٤ ، ٣٨٤ — ٣٨٥ ، ٤٥٦ — ٤٥٧ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، المقدسي ، ٣٨٣ ، م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٨ .
(١٣٤) الهمداني ، ١٨٥ .
(١٣٥) المقدسي ، ١٠٦ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٦٤ ، ح ج ، ترجمة ، ١٣٩ ، ح٦) .
(١٣٦) نهار ويوم : ابن حوقل ، ٤٥٥ — ٤٥٧ ، المقدسي ، ٢٥٠ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٨ (لفظ حفيف) .
(١٣٧) يمكن حساب الشهر اعتمادا على المقدسي ، ٦٤ (ح ج) :حوالي ١٠ اشهر=

وعليه ، تتنوع الاسفار ، وتتفاوت اهمية المسالك . وقد اشرنا من قبل إلى الطرق الكبرى ، التي تسلكها التجارة المسلمة الدولية ، وتسميها جادات ، وهي كلمة توحي بصورة درب شُقّ وطرق منذ العصور القديمة(١٣٨) ، او محجات ، اكثرة الاختلاف اليها لأن موضع المثاني والمرور من الاشياء محجوج اي يتردد اليه الناس حجاجا كانوا او غير حجاج (١٣٩) . وينبغي ان نفكر ايضا ، بالنسبة إلى هذه المسارات الاساسية ، في طريق البريد ومراحلها ، وهي تتقاطع معها ، اوفي وهسات الدواب نقصد دواب القوافل(١٤٠). لكن تبرز على وجه التخصيص امهات الطرق وبنياتها(١٤١) ، وتشكل كلها شبكة كثيفة إلى اقصى حد ، ومعقدة . فيشعر المقدسي بالحاجة إلى شرح معنى

لقطع ٢٦٠٠ فرسخ ، أي ١٥٠٠ فرسخ في الشهر ، و ٥٠ كم في اليوم . وهذا التقدير كبير كما نرى بالنسبة الى المرحلة المتوسطة المشار اليها لكن صحيح ان المقصود هنا قياس مجمل مملكة الاسلام حسب خطوط الطول من المغرب الأقصى حتى طرف اقليم المشرق . وتقابل ١٥٠٠٠ كم ٢٦٠٠ فرسخ وهي مبالغ فيها الى حد كبير ، اذ ان المسافة جوا هي في الواقع حوالي ٧٠٠٠ أو ٧٥٠٠ كم. واذا ارتكزنا الى مسافة حقيقية (حسب المسالك) تساوي ١٠٠٠٠ كم ، نصل الى ١٠٠٠ كم في الشهر ، والى مراحل اكثر موافقة للمتوسط . ونشير الى لفظ آخر يدل على شهر السفر ، نعني الهلال (الجمع (اهلة) ، القمر (الاسواني ، ٢٦٥) .

(١٣٨) نبرز تعبيري طريق الجادة وجادة الطريق : م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٢ ، م جاد أيضاً بمعنى مطروق أو نشيط .

(١٣٩) الهمداني ، ١٨٣ ، مع الفاظ اخرى لا ترتبط بالجغرافية بقدر ما ترتبط بالمعجمية الخالصة في الاطار العربي الصرف (ما عدا المدخل) وهو نطاق الكتاب .

(١٤٠) انظر المقدسي ، ٤٢٠ وما تقدم بالنسبة الى البريد : يدل لفظ سكة بان واحد على الطريق والمراحل والمسافة بينهما : انظر ابن خردا به ، ٩٩ ، ١١٧ ، ابن الفقيه ٢٨٦ ، الخوارزمي (م) ، ٦٣ — ٦٤ ، ياقوت ، ترجمة جويده ، ٥٩ ، ودوزي ، ج١ ، ٦٦٦ .

(١٤١) المقدسي ، ٢٥٢ ، ٤٨٨ (حاشية ق) ، ٤٩٠ (حي) ، ٤٩٥

الالفاظ الدقيق .وإلى التمييز بين المسالك وشتّى انواعها (١٤٢) .

وتبقى المسالك حية ، يمر عليها الناس : فالرازي (١٤٣) يعتبران حياتها تدوم إلى الابد تقريبا ، ويحدثنا عن طريق اغسطس (فيا اوغستا) القديمة التي تخترق كل الاندلس من قادس إلى نربونه . ويخبرنا ان المسافر يستطيع « اذا رغب الا يحيد عنها » ، « فهي طريق عريضة مرصوفة بالحجارة لكي يتمكن البشر من السير عليها في الشتاء عندما تتبلل الارض » . وتموت المسالك احيانا . فلنسمع ما يقوله ابن حوقل عن طريق مهجورة لاسباب امنية ، تصل همذان باذربيجان (١٤٤) او عن الدرب الذي كان يمر بالواحات المصرية (١٤٥) ، « وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب ، على الطريق الذي كان يؤخذ ويسلك قديما من مصر إلى غانة ، فانقطع . ولا يخلو هذا الطريق من جزائر النخيل (١٤٦) ، وآثار الناس. وبها (اي الواحات)إلى يومنا هذا ، ثمار كثيرة ، وغنم وجمال قد توحشت ، فهي تتوارى » .

لكن لنعد إلى الحديث عن الحياة . فالانسان لا يمر على الطريق فقط ، بل يخلقها من العدم ، بخطوه وبوهس القوافل وطرقها الارض . وهو الذي يشقّها ، ويراقبها ، ويصونها . وتعدد مسالك الجغرافيين المعابر ، والسدود المبنية في المستنقعات ، وقناطر الحجر والماصر ،

(١٤٢) المقدسي ، ١٠٦ .
(١٤٣) الرازي ، ٩٥ (و ح ٥) .
(١٤٤) ابن حوقل ، ٣٦٠ .
(١٤٥) ابن حوقل ، ١٥٣ (مشار اليه في جغرافية دار الاسلام، ج٢، ١٧٧).
(١٤٦) دي خويه (م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٥) ادى بواحة جزائر النخيل، واحتفظت لها أنا بمعناها الحرفي ، الذي يلائم النص فيما يبدو لي .

ومراحل البريد ، والمنازل والفنادق ، والرباطات ، والتجار المتجولين والاسواق المنعزلة ، والآبار او الاحواض ، والمساجد ، والمراصد ، والرسوم وغيرها من المراقبات (١٤٧) . اذن تنتزع الحياة احيانا بلا تواني من الطبيعة الصعبة ، بل العدوانية صراحة ، اضافة إلى اناس آخرين متربصين بالمسافرين ، نعني بهم الصعاليك (١٤٨) .

بعض الذكريات

وقطعا تبدو بعض الطرقات ممتازة . ففي فارس ، في كورة سابور ، « ترى الأنهار جارية ، والثمار دانية ، والقرى ممتدة ، تمشي الفراسخ تحت ظل الاشجار ، مثل السغد ، وعلى كل فرسخ خباز وبقّال » (١٤٩) . وبعض الطرق كلاسيكية ، اذا جاز هذا التعبير ، لأن المشقة تقترن فيها بالمتعة ، كما في طريق « واد لقرية حسنة » (١٥٠) ولنتتبع خطى ابن رسته على الطريق الذاهبة من مدينة السلام إلى همذان (١٥١). في البدء يرى النخيل والمزارع المتصلة والأنهار ،

---

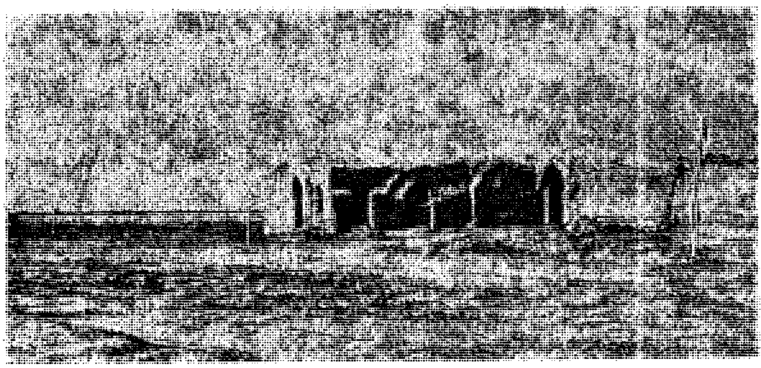
(١٤٧) هذه التدوينات منهجية عند الجغرافيين ، ويستحيل ذكر جميع الاحالات . فعلى سبيل المثال ، انظر لنظرة شاملة شبه كاملة : ابن رسته ، ١٦٤ — ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ . امثلة اخرى بين الف عند قدامة ، ١٨٨ ، ٢٢٥ ، وما يليها ، وابن حوقل ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، آخر ٣٨٤ — ٣٨٥ ، ٤٢٢— ٤٢٣ ، ٤٥٤ — ٤٥٥ ، آخر ٤٦٦ — ٤٦٧ — ٤٩٧ ، ٥١٦ وما يليها ، ٥١٩ ، المقدسي ، ٦٦ ، ١٩٥ و ح ز) ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٩١ وما يليها .

(١٤٨) ابن رسته ، ١٦٧ ، ابن حوقل ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٦٠ ، وما تقدم الفصل ٣ ، بشأن القفص والبلوص .

(١٤٩) المقدسي ، ٤٢٤ .

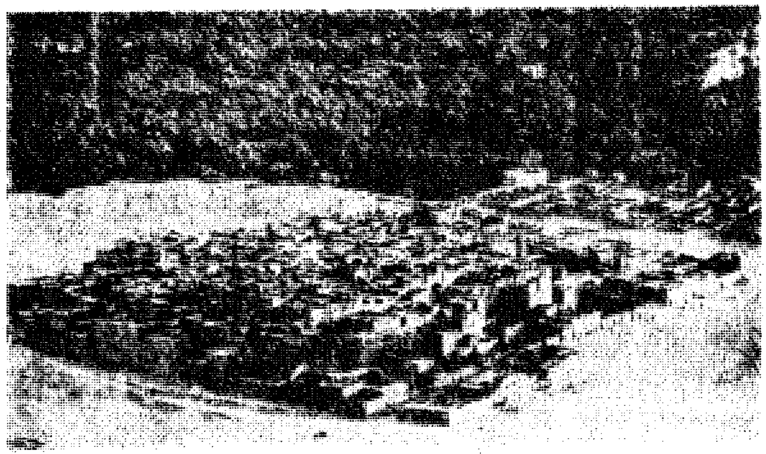
(١٥٠) ابن حوقل ، ٣٨٥ .

(١٥١) ابن رسته ، ١٦٣ — ١٦٧ .



خان في اقليم الجبال

(تصوير انج مو راث الأكبر)



بندر قوافل امزرو قرب زاغورا في الصحراء الكبرى الشمالية

(تصوير جان ديتيه ، باريس)

باختصار العراق . ثم ارض مستوية وقرى يمنة ويسرة وقد خربت ، وخلا عنها اهلها خوفا من الاعراب . وتستطيل المرحلة سبعة او ثمانية فراسخ مدة ثلاثة ايام ، ثم تظهر طلائع الجبال ، وتتوالى القناطر . وتشاهد هنا آثار الساسانيين ، وهناك وادي على جانبيه أشجار الدفلى ، ثم شعب وقنطرة جديدة . بعد ذلك ، في اليوم التالي ، تنظر قنطرة ايضا ، وهناك طاق مبني بحجارة مفروش بمرمر ، في وجهه شجرتا فستق ، وشعب وفج والاكراد . ثم تأتي قرى متصلة ، وبيت نار مجوسي ، وشعب آخر ، وفج بين جبلين ، ومشارف جبل بهستون ، وعين ماء مقدار ما يدير خمسة احجار طاحونة . ثم يسير المرء على محجة متخذة من الحجارة ، تمر بابنية فارس القديمة (الاكاسرة) . وتصعد الطريق وتهبط ، وتجتاز الفجاج والشعاب واماكن مخوفة من الصعاليك ، ومزارع ايضا . وهناك قوم يبيعون التمر والجبن ، وقلة عقبة فيها رباط ، ثم انحدار إلى اسفل العقبة فالقرى والمزارع فمدينة همذان .

لا يتوازن دليل السفر دوما على النحو السابق . ويميل الميزان إلى الصعوبة والخطورة احيانا ، مما ينتظر المرء في بادية العرب مثلا ، يجعله يتردد ويرتعش خوفا . فسوف يتوقف في بعض المراحل الملائمة تقريبا اذا ما قورنت بما يلقاه في طريقه من مياه مالحة ، وآبار معطلة ، وصدف سيئة ، واعراب قطاع الطرق وغيرهم ، ودروب خفية(١٥٢)

---

(١٥٢) المقدسي ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ – ٢٥٦ وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٧٩ – ٨١ .

ويتعاظم الرعب في الشرق خاصة ، في مفازة فارس الكبرى ، التي تنفر كل الناس بلا ريب لو لم تكن مفترق بعض المواصلات الاساسية بين اقاليم المشرق في دار الاسلام . فليس يستدرك من مفازة فارس وخراسان ، متى تجاوزت تخومها ، على حد قول ابن حوقل (١٥٣) ، غير ما يعرض في اضعاف طرقها . من المنازل والرباطات الموقوفة على سابلة الطريق ، ليستجار بها في شدة البرد من الثلوج - وفي شدة القيظ من الحر ، وليس فيما عدا اطرافها كثير عمارة ولا سكان . وهذه المفازة من اكثر المفاوز لصوصا وفسادا (١٥٤) . ويصعب سلوكها الا على طرق معروفة ، ان تجاوزها متجاوز هلك . والمسلك في بعضها على السمت والقصد بالنجم ، ويحمل الزاد فلا ثبات فيها : فالماء مشكوك بوجوده ، ونادر او مالح ، والمساكن اطلال ، هجرها اهلها تحت ضغط طبيعة ظالمة او هربا من اللصوص . وما يرى على الطريق من مأوى او مزارع او قرى ، لا يوازي تكرار ابن حوقل لفظ مفازة "الرهيب المتسلط على الاذهان ....

وقد اجتاز المقدسي تلك الارجاء الموحشة (١٥٥) . وخاطر بان يضل الطريق ، وخاصة ان يتعرض إلى القتل على يد القفص . وألحّ ، لصالح المسافر ، على منازلها الامينة الممتعة ، وعلى الحياض والقباب(١٥٦) الكثيرة في طرفها ، القريبة الفراسخ . مع ذلك ينصح باصطحاب زاد لمدة ستة ايام . وجملة القول ان مفازة فارس لا يقطنها الا من قتل اباه

---

(١٥٣) ابن حوقل ، ٣٩٩ - ٤٠٠ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٨١ - ٨٤.
(١٥٤) القفص والبلوص في الطليعة ، ما تقدم ، الفصل ٣ .
(١٥٥) المقدسي ، ٤٨٧ وما يليها (الحواشي) .
(١٥٦) قبة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١٩ .

وامه ، الا اذا كان مكرها مثل حراس الحصون والرباطات ،[*] او من يشبه ذلك الرجل المعتوه — لعله عاقل — الوحيد الذي كان سعيدا يزرع حقلا انتزعه من الصحراء ، لاسيما بعد ان ذهب إلى نيسابور ، وضاق صدره فيها ، واستوحش من اهلها (١٥٧) .

حركات المبادلات التجارية : بعض صفاتها العامة

تعتمد التجارة بداهة على العملة ، سواء جرت على الطريق او في السوق او في المدينة او في الخان . اما المقايضة (١٥٨) فشاذة ومتبعة ، حسب النصوص الجغرافية ، في البلدان الغريبة . ويندر ايضا وجود الاتجار المتقطع الخاضع لمتقلبات مناخ يعطل المواصلات ، ووجود اقتصاد مغلق يخلو من المبادلات التي يمكن تصورها بسهولة كبيرة من خلال ذكر كورة المستنقعات او الجبال المنفردة في عزلتها (١٦٠) .

والقاعدة هي الحركة فيما عدا ذلك وفي جميع الاماكن . لكن في اي الاتجاهات وحسب اي المحاور ؟ اتيحت لي الفرصة في حديثي عن التجارة مع الغرباء ، ان الاحظ انها كانت تتم وبالاحرى ينظر اليها — في اتجاه واحد او تكاد ، نحو بلدان دار الاسلام ، لا العكس . فما هو الوضع ؟ في داخلها ؟ لا ريب اننا نعثر هنا وهناك على تدوينات

---

(١٥٧) المقدسي ، ٤٩٤ (ح س من ٤٦٣) مترجم في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٨٥ .

(١٥٨) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٠٥ (اضف ح٤ : أخبار الصين والهند فقرة ٧) ، ١٧٥ ، ٢٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ .

(٥٩ج) المسعودي (ت) ٦٥ — ٦٦ .

(١٦٠) مثلا جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٥٩ وما يليها ، ٢٠٣ — ٢٠٤ .

تحدد منشأ السلعة والمكان المرسلة اليه . الا ان عدد مقاطع هذه التدوينات نادر جدا اذا ما قيس بجميع المقاطع التي تشير إلى المصدر وحده . واذكر مثالا واحدا يعد نموذجا لعمل ابن حوقل والمقدسي باجمعه ، بل لجميع الجغرافية . فتحت عنوان « التجارة » في العرض العام لاقاليم المشرق ، عند المقدسي (١٦١) ، احصيت حوالي مائتي صنف مرتبطة ببلد منشأ ، وثلاثة اصناف فقط تحدد قصدها (١٦٢) .

اذن ، اين تذهب هذه الاصناف وغيرها ؟ إلى المدن بلا ريب في المقام الاول .لكن بلا تسميتها فهل تحمل إلى اقربها إلى اماكن الانتاج ؟ ربما ، انما جزئيا . وهنا تتاح لنا فرصة التذكير مرة اخرى باصول هذه الجغرافية . فقد فرضت ثقافة العصر العامة ، اي الادب ، منذ نشأتها ، ان تعرف في الحد الادنى بعض الاصناف المشهورة ، المطلوبة ، التي تتجه إلى المستهلكين الكبار في سر من رأى وبخاصة بغداد (١٦٣) ، مقر الخلافة وقطب المعرفة . فالتبصر بالتجارة والجاحظ نفسه (١٦٤) ، وابن خرداذبه والمسعودي وابن الفقيه وسائر

---

(١٦١) المقدسي ، آخر ٣٢٣ — ٣٢٥ (مع بلدان البلغار والترك) .

(١٦٢) المقدسي ، ٣٢٤ (س ١٩ — ٢٠ بصورة غير مباشرة) و ٣٢٥ (س ١٢ و ١٣) . يلاحظ ان الاستثناء الأول يتعلق ببغداد في ذهنية ما سوف يقال . وردت تدوينات القصد في النص أو في حاشية في الفصل التالي .

(١٦٣) انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٣٧ روماني اليعقوبي ، ٢٣٣— ٢٣٤ ، ابن الفقيه ، ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(١٦٤) في كتاب الامصار وعجائب البلدان مثلا .

الجغرافيين (١٦٥) درجوا على هذه العادة.وتحدث كراتشكوفسكي(١٦٦) عن هذا الادب ، فرأى بثاقب علمه ان الجغرافية الاقتصادية في تلك الايام كانت في الواقع جغرافية استيراد . يعني بذلك ان اكثرية الاصناف ، او كلها تقريبا ، يقال ان مصدرها من هذا البلد او ذاك ، وانها تقصد – اوقصدت (١٦٧) – الوصول إلى سوق بغداد العظيمة المركزية المثالية .

* * *

---

(١٦٥) انظر ابن خرداذبه ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦١ وما يليها واماكن متفرقة ،المسعودي (م) ، فقرة ٩٠ ، ١٧٨ ، ٢٥٢ – ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٣٦٣ – ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ واماكن متفرقة . ابن الفقية ، آخر ٢٩ – ٣٠ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٦٦ – ٦٧ ، ٨٤ واماكن متفرقة .

(١٦٦) مشار اليه ، ١٢٦ (١٣٠) .

(١٦٧) هذا التقييد لاخذ انحطاط العراق ومدنه بعين الاعتبار (انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند) لكن هذا لم يمنع النموذج الثقافي من التدخل ، ولم يتوقف الكتاب عن مدح بغداد مع ادراكهم انحطاطها (المقدسي ، ١١٣ ، ١١٩ – ١٢٠) .

الفصل الثامن

أصناف المبادلات التجارية وركائزها

تحمل اصناف المبادلات على الطرقات البرية والمائية ، وتدخل في ما نسميه الجغراقية البشرية ويطبع اروعها في الحد الادنى بطابع الادب ، زمنيا واصوليا . ويبتهج الاختصاصيون في هذا الفن ، من امثال ابن الفقيه والثعالبي (١) بكتابة لوائحها التي تتوالى فيها اسماء البلدان مرفقة بتعداد ما تنفرد بانتاجه . الا ان هذه الثقافة العامة لا تقتضي المعرفة الخالصة وحدها ، لأن معرفة المحاصيل الرئيسة الشهيرة والمطلوبة في شتى الاقطار تعد من نوع موضوع الاغتراب الكبير ، الذي يحث البشر على السفر على الطرقات ليثروا — ويعلموا ايضا اصلا — على ان يتوازى هذا التحرك مع خلجات الحنين إلى الاوطان . وقد شاع الموضوع هذا بلا انقطاع من الجاحظ إلى سندباد الف ليلة وليلة وكثير غيرهما (٢) ، واقترن بموضوع المخزن العالمي .

(١) ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥١ — ٢٥٥ ، الثعالبي ، ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) انظر مثلا الحصري ، زهر الأدب ، ٣٨٥ — ٣٨٦ ، البيهقي ، محاسن ، ٢٨٤ — ٢٩٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ — ٣١٨ .

ونستبعد هنا الرقيق الذين يجلب معظمهم من اوربة الصقالبة والسهوب التركية وافريقية السوداء الغربية او الشرقية . وقد اشرنا إلى تجارتهم في مكان آخر ، ولن نذكرهم الا في مفترقات طرق مرور يعبرونها إلى داخل مملكة الاسلام ، خاصة الاندلس والمغرب وخوارزم والسغد (٣) . وينطبق هذا التحفظ على جميع ما يحملونه معهم من خارج دار الاسلام . وسوف نهتم بداهة بما تبقى ، اي باصناف سلع دار الاسلام ، المجدولة على اساس البلدان المنتجة ، والمفروض انها تأخذ طريقها إلى بغداد او يجدر بها ان تفعل ذلك .

فهذا هو نهجنا . ولن نحذو حذو المؤرخين ، من امثال لومبار ، وكاهين واشتور وغيرهم . وسوف نحاول تقديم عرض ، بمعناه التجاري والاعلاني ، ونستهدي بقائمة الادب ، فنزور دار الاسلام بلدا بلدا ، ومنصاتها والاصناف الرئيسة التي توفرها لنا (٤) . هذا في الفترة التي تنتهي في منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م . بعد ذلك ، ننتقل إلى الجغرافيين الميدانيين ابن حوقل والمقدسي لنقدر الاختلافات بينهما وبين اسلافهما .

---

(٣) انظر ابن خرداذبه ، ٩٢ ، اليعقوبي ، ٣٤٥ ، ابن الفقية ٨٤ ، ٢٥٢ ، المقدسي ، ج٤ ، ٦٥ ، عجائب الهند ، فقرة ١٥ ، ٣٢ ، الاسواني ، ٢٥٤ ، ٢٨٩ وما يليها ، ابن حوقل ، ٦٩ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ٣٤٠ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، آخر ٤٩٤ ، المقدسي ، ٢٤٢ — ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٧٨ ، ٣٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٨٠ ، ٤٨٥ وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفهري ، ٦٥٠ — ٦٥١ (لفظ رقيق وخصيان) .

(٤) يحدد القصد في الحالات النادرة التي يعينها المؤلفون . نحيل أيضاً بشأن الأصنا ف التي سنتحدث عنها ، الى جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، فصل٣ ، ٩٥ — ٩٧ وفصل ٥ — ٦ واماكن متفرقة .

الاندلس والمغرب

تقع الاندلس على الهامش ، فلا تظهر الا نادرا في الادب . واذكر اصنافا تعد استثناءات ، منها عنبر السواحل الغربية ، الذي يحمل من قرطبة عن طريق شنترين وشذونة ، ويصدر إلى مصر بصورة رئيسة (٥) والمرجان المجلوب من الهند والصين (٦) إلى جزيرة العرب ، وزيت الزيتون ، والقطن والكتان والحلل (٧) ، والزعفران ، والتوابل او العطور (٨) ، واخيرا المعادن كالذهب والفضة والزئبق الاندلسي (٩) . ولحسن الحظ ، تمتلك الاندلس ، او بالاحرى شبه جزيرة ايبيرية ، اصنافا خاصة بها : فمؤلف تقويم قرطبة المجهول يتحدث عن ازدهار بساتينها ، وكذلك الرازي المتوفى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وسواء كان ذلك حرصا على الوصف الصرف ، او تنافسا في اطار ذهنية الادب من خلال نوع من الوطنية المحلية التي تريد ادراج امجاد الاندلس في لائحة الخصائص المعروضة لبلدان دار الاسلام ، فالرازي يخبرنا (١٠) في الحد الادنى بما يحدث تقريبا .

---

(٥) المسعودي (م) فقرة ٤٠٦ .

(٦) وصيف ، ٤١ يضاف مرجان البلدان الشمالية المعاد تصديره : ابن خرداذبة ، ٩٢ (ابن الفقية (٨٤) .

(٧) ابن الفقيه ، ٥٠ (حلل : ثياب الزينة) ، ٨٨ (بدقة : ذكر قلة النخيل) .

(٨) المسعودي (م) ، فقرة ٤٠٧ .

(٩) المسعودي (م) ، ٤٠٧ ، ابن الفقيه ، ٨٧ (مع تحديد الموضع) .

(١٠) اكثر من التقويم المعنى بالزراعة على التخصيص (عنه ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٣٠ - ٣١ روماني ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩) . بشأن المعطيات التالية ، انظر الرازي ٦١ - ٦٣ ، ٦٦ - ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ - ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ - ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ (يدقق لكل تدوين خاص) .

وتأتي في الطليعة المزارع والحقول . وتذكر الحبوب ، بلا تمييز كبير بينها ، وثمار الجنان او البرية ، كالموز والجوز والكرز والكستناء والبندق والتين (١١) والاعناب خاصة — زبيب ملقة الشهير افضل زبيب في الدنيا (١٢) — والزيتون في سهل الجرف في منطقة اشبيلية ، الذي تكثر فيه ، في مربع ضلعه خمسة واربعون ميلا او ستة وثمانون كم تقريبا ، ثمار يعصر منها الزيت الذي يصدر إلى المشرق (١٣) . وتلي كميات كبيرة من سكر القصب ، وعسل النحل وشمعه ، خاصة عسل لشبونه الابيض الناصع والسميك (١٤) وشمعه ، ثم نباتات التوابل او الصبغ او النسيج ، كالكمون والزعفران والعصفر والكتان وتوت القز والقطن (١٥) ، ثم الاخشاب ، وهي كثيرة ودخلها عالي ، كالصنوبر والبلوط والبقس من طرطوشه (١٦) خاصة . ويذكر أيضا القنص والصيد البحري وجمع العنبر واخيرا المواشي والبانها ، وترعى في مروج رائعة تبور وتزرع فيها الحبوب (١٧)

وهكذا تتنوع اصناف الخضرة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ويقابلها تنوع موارد الارض ، كالرخام الابيض

---

(١١) الزبيب خاصة : الرازي ، ٩٣ .

(١٢) الرازي ، ٩٨ .

(١٣) الرازي ، ٩٣ .

(١٤) الرازي ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٣ .

(١٥) خاصة قطن منطقة اشبيلية ، المصدر « الى جميع البلدان والى الجانب الآخر من البحر » : الرازي ، ٩٣ .

(١٦) الرازي ، ٧٢ . يشار أيضاً بالنسبة الى البلوط الى فحص البلوط (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٤ ، ح٢) الذي ينتج احلى ثمر في الاندلس : الرازي ، ٨٣ . خشبة عماد المنشآت البحرية في المرية : الرازي ، ٦٧ .

(١٧) الرازي ، ٧٦ ، ٨٢ — ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٧ .

والاسود ، والملح الصخري والبحري ، والمغرة والشب ، والبهرمان والاسمانجوني والسفير والصفير ، والخلقيدونية ، والزجاج ..... فغنى الارض الاندلسية ، لا مثيل له ، ومناجمها اعظم مناجم العصر انتاجا للذهب (١٨) والفضة والزئبق — وقد ذكرت من قبل — والحديد والقصدير والرصاص والزنك . وننهي النشاط الاقتصادي الاندلسي بثلاثة اصناف اساسية في العمل الحرفي : هي البسط والجلود والمنسوجات وبعضها مشهور في العالم اجمع (١٩) .

والمغرب هامشي ايضا ، وليس له ادب متخصص خلافا للاندلس . ولا يذكر له الا الاعناب والتين والزيتون في تونس ، وايضا في طرابلس الغرب وواحات ليبية (٢٠) اللتين تنتجان التمور والجلود والحبوب والاسلحة (٢١) . نشير ايضا إلى كذّان اتنا (٢٢) ، والاثمد والمعادن من فضة وحديد ورصاص (٢٣) ، ونختم بالبغال البربرية(٢٤)

---

(١٨) الى جانب المناجم ، يذكر تبر الرمال في نهر دارو حوالي غرناطة ، وسيغر رافد الابره : الرازي ، ٦٧ ، ٧٤ .

(١٩) بشأن ساراغوسه : الرازي : ٧٨ .

(٢٠) اليعقوبي ، ٣٥٠ ، المسعودي (ت) ، ٣٥ ، اسحاق ، ٤٤٩ .

(٢١) ابن الفقيه ، ٥٠ ، اليعقوبي ، ٣٤٥ ، الترجمة ، ٢٠٤ — ٢٠٦ ، مع الذرة البيضاء بلا شك . انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٨٧ ، ح٢ (عن بداية الذرة في بحر الروم ، انظر ج . ج . هيماردنكر ، في منوعات على شرف فرنان برودل ، باريس ، ١٩٧٣ ، ج١، ص ٢٢٧ — ٢٣٣) .

(٢٢) وصيف ، ٦٨ .

(٢٣) اليعقوبي ، ٣٤٩ .

(٢٤) ابن الفقيه ، ٢٥٢ (في لائحة خصائص) . قد يفكر المرء حقاً في بلد بربره في افريقية الشمالية الشرقية ، اذ ان النص لا يهتم بالدقة الجغرافية ، يدخل في الخصائص المغربية نمور بلاد الزنج (عن الالتباس بين بربره وبلاد البربر ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧٠) . لكنني لم اعثر على احالة اخرى الى بغل بربره في مكان آخر (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفهرس ، ٥٩٠ — ٥٩١) .

مصر وجزيرة العرب والشام

وتبدو مصر ، بنت النيل ، في حلتها الخضراء اولا ، وفي خصب تربتها العام في جميع الاماكن. واخصبها، حسب المسعودي، اسوان، الكثيرة النخل، الكثيرة الخير، التي توضع النواة في ارضها، فتنبت النخلة، ويؤكل ثمرها بعد سنتين (٢٥) . ويرى المسعودي ايضا (٢٦) ان انواع النخيل الكبير والاراك والدوم والقرظ والهليلج والفلفل والخيار شنبر تنبت في صعيدها وهوائها ،وان الكروم واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين تنمو في اسفلها ، والزيتون ايضا ، لأن الزيت والقند والقمح — خاصة اليوسفي — هامة في قائمة الاصناف المصرية(٢٧) لكن ارض مصر غنية ايضا بمعادنها كالزاج والشب والتبر والحجارة الكريمة من زمرد وياقوت (٢٨) .

ويشمل نشاط الحرف الاواني الخزفية والجلود والبسط (٢٩) والبطانة المصنوعة من ريش البجع (٣٠) ، وخاصة الثياب الرقاق

---

(٢٥) المسعودي (م) ، فقرة ٤٨٤ .

(٢٦) المسعودي (م) فقرة ٨٩٥ (الواحات) ، المسعودي (ت) ، ٣٥ جلبت أشجار البرتقال والليمون من الهند عن طريق عمان بعد ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م لكنها تفقد نكهتها هنا : المسعودي (م) ٨٤٠ .

(٢٧) اليعقوبي ، ٣٣١ ، المسعودي (ت) ، ٣٥ — ٣٦ ، اسحاق ، ٤٤٨ . انظر أيضاً العسل (ابن الفقيه ، ٦٩) .

(٢٨) اليعقوبي ، ٣٣٣ ، المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٤ — ٨٩٥ (الواحات) ، المسعودي (ت) ، ٣٥ — ٣٦ ، الثعالبي ، ١١٥ — ١١٦ ، مسعر (ب) ، ١٠ ، ١٢

(٢٩) اليعقوبي ، ٣٣١ — ٣٣٢ ، ٣٣٧ — ٣٣٨ .

(٣٠) الثعالبي ، ١١٩ .

والشروب والصفاق في تنيس وشطا (٣١) ودمياط ودبيق . يضاف اليها القراطيس في الطليعة (٣٢) . وتشتهر مصر ايضا بتربية الحيوانات كالخيل والبغال وخاصة الحمير ، الدواب المفضلة لركوب الخلفاء في بساتين قصورهم ، والمقصود بها الحمر المريسية او حمر الجنوب(٣٣)

ويشاء حسن حظ جزيرة العرب ان يخصها الادب بمكانة رفيعة ، وان ينفرد بالحديث عنها الهمداني ، الخبير بها ، كالرازي بالاندلس . لذلك لدينا معطيات وافرة عنها (٣٤) . والواقع ان جزيرة العرب قسمان : اليمن الممجد كثيرا ، ثم الباقي كله . ونبدأ بما ليس يمنيا . ويقال ان الخمر تنقل إلى سرنديب من بلاد العرب (٣٥) ؛ وان حنطة

---

(٣١) اليعقوبي ، ٣٣١ — ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٦٩ والقطن) ، ٢٥٢ ، المسعودي (ت) ، ٣٥ — ٣٦ ، اسحاق ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، الثعالبي ، ٩٧ استشهاد الجاحظ) ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٤ .

(٣٢) اليعقوبي ، ٣٣٨ ، ابن الفقيه ، ٦٦ ، ٢٥١ ، الثعالبي ، ٩٧ (استشهاد الجاحظ : القراطيس المصرية بالنسبة للغرب كورق سمرقند بالنسبة الى المشرق) ، ١٢٦ ورق الصين ينازع تفوقه وهو مصنوع في سمرقند ومستورد منها .

(٣٣) اليعقوبي ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٦٩ ،آخر ٧٤ (عن موقع بلاد مريس) ، ٢٥٢ ، الثعالبي ، ٩٧ — ٩٨ (استشهاد الجاحظ) ، ١٢٧ ، المسعودي (ت)٣٥ — ٣٦ .

(٣٤) المعطيات التالية مأخوذة من ابن خرداذبة ، ٧١ ، ١٣٦ ، اليعقوبي ، ٣١٣، ٣١٥ ، ابن سيرابيون ، ٩٣ — ٩٤ ابن الفقيه ، ١٦ ، ٢٩ — ٣٠ ، ٣٦ ، ٥٠ ، آخر ١٢٤ — ١٢٦ ،٢٥٢ ،٢٥٣ ،ابن رسته ، ١٠٩ — ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٧٦ ،المسعودي (م) فقرة ٢٥٦ ، ٣٦٣ — ٣٦٥ ، ٨٩٨ ، المقدسي ، ج٤ ، ٦٧ ، مسعر (ب) ، ١٢ اسحاق ، ٤٣٥ ، الثعالبي ، ١١٥ — ١١٦ ، عجائب الهند ، فقرة ١١٥ ، وصيف شاه ، ٦٥ ، الهمداني ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ — ١٠٨ ، ١٢٠ — ١٢٣ ، ١٤٩ ، ١٥٣ — ١٥٤ ، ١٩٦ — ٢٠٣ . عند اللزوم يدقق التدوين الخاص .

(٣٥) ابن رسته ، ١٣٢ (دون تحديد منشأ دقيق) .

اليمامة تحمل منها إلى الخلفاء (٣٦) . وتذكر اعناب الطائف ،وقصب سكر عمان ، الا ان التمر ثمرة الاقاليم بلا نزاع ، منه تمر عمان ، والمدينة ، وخيبر ، والبحرين ، واليمامة (٣٧) . وتربية الابقار والاغنام والابل المهرية الشهيرة . ونشير في الختام إلى الطين الابيض الذي يحمل إلى بغداد للغسول (٣٨) ، والنحاس وانواع اللؤلؤ في عمان ، والذهب في اليمامة او في منطقة المدينة ومكة مع الفضة والنحاس (٣٩) .

وتشتهر اليمن بالمعنى الضيق ، في جنوبي غربي جزيرة العرب ، بغناها العظيم : وتدرك عندهم الحنطة دفعتين ، والشعير والارز ثلاث دفعات واربعا ، ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك دفعتين ايضا ، على حد قول ابن رسته (٤٠) . ونضيف إلى قصب السكر الحبوب ، خاصة الحنطة والشعير والارز ، وانواع الخيار ، والفول والبقول الاخرى ، والسمسم والكمون ، والازهار ، وفيضا من الثمار ، كالاعناب وانواع التفاح ، والدراق ، والاجاص والخوخ والبرقوق (المشمش) والتمر والموز والجوز واللوز والفستق والرمان والتين ، والاترج والسفرجل والبطيخ . والشهد الحضوري فريد يهدى إلى سائر البلدان خاصة العراق (٤١) . وتعنى الزراعة ايضا بنباتات الاصبغة كالنيل والورس ، وبنباتات العطور كالبخور خاصة . ونزيد

---

(٣٦) ابن الفقية ، ٢٩ .
(٣٧) لاحظ من بين الاحالات،ابن الفقيه،٢٩–٣٠ (شرح الفاظ خصائص متفرقة) .
(٣٨) ابن رسته ، ١٠٩ .
(٣٩) اليعقوبي ، ٣١٥ ، المسعودي (م) ، فقرة٢٥٦ ، الثعالبي،١١٥ ،الهمداني ، ١٤٩ – ١٥٤ (تعداد مناجم اليمامة) .
(٤٠) ابن رسته ، ١٠٩ .
(٤١) الهمداني ، ١٩٨ – ١٩٩ .

ايضا الكافور والعنبر والشب (٤٢) . وتشمل تربية الحيوانات السلوقية الشهيرة ، والبعال والحمير والخيول والابل وخاصة الابقار (٤٣) العراب التي تزود بالجلود احد الانشطة الحرفية الرئيسة . وتضم الحرف الدباغة والاواني الخزفية وبرود سعيد وعدن (٤٤) ، والنعال المشعرة والمزامير (٤٥) والسيوف (٤٦) اليمانية الشهيرة ، وصياغة المعادن الثمينة وقطع الحجارة الكريمة وصقلها ، كالذهب والفضة ، والعقيق الاحمر ، والجزع ، والعقيق الاسمر والباور ...

وتبدو لوحة الشام(٤٧) ابسط ،وتقتصر على بضعة اصناف لها شهرة



رؤسم المتاحف الوطنية متحف لوفر ، القسم الاسلامي آ آ ٥ ٦ ١
جزء من (فريز وطنف) حيوانات تعدو (ارنب بري وكلاب سلوقيه)
(مصر ، قرن ٩ ، الخشب صنوبر حلب)
(تصوير ا . شوزفيل)

(٤٢) موصوف على انه من نوع خاص ، يباع الى التجار المارين : ابن خرداذبه ، ٧١ ، ابن سيرابيون ، ٩٣ - ٩٤ ، المسعودي (م) فقرة آخر ٣٦٣ - ٣٦٥ ، وصيف شاه ، ٦٥ .
(٤٣) انظر خاصة الهمداني ، ٢٠١ (تعداد انواع الخيول والأبل والحمير والأبقار)
(٤٤) ابن رسته ، ١١٢ ثياب تباع بـ ٥٠٠ دينار .
(٤٥) ابن رسته ، ١١٢ .
(٤٦) حديد ذكره الهمداني ، ٢٠٢ .
(٤٧) ابن خرداذبه ، ٧٩ ، اليعقوبي ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، المسعودي (م) فقرة ١٠٨ ، ٤٥٥ ، المسعودي (ت) ٩٠ ، ابن الفقيه ، ١١٧ ، آخر ١٢٢ - ١٢٣ ، الثعالبي ، ٦٥ .

عالمية . وتأتي في طليعتها ثلاث ثمار هي الزبيب والعنب والزيتون، والشام اول منتج بالزيت في دار الاسلام، وتصدره على ظهور الابل، ثم التفاح في لبنان ويتميز كماً وكيفاً . ويصل إلى العراق منه سنويا ثلاثون الفاً ، ويستخرج منه مادة عطرية تسمى « ماء التفاح » (٤٨) . ويُرَبَّى فيها من بين الحيوانات جاموس الشام الشمالية الذي تحكى هجرته الطويلة من الهند مرورا ببطائح العراق (٤٩) . ويفتخر اهل الشام بالقار وباالبورق المطلوب في الصياغة . اخيرا تبلغ الحرف اوجها بانتاج الزجاج الممتاز المشهور في جميع الاماكن .

بلاد ما بين النهرين والاراضي العالية صعدا

يعدّ العراق(٥٠) احدى الاراضي المفضلة للنخل. وتتفوق فيه النخلة على الكرمة (٥١) ، والحمضيات (٥٢) ، والزيتون (٥٣) وباقي الاشجار المثمرة ، وعلى قصب السكر ذاته — الذي يرفعه إلى مرتبة احد المنتجين الكبار الاربعة في دار الاسلام ، مع الهند وخوزستان وجرجان (٥٤) . ويحتل العراق بتمره — خاصة تمر البصرة — المرتبة

---

(٤٨) بالنسبة الى الحمضيات حاشية مصر ذاتها : ما تقدم ، ٢٦ .

(٤٩) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٥٠) ابن خرداذيه ، ٦٧ ، اليعقوبي ، ٣٢٢ ، ابن رسته ، ١٥٣ ، ١٨٦ ؛ ابن الفقيه ، ٥٠ ، ١٢١ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ ، المسعودي (م) فقرة ٩٠٩ ، مسعر (ب) ١٢ ، عجائب الهند ، فقرة ٩٣ ، ابن عبدربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٣ ، الثعالبي، ١٠٧ . عن الجاموس ، انظر ما تقدم ح ٤٩ .

(٥١) خمر مصدر الى سرنديب : ابن خردا به ، ٦٧ . انظر ما تقدم ، الاشارة ذاتها لجزيرة العرب .

(٥٢) عنها . انظر ما تقدم الحاشيتين ٢٦ و ٤٨ .

(٥٣) ادخله الروم في عهد سابور : المسعودي (م) فقرة ٦٠٦ .

(٥٤) الثعالبي ١٠٧ .

الاولى . واستمر تفوقه به حتى اصبحت النخلة شجرة العرب (٥٥) دون سائر الأشجار . ونشطت حرف العراق في المراهم ، والجلود والطلاء والزجاج والاواني البيتية ، والمنسوجات ، والقطن ، والخز والحرائر الموشومة، وخاصة الستور والبسط في واسط (٥٦) والحيرة وميسان.

ومتى اتجهنا إلى الشمال، يظهر خمر الديارات، ويتاجر به محليا، والملح ويحمل إلى العراق مع الكمثرى والعنب وعسل الموصل وستورها (٥٧). واذا استمر توغلنا شمالا ، ووصلنا إلى الاراضي المرتفعة في الران واذربيجان ، عثرنا على النفط الابيض في باكه ، والبغال الشهيرة في برذعة ، واللفاح والذهب والرصاص والزاج والشب (٥٨) . وتأتي ارمينية في الطليعة ببسطها (٥٩) واعشابها واخشابها — الخزامى والافسنتين والبلوط والخلنج الذي تصنع منه اواني المطبخ (٦٠) — والشاهبلوط (٦١) والابقار والخيول ، والبغال ، والحملان (٦٢) والملح (٦٣) ، والمن (٦٤)

---

(٥٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٦٤ — ٤٦٥ .

(٥٦) ابن رسته ، ١٥٣ ، اليعقوبي ، ٣٢٢ ، بهذه المدينة يصنع الفرش الذي يعمل منه الأرمني (البساط) ، الواقع انه يحمل الى ارمينية فيغزل وينسج .

(٥٧) قدامة ، ٢٤٥ ، ابن رسته ، ١٥٣ ، ابن الفقيه ، ١٣٢ ، الشابشتي ، ١٢١ ، ١٢٧ ، الثعالبي ، ١١١ .

(٥٨) المسعودي (م) فقرة ٤٦٣ ، مسعر (ب) ، ١٠ ، ١٢ (شب يحمل الى اليمن وواسط لمعالجة الأصواف) ، الثعالبي ، ١٢٧ .

(٥٩) اليعقوبي ، ٣٢٢ ، ابن رسته ، ١٥٣ ، الثعالبي ، ١١١ .

(٦٠) مسعر (ب) ، ١٥ ، اين الفقيه ، ٢٩٧ ، عن خشب الخلنج ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفهرس ، ٥٧٩ ، ج٣ ، ٥٤ (ح٣) ٤٧٥، (ح١).

(٦١) ابن الفقيه ، ٢٩٧ .

(٦٢) ابن الفقيه ٥٠ ، ٢٩٧ ، مسعر (ب) ١٧ .

(٦٣) مسعر (ب) ، ١٤ ، ١٥ .

(٦٤) ابن الفقيه ، ٢٩٧ ، جغرافية دار الأسلام ، ج٣ ، ٤٢٣ (ح١) . ابن الفقيه نفس الاحالة .

واصبغة القرمز او الفوة (٦٥) والديباج (٦٦) ، اخيرا الحجارة ، والمعادن كالمرقشيت ، والزئبق والنحاس والقلقطار والاسرب(الرصاص) والبورق والمغنيزية والكبريت والزنك والاثمد والشب الاسود (٦٧) .

الجبال والهضاب في فارس

تثبت فارس هويتها في هذا الميدان كسائر الميادين . وما دامت خصائص الارض او اعمال البشر عناصر في معارف الادب ومحتويات خزانته ، فإنّ مطلب الهوية (الشعوبية) سوف يزدان ، بالنسبة إلى فارس قبل غيرها على الارجح ، باسماء ما نسميه اليوم الاقتصاد . وانيط الدفاع الاساسي عن فارس وتوضيح وضعها بثلاثة محامين منها او تبنوا قضيتها ، وهم ابن الفقيه ، وابو دلف مسعر والثعالبي (٦٨)، الذين لا يتركون شيئا للصدف ، ولا يهملون اي منطقة من مناطق التبعية الفارسية الواسعة جدا .

ففي الشمال تقع بلدان بحر الخزر : جيلان والديلم وطبرستان وجرجان وقومس التي ينتقل منها إلى خراسان (٦٩) . فالشريط الساحلي والجبل والسفح الجنوبي موطن القنص والسمك وتربية الحيوان التي تؤمن مقادير كبيرة من الالبان . وفيها ايضا الغابة ، وفي اماكن

---

(٦٥) ابن الفقية المراجع ذاته .

(٦٦) مسعر (ب) ، ١٧ .

(٦٧) مسعر (ب) ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ابن الفقيه ، ٢٩٧ .

(٦٨) ابن الفقيه الهمذاني من همذان حسب اسمه ، والثعالبي من نيسابور ، عن ابي دلف مسعر انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١٣٩ ، ٣٣٥ .

(٦٩) عن المعطيات التالية ، انظر ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥٤ ، ٣٠٤، مسعر (ب) ١٠٧، ٣٥ - ٣٩ ، الثعالبي ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٩ ، اليعقوبي ، ٢٧٦ ٢٧٧ ، اسحاق ، ٤٤٢ (عن خشب الخلنج ، انظر ما تقدم ، حاشية ٦٠) ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

اخرى منها بساتين وجنان وافرة الزروع يضرب بها المثل ، وتنمو فيها انواع البقول والازهار والثمار والنخيل والجوز والزيتون او الرمان . ويأتي قصب السكر (٧٠) على راس قائمة الاصناف ، وتفاح بسطام او قوس المصدّر إلى العراق والاترج (٧١) الذي يستخرج منه ماء الزعفران وتشبه رائحته رائحة ماء الورد . ومن ثروات هذه البلدان المعادن ، من ذهب (٧٢) وفضة، تسعر بسعر الفحم (٧٣) وزئبق ورصاص وبورق ، وجمشت وجاز ومغنيزية ، وشب وزرنيخ(٧٤) . ولا ريب ان النسيج افضل ما في تلك البلدان : فالقومسي ، والطبري، والقزويني ، والروياني والعاملي انتاج ممتاز ، اشتق اسمه من النسبة إلى المدن او إلى البلدان التي تنتج الاصناف ، وتصدرها إلى جميع الجهات ومنها الثياب السود والمزركشة او الحمراء كشقائق النعمان ، والحراير ، واقمشة الكتان او الصوف او القطن او الديباج ، والستور ، والقلانس ، والبراقع ، والبسط والستائر ، والمناديل الناعمة جدا التي تعمى في صنعها عيون العاملات (٧٥) .

---

(٧٠) انظر ما تقدم عن العراق .

(٧١) حول معاني الأترج المحتملة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٤٦ وما يليها .

(٧٢) ثلاثة انواع حسب مسعر (ب)، ٧ .

(٧٣) الاحالة ذاتها .

(٧٤) يصدر الى اصبهان حيث يصنع منه فصوص خواتم : انظر الاحالة ذاتها . يضاف الملح « وحجر يحل محل البادزهر » : مسعر (ب) ١١ .

(٧٥) هذة النبذة من مسعر (ب) ، ٣٧ ، الذي يعطي اسعار امثال هذه الأعمال : ٥٠ الى ٢٠٠ دينار القطعة . حول لفظ سبنية انظر ابن حوقل ، ترجمة ، ٣٣٨، ح٦٥٥ و دوزي ، اللفظ . عن الخيش المذكور عند الثعالبي ، ١١٢ ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٣١ (ح٢) . تضاف أيضاً البطانة بريش البجع : الثعالبي، ١١٩ .

واذا اتجهنا إلى الجنوب نحو هضباب فارس العالية (٧٦) ، نصل إلى بلاد الازهار ، كالزنبق والورد (٧٧) ، والكشمش الذي يصدر إلى العراق ، والزعفران والقطن وثمار الشتاء والاجبان . وتتميز اربع مدن بمزايا خاصة هي اورستاقها : وهي قم بالزعفران وصنع الكراسي ، ونهاوند بالعكاكيز والبيازر المصنوعة من خشب الصفصاف (٧٨) ، وهمذان بالملح والسنباذج ، والذهب والمرايا والملاعق ، والمجامر والطبول المذهبة ، والري بورودها التي تدوم اربعة اشهر ، والنرجس والبنفسج ، والمشمش والاجاص والرمان والدراق المقطع شرائح والمجفف (٧٩) ، والمقصات والاطباق المدهنة ، والامشاط والاواني الخشبية ، والممالح والمغارف ، والذهب والفضة (٨٠) والرصاص والزاج والاثمد ، والاكسية الرازية ، البيض الطرازية والطيالسة البيض السرية والثياب المنيرة .

من فارس الجنوبية إلى الهند

يمدح ابن رسته اصبهان الواقعة في جنوبي فارس ، لأنه من اهلها ويفتخر باصله(٨١). ويشيد هو وغيره(٨٢) بمنتجاتها التي تحمل إلى جميع

(٧٦) ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ — ٢٥٤ ، مسعر (ب) ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ — ٣٥ ، الثعالبي ، ١١١ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٤ .

(٧٧) بشأن اسماء المدن المذكورة عند ابن الفقيه ، ٢٣٥ ، احيل الى معجم الكتاب ، ص ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٨ روماني .

(٧٨) وبالنسبة الى الاجاص : ابن الفقيه ، آخر ٢٣٥ .

(٧٩) انتاج كمالي مخصص للرجال العظام (السلاطين : الثعالبي ، ١١١) .

(٨٠) رغم نقص الانتاج : مسعر (ب) ، ٣١ .

(٨١) ابن رسته ، ١٥١ .

(٨٢) ابن رسته ، ١٥٣ ، ١٥٦ — ١٥٨ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥٤ ، الثعالبي ، ١١١ .

الجهات تقريبا . فبها تبقى الثمار سنة كاملة مثل العنب ، والصيني (الاجاص) والتفاح والسفرجل والرمان . ويقال انه اذا بلغ ما يجلب من تفاحها وسفرجلها إلى بغداد النهروان ، اشتمّ روائحها في القصبة ، واستقبل ، وابتيع . وبها الملح المفاس الذي لا يوجد في شيء من البلدان في طعمه ، والعسل المادي الخالص النقي الذهبي ومنه يجلب إلى الخلفاء . ونضيف النباتات الطبية كالزعفران والاشنان والنشادر والاثمد والقار وملح البارود والراتنج ، وجميع المعادن تقريبا : كالذهب والفضة(٨٣) والصفر ، والحديد والرصاص والتوتياء ، اخيرا هنا ايضا الستور والبسط ، وبسط رويدشت التي تضاهي بسط ارمينية ، والثياب والاطلس او الحرير المقلم .

وتبدو فارس وخوزستان متميزتين ومتكاملتين (٨٤) . ففي فارس ، غضار سيراف ، والقطران ، والثمار المجففة (٨٥) ، والمراهم . وتنفرد بماء الورد الجوري ، الذي يحمل إلى جميع انحاء العالم (٨٦) ، وبشغل المعادن وتحويلها إلى اطر مرايا ودروع وسيوف وزرد وصناديق واقفال وقدور وغيرها من الاصناف حتّى قيل عن

---

(٨٣) معظمها مناجم فضة مهجوره ابن رسته ، ترجمة ، ١٨١ ، ١٨٢ (ح٥) .

(٨٤) عن المعطيات التالية ، انظر ابن خرداذبه ، ٦٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٣ ، ١٤٠٤ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٠٤ ٢٠٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، مسعر (ب) ، ٣٦ ، ٤١ — ٤٣ ، الثعالبي ، ١٠٧ ، ١٠٩ — ١١١ ، ابن عبد ربه ، العقد، ج٦ ، ٢٥٣ .

(٨٥) انبجات : انظر جغرافية دار الأسلام ، ج٣ ، ٤٤٨ ، ح٦ . ذكر الثعالبي، ١١٠ ان جميع هذه الأصناف تحمل الى بغداد لتتمم الخراج .

(٨٦) من جور وكوار، المسعودي (م) فقرة ١٤٠٤ ، يقول ان الهواء والتربة يجعلانها أفضل ما في الدنيا .

اهل فارس : « لقد ألان الله لهؤلاء القوم الحديد ، وسخّره لهم حتى عملوا منه ما ارادوا » (٨٧) . وفي خوزستان النباتات الطبية (٨٨) والملح والكبريت والتمور ، وفي المقام الاول سكر القصب (٨٩) . وفي فارس وخوزستان معا ، الاعناب وخاصة الزبيب (٩٠) ولآلىء البحر (٩١) والثياب التي تجعل من التبعية الفارسية احد اعظم مراكز النسيج في مملكة الاسلام ، لاسيما الحراير والديباج في السوس ، وتستر ،وجند يسابور وجبا وسينيز وفسا وكازرون وعسكر مكرم .

واذا سرنا بعيدا باتجاه الشرق نحو التخوم المسلمة ، يتضاءل عدد الاصناف . فكرمان (٩٢) بلاد النوشاذر والزاج ، والذهب والفضة والحديد والنحاس ، لكنها من افضل اراضي النخيل (٩٣) . ولاهل سجستان (٩٤) عمل المشارب والكيزان ، والطبول ، والكنانات ، وآلات كثيرة من الشبه والصفر ، وتربية الطيور للصيد وانتاج التمور

---

(٨٧) ابن الفقيه ، ٢٥٤ .

(٨٨) مسعر (ب) ، ٤١ ، يشير الى نوع من الهيل يعثر عليه بين اصبهان والاهواز ، يستعمل في معالجة النقرس .

(٨٩) خوزستان واحدة من المنتجين الكبار الأربعة في العالم : انظر ما تقدم عن العراق . نشير الى الثعالبي ، ١٠٧ : يسلم الى السلطان تتمة للخراج : الثعالبي ، ١١٠

(٩٠) العنب الأسود يحمل الى العراق تتمة للخراج : الثعالبي ، ١١٠ .

(٩١) عن اللؤلؤ وصيدة ، انظر جغرافية دار الأسلام ، ج٣ ، ٣٨٢ – ٣٨٤ .

(٩٢) المسعودي (م) فقرة ٢٥٦ ، ابن الفقيه ، ٢٠٦ ، ٢٥٣ ، مسعر (ب) ١٠ ،انظر أيضاً ابن الفقيه ، ٥٠ (الرماح البلوصية) .

(٩٣) حول هذه الثروة التي يضرب بها المثل ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ – ٤٦٩ .

(٩٤) المسعودي (م) ، فقرة ٥١٠ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥٤ ، الثعالبي ، ١٢١ ، ١٢٤ .

والدراق والتين الذي يصدر من بست إلى خراسان . اخيرا، متى وصلنا إلى السند ، ندخل عالم آخر ، هو عالم الهند ، عالم الحجارة الثمينة والنباتات العطرية والاعواد وجوز الهند والفلفل (٩٥) .

فارس ايضا في الاتجاه الشمالي الشرقي

لنصعد الان نحو الشمال الشرقي إلى افغانستان . فهنا تعود التدوينات فتزداد عددا ودقة (٩٦) . ويشمل جدول الاصناف الشهيرة البطانات المصنوعة من ريش البجع ، واهاليلج كابل ، والكشمش ، والتفاح ، والمشمش ، والزبيب ، وهراوات هراة ، واخيرا المعادن حول باميان وبنجهير ، كالرصاص والنحاس والزئبق وبخاصة الذهب (٩٧) والفضة .

والاصناف اوفر بكثير في خراسان التي يعتبرها الفرس من البلدان الهامة في مطلب هويتهم الثقافية (الشعوبية) . فتحت عنوان الاغذية ، تصدر مرو الزبيب ، وتنتج نيسابور الكشمش والسفرجل الكبير الحجم والكليكان الضخم ، والبطيخ الذي يحمل إلى الخلفاء لشدة

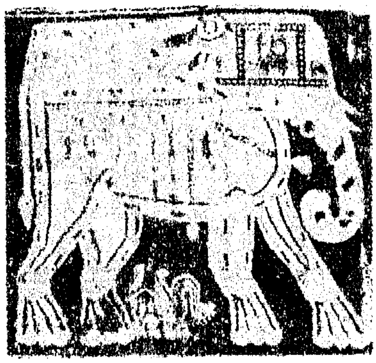
---

(٩٥) ابن الفقيه ، ٢٥١ ، عمليا ، يتبع وصف السند وصف الهند . انظر جغرافية دا الاسلام ، ج٢ ، فصل ٣ ، واماكن اخرى .

(٩٦) ابن خرداذبه ٢٨ ، اليعقوبي ، ٥٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٥ ، المقدسي ، ج٤ ، ٧٣ ، مسعر (ب) ، ٤١ ، الثعالبي ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ابن عبد ربه العقد ، ج٦ ، ٢٥٤ .

(٩٧) عن الذهب ، انظر المقدسي ، مشار اليه اضافة تحيل الى الأعوام الف) وابن الفقيه ، ٣٢٥ : فيما بين خراسان وارض الهند نمل مثل الكلاب السلوقية وارضهم ارض ذهب فيجيء الناس لأخذ الذهب فاذا خافوا ان يدركهم النمل ، طرحوا له اللحم فيشتغلون به، ويخرجون من الذهب ماامكنهم . انظر بشأن الموضوع ذاته لكن مع الماس والافاعي جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، آخر ٨٩ - ٩٠ (ح١) .

حلاوته ولذته وطيبه(٩٨). والتوابل اطرف من ذلك، منها جذور الأُشترغاز – وهو نوع من الحلتيت المسمى ازافوتيدا ، او فطر غوشنه(٩٩) . والالبان (١٠٠) . اخيرا تنفرد نيسابور بطين المضغ ، المرغوب به عند عظماء العالم ، وتباع ليبرته بدينار (١٠١) . اما التربية ، فتفخر بخيولها واغنامها ، ودوابها او براذينها ، وبإبلها ذات السنامين (فالج) في بلخ (١٠٢) .



روسم المتاحف الوطنية متحف لوفر . القسم الاسلامي ٧٥٠٢
كفن القديس جوس . قطعة حرير . فارس الشرقية
منتصف القرن العاشر
(تصوير ا .شوزفيل)

---

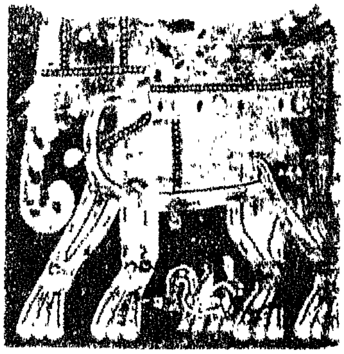
(٩٨) اليعقوبي، ٢٨٠، ابن الفقيه ، ٢٥٤ – ٢٥٥ (حول كيلكان ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٢١ ، ح١) ، ٣٢٠ ، مسعر (ب) ، ٤٠ ، ٤١ .

(٩٩) ابن الفقيه ، ٢٥٥ عن اشترغاز ، انجذان وغوشنة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤١٨ ، ح١٠ و ١١) ٤٢٢ (ح٥) .

(١٠٠) ابن الفقيه ، ٢٥٥ ، عن الرخبين ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣١٩ ، ح٢ .

(١٠١) الثعالبي، ١١٤ – ١١٥ ، عن هذا الطين، انظر جغرافية دار الأسلام ج٣ ٩٧٣ .

(١٠٢) ابن خرداذيه ، ٣٩ ، ابن الفقيه ، ٢٥٥ ، الثعالبي ، ١٢٦ (عن البرذون انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٧ ، ح١) .



روسم المتاحف الوطنية   متحف لوفر ، القسم الإسلامي ٧٥٠٢
كفن القديس جوس . قطعة حرير . فارس الشرقية
منتصف القرن العاشر

وخراسان بلاد الحجارة الكريمة كالفيروز واللازورد ، والسبج والياقوت (١٠٣) . وبها الخزف الابيض المصنوع من مادة سهلة المعالجة إلى حد جعلها تنافس الزجاج (١٠٤) . ونذكر ايضا الرُّكَبَ المروية ، والصابون ومناطق الغرج والفراء (١٠٥) . الا ان افخر ما لديها نسج الحرير ، وخاصة القطن الذي يقال انه من خراسان في حين الكتان من مصر (١٠٦) . ولأهل مرو ونيسابور الثياب الجميلة الملحمة ، الثقيلة ، او على النقيض الناعمة والخفيفة التي تحمل اسم البلد الذي حيكت فيه دلالة عليها وعلى جودتها (١٠٧) .

(١٠٣) ابن الفقيه ، ٢٢٥ ' الثعالبي ، ١١٥ ' ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٣ (و ح (٢) . عن بجاذه التي تذكر بالصفير ، انظر م ج م ' ج٤ ، ١٨٤ .

(١٠٤) الثعالبي ، ١١٨ .

(١٠٥) اليعقوبي ، ٢٧٨ ، ابن الفقيه، ٥٠، ٢٢٥، الثعالبي ، ١٢١ (الذي يذكر النيلوفر في مقطع خاص يبلخ) . انظر أيضاً مسعر (ب) ، ٤٠ : نحاس نيسابور

(١٠٦) اليعقوبي ، ٢٧٨ ، ابن الفقيه ، ٣٢٠ ' الثعالبي ، ٩٧ (استشهاد بالجاحظ)

(١٠٧) ابن خرداذبه ' ٣٩ ، اليعقوبي ، ٢٧٩ ، ابن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥٤ ' الثعالبي ، ١١٤ ' ١١٩ — ١٢٠ .

ونختم حديثنا بالكلام عن ما وراء النهر ، ويضم السغد وخوارزم وشاس وغيرها ، وكلها مفترق طرق تجارية مع الصين والسهوب التركية وروسية الجنوبية . وفيها يمر عدد كبير من الرقيق ، وكميات من الاخشاب والفراء يضاف إلى ذلك محاصيل الارض ، من بطيخ يحمل إلى الخلفاء في اوعية مختومة وموضوعة في الثلج ، بسعر افرادي قدره ٧٠٠ درهم.وفيها ايضا الملح والنوشادر ، واليواقيت ومن الحيوانات الاغنام والشهارى (١١٠) ، والثعالب الحمر وغيرها من حيوانات الفراء ، والسمك المقدد (١١١) . ويتساءل المرء اذا كان ما وراء النهر يتأثر بقرب الحدود التركية المضطربة ،ليعمل في حرفة الاقواس والخناجر والمقامع (١١٢) . وتخفف هذا التصور ثياب سمرقند على الاطلاق ، وخاصة ورقها ، وهو اختراع صيني ، على ما يقول الرواة ، ويقابل في الشرق قراطيس مصر في الغرب وقد تفوق على البردى تدريجيا (١١٣) .

---

(١٠٨) من أجل مايلي : انظر ا ن خرداذبه ، ٣٨ ، ٣٩ ، ا ن الفقيه ، ٥٠ ، ٢٥٥ ، الثعالبي ، ٩٧ (استشهاد الجاحظ ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٥٤ .

(١٠٩) الثعالبي ، ١٢٩ .

(١١٠) شهرية ، شهاري (ابن الفقيه ، ٥٠ ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(١١١) ثعالبي، ١٢٩ . عن خوارزم : الذي يصدر الرحقين ، كما تصدر مرو المري (انظر بهذا الخصوص م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٣) .

(١١٢) ابن الفقيه ، ٢٢٥ يتحدث عن اشقان الذي يقترح دي خويه (مشار اليه ، ج ه ، ومعجم الألفاظ ، ص ٣٢ روماني) قراءتها اشكوز : احزمة .

(١١٣) الثعالبي ، ٩٧ ، ١٢٦ (ذكر في ما تقدم ، ح ٣٢) .

المزارع الكبرى كما يراها ابن حوقل والمقدسي

في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، توسع الجغرافيان الميدانيان ،ابن حوقل(١١٤)والمقدسي باحاديث اسلافهما. ولا ريب انهما لم يتجاهلا قوائم الاصناف الشهيرة التي جعلها الادب احد موضوعاته . لكنهما ادرجاها في جدول مفصل شمل جميع مادّونّاه . ومن هنا جاء كنز المعطيات الذي قدماه للمؤرخ . فما اسعد من يستطيع ان ياخذها كلها ، كما هي ، حسب حقل ابحاثه . اما نحن فكيف نعمل وكيف نختار منها اهمها لكي نتوصل إلى تكوين صورة عامة عن موارد البلدان الكبرى في دار الاسلام ، وعلى ما هو افضل ، من الغنى الشامل ، مصدر المبادلات التجارية ، وحيوية الارياف والمدن .

نبدأ بمرحلة اولى نشير فيها إلى ما عند جغرافيي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي من مقاطع تبرز خصب الحقول (١١٥) بوضوح ، وفي نصوص صريحة . وقد قلنا وكررنا القول ان الاندلس كانت مغفلة ، الا نادرا ، لكنها الآن وفي هذه الحالة تفرض نفسها برؤية غناها الشامل في مزارع تجمع ما يقرب من الف شخص ، وفي جيان « جنة الاندلس » (١١٦) خاصة . ويشيد ابن حوقل في اقليم المغرب على وجه التخصيص بالمغرب الاقصى الجنوبي ، وتونس الساحلية ، وصقلية ، وطرابلس الداخلية (١١٧) . اما المقدسي ،

---

(١١٤) يتمم الاصطخري ويتوسع بابحاثه هنا وفي اماكن اخرى .
(١١٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٨٧ – ٩٤ .
(١١٦) ابن حوقل ، ١١١ ، المقدسي ، ٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ .
(١١٧) ابن حوقل ، ٣٧ ، ٧٢ – ٧٤ ، ٩١ ، ١١٨ .

فلا يضيع بالتفاصيل ، ويقول : ولا شك ان « المغرب بعيد جدا وموضوع في زاوية دار الاسلام ، قد غابت في الزيتون مدنه ، وبالتين والكرمات ارضه ، التي يجري خلالها الانهار ، ويملأ غيضانها الاشجار » (١١٨)

ولمصر ، بداهة ، مكانة فريدة في هذه النظرة الشاملة . فهي حقول وبساتين واجنة متصلة تمتد من اسوان إلى الاسكندرية ، في املاك واسعة احيانا (١١٩) . وتتناقض بوضوح مع البلد المجاور لها الذي يبدأ بجوار السويس ، « الجاف الشاق ، الخالي من العشب والزروع والقطعان والخشب والشجر والعنب والثمار . ويحمل اليه الماء بالمراكب او على ظهور الابل ، فكأني به ممر ينتقل منه إلى ديار العرب بقيظها وفقرها ، ما عدا اليمن وعمان وبعض الارجاء مثل وادي القرى (١٢٠) ولابد من الوصول إلى فلسطين للعثور على الثروة الحقيقية : فستة وثلاثون شيا تجتمع بكورتها ، ولا تجتمع في غيرها (١٢١) ، او ينبغي الذهاب إلى غوطة دمشق ، الواحة التي تعد احدى « عرائس الدنيا » اي جناتها (١٢٢) .

وتشترك دمشق بهذه الصفة ، هي ومنطقة البصرة ، بل وجارتها القريبة منها الابلة على وجه التدقيق : ففي سواد البصرة وبطائحها

---

(١١٨) المقدسي ، ٢١٦ (عن غيطان ، جمع غيط أو غائط ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣١٢ ودوزي ، بهذا اللفظ) . تدوين مماثل بالنسبة الى تاهرت : المقدسي : ٢٢٨ . عن موقع المغرب القصي انظر أيضاً ابن حوقل ، ١٧ : المغرب « كم الثوب » في دار الاسلام .

(١١٩) ابن حوقل ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٧ .

(١٢٠) ابن حوقل ، ٣٧ ، المقدسي ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٩٦ .

(١٢١) المقدسي ، ١٨١ سترد اللائحة فيما يلي .

(١٢٢) ابن حوقل ، ٤٧٢ ، المقدسي ، ٣٥ ، آخر ١٥١ ، آخر ١٥٩ ، ٣٨٥ وما تقدم الفصل ٥ ، الحصون والآثار الأخرى .

نخيل متصل وبساتين متصلة تسقيها مياه لا تنضب (١٢٣) . واذا سرنا صعدا إلى الشمال وإلى الجزيرة ، استرعت انتباهنا الرقة ثم نصيبين بسعة مزارعها ، ووفرة مياهها في جميع الاماكن ، وكثرة سائمتها وكراعها ، وبساتينها وكرومها وغلاتها من الحبوب (١٢٤) . ثم تأتي جبال ارمينية والران واذربيجان التي يستفيض في الحديث عنها ، المقدسي وابن حوقل اكثر منه : ففيها المزارع ، والثمار جميعها ، ومناطق جميلة مفروشة بالازهار ، واسواق يستطيع سيد تجارها ان يبيع ويشتري مائة الف راس من الماشية ، بل الف الف شاة (١٢٥) .

ومن هنا إلى الهند ، تعني المزارع الواحات . وهذا الكلام صحيح في الري (١٢٦) او اصبهان ، بضياعها الكثيرة الكبيرة جدا احيانا والمشهورة (١٢٧) . وتعرض خوزستان وفارس رساتيق سابور وتستر وجور (١٢٨) ، وخاصة شعب بوان ، وهو وادي عريض جدا وجنة من جنات الدنيا ، بقراه ومياهه المتصلة ، وقد غطت الاشجار القرى حتى لا يكاد يراها الانسان إلى ان يدخلها (١٢٩) . واذا اتجهنا شرقا إلى ابعد من ذلك نصل إلى كرمان ومكران والسند ، بحرارتها الشديدة ،

---

(١٢٣) ابن حوقل ، ٢٣٦ ، ٤٧٢ ، المقدسي ، ٣٥ ، ١١٣ ، آخر ١٥٩ .

(١٢٤) ابن حوقل ، ٢١١ ، المقدسي ، ٣٨٥ .

(١٢٥) ابن حوقل ، ٣٣٨ ، ٣٥٢ ، المقدسي ، ٣٧٣ وما يليها ، ٣٧٨ .

(١٢٦) المقدسي ، ٣٨٥ .

(١٢٧) ابن حوقل ، ٣٦٢ — ٣٦٦ .

(١٢٨) ابن حوقل ، ٢٧٩ ، ٤٧٢ . المقدسي ، ٤٠٩ (ح اي) ، ٤٢٤ (مترجم في ما تقدم ، الفصل ٧ ذكريات) .

(١٢٩) المسعودي . م) فقرة ٥٦٤ ، ابن حوقل ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٤٧٢ ، المقدسي ، ٣٥ ، ٢٥٩ ، ٤٣٤ ، ٤٥٥ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٤ ، ٨٨ .

وقفارها ، حيث يقل وجود الأودية الظليلة او الواحات ، ما عدا جيرفت التي يضرب المثل بغناها (١٣٠) . وخضرة سجستان اعظم بكثير لوفرة امطارها واروائها ، وفيها مزارع كبيرة يملكها اسياد او الدولة (١٣١) .

ومع استمرار الصعود إلى الشمال ، لابد من افراد مكانة مميزة لاودية افغانستان والمدن الكبرى في واحات خراسان ، التي تعد بلخ نموذجا لها ، « وهي بستان مظلل بالاشجار » (١٣٢) . مع ذلك يبرز تفوق اقليم ما وراء النهر (١٣٣) جملة وتفصيلا (١٣٤) . ففيه تاتي في الطليعة ، بلا نزاع ، سمرقند وبخارى ، والسغد احدى جنان الدنيا (١٣٥) . وقد وردت في مكان آخر (١٣٦) الاشارة إلى الاطراء الطويل الذي اثنى فيه ابن حوقل المولع بهذا الاقليم عليه ، وجمع فيه المروج ، والحقول الزاهية ، والبساتين ، والحدائق ، والفواكه الكثيرة التي ترعاها الدواب ، والمياه الجارية في جميع الارجاء ، وخصه بصفحات عديدة طغت على وصف المزارع الاخرى رغم جمالها وخصبها مثل الشاش ، وايلاق ،وخوارزم ، واشرسونة وفرغانة (١٣٧)

---

(١٣٠) المقدسي ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ، آخر ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ . باقي ١٣١ —
(١٣١) ابن حوقل ٤١٨ ، ٤٢٢ . حول لفظ صوافي ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ص ٢٨١
(١٣٢) ابن حوقل ٤٣٩ . المقدسي ، ٣٠١ ، ٣٠٢ (ح . د)
(١٣٣) أخذت هذه الكلمة (انظر ج د ، ج٣ ، ص ٤٨٩) عن بوريس فبان
(١٣٤) ابن حوقل آخر ٤٦٣ — ٤٦٥
(١٣٥) من أجل ذكره ، انظر ابن حوقل ، ٤٦٤ — ٤٦٥ ، ٤٧٢ — ٤٧٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، المقدسي ، ٣٥ ، آخر ١٥٩ ، ٣٨٥
(١٣٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ٣٤ ، ٨٩ ، ٩١
(١٣٧) ابن حوقل ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٥٠٧ ، آخر ٥٠٩ ، المقدسي ٢٨٩

مبادىء تعداد اصناف معاد النظر به ومصحح

يلاحظ ان عمل ابن حوقل والمقدسي ينصب على نظرة شاملة تضم في الحد الادنى بعض افضل المزارع في دار الاسلام .ولا ريب ان هذه اللائحة ناقصة ، لكنها في الحقيقة تفضل إلى اقصى حد قائمة الادب : « جنان الدنيا » العزيزة عليه « واردة على الدوام . الا ان الجغرافي لا يقتصر على ذكرها وحدها . ويظهر الحرص ذاته عند تدوين واقع الانتاج الزراعي او المنجمي او الحرفي . فالادب يشير إلى اشهرها واشرفها . اما ابن حوقل والمقدسي ، فيتناولان ما يمثل فعلا الحياة الاقتصادية في دار الاسلام . واذا توافقت الفئتان احيانا ، فالثانية تسيطر في جميع الاحوال . اذن تبقى القضية المثارة من قبل : كيف نميز ما يتعلق بالجوهر من بين هذه المعطيات المتراكمة ؟

ويتحدث ابن حوقل عن بعض مناطق ارمينية والران واذربيجان ، ويقول (١٣٨) بعد استعراض مواردها المتنوّعة : « وغير ذلك ما يستغني بشهرته عن وصفه وذكره ».فماذا يعني هذا الكلام؟ ايراد به ان المؤلف يدون اندر الاشياء ، فيفسد صورة النشاط الاقتصادي الواقعي . الحقيقة اننا نستخلص من قراءة ابن حوقل واقعا متنوعا إلى اقصى حد : فهو يرسم صورته بدقة زائدة ، دون ان يلح على بعدها وعمقها ، لكي يبرز ما يبدو له رائعا كما او كيفا . في النهاية ، الصورة المعروضة صورة حقيقية في الظاهر ، لكن نجح ابن حوقل في تحسينها باعطاء صفات اساسية يمكن التعرف عليها بسهولة اعتمادا

(١٣٨) ابن حوقل ، ٢٤٦ .

على علامات تسمح بابراز اهمية هذا الصنف او ذاك ، وتشمل حسب الحالات طول العنوان ، او تفصيلا خاصا ، او رقما ، او الاشارة إلى التصدير ، او اي عنوان آخر عن الكمية او النوعية او ايضا الاحتكار ووضعه .

وننتقل الان إلى المقدسي . فهو يقول (١٣٩) في آخر تعداده تجارات جزيرة العرب : « وما لو استقصيناه ، لطال الكتاب » . ويقول في مكان آخر في مقدمة كتابه (١٤٠) : « وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان مثل قولنا « لا نظير له » ، نريد ان ليس مثله بتة مثل معنقة بيت المقدس . ونيدة (١٤١) مصر ، وليمون البصرة . وهذه اشياء لا يرى مثلها ، وان كانت اجناسا . فان قلنا « غاية » ، فانها تعني في الجودة (١٤٢) من الاجناس، مثل الاجاص العمرى بشيراز ،والتين الدمشقي بالرملة ، والمشمش العصلوني (١٤٣) ، والريباس بنيسابور فان قلنا « جيد »،فقد يكون اجود منه .... الطائفي . ونيل اريحا (١٤٤) خير منه الزبيدي ، وخوخ مكة اسرى منه ، الدارقي (١٤٥) .

---

(١٣٩) المقدسي ، ٩٧ .

(١٤٠) المقدسي ، آخر ٦ — ٧ .

(١٤١) نوع من العجينة من حب الحنطة ، سكاكر مصرية : انظر المقدسي ، ٢٠٣ ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، و م ج ع ، ج٤ ، ٣٦٩ .

(١٤٢) لكن ليست وحيدة . . . ويمكن أن تكون ، خلافاً لذلك ، لا مثيل لها .

(١٤٣) لعله من عسقلان : انظر المقدسي ، ترجمة ، ٢١ ، ح٣٦ .

(١٤٤) قبل هذا المثل ، مثل آخر (اسقاط) : زبيب . . . أقل جودة من زبيب الطائف ، المشهور : المقدسي ، ٧ . ح (ف) ، ٧٩ .

(١٤٥) حول التفاسير المحتملة ، انظر المقدسي ، ترجمة ٢١ ، ح ٣٨. (يضاف الى الحالات دوزي ، ج١ ، ٤٣٥ ، ديميزون ، معجم لفظ داركان،ابن البيطار ، ج٢ ٨٦ ، لفظ دراقين) . اميل قطعاً الى نقل دريكس . داريوس) .

اذن الفاظ المقدسي السابقة واضحة ، ومشروحة ، ومعلق عليها ، ومحددة المعنى . يضاف اليها مفردات جديدة موزعة في متن كتابه ، مثل فائق ورفيع ونفيس . . . مع ذلك تنطوي على صعوبة : فكلها ادلة على النوعية . لكن يشاء حسن الحظ ان يبادر المصنف إلى نجدتنا مرة اخرى ، بما يحتوي من تعابير تقوم المعنى المقصود : ففي الحديث عن احدى المناطق ، يقال ، عند الحاجة ، انها بلد هذا الصنف او ذاك ، او معدن (١٤٦) وبذا نلقى تدوين الكمية التي ظننا انها اغفلت . بالتالي ، يشبه نهج المقدسي نهج ابن حوقل ، ويؤيده ، لكنه يستعمل علامات بارزة ، ويضمن الجدول العام جميع الاصناف غير المتميزة او المتميزة بنعت « جيد » ، ويستخدم الصفات المعبرة بقرائن خاصة تدل على الكمية (بلد ، معدن) او على النوعية (جميع الالفاظ المحصاة ما عدا جيد) ((١٤٧) . وبهذا اصبحت طريقنا واضحة . ويسعنا ان نقلد مؤلفينا في رؤية ما يرتسم امام ناظرينا من الحياة الاقتصادية في دار الاسلام : وما علينا الا ان نقتفي اثرهما .

الحقل والمحرف

وفي دار الاسلام ، يبدو المغرب بلد الزيت — معاصر الزيت ومواجينه منظر مألوف فيه (١٤٨) — والمرجان ايضا (١٤٩) . وفي الاندلس وميرقه البغال . وتنفرد برقه بتجارة القطران . وفي صقيلية ثياب الكتان التي لا نظير لها جودة ورخصا ، وفيها بربير يضاهي البردى في مصر ، ويفتل حبالا لمراسي المراكب ، ويعمل منه طوامير

(١٤٦) اندر : موضع . (مثال المقدسي ، ٧٩) .

(١٤٧) أيضاً واحتمالا ، صفات أو تعابير ذات مغزى خاص في هذا العنوان أو ذاك .

(١٤٨) ابن حوقل ، ٧٠ ، المقدسي ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ .

(١٤٩) المقدسي ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ وجغرافية دار الأسلام ، ج٣ ، ٤٨٢ — ٤٨٣ .

القراطيس . وفي طرابلس وما وراءها الاكسية الفاخرة الزرق والسود . وفي الاندلس المخمل واللباد وخيوط الحرير ،والكتان (١٥٠) . اما مصر ، فتختص بدهن البلسان ، وبطيخ الدلتا ، ومزارع ارز الفيوم ، وبها الخل والاوز والموز والقند والحمص والترمس والقرطم والقلقاس ، والبغال والحمير والابقار والالبان (١٥١) . وتعد ايضا مركزا من اهم مراكز الحرف في دار الاسلام (١٥٢) . وفيها السلال والحبال والامساد والبطائن .وزخارف الريش .والزجاج لاسيما المستعمل في الحبر ،والرخام ، والجلود ، والاحذية والمناطق . والشمع والاشنان ، والاصبغة والقار . واهم من ذلك كله اقمشة الكتان والحرير او الصوف ، العادية او الرفيعة في دبيق او بهنسا .

وتنتج جزيرة العرب ، لاسيما في جبال ساحلها الغربي واليمن ، الرمان والعنب والتمر والحبوب والعسل . ويتميز جنوبها بثلاثة اصناف هي التمر ايضا والموز والزيوت (١٥٣) . وتدبغ الحرف الجلود في اليمن ، وتصنع حجارة المسن في جبل رضوى (١٥٤) . ويعلي المقدسي ،

---

(١٥٠) ابن حوقل ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١١٠ ، ١١٤ — ١١٥ ، ١٢٢ — ١٢٣ ، ١٣١ ، ٤٦٥ .

(١٥١) ابن حوقل ، ١٦١ — ١٦٣ ، ٢٢٦ ، المقدسي ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ (وح . اغرك) — ٢٠٤ ، عن الحالوم ، وهو جبن خاص بمصر انظر م ج ع ، ج٤ ٢١٨ .

(١٥٢) ابن حوقل ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، المقدسي ، ٢٠٢ — ٢٠٣ ، ٢٠٩ .

(١٥٣) المقدسي ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ آخرها — ٨٧ ، ٤٧٠ .

(١٥٤) ابن حوقل ، ٣٣ ، المقدسي ، ٨٧ .

ابن بيت المقدس (١٥٥) شان الشام : ففي بعلبك العنب ، وفي حوران الحنطة وسائر الحبوب ، والقطن والازهار في وادي الاردن الاعلى . وتذكر في اماكن عديدة من فلسطين الاعناب ايضا ، وقصب السكر ، والجميز ، والنيل والنخيل والتين والتفاح والصنوبر . ويجمع المقدسي كل اصناف فلسطين كما قلنا . في قائمة واحدة تتضمن ستة وثلاثين صنفا مبينة على الوجه التالي : قضم قريش . المعنقة ، العنب العينوني ، العنب الدوري ، العنب العاصمي (١٥٦) وانجاص الكافوري (١٥٧) والطري ؟ (١٥٧) ، وتين السباعي والتين الدمشقي . والتين التمري(١٥٨) والقلقاس ، والجميز ، والخرنوب ، والعكوب (١٥٩) والعناب وقصب السكر ، والتفاح الشامي ، والرطب ، والزيتون والاترج ، والنيل ، والراسن ، والنارنج واللفاح ، والنبق (١٦٠) ، والجوز واللوز والهليون والموز والسماق والكرنب والكماة (١٦١) والترمس ،

---

(١٥٥) بشأن مايلي ، انظر المقدسي ، ١٦٠ ، ١٦٢ (مع اشارة الى « طبخ » السكر) ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٠ (و ح م) — ٨١ ، ٤٧٠ . انظر أيضاً ابن حوقل ، آخر ١٨٤ — ١٨٥ (عن النيل) .

(١٥٦) نسبة الى قريتي بيت عينون ودورا في منطقة حبرون . أما العاصمي فغامض : لعله نسبة الى عاصم أحد قراء القرآن تخليدا لذكراه .

(١٥٧) الكافوري (لعله تخليد الذكرى الأخشيد كافور) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٩٠ ودوزي ، ج٢ ، ٤٣ .

(١٥٨) « سباعي » مشكوك بتشكيله (ضخم هائل عن الجمل أو الأنسان) عن تمري (نعت لبعض الفواكة) ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ٢٢١ ، ح٣٦ .

(١٥٩) عكوب ، انظر ج دا ، ج٣ ، ٤١٦ ح١ .

(١٦٠) ثمر السدر : انظر ج دا ج٣ ، ٤٤٢ .

(١٦١) الكماة : انظر ج دا ج٣ ، ٤١١ .

وابن الجواميس والشهد والثلج (١٦٢) . ويدل هذا التعداد على وفرة الزروع في بستان فلسطين ، ويبرز بالتالي الطابع الزراعي لاقليم الشام باجمعه ، ويخلف وراءه بعيدا جدا قار البحر الميت ، وخز عسقلان ، وحواري الرملة ومبازرها ،وترياق بيت المقدس او مسابحها (١٦٣) .

وتتوازن اللوحة من جديد في العراق . ففيه الكرمة والسمسم والارز والتين والتمور والقرنفل والبنفسج والقط (١٦٤) . وفي بغداد وعبادان ، (١٦٥) ، صناع الحصر من الحلفاء والخيزران (٦٦) ، وفي تكريت الصوف ، وفي الابلة الكتان ، وبالكوفة عمائم الخز(١٦٧) والبصرة معدن اللالىء والجواهر . ويذكر ابن حوقل والمقدسي من اصناف الجزيرة والبلدان الممتدة من ارمينية إلى اذربيجان ، العسل والشمع والزعفران والقرمز ، والفوة والاصبغة الاخرى والشاهبلوط والزوقال والزيتون والسفرجل واللوز والجوز ، وتين برذعة الذي يفضل على ما كان من جنسه ، فيما يبدو ، والبطيخ الاردهري في منطقة المراغة المستطيل الخلق ، القبيح المنظر ، غاية في الحلاوة وطيب

---

(١٦٢) مقترن بالأصناف الزراعية الصرفة عن انتاج الطبيعية أو الصنعية ، انظر ابن رسته ، ١٦٧ ، ١٩٨ .

(١٦٣) ابن حوقل ، ١٨٤ ، المقدسي ، ١٧٤ ، ١٨١ .

(١٦٤) ابن حوقل ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٩٩ ، المقدسي ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ٤٧٠ . عن الرطاب (رطبةجمعها رطاب) والقط ، انظر ج ١، ج٣ ، ٤٧١ ، ح١ .

(١٦٥) المقدسي ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .

(١٦٦) عبادان تابعة للبصرة حسب الجغرافيين العرب . (١٦٧)) ذكر في مكان آخر (المقدسي ، آخر ٤١٧) سكب الكوفة لا نظير له .

الطعم (١٦٨) . ويصطادون نوعين من السمك : الاول القشوبة ، والثاني الطريخ من بحيرة خلاط ، وهو يملح ويصدر (١٦٩) . ويربون الاغنام والدواب خاصة البغال التي تصدر إلى الشام والهند ، والشهارى الموصوفة بالجمال والفراهة (١٧٠) . وبجبل ماردين جوهر للزجاج جيد ومشهور يحمل منه إلى سائر البلدان (١٧١) . وتعمل ارمينية البسط من جميع الانواع والقياسات (الانخاخ ، الانماط) ، والستور ، والوسائد ، والمناطق التي لا نظير لها في دار الاسلام (١٧٢) . ويعثر على شواطيء البحيرات وبجوارها على ملح البورق ، ويحمل للخبازين ، وعلى بورق الصاغة ، وعلى مقالع الزرنيخ المجلوب إلى سائر الارض (١٧٣) . والرقة على الفرات معدن الصابون (١٧٤) . واشجار التوت في الران (برذعة) مباحة لكثرتها ، لا مالك لها ، يربى عليها دود القز ، ويجهز عنهم إلى فارس وخوزستان منه جهاز (١٧٥) . وتحاك الثياب من الحرير وسائر المواد النسيجية ، منها السبنيات والمقارم

---

(١٦٨) ابن حوقل ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، المقدسي ١٤١ ، ١٤٥ ، ٣٨٠ . عن زوقال ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ٤٤٠– ٤٤١ . ابن حوقل ،آخر ٢٩٨ – ٢٩٩ ، يذكر دهن الخلاف المراغي الذي لا يدانيه دهن في الأرض .

(١٦٩) ابن حوقل ، ٣٤٦ ، المقدسي ، ١٤٥ (الطريخ يرتفع من الموصل)، ٣٨٠ : عن هذين النوعين من السمك ، انظر ج دا ، ج٣ ٣٦٧ ، ح٣ و ٤ .

(١٧٠) ابن حوقل ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، المقدسي ، ١٣٦ .

(١٧١) ابن حوقل ، ٢١٤ .

(١٧٢) ابن حوقل ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ – ٣٤٥ ، المقدسي ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ .

(١٧٣) ابن حوقل ، ٣٤٦ .

(١٧٤) المقدسي ، ١٤١ .

(١٧٥) ابن حوقل ، ٣٣٨ .

والفرش والمناديل ، وتكك السراويل التي تباع التكة من دينار إلى عشرة دنانير ، ولا نظير لها في سائر الارض (١٧٦) .

ويحمل إلى العراق الكثير من فواكه البلدان القريبة من بحر ، الخزر (١٧٧) . ويربون الابل والاغنام (١٧٨) ، ويصنعون الخزف . وعندهم خشب الخلنج ، والشمشاد ، والكرم الملون ، المجزع خشبه بسواد وحمرة (١٧٩) . الا ان النسيج اهم ما لديهم : فالابريسم من انحائهم إلى جميع الآفاق ، وقطنهم متين جدا ، تحاك منه مناديل متنوعة ، ودساتك ساذجة ومذهبة ليس لمذهبها نظير ، ولقطنها صفرة . اخيرا يصنع من الصوف اكسية ثمينة مذهبة ايضا (١٨٠) . وتجهز ثياب القطن والابريسم من الري واصبهان في اقليم الجبال ، إلى البلدان المجاورة (العراق وفارس) (١٨١) . ومن اصبهان يأتي الخزف والبسط (١٨٢) ، وبقربها معدن الكحل (١٨٣) . وباقي خيراتها زراعية في طليعتها الزعفران المشهور المقدار ، الذي ليس بجميع الارض شبه له (١٨٤) . ثم الاغنام التي تعتبر قنيتها اوسع نشاط ، حسب ابن حوقل ،

---

(١٧٦) ابن حوقل ، آخر ٣٤٢ — ٣٤٥ .

(١٧٧) ابن حوقل ، ٣٨٠ .

(١٧٨) المقدسي ، ٣٥٦ .

(١٧٩) ابن حوقل ، ٣٨١ ، المقدسي ، ٣٦٧ ، عن خشب الخلنج ، انظر الاحالة السابقة ، حاشية ٦٠ .

(١٨٠) ابن حوقل ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، المقدسي ، ٣٦٧ .

(١٨١) ابن حوقل ، ٣٦٣ ، آخر ٣٧٩ — ٣٨٠ يذكر المقدسي ، ٣٩٢ (ح١ : انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٥ ، لفظ بخس) مركز سر ، ٣٩٦ .

(١٨٢) ابن حوقل ، آخر ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

(١٨٣) ابن حوقل ، آخر ٣٧٢ .

(١٨٤) ابن حوقل ، ٣٥٨ ، آخر ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ .

والعسل والسمن والحبوب (١٨٥) ، والثمار الطازجة او المجففة في اصبهان وغيرها ، والتفاح الكلماني ، والدراق والكمثرى ،والسفرجل ، والرمان ، والعنب والتين واللوز والبندق والفستق والتمر (١٨٦) .



تصوير المكتبةالوطنية ، باريس المكتبة الوطنية ، القسم العربي ، ٥٨٤٧ ، ورقة ١٣ظ

دولاب الغزل

(المصدر : مقامات الحريري ،القرن ١٣ ، الكوفة)

---

(١٨٥) ابن حوقل ، ٣٦٥ ، آخر ٣٧٢ .

(١٨٦) الفستق والتمر نادران لكنهما ممتازان على تخوم العراق وبسبب القرب ذاته : انظر ابن حوقل ، ٣٦٣ — ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، المقدسي ، ٣٨٩ (ح ب) ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ .

وننزل الآن إلى خوزستان، فنجد فيها اصنافا بارزة جدا : كالعسل الممتاز الذي يحمل إلى العراق ورطب المزقان التي تعرف برطب الطن ، ويقال انه اذا اكله الانسان وشرب عليه ماء المسرقان ، لم يخطئه رائحة فيه من رائحة الخمر العتيق . وبها (في تستر) صنف من الاترج شمامات ذكية . ويكثر عندهم الارز حتى انهم يطحنونه ويأكلونه ، وهو لهم قوت . اخيرا يزرع قصب السكر في جميع كور خوزستان ، وتصنع منه حلواء الاقاليم ، ويحمل منها كل سكر بالدان الاعاجم والعراق واليمن (١٨٧) . وينحصر جميع انتاج الحرف في ما يحاك من القطن او الصوف او الحرير او الكتان ، من اقمشة خشنة او ثمينة (ناعمة) ، ينسجها الصناع او محارف الدولة كالالبسة والخزوز ، والديباج الذي كانت تعمل منه كسوة الكعبة ، والبسط اليدوية التي تشتهر في جميع انحاء دار الاسلام ، وتنسجها مدن تحارب تقليد اعمالها واستغلال اسمها ، مثل تستر ، وسوسه ، ورام هرمز ، وقرقوب ونهر تيرى ، وبصنا (١٨٨) .

ويبدو ان فارس انشط ايضا . فمن محاصيلها — قصب السكر والحبوب ، والتين ، والزيتون ، والعنب ، والاترج ، والجوز والاجاص ، والتمر ، وثمار اخرى تصنع منها الاشربة (١٨٩) .

---

(١٨٧) ابن حوقل ، ٢٥٣ — ٢٥٤ ، ٢٥٦ — ٢٥٨ ، المقدسي ٤٠٢ ، ٤٠٩ (ج ي : اجاص) ، ٤١٦ — ٤١٧(مع سكر عنب ومرّى : انظر م ج ع ج٤ ، ٣٥٣) .

(١٨٨) ابن حوقل ، ٢٥٢ ، ٢٥٦، ٢٥٧ . (مع ذكر المناطق البركانات أيضاً) ٢٩٩ ، المقدسي ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ .

(١٨٩) المقدسي ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ — ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤١٣ . خوخ عمري ذكر من قبل نسبة الى عمر) .



تصوير المكتبة الوطنية ، باريس المكتبة الوطنية ، القسم العربي ٥٨٤٧، ورقة ١١
استراحة قافلة في دمياط
(المصدر : مقامات الحريري ، القرن ١٣ ، الكوفة)

وفي جباله غنم البازهر ، الذي يؤخذ منه البادزهر ، الترياق ضد السموم (١٩٠) . لكن اهم منه الزهور ودهونها ، واصناف الماء والعطور والمراهم : ماء الورد ، ماء الزعفران ، ماء القيسوم ، القرنفل ، البنفسج ، ماء الخلاف ، ماء الطلع (١٩١) . هذا عن النبات والحيوان ، وليس كل ما لديها ، لأنها بلاد عيون القار ، وبها مداد اسود لذوي الكتاب واصباغ التزاويق وهي مفضلة على ما سواها (١٩٢) . ولديها ايضا احتياطي هائل في المناجم والمقالع : من الطين الابيض والاسود والاصفر والاحمر والاخضر وغيره ، يتخذ منه اواني وصحون . وعندهم الفضة وان كانت نادرة ، على خلاف الرصاص والحديد والكبريت والنحاس والذهب والزئبق ، وكلها مستخرجة في الغالب بمقادير كبيرة تتجاوز حاجة الاستهلاك المحلي ، فتحمل الى البلدان المجاورة (١٩٣) .

مع ذلك ، في النهاية لابد من الحديث عن النسيج (١٩٤) : فعدد مراكز النسيج يساوي عدد المدن التي يعتبر اسمها علامة صنع وعلامة صنع الدولة في اغلب الاحيان . فسابور بها طراز للكتان . ويرتفع من جهرم من ثياب الوشي الرفيع والمصليات الجهرمية . وبسينيز الثياب الكتان التي وقع الاجماع ان الطيب لا يعلق ويعبق بشيء من الثياب

---

(١٩٠) المقدسي ، ٤٢٠ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٣ (وح٥) .
(١٩١) ابن حوقل ، ٢٩٨ — ٢٩٩ المقدسي ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٣ .
(١٩٢) ابن حوقل ٣٠٠ ، المقدسي ، ٤٢٠ ، ٤٢٨ .
(١٩٣) ابن حوقل ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ .
(١٩٤) ابن حوقل ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ المقدسي ، ٤٢٠ ، آخر ٤٣٣ — ٤٣٥ ، ٤٤٢ — ٤٤٣ .

كعلقه وعبقه بها . وبجنابة المناديل الجنابية . وبتواز ثياب التوازي ، ولا يشبهها شيء من ثياب الارض في جنسها ، وبفسا ثياب القز والمنيرات والصوف والبسط اليدوية . ويحمل من يزد وابرقوقه ثياب القطن إلى كثير من النواحي . ويرتفع من غندجان الستور والبسط والمقاعد واشباه ذلك . وتشتهر شيراز بالاكسية البركانات . ويسمي المقدسي كازرون دمياط الاعاجم ، وذلك ان ثياب الكتان التي على عمل القصب ، شبه الشطوى ، وان كانت من عطب تعمل به . فالاستنتاج الحاسم ، استخلصه ابن حوقل : تحتل فارس المرتبة الاولى في العالم بالمواد المستخرجة من الزهور وبالنسيج .

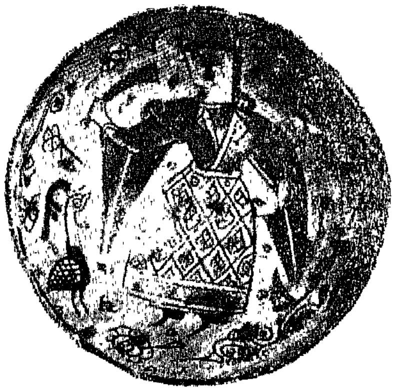
ونستأنف الاتجاه إلى الشرق ، ونصل إلى كرمان . ويشير ابن حوقل والمقدسي إلى ما فيهما من حرير او قطن ، وعمائم وبراقع ومناديل وطيالس مقورة وغيرها من الثياب . وقد اكتسبت سمعة وشهرة متينتين لما لها من بقاء طويل يدوم خمس سنوات إلى عشر . وبزرند البطائن المعروفة بالزرندية ، وتحمل حتى تصل إلى اقاصي المغرب . وبجبال البارز معدنا الحديد والفضة ، وسمي احد جبالها بجبل الفضة (١٩٦) . ومن محاصيل كرمان الزراعية الذرة (البيضاء) والحبوب واربعة اصناف اساسية هي التمور الوافرة التي تقتضي سنة لهم بالامتناع عن رفع ما تسقطه الرياح منها وتركه للضعفاء والمساكين ،

---

(١٩٥) ابن حوقل ، ٢٩٨ .

(١٩٦) ابن حوقل ، آخر ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٤ ، المقدسي ، ٤٦٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ — ٤٧٢ .

ثم النيل والكمون وقصب سكر القصب المكرر والمحمول إلى سائر الآفاق (١٩٧) .



متحف متروبوليتان للفنون ، نيويورك ، رقم ٣٨٤٠٢٩٠

صورة قدح مثلث عليه صور بشر وحيوانات ، نيسابور ، فارس ، القرن العاشر

وينتج سكر القصب بكميات كبيرة في السند اقصى اقاليم دار الاسلام . وبها الليمون الحامض ، والانبج وجوز الهند ، والغالب على زروعهم الارز ، ولهم العسل الكثير . وهم اهل ابل يربون الفالج . وعندهم ثياب لم يدقق نوعها ، ونعال كنباياتية نفيسة مصنوعة من جلد الجواميس (١٩٨) . ويحمل منها العاج . وسجستان كثيرة التمور والاعناب ، وبها غلة عظيمة من الحلتيت حتى انه قد غلب على طعامهم وجعلوه في عامة اطعمتهم . وتعمل حرفهم الزنابيل ، وتفتل الحبال من الليف وتنسج الحصر (١٩٩) . وتقع افغانستان في نهاية التخوم

(١٩٧) ابن حوقل ، ٣١١ – ٣١٣ ، المقدسي ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ .

(١٩٨) ابن حوقل ، ٣٢٠ ، آخر ٣٢٣ – ٣٢٤ ، ٣٢٥ (مكران بين كرمان والسند) ، المقدسي ، ٤٧٩ (ح لا م) ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٤٢ – ٣٤٣ .

(١٩٩) ابن حوقل ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، المقدسي ، ٣٢٤ .

الشرقية . وفيها الاغنام في الغور ، والاعناب في هراة ، والاهليلج الشهير في كابل ، والنيل ومناديل القطن والنوشاذر والحجارة الكريمة ، واخيرا من المعادن الحديد والذهب والزئبق وخاصة الفضة في جبل بنجهير (٢٠٠) .

وتعد خراسان بلادا رئيسة، اشاد بها اسلاف ابن حوقل والمقدسي قبلهما . فهي تربي السوائم والدواب وفي طليعتها الابل ذات السنامين (الفالج) في بلخ وسرخس . ولا نظير لبطيخ مرو الذي يقدد ويحمل إلى كثير من الآفاق . وزبيب نيسابور وسفرجلها وكشمشها . يضاف إلى ما تقدم الحبوب ، خاصة الارز، والكماة والباذنجان والاشترغاز وطين الاكل (٢٠٢) . وفيما يلي ما كنا نتوقعه عن الانتاج الحرفي : المنسوجات : الديباج ، الثياب الفخمة من قطن او حرير من نيسابور او مرو (٢٠٣) ، وإلى جانبها الجلود المدبوغة والابر والسكاكين (٢٠٤)

---

(٢٠٠) ابن حوقل ، ٤٣٩ (عنب الكشمش : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٥٧ ، ح٦ ، ٤٥٩ ، ح٥ وما يلي حاشية ٢٨٣) ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، آخر ٤٦٤ — ٤٦٥ ، المقدسي ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، آخر ٣٠٦ — ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٦ .

(٢٠١) ابن حوقل ، ٤٤٩ ، آخر ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، المقدسي ، ٣٢٦ (البان ، بالاحرى ، البان معدة ومحلاة ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٤٧ ، لفظ ملبن) .

(٢٠٢) ابن حوقل ، ٣٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٤ (رز الغرج ، على تخوم خراسان وافغانستان ، يحمل الى بلخ ومدن اخرى) المقدسي، آخر ٣١٦ — ٣١٨ ، آخر ٣٢٥ (و ح نون وميم، اقرأ رخبين . انظر ما تقدم حاشية ، ١٠٠)، ٣٢٦ (و ح و : طين الأكل المحمول الى مصر والى تركستان) .

(٢٠٣) ابن حوقل ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ قوهستان بين خراسان وسجستان) ، ٤٥٢ ، المقدسي ، آخر ٣٢٣ — ٣٢٤ ، آخر ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٢٠٤) ابن حوقل ٤٤٣ ، المقدسي آخر ٣٢٥ .

واخيرا المعادن كالملح والنحاس والحديد والذهب ، ومن الحجارة الكريمة ، البرام معدن القدور ، والفيروز ، والخماهن ، والدهنج ، والبلور (٢٠٥) .

ويستدعي ماوراء النهر(٢٠٦)انتباهاخاصا من ابن حوقل والمقدسي ، لأن هذا الاقليم يقع تحت سلطة السامانيين ، وهم امراء كاملون ، ولأنه يضم عدة بلدان اشير اليها من قبل هي السغد ، وخوارزم ، والشاش ، وايلاق ، وفرغانة ، واشروسنه ... ومن هنا غنى البساتين والجنان ، افراديا او اجمالا . وبه البطيخ والاعناب والطرخون ، والكراث « العملاق » الذي نعرفه . ومن الابواب المفضلة فيه ، الزعفران والفوة ،وصيد السمك والخشب والمن(٢٠٧) ،والفراء،وتربية الحيوانات ، كالخيل ، والبغال والابل وكلها من الاجناس الممتازة ، والبزاة البيض بجميع درجات البياض .

وقطعا تتناسب جودة انتاج الحرف مع المرافق الاخرى ، وتضم قسيّ خوارزم ، وغضائر الشاش وكاغد سمرقند (٢٠٨) ، وارضه غنية ايضا بالحجارة الكريمة ، كالبجاذى والبازهر واللازورد

---

(٢٠٥) ابن حوقل ٤٣٤ (يلاحظ بالنسبة الى الذهب ، ان ربح المنجم قليل) ، آخر ٤٤٠ — ٤٤١ (صرف النظر عن استغلال الفضة لنقص الخشب) ، المقدسي، ٣٢٤ (عن برام ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٨) ، ٣٢٦ (ح ه) : محاليل مالحة مستعملة في الطب) .

(٢٠٦) من أجل ما يلي ، انظر ابن حوقل ، ٤٤٩ — آخر ٤٥٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٧ ، ٤٦٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٥ (ترجمة ، ٤٩٢ ، ح٩ ١٧٠ : انظر ج دا ، ج٣ ، ٤٢١ ، ح١) ، المقدسي ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ .

(٢٠٧) ما تقدم حاشية ٦٤ .

(٢٠٨) المقدسي ، ٣٢٦ ، الغضائر ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٩ .

والبلور (٢٠٩) ، وبالمعادن ، كالنوشاذر ، والزاج ، والاميانت ، والقير ، « وهي الحجارة التي تحرق عوضا عن الفحم » ، والملح ، المتاجر به على نطاق واسع ، والحديد ، والنحاس والرصاص ، والزيبق والفضة وذهب المناجم او الرمال (٢١٠) . اخيرا ، يشتهر النسيج مرة اخرى في ما وراء النهر(٢١١) . ويُشْتَرى على العموم على ثياب القطن او الحرير او الصوف فيه ، ويشار بالتفصيل إلى مراكز حرفها . في خوارزم ، يرتفع من بخارى ونواحيها ، ثياب تعرف بالبخارية ، كرابيس ثقال الاوزان، والبسط ومصليات المحاريب(٢١٢)، وثياب من الصوف للفرش . وفي سمرقند او بالاحرى في جارتها مدينة ويذار ، تعمل الثياب الويذارية القطنية ، وهي ثياب تلبس خاما غير مقصورة ، وفيها قليل صفرة وكأنها للينها خز ، وتجلب إلى فارس والعراق وسائر الاقطار ، ويبلغ الثوب منها من عشرين دينارا إلى دينارين . والثياب الويذارية ظاهرة على ما يلبسه الامراء والاغنياء بخراسان ، لذلك تسمى ديباج خراسان في بغداد (٢١٣) .

نتساءل ماذا تعلمنا من دليلينا ابن حوقل والمقدسي في هذه النزهة معهما . فهما يطبقان مثل اسلافهما منهج الكشاف ، ويجدون هنا

---

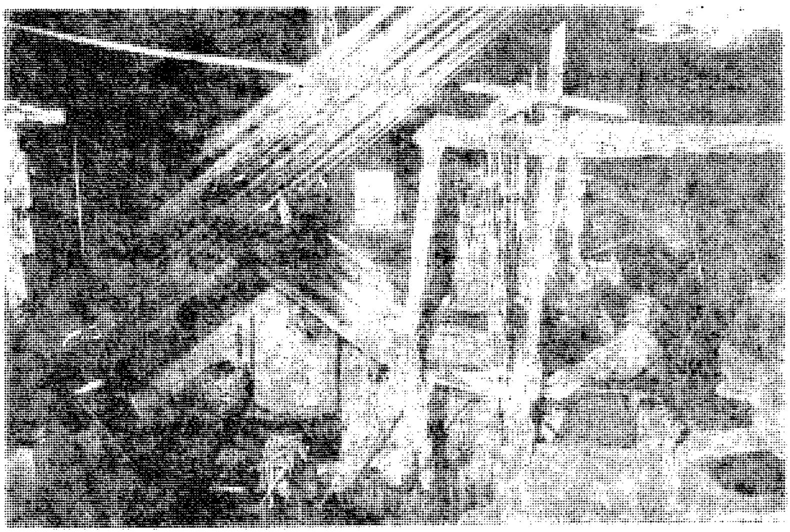
(٢٠٩) ابن حوقل، ٤٤٤ ، البجاذى ، انظر ما تقدم ، ح ١٠٣) ، ٤٨٨ ، المقدسي ، ٣٠٣ (مع حجر البازهر أيضاً : ما تقدم ، الحاشيتان ٧٤ ، ١٩٠) .

(٢١٠) ابن حوقل ، ٤٧٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠٢ ، آخر ٥٠٥ ، آخر ٥٠٦ ٥١٠ ، ٥١٥ ، المقدسي ، ٣٠٣ .

(٢١١) ابن حوقل ، ٤٦٤ ، ٤٨١ ، ٤٩٠ ، ٥٢٠ — ٥٢١ ، المقدسي ، ٣/٤

(٢١٢) « مصليات محاريب » : ابن حوقل ٤٩٠ .

(٢١٣) لفظ خراسان مأخوذ بمعنى جغرافي واسع جداً مثلما ترى .



حياكة الحرير في تركستان الافغانستانية

(تصوير رولان وسبرينه ميشو / رافو)

وهناك في لوائحهما اصنافا اشيد باشتهارها قبلهما مع بعض الفوارق الاساسية ، فقوائمهما ترتكز على الكم والنوع بآن واحد ، مما يثبت انها نتيجة الملاحظة المباشرة ، لا تكرار مواضيع ينقلها الادب من كاتب إلى كاتب ، اشبه بعناصر معرفة مفروضة . وعلى وجه التخصيص لا يمثل كشاف ابن حوقل والمقدسي غاية بحد ذاتها تستبعد كل ما سواها . فهذا الكشاف لا يلقي بظله على هذا الكل ويحجبه ، أعني بالكل الاصناف التي تتكون منها الحياة اليومية الخاصة بسكان دار الاسلام وببلدانها — بل يعتمد عليه بدقة ، ويدونه حسب وروده في المناطق وعلى توالي الصفحات ، ويعد فيضا منه ، ويرينا ، على اساس هذه المعطيات المتنوعة والمتلألئة إلى النهاية القصوى ما يستحق الابراز منها بوفرة عدده او اصالته .

اذن رؤية ابن حوقل والمقدسي اصطفائية ، لكن ليس وفق قبلية مبهمة ، بل انطلاقا من فرز أُجري بعناية بعد فتح جميع اوراق اللعبة باخلاص . فماذا يقولان ؟ يقولان اولا ، اذا تقيدنا هنا بكشاف الكشاف وجدنا ، ان مشرق دار الاسلام اوزن إلى اقصى حد من مغربها: وهذا تأكيد على نزوع اشير اليه مرارا . ثم يقول ان المنجم والعمل الحرفي قطعا اهم من الزراعة ، التي يجب ان نستبقي منها ان المغرب بلد الزيت ، وان التنوع الزراعي خاص بمصر او الشام او العراق ، وان الارز وقصب السكر محصولا خوزستان حول اصبهان ، وفي فارس ، وخراسان ، وما وراء النهر . اما تربية الحيوانات ، فالبلدان الهامة بها في دار الاسلام ، الاندلس بالبغال ، ومصر بالحمير والابقار .

وارمينية واذربيجان بالاغنام والبغال والخيل ، واقليم الجبال بالاغنام ، واخيرا البلدان الشمالية الشرقية بالفالج .

وفيما عدا الزراعة ، كان نشاط سكان دار الاسلام يتوزع على بعض المرافق الاساسية حسب ابن حوقل والمقدسي ، اولها المعادن في بلدان النعيم اي فارس وكرمان وافغانستان وخراسان وما وراء النهر . ثم مجموعة معادن متنوعة في شتى الاماكن : كالزاج والزرنيخ والقير والنوشاذر والبورق والاميانت ... لكن برزت افضلية اخرى في الانتاج الحرفي الكمالي ، اذ تم الاهتمام بالحجارة الكريمة والعطور — هذه الاخيرة في فارس مركزها المفضل على الاطلاق — وخاصة النسيج. ولا شك ان الحرفيين لم يعملوا للاغتناء فقط والبيع باسعار باهظة . فقد اعجب ابن حوقل والمقدسي اولا بالاقمشة والثياب الفخمة . مهما يكن تركزت شهرة فارس على النسيج وجاء خلفها كثير من البلدان ، منهم مصر وارمينية والبلدان المشرفة على بحر قزوين ، وخوزستان وخراسان وما وراء النهر . ويظن في النهاية ان دار الاسلام لم تكن تحلم حوالي العام الف ، الا بالنسيج وبه بالدرجة الاولى،فهمّها ان تحوك القطن والصوف والكتان والحرير، وان تحوك بجميع الاشكال: ثيابا وخيوطا وقطع قماش وثياب اثاث،وبسطا،وستورا،ومناديل،وملاطق، وبراقع ، وعمائم ، واغلفة مساند او مخاد ، وان تحوك بجميع الطرائق ، قماشاً خاما او ملونا،او موحدا،او مقلما، او متعدد الالوان ، او لينا او ثقيلا او بسيطا او مقصبا او مخملا او ديباجا ، باختصار ان تحوك وتحوك وتحوك على الدوام .

يحدث تبادل جميع هذه الاصناف تداولا نقديا كثيفا (٢١٤) . ونحن نعلم ان النظام النقدي يعتمد على وحدتي ذهب وفضة ، هما الدينار والدرهم ، الموروثان عن ديناريوم (سوليدس) الرومي والدرهم الساساني ، وقد قبلهما الاسلام وعربا في عهد الخليفة الاموي عبد الملك (٢١٥) . وطبعا تنوع عيارهما (٢١٦) . ونشير إلى جملة مثيرة من كلام الرازي عن قرطبة (٢١٧) : « تسك فيها دراهم من الذهب الصافي وقطع فضة ممتازة » ، مما يستلزم بسهولة بان الوضع لم يكن دوما على هذه الحال . كذلك تنوعت نسبة الدينار إلى الدرهم : ويعطي المقدسي مثالا عن بلاد الشام (٢١٨) .

وتندرج دراسة هذه العملات في تاريخ دار الاسلام الاقتصادي . ولا استبقي هنا الا حدثا رئيسا : وتعد تبدلاتها ذاتها جزءا من التجارة والرحلة في رأي ابن حوقل والمقدسي اللذين يعتبرانها كما هي في وصفها ، وقائع يجب معرفتها وتعريف مستعمليها بها ، اي التجار ،

---

(٢١٤) انظر م . لومبار ، العملة والتاريخ من الاسكندر الى محمد ، باريس لا هاي ، ١٩٧١ ، ص ١٤٥ وما يليها .. عن العملات ، انظر أيضاً المراجع ، المذكورة في ترجمة المقدسي ، ٢٢١ ، ح٣٨ ، و ر . برونسويغ ، المفاهيم النقدية عند الفقهاء المسلمين ، مجلة ارابيكا ، ١٤ روماني ، ١٩٦٧ ، ص ٢١٣ – ١٤٣ .

(٢١٥) ابن رسته، ١٩٢، ١٩٨ (عن الوالي الحجاج بن يوسف اول من نقش على الدرهم سورة الاخلاص) .

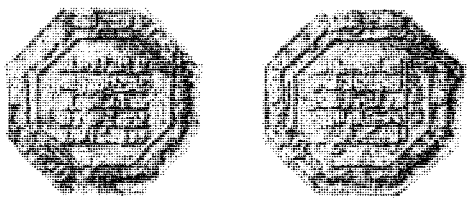
(٢١٦) انظر ج . ش . مايلز ، م١(٢)،ج٢، ٣٠٥ – ٣٠٧ و ٣٢٨ – ٣٢٩ .

(٢١٧) الرازي ، ٦٥ . انظر أيضاً على سبيل المثال ، ابن حوقل ، ٤٩٠ ، ٥٠٠ ، ٥١٠ .

(٢١٨) المقدسي ، ١٨٢ ، انظر أيضاً ابن رسته ، آخر ١١٢ .

وهم من افضل قرائهما (٢١٩) بالتالي ، يدونان بدقة خالية من كل هوى ، ليس هذه التبدلات ، بل تبدلات التسميات بالنسبة إلى الدرهم او الدينار ، ووحداتهما الكبرى والصغرى ، وبالنسبة إلى العملات المحلية . ويحصون قطع العملات المتداولة في مملكة الاسلام بمقاطع او عناوين لا تحصى . وقد عددت عند ابن حوقل والمقدسي ما لا يقل عن ثلاثين اسما (٢٢٠) .

وتسمح المعلومات المعطاة عن سك العملات بتوضيح ظاهرتين رئيستين . اولا النظام الذي يحدد محارف السك (٢٢١) ويراقبها ،



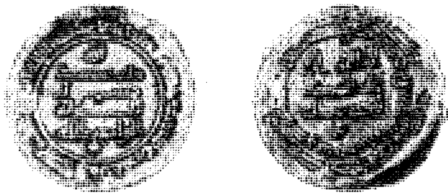
تصوير المتحف الوطني ، باريس المتحف الوطني . انف، م . ٥٨٦
عملة بويهية : درهم مسكوك سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م
بأمر أبي القاسم كافي الدولة ، وزير فخر الدولة البويهي

---

(٢١٩) المقدسي ، ٢ .

(٢٢٠) انظر المقدسي ، ١٨٢ واماكن متفرقة ، ـ ج ع ، ج٤ ، لفظ : عدلي ، اختمي ، علوية ، عثرية ، بغوي ، غطريفي ، حبة ، خروبة ، اسماعيلي ، مثقال ، محمدي (مكي) ، محمدي (ما وراء النهر) ، مقطع ، مسيبي ، مطوق ، مزبق ، قاهرية قند هارية ، قطارى،قنطار ، قيراط ، قرض ، قطاع (أو قطع) ، راضن ، رباعي ، شعيرة ، طسوح (طسوج)،طاطره (طاطري)ثلاثي،ثمن،اوقية،زكاوي . يضاف اليها دانق (غير وارد في م ج ع ، ج٤) . قروي (؟) المقدسي ، ٤٨٢ . وجد أيضاً درهما سمرقنديا (الى جانب الغطريفي في بخارى) عند ابن الفقيه ، ٧٩ ، ٨٢ (ترجمة ، ٤٧ ح ٦١ سديسي (اليمن ، ابن رسته ، آخر ١١٢) طبلي (الاندلس : ابن الفقيه ، ٨٨) .

(٢٢١) ابن الفقيه ، ٨٨ المسعودي (م) ، فقرة ١٤٢٠ ، ابن حوقل ، ٢٤ ، ٣٠٣ ، ٥١٠ ، وصيف شاه ، ١٥٤ .



تصوير المكتبة الوطنية ، باريس المكتبة الوطنية ، لاف ، ١٢٣٣
دينار عباسي (الراضي) مسكوك في مكة سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م

ثم الوضع الخاص في بلدان فارس ، للمعامل القديمة لاحادية معدن الفضة . وقد يحدث هنا ان تتوزع الادوار بين الفضة والذهب ، فيعتبر الدينار عملة حساب فقط ، في حين تجري الصفقات التجارية بالدراهم ، او بقطع النحاس (٢٢٢) في اصغر الصفقات . اما التنظيم المصرفي ، فاذكر بشأنه حدثين . فقد رأى ابن حوقل باودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار اودغست ، وهو من اهل سجلماسة باثنين واربعين الف دينار . واودغست محطة كبرى لقوافل التجارة في افريقية الغربية ، وسجلماسة محطة اخرى لها (٢٢٣) . ويتحدث المقدسي (٢٢٤) عن كازرون في فارس ، وعن قصور التجار الحصينة فيها ، وعما قام به عضد الدولة السلطان البويهي العظيم من بناء دار جمع فيها السماسرة ، دخلها على السلطان كل يوم عشرة الاف درهم . واذا علمنا ان تلك الدار كانت سوقاً للنسيج ، امكننا ، اعتمادا على تعبير مصرفي ، ان نقيس في الحد الادنى قوة بعض القطاعات الاقتصادية في دار الاسلام .

---

(٢٢٢) ابن حوقل ، ٣١٣ ، ٣٩٠ ، قارن بنقدية معدنية ثنائية حقيقية حتى في بعض بلدان فارس : ابن حوقل ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، آخر ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، آخر ٢٨٢).

(٢٢٣) ابن حوقل ، ٩٩ ، عن هذا المقطع ، انظر ج دا ، ج١ ، الطبعة الثانية ، آخرٌ ٤٥٥ – ٤٠٦ .

(٢٢٤) المقدسي ، ٤٣٤ (و ح ا غ .

وتعد الاسعار (٢٢٥) قضية اساسية اخرى في نظر التجار . فمتى استطاع ابن حوقل والمقدسي يعطيان بدقة المبالغ الضرورية لصفقات الجملة (٢٢٦) او صفقات المفرق في اغلب الاحيان (٢٢٧) . وتدون تبدلات الاسعار (٢٢٨) ، وخاصة التقدير العام لرخصها او على النقيض لغلاء الاصناف (٢٢٩) . وقد يعلل رغد العيش او عكسه بظروف محلية او خاصة ، كما هي الحال في ناحية بنجهير في افغانستان حيث تعتمد سهولة الحياة على مناجم الفضة والحجارة الكريمة (٢٣٠) . الا ان تقويم رغد العيش يرتبط في معظم الاحيان بعلاقة السلع باثمانها ، المبنية على قانون العرض والطلب حسب صيغ متنوعة . فاحيانا يبرر قصر مسافة التموين انخفاض سعر الصنف (٢٣١) . وتعلل قلة السكان ضعف الطلب نسبيا بالتالي تفاهة السعر ، وهذا ما يحصل في الفسطاط ... فالمقدسي يتعجب ويقول : (٢٣٢) « ومع هذه الكثرة اشتريت به

---

(٢٢٥) انظر ا . اشتور ، تاريخ الأسعار والأجور في الشرق في القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٦٩ . كذلك للاندلس ، الأسعار والأجور في الأندلس المسلمة في القرنين ٩ و ١٠ ، حوليات اع ت ، ٢٠ روماني (٤) ، ص ٦٦٤ — ٦٧٩ .

(٢٢٦) مثال ابن حوقل ، ٤٥٠ (نيل كابل) .

(٢٢٧) مثال ابن رسته ، ١٠٥ ، ١١٢ ، الثعالبي ، ١١٤ — ١١٦ ، ابن حوقل ٣٣٥ ، ٣٦٤ ، المقدسي ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٨٩ (ح ب) ، ٣٩٠ ، ٤٣٧ ، ٤٦٩ ، اخر ٤٧٩ — ٤٨٠

(٢٢٨) مثال ابن حوقل ، ٧٠ .

(٢٢٩) مثال مسعر (ب) ، ١٧ ، ابن حوقل ، ٣٣٥ ، المقدسي ، ٨٤–٨٦ ، ١٥٧ ، ١٩٦ ، ٢٨٣ ، اخر ٣٠٣–٣٠٤، ٣١٤، ٣٧٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٧، ٤١٠، ٤٢٩، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٦٤، آخر ٤٦٦، ٣٧٠، ٤٧٤، آخر ٤٧٦ — ٤٨٠، ٤٨٤

(٢٣٠) ابن حوقل ، ٤٤٦

(٢٣١) ابن حوقل ، آخر ٩٧–٩٨ ، اسعار منخفضة رغم طول مسافة التموين.

(٢٣٢) المقدسي ، ١٩٩(وح اش «على الرغم» نحن ابرزناها)

(الفسطاط) الخبز الحواري (٢٣٣) ، ولا يخبزون غيره ، ثلاثين رطلا بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق (٢٣٤) ... والسفرجل سبعين بدرهم » اخيرا في اماكن اخرى وفي اغلب الاحيان . تتناسب تكاليف الحياة طردا مع وفرة الاصناف او ندرتها (٢٣٥) .

وليست هذه الامثلة ، المأخوذة من الصميم . سوى توضيح لنظرية اقتصادية وصفها من قبل رواد الجغرافية من امثال الجاحظ (٢٣٦) وخاصة قدامة (٢٣٧) ، الذي يرى ان الامور تنطلق من حقيقة بديهية في كل محيط بشري : هي ان توزع المهام الحتمي بين شتى اعضائه يؤدي إلى فرض ضرورة وجود مبادلات تجارية ،تقتضي حداً ادنى من الاتفاق على اسعار الاصناف افراديا . لكن لا تتحدد هذه الاسعار – لاسباب سهولة او تبسيط – الا قياسا على معيار لا يتغير . ويسهل سبكه . واستعين اضافة اليه بالفضة والنحاس . وحتى بالورق العادي (٢٣٨) حسب صفات متناقصة المستوى .

الضرائب

تبدو الضريبة وسيلة اعالة الدولة ، وعاملا من عوامل الحياة

---

(٢٣٣) حوارى انظر م ج ع ،ج ٤، ٢٢٠

(٢٣٤) أجزاء الدرهم الصغرى : مثال المقدسي ، ١٨٢(الشام : الدانق = سدس درهم)

(٢٣٥) ابن حوقل ، ٧٦ ، ١١٤ ، ٣٢٢،٣٣٥،٣٤٠،٣٥٩،٣٦٤،٣٦٩،آخر ٤١٨ – ، ٤٩٩ وأماكن متفرقة ، المقدسي ، ٨٦ ، آخر ١٣٩ ، آخر ١٤١ – ١٤٢، ١٥٧ ، ٤٦٩ وأماكن متفرقة

(٢٣٦) الجاحظ(١) ورقة ٣٠ – ٣٢ (وترجمة بيلا لشرح مختلف الألفاظ مثل عزيز وممكن .

(٢٣٧) عن علم المجتمع عند قدامه ، انظر جغرافية ، ج١ ، ٩٨ .

(٢٣٨) قدامة ، م ١٢٩) – ١٣١ .

الاقتصادية ، ولازمة مفروضة على المكلفين وفي طليعتهم التجار ، بطريقة تتناوب فيها الشكوى والتقريع . على هذا النحو رآها الجغرافيون العرب قبلنا بكثير . لكن في البدء ، ما هي الضريبة ؟ فالجزية على حدة ، تفرض على المواطنين غير المسلمين ، وقلما تلاحظ في الحقيقة ، لأنها بديهية (٢٣٩) ، ما عدا ذكر الاعفاءات : كما هي حال حفظة من المجوس في نظام مياه نهر سمرقند ، ولا يؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب (٢٤٠) . اما الضريبة الحقيقية فهي الخراج ، وهو موضوع شائع في ثقافة العصر .

والبرهان على ذلك قوائم ارقام يأخذها ابن الفقيه بلا تردد عن ابن خرداذبه ، الذي صنف كتابه قبله بثماني عشرة سنة (٢٤١) ، او الثعالبي الذي يستشهد بالجاحظ (٢٤٢) . والاثبات الآخر اهمية او تواتر العناوين (٢٤٣) التي يخصصها المؤلفون لهذا العنصر الجوهري في الحياة الادارية . والضريبة نقدية (٢٤٤) او عينية (٢٤٥) او نقدية

---

(٢٣٩) ابن حوقل ز ، ٧٠ (يهود قابس) ، ٢١٤ (ترجمة ٢٠٧ ، منطقة نصيبين) .

(٢٤٠) ابن حوقل ، ٤٩٣ .

(٢٤١) عن هذا النقل ، انظر جغرافية ، ج١ ، ح٦ .

(٢٤٢) الثعالبي ، ٩٧ .

(٢٤٣) شبه منهجية عند المقدسي في كل اقليم .

(٢٤٤) انظر مثلا ابن خرداذبة ، ترجمة ، ١١ ، المسعودي (م) فقرة ٦٢٧ ، المسعودي (ت) ، ٦٢ ، ١٤٥ — ١٤٦ ، قدامه ، ٢٣٧ — ٢٣٩ ، ابن رسته ، آخر ١١٨ ، ابن حوقل ، ٢٥ — ٢٦ ، ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ٣٦٧ ، ٤٦٩ ، المقدسي ، ٦٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣٣ ، ١٨٩ (وح ب) ، ٣٣٩ — ٣٤٠ (وح . د) ، ٣٧١ ، ٤٠٠ ، ٤١٨ ، ٤٥١ ، ٤٧٣ .

(٢٤٥) قدامه ، ٢٤١ — ٢٤٢ (لصالح مكة والمدينة) ، الثعالبي ، ١٢٩ .

وعينية معا (٢٤٦) او مصحوبة برسوم اخرى (٢٤٧) او مفروضة على الاراضي الاميرية (٢٤٨) . وهنا ايضا نجد الاعفاءات وانظمة خاصة . ففي منطقة الثغور بين دار الاسلام والامبراطورية البيزنطية ، يعاد توظيف حصيلة الضرائب محليا في شتى حاجات الدفاع (٢٤٩) . وفي رساتيق ما وراء النهر ، يعفى من الضرائب المشرفون على صيانة اقنية الري (٢٥٠) . وتخضع مصر منذ الازل إلى نظام خاص يأخذ بعين الاعتبار فيضان النيل وتبدلاته (٢٥١) . وتعامل معاملة فئوية بلدان التعشير القديمة اي جزيرة العرب والبصرة والكوفة (٢٥٢) .

وتضاف رسوم عديدة إلى جمع الخراج . فالدولة تبذل كل ما في وسعها للنجاح ، وتكثر من المكوس ، وتفرضها على القوافل ، بما فيها قوافل الحجاج ، والمراكب النهرية ، والاتحادات ، والمناجم ، والبنادر ، والمطاحن ، وتجارة الرقيق ، والاقمشة ، والمنازل ، والفنادق

---

(٢٤٦) الثعالبي ، ١٠٧ ، ١٠٩ — ١١١ .

(٢٤٧) قدامه ، ٢٤٦ .

(٢٤٨) قدامه ، ٢٣٦ ، ٢٤١ .

(٢٤٩) قدامه ، م ج ع ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٥٠) ابن حوقل ، ٢٩٧ ، ٥١٠ (اقل وضوحا : لعله لحاجات الدفاع ضد القبائل التركية) .

(٢٥١) ابن رسته ، ١١٦ ، المسعود (م) فقرة ٧٧٨ ، المسعودي (ت) ، ٣٦ المقدسي ، ١٣٦ ، المقدسي ، ٦٤ (ح ك) ، ٢١٢ — ٢١٣ .

(٢٥٢) ابن حوقل ، ٢٣٦ (البصرة وليس الكوفة : المرجع ذاته ، ٢٣٩) . المقدسي ، ١٠٥ ، ١٣٣ . يلاحظ تعشير محاصيل البساتين والجنان هنا وهناك في المغرب : ابن حوقل ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٩٧ . اخيرا دوماً في فصل الأوضاع الخاصة . انظر مسعر (ب) ، ٤٢ (سنة الضريبة مفتوحة قبل شهر من باقي البلدان ، لمنطقة الاهواز) .

والقطعان ، والمراعي ، والاستيراد والتصدير (٢٥٣) . وتعد مصر جنة استيفاء الضرائب . مثال الثياب وبدقة زائدة الثياب الشطوية المقدرة جدا (٢٥٤) . ويقول عنها المقدسي : « واما الثياب الشطوية ، فلا يمكن القبطي ان ينسج شيا منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ، ولا ان تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليهم . وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل إلى من يطويها ، ثم إلى من يشدها بالقش ، ثم إلى من يشدها بالسفط ، وإلى من يحزمها . وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة ، يؤخذ ايضا شيء . وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها » .

وكان المقدسي رحالة واحيانا تاجرا ، فلا غرو ان يهتم إلى اقصى حد بهذا النوع من الاوضاع التي يجتمع فيها الازعاج الاداري وابتزاز الدخل الرسمي . وتعتبر بعض المكوس هينة ، واخف الشرور ، الا ان الضرائب كثيرة وثقيلة في اماكن اخرى ، ومحدثة وشوكات منكرة (٢٥٥) . والواقع ان سمعة الضريبة سيئة ، يخاف الناس منها ، ويهربون . والشاهد هذه الجملة الواردة على لسان اليعقوبي (٢٥٦) : « فاذا قربت (مراكب تجار اليمن) من بلد الابلة ، ارتفعت رائحة

---

(٢٥٣) ابن رسته ، ١٥٦ ، ١٦٨ ، ١٨٥ ، ابن الفقيه ، ٢٠٧ ، عجائب الهند فقرة ٦٠ ، ٨١ ب ، ٨٣ و ص ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ابن حوقل ، ٢٤ ، ٢٥ (امثلة كثيرة) ، ٦٩ ، ٩٦ — ٩٧ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٣٥٣ ، ٢٨٥ ، المقدسي ، ١٠٤ — ١٠٥ ، ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٨٩ ، ٢١٣ ، ٣٤٠ ، ٤٠٠ ، ٤٥١ (ح ب من ٤٥٠) ، ٤٧٣ ، ٤٨٥ .

(٢٥٤) المقدسي ، ٢١٣ (و ح ج) .

(٢٥٥) المقدسي ، احالات في ما تقدم ح٢٥٣ .

(٢٥٦) اليعقوبي ، ٣٦٥ .

المسك ، فلا يمكن التجار ان يستروه من العشارين » ، وهم « نار محرقة » (٢٥٧) ، كما يعلم كل الناس . وفي الاصل ،ألم يلعن الرسول رجال المكوس ، ولا نريد ان نتحدث عن سواهم . (٢٥٨) .

والضريبة الوحيدة التي يرضى بها الجغرافيون هي الخراج . ويستدل على رضاهم باندراجه ضمن مواضيع الادب ، اذ يجب ان نضمن للدولة اسباب معيشتها . ويزعم قدامه ، وهو احد موظفي الخلافة ، بان فعالية الادارة وحكمتها (٢٥٩) تقاسان بالخراج ومردوده. ويذهب ابن حوقل إلى ابعد منه ، ويكتب مثلا عن ارمينية وارّان واذربيجان ، ويقول : « واما حالها .... التي كانت بها ، فان جباياتها وضرائبها على ملوك (٢٦٠) اطرافها ، تعرب عن حالها ، وتدل على حقيقة وصفها » . ويقول في مكان آخر (٢٦١) : « وفي ذكر تقدير البلد ما يدل على ما كان عليه من العتاد والعدد ووصف ارتفاعه ما يعرب عن حاله واصقاعه ومكانه واوضاعه » والواقع ان اهتمام ابن حوقل بانشطة جباية الضرائب شبه نموذجي : فهنا يجعل الخراج صراحة مقياسا مثاليا للوضع الاقتصادي . فيكثر من التدوين ومن العناوين

---

(٢٥٧) عجائب الهند ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، انظر أيضاً المرجع ذاته فقرة ٨١ ب

(٢٥٨) احالة الم. كانار ،العلاقات السياسية والاجتماعية بين بيزنطية والعرب،اوراق دمبرتون اوكز ، ١٨ روماني ، ١٩٦٤ ، ص ٤٩ . عن الجمارك ولفترة لاحقة ، مع احالات اعم ، انظر كاهين ، المكوس والتجارة في المرافىء المتوسطية في مصر القرون الوسطى ، حسب منهاج المخزومي ، لا يدن ، ١٩٦٥ .

(٢٥٩) قدامه ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ .

(٢٦٠) ابن حوقل ، ٣٥٤) .

(٢٦١) ابن حوقل ، ٢١٦ .

بهذه الذهنية ، ويقوم الغنى العام بواردات بيت المال (٢٦٢) ، ويبرز بالمقابل وفي الاتجاه المعاكس الاثارة الضارة بصحة البلد من جراء جباية الضرائب الشاذة (٢٦٣) . بهذا وبكثير غيره ، يثبت ابن حوقل مركزه الفريد في الجغرافية العربية . فهو يراقب مراقبة رائعة الظاهرة الاقتصادية ، كما ترى في البعد اليومي وفي واقع تصرفات الفرد او المجتمع او الدولة .

الموازين والمكاييل

تفترض المبادلات التجارية بداهة وجود نظام مقاييس ملائم(٢٦٤) واحد او عدة انظمة . والواقع ان التنوع مرغوب به ، كما هي الحال بالنسبة إلى العملات . ولنسمع إلى ما يقوله المقدسي بهذا الشأن مثلا : « ولا يرى في الاسلام اصح من موازين العسكر ثم الكوفة » (٢٦٥) . لكن كيف يفهم لفظ « اصح » هل يعني عدالة وامانة ؟ الارجح في الحقيقة انه يعبر عن معدل متوسط صحيح ، وعن نوع من المحور المثالي ، من التعريف الدائم المحافظ عليه بين انظمة لا نهاية لها ، يكاد

(٢٦٢) ابن حوقل ، آخر ٩٦ — ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ — ١٩ ٢٣٩ ، آخر ٣٠١ — ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٤٢٤ ٤٢٥ واماكن متفرقة .

(٢٦٣) ابن حوقل ، ١٥٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ (مع سياسة الحمدانيين : استبدال زراعة الأشجار المثمرة بزراعة القمح والارز والقطن) ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، آخر ٢٥ — ٢٢٦ واماكن متفرقة .

(٢٦٤) المقدسي ، الترجمة : ٢٢١ ، رقم ١٠٣٨ ا . اشتور : مكاييل في م١ (٢) ، م٦ ، ١١٥ — ١١٩ .

(٢٦٥) المقدسي : ٤١٦ . انظر أيضاً المرجع ذاته : ٣٤ : العسكر أو عسكر مكرم : مدينة في خوزستان .

المرء يضيع فيها ، وعليه قطعا ان يتدبر امره بها . اما المقدسي ، فيهتم اهتماما بالغا لا يهن البتة بالموازين والمكاييل والضرائب ايضا . وهو يعد هذه الناحية عنصرا ثابتا في وصفه الاقاليم (٢٦٦) .

واختار من كتابه نصا لا على التعيين يتعلق بالمقاييس في جزيرة العرب (٢٦٧) : « ومكاييل هذا الاقليم الصاع والمد والمكوك . فالمد ربع الصاع . والصاع ثلث المكوك . هذا بالحجاز وهي مختلفة ، المستعمل منها يزن خمسة ارطال وثلثا » . وهنا يقطع المقدسي حديثه ليقول ان عمر رفع هذه القيمة إلى ثمانية ارطال ، ثم يستأنف كلامه : « ولهم بالمراكب صاعان ، يعطون باحدهما جرايات الملاحين ، ويتعاملون بالكبير . وارطالهم بمكة هو المن المعروف في جميع بلاد الاسلام . غير انهم يسمونه رطلا . ورطل يثرب إلى (٢٦٨) قرح مائتا (٢٦٩) درهم . ورطل اليمن بغدادي . ولعمان المن . وبقية الاقاليم بغدادي . (٢٧٠) ولهم البهار وهو ثلاث مائة رطل » .

---

(٢٦٦) المقدسي : ٩٨ — ٩٩ ، ١٢٩ ، آخر ١٤٥ — ١٤٦ ، ١٨١ — ١٨٢، ٢٠٤ ، ٢٤٠ ، ٣٨١ ، آخر ٣٩٧ — ٣٩٨ ، ٤١٧ — ٤١٨ ، ٤٥٢ — ٥٣ ، ٤٧٠ ، آخر ٤٨١ — ٤٨٢ (المشرق والديلم ناقصان) لكي نضعف منهجيتنا الى حد كبير نقول ان هذا الاهتمام موجود مع ذلك عند مؤلفين آخرين : انظر مثلا الخوارزمي (م)، ١٤ — ١٥ ٦٦ — ٦٨ ، ٧٠ . ابن حوقل : ٢١٧ ، آخر ٢٥٤ — ٢٥٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، آخر ٣٧٢ ، آخر ٣٨٢ ، ٤٩٩ .

(٢٦٧) المقدسي : ٩٨ — ١٩٩ عن ابن حوقل مثلا : ٣٠١ .

(٢٦٨) المدينة .

(٢٦٩) منطقة في وادي القرى (المقدسي : ٨٣) شمالي غربي المدينة تقريباً .

(٢٧٠) يفهم على الوجه التالي : تستعمل جميع بلدان جزيرة العرب ومدنها التي لم تسم ، النظام المطبق في بغداد بالنسبة الى مجمل المكاييل والموازين ، وليس بالنسبة الى الرطل وحده .

وينبغي ان نسلم ، مثلما سبق وقلنا ، ان الاختصاصيين — ومنهم الجغرافيون — يتدبرون امرهم بهذه المقاييس من بلد إلى آخر ... ولا يحتجون عليها كما كانوا يفعلون بشأن الضرائب ، بل يتعلمونها بالاستعمال . ويحفظون في البدء اسماء شتى المقاييس وعددها اربعون (٢٧١) . ثم اوضاع تبدلاتها : زمانيا (٢٧٢) ، وخاصة مكانيا ، اما لأن احد المقاييس خاص ببلد معين (٢٧٣) ، واما لأنه يتغير من بلد إلى آخر (٢٧٤) ، وحتى ضمن البلد الواحد من مدينة إلى مدينة (٢٧٥) ، او يتبدل اسمه هنا وهناك (٢٧٦) . اضف إلى ما تقدم ان اختلاف الأعراف يسهم هو ايضا باحداث التباين : ففي اقليم الشام ، لا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان (٢٧٧) . كذلك

---

(٢٧١) انظر م ج ع ، ج٤ ، المقدسي : ٦٤ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٤ ، ٣٩٨ ، آخر ٤٥٢ وغيرها من أجل المقاييس التالية : الأردب ، ارزة ، بهار ، دانق ، دوار ، فنيق، فرق ، فلفلي (رطل) جريب ، غرارة ، حبة ، كف ، كاره ، كيل ، كيلجة ، كيجي ، كر ، مختوم ، مكوك ، من ، مطل ، مدى ، ملجم ، قب ، القفيز ، قنطار ، قيراط ، قسط ، رطل ، ربع ، صاع ، سنجة (لتقدير وزن العملات) ، تمونة ، تليس ، ثمن ، اوقية ، ويبة . اشرنا إلى وحدات قياس الأطوال من قبل في فصل السابع (الأسفار البرية) . أخيراً لا يجوز اغفال وحدات قياس المساحة من أجل السجل العقاري وتقدير الضريبة العقارية : جريب (كبير وصغير وهو وحدة وزن : انظر ما تقدم) الفدان ، الحبل (انظر ابن حوقل ٢٤٢ ، ٤٦٩ وغيرها . المقدسي : ١٣٣ ، ٤٥١ وغيرها)

(٢٧٢) مثلا المقدسي ، آخر ٩٨ — ٩٩ (ذكر من قبل لعهد الخليفة عمر) .

(٣٧٣) مثلا كيجي بالسند (المقدسي ٤٨٢) أو البهار في جزيرة العرب (ذكر من قبل) .

(٢٧٤) انظر النص المترجم اعلاه بالنسبة الى الرطل والمن .

(٢٧٥) المقدسي . ٤٥٢ (اقليم فارس) ترجم فيما يلي .

(٢٧٦) انظر هنا أيضاً نص جزيرة العرب المترجم من قبل أو المقدسي ٤٨٢ : اسم كيل ملتان مطل .

(٢٧٧) المقدسي : ١٨١ .

تختلف بعض المقاييس المستعملة حصرا في هذا الصنف او ذاك من المحاصيل ، حسب البلدان .

ولنرجع إلى المقدسي ليحدثنا عن اقليم فارس (٢٧٨) . ففيما يتعلق بالموازين ، « رطل شيراز الكبير ثمانية ارطال بغدادي . به يوزن الخل واللبن ونحوهما . ولهم منٌ مكي . وبالرطل البغدادي يزنون اللحوم والخبز وما يجري مجراهما . ومنّ الخبز بفسا ثلاثمائة (٢٧٩) . وبه يوزن القطن والحبوب وآلة الصيادلة ويزيد عليه من القديد واللحوم ونحوها خمسة وعشرين (٢٨٠). منّ درابجرد المعروف منه في جميع الاشياء غير آلة الصيادلة ، اربع ماية واربعون درهما . والغزل والخبز والعصفر والشعر والمرعزي (٢٨١) والصوف اربع مائة وثمانون درهما . منّ نيريز في كل الاشياء غير آلة الصيادلة ثلاثة مائة وعشرون. ومنّ الغزل ثلاث مائة واربعون . ومكاييلهم : قفيز فسا ستة امنّاء بالثلاث مائة في الحبوب.وما كان من لوز وشعير فقيزة ستة امنّاء بمنّ مكة(٢٨٢) وقفيز الارز والحمص والعدس ثمانية امنّاء. فقفيز نيريز ثلاثة ارطال بغدادي في الشعير والزبيب والقشمش (٢٨٣) والذرة . وقفيز الحنطة

---

(٢٧٨) المقدسي ٤٥٢ (انظر أيضاً المقدسي : آخر ١٨١ ، آخر ٢٩٧ وغيرهما).

(٢٨٩) اضيف لفظ درهم في الترجمة : انظر فيما يلي حيث يبدو واضحاً في النص العربي مع لفظ المن مجدداً . (اؤيد هذه الجملة ، في نسخة ج من المخطوط : انظر الحاشية ه في النص العربي) .

(٢٨٠) انظر الحاشية السابقة .

(٢٨١) مرعزي : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٢٣ .

(٢٨٢) اضافة من مكة من النسخة ج (ح م في النص العربي) .

(٢٨٣) بشأنه ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٥٧ (ح٦) و ٤٥٩ (ح٥).

يزيد عليه . من ارجان ثلاثة ارطال غير السكر . وقفيزهم عشرة امنـاء بالكبير . (٢٨٤) والمكوك نصف القفيز ، والجريب عشرة اقفزة » .

وتعوز الدقة احيانا التمييز بين الموازين والمكاييل ، وبين الموازين والعملات لأن الدرهم وحدة وزن ووحدة نقد ، وبين الموازين والعملات من جهة والمساحة من جهة ثانية كما يستدل من الجريب(٢٨٥) مع ذلك ، تشكل هذه الوحدات نظاما متماسكا ومطبقا لابد ان نعرفه جيدا وان ندرك انه ليس بسيطا ودقيقا مثل الانظمة الشائعة في عصرنا ، انما ليس على الدوام ولا منذ مدة طويلة في الاعتبار الصحيح (٢٨٦) . مهما يكن ينفرد هذا النظام باعطائه صورة عن التبادل الواسع الغني والمتنوع الذي يعد احدى الظاهرات الكبرى في المجتمع الذي نشأ فيه . وترسم هذه العناصر ما يشبه صورة عن المدينة اي عن المكان المفضل الذي تجري فيه المبادلات .

* * *

---

(٢٨٤) ورد في النسخة ج (حـ يز من النص العربي) : « بهذا المن حسب قياس هذا المن » ، اي من الثلاثة ارطال . انظر ما تقدم) وليس من رطلي الوزن العادي (انظر مجع ، ج ٤ ، ٣٥٦) .

(٢٨٥) انظر ما تقدم حاشية ٢٧١ بآخرها .

(٢٨٦) انظر مثلا في فرنسة . بروديل ، هوية فرنسة ، ١ روماقي : المساحة والتاريخ ، باريس ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

الفهـــارس

اولاً : اعلام الأماكن والمياه بأنواعها

ثانياً : فهرس اعلام الرجال والنساء والأمم والقبائل والسـلالات ونحوهـا

* * *

ثالثاً : فهرس المصطلحات التقنيـة

١ — الادارة

٢ ـ الموازين والمكاييل

٣ ـ العملات

٤ ـ الطوائف والمذاهب

٥ ـ الطـرق

٦ ـ السـفن

٧ ـ الحياة اليومية

٨ ـ الأغذية

٩ ـ النسيج والمناسج

١٠ ـ الثيـاب والأحذيـة

١١ ـ متنوعـات

رابعاً ـ فهرس الأشكال والصور

خامساً ـ تصحيح الأخطاء وتعويض الاسقاطات

الصفحة والسطر أو الحاشية	الخطا أو الاسقاط	التصويب
٢٣ : ح ٤	البلدن أو المدن	البلدان أو المدن
٢٤ : ١٠	وتبع والاسكندر	وتبع ، وسليمان ، والاسكندر
٢٥ : ٢	ويونس المبعوث	ويونس أو يونان المبعوث
٢٥ : ٤	وعيسى بن مريم وحواروه	وعيسى بن مريم وحواريوه
٢٥ : ح ٦	بعد الطوفن / ثمنين	بعد الطوفان / ثمنين
٢٥ : ح ٦	بخذ نصر	نبخذ نصر
٢٦ : ح ٨	الكعبة أين حوقل	الكعبة ابن حوقل
٢٩ : ٦	ديار العرب ذي القرنين	ديار العرب ذا القرنين
٣٣ : ٤	طالوت	طالوت (شاول)
٣٧ : ١٥	أفكاره الرئيسية	أفكاره الرئيسة
٤١ : ١ -٢	الاصبهبذ	الاصبهباذ
٤١ : ١٢	وجدنا قبها	وجدنا فيها
٤٢ : ٣	محمد الباس	محمد الياس
٥٢ : ١٠	وكان الناس	وكأن الناس
٥٤ : ١	قتر	قطر
٥٤ : ح ٩١	اسقاط في س٢ بعد ج٢	٤٧٦)، ٢٢٠ (البحر الطويل) انظر أيضاً الأبيات الواردة في ج ١ ، ج٢ ،
٥٨ : ١٠	البنة	البتة
٦٠ : ٩	أو ثناني	أو ثنائي
٦٦ : ١٤	الخانقانيين	الخانقائيين
٦٨ : ٨	ثاريخهم	تاريخهم
٦٩ : ١٤	رجود	وجود
٧٢ : ح ٤٦ ص٩	اوزراعية	اوزاعية

الصفحة والسطر أو الحاشية	الخطأ أو الاسقاط	التصويب
٧٣ : ١١	لكن حتى هذه	لكن حتى في هذه
٧٤ : ٨	ايلاف	ايلاق
٧٤ : ٩	وسواد بخارى وسنج	وفي سواد بخارى ، سنج
٧٧ : ١	والبابا	والصبايا
٧٧ : ٥	وتزين	وتزيا .
٧٧ : ٦	بكفرهم	اكفارهم
~~٧٧ : ٧~~	~~حجبهم~~	~~حجبهم~~
٧٩ : ٢	يعير	يعبّر
٨١ : ١٢	والآذان	والاذان
٨٩ : ١٢	ويشي	ويثني
٩٨ : ١٩	بتباينهما	بتباينهما
٩٨ : ح٧	وليس	وليس بالسواء
١٠٤ : ١٢	المتبدين	المتبددين
١٠٦ : ١٤	الا ندلس الا موي	الا ندلس الا موية
١٠٩ : ٧	ثتراءى	تتراءى
١١١ : ٥	الخلخ	الخلج
١١٢ : ٥	الران	اران
١٢٣ : ٧	صقيلية	صقلية
١٣١ : ٧	وقسيس . . . واسقف	وقسيس ،ويودوط ،وحورالغينطس، واسقف
١٣١ : ٩	المانية	المانوية
١٣٢ : ٦	المزدقية	المزدكية
١٣٢ : ١١	المرقونيون	المرقيونيون
١٣٢ : ١٩	المانية	المانوية
١٣٣ : ٢	المزدقية	المزدكية
١٣٦ : ٧	بخت نصر	نبخذ نصر
١٣٧ : ١٧	المرقونيين	المرقيونيين
١٤١ : ٦	حوارى المسيح	حواريي المسيح
١٤١ : ٩	اقليم الشمال	اقليم الشام.

الصفحة والسطر او الحاشية	الخطأ او الاسقاط	التصويب
١٤١ : ١١	الصابئي والمافي	الصابئي والمانوي
١٤١ : ١٣	حزفيال	حزقيال
١٤٢ : ٢	يعلية	بعلية
١٤٢ : ٨	يخطيئة	بخطيئة
١٤٢ : ١٦	الشمالي	الشمالية
١٤٣ : ٩	مزدق	مزدك
١٤٤ : ٦	يحيث	بحيث
١٤٥ : ٧	ارست يها	ارست بها
١٥٢ : ٧ – ١٥	الصابيين	الصابئين
١٥٣ : ٣	هرات	هراة
١٥٣ : ح ١١٠	نصاري	نصارى
١٥٥ : ٩	بخت نصر	نبخذ نصر
١٦٠ : ١٤	كتايا	كتابا
١٦٣ : ١٢	طاق قطيسفون	طاق طيسفون
١٨٢ : ١٧	ويعرف المقدسي	ويعرف المسعودي
١٩٠ : ١	الهياطلة	الهون الهياطلة
١٩١ : ٨	يوسف بن متى	يونس بن متى
١٩٢ : ح٧٨س٢	لحن يمحن	لكن يمكن
١٩٢ : ١٣	فرماسين	قرماسين
٢٠٢ :	استنبرة	استعبره
٢٠٥ : ٣	خوارذ	خوراذ
٢٠٦ : ١	الشادروان	الشاذروان
٢٠٦ : ٨	بحر الخرر	بحر الخزر
٢٠٦ : ١٦	سيران	سيران (سيروم)
٢١٤ : ١٥	عن اليونان	عن اليونان (كليما)
٢١٦ : ٩	الخن	الخان
	والاستان (اوستن)	الاستان (الأستان)
٢١٧ : (٢٤)	ماه ديناور	ماه دينار (حسب الأصل)
٢١٩ : ١٤	القنوع	القناعة

الصفحة والسطر أو الحاشية	الخطأ أو الاسقاط	التصويب
٧٣ : ١١	لكن حتى هذه	لكن حتى في هذه
٧٤ : ٨	ايلاف	ايلاق ...
٧٤ : ٩	وسواد بخارى وسنج	وفي سواد بخارى ، سنج
٧٧ : ١	والبابا	والصبايا
٧٧ : ٥	وتزين	وتزيا
٧٧ : ٦	بكفرهم	اكفارهم
~~٧٧ : ٧~~	~~حجبهم~~	~~حجبهم~~
٧٩ : ٢	يعير	يعبر
٨١ : ١٢	والآذان	والاذان
٨٩ : ١٢	ويشي	ويثني
٩٨ : ١٩	بنباينهما	بتباينهما
٩٨ : ح٧	وليس . . .	وليس بالسواء
١٠٤ : ١٢	المتبدين	المتبددين
١٠٦ : ١٤	ألا ندلس الا موي	ألا ندلس الا موية
١٠٩ : ٧	ثتراءى	تتراءى
١١١ : ٥	الخلخ	الخلج
١١٢ : ٥	الران	اران
١٢٣ : ٧	صقيلية	صقلية
١٣١ : ٧	وقسيس . . . واسقف	وقسيس ،ويودوط ،وحورالفينطس، واسقف
١٣١ : ٩	المانية	المانوية
١٣٢ : ٦	المزدقية	المزدكية
١٣٢ : ١١	المرقونيون	المرقيونيون
١٣٢ : ١٩	المانية	المانوية
١٣٣ : ٢	المزدقية	المزدكية
١٣٦ : ٧	بخت نصر	نبخذ نصر
١٣٧ : ١٧	المرقونيين	المرقيونيين
١٤١ : ٦	حوارى المسيح	حواريي المسيح
١٤١ : ٩	اقليم الشمال	اقليم الشام.

الصفحة والسطر او الحاشية	الخطأ او الإسقاط	التصويب
١٤١ : ١١	الصابئي والماني	الصابئي والمانوي
١٤١ : ١٣	حزفيال	حزقيال
١٤٢ : ٢	بعلية	بعلية
١٤٢ : ٨	يخطيئة	بخطيئة
١٤٢ : ١٦	الشمالي	الشمالية
١٤٣ : ٩	مزدق	مزدك
١٤٤ : ٦	يحيث	بحيث
١٤٥ : ٧	ارست بها	ارست
١٥٢ : ٧ — ١٥	الصابئين	الصابئين
١٥٣ : ٣	هرات	هراة
١٥٣ : ح ١١٠	نصاري	نصارى
١٥٥ : ٩	بخت نصر	نبخذ نصر
١٦٠ : ١٤	كتايا	كتابا
١٦٣ : ١٢	طاق قطيسفون	طاق طيسفون
١٨٢ : ١٧	ويعرف المقدسي	ويعرف المسعودي
١٩٠ : ١	الهياطلة	الهون الهياطلة
١٩١ : ٨	يوسف بن متى	يونس بن متى
١٩٢ : ح٧٨س٢	لحن يمحن	لكن يمكن
١٩٢ : ١٢	فرماسين	قرماسين
٢٠٢ : ٢	استنبرة	استعبرة
٢٠٥ : ٣	خوارذ	خوراذ
٢٠٦ : ١	الشادروان	الشاذروان
٢٠٦ : ٨	بحر الحرر	بحر الخزر
٢٠٦ : ١٦	سيمران	سميران (سميروم)
٢١٤ : ١٥	عن اليونان	عن اليونان (كليما)
٢١٦ : ٩	الحن والاستغان (اوستن)	الخان الاستان (الأستان)
٢١٧ : (٢٤)	ماهديناور	ماه دينار (حسب الأصل)
٢١٩ : ١٤	القنوع	القناعة

الصفحة والسطر أو الحاشية	الخطا أو الاسقاط	التصويب
٢٢٢ : ٤	فان أهله	فان في أهله
٢٢٧ : ٩	الران	اران
٢٢٢ : ٥	الصليف	الصليق
٢٣٠ : ٤	المصر الاقليم	مصر الاقليم
٢٣٥ : ح٦٨ س٢	انين	آثين
٢٤٢ : ١٤	اثيوبية الغربية	اثيوبية القزيبة
٢٤٤ : ٤	ونكور وارجكوك	وناكور ،...وارجكول
٢٤٥ : ١٥	اشوسانة	اشروسنة
٢٥٣ : بين١٢و١٣	اسقاط عنوان	مسلكان شهيران
٢٥٥ : ١	والرفارسيةوالومية	والفارسية والرومية
٢٥٦ : ٤	خليج	خمليج
٢٥٦ : ١٢	ويرجع	ويرجح
٢٥٧ : ٤	تنيس	تنايس
٢٥٧ : ٥	بخليج	بخمليج
٢٥٨ : ٤	خطأ	خطا
٢٥٩ : ١٢	الران	اران
٢٦٠ : ح٧٥	رونرود	زريزوذ
٢٦٣ : ٣	احداها	احداهما
٢٦٤ : ١١	ومثل	ولمثل
٢٦٤ : ح٥٨س٧	كروانية ....مسيحية	كاروانية . . . مسبحية
س ٨	شابوق	شبوق
س ٩	سمارية	سميرية
٢٦٦ : ١	(٩٩)	(٩٤)
٢٦٩ : ٢	عدن ، ومحمدبن زيديون	عدن ، أو في سيراف ومحمد بن زيدبود
٢٧٢ : ١	القيمة اولى	القيمة الأولى
٢	بريد جلذان	بويع جلذان
٢٨١ : ١٣-١٤	بالتجارة والجاحظ	بالتجارة للجاحظ الزائف والجاحظ
٢٨٣ : ١	الماثة	المالية
٢٨٤ : ٢	وفد	وقد
٢٩٣ : ٧	الران	اران

الصفحة والسطر او الحاشية	الخطأ أو الاسقاط	التصويب
٢٩٣ : ٨	في باكه	في باكه (باكو)
٢٩٥ : ٤	قوس	قومس
٢٩٦ : ١	هضباب	هضاب
٣٠٢ : ٣	شاس	الشاش
٣٠٥ : ٥	الران	اران
٣٠٦ : ١٥	اشرسونة	اشروسنة
٣٠٦ : ح١٣٣	بوريس فيان	بوريس فيان
٣٠٧ : ١٢	الران	اران
٣٠٩ : ١٨	ميرقة . . . صقيلية	ميورقة . . . . صقلية
٣١١ : ٧	انجاص	اجاص
٣١١ : ح١٥٧	اسقاط بعد كافور)	انظر جدا ، ج٣ ، ص٤٤١ ، ح ٥ ، الطرى (لعله الخوخ الأسود المبكر)
٣١٤ : ٦	فالا بريسم من	فالا بريسم يجهز من
٣٠٦ : ٢	المزقان	المسرقان
٣١٨ : ٥	وليس كل...لدوى	وليس هذا كل ... لدوى
٣١٩ : ١	وبتواز	وبتوز
٢	ابرقوقة	ابرقوية
٣٣٣ : ١١	يحتمع	يجتمع

فهرس المــواد

الفصل الثالث
العرب وغير العرب

الفصل الرابع
أهل الذمة

الفصل الخامس
الأبنية العجيبة

القسم الثاني
دار الاسلام عضوية كبيرة حية
الفصل السادس
تنظيم دار الاسلام

الفصل السابع
الطرق البرية والمائية

الفصل الثامن
أصناف المبادلات التجارية وركائزها

٣٠٠٠٠ ط١ ٠/١٠/١٩٩٥

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

القسم ٢ ــ ٣

أنـدريـه ميكيل

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الرابع

الأعمال والأيام

القسم ٢ (تتمة) ـ ٣

ترجمة:
ابراهيم خوري

منشـورات وزارة الثقـافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنـوان الأصـلي للكتـاب :

ANDRÉ MIQUEL

La géorgraphie humaine

du monde musulman

jusqu'au milieu du 11e siècle

Les travaux et les jours

جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر =
La geographie humaine du monde musulman jusqu'au
milieu du 11e siecle / أندريه ميكيل ؛ ترجمة ابراهيم خوري .-
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . ـ ج ٤ : مص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٩١٠ م ي ك ج ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ ميكيـل ٥ ـ خوري
مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع ـ ١٣٤٣ /٩/١٩٩٥

الفصل التاسع

نظرة اجمالية إلى المدن

تعد المدينة رمز الرموز . فلا ريب ان الحضارة الاسلامية ، خلافا لجميع الحضارات الاخرى المسماة كلاسيكية ، لم تعامل المدن معاملة متميزة ، بل شجعت الاكثار من انشائها وتكبير حجمها إلى حد لم يعرفه لا حوض البحر المتوسط ولا الشرق الادنى او الاوسط . فلو قارنا باريس المتواضعة في العام الف ، بقرطبة او الفسطاط او بغداد او سمرقند او بخارى ، لبدت جميعها امصارا ، وتراوح عدد سكانها بين عدة مئات الآلاف من الانفس وبين مليون نفس ، وربما تجاوزت المليون . لكن ما المقصود بالمدينة وماذا كانت آنذاك من الاندلس إلى نهر مهران ؟ التعاريف كثيرة جدا . فهل نتبنى تعريف ليفي ستروس (١) الذي يعتبر ان المدينة « ترتبط بآن واحد بالانجاب البيولوجي ، والتطور العضوي ، والابداع الجمالي »؟ ام يجب علينا ان نؤيد رأي بروديل (٢) الذي يقول : تتميز المدينة بجلاء لا باسوارها

---

(١) ك = ليفي ستروس ، المدارات الحزينة ، باريس ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ .

(٢) ف . بروديل ، هوية فرنسة ، ج١ : المساحة والتاريخ ، باريس ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٣ .

او عدد سكانها ، بل بالطريقة التي تنحصر بها انشطتها ضمن مساحات ضيقة جدا .... الا ان المدينة مؤسسة سيطرة قبل كل شيء » . نحن ايضا سوف نحدد رؤيتنا إلى مدن دار الاسلام ، ونعمل قائمة بها . لكن لا بد لنا في البدء ان نمر عليها مرورا سريعا .

الحديث عن بعض المدن

تتوفر لدينا وثائق كثيرة عن المدن — تنطوي على شيء من المكر والاستعداد لارهاقنا . فكيف نتعامل معها لنأخذ فكرة واضحة عن المدينة الحقيقية الكبيرة ؟ نقول بصراحة تامة اننا نستطيع ان نعطي فكرة عامة عنها بعد خبرة طويلة دامت ثلاثين سنة ونيفا ، وان نسمي سبع عشرة مدينة تتميز عن غيرها ، دون ان نقع في خطأ فادح . ونعتمد على بعض المعايير الحسية مثل حجمها ، وسلطتها وتاريخها الذي جعلها دائمة منذ مدة متفاوتة الطول ، والفارق الاساسي البارز على هذا النحو بينها وبين الارض المجاورة لها التي تتباين سعتها (٣) .

وفي المغرب ، تمثل قرطبة وحدها عظمة الاندلس ، وترمز إلى رأس الجسر الاسلامي ، وإلى السلطة الاموية القائمة التي لم تتبدل منذ

---

(٣) نكتفي في السطور اللاحقة ، فيما يتعلق بالحواشي ، ببعض الاحالات المعبرة جداً ، المختارة من احالات كثيرة غيرها تمثل وثائق المدينة التي سنستقي منها فيما بعد . والمراجع عن المدينة الاسلامية وافرة جداً يمكن العودة الى البيان الوارد بها عند د . سورديل ، اسلام القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٧٩ ، ٢١٨ آخرها — ٢١٩،ا . ميكيل ، الاسلام وحضارته ، الطبعة الثانية ، باريس ، ١٩٧٧ ، ص ٤٣٦ ، ب . شلميتا ، سيد زوكو في الاندلس ،مدريد ، ١٩٧٣،ص١١٤—١١٥ ، وا . ريمون،المدن العربية الكبرى في العهد العثماني باريس ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

البدء (٤) . وتقدم مصر الاسكندرية ، التي تتوجها على الدوام هالة نفوذ مؤسسها ، وتجعلها مدينة عجيبة فاتنة (٥) ، والفسطاط ، احدى الأسواق العظام في الدنيا ، ومقر الخلافة الشيعية الفاطمية المنافسة بغداد (٦) . ولا أوكد على جزيرة العرب : ففي حالات عديدة ، يستهل وصف العالم بها ، بقطبي الايمان مكة والمدينة ، حيث ظهر الاسلام ، وتجتمع جماهير حاشدة كل سنة في موسم الحج . اما الشام فهي بالدرجة الاولى بلد دمشق ، التي لم تنس انها كانت عاصمة دار الاسلام قرنا كاملا في عهد الامويين الذين خلفوا فيها اروع مسجد(٧) .

والعراق بلد مدن البصرة والكوفة وبغداد . فالبصرة والكوفة موقعان عسكريان كبيران ، تأسسا في اثناء الفتح الاسلامي ، وتخاصما وغارا على تاريخهما الجديد المجيد ، وعلى دورهما الثقافي ايضا . وزاد التباين بينهما ، وانحطت الكوفة . واضافت البصرة إلى ازدهارها ، الفوائد التي جنتها من التجارة البعيدة بالجملة . مع ذلك ،ثابر الكتّاب على جمعهما في ذكرى شهرتهما المشتركة القديمة (٨) . اما بغداد فلم يحل البكاء على امجادها الذابلة التي زالت كما زالت امجاد

---

(٤) ابن الفقيه ، ٨٣ ، ابن حوقل ، ١ ، ١١١ — ١١٣ ، المقدسي ، ٢٣٣ .

(٥) انظر ما تقدم ، الفصل الخامس .

(٦) ابن حوقل ، ١٤٦ ، المقدسي ، ١٩٣ ، ١٩٧ وما تقدم الفصل ٧ ، طرق افريقية ، آخرها .

(٧) ابن حوقل ، ١٧٤ آخرها ،(اكبر مسجد جامع بيت المقدس : المرجع ذاته ، ١٧١) .

(٨) الجاحظ(١) ، ورقة ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ابن حوقل ، ٢٣٥ — ٢٣٩ المقدسي ، ١١٦ — ١١٧ .

غريمتها سامراء ، دون الاستمرار بالاشادة بنشاطها التجاري ؛ وبمكانتها الرفيعة الناشئة عن وجود الخليفة العباسي فيها (٩) .

وتسترعي الموصل الانتباه متى اتجهنا إلى الشمال . فهي حاضرة الجزيرة بلا منازع ، وملتقى طرق تجارة عظيم على تخوم ارمينية وحوض دجلة الاوسط ، اي بين البلدان العربية والكردية والفارسية . وتغرض ابن حوقل ، فزعم انها بدأت تنحط ، لكنه قال عنها انها كانت من عظم الشأن بصورة اكبر البلدان في دار الاسلام (١٠) . ثم يأتي اقليم الجبال بثلاث مدن هي همذان والري واصبهان . ويمجد ابن الفقيه — وليس وحده — موطنه همذان، التي تلتقي فيها ذرية نوح ونبخذ نصر وسليمان ، وداريوس الذي اعاد بناءها بعد ان خربت ، والاسكندر . وهمذان كبيرة وغنية ، وكثيرة المقاتلة في اقليم الجبال » (١١) . وتقع الري عند منفذ طرق بحر الخزر وخراسان ، ويدوم فيها الورد أربعة اشهر ، وهي « باب من ابواب الارض ، واليها متجر الخلق .. باب التجار » (١٢) . ويثني ابن رسته على اصبهان ، ويقول ان الاسكندر امر ببنائها لأنه كان يشعر بعيوب المدن الكبرى ، واصبهان طيبة الهواء ، عذبة الماء ، غنية وجميلة وكبيرة ، وهي بغداد الثانية (١٣) .

---

(٩) المقدسي ، ١١٣ ، ١١٩ — ١٢٠ (١٢٢ — ١٢٣ سامراء) .

(١٠) ابن حوقل ، ٢١٥ (تحزب عائد الى كره سياسة الحمدانيين) .

(١١) ابن الفقيه ، ٢١٧ — ٢٢٠ ، ابن حوقل ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ (محدثة اسلامية)

(١٢) ابن الفقيه ، ٢٧٠ — ٢٧١ ، مسعر (ب) ، ٣٣ ، ابن حوقل ، ٣٧١ ، ٣٧٨ — ٣٧٩ .

(١٣) ابن الفقيه ٢٥٤ ، ٢٦١ — ٢٦٢ ، ٢٦٦ — ٢٦٨ ، ابن رسته ، ١٥١ — ١٦٣ ، مسعر (ب) ، ٤١ ، ابن حوقل ، ٣٦٢ — ٣٦٣ ، ٣٦٦ — ٣٦٧ .

ولا تقف التبعية الفارسية هنا . فلابد من ذكر شيراز في الجنوب ، وهي حاضرة فارس ، التي تتحكم بداخل الخليج (١٤) . وتقع نيسابور في اقصى الشمال ، وهي عقدة طرق خراسان الكبرى ، التي تعج بالمسافرين والقوافل والمحارف . وكان يمكن اعتبارها المدينة المثالية ، لو ان مياهها تظهر في البلد . ولا تجري في قنى تحت مساكنها (١٥) . ويشار ايضا إلى سمرقند وبخارى ، المدينتين العظيمتين القائمتين في قلب بلاد السغد الغنية الخصبة ، عند منفذ طرق الصين واوربة الشرقية (١٦) من نواحي بحر آرال .

هذه هي المدن الاسلامية الكبرى ، وعددها سبع عشرة مدينة، اخترتها على اساس رأي عام واجماعه بالنسبة إلى بعضها — يمكن تكوينه من قراءة النصوص . ماذا بعدها ؟ يصعب الجواب لكثرة تمدين المدن في دار الاسلام . مع ذلك ، يحدد المقدسي ، كما قلنا (١٧) قرينته الاولى ، فيسمي امصارا حاضرات الاقاليم ، فحصلت لدينا اللائحة التالية :

اقليم المغرب : قرطبة والقيروان	اقليم الديلم : شهرستان
اقليم مصر : الفسطاط	اقليم الجبال : همذان
اقليم جزيرة العرب : مكة وزبيد	اقليم خوزستان : الأهواز

---

(١٤) ابن حوقل ، ٢٧٩ ، ٢٨١ .

(١٥) ابن حوقل ، ٤٣١ — ٤٣٣ ، الثعالبي ، ١١٤ — ١١٦ .

(١٦) ابن حوقل ، ٤٧٢ — ٤٧٣ ، ٤٩٢ وما يليها .

(١٧) انظر ما تقدم ، الفصل ٦ ، ص ١٣٥ وما يليها ، وحاشية ٤٩

اقليم الشام : دمشق	اقليم فارس : شيراز
اقليم العراق : بغداد	اقليم كرمان : السيرجان
اقليم اقور : الموصل	اقليم السند : المنصورة
اقليم الرحاب : اردبيل	اقليم المشرق : نيسابور وسمرقند

يلاحظ اولا ان المقدسي توصل إلى عدد مماثل بطرقه الخاصة : نعني سبع عشرة مدينة . اذن مهما كانت الطريقة المتبعة ، يحدد هذا الرقم ، فيما يبدو ، عدد المدن الكبيرة جدا في دار الاسلام . اما بالنسبة إلى المدن الباقية ، التي تقل اهميتها عن اهمية المدن السابقة ، فيستحسن ان نعتمد على امصار المقدسي غير الواردة في لائحتنا ، وعلى اسماء اخرى تستخلص منزلتها من المطالعة العامة للنصوص . وهكذا ، نحصل في النهاية على القيروان ، وزبيد ، واردبيل (١٨) ، وشهرستان (١٩) والاهواز والسيرجان ، والمنصورة في لائحة اولى ، وعلى فاس ، وتاهرت ، وبالرمو ، ثم صنعاء في اليمن ، والرملة وبيت المقدس في فلسطين ، وواسط في العراق ، وبرذعة في اران ، ودبيل في ارمينية ، وسيراف البندر الكبير في فارس ، وزرنج في سجستان ، والملتان في السند وغزنة وهراة وكابل في افغانستان ، وبلخ ومرو في خراسان ، والكشانية وبنجكث وبنكث في ما وراء النهر (٢٠) ، في لائحة ثانية ، او ما جملته سبع وعشرون مدينة ، اذا اضفنا اليه

---

(١٨) في اذربيجان .

(١٩) في جرجان .

(٢٠) نعترف انه ليس لهذه الاعتبارات قيمة مطلقة . مع ذلك اذا استعنا منهجيا بابن حوقل ، استطعنا ان نتبين قيمتها الاجمالية . نظراً لدقة اخباره . المراقبة على الدوام ، والمتدرجة=

العدد ١٧ السابق ، حصلنا على ٤٤ مدينة كبيرة او كبيرة جدا ، اي المدن الرئيسة في شبكة مدن دار الاسلام

بعض التعاريف المقبولة

لا تهمنا الصورة كثيرا ، سواء اطلق على توزيع المدن هيكل المدن او نسيجها او شبكتها . وما نحرص على ابرازه هو ان المدينة احدى اوضح علامات الحضارة . على هذا الاساس ، يقول مؤلف اخبار الصين والهند المجهول (سليمان التاجر في الحقيقة) : اكثر الهند لا مداين لها ، واهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة (٢١) . والمدينة علامة يدركها الانسان بسمعه ايضا : فالجاحظ يذكر ان غناء

=(خاصة فيما يتعلق بنسب الحجم من مدينة الى اخرى) البعيدة عن التنهيج على خلاف أخبار المقدسي . انظر عن فاس ، ابن حوقل ٩٠ — ٩١ ، عن تاهرت ابن حوقل ، ٨٦ ، ٩٥ — ٩٦ (والمقدسي ، ٢٢٨ — ٢٢٩ : مقارنة مع مناقشة ، بدمشق وقرطبة ، ٣٠٢ ح د : مقارنة ببلخ) ، عن بلرم ، ابن حوقل ، ١١٨ — ١٢١ ، عن صنعاء ، ابن حوقل ، ٣٦ — ٣٧ (وابن رسته ، ١٠٩ وما يليها) ، عن الرملة وبيت المقدس ، ابن حوقل ، ١٧١ (وابن الفقيه ، ٩٣ — ١٠٢ ، ١١٦ ،المقدسي ١٦٤ — ١٧١) . عن واسط ابن حوقل ، ٢٣٩ (وابن رسته ، ١٩٦ ، المقدسي ، ١١٨) ، عن برذعة ابن حوقل ، ٣٣٧ — ٣٣٩ (والمقدسي ، ٣٧٥ : بغداد هذا الاقليم) عن دبيل ، ابن حوقل ٣٤٢ ، عن سيراف ، ابن حوقل ٢٨١ ، ٢٩٠ — ٢٩١ (والمقدسي ، ٤٢٦ : مقارنة بالبصرة) ، عن زرنج ، ابن حوقل، ٤١٤ — ٤١٥ (والمقدسي، ٣٠٥ «بصرة خراسان») عن الملتان، ابن حوقل ، ٣٢١ (والمقدسي ، ٤٨٠ : مقارنة بالمنصورة) ، عن غزنة ابن حوقل ، ٤٥٠، عن هراة ، ابن حوقل ، ٤٣٠ ، ٤٣٧ ، عن كابل ، ابن حوقل ، ٤٥٠، عن بلخ ، ابن حوقل ، ٤٣٠ ، ٤٤٧—٤٤٨ (والمقدسي، ٣٠١)، عن مرو ، ابن حوقل ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ — ٤٣٦ (والمقدسي ، ٣١٠) عن الكشانية ، ابن حوقل ، ٥٠٠ — ٥٠١ ، عن بنجكاث (بنجيكاث ، يونجكاث) ، ابن حوقل ٥٠٣ (رجالها نحو ١٠٠٠٠ رجل) ، عن بنكث، ابن حوقل ، ٥٠٨ — ٥٠٩ .

(٢١) اخبار الصين والهند ، فقرة ٧٢ .

النوتي الممسك بسكانه ، وصوت حادي الابل (٢٢) يذهلان الغريب القادم إلى البصرة . ويقول المقدسي ان الناس في السفن تسمع لهم جلبة وضوضاء في بغداد (٢٣) . اخيرا المدينة علامة مقررة على نحو معين في اطار تفكير اعم في الظاهرة المدينية . وتشرح موسوعة اخوان الصفا هذه الناحية وتقول مامعناه : مصير الانسان الوحيد ، الفشل . لذلك اصبحت ظاهرة تجمع البشر (٢٤) شبه حيوية . ومن هنا أتى نشوء المدن ، باسم التعاون . ومن هنا ايضا بالتالي توزيع المهام وابتكار الاجور ،والاسعار ،والعملات والموازين والمكاييل (٢٥) . وقد اعلن قدامة قبل اخوان الصفا ان الانسان لا يستطيع ان يكون في وقت واحد فلاحا وبناءا ونجارا لذلك اضطر ان يحيا حياة جماعية تؤمنه ، وتؤول إلى توزيع الانشطة وتجمعها في مكان واحد ، اي في المدينة ، اوضح رمز يدل على ابتعاد البشر عن الحياة الحيوانية (٢٦) .

تمثل هذه الاحاديث تعاريف نظرية . فما هو الوضع في الحياة اليومية ، مثلما يراه الرحالة ، ويكتب عنه الجغرافي ؟ . يعلن ابن حوقل ان قرطبة اعظم مدينة ، لا تدانيها مدينة اخرى في « كثرة اهل ، وسعة رقعة ، وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » (٢٧) . هذا النص هام لأنه يزودنا بجدول

---

(٢٢) الجاحظ(١) ، ورقة ٢٦ .
(٢٣) احالة مذكورة في الفصل ٧ ، ص ١٤٥ .
(٢٤) الاخوان ، ج١ ، ٩٩ — ١٠٠ .
(٢٥) انظر الفصل ٨ ، العملات والآليات الاقتصادية آخرها .
(٢٦) قدامة ، م ١٢٣ ، ١٢٧ — ١٢٨ .
(٢٧) ابن حوقل ، ١١١ .

قرائن ممكنة عن المدينة . واول هذه القرائن عدد السكان . فاذكر ان المسجد الجامع في بلرمو يتسع لسبعة الاف رجل ونيف ، وان فيها هي والخالصة نيف وثلاث مائة مسجد . وهذا الرقم هائل ، لا يفوقه الا عدد مساجد قرطبة البالغ ٥٠٠ مسجد (٢٨) .

ويحكي المقدسي انه سمع الناس يذكرون في الفسطاط انه يصلي قدام الامام يوم الجمعة نحو عشرة الاف رجل ، وانه ابطأ يوما عن السعي إلى الجمعة ، فالفى صفوف المصلين في الاسواق على اكثر من الف ذراع من الجامع السفلاني من عمل عمرو بن العاص . وفي القياسير والدكاكين (٢٩) . وهذه الارقام كبيرة تؤيدها ابعاد المدن . فاذا اخذنا بعين الاعتبار ما ينبغي ادخاله ضمن الحدود المعلنة للمدن ، كالارباض واحيانا المستغلات الزراعية التي تزودنا بالاغذية ، تبين لنا ان مساحاتها ضخمة ، بل هائلة . فهي ميل راجح في ميل للرملة او ميل في مثله في الطول والعرض للمنصورة ، اي مايعادل كيلو مترين (٣٠) ، وثلاثة اميال من النهر إلى باب البادية للبصرة . والقيروان اقل من ثلاثة اميال في مثلها . (٣١) والفسطاط نحو فرسخ (٥,٧ كم) . وليس لطبرية عرض ، وطولها نحو فرسخ (٣٢) . وبرذعة نحو فرسخ طولا في اقل منه عرضا ، ونيسابور نحو فرسخ في مثله (٣٣) . والري

(٢٨) ابن حوقل ، ١١٨ ، ١٢٠ .
(٢٩) المقدسي ، آخر ١٩٨ – ١٩٩ .
(٣٠) ابن حوقل ، ٣٢٠ ، المقدسي ، ١٦٥ .
(٣١) المقدسي ، ١١٧ ، ٢٢٥ .
(٣٢) ابن حوقل ، ١٤٦ ، المقدسي ، ١٦١ (طبرية موضوعة بين الجبل والبحيرة فهي ضيقة)، عن الفسطاط ، المقدسي ، ١٩٨ ، افسطاطنحو ثلثي فرسخ .
(٣٣) ابن حوقل ، ٣٣٧ ، ٤٣١ ، المقدسي ، ٣١٦ .

فرسخ ونصف في مثله (٣٤) . وقطر السور المحيط بربض سمرقند نحو فرسخين في فرسخين (٣٥) . وتضرب بخارى الرقم القياسي : فالمدينة ضمن السور الداخلي نحو فرسخ في مثله ، وبين السور الداخلي والسور الخارجي قصور وابنية وبساتين ومحال وسكك وقرى متصلة ، ما يكون اثني عشر فرسخا في مثلها ، اي حوالي تسعة وستين كم (٣٦)

وهنالك حالة على الحد، لكنها لا تقنع كثيرا ، وتتعلق ببلد يعد مدينة : فحجم التجمع البشري الذي يعتبر مدينة ينبغي ان يتعين . ولابد من تحديده على مستوى ادنى . لكن عند اي عتبة ؟ اذا استأنسنا بابن حوقل ، وجدنا انه يقول عن سوق ابراهيم في المغرب : « هي مدينة ايضا صغيرة ، وفيها سوق وحمام » (٣٧) . ويتحدث في مكان آخر ، في كلامه عن وسط الفرات ، عن عانة المدينة الصغيرة .... التي تقارب اصاغر المدن في الحال (٣٨) . والحقيقة ان حجم المدينة ضئيل الاهمية في النهاية ، اذا ما قورن بعلاقتها باهلها . لكن امامنا هنا مفاجأة .

---

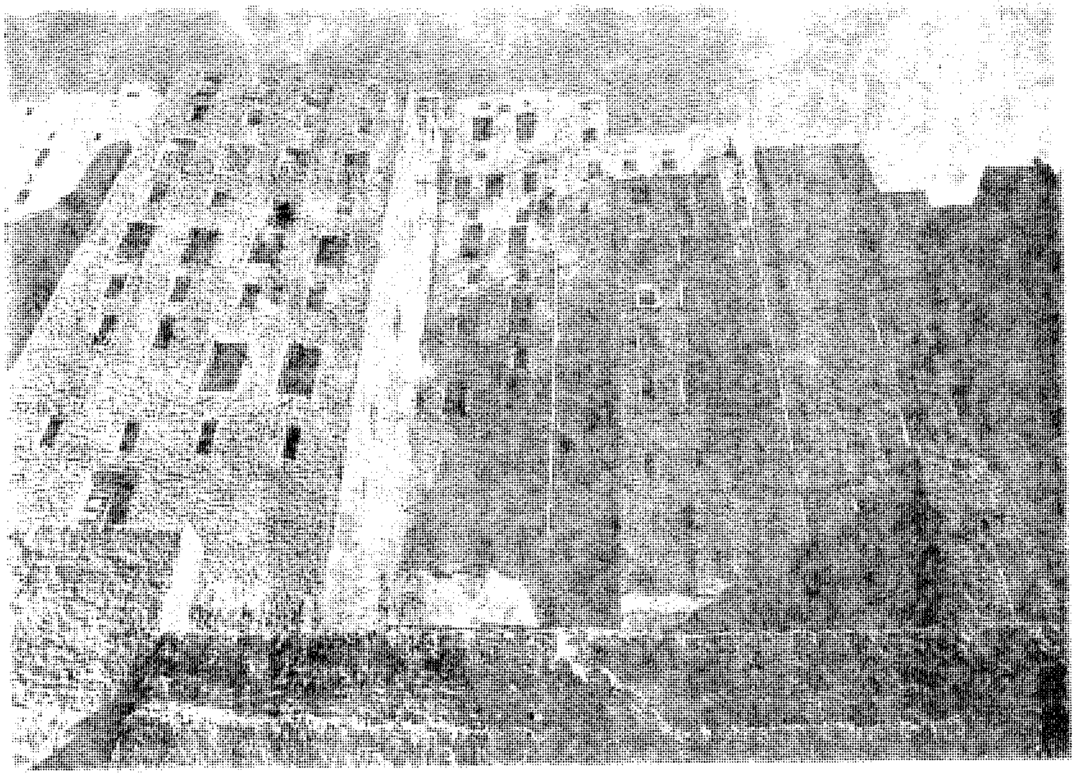
(٣٤) ابن حوقل ، ٣٧١، ٣٧٨ (قياس آخر : ١٥ × ٥، ٠) . المقدسي، ٣٩١ (نحو فرسخ) .

(٣٥) ابن حوقل ، ٤٩٣ .

(٣٦) ابن حوقل ، آخر ٤٨٢ – ٤٨٣ . امثلة اخرى عن ابعاد اخرى لشتى المدن : ابن حوقل ، ٤٣٧ ، ٤٤٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ واماكن اخرى ، المقدسي ، ١٥٧ ٢٧٦ واماكن اخرى .

(٣٧) ابن حوقل ، ٩٠ (يليها مباشرة صيغة مماثلة لتاجنا) .

(٣٨) ابن حوقل ، ٢٢٩ (اصاغر المدن) . انظر أيضاً ابن حوقل ، ٣٢٥ (كبريات مدن مكران صغيرة الأبعاد) ، ٣٣٦ ، المقدسي ، ١٢١ – ١٢٣ (وهذه المدن على غربي دجلة وسائر المدن صغار في العراق) .



بناء من طين مضغوط . مدينة شبام في اليمن الجنوبي (تصوير ش بستن وج . افرارد . بروكسيل)

بالفعل نستخلص من النصوص الجغرافية نموذجين متناقضين تماما . فمن جهة ، تقاس قوة المدينة بسعة الرقعة المخصصة لها ، لمنازلها (٣٩) وللبساتين حولها (٤٠) ، وسعة شوارعها واسواقها والرحاب المعدة في نطاقها ، كما في قرطبة او الموصل (٤١) . ومن جهة ثانية ، نجد المدينة الضيقة المشبكة بعضها ببعض ، التي تضطر السكان ، او الاغنياء منهم في الحد الادنى ، إلى التفرق في الرساتيق المجاورة في الهواء الطلق والآفاق المكشوفة (٤٢) . وينطبق هذا الكلام على مدن فارس ، وفي طليعتها سيراف ، بمنازلها المبنية على مستويات عديدة ، وعلى الري ، والملتان ، ووسط مدينة بخارى ، وشيراز ، ودمشق(٤٣) واخيرا وخاصة على الفسطاط : فابن حوقل والمقدسي يقفان مذهولين امام دورها المؤلفة من سبع وست وخمس طبقات ، التي يسكن في الدار منها المائتان من الناس احيانا ، وهي كالمنابر يدخل اليها الضياء من الوسط (٤٤) .

فاي النموذجين نختار ؟ وهل يجب ان نختار ؟ الاختيار افضل ، اذا وثقنا بابن حوقل الذي يقول عن كرج ابي دلف في فارس (٤٥)

---

(٣٩) المقدسي ، ١٦٤ ، ٣٠٢ (ح د) .
(٤٠) اليعقوبي ، ٣٦٢ .
(٤١) ابن حوقل ، ١١٢ ، ٢١٥ ، المقدسي ، ١٦٤ ، ٢٨٠ — ٢٨١ . (بلخ : ظاهرة مقترنة بضيق البيوت) ، ٣٠٢ ، ٤٦٤ .
(٤٢) ابن حوقل ، ٣١١ .
(٤٣) ابن حوقل ، ٢٨٠ — ٢٨١ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، المقدسي ، ١٥٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٨١ .
(٤٤) ابن حوقل ، ١٤٦ ، (ذات رحاب في محالها وأسواق عظام) ، المقدسي ، ١٩٨ .
(٤٥) ابن حوقل ، ٣٦٧ .

مايلي : « والكرج مدينة متفرقة ليس لها اجتماع المدن » . مع ذلك ، يبدو ان المدينة المثالية تنشأ من تنسيق موفق بين النموذجين المدينيين ، كما هي الحال في نيسابور التي يقول عنها ابن حوقل (٤٦) : «وليس بخراسان مدينة .... افسح فضاءا واشد عمارة » ، او عن بخارى : « وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة اشد اشتباكا من بخارى ،ولا اكبر اهلا على قدرها منها » (٤٧) .

في النهاية ، يظن ان المعطيات عن موارد المدينة والتجهيزات الجماعية فيها ، موثوقة . ويتحدث ابن حوقل (٤٨) عن فارياب في خراسان ، فيعتبرها « صالحة ، تجمع سائر ما يكون في المدن من الصنائع » . اما فيما يتعلق بالابنية العامة . فالمدينة تعرض من خارجها للقادم اليها اسوارها التي تسد الافق ، وتشير اليها ، خاصة عندما تتعدد تدريجيا . فيحيط احد الاسوار بارباضها ،وسور آخر بها بالمعنى الضيق ، وسور اخير بقلعتها (٤٩) . وهذا دليل على السلطة وعرض القوة . بلا شك ، وايضا على رقابة دقيقة ، ضعيفة ، وقلقة احيانا ، مستعدة لرفض الغريب او للانغلاق على السكان : فالسور يحيط احيانا بالسجن (٥٠) . فيما عدا ذلك ، يبدو التسلسل المفروض واحدا في جميع نصوص

---

(٤٦) ابن حوقل ، ٤٣٣ .

(٤٧) ابن حوقل ، ٤٨٣ ،ورد في آخر النص : على قدرها ، حرفيا بالنسبة الى (أو : رغم) حجمها . القراءة واضحة ، اعتمادا على ما قلناه من قبل عن سعة المدينة : الأمر يتعلق فعلا بتوافق بين رقعة كبيرة وكثافة سكان عالية .

(٤٨) ابن حوقل ، ٤٤٢ .

(٤٩) ابن حوقل ، آخر ٤٣١ — ٤٣٢ .

(٥٠) المقدسي ، ٤٢٩ .

المدن ، ويتضمن ذار الامارة ، وابنية الادارة ، والمساجد ، والحمامات والفنادق ، والمستودعات الكبيرة ومحال التجارة ، والخانات التي تمثل لازمة في وصف المدينة . وتعد هذه النواحي علامات ناطقة توضح وضعها ، لأنها تثبت وجود عدد كاف من السكان وتعبيرهم عن ارادة جماعية وتنظيمية لشؤونهم (٥١) تبرز للرأي العام : فالمحتسب في الري يراقب الاسعار والاسواق والطرق ، والحياة العامة على الاجمال ، «وهو يتمتع بشيء من النفوذ » ،على حد قول المقدسي (٥٢)

اجل النفوذ . فمنازل المدينة ، اذا ما قورنت باكواخ الرساتيق ، قد يكون فيها بناء زخرفة ،بل بذخ ثابت : انظر إلى « الدور الحسنة » في السيرجان او في الفسطاط (٥٣) ، وفي سيراف التي يحمل اليها الساج واخشاب البناء من بلاد الزنج . ويبالغ اهلها في نفقات الابنية ، حتى ان الرجل الواحد من رجالهم لينفق على داره زيادة على ثلاثين الف دينار من غير ان يستسرف ولا يستنكر ذلك له (٥٤) . الا ان نفوذ المدينة يظهر اولا في جمال ابنيتها العامة ، « الرائعة » ، على حد قول المقدسي عن اسواق الفسطاط ، التي يعتبرها ابن حوقل كلها حسنة(٥٥) وماذا نقول عن الجامع ؟ فالمنابر تظهر عظمة المدينة ، مثلما ترسخ

---

(٥١) مثلا ابن حوقل ، ٧٢ ، ٢١٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٥٢) المقدسي ، ٣٩٠ . انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٩٨ للفسطاط حيث المحتسب كالامير ، وآخر ٣١٥ حيث ليس للمحتسب هيبة ولا صرامة .

(٥٣) المقدسي ، ٤٦٤ ، ابن حوقل ، ١٤٦ .

(٥٤) ابن حوقل ، ٢٨١ ، انظر أيضاً المقدسي ، ٤٢٦ (تشترى الدار الواحدة بفوق المائة الف درهم) ، ٤٨٠ .

(٥٥) ابن حوقل ، ١٤٦ ، المقدسي ، ١٩٧ (النقيض عند المقدسي ، ١٢١ ، بعض مدن العراق الصغيرة التي ليس لها بهاء) .

المساجد الايمان ، حتّى ان اهل المدينة التي ليس فيها منارة ، يقررون مجتمعين سد هذا الفراغ واستحداثها (٥٦) .

ويقترن الجمال والعظمة بالنظافة ايضا . لذلك يذهل ابن حوقل لارسال الماء من نهر فاس في اسواقها لغسلها (٥٧) ، والمقدسي ، لارسال النهر في شوارع بيار في الديلم عندما تقع الثلوج ، ليحملها باجمعها ويغسل الازقة (٥٨) . وهذه النظافة اساسية ومتوقعة إلى حد كبير دفع المقدسي إلى ذم مدن المزابل ومدن البلاذات ، التي تتكدس فيها الاقذار ، وتكثر ميازيبها المنتهية إلى الشوارع او الانهار (٥٩) فتحول دون شرب الماء ، وتضطر المارة إلى دوس الاوساخ بارجلهم ، إلى ان يتقرر نقلها إلى الريف المجاور .

وليس الجمال والنفوذ في النهاية سوى وجهين من وجوه السلطة ومظهرين من ابرز مظاهرها وتمارس هذه السلطة على الرساتيق المحيطة بالمدن اولا . وتؤلف المدينة ومزارعها وحدة متكاملة ، حتى ليستطيع المرء ان يتحدث بالنسبة إلى الري مثلا عن تشابك منازلها او مستوى حياتها العالي وعن خصبها ايضا (٦٠) ، وان يجمع حمامات مدن

---

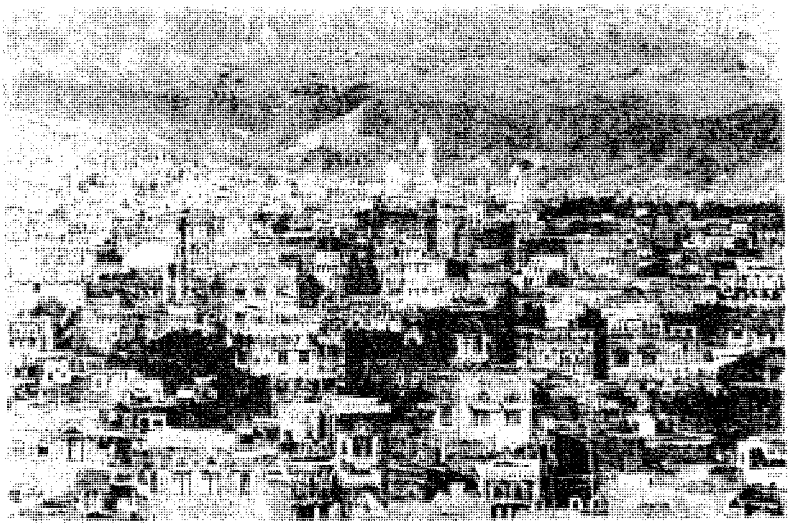
(٥٦) ابن حوقل ، ٤٤٢ (وهم يأبون الا قولهم هذه سنة ، وقبيح بالخلف تغيير رأي رآه السلف ، مبرزين قوة ارادة الكبرياء المديني) .

(٥٧) ابن حوقل ، آخر ٩٠ .

(٥٨) المقدسي ، ٣٧٠ .

(٥٩) المقدسي، ٢٠١ ، ٢٨٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ (عن بخارى ، مترجم في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ١٦٥ — ١٦٦) آخر ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٨١ (انظر ، المقدسي بالتناقض ، ٤٤٠ ولا يطرح النقض الا في وضع واحد)

(٦٠) ابن حوقل ، ٣٧١ .



(تصوير ش بستين وج . افرارد ، بروكسيل)

صنعاء في اليمن الشمالي

الوجه البحري واسواقها وعملها او اقليمها ، اي المزارع التابعة لها (٦١) ، وان يعرف بالالفاظ التالية بعض مدن اخرى : « فهي ممالك صغار . ومدن لطاف متقاربة في الكبر ، خصبة . واسعة المرافق » (٦٢) . على هذا الاساس ، تتناسب اهمية المدينة مع السلطة الممارسة : « فبرذعة امّ ارّان (٦٣) وعين (٦٤) تلك الديار ... اما دبيل ، فهي قصبة ارمينية ، وفيها دار الامارة ... كما ان دار الامارة لأرّان ببرذعة ولأذربيجان باردبيل » .

لعلنا نتجرأ، ونقترح تعريفا للمدينة، مع الجملة المعترضة التالية، التي تعيدنا إلى اعقد قضية بلا ريب : ما هي العتبة التي تجيز لنا استعمال لفظ مدينة ؟ لكن في الواقع ، هل يتدخل الحجم في الموضوع ؟ قلنا من قبل ان ابن حوقل يتحدث عن اصغر المدن ، ويقارن في المنطقة الواحدة ، بلدانا صغيرة يسميها مدنا ، ببلدان يسميها قرى (٦٥) ، مع ان عدد اهلها يزيد على عشرة آلاف نسمة . وقد رأينا ان المقدسي (٦٦) يميز المدينة عن القرية بوجود مسجد جامع فيها او عدم وجوده، وبوجود منبر رمز السلطة المسلمة ايضا . الا ان هذا التصنيف يحتمل بعض الاستثناءات (٦٧) ، ولا يطبق عند ابن حوقل الذي يشير

---

(٦١) ابن حوقل ، ١٣٨ وما يليها .

(٦٢) ابن حوقل ، ٣٤٢ .

(٦٣) ابن حوقل ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ .

(٦٤) أو العين ، اداة البصر .

(٦٥) ابن حوقل ، ٣٧٩ .

(٦٦) ما تقدم ، الفصل السادس ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٦٧) ما تقدم ، ذكر .

إلى وجود منبر في مساجد بعض بلدان الوجه البحري ، ويظل يعتبرها قرى (٦٨) .

ويبدو ان المدينة لا تقاس بقيم مطلقة ، رقمية ومنعزلة ، بل بتوفر ثلاثة عناصر فيها ، اولها وجود مزارع تغذيها ، سعتها كافية ، تفوق سعة الحقول البسيطة الموزعة حول القرية ، وثانيها السلطة الممارسة على هذه المزارع ، وحتى على منطقة كاملة او اقليم تام احيانا ، وثالثها وآخرها وجود المؤسسات العامة ، والابنية العامة — اذ لا يكفي الجامع وحده — نكتفي بذكره (٦٩) — لتمييز المدن عن القرى وتقل اهميته عن اجتماع الهيئات المهنية ، التي يعتبرها ابن حوقل مرافق (٧٠) اقول توفر ثلاثة عناصر لأن نقص احدها لا يجيز تسمية التجمع البشري مدينة . ومن هنا هذه القرى الكبيرة التي تعد عشرة الاف نسمة ونيفا ، وتحوي حمامات ومسجدا جامعا واسواقا ، لكنها خاضعة لسلطة غريبة عنها (٧١) . ومن هنا مدن المقدسي الزائفة التي تمارس السلطة بلاريب لأن المدينة والقصبة مترادفتان عنده ، الا انهما قريتان في الواقع على حد قوله (٧٢) . يعني انهما تجمعين لا يقومان بنشاط مهني متعدد الاشكال ، ويخلوان من المرافق التي تعتبر شروطا ضرورية في الظاهرة المدينية . لذلك نحسم الموضوع ونلح على ان احتواء المكان على المزارع

---

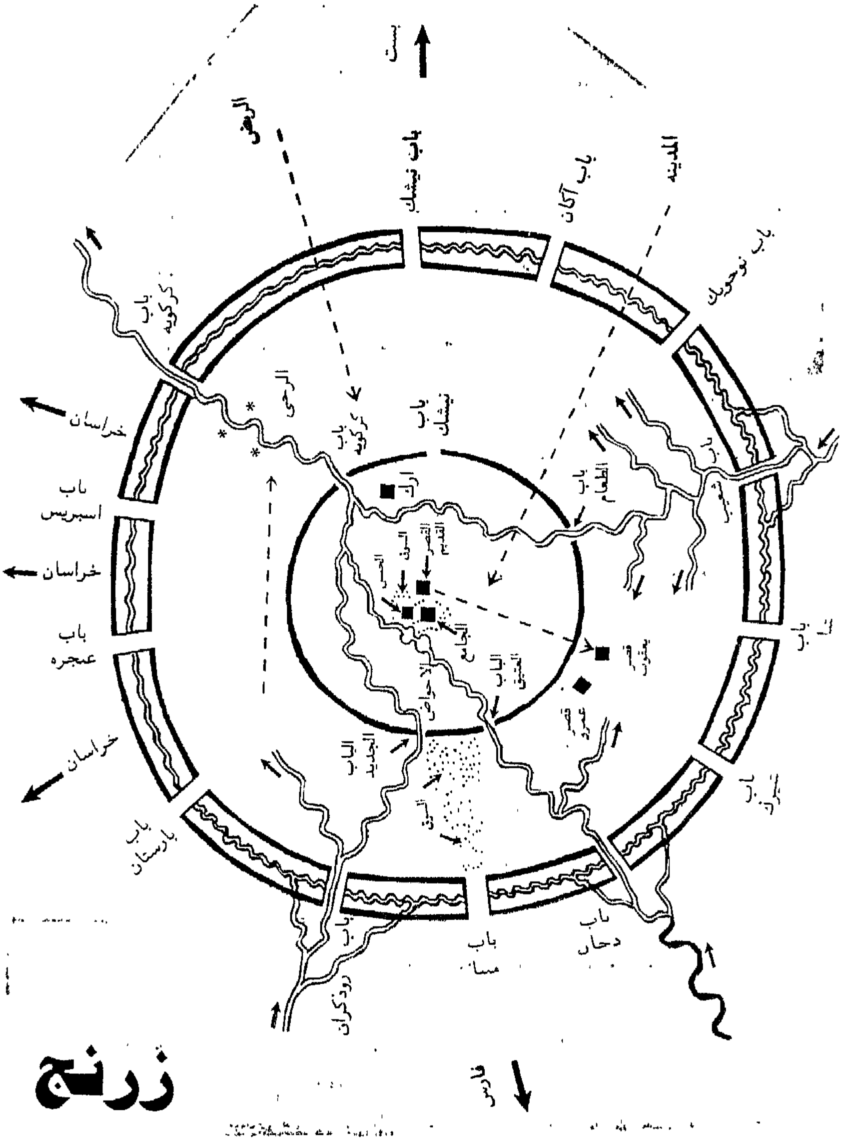
(٦٨) ابن حوقل ، ١٣٩ وما يليها .

(٦٩) بتعبير أدق ، كما رأينا ، الجامع بمنبر .

(٧٠) مرافق عند المقدسي (ما تقدم فصل ٦ ، ح ٦٤) ز ، ابن حوقل (ذكر من قبل ح ٦٢) يستعمل لفظ مرافق : تسهيلات ، مؤسسات ، دوائر خدمات (بالمعنى العام) .

(٧١) عن القرى الواردة عند ابن حوقل ، ما تقدم ، الحاشيتان ٦٥ (قرى تابعة صراحة للري) و ٦٨ .

(٧٢) انظر ما تقدم الفصل السادس ص ١٣٨ — ١٣٩ .



بست
باب نيشك
باب آكان
المدينة
باب نوجوك
باب كركويه
خراسان
باب اسبريس
خراسان
باب عجره
خراسان
باب بارستان
باب مسا
باب دجان
روذ كران
فارس
باب نيشك
باب كركويه
باب الطعام

زرنج

وممارسة اهاله السلطة فيه ، وتعاطيهم مهنا متنوعة ترسم كلها وجه المدينة الحقيقي ونفوذها .

وصف مدينة زرنج :

آن لنا الآن ان نصف المدن وصفا عاما . ونختار اسوة ببلاشير نموذجا له ، مدينة كبيرة ، ليست واسعة جدا ، ننعتها بالكلاسيكية ، اذا جاز لنا هذا التعبير : وهي زرنج قصبة سجستان (٧٣) .

وزرنج مدينة سجستان العظمى . وهي مدينة عليها حصن (٧٤) . ولها ربض واسع الابنية ، كثير السكان ، وفيه دور الامارة لآل الصفار (٧٥) ، إلى غير ذلك من المحال والفنادق ، وعليه سور وحصن دائر بالربض ،وخندق على الربض حصين ، وفيه ماء ، وماؤه ينبع من مكانه ، ويقع فيه فضل من المياه الجارية اليها . ولها خمسة ابواب . احدها الباب الجديد ، والآخر الباب العتيق ، وكلاهما يخرج منهما إلى فارس ، وبينهما قريب مسافة . وباب كركوية يخرج منه إلى خراسان والرابع باب نيشك يخرج منه إلى بست (٧٦) . والخامس يعرف بباب الطعام ، يخرج منه إلى الرساتيق . واعمر ابوابها باب الطعام (٧٧) ، وكلها حديد . وللربض ثلاثة عشر بابا : فمنها باب مينا ، يأخذ إلى

---

(٧٣) ابن حوقل ، ٤١٤ — ٤١٥ (نص نقله بلاشير جزئياً ودرمون في د ج ع ، ١٣٧ — ١٣٩) .

(٧٤) عن معنى الحصن الشائع ، انظر م ج ع ، م٤ ، ٢١٦ .

(٧٥) اشير اليه فيما تقدم ، الفصل ١ ، ص ٢٦ .

(٧٦) نحو الشرق شمال شرقي ، على تخوم سجستان وتبعية غزنه : انظر المقدسي، ٢٩٧ .

(٧٧) حرفياً الطعام الغذاء .

فارس ، ويليه باب دحان ، ثم يليه باب شيرك ، ثم يليه باب شاراو ، ثم يليه باب شعيب ، ويليه باب نوجويك ، ويليه باب آكان ، ويليه باب نيشك ، ثم يليه باب كركويه ، ويليه باب اسبريس ، ويليه باب غنجرة ، ويليه باب بارستان ، ويليه باب روذكران .

وابنيتها كلها من طين معقودة ، لأن الخشب بها يأرض ، ولا يلبث ، ومسجد الجامع في المدينة منها دون الربض اذا دخلت باب فارس منها . ودار الامارة في الربض ، بين باب الطعام وباب فارس (٧٨) خارج المدينة . والحبس في المدينة عند الجامع . وهناك ايضا دار امارة على ظهر الجامع ، عند الحبس ، قديمة ، ومنها نقلت إلى الخارج بالربض . وبين باب الطعام وباب فارس قصران ليعقوب بن الليث ، ولعمرو بن الليث (٧٩) . ودار الامارة دار يعقوب بن الليث . وداخل المدينة . بين باب كركوية وباب نيشك ابنية عظيمة تسمى ارك ، كانت خزانة لعمرو بن الليث بناها الذي(٨٠). واسواق المدينة الداخلة حوالي مسجد الجامع ، وهي اسواق على غاية العمارة ، واسواق الربض اسواق عامرة ايضا ، منها سوق يسمى سوق عمرو التي بناها ، ووقفها على المسجد الجامع ، والبيمارستان ، والمسجد الحرام(٨١) وغلة هذه السوق في كل يوم نحو الف درهم .

وفي المدينة الداخلة انهار ، منها نهر يدخل من الباب العتيق ،

---

(٧٨) اسم يطلق على أحد البابين الجديد أو العتيق : انظر مايلي ح٨٣ .

(٧٩) اميران صفاريان .

(٨٠) خزانة : قد تكون المحفوظات أو المكتبة .

(٨١) في مكة .

والثاني من الباب الجديد والثالث من باب الطعام مدخله . ومقدار هذه الانهار اذا اجتمعت ما يدير الرحى . وعند المسجد الجامع حوضان عظيمان ، ويدخلهما الماء الجاري ، ويخرج ، ويتفرق في بيوت اهل البلد وسراديبهم (٨٢) ... ومعظم دور المدينة والربض ذوات مياه جارية وبساتين . وفي ربضها انهار تأخذ من هذه الانهار التي تدخل المدينة . والسوق (٨٣) ممتدة من باب فارس من المدينة إلى باب مينا ، متصل ذلك غير منقطع نحو نصف فرسخ .

يمكننا هذا النص ، رغم ما فيه من نواقص ، من رسم مخطط زرنج العام ، ان لم يكن مخططها الدقيق . واحيل إلى الشكل المقترح هنا . لكن ترد عند ابن حوقل معلومات هامة جدا عن صفات زرنج العامة ، وعن حياتها ووظائفها . ويأتي الحجم في الطليعة : فهي مدينة كبيرة جدا ، بلا نزاع ، اذ قيل ان سوقها تمتد بين بابين متناظرين من المدينة والريف ، على طول نصف فرسخ ، اي اقل قليلا من ثلاثة كم ، وعلى طول كيلو مترين للمدينة ذاتها على الارجح فيصبح قطر هذا التجمع البشري حوالي عشرة كم . فعلى غرار بخارى ، المشار اليها من قبل ، لدينا مدينة واسعة ، لها رساتيق واسعة الابنية (٨٤) ، وبالتالي مساكن متفرقة ، حولها بساتين ، حتى في المدينة ذاتها .

---

(٨٢) يضيف النص «كجرى مياه ارجان في سراديب البلد ودورهم بالقنى » ترجمت سرداب بكهف الفرنسية لأن سرداب يمكن ان تعني حجرة محفورة تحت الأرض للرطوبة أو قناة دفينة. يتردد وايت (ترجمة ٤٠٣) بين كهف والمعنى الثاني .

(٨٣) سوق الربض نظرا للموقع بين بابي فارس والمينا .

(٨٤) واسع الأبنية واوسع مساحة مبنية أوسع ابنية متفرقة جداً ، والمعنى واحد نظرا لاتساع الربض .

ثم انها مدينة محصنة ، لها سوران على جانبي خندقها (٨٥) يحيطان بالربض ، ثم سور المدينة الداخلية ، اي وسط التجمع البشري . ولاريب ان هذه الاسوار العظيمة تستهدف الحماية ، لكنها تثبت ايضا سلطة السلالة الصفارية التي حكمت مدة من الزمن فارس وافغانستان وخراسان ، وبقيت في سجستان حتى منتصف القرن السادس / الثاني عشر .

وهي مدينة ابنيتها من طين ، ازاج معقودة ، مستديرة او من نوع مدور ، تام او تقريبي ، تكرر احد المخططات العامة المفضلة في مدن المشرق ، الذي طبق نموذجه في بغداد . ولنا عودة إلى هذا الموضوع . ولعل الدائرة لم تقررها ارادة مؤسسها وحده ، مثلما حصل على ضفاف دجلة ، بل نشأت عفويا ، وتمت تدريجيا حول النواة الاصلية . وهذا لا يهم . وتبقى الناحية الاساسية الدائرة التي تبرز بقوة . فالسور يثبت ذلك ، لأنه دائر بالربض . وما دامت ابواب المدينة لها ما يناظرها على سور وسطها (٨٦) ، يسهل ايضا ان نستنتج شكل الوسط المستدير . في النهاية ، تبدو زرنج ، اذا ما قورنت بنموذج المدن المربعة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في العهدين الروماني والهلنستي ، مدينة نجمية بدءاً من وسطها الذي تتدفق عليه الاغذية والمياه ، وتتشعب منه بواسطة ابوابه ، طرق التجارة الذاهبة إلى جميع الآفاق .

---

(٨٥) ورد في النص عن الخندق : خندق على الربض حصين (حصين ، عن حصن انظر ما تقدم ح ٧٤) .

(٨٦) تناظر ثابت على الأقل لثلاث مجموعات : كركويه ، نيشك ومينا (أو فارس : ما تقدم ح ٧٨ ، ٨٣) .

وتتمون زرنج من الرساتيق المحيطة بها بلا انقطاع . ويقال ان باب الطعام اعمر ابوابها . ويرجح ان هذه الرساتيق تقدم لها جميع اغذيتها، ليس فقط الثمار والخضار من رساتيق المدينة، بل اللحوم والالبان: بالفعل يتحدث ابن حوقل عن الغذاء عامة اي الطعام الذي اطلق اسمه على الباب . والمياه هامة بالقدر ذاته .فلدينا مياه الدفاع ،مياه الخندق ، والمياه الجارية بغاياتها الثلاث: الاستعمال العام في الاحواض القريبة من المساجد، والاستعمال الخاص في البيوت والبساتين، واستعمالها قوة محركة في الارحية . وتتصل المياه العامة والخاصة بفيض من المياه الجارية التي تصب في الخندق . لكن تبقى قضية مطروحة : كيف تدخل المياه إلى الربض وإلى وسط المدينة ؟ من الابواب إلى وسط المدينة ، على حد ما ورد في النص . اذن بقي ان نشير إلى حد ادنى من الانشاءات الضرورية ، مثل قناة مفتوحة بارض الباب والماء الجاري عند الحاجة تحت الباب متى اغلق . لكن ماذا عن سور الربض ؟ وكيف يعبر الماء الخندق ؟ بنظام مماثل ، ويلعب الباب دور جسر وقناة ، او بانطونيات ومزملات (٨٧) اضمن لاستمرار التزود بالماء عندما يقفل نظام الدفاع ويغلق الباب .

نصل اخيرا إلى وظيفة المدينة . فمن البدهي ان زرنج مركز تجاري هام جدا ، خاصة باتجاه خراسان (٨٨) . والشواهد المحال ،

---

(٨٧) كانت تعرف بهذه الاسماء : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٨٢ .

(٨٨) توجد اربعة أبواب تتابع حسب الترتيب المذكور بين باب مينا الذاهب دربه الى فارس وبين باب كركويه الذاهب دربه الى خراسان . لكن تشمل وجهة خراسان في الواقع قطاعاً عريضاً جداً من الشمال الشرقي (بلخ) الى الشمال شمال غربي (نيسابور) : ومن هنا عدد الأبواب المفتوحة في هذا الاتجاه .

والفنادق ، والاسواق المتعددة والواسعة والغنية . وتترافق التجارة مع وجود السلطة . فلدى مدينة زرنج العظيمة مسجد جامع له منبر يخطب من اعلاه لصاحب السلطة ويمدح كل يوم جمعه . لكن السلطة قريبة جدا ، بل هي هنا ، لأن زرنج قصبة الصفاريين ، وفيها المباني التي تذكر بسلالتهم ، كدار الامارة ، وبيت المال ، والحبس الذي تقام فيه الحدود ، واقامتها وظيفة شرعية عالية ، يعتبرها البعض ، كما نذكر (٨٩) احدى علامات المصر .

المدينة الكبيرة معنويا وطبيعيا

قطعا تسيطر صورة واحدة من خلال وصف زرنج او مدن اخرى : هي صورة المدينة الكبيرة . وتدخل هذه الصورة في الادب الذي يعود كما يحلو له « امهات المدن » و « عين البلد » التي تؤثر فيه (٩٠) . ويمر هذا الوضع في اختبار الاحداث ... ويخرج منه ظافرا عند جغرافي دار الاسلام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ونتتبعه احيانا صفحة صفحة عند ابن حوقل او المقدسي . وقد تحدثنا نحن عنه بعدهم بالحاح وعلى نطاق واسع . ولن نعود اليه كثيرا ، لكن لابد لنا ايضا ان ندقق نقطتين . تتعلق النقطة الاولى منهما بالاخلاق في المدينة ، والاخرى باخلاق المدينة الكبيرة ، وهذا هو الواقع . وتبدو لنا نصوص المقدسي قيمة إلى اقصى حد في هذا البحث ، وملحاحة عليه . فبعد مدح المدينة ، يأتي فيها عرض مثالب اهلها . : كجور

(٨٩) ما تقدم ، فصل ٦ ، ص ١٣٦ .

(٩٠) هذا الموضوع اساس كتاب اسحاق بن الحسين آكام المرجان في ذكر المدائن بكل مكان . انظر أيضاً من بين أمثلة اخرى ، الثعالبي ، ١١٤ ، ١٢٠ .



(تصوير جورج جستر / رافو)

مدينة مستديرة وارباضها : اربيل في العـراق

السلطة القريبة الملحوظ مباشرة ، وردود الفعل عليه فوضى او تعصب ، واهمال يعبر عنه بالاوساخ ، كما قلنا ، ومن لا مبالاة عامة ، وخفة ، وحتى فسق ودعارة ، وسوء نية ومكر ، وعدم ترحاب وقساوة وفظاظة ، ومن جهل يتعدى جماهير الشعب (٩١) اخيرا .

هذا من الناحية الاخلاقية. اما من الناحية الطبيعية . فابرز شَرَهَ المدينة بلاتردد . وقد قلت من قبل ان حجمها لا قيمة له بحد ذاته . مع ذلك تفرض رؤيتها نفسها . فالعملاق المديني ينتصب في الافق من غبراء الطريق ، ويمتد شيئا فشيئا ، ويستحوذ على المرء متى عبر الابواب ،ولا يُخْلَى سبيله . فيسير ويسير فيه ... وفي بخارى مثلا التي نعود اليها.وقد اعتبرتها المدينة — البلاد لسببين: اولهما ان المدينة الكبرى والارض التابعة لها يحملان احيانا اسما واحدا كما هي الحال في درابجرد وقصبتها في فارس (٩٢) ، او يحملان اسما واحدا ، ويضيفان اليه اسما خاصا بالمدينة : وهذه طريقة تثبت بها المدينة ذاتها ، وتظل تشمل البلد باجمعه . وتأتي مصر في ذروة هذا الكبرياء المديني ، اذ تعني الفسطاط وبلاد مصر ، لكن هنالك ما يشبه في ايامنا بال المدينة وبال الريف ، مثل اليهودية واصبهان وشهرستان (٩٣) ، وايرانشهر ونيسابور (٩٤) ، ونموجكث وبخارى . اذن المقصود المدينة — البلاد

---

(٩١) المقدسي ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٥٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٨٧٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ ، آخر ٤١٠ — ٤١١ ، آخر ٤٢٦ — ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٧٨ واماكن اخرى .

(٩٢) المقدسي ، ٤٢٢ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٤٢٣ ، ٤٦٠ واماكن اخرى) .

(٩٣) المقدسي ٣٨٨ .

(٩٤) المقدسي ، ٣١٤ .

وبالتالي ، لأن الاسم والواقع متطابقان . ويتفق ابن حوقل والمقدسي(٩٥) اتفاقا تاما ، فيذكران العملاق الذي يمتد على نحو من سبعين كم (١٢ فرسخا) في حالة بخارى : ففي الوسط يقع القهندز وله بابان تليه المدينة ولها سبعة ابواب ، ويليها الربض وله عشرة او احد عشر بابا ، ويليه وسط الربض في بخارى بعدد مماثل من الابواب (٩٦) . ولا يقتصر وسط الربض على البساتين والاجنة التي تغذي العملاق ، بل يتضمن خمس مدن حقيقية ملحقة بالمدينة الاصلية وفيها كلها مسجد جامع ، وهي الطواويس وزندنة وخجاده ، ومغكان ، وبمجكث(٩٧).

وقد قلنا من قبل في سياق كلامنا عن بخارى ان وضعها لا يقنع كثيرا في نهاية الامر في تعيين تعريف المدينة . والاصح على الارجح ، وجوب اعتبار بخارى نموذجا مدينيا مضخما جنونيا تقريبا يمضي بالصفتين المتناقضتين المشار اليهما سابقا إلى منتهاهما : هنا

---

(٩٥) ابن حوقل ، ٤٨٢ — ٤٨٨ ، المقدسي ، ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٩٦) يضيف المقدسي ، آخر ٢٨٠ ، بعد تعداد ابواب الربض العشرة : وقد جاوزها العمارة (والاستغلال أيضاً : العمارة) ، وداخلها عشرة دروب أخر اليها كانت العمارة في القديم (عن داخل ، انظر م ج ع ، ج٤ ،آخر ٢٣٢ — ٢٣٣ ،والمقدسي ، المرجع ذاته ح و) تخالف بعض هذه الأسماء . ويشير ابن حوقل أيضاً آخر ٤٨٣ — ٤٨٤ الى ان على الربض سورين (لكل منهما ١١ بابا)ويجعل اسماء الأبواب في السور الخارجي اسماء ابواب السور الداخلي عند المقدسي. لكن تبقى الظاهرة الاساسية ، رغم هذه التباينات ان نموّ المدينة جرى نحو ربض اول ، ثم نحو ربض ثاني يشكل كل بلاد بخارى ويذكر السور الخارجي بصراحة ويُحيط بالمدن التابعة لها التي سنتحدث عنها (فهذه المدن الخمس داخل الحائط : ابن حوقل ٤٨٩ ، المقدسي آخر ٢٨١ .

(٩٧) يصحح وفقا لهذا الاسم الوارد عند المقدسي ، ٢٦٧ (ح د). وآخر ٢٨١ ، نمجكات ابن حوقل ، ترجمة ٤٦٩ .

الرقعة الواسعة – حتّى ضمن الجامع – وهناك تشابك المساكن الضيقة ، وقرينة لا تخدع هي ارتفاع اسعار الاراضي (٩٨) .

وتعد بخارى نموذجا ايضا بترتيب الاماكن: فالقهندز والمدينة والربض والرساتيق ، سواء كانت مسورة ام لا ، تتكرر بمقياس اصغر في العديد من مدن دار الاسلام ،بدءاً من البلدان الشمالية الشرقية ، اي خراسان وما وراء النهر (٩٩). ويتحدث المقدسي عن قصور الجرجانية ويقول عن احدها: « وقد بنى ابنه علي قصرا آخر قدامه، على بابه سهلة تشاكل سهلة بخارى ، فيها تباع الاغنام » (١٠٠) . اخيرا بخارى نموذج بتوسعها على وجه التخصيص : فقد اخترقت سورها ، ثم سور ربضها ، وسيطرت على ارض شاسعة . ويلح ابن حوقل مرتين (١٠١) على ان ليس داخل حائط بخارى ارض غامرة : لم تبن فيها مساكن او لم تزرع .

---

(٩٨) نستغرب ان يقترح ابن حوقل والمقدسي معا تعابير يمكن قراءتها على وجهين بالنسبة الى علو (المساكن او الأسعار) . انظر المقدسي ٢٨١ (ح ك) : مساكن عالية (أو غالية) ،وابن حوقل ، ٤٨٧ : وجميع ابنية بخارى كلها على اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع اراضي الأبنية ، فهي محصنة بالقهندزات والاجتماع . ترجمة وايث ص ٤٦٧ : ادى تقدير ب : ترتيب جيد التنسيق واحال الى م ج ع ، ج٤ ، ٣٢١ وادى ارتفاع اراضي الأبنية ب : ارتفاع الأرض المبنية عليها . ويفهم ا . ميكيل تقدير تخمين دقيق للمساحات وارتفاع بمعنى غلاء اسعار اراضي البناء .

(٩٩) ابن حوقل ، ٤٣١ – ٤٣٤ ، آخر ٤٣٤ – ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٩٢ – ٤٩٨، ٥٠١ – ٥٠٢ ، آخر ٥٠٢ – ٥٠٣ ، آخر ٥٠٣ – ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ .

(١٠٠) المقدسي ، آخر ٢٨٨ – ٢٨٩ .

(١٠١) ابن حوقل ، آخر ٤٨٢ ، ٤٨٧ .

. وتنمو المدينة ، وتتفرع . ويعتبر تعدد مراكز نشوئها احدى علامات صحتها الجيدة — العابرة احيانا ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع. وتثبت هذه الظاهرة بوجود جامعين او اكثر (١٠٢) في المدينة — تحوي القاهرة سبعة جوامع ، اثنان منها في وسطها في الفسطاط(١٠٣) وبنصوص جغرافية صريحة ونقول ان بعض المدن مزدوجة ،او مؤلفة من ثلاث مدن او اربعة او ما يزيد عن ذلك (١٠٤) . ويفرض الموقع هذا الوضع احيانا ، كأن تتوزع المدينة على ضفتي احد الأنهر (١٠٥) او تقع قرب مرفأ أو بعيدا عنه (١٠٦) ، او تشمل مدينة عليا ومدينة سفلى (١٠٧) . وتتدخل السلطة السياسية في بعض الاماكن، فتزدوج المدينة المصر مع مدينة السلطان (١٠٨).وقد يطرأ تبديل على المخطط الاصلي، فيصحح أو يتغير أو يزول، نتيجة توسع المدينة الذي يكفي في حالات كثيرة لتعليل اندماج عدة مدن في مدينة واحدة

---

(١٠٢) ابن حوقل ، ٨٦ ، ٣٦٢ ، ٤٣٤ ، المقدسي ، ١١٧ .

(١٠٣) ابن حوقل ١٤٦ — ١٤٧ ، المقدسي ، ١٩٧ — ٢٠٠ (وح ف من ١٩٩) .

(١٠٤) مسعر (ب) ، ٣٩ ، ابن حوقل ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١١١ ، ١١٩ ، آخر ٢٣١ — ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٣٦٣ — ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٤٣٢ ، المقدسي ، ١٩٧ — ٢٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ — ٢٣٢ ، ٢٧٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٥٧ — ٣٥٨ ، آخر ٣٧٥ —٣٧٧ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ — ٤١٢ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ (ح ك) ، ٤٣٧ ، آخر ٤٦٦ ، ٤٧٨ ، وما يلي مثال الفسطاط .

(١٠٥) ابن حوقل ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٣٨٢ ، المقدسي ، ١٢٠ ، ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ٢٧٧ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، آخر ٣٧٥ — ٣٧٧ ، ٤١٠ — ٤١٢ ، ٤٣٧ ، آخر ٤٦٦ ، ٤٧٨ .

(١٠٦) ابن حوقل ، ٧٩ ، ١١٩ ، المقدسي ، ٢٣٢ .

(١٠٧) المقدسي ، ٢٢٨ — ٢٣٠ ، ٣٠٣ .

(١٠٨) ابن حوقل ، ١١١ ، ١١٩ ، المقدسي ، ٢٢٦ ، آخر ٣٠٤ — ٣٠٥ ، آخر ٤٣٠ (و ح ك) .

وبهذا المعنى ، تمثل بخارى من بدء نموها الداخلي حتى صارت مدينة ، مثالا هامشيا افرط في تجاوز الحد بلاريب لكنه بقي واضحا . وليست وحيدة في وضعها . فابن حوقل مثلا يقارن اصبهان بقرطبة(١٠٩) ويقول ان كلتيهما مزدوجتان وتضم اصبهان اليهودية وشهرستان البعيدتين عن بعضهما حوالي ميلين اي اقل من اربعة كم،ويجمعهما الوصف قبل انتقاله إلى الكلام عن الرساتيق المجاورة لهما مباشرة ثم عن الرساتيق التي تؤلف مع الرساتيق السابقة والمدينتين اصبهان المدينة الواحة الهائلة .

وماذا نقول عن الفسطاط العظيمة ؟ فابن حوقل والمقدسي (١١٠) يميزان فيها بحق عدة مدن اندثرت او ما زالت قائمة . ففي وسطها اي الفسطاط بالمعنى الضيق ، مسجدان لصلاة الجمعة بنى احدهما عمرو بن العاص ، والآخر بناه ابو العباس احمد بن طولون ، واسمهما السفلاني والفوقاني . والجزيرة خفيفة الاهل ، وبها بساتين ونخيل ، ومنتزه امير المؤمنين . والجيزة ، والجادة منها إلى المغرب . والقطائع ، وهي ابنية خارج مصر كان يسكنها جند احمد بن طولون . والقاهرة على جادة الشام ، بناها جوهر الفاطمي ، وبها ديوان مصر . وعين شمس (هليوبولس) على جادة الشام ايضا . والقرافة التي ازدهرت في اثناء الفتح . اخيرا العزيزية وبها كان ينزل فرعون ، قد اختلت وخربت تماماً تقريباً . فمن يستطيع ان يكتب افضل من هذا الكلام؟

---

(١٠٩) ابن حوقل ، ٣٦٢ — ٣٦٦ .

(١١٠) ابن حوقل ، ١٤٦ — ١٤٧ ، المقدسي ، ١٩٧ — ٢٠٥ (و ح ف من ١٩٩) . ينقص العسكر في هذه اللائحة ، وهو حي الحكام العباسيين . عن العزيزية، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ١٢٠ .

المدينة الحصينة

أبنّا من قبل ان اسوار المدينة تمثل تأكيدا على ذاتها ووسيلة دفاع عن نفسها(١١١) . لكن متى حتّم الموقع الجغرافي او الاحداث التاريخية ، تنقلب المدينة باجمعها هي وصورتها : فيزول مخططها العام الكلاسيكي ، وتزول معه دفاعاتها الاساسية ، ويصير المدينا مدينة حصينة ، اي نظام مدني صمم كاملا من اجل التحصين ، واصبح خاضعا له .

وحبذا لو قلنا كلمة عن المدن العسكرية الاولى التي تأسست في دار الاسلام لتأمين الفتوحات الاسلامية واعداد ضروب اخرى من التوسع . الا ان تطور اللفظ الدال عليها (مصر) من مدينة الجند إلى الحاضرة ، يبرز ابرازا كافيا ان ما طرأ من تغيير على المدن قضى تدريجيا على وظيفة المصر الاولى ، او على مخططه القديم المبني على تحديد احياء (خطط) مخصصة للقبائل ، ولكل منها مدفنها(١١٢) . الا ان المدينة الحصينة الحقيقية تختلف عن المصر عند ابن حوقل والمقدسي اللذين شاهداها عيانا ، وشاهدا نشاطها اذا جاز هذا القول .

ونستهدي بالمفردات اللغوية لنتعرف عليها ، فعساها ترشدنا . فعندنا شاع لفظ «مصر» . ادركنا ان المقصود نظام دفاع كلاسيكي متقدم بعض الشيء . ويبدو ان خطوة إلى الامام خطيت ، عندما

---

(١١١) سنعود اليها في قضية المداخل في الفصل التالي .

(١١٢) انظر عن البصرة والكوفة ، اشهر الامصار : اليعقوبي، ٣٠٩ — ٣١١، ٣٢٢ ابن الفقيه ، ١٦٣ ، ١٨٨ — ١٩١ ، ابن حوقل ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، المقدسي ، آخر ١١٦ — ١١٧ . عن الكوفة ، في متناول يدنا مصنف أساسي الآن ، هو هـ. جعيت الكوفة، نشأة المدينة الاسلامية ، باريس ، ١٩٨٦ .

نعتت المدينة بمحصنة او حصينة، مما يدل على ان الدفاعات اجتاحت المشهد المديني ، وتصوره على التخصيص . وعلى هذا الاساس ، وصفت بعض المدن مثل فاس والفسطاط وحلب ، وآمد في الجزيرة ، وتفليس والعديد من مدن جزيرة العرب او ما وراء النهر ، ودربند على بحر الخزر (١١٣) .

وتبدو جميع هذه المدن نقاط ارتكاز متفاوتة القيمة . ولا يتحتم قطعا نعت جميع المدن بالحصينة او المحصنة . وتنشأ صورتها احيانا ببساطة من وصفها وحده والحرص على تفصيل تجهيزات دفاعها ، وسنعود إلى هذه التجهيزات في الفصل التالي . اما هنا ، فنود ان نبقى في نطاق الرؤية العامة ، ونقول بضع كلمات عن مدن فارس ، وفارس بلاد القلاع المنيعة . ويعد الدخول إلى هذه العرائن في نظر المقدسي مأثرة من مآثر تجيز للجغرافي ان يقص اخبارا صحيحة وكاملة (١١٤) في نص رائع ، ويثبت مرة اخرى ان الكاتب يعرف المؤلفات الكلاسيكية فهذا الموضوع ادبي بالدرجة الاولى (١١٥) .

ويحدد الاصطخري عدد القلاع في فارس بما يزيد على خمسة

(١١٣) انظر ابن حوقل ، آخر ٢٧١ ، ٣٤٠ ، آخر ٣٨٠ ، ٥١١ المقدسي ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣١٢ ، ٣٧٥ — ٣٧٧ ، ٤٢٨ واماكن اخرى ، عن دربند انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٣ م ج ع ، ج٤ ، ٢١٦ تعطي حصينة عند المقدسي ، ٤٨٤ ، س٥ (عوضاً عن خصيبة)

(١١٤) المقدسي ، ٤٥ .

(١١٥) طرح الاصطخري ، وهو فارسي ، هذا الموضوع الشائع طبعاً في بلدان فارس في الأدب الجغرافي : لما يلي ، انظر الحاشيتين التاليتين .

آلاف قلعة (١١٦) ، لا تقرب من المدن ، منفردة في جبالها ، كما يقال لنا (١١٧) ، وتتوزع على السواحل ، والجزر (١١٨) ، او تحيد عن البنيان ، قائمة بذاتها، او تظل داخل المدن . اذن لا علاقة للحصن في فارس بالمدينة ، واذا كان يشكل احيانا جانبا منها ، فهو يحرص على ان يتميز عنها . وقد تحصن المدينة بقلعة في بعض الاحيان، او تحمى بها ، لا بالحصن المستقل ذاته . مع ذلك يختلف الامر عند ابن حوقل (١١٩) ، الذي يقول : « واما حصون فارس ، فان اكثر مدنها محصنة بحصون منيعة ، واسوار وثيقة شاهقة عالية ، ومنها حصون داخل المدن وقهندزات ، وحواليها ارباض . ومنها حصون في جبال منيعة ، منفردة عن البنيان ، قائمة بانفسها . ومن المدن المحصنة اصطخر وكثة ، والبيضاء ، وقرية الآس ، وشيراز ، وجور ، وكارزين ، وكير ، ودرابجرد ،وروبنج ، وسميران ، وفسا ، وسابور، والجنجان ، وجفته (١٢٠) » .

وقطعا تبدو بعض هذه المدن صغيرة ،حتى بتجهيزاتها الدفاعية(١٢١)

---

(١١٦) الاصطخري ، ٧٣ ، ابن حوقل آخر ٢٦٥ — ٢٦٦ ، ٢٧١ — ٢٧٣ ، المقدسي ، آخر ٤٤٦ — ٤٤٧ (و ح ب مع الرقم ٥٠٠) .

(١١٧) الاصطخري ، مشار اليه ، ابن حوقل ، ٢٧٢ ، ياقوت ، معجم البلدان، ج٤ ، آخر ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(١١٨) من جملة وظائفها حماية السفن من القراصنة ، وجباية الضرائب على الملاحة: انظر ابن حوقل ، ٢٧٢ وما تقدم فصل ٧ ، حاشية ١١٨ .

(١١٩) ابن حوقل آخر ٢٧١ ، ٢٧٢ (الاصطخري ، ٧٣) ،في الترجمة الجزئية في ج دا ٣ ، آخر ٦١ : هي القاعدة .

(١٢٠) يذكر ابن حوقل باختصار بالغ دفاعات كل مدينة .

(١٢١) انظر الحاشية السابقة ، عن معنى حصن ، انظر ما تقدم ح . ٧٤ ، سنتناول بمزيد من التفصيل مفردات الدفاعات في الفصل التالي .

ففيها احيانا تحصين واحد قد يكون قلعة او سوراً . لكن تعتبر بعض المدن الاخرى من اكبر مدن فارس ، بدءاً بشيراز العاصمة . مهما يكن ، يتلخص الوضع الاساسي في ان مفهوم الحصن ، يشمل بآن واحد ، من خلال نفس الالفاظ العرائن المنعزلة المنطوية على نفسها بكبرياء ، ومدنا هامة او غير هامة . ويقال ان صورة المدينة الحصينة ترتفع قليلا في النهاية ، عن صورة المدينة العادية وعن دفاعاتها الداخلة في المشهد المديني الكلاسيكي . لكن ينبغي ان نعترف ، اعتمادا على المفردات ، واستنتاجا من احد تفاصيل الوصف ، او من تأكيده على هذه النقطة ، ان المدينة الحصينة هي هنا المدينة — وهذا افضل ما لدينا — التي افرطت بالاهتمام بالتحصين ، بالنسبة إلى المخططات العامة الشائعة ، فجعلت الدفاع عنصرا مميزا ورئيسا ، لا عنصرا عاديا . فالقضية قضية درجة اختلاف في مستوى تحصين المدينة ، لا في طبيعتها .

البنادر والاسواق

ويكرر الكلام ذاته في الحديث عن المراكز الكبرى للتجارة البحرية او البرية ، التي ترفع إلى اعلى مستوى احدى الصفات التقليدية للمدينة ، نعني التبادل التجاري . وقد اشرنا من قبل (١٢٢) في شرح الطرق البحرية ، الى سلسلة البنادر الرئيسة في دار الاسلام ، ولن اعود اليها هنا الا لاستعراض خصائصها الكبرى ، كما وردت في وصفها . فالخاصة الاولى اولوية الموقع ، بمعناه الواسع ، بالنسبة إلى الموضع ، واولوية مقتضيات التجارة ، المتفاوتة بعد مدى العمل ،

---

(١٢٢) ما تقدم ، الفصل السابع .

بالنسبة إلى الشروط الطبيعية . وينطبق هذا الكلام على بنادر جزيرة العرب ، اذ يقول المقدسي (١٢٣) : « وانما سكنوا تلك المدن لاجل البحر » . وينطبق ايضا على عدن على وجه التخصيص ، المفتوحة على بحار المشرق والزنج ، في وسط صعب جدا ، تسحقه الحرارة ، ويخلو من الماء ، لكنه محمي جدا في النهاية : فقد قص الجبل لوصل هذا البندر بالداخل وصلا محدودا (١٢٤) .

والخاصة الكبرى الثانية ، اهمية المدينة البحرية وحجمها ، ونطاق علاقاتها التجارية . فلدينا من جهة اولى ، بنادر تعد « خزانة المشرق » ، او « فرضة الدنيا » ، او « مجمع تجارة الدنيا » (١٢٥) . ولدينا من جهة ثانية المدن الصغرى التي تشكل مطارح ساحلية لمدن اكبر منها واقعة في الداخل ، والامثلة عليها من جزيرة العرب (١٢٦) غلافقة لزبيد ، والشرجة والحردة وعطنة (١٢٧) لعدن ، وعثّار لصنعاء وصعده ، والسرّين للسروات (١٢٨) .

(١٢٣) المقدسي ، ٩٥ .

(١٢٤) ابن خرداذبه ، ٦١ ، الهمداني ، ١٩٠ ، المقدسي ، ٨٥ .

(١٢٥) انظر ابن حوقل ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، المقدسي ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ (وح ز) ، ٩٢ ، ٩٣ (م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٩ ، لفظ نبع) ، ٩٧ (وح هـ) ، ١٢٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٧٤ ، وما تقدم ، الفصل ٧ .

(١٢٦) المقدسي ، ٨٦ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٨٣ ، ٨٤ ، عن ساحل ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٨) .

(١٢٧) عن الشكل ، انظر المقدسي ، ٦٩ (ح . م) .

(١٢٨) في الواقع ، منطقة كاملة : الداخل الجبلي (انظر المقدسي ، ٧٠ ، ٩٤ — ٩٦ ، ١٠٣ ، وياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ٢١٧) . تحديد وضع بعض هذه المطارح غير دقيق احياناً : قارن معطيات المقدسي بكورنو ، الأطلس ، الخريطتين ٧ و ٨

والخاصة الاخيرة ، الثروة والحياة المطمئنة وما يصحبها من خفة وانحلال . وقد اشرت إلى وساوس الشيطان في عدن ، وإلى الارباح الضخمة المجنية فيها (١٢٩) او ايضا إلى الافتخار بفخامة البيوت في سيراف ، بندر فارس العظيم ، في هذا الفصل ذاته . وابرز عدم اتعاظ سيراف واستمرار انتشار الزنا بكثرة فيها وتعاطيها الربا رغم انذار الله لها (١٣٠) بزلزلة قلقلتها . فالبندر يشبه المدينة الحصينة من الناحية الاخلاقية ، ويضخم خصائص المدن ، بالاحرى الكبيرة منها . وهذا ما عبر المقدسي عنه مثلما نذكر (١٣١) بطريقته الخاصة : « وكل بلد على بحر او نهر فالزنا واللواطة فيه كثير » .

فهل يختلف بندر البحر عن بندر القوافل ؟ الحقيقة ان بعض المدن تجمع الصفتين ، مثل هرموز في كرمان ، اوديبل في السند (١٣٢) . وفي جميع الاحوال ، المدينة السوق ، شأنها شأن البندر البحري ، رمز الظاهرة المدينية وتضخيم لها من ناحية وظيفتها التجارية والرفاهية المفرطة في الغالب والبغاء . وقد اشير إلى هذا الوضع في متاجر ومطارح مناطق كثيرة في شرح الطرق الكبرى في دار الاسلام، ونذكر بها هنا لبيان مكانتها في المجتمع. وهذه المكانة باهرة بالضبط مادامت المدينية

---

(١٢٩) انظر ما تقدم ، الفصل ٧ ، عن البحار الشرقية .

(١٣٠) المقدسي ، آخر ٤٢٦ — ٤٢٧ (مذكورة في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٠٥) .

(١٣١) انظر ما تقدم الفصل السادس ، عن قائمة البلدان والمدن .

(١٣٢) ابن حوقل ، ٣١١ (تبعد هرموز في الواقع فرسخا عن البحر : المقدسي ، ٤٦٦) ، ٣٢٣ .

والتجارة تقترنان اقترانا تاما فيها اكثر من غيرها على الارجح (١٣٣) .

حياة المدن وزوالها

وقد لا يكون توسع المدينة ، وسرعته ، والتهامه موضعها ، كما المحنا من قبل ، علامة صحة ثابتة على الدوام . فهنالك واقع واحد اكيد في الحد الادنى : هو ان احداث احياء جديدة ، في الفسطاط مثلا ، ادى إلى انحطاط مساحات اخرى ضمن حدود المدينة ، وإلى زوالها احيانا . وقد يقول قائل ان اختفاء بعض الاجزاء في هذه الحالة ، يترافق مع ظهور غيرها في مكانها ، وهذا دليل على الحياة على وجه الاجمال . الا ان الخطورة البالغة تبدو متى تعممت الظاهرة وخربت المدينة باجمعها ، وزال الناس : فالموت الجزئي ، حتى لو نشأ عنه انتعاش رائع ، ينتهي بالزوال التام .

فاي عجيبة تنجي المدينة من مصيرها المحتوم ؟ فالكواكب تتحكم بالمصائر ، وتنساق الكائنات والنبات مع الارض ، في دور الحياة والموت الكبير السائد في الكون : وهذا ينطبق على المجتمعات البشرية وعلى جميع اشكال الحضارة وغير ذلك (١٣٤) ثم يجب ان نؤكد

---

(١٣٣) انظر ما تقدم ، الفصل السابع ، المعارض والأسواق ، وابن حوقل ، ٦٦-٦٧ ، ١١٩ ، ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، آخر ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، آخر ٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٧٨ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٥ ، ٤٥٠ ، آخر ٤٧٧ ، ٤٩٤ ، المقدسي ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ (وح . ز) ٩٧ (وح . ه) ، آخر ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٩٧ وما يليها ، ٢٣١ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ (وح . د) ، ٣٠٤ ، ٣١٣ (وح د) ، ٣١٥ ، ٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢١ (وح ز) ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح . ب) ٤٠٩ (ح ى) ، ٤١١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ .

(١٣٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٥ - ١٦ ، وما تقدم ، الفصل الأول ص ٢٩ وما يليها .

ان الاسلام يسرّع هذه السيرورة في المدن . ويقضي مبدأ الاسلام يهدم ما قبله (١٣٥) — واضيف انه يجدد دوما ما يحدثه — ان نستنتج انه يتصرف تصرف مستهلك مستعجل في ازالة المدن ، على حد قول المقدسي (١٣٦) : « ان امصار العراق محدثة ابدا . ينسخ في الاسلام بعضها بعضا . الا تعلم انه كانت الكوفة ، ثم الانبار ، ثم بغداد ، ثم صارت سامراء ، ثم عادت إلى بغداد . وامصار المشرق قديمة ، لاينقض بعضها بعضا . فان قال قائل : اليست نيسابور هي التي نقضت طوس ، قيل له : لم يكن بطوس مصر قط ، فينسخ . فان قال : ان لم تنسخ طوس ، فقد نسخت مرو ، قيل له قد تحرزنا من هذا بقولنا : ينسخ في الاسلام بعضها بعضا ، ونيسابور انما نسخت مرو بمجيء الاسلام » .

بالفعل يعرف الله جميع المدن التي أنشأها او يشاع انه انشأها . فالاغنياء موثوقون ويُقْرَضون . ويعدد المسعودي(١٣٧) المدن العظيمة السبع التي احدثت في الاسلام . وهي فسطاط مصر ، والرملة في فلسطين (١٣٨) ، وخمس مدن في العراق : البصرة والكوفة وواسط ومدينة السلام (بغداد) وسر من رأى . ويكفي ان نعود إلى تصانيف

---

(١٣٥) المقدسي ، ٢٠٧ (ان الاسلام يهدم ما قبله : صيغة واردة مرتين على لسان عمرو بن العاص ، فاتح مصر في عهد الخليفة عمر) .

(١٣٦) المقدسي ، آخر ٢٧٠ — ٢٧١ .

(١٣٧) المسعودي (ت) ، ٤٥٨ — ٤٦٢ .

(١٣٨) عنها ، انظر ما تقدم الفصل الخامس الحصون وآثار اخرى .

(١٣٩) انظر ابن خرداذبه ، ١٧١ — ١٧٢ ، اليعقوبي ، ٢٣٨ ، ابن الفقية ، آخر ٥٦ — ٥٧ (ترجمة ، ٧٢ ، ح١) ، ابن حوقل ، ٣٦٢ ، المقدسي ، آخر ١٣٨ — ١٣٩ وما تقدم الفصل الأول ، حاشية ٢٢ .

الجغرافيين لكي نضيف إلى اللائحة فاس والقيروان والمهدية ومدناً كثيرة غيرها . ولو توسعنا في البحث ، ضعنا لأنه يحتمل ان تكون المدن المستحدثة والامصار في دار الاسلام ، في العديد من الحالات ، مدنا وجدت قبل الاسلام ، لكنها بدأت تلعب دورا جديدا — يرمز له منحها نسخة من قرآن الخليفة عثمان — وتحيا حياة جديدة يعبر عنها فعل مصّر ، الذي لا يعني دوما اسس مصرا ، بل حول إلى مصر ، قصبة حضارة اسلامية . يضاف إلى ذلك ايضا ، كما قلنا من قبل، جميع المدن القديمة التي نسبت إلى الاسلام في اخبار دار الاسلام . وهكذا تستطيل القائمة بطريقة او باخرى ، وتشتمل في النهاية على الموصل ، والري ، ومرو ، ودمشق ، ونهاوند ، وهمذان ، واصبهان وشيراز ، وبلخ ، وسمرقند ، وحتى المدينة ومكة (١٣٩) . وهذا يعني جميع المدن التي تدين للاسلام بحياتها او بامجادها .

وتقرّر الكواكب ومشيئة الله وارادة البشر موقع المدينة الناشئة ، فيدفع ثمن عادل لاصحاب الارض (١٤٠) . ويتدخل السحر في نشوئها احيانا. فقد بنى الاسكندر اسوار اصبهان؟ مرارا كثيرة مربعة ومدورة ، فكانت تتساقط ، إلى ان امر ببنائها على مَجَرِّ حية (١٤١): وهذه هي احدى الطرق التي يبدو فيها الرسم المتعرج نبيلا . ومتى اختطت المدينة ، مثل البصرة ، تنطلق ، فتحدث المنازل والابنية العامة ثم تهدم ، وتشاد من جديد بمواد افضل (١٤٢) . ويصبح

---

(١٤٠) اليعقوبي ، ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(١٤١) ابن الفقية ، ٢٦٢ .

(١٤٢) ابن الفقية ، ١٨٨ .

الارتجال احيانا قاعدة ، كما حصل في سر من رأى . فكلما وصل شاغلون جدد ، كانت مسورات الحكرات تهدم ، وترفع في مكان آخر ابعد من الاول . ولما هدمت ، تمت اقامة المدينة على الجانب الشرقي من دجلة ، ولوحظ ان الجانب الغربي اغنى بالمياه ، فانشأت فيه مدينة جديدة (١٤٣) . وكان المعتصم مهووسا بالبناء ، فاستدعى جيشا من العمال . وكان الخليفة المتوكل يفخر بالعمارة ، فاسس حيا جديدا ، بل مدينة ملكية كاملة ، وقال : « الآن علمت اني ملك ، اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » (١٤٤) . الا ان مدينته زالت معه : فلما ولي نجله المنتصر ، امر الناس ان يهدموا المنازل ، ويحملوا النقض إلى سر من رأى ، ففعلوا ، وصار الموقع موحشا ، لا سكان فيه ، والديار بلاقع (١٤٥) .

ويتكرر موضوع زوال المدينة عند المقدسي . فهنا الزوال يبدأ من خرائب القلعة ، وهي علامات مجد ضائع ظاهرة . وهناك يجتاح الخراب الاطراف والاسواق ، والارباض التي تحدد صحتها رقعة مشكوكا بمستقبلها (١٤٦) ، حول ما تبقى من المدينة . ولا يعطي المقدسي اسباب حدوث الزوال او توقعه ويكتفي بذكر الاضرار

---

(١٤٣) اليعقوبي ، ٢٦٣ — ٢٦٤ .

(١٤٤) اليعقوبي ، ٢٦٤ — ٢٦٧ .

(١٤٥) اليعقوبي ، ٢٦٧ .

(١٤٦) المقدسي ، ٨٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ — ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣١١ ، ٣١٣ (ح د) ، ٣١٩ ، ٣٧٥ — ٣٧٧ ، ٣٩١ (و ح ا) ، ٣٩٢ (و ح ا) ، ٣٩٤ ، آخر ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، آخر ٤١٣ ، آئك ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ واماكن اخرى .

الناشئة عنه كالفوضى ، والجور ، وعودة البداوة الداهمة (١٤٧) . ويحرص ابن حوقل على التلميح إلى هذا الانحطاط الذي يقضي على استبسال السكان المتمسكين بموطنهم ، ويشير إلى عيون انعدمت الافادة منها ، وإلى انتشار الصحراء والرمل في رقعة بناء المساكن(١٤٨). لكنه ينفرد عن المقدسي بالتساؤل عن اسباب هذه الاوضاع . فهنا نهر يخترق حواجزه (١٤٩) . وهنالك تطغى السلطة ، فتهدم الاسوار والابواب ، وتفتح بهذا الاجراء الرمزي ابوابا اخرى لانحطاط محتمل (١٥٠) . ويظهر البدو في اماكن اخرى (١٥١) . اخيرا يرى ابن حوقل ، خلافا للمقدسي ، ان انحطاط الاخلاق العام والبغي والحسد ، كلها شرور تسبق هذا النوع من الكوارث ، ولاتتبعه(١٥٢)

على هذا الاساس ، يمكن فعلا ان يكتب ان هذه المدينة او تلك تتوسع باستمرار ، وانها كل يوم في زيادة (١٥٣) . لكن لا يجوز البتة ان نغفل في وسط الثلاثية ، مدنا اخرى ، لم تعد مثلما كانت ، ولا في آخرها ، المدن التي اندرست . اذن ينبغي ان نضيف إلى وصف المدينة الكلاسيكي — اي المدينة المتمتعة بصحة جيدة ، مثل زرنج

---

(١٤٧) المقدسي ، ٤٠٨ ، آخر ٤١٣

(١٤٨) ابن حوقل ٧٦ — ٧٧ ، ٨٦ ، ٢٤٣ ، ٣٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٠٤

(١٤٩) ابن حوقل ، ٤١٧ ، ٤٧٨ .

(١٥٠) ابن حوقل ، ٣٣٤ ، آخر ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، آخر ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، آخر ٤٣٧ ، ٤٩٤ .

(١٥١) ابن حوقل ، ٨٥ ، ٣٦٠ .

(١٥٢) ابن حوقل ، ٨٥ ، عن موضوع الانحطاط العام ، الوارد بكثرة عند ابن حوقل ، انظر ما تقدم فصل ١ ، آخر خ .

(١٥٣) المقدسي ، ١٦٠ ، ٢٨٠ ، آخر ٢٨٨ .

التي زرناها — تفصيلا اخيرا اقصد يرى على الابواب ، وهو نص يعني تقريبا : مايلي : « هل تظفر بي الحياة ام الموت » ؟

بغداد النموذجية في السراء والضراء

لا يجوز اختتام استعراض المدن العام في دار الاسلام ، دون ذكر المدينة المثلى ، التي تشكل افضل رمز بين جميع المدن المستحدثة، اي بغداد ، مدينة السلام . فاليعقوبي يخصها بصفحات عديدة (١٥٤) دون باقي الجغرافيين ، ويصفها اتم وصف . فهي رمز في نظري ، وتقع في الاقليم الرابع الذي يعد وسط الدنيا وسرة الارض . وقد اسست هذه المدينة بامر الخليفة المنصور . لذلك يبدأ اليعقوبي بها وصف الأرض . ويشير إلى انها مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب ، وبين بلدان العرب والعجم وبين دجلة والفرات . وقد اختارها تدبير الله منذ الازل . وكان يكفي انتظار الوقت الدقيق الذي يحدده المنجمون (نوبخت) لوضع حجر اساسها .

فهي سرة الارض . وجعلت مدورة ، ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها، على حد قول اليعقوبي الجازم . ونقول نحن بتعقل انها اتقنت نموذجا كان معروفا قبلها (١٥٥) ، وتكيفت تكيفا عظيما مع الارادة السياسية لمؤسسها ، الذي يريد بناءها دفعة واحدة ،

(١٥٤) اليعقوبي ، آخر ٢٣٣ — ٢٤٥ ، عن المراجع ، انظر الترجمة ص٤— ٤٣ ومقالة اساسية لـ د . سورديل في م١ (٢) ، ج١ ، ٩٢١ وما يليها .

(١٥٥) انظر المرجع ذاته ، ٩٢٣ ، وابن رسته أيضاً ، ١٦٠ (اصبهان من بناء الاسكندر مستوية التدوير) ، ابن الفقية ، ٨٩ (مدينة لم يسمع السامعون بمثلها) ، ١٩١ (رحبات مستديرة لمساجد البصرة) ، وصبره مدورة مثل الكاس ، لا ترى مثلها على عمل مدينة السلام ، ابرز ذلك المقدسي بصراحة ، المقدسي ، ٢٢٦ (صبره في المغرب) .

دون ان يتعرض إلى مجازفات : فلم يبتدىء بالبناء حتى تكامل له من الفعلة واهل المهن مائة الف . وقبل وضع الاساس ، ضرب اللبن العظام المربعة واللبن المنصفة . وشقت قناة ماء للشرب وضرب اللبن وبل الطين .

ففي وسط الرحبة العظمى القصر ، وإلى جنب القصر المسجد الجامع ، وحوله دار الحرس . وحول الرحبة ، كما تدور ، منازل اولاد القصر الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وخزانة السلاح ، وبيت المال ، والدواوين ، وكلها داخل السور . وينتظم المخطط بعد ذلك انتظاما نجميا نحو ابواب المدينة الاربعة ، التي يدخل في احدها الفارس بالعلم ، والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح . وحول السور فصيل له ابرجة عظام ، وخارج الفصيل ، كما يدور ، مسناة بالآجر والصاروج . والخندق بعد المسناة قد اجرى فيه الماء من قناة تأخذ من نهر كرخايا . وبين الباب والباب سكك . وخلف الخندق الشوارع العظيمة . وجعل لابواب المدينة اربعة دهاليز معقودة ، لها ابواب ايضا . وعلى كل باب من ابواب المدينة التي على السور الاعظم ، قبة معقودة عظيمة ، وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها ، فيشرف على كل ما يعمل به يصعد إلى هذه القباب على عقوده . قد عملت آزاجا بعضها اعلى من بعض ، فداخل الآزاج للرابطة والحرس وظهورها عليها المصعد إلى القباب التي على الابواب على الدواب . ويفهم بسهولة حديث الخليفة ومهندسيه : فالمقصود تأمين مدينة الخلافة ، واستقلالها الذاتي ، والدفاع عنها ضد الخارج بالسور ، وضد الداخل ايضا ، ما دام يمكن تعطيل الحركة

على السكك الدائرية في كل لحظة ، باغلاق ابواب خاصة صممت على الجادات الذاهبة من القصر إلى الابواب الاربعة (١٥٦) .

وتقع بغداد الاخرى خارج السور الاعظم . فقد قسمت الارباض إلى اربعة ، بين كل بابين ربض ، وقلد للقيام بكل ربض رجل من المهندسين ، الذين طلب منهم ان يكون عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء ، والدروب ست عشرة ذراعا ، وان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذرعا معلوما للتجارة يبنونه وينزلونه ، ولسوقة الناس واهل البلدان ، وان يبنوا في جميع الارباض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلة . وفي كل طرف من الجانب الغربي مقبرة ، سوف تنحصر بسرعة كبيرة بين الربض والقرى المتصلة ، حتى ان استحداث البناء استمر دون وضع حل دائم .

ويكاد تفرع المدينة يكون نموذجيا ، مثل بخارى . فقد عم هوس البناء في البدء لأن كل انسان كان يبني على قطيعة او ارض غير مقطعة له . مع ذلك ، يفرض الوسط حدود تتحكم بالمشروع الكامل هنا : فلا تتعلل جميع الامور بالحاجة الهائلة للاستهلاك والانتاج في مدينة الخلافة ، قلب الدولة والامبراطورية ، ولا حجم السكان المتزايد ، والضغط والاستعجال الناشيء عنه . فخلافا لوضع المدينة المدورة ، المبنية في ارض خالية ومستوية ، اضطرت ابنية الارباض ان تأخذ بعين

---

(١٥٦) على هذا النحو ، ينبغي فهم ما ورد عند اليعقوبي، ٢٤١ (ترجمة ١٧) . ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة ، لأن حوالي السور الرحبة كما تدور الطريق » .

الاعتبار المنشأت المقامة قبلها ، مثل الدير العتيق الذي ينزله الجاثليق ، رئيس النصارى النسطورية ، ومثل الرحا العظمى التي يقال لها رحى البطريق وكانت مائة حجر ، وشكل الموضع خاصة ، وشبكة الاقنية التي لا تصدق . وعلى وجه الاجمال ، تجاوز اندفاع المبادرات الخاصة العظيم في بغداد الثانية ، ارادة التنظيم ، وجرفها ، واكتسحها . ولدينا برهان آخر في الاسواق . والكرخ اشهرها واعظمها — مادة مقدار فرسخين طولا وفرسخ عرضا ، اي احد عشر كم بستة كم — وما تزال تحمل طابع المخططين (١٥٧) : فهي في الحقيقة مدينة تجارية كاملة ، لها احياؤها الخاصة ، وفيها لكل جماعة تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ، ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم ، وكل سوق مفردة ، وكل اهل تجارة متفردون بتجاراتهم ، وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم . وعلى النقيض (١٥٨) ، لا يبدو أن تعدد الانتاج المعروض اقتنع مدة طويلة بالتوزيع الثابت ، بل لا يقال لنا شيء عن هذا الموضوع .

ولم تنته اخبار المدينة الاخطبوطية . فكان لابد لها ان تعبر دجلة ، وتمتد على ضفته اليسرى (الجانب الشرقي) في الرصافة . وجاءت المبادهة مرة اخرى من فوق ، من الملوك الذين وقعوا في حبالة التوسع المديني ، ولم يعد لديهم قطائع . وجارت التيار مدينة بغداد الثالثة ، باسوارها وجوامعها ، وقصورها ، بما فيها قصر الخلافة ، بعد ولي العهد المهدي بن المنصور الذي اختط قصره في الرصافة . ويمضي

(١٥٧) اليعقوبي، ٢٤٢، ٢٤٦ . بولغ بالأرقام المذكورة : انظر مايلي، عن ابن حوقل.
(١٥٨) اليعقوبي ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

ردح من الزمن دام بضعة اعوام ، ثم احدثت في الشمال سر من رأى (١٥٩) غريمة بغداد . وفيما عدا المخطط المستدير اعاد التاريخ نفسه في اعداد البناء ، وحشد اليد العاملة ، وتوزيع المهن ، وامر اصحاب القطائع ان يبنوا المباني العامة ، وامتداد المدينة على ضفة دجلة اليسرى وانتقالها إلى اليمنى هذه المرة . وتم ذلك كله بفخامة مذهلة : فعرض الشوارع مائة ذراع بالسوداء ، لئلا يضيق على المتوكل الدخول إلى المسجد اذا حضره في الجمع بجيوشه وجموعه وخيله ورجله . واصبحت سر من رأى بالمعنى الضيق ، مدينة مترامية الاطراف ، تمتد حتى القصور الملكية الجديدة (الجعفرية) المبنية بامر من الخليفة المتوكل ،على مسافة سبعة فراسخ ،اي اربعين كم ،على حد قول اليعقوبي .

لكن لنرجع إلى بغداد . فهي نموذجية بتأسيسها ، ونموذجية باتساعها ، ومع الاسف بالمصير الذي يتهددها ، مثل كثير من المدن الاخرى ، وفي طليعتها سر من رأى التي نازعتها ، وهجرت بعد خمسين عاما ونيف . فمن جهة يدهش المقدسي لجلبة السفن والناس وضوضائهم على ضفتي دجلة (١٦٠) ، ويطري بغداد الممدوحة في الورى ، التي يحلم بها كل حاذق وكل قلب (١٦١) . ومن ناحية اخرى ، يذكر هو نفسه ملاحظة حزينة : « وهي في كل يوم إلى ورا ، واخشى ان تعود كسامرا » (١٦٢) .

---

(١٥٩) اليعقوبي ، ٢٥٥ — ٢٦٨ .

(١٦٠) انظر ما تقدم ، الفصل السابع ، ص ١٤٥ .

(١٦١) المقدسي ، ١١٣ ، ١١٩ .

(١٦٢) المقدسي ، ١٢٠ (ذكر في ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ٣١) . انظر أيضاً المقدسي ، ١٣١ (عن الخلفاء العباسيين : « والآن لا يرون ، ولا يلتفت الى رأيهم» ، ١٩٣ ، ١٩٧ (الفسطاط ناسخ بغداد) .

كذلك يفعل ابن حوقل (١٦٣) ، ويقارن في آخر القرن ٣ﻫ/٩م ، المدينة العظيمة التي كانت تحتل مساحة ثلاثين كم٢ (١٦٤) على ضفتي دجلة ، بالمدينة التي شاهدها عيانا ، ويقول : « وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر ... وكانا اثنين لعبر المجتازين . ولما بان النقص عليهما ، عطل احدهما لبيان الاختلال : وهلك اكثر محالها ... وعرضها فقد اختل ايضا من الجانبين جميعا نحو خمسة اميال (١٦٥) ، ونقص ، وهلك منه الكثير » .

لا ريب ان بغداد عاشت على امجادها ، وليست وحدها في هذا المضمار . لكنها شارفت على الخراب . في جميع الاحوال ، دام كسوفها مدة طويلة جدا ، إلى ان اعادتها ارادة سياسية اخرى عاصمة . فهل اصبحت مدينة مختلفة ، ام بقيت على حالها ؟ قطعا ، احتفظت بالقليل من آثار ماضيها البعيد . مع ذلك تشبه عددا من مثيلاتها ، وتثبت ان الزوال لا يحصل دوما ، وان المدينة ، حتى لو توقف تطورها يمكن ان تنتعش في وقت لاحق ، اذا بدلت هيئتها ووجهها تماما . لكن هل عرف هذا الوضع حوالي العام الف ، عندما كان ما نسميه تاريخا ، ونحكم عليه كما نريد بالعودة الضرورية إلى الوراء ، ما زال مستقبلا لابد ان تحياه البشرية ، وبالتالي مستقبلا مبهما .

---

(١٦٣) ابن حوقل ، ٢٤١ – ٢٤٢ ، (الاصطخري ٥٨ – ٥٩)

(١٦٤)محسوبة على أساس ٤٣٧٥ جريباً ، وكل جريب ١٣٦٦م .انظر سورديل مشار إليه ، ٩٢٥ مع تقديرات أخرى ، لا سيما ٤٧ كم٢ (٧٢٥٠×٦,٥كم)

(١٦٥) أي ١٠ كم : رقم مبالغ به ، نظرا للابعاد المعطاة من قبل .

الفصل العاشر

نظرة مفصلة الى المدن

حددنا من قبل بعض المبادىء التي يحتمل الاعتماد عليها في تعريف المدينة . وننتقل الآن إلى العناصر المكونة لها . ونبدأ بدورها ، لأنها به تنشأ . ونعيد إلى الذاكرة مدينة زرنج وباب الطعام فيها المفتوح على مر الايام على ريف فيه معايش (١) . ففي هذه الظاهرة ترابط تعاوني وثيق ، يبرزه الجغرافيون على الدوام .

المدينة ومزارعها

ونشير ايضا إلى بخارى ، وهي مدينة عظيمة ، تحيط بها قرى متصلة ، يحيط بها كلّها سور يجمع ضمنه بناءها وضياعها الخصبة جدا التي تقدم لها الغذاء باستمرار . ولن اذكر من اشباهها الا بعض المدن الموثّقة . منها بونة على نحر البحر ، وفواكهها وقمحها من باديتها ، شأنها شأن كثير من المدن الصغيرة في شرقي الجزائر (٢) . ومنها

---

(١) المقدسي ٣٠٦ ، يسمي هذا الباب ناحية .

(٢) ابن حوقل ، آخر ٧٥ — ٧٦ ، آخر ٨٦ — ٨٧ .

نهاوند بكورها المزدهرة (٣) ، ودمشق وغوطتها الشهيرة « باشجارها وزروعها المتصلة »(٤). ولعل اصبهان، افضلها ، فوصفها يرد في جملة صفحات، يذكر فيها اسماء القرى والضياع ، والاسواق، والانهار ، وكل ذلك متصل بالمدينة ، ويعيش في ظلها (٥) .

وفي حالات عديدة ، يكتفي الجغرافيون بابراز ظاهرة التموين وحدها . فبانياس مثلا، في حوض نهر الاردن الاعلى « خزانة دمشق»(٦) والمهدية خزانة القيروان، وجيان ميرة قرطبة(٧) . ويفصلون المعطيات احيانا كما بالنسبة إلى بونة مثلا، والى الطائف. فاكثر فواكه مكة منها(٨)، والى اردبيل: فكثرة خيراتها من جبل في اذربيجان (القبق)(٩) . ولابد من تخصيص السواحل باشارة مستقلة : مثل المرافىء الصغيرة في جزيرة العرب الجنوبية (الشرجة ، الحردة ، عطنة) وفيها خزانة الذرة تحمل إلى عدن ، والشحر معدن السمك يحمل إلى عمان وعدن والبصرة (١٠) وهنالك خاصة هامشية اخرى ، نعني قيام الاماكن

(٣) ابن حوقل ، آخر ٣٦٠ .

(٤) ابن حوقل ، ١٧٤ .

(٥) ابن حوقل ، ٣٦٢ — ٣٦٦ .

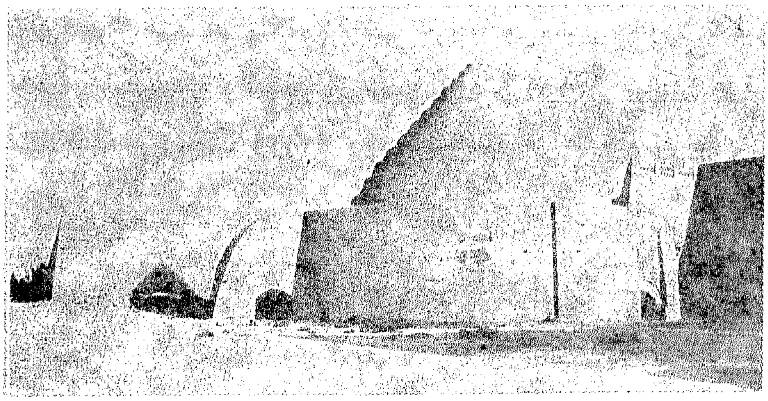
(٦) المقدسي ، ١٦٠ ، اضافة الى الغوطة قطعاً . حول معنى خزانة انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٥ .

(٧) المقدسي ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ (ميرة : تموين ، انظر أيضا الكلمة ذاتها عند المقدسي ، آخر ٣١٨ — ٣١٩ : رستاق استوا ميرة نيسابور) .

(٨) المقدسي ، ٧٩ .

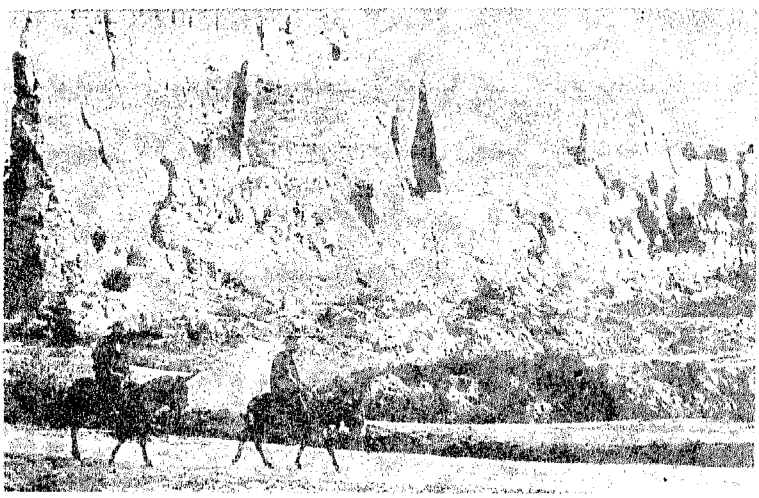
(٩) المقدسي ، ٣٧٥ ، حول معنى خيرات ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣١ ، ودوزي ، ج١ ، لفظ خيرات .

(١٠) المقدسي ، ٨٦ ، ٨٧ (من أجل عدن ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ٨٥) . من أجل السمك ، انظر أيضاً المقدسي ، ٤٤٦ : شيراز تتمون بالسمك من بحيرة دشت ارزن .



(تصوير ميشيل ستبون / رانو)

بيت ثلج من القرن ١٢ ، كرمان ، فارس



(تصوير بورت غلين / الأكبر)

الأسوار القديمة في بخارى

البعيدة بتموين مدن مستهلكة كبيرة ، محرومة من المزارع او لا تكفيها مزارعها ، مثل مكة والمدينة التي تهتم بهما مصر (١١) . ويذكر عرضا خشب البناء او الحطب (١٢) . ويشار إلى الماء على الدوام تقريبا .

المدينة والماء

تتحدث النصوص الجغرافية عن الماء دوما تقريبا (١٣) ، سواء طرأ نقص على نوعيتها او كميتها ، ام ازدانت المدينة بضروب سحرها . ويتفهم المرء هذا الامر جيدا ، متى تصور على وجه التخصيص استعمالات المدن الكبرى لها في حاجاتها الاساسية كالغذاء والاستحمام وغسل الاواني والبناء وسقي الجنان ، اضافة إلى المناهل ، والحمامات العامة ، واحواض الوضوء . ويمثل كل هذا الاستهلاك في حالات كثيرة تحديا للمنطقة الجافة التي تقع فيها المدينة .

والوضع حرج إلى اقصى حد ، عندما يحمل الماء من بعيد بالسفن او على ظهور الابل ، كما هي الحال في العديد من بنادر بحر القلزم والخليج العربي (١٤) . وهو يحظى بالرضى ، لكنه غير مأمون العاقبة دوما ، اذا استعين ، حصرا تقريبا ، بماء المطر ، المخزون في مواجين(١٥)

---

(١١) المقدسي ، ١٩٣ ، ١٩٥ (ذكر الكعك ، خبز جاف يبقى عاماً) : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٤١) .

(١٢) ابن حوقل ، ٨٧ ، ٤٩٧ .

(١٣) عن الماء ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، الفصل الثاني .

(١٤) مثال المقدسي ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ — ٨٧ ، ١٩٦ ، ٤٢٧ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٣٨ ، ح٥ .

(١٥) مثال المقدسي ، ١٥٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٨ .

وافضل من ذلك ، الآبار (١٦)، والبحيرة ، والنهر او القناة الفرعية(١٧) والعيون ، البعيدة ، قرب الاسوار او البازغة في قلب المدينة (١٨) . ويجب سحب هذه المياه وتوزيعها وخزنها . ومتى وصلت ، تحفظ في احواض ، وخزانات وصهاريج . (١٩) وتشاهد على طول مجرى الماء قنى من آجر او حديد ، ظاهرة او تحت الارض ، يقال ان بينها وبين وجه الارض ستين ذراعا احيانا (٢٠) ، وقنى معلقة كما في صور (٢١) .

---

(١٦) مثال ابن حوقل ، ٧٨ — ٧٩ ، ١٢٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٧٠، ٣٧٨ ، ٤٤٥ ، المقدسي ، ٨٥ ، ٩٢ — ٩٣ ، آخر ١٦٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ — ٢٢٧

(١٧) مثال ابن حوقل ، ٧٩ ، ٨٤ — ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٧٤ ، ٢٣٧، ٢٤٢ ، ٢٨٠، آخر ٣١١، ٣٣٥، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧، المقدسي، ٩٢ — ٩٣ ، ١٣٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٥ ، آخر ٢٣١ — ٢٣٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٤٦٤ .

(١٨) مثال ابن حوقل ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، آخر ٢٢١ — ٢٢٢ ، المقدسي ١٤٠ ، ١٦١ ، ٣٨٩ ، ٤١٤ ، ٤٣٤ . تلاحظ احياناً العيون الحارة : ابن حوقل ، ١٧٣ ، ٣٤٠ .

(١٩) مثال ، ابن حوقل ١٧٣ ، المقدسي ، ٨٠ ، آخر ١٦٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ — ٢٢٨ ، ٢٧١ — ٢٧٢ ، ٤١١ — ٤١٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (ح ب) .

(٢٠) مثال ابن حوقل ، ٢١٤ — ٢١٥ ، ٢٨٠، ٣١٢، ٣٦٩، ٣٨٠ ، ٤٢٠، ٤٤٦ ، المقدسي ، ٨٠ ، ١٥٥ (شرب حلب من نهر قويق الذي يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد ، حول شباك ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٠) .١٥٦ ، ٢٢٥ ٢٧١ — ٢٧٢ ، ٢٧٩ (الماء يدخل الى سمرقند في قناة من رصاص فوق الخندق) ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ٣٩٠ ، ٣٩٢ (ح ا) ٣٩٤ (جعلوا على افواه عيون سيراوند مزملات واسطوانيات يتفجر منها الماء : انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٢) ٤٠٩ (ح ي) ، ٤٥٠ (ح ب) .

(٢١) المقدسي ، ١٦٤ . يجب أيضاً ذكر السقاة كما في الفسطاطشط : المقدسي ، آخر ٢٠٧ (يحملون الماء في الروايا ، ويصعدون كل طبقة بنصف دانق مزيقة) .

ويدون الجغرافي جودة الماء وعيوبه (٢٢) نقلا عن الرحالة . فما اسعد المدن التي تشرب من عيون جميلة وطيبة وعذبة او من انهار صافية . ونختار منها مثالين . فزرينروذ يبهج واحة اصبهان (٢٣) وهناك مدينة واقعة وسط آبار، يتعذّر سبرها، وفيها من العيون اكثر من ثلاث مائة عين جارية، كلها صافية، بيّن ما تحت مياهها في قعورها على اراضيها ، وفيها غير عين لا يعرف لها قرار . نقصد رأس العين (٢٤) في الجزيرة، وهي اسم على مسمى ، لأنها العين المثالية ، عين الحياة بين كثرة المياه . وعلى النقيض ، الماء وبيء او مالح في قزوين ، وعدن والرملة وهذه المدينة او تلك في المغرب او فارس او مكران (٢٥) ... والماء الملاصق للبصرة ، القريبة جدا من البحر، غير حلو ولا طيب ، لأن بعضه من مد البحر ، ولأن الجزر يحمل اليه بلاذات الناس (٢٦) . وماء بخارى ملوث إلى حد كبير ، يدفع فقيه اللغة إلى القول بان اصل اسمها من كوه خوران (٢٧) .

ويلحظ وجود تناقضات مماثلة على كمية المياه . ففي بعض المدن ، يشح الماء او لا يدوم ، كما يحصل في قزوين المحرومة من كرم

---

(٢٢) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٥٧ – ١٦٨ .

(٢٣) ابن حوقل ، ٣٦٣ .

(٢٤) ابن حوقل ، آخر ٢٢١ – ٢٢٢ ، المقدسي ، ١٤٠ .

(٢٥) ابن حوقل ، ٣٦٩ ، ٣٨٠ ، المقدسي ، ٨٥ ، آخر ١٦٤ ، ٢٢٦، ٢٢٥، ٤٢٧ ، ٤٧٨ .

(٢٦) ابن حوقل ، ٢٣٧ ، المقدسي ، آخر ١٢٩ ، وجغرافية دار الاسلام ج٣ ، آخر ١٦٣ .

(٢٧) انظر الاحالات في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ١٦٥ .

الطبيعة وسرخس في خراسان (٢٨)، والرملة والاسكندرية وتِنِّيس ، وماؤها مخزون في جباب محروسة بشدة ومقفلة ، « تبقي الفقراء عطشى والغرباء في حيرة » (٢٩) . وتتنوع موارد المياه في بعض المدن الاخرى ، وتؤخذ من آبار وعيون او من عيون وانهار (٣٠) ، وتكثر في صقلية والاندلس ، وفي فرغانة في الاهواز او شيراز (٣١) . وتشرب دمشق من عين الفيجة الغزيرة (٣٢) ، وطبرية من بحيرتها العذبة الخفيفة المياه (٣٣) . وتجري المياه في سكك سغد سمرقند وميادينها ودورها ، فهي ازكى بلاد الله ، ما تخلو محلة ولا سوق ولا دار من « نهر جار او بركة واقفة » (٣٤) . وبسمرقند ، زيادة على الفي مكان يسقى فيها ماء الجَمَد مُسَبَّل عليه الوقوف ،من بين سقاية مبنية ،وحباب نحاس منصوبة وقلال خزف مثبتة في الحيطان . (٣٥) .

الابواب والاسوار

وقد تحدث ابن رسته (٣٦) عن تأسيس اصبهان الاسطوري ، وذكر ان ابوابها كانت اربعة ، مفتوحة على مطلع الجدي ومغيبه ، ومطلع السرطان ومغيبه . ثم احدث الناس لها بابا خامسا ، فتحوه على

---

(٢٨) ابن حوقل ، ٣٦٩ ، ٣٨٠ ، ٤٤٥ .
(٢٩) ابن حوقل ، آخر ١٦٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ .
(٣٠) ابن حوقل آخر ٧٨ – ٧٩ ، ١٢٣ ، ٢٧٨ ، المقدسي ، آخر ١٦٧–١٦٨
(٣١) المقدسي ، آخر ٢٣١ – ٢٣٥ ، ٢٧١ – ٢٧٢ ، ٤١١ – ٤١٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (ح ب) .
(٣٢) ابن حوقل ، ٧٤ .
(٣٣) المقدسي ، ١٦١ .
(٣٤) ابن حوقل ، ٣٦٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣٣ ، ٤٤٥ ، آخر ٤٧٣ – ٤٧٤ ، المقدسي ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٦ ، ٤٦٤ .
(٣٥) ابن حوقل ، ٤٦٧ .
(٣٦) ابن رسته ، ١٦١ .

«غير حساب ولا قياس نجومي وفلسفي». اذن تحدد عدد مداخل المدينة المثالية المدورة بالرقم الذهبي اربعة ، الاصلي والانقلابي . والواقع انه يتردد هنا وهناك عند الجغرافيين : في بغداد مثلما رأينا (٣٧) وفي غيرها (٣٨) . ويشار ايضا إلى الرقمين اثنين وثمانية ،وحدهما او مصحوبين بلفظ باب في حال وجود سورين او ثمانية (٣٩) . لكنني عددت احيانا ثلاثة ابواب كما في تاهرت او تفليس (٤٠) ، او ستة في ارجان (٤١) وعدن (٤٢) ، واثني عشر بابا في بلخ او اصبهان (٤٣) وسبعة او عشرة او احد عشر بابا لبخارى (٤٤) ، ووجدت ايضا خمسة ابواب لمدينة زرنج الداخلية ٤٥) ، وثلاثة عشر لارباض زرنج ، وخمسة عشر للقيروان (٤٦) ، وخمسين في السور المحيط ببلاد نيسابور (٤٧) وبابا واحداً فقط هنا وهناك ، لا للسور وحده بل للمدينة ذاتها (٤٨) .

---

(٣٧) ما تقدم فصل عاشر ، بغداد مثالية .

(٣٨) ابن حوقل ، ٣٦٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، المقدسي ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٦١ — ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦.

(٣٩) ابن حوقل ، ٥٠١ ، آخر ٥٠٣ ، المقدسي ، ٧٧ ، ١٢٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨، ٢٨٨،٣١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٨ .

(٤٠) اسحاق ، ٤٥١ ، ابن حوقل ، ٣٤٠ ، المقدسي ، ٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٧٥

(٤١) المقدسي ، ٤٢٥ .

(٤٢) المقدسي ، ٨٥ (خمسة ابواب وباب من جهة الجبل : اسحاق ، ٤٣٥ ، يهتم بهذا الأخير فقط) .

(٤٣) اسحاق ، ٤٤٥ ، المقدسي ، ٣٨٩ .

(٤٤) انظر ما تقدم الفصل التاسع ، وصف مدينة .

(٤٥) ابن حوقل، ٤٨٣ ،وماتقدم،فصل٩، «المدينة الكبيرة معنوياً وطبيعياً .

(٤٦)اظر ماتقدم ،فصل ٩ « وصف مدينة» ، والمقدسي آخر ٢٢٥ — ٢٢٦

(٤٧)المقدسي ، ٣١٦

(٤٨)ابن حوقل ، ٨٠ ، ٨١ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، المقدسي ، ٢٨٨ ، ٣.١٢ ، ٣٥٧ ، ٤٣٦ ، ٤٦٢ .

أنعلّق اهمية كبيرة على هذه الارقام ، ونخص بعضها بمعنى رمزي محتمل ؟ الحقيقة ان الجغرافيين العرب في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، الميدانيين منهم على الاقل ، كانوا يهتمون بترتيب الابواب وتوجيهها ، ودورها في نظام الدفاع عن المدينة : فالباب ليس سوى قطعة ، لا غنى عنها ، في جهاز يضم مع السور والقلعة ، ما اتفق على تسميته التحصينات .

وهذه التحصينات بارزة جدا في المشهد المديني ، حتى انها صارت تجتاحه وتغمره (٤٩) ويتوقع الجغرافي وجودها على الدوام ، ويستغرب وضع المدينة ، اذا كان سورها غير منيع ، او كانت بلا سور (٥٠) ، او خالية من القلعة في بعض رساتيق فرغانة خاصة (٥١) . اذن بعض التحصينات مسيطرة ، عجيبة ، ابوابها رهيبة ، واسوارها متينة ومنيعة وجميلة النسق (٥٢) . وبعض البنادر ، وهي اماكن استثنائية ، او عدد قليل منها ، تضطرها بين البحر والبر ، إلى الاكثار من التحصينات وتنويعها وتجميلها : وهذا صحيح في دربند على بحر قزوين (٥٣) ،

---

(٤٩) انظر ما تقدم ، فصل ٩ ، المدينة الحصينة .

(٥٠) ابن حوقل ، آخر ٤١٨ — ٤١٩ ، المقدسي ، ١٢١ ، ١٤١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٣٠٣ (ح د من ٣٠٢) . يلاحظ ما يقوله ابن حوقل : ٤٣٧ : خارج حصن هراة جدار يطوف به كله اطول من قامة .

(٥١) ابن حوقل ، ٤٤٦ ، المقدسي ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٥٢) ابن حوقل ، ٣١٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٩ ٤٣٧ ، ٤٥٠ واماكن متفرقة ، المقدسي ٧٩ ، ٨٢ ، ٣٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٦٤ واماكن متفرقة .

(٥٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٢ آخرها —٢٦٣ .

وصور ويافا (٥٤) وبخاصة عكا (٥٥) التي بنى ابو بكر البناء ، جد المقدسي ، على استدارة ميناءها حائطا بالحجارة والشيط على فلق الجمّيز وصله بسور المدينة ثم جعل على الباب قنطرة تحميها سلسلة حديد في الليل :

ويتباين عدد الاسوار . لكن يبدو ان السور الواحد اعم ، او على الاقل ، يجوز ان يعتبر كذلك ، ما دام التدقيق الاضافي ناقصا ، او عندما يستنتج تلقائيا ، كما في المدن الجبلية مثلا ، المحمية طبيعيا ، ذات الباب الواحد (٥٦) : فمتى شيدت المدينة او ميز بينها وبين ربضها وبين كل الرساتيق التابعة لها ايضا ، عندئذ يرتفع عدد الاسوار إلى اثنين وثلاثة واربعة وخمسة وستة وسبعة (٥٧) . وتتنوع ايضا المعطيات التفصيلية العائدة إلى العناصر التي يتألف منها التحصين ، اذكر منها : مياه الخنادق (٥٨) ، ومواد بناء السور كالحجر والآجر والجص او

---

(٥٤) المقدسي ، آخر ١٦٣ — ١٦٤ ، ١٧٤ .

(٥٥) المقدسي ، آخر ١٦٢ — ١٦٣

(٥٦) ابن حوقل ، ٨٠ ، ٨١ ، ٣٣٤ ، آخر ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ وأماكن متفرقة ، المقدسي ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ — ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٤٣٨ وأماكن متفرقة .

(٥٧) الأثنين ، انظر مثلا ابن حوقل ، ٣٢٢ ، ٣٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤٨٢ — ٤٨٣ ، المقدسي ، آخر ٧٩ ، ٣٥٦ — ٣٥٧ ، ٤٠٨ ، لثلاثة ، ابن حوقل ، ٥٠٨ ، المقدسي ٨٣ لأربعة ، انظر حالة بخارى (ما تقدم ، فصل ٩ ، المدينة الكبرى، منويا وطبيعيا ، لخمسة وسبعة ، المقدسي ، ٧٩ و ٢٧٤ (انظر مايلي ، ح ٧٧ عن تعريف الحصن) .

(٥٨) ابن حوقل ، ٤٨٥ ، ٤٩٣ ، المقدسي ٢٣٢ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٣٠٥ ، ٤٧٩ (سور يشرف على البحر) لاحظ المقدسي ، ٢٧٩ (سمرقند) : ما تقدم، ح ٢٠ .

الطين افراديا او مجتمعة احيانا (٥٩) والسماكة (٦٠) : وفيما يتعلق بالابواب ، يحتمل تضعيف نظام مراقبة المداخل (٦١) ، ووجود منجنيقات او جسور تسحب او ترفع كل ليل (٦٢) ، او سرادقات(٦٣) بجوارها مباشرة ، او استعمال الحديد او التحديد (٦٤) ، وفي النهاية الشرف(٦٥) ،وفي اعلى جدران القلعة ،صور وحوش وطيور وسباع ذهب وشمس وقمر (٦٦) .

وتعد القلعة (٦٧) العنصر الاساسي في جهاز التحصين ، والملاذ الاخير . وللمدينة قلعتان (٦٨) احيانا ، الا ان القلعتين شواذ يؤيد قاعدة القلعة الواحدة . والقلعة رهيبة متعالية تشرف على منظر المدينة(٦٩)

---

(٥٩) ابن حوقل ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، المقدسي ، ٧٩ ، ٢٢٦ (مكحل بالجيل : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٠ و ٣٣٨).

(٦٠) المقدسي ١٤١ (الرقة بحصن عريض يسير على متنه فارسان)،٢٢٦ (عرض سور صبرة اثنتا عشرة ذراعا) .

(٦١) المقدسي ، ٧٤ .

(٦٢) المقدسي ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ (مثالان عن الجسور التي ترفع كل ليلة) .

(٦٣) المقدسي ، ٢٩١ (عن السرادق انظر م ج ع ،ج٤ ، ٢٥٩) .

(٦٤) لعله يجب التفريق بين باب حديد وباب محدد انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٢) انظر ابن حوقل ، ٣٦٢ ، المقدسي ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٨٩ ، ٢٥٧ ، ٤٦٤ آخرها .

(٦٥) شرفة (الجمع شرف) ، شرافة ، شرافية ، وفعل شرف (م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٣) : انظر المقدسي ، ٤٣٨ (و ١٥٧ ، ١٦٨) جامعا دمشق وبيت المقدس) .

(٦٦) المقدسي ، ٣٦٠ ، آخر ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٦٧) تتناوب القلعة في المشرق مع اللفظ الفارسي قهندز .

(٦٨) المقدسي ، ٢٢٩ (فاس مدينة مزدوجة) ، ٤٦١ — ٤٦٢ (احدى القلعتين في الخارج مع بساتين وآبار) .

(٦٩) المقدسي ، ١٥٦ ، ٣١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٦٢ (يصعد اليها على الدواب الجبلية المعتادة على صعودها) .

وتقع في وسطها (٧٠) ، وبها الجامع (٧١) او بيت المال (٧٢) . ويدور بها سور ، تتفق اتجاهات ابوابه مع اتجاهات المدينة ، وعددها اثنان او واحد فقط (٧٣) : وقد تلتصق القلعة بالسور (٧٤) ، او تبتعد عنه بعض الشيء (٧٥) ، او تنتصب في الربض (٧٦) .

ونفرد للحصن شرحا خاصا . فمعناه الحرفي المكان المحمي ، او على وجه الدقة السور ، وعندئذ ، قد يستحسن ان نميز — والنصوص الجغرافية غير حاسمة في هذه الناحية — الحصن عن السور : فالسور جدار بسيط ، لا يصلح للدفاع الا بضخامته ، دون الاجهزة الاضافية التي تجعله حصنا . مهما يكن ، يجب التفكير بالسور وبعده بالمساحة المدينية المحصورة ضمنه في معظم الاحيان (٧٧) . ويشار احيانا ،

---

(٧٠) ابن حوقل ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٥٠٠ ، المقدسي ، ١٤٠ ، ٣٠٤ ، ٤٢٨ (وسط البلد قلعة على تل) ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ (نهر يدخل القلعة) .

(٧١) في القلعة (المقدسي،١٢٣ ، ٤٦٥) أو ملتصق بها (المقدسي،آخر ٢٧٦ ، ٤٦٢).

(٧٢) المقدسي ، ١٥٥ (وخزائن السلطان : يمكن أيضاً محفوظات ومكتبة خزائن : انظر ما يلي ح ٢٢١) .

(٧٣) ابن حوقل ، ٣٧٨ ، آخر ٤٣١ ، المقدسي ، ٢٩١ ، ٣١٦ .

(٧٤) المقدسي ، ١٥٦ (لم يشر اليه صراحة ، لكن كمله ابن جبير وياقوت : انظر المقدسي ، ترجمة ، ١٦٤ ، ح ٨٤) ، ٤٦٢ .

(٧٥) المقدسي ، ٢٩١ .

(٧٦) المقدسي ، ٢٧٣ ، ٣١٦ ، ٤٣٣ ، ٤٦١ .

(٧٧) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٦ ، وابن حوقل ، ٣٦٨ (تصحح الترجمة ، ٣٦٨ قلعة) المقدسي ، ٧٩ (أمج بها خمسة حصون اثنان حجر وثلاثة مدر ، وهي في جزيرة العرب: اشير اليها من قبل عند الحديث عن عدد الحصون، المرجع ذاته لجبلة: يسمى الحصن المهد) ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ (حصن عريض يسير على متنه فارسان) ، ٢٣١ (مهم : سجلماسة عليها سور من طين وفي وسطها حصن) ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ — ٢٧٥ (مع مسجد ضمن الحائط أحياناً) سوران كبيرة، عليها سبعة حصون « بعضها خلف بعض» أشير إليها من قبل في عدد الحصون (٢٨٨ — ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣١٦ ، ٣٥٦ — ٣٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

باللفظ ذاته ، إلى الاجهزة التي تحدثنا عنها من قبل ، مثالها قصبة نرماسير في كرمان ، التي لها على احد ابوابها (المسمى بم) ثلاثة حصون، المقصود بها هنا قلاع على الاصح بلا شك، وتعني معاقل تعرف باسم « الاخوات » ، واللفظ مشروح بقلاع (٧٨) . وهذه حالة نادرة ، لكن لها امثالها : ففي مقطع آخر ، فيه اللفظ ذاته ، يعبر بكلمة حصن عن القلعة الواقعة في وسط البلد (٧٩) . ويقال لنا ان مزداخكان في خوارزم كبيرة حولها اثنا عشر الف حصن، لاريب انها ابراج صغيرة اقيمت في وجه الغارات التركية (٨٠) .

وقد رأينا ان كل هذه الانشاءات فخر للمدينة ووسيلة دفاع عنها : وهي مثل المدينة ، مقدر لها ان تتوسع وتزدهر او ان تخبو وتنقرض احيانا . فاذا ارتاب بها جار او ملك ، ألحق سورها(٨١) بالحضيض وطمس آثاره ، في حين يتراى عمل الزمن والانحطاط الحتمي وراء آثار القلاع والاسوار التي يتكرر ذكرها على وتيرة واحدة تقريبا في الحديث عن بلدان كثيرة (٨٢) . وهكذا يفرغ وسط المدينة او تجرّد من هيكلها، فهل تظل مدينة ، وعندئذ ، ما هو الثمن وكم يدوم بقاؤها ، وما هي ضمانتها ؟

احياء المدينة بدقة

إلى اين نوجه خطانا بعد عبورنا ابواب المدينة ؟ لكن لنفتش في

(٧٨) المقدسي ، ٤٦٣ (و ح و) .
(٧٩) المقدسي ، ٦٢ (و ح ب) .
(٨٠) المقدسي ، ٢٨٨ ، يبدو الرقم هائلا ومبالغا به .
(٨١) ابن حوقل ، آخر ٤٣٧ .
(٨٢) المقدسي ، ٢٧٣ — ٢٧٥ ، ٣١٢ واماكن متفرقة .

البدء عن مخطط ودليل . فممن نطالبهما ؟ قطعا ليس من الجغرافيين : مع انهم وصفوا دار الاسلام باجمعها فلم يكن بوسعهم ان يهتموا بجميع تفاصيل طوبغرافية المدينة .لابأس : كنا نود ان يقوموا ولو بدراسة بعض المدن دراسة منهجية وكاملة . ونغتاظ احيانا عندما نراهم يتوقفون في منتصف الطريق ، كما فعلوا في وصف مدينة زرنج المذكور في الفصل السابق ، ولاشك انهم تصدوا له وعلى الوجه الصحيح ، لكنهم لم يذهبوا في وصفهم إلى النهاية ، وامتنعوا عن التفصيل حيا حيا (٨٣) .

لنأخذ نحن الاحياء . فعلى اي اساس يتم تنظيمها بالنسبة إلى بعضها ، واين وكيف ؟ في افضل الحالات ، يذكر حيا يهودياً في بلرمو (٨٤) . ويقول ابن حوقل عن الموصل ان اهلها عرب ، واكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة ، ولهم بها خطط : اي قطائع في المدن الجديدة ، وهم موزعون على الاحياء (٨٥) . لكن هذا الكلام خارج على القاعدة . وتتردد قليلا الاشارة إلى وجود اليهود او النصارى وتقدير عددهم في قابس وبيت المقدس ودبيل او اصبهان (٨٦) : واغرب من ذلك على الارجح تقسيم مرو إلى ارباع محددة جيدا ، كما يقال لنا ، دون ان يرضى فضولنا (٨٧) .

---

(٨٣) باستثناء بغداد عند اليعقوبي على الأرجح ، وهي مذكورة بآخر هذا الفصل . وهي مدينة شبه مثالية لكنها باطلة .

(٨٤) ابن حوقل ، ١٢٢ .

(٨٥) ابن حوقل ، ٢١٥ . انظر أيضاً المقدسي ، ١١٧،١٢٦ حي السنة في الكناسة في الكوفة .

(٨٦) ابن حوقل ، ٧٠ ، المقدسي ، ١٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ .

(٨٧) ابن حوقل ، ٤٣٥ .

والحصيلة العامة ضئيلة المعطيات . وتنحصر الناحية الجوهرية في هذا الموضوع في الاحالة إلى الحرف ، وان كانت لا ترد الا بطريقة غير مباشرة ، في الحديث عن جامع ، يتحدد موضعه بالنسبة إلى احداها. وسواء وجد الجامع ام لم يوجد ، على ماذا تدل هذه الاستشهادات فعلا : على احياء ام على اسواق ؟ لقد سمى ابن حوقل والمقدسي (٨٨) اصحاب المهن التالية ، واحصيناهم عندهما . وهم العوّاجون والنحاسون والقلانسيون ، والاساكفة ، والحبالون ، والصيارفة ، والشوّاؤون (٨٩) والقصابون ، والخبازون والصاغة والحصافون ، وفي طليعتهم البزازون. ويقترن اسمهم احيانا باشارة إلى اسواقهم ودكاكينهم ، ولا شيء آخر يتحدث صراحة عن الاحياء ، الا اذا افترضنا ، بلا شطط ، انهم يسكنون حيث يعملون (٩٠) .

الاسواق

تحتل السوق ، بل الاسواق ، حيزا اهم بكثير من حيز الاحياء . وهذا ما نشعر به مسبقا . وقد اشرنا منذ قليل إلى بعض اختصاصاتها . الكن هنالك اختصاصات اخرى كثيرة يعثر عليها هنا وهناك ، واردة على حالها او بمناسبة ما يجاورها ، كالجامع ، كما قلنا ، او ابواب المدينة التي تعطيها احيانا اسماءها . وتثبت جميع هذه الانشطة وجود حيوية عظيمة ومتنوعة : مثلا اجد في القيروان باب الصرافين ، باب

---

(٨٨) ابن حوقل ، ٣٢١ ، ٤٣٢ ، المقدسي ، ١٤١ ، ١٧٤ ، ٢٧١ – ١٧٢ ، ٣١١ ، ٣١٢، ٣٧٧ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ .

(٨٩) دكاكين على حدة ، المقدسي ، ٤٤٠ .

(٩٠) انظر ما يلي الحديث عن اسواق رامهرمز .

الرهادنة ، باب الفضوليين ، باب الصبّاغين ، باب الحواريين ، باب الخاصة في التمارين ، باب اللحامين ، وسوق الرماحين (٩١) ، يضاف اليها هنا سوق الحنطة (٩٢) ، وفي امكنة اخرى سوق الزيت(٩٣) والسمك (٩٤) والطيور (٩٥) ، او الرقيق . والشاهد عليه السوق التي يذكرها اليعقوبي في حديثه عن سر من رأى (٩٦) .

ويخضع تحديد موضع هذه الاسواق إلى نموذجين رئيسين . فاما ان تحويها المدن داخل نطاق سورها ، حول الجامع ملتصقة به او على مقربة منه (٩٧) . واما ان تقوم الاسواق في الربض (٩٨) . ويلحق بهما نموذج ثالث ، تتوزع فيه الاسواق ضمن السور وفي الربض بآن واحد (٩٩) . في النهاية ، تعبر هذه النماذج عن حياة المدينة :

---

(٩١) المقدسي ، آخر ٢٢٥ . عن حواريين ، ورهادنة ولحامين ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٠ ، ٢٥١ ، ٣٤٨ .

(٩٢) المقدسي ، ٤٢٥ .

(٩٣) المقدسي ، ١٩٦ .

(٩٤) المقدسي ، ٤٢٦

(٩٥) المقدسي ، ١٩٨ .

(٩٦) اليعقوبي ٢٦٠ (فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق) .

(٩٧) انظر ما تقدم عن الأحياء ، في الأخير . امثلة اخرى : ابن حوقل ، ٤٤٨ ، ٤٧٦ ، المقدسي ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٣٨ (والبلد ... في ثلثه يشبه حصناً يسمى المربعة . . . ويعرف بسوق الأربعاء ، داخله فضاء واسع) ، ١٢١ – ١٢٣ ، ١٦١ (من باب إلى آخر) ، ١٦٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٩ ، ٢٧١ – ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ وما يليها ، ٣٠٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٧٧ (دبيل : اسواقه صليب . . . الجامع على رابية كبيرة) ، ٣٨٩ (ح هـ) ، ٤٢٥ (مصلبة) ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ .

(٩٨) مثال ابن حوقل ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، آخر ٣٣٨ ، ٣٧٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، المقدسي ، ٨٣ ، ٢٣٤ ، ٢٧٦ ،آخر ٤٦٢ .

(٩٩) مثال ابن حوقل ، ٦٩ ، ٤١٥ ، المقدسي ، ٢٣٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩، ٣٠٤ ، ٤٣٦ .

تنحط الاسواق مع المدينة ، وتنقرض معها (١٠٠) او ، على النقيض . تتوسع (١٠١) ، فتغادر داخل المدينة ، وتنتشر في الربض لاسباب تتعلق احيانا بسعة المكان واحيانا بالاضرار ، او ترجع إلى المدينة من الربض بامر السلطة الحريصة على حمايتها ومراقبتها وفرض الضرائب عليها (١٠٢) .

ويعظمها المقدسي ، ويبين مكانتها الرفيعة في المدينة ، فينعتها بنعوت احصيت ما يقرب اثنتي عشرة صفة منها ، كقوله اسواق طويلة ، اسواق كبيرة وفسيحة (١٠٣) ، اسواق حسان ، اسواق نزهة ، سوق نظيفة ، اسواق لبقة ، رائعة ايضا (١٠٤) ، وخاصة ممتازة لأنها عامرة جدا ، ومزدحمة ومليئة بالحياة و«نشيطة» (١٠٥) . على النقيض ، يندد ببعض الاسواق الخاملة ، القذرة ، او المفرطة بالطول والسيئة التنظيم حتى ان الغريب يضل فيها ، او الضيقة جدا كما في شيراز ، حتى ان سير بهيمتين في سوق واحدة فيها مستحيل ،

---

(١٠٠) المقدسي ، ٤٣٣ .

(١٠١) انظر المقدسي ، ٤٦٤ ، السيرجان . . . ، لها سوقان عتيق وجديد ، والجامع بينهما .

(١٠٢) ابن حوقل ، ٦٩ .

(١٠٣) المقدسي ، ٣٩٠ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ واماكن متفرقة .

(١٠٤) المقدسي ، ١١٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٩٦ ، ٢٨٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٦ واماكن متفرقة .

(١٠٥) المقدسي ، ١٢٢ ، ٢٠٣ ، ٣١٨ (ح د) ، ٣١٩ ، ٢٢١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤٢٦ ، آخر ٤٣٣ — ٤٣٥ واماكن متفرقة ، عن جاد ، حار وسوى ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٢ ٢١٣ ، ٢٦٧ .

ويزدحم الناس من الضيق في اسواقها ويصطدمون بعضهم ببعض في جو من الضوء الضعيف القليل الهواء (١٠٦) .

وهكذا تمر امام ناظرينا حياة يومية على مدى اسبوع ، تغلق فيه الاسواق يوم الجمعة احيانا (١٠٧) : وتذكر ايضا واردات الاسواق . فسوق عمرو في زرنج في سجستان ، وقف على المسجد الجامع ، والبيمارستان والمسجد الحرام ،وغلة هذه السوق في كل يوم نحو الف درهم (١٠٨) . وفي اسبيجاب في بلاد سيحون (دسيرواريا) ،سوق وقف غلتها في كل شهر سبعة الاف درهم ، يُجْرَى بها على الضعفاء الخبز والادام(١٠٩).وفي الدامغان ـ بين الديلم وخراسان ،لهم سوقان ،سفل وعلو ، وقف على رباط افراوة ودهستان ، وابناء السبيل (١١٠) . لكن تكثر النبيذ عن البناء . ففي البصرة ثلاث اسواق هي قطع الكلاء على النهر والسوق الكبيرة وباب الجامع(١١١) . وفي همذان اسواقهم ثلاثة صفوف (١١٢) . وفي دير العاقول الاسواق متشعبة وتتجاوز على الشوارع المجاورة لها (**١١٣**) . وفي ارجان سوق البزازين صفوف مصابة في وسطها الجامع (١١٤) .

---

(١٠٦) المقدسي ، ٢٨١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ . عن عطيف (منفي هنا) وغام ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠١ و ٣١١ .

(١٠٧) المقدسي ، ٢٠٥ (مصر) .

(١٠٨) انظر ما تقدم ، فصل ٩ ، « وصف مدينة » .

(١٠٩) المقدسي ، ٢٧٣ .

(١١٠) المقدسي ، ٣٥٦ .

(١١١) المقدسي ، ١١٧ .

(١١٢) المقدسي ، ٣٩٢ ، ٤٢٥ ، عن صف ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٨١.

(١١٣) المقدسي ، ١٢٢ ، ٤١٢ ، عن متشعب ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٤ .

(١١٤) المقدسي ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ .

وقد تسيج المياه في الاسواق . ولا نقصد الماء المخصص لغسلها(١١٥) بل المسحوب من ساقية او نهر قريبين (١١٦) . وتزهو بهجة الاماكن بفرش الاسواق بالآجر (١١٧) وبعقودها . ويشار إلى السوق المغطاة على النحو الصحيح (١١٨) ، فهنا سوق كلها خشب (١١٩) ، وهناك تظلل الاسواق في الصيف (١٢٠) . وفي النهاية تتطور السوق وتصبح مدينة ضمن المدينة ،لها خاناتها (١٢١) وابوابها التي تغلق كل ليلة (١٢٢)

---

(١١٥) انظر ما تقدم ، فصل ٩ ، بعض التعاريف المقبولة .

(١١٦) المقدسي، ٣٨١، ٣٨٩، ٤٧٩(عن ديبل، عند مصب نهر مهران ، ورد في النص ، والبحر يسطع جدارات المدينة . افهم بحر بمعنى النهر الكبير ، المستعمل في تعبير بحر النيل الذي يشبه به نهر مهران تقليديا ويقترن به : انظر جغرافية دار الاسلام، ج٣ ، ١٨٠ ، ٢١٧ — ٢١٨) .

(١١٧) المقدسي ، ٢٩١ .

(١١٨) المقدسي ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، آخر ١٥٦ — ١٥٧ ، آخر ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٧٥ ، آخر ٣٨٨ ، ٣٩٣ .

(١١٩) المقدسي ، ٤٣١ .

(١٢٠) المقدسي ، ٣١٤ ، لا يبين كيفية التظليل .

(١٢١) المقدسي ، ١٣٨ ، ٤٢٨ ، وما تقدم ، فصل ٧ ، المعارض والاسواق. تقترن كلمة خان احياناً بكلمة قيسارية ، جمعها قياسير (من قيصرية) : المقدسي ، ٧٦ (و ح و)،١٩٧ ، ١٩٨ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، م ج ع ، ج٤ ، ٣٢٤ . د . هوبرت قيساريات النسيج : تجهيز المدينة ، مجلة الدراسات الشرقية ، ٣٦ ، ١٩٨٤، ص ١٢٧— ١٣٥ ، دوزي ، ج ٢ ، ٤٣٢ ، ج .سوفاجيه ، حلب ، دراسة عن تطور مدينة سورية من البدء حتى منتصف القرن التاسع عشر ،باريس، ١٩٤١ ، م١ ، ص١٢٠—١٢١(مذكور عند س . مغيربي ، رحالة المغرب الا سلامي من القرن ١٢ إلى القرن ١٤ ،اطروحة ، باريس، ١٩٨٦ ، ص ١٩٦) . ا . ريمون، الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر ، دمشق ، ١٩٧٤ ، مجلدان ، انظر م١ ص ٢٥١ آخرها — ٢٥٣ — ٢٦٢ — ٢٦٣ . و د . ج . سورديل ، حضارة الاسلام الكلاسيكي ، باريس ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧٦

(١٢٢) المقدسي، ٤١٣ ، ٤٢٥ (سوق البزازين... وهو صفوف مصلية) .

وشبكة شوارعها (١٢٣) ، ومداخلها الخاصة بتيمات مغطاة (١٢٤) . باختصار ، متى كانت جميع الاسواق منتظمة ، تسحر الالباب ، وتزداد فتنتها عندما تزين في اعياد الكفرة (١٢٥) . ولنترك المقدسي يحدثنا في الختام عن رام هرمز في خوزستان (١٢٦) : « رام هرمز ... بها .... وجامع بهي عنده اسواق في غاية الحسن ، بناها عضد الدولة ، ما رأيت اعجب منها ، نظيفة ، ظريفة ، قد زوقت ، وبربقت (١٢٧) ، وبلطت ، وظللت ، وجعل عليها دروب تغلق في كل ليلة ، يسكنها البزازون والعطارون والحصارون (١٢٨) . وفي سوق البزقياسير حسنة » (١٢٩) .

الجامع

المسجد الجامع يسترعي الانتباه في المدينة لاول وهلة دون سائر ابنيتها . وهذه ناحية بديهية . ويختار له افضل مكان في وسطها ، هو والحرف والاسواق التي استعرضناها منذ قليل . ويعطى احيانا تفصيل يحدد بدقة هذا الموضع او يبرزه ، مثل شبكة الازقة التي يندرج فيها (١٣٠) ، او على النقيض ، الميدان الفسيح الذي ينتصب فيه(١٣١)

---

(١٢٣) المقدسي ، ٤٢٦ .

(١٢٤) المقدسي ، ٢٧٧ ، عن تيم . انظر أيضاً المرجع ذاته ، آخر ٢٧٢ في نص أقل صراحة ، م ج ع ، ج٤ ، ١٩٩ ، ٢٨١ .

(١٢٥) المقدسي، ٤٢٩ (شيراز) البهجة مخففة لأن الأعياد وثنية (مجوسية بلاريب).

(١٢٦) المقدسي ، ٤١٣ .

(١٢٧) عن فعل بربق ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٦ - ١٨٧ .

(١٢٨) حصارون ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٥ ، ودوزي ، ج١ ، ٢٩٥ .

(١٢٩) قياسير .

(١٣٠) المقدسي ، ٨٤ ، ٣٥٦ ، ٣٩٣ ، ٤٢٨ .

(١٣١) المقدسي ، ٤٦٢ .

قرب السوق،او ايضا وقوعه في معزل بين سوقين قديمة وجديدة(١٣٢). لكن يمكن ان يتميز الجامع بمواقع طريفة . فقد يظل ضمن نطاق المدينة ويقوم على حافة نهر او قناة (١٣٣) وعلى باب من ابواب المدينة ، او على البحر الذي يحدها من تلك الجهة (١٣٤) . وتكفي خطوة اخرى ، لكي يغادر الجامع المدينة ، وينتقل إلى الربض (١٣٥) ، خارج البلد في وسط البساتين (١٣٦) . وهناك حالات خاصة تتمثل في المساجد الصغيرة التي تلتصق بجدار القلعة او تحتمي بداخلها (١٣٧) ، يقابلها الجامع الذي يثبت على رابية داخل نطاق المدينة او خارجه(١٣٨) او في وسط السوق (١٣٩) . اخيرا تتكاثر الجوامع في المدن المزدوجة خاصة (١٤٠) وفي الامصار الكبيرة على وجه الدقة (١٤١) .

---

(١٣٢) المقدسي ، ٤٦٤ (انظر المرجع ذاته ، ٣٥٦ : ظريفة الجامع كأنه حصن وسط الأسواق) .

(١٣٣) المقدسي ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٣٢ (ح ز من ٣٢١) ، ٤٦٥ .

(١٣٤) المقدسي ، ٨٣ ، ٨٥ آخرها — ٨٦ ، ٩٢ ، آخر ١٤١ ، آخر ٢٩١ ، ٣٥٩ ، ٤٠٨ ، ٤٢٦ ، ٤٦٦ .

(١٣٥) ابن حوقل ، ٤٣١ واماكن اخرى ، المقدسي ، آخر ٧٩ ، ٨٠ ، آخر ١٤٠ ، ٢٧٢ ، ٣١٦ ، ٣٧٦ واماكن متفرقة .

(١٣٦) المقدسي ، ٤٣٣ .

(١٣٧) ابن حوقل ، ٤٨٣ ، ٤٩٣ ، المقدسي ، ١٢٣ ، ٢٣١ ، آخر ٢٧٦ ، ٣٢٢ (ح ز من ٣٢١) . يتضح الحرص على الحماية أيضاً اكثر من ذلك ، عندما يؤكد ان الجامع — احياناً مع ابنية اخرى والمدينة بأجمعها — محصور ضمن التحصين (في الحصن): مثال المقدسي ٨٦ ، ٣٧٣ — ٢٧٥ ، ٢٩١ .

(١٣٨) المقدسي ، ١٣٩ ، ٢٩٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٧،آخر ٤٢٨ ، ٤٣٤ .

(١٣٩) المقدسي ، ٧٩ .

(١٤٠) مثال ابن رستة ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، المقدسي ، آخر ٧٩ ، ٢٢٩ ، ٣١٠ ، ٣٥٩ ، آخر ٣٩٣ ، ٤٢٧ .

(١٤١) انظر ما تقدم ، فصل ٩ ، المدينة الكبرى معنوياً وطبيعيا .

يلاحظ حتى الآن ان موقع الجامع يدل على اهميته ، لكن ليس مثل وصفه بالذات . فهنا نقع في حيرة ، متى اقدمنا على الاختيار . ونود قبل ذلك ، ان نذكر بعض الصفات العامة المنعوتة بها الجوامع . فالجوامع حسنة ، بهية ، غنية ، مليئة بالسحر والبهجة والحيوية ، تغسل بماء وافر ، وواسعة (١٤٢) . بالمقابل بعض الجوامع شعث (١٤٣) و روادها قلائل . وهنا يشرع المقدسي بسرد بعض الهنات . فيقول عن اهل الري : ائمة الجامع عندهم مختلفة يوم للحنفيين ويوم للشافعيين (١٤٤) وفي مصر ، يكثرون الاشارة في الصلاة ، والنخع والمخاط في المساجد ، ويجعلونه تحت الحصر (١٤٥) . وفي الاهواز ، ليس لجامعها حرمة ، وذلك انه ابدا مملوء بخلق لا يبالون بواجب ديني ، يتعدون اليه ، ويجتمعون فيه ، وهو بيت الشحاذين ومركز للفاسقين (١٤٦) .

ونلقي نظرة عامة اخرى على الترتيبات الخارجية ، كالاقنية والانهار المشار اليها من قبل (١٤٧) ، والدرج ينزل عليه إلى الجامع احيانا (١٤٨) او يصعد اليه في اغلب الاحيان (١٤٩) ، وفي الملحقات

---

(١٤٢) المقدسي ، ١٥٩ (ح د) ، ١٦١ ، آخر ١٦٢ ، ٢٠١ ، آخر ٢٠٣ (مصر مثالية بنسبة التردد على الجوامع ، لكنها منتقدة من جهة اخرى انظر مايلي) ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ (ح د) ، آخر ٣٠٥ ، ٣١٤ (ح د من ٣١٣) ، ٣٩٣ ، ٤٠٧ (عن سوي ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٧) ٤٣٥ واماكن متفرقة .

(١٤٣) المقدسي ، آخر ١٤١ ، ٣٢١ ، عن شعث ، انظر م ج ع ، ٣٧٤ . ج٤ ،

(١٤٤) المقدسي ، ٣٩١ ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٠٢ .

(١٤٥) المقدسي ، ٢٠٥ .

(١٤٦) المقدسي ، ٧ انظر ايضاً المرجع ذاته ، ٤٢٩ ، ٤٤١ (ح ١) .

(١٤٧) اضف ، المقدسي ، ٣٥٩ ، ٤٦٦ : مياه جارية في الجامع ذاته .

(١٤٨) المقدسي ، ٣٠٢ (ح د) .

(١٤٩) المقدسي ، ٤٢٧ — ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٦٣ .

القريبة منه ، هنا حياض الوضوء (١٥٠) ، وهناك اروقة معقودة تؤمن الاتصال بالمدينة والاسواق (١٥١) ، وهناك ايضا المطاهر (١٥٢) ، وهنالك روضة مشجرة على باب الجامع (١٥٣) ، او حتى كنيسة إلى جنبه ، كما في ارمينية (١٥٤) . لكن لا تعطى عن الجامع صورة عامة حقيقية دون وصف المنارة ، التي تفتخر بها المدينة (١٥٥) والمسجد . فمتى خرجت المنارة عن المألوف ، قيل عنها انها بهية ، بل عجيبة ، محكمة ، مربعة او مستديرة ، من حجر او طين او آجر ، ومطلية بالصفر او مزينة بالفسيفساء (١٥٦) . وعلى رأسها احيانا اعمال من الخشب دقيقة ، منها ما يدور ، مثلما يقال (١٥٧) .

وللجامع احيانا صحنان (١٥٨) بينهما سقيفة (١٥٨) ، قد يزدانان

---

(١٥٠) المقدسي ، ١٢٩ (مياضىء بالكري في العراق خلافا لروح الخدمة العامة أو العمل الصالح . عن بالكرى ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٤٠) .

(١٥١) المقدسي ، ٣٥٩ مثالان) .

(١٥٢) المقدسي ، ١٨٢ (مطاهر : استعمال عام في الشام : على ابواب الجوامع الكبرى وفي الأسواق ، مما يسمح في هذه الحالة فيما يبدو بالغاء معنى حياض الوضوء .

(١٥٣) اشجار مسماة للشبه بالواق واق : المعقدسي ، آخر ٢٧١ ، ٢٩٧ (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٧٩ ، ح٢) هذه الأشجار واقعة في الزيادة (م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٦ Propylaeum templi) .

(١٥٤) المقدسي ، ٣٧٧ .

(١٥٥) انظر ما تقدم ، فصل ٩ ، « بعض التعاريف المقبولة » .

(١٥٦) المقدسي ٩٢ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٨٢ (المناير المربعة خاصة بالشام) ، ١٩٩ ، آخر ٣٠٥ ، ٣١٢ ، آخر ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ . يشار الى الجاحظ(١) ، ورقة ٢٩ : التأثيرات النصرانية في منارة جامع الكوفة.

(١٥٧) المقدسي ، ٤٦٤ قارن بما سيقال فيما بعد عن زخرفة المحراب .

(١٥٨) المقدسي آخر ٤٣١ (صحنان موصولون بثقيفة . عن ثقيقة انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦١) .

بشجرة او اثنتين او ثلاث : عنابة ، تينة ، نخلة ، ليمونة (١٥٩) . وجامع عكا كبير فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة (١٦٠) . وفي الصحن ايضا صهريج (١٦١) ومصلى (١٦٢) . اما الارض فمرصوفة عادة ، ويمكن ان نستخلص هذا الرصف من بعض التدقيقات المعطاة التي يبدو انها تدوّن بعض الغرائب كالفسيفساء (١٦٣) او الحصى (١٦٤)

وتتنوع مواد بناء الجامع ، فتشمل الحجر والطين والآجر ، منفردين او مجتمعين . وتكسى بالجص الرتيب او المزخرف ، او بالخشب المخرم او الرخام (١٦٥) ... والتنوع مماثل في مواد بناء اساطين الجامع فهي من حجارة موصلة او طين او آجر ، وبعضها من خشب او من حجارة سود إلى قامة ، او مبيضة بجص ، مدورة احيانا كما في الشام او فارس ، ومزينة ان امكن ، بزخرفة اضافية ، مثل الساج او التحف الفنية ، كالبقر الموضوع على رأس اساطين احد الجوامع ، الذي ذكروا انه كان في القديم بيت نار (١٦٦) .

---

(١٥٩) المقدسي ، ١٤١ ، آخر ١٦١ ، آخر ٣٥٩ .

(١٦٠) المقدسي ، آخر ١٦٢ .

(١٦١) ابن رستة ، ١١١ .

(١٦٢) المقدسي ، ١٤١ : مسجد معلق على عمود ، قرب اشجار الصحن .

(١٦٣) المقدسي ، ١٧٥ (بالنسبة إلى عمان في الحاشية ي : الفسيفساء في القاعة لا في الصحن) .

(١٦٤) المقدسي ، ١٦١ (طبرية) ١٨٢ (عن الشام : ولا ترى الحصى الا في صحن جامع طبرية) ، ٤٣٨ (مدينة في فارس) .

(١٦٥) المقدسي ، ٣٠٢ (ح د) ، ٣٥٧ ، آخر ٤٣١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٩ واماكن متفرقة . عن باناط (المقدسي ، ١٣٨ ، ٣١٠) ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٨٣ — ١٨٤ : حجر كالرخام لكنه لين .

(١٦٦) المقدسي ، ١١٧ ، ١٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٣١٤ (و ح د من ٣١٣) ، ٣٧٥ ، آخر ٣٨٨ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ (و ح ك) ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٧٩ واماكن متفرقة .

وبيت المال في الجامع ، في صحنه او في قاعة الصلاة الكبيرة . وهذا تقليد اتخذه بنو امية بمصر وغيرها . وهو بناء صغير مرفوع باساطين حجارة ، يصعد اليه بسلم يمكن اخفاؤه (١٦٧) . لكن يتضح ان الانظار تتجه ضمن الجامع إلى المحراب الذي يحدد اتجاه مكة ويثير الاعجاب اذا زين ، كما في صحار في جزيرة العرب ، حيث المحراب بلولب يدور ، تراه مرة اصفر ، وكرة اخضر ، وحينا احمر (١٦٨) . ومن دواعي الاعجاب ايضا المقصورة (١٦٩) ، والمنبر والقبة . باختصار الجامع نطاق الايمان وتعبير جماعي ورسمي عنه . فلنزره في بعض اشهر مبانيه الفخمة .

شهرة الجوامع الكبيرة

يُعَدُّ المقدسي جغرافي الجوامع .فقد فاق سائر الجغرافيين في وصفها ، ودوّن بمزيد من الاهتمام والانتظام موضع بنائها في المدينة وخصائصها ان وجدت ، ولم يجاره احد منهم في هذا المجال . اذن من الطبيعي جدا ان نعود اليه ونسأله عن الجوامع الكبيرة في دار الاسلام . ويبدو جوابه بديهيا . فهو يبدأ بمكة والمدينة ، ويضيف ان العظمة هنا ، في قلب دار الاسلام ، يجب فهمها في جميع الاتجاهات ، اذ تؤخذ بعين الاعتبار سعة الاماكن ، والتردد عليها ، واعتناء

---

(١٦٧) ابن رسته ، ١١٦ (والترجمة ١٣١ ج ١ ، مصر) ، الاصطخري ، ١٠٩ (وابن حوقل ، آخر ٣٣٢ — ٣٣٩ ، الترجمة ٣٣٢ ، ح ٦١٠ . من أجل برذعة في الران : تقليد اموي متبع في مصر وغيرها) ، المقدسي ، آخر ١٥٧ (دمشق) ، ١٨٢ الشام) .

(١٦٨) المقدسي ٩٣ ، انظر أيضاً ابن حوقل،آخر ٤٨٩ (محراب مزين بلا تدقيق).

(١٦٩) المقدسي ، ١٥٩ ، ٣٩٤ (شاهق ورائع) .

المعماريين والمزخرفين بها . لكن لا يستنفد وصف هذين المكانين المقدسين روحانية الجامع . لنأخذ بيت المقدس من بين الاماكن الرفيعة الشأن . فوصف المسجد الاقصى وقبة الصخرة يستغرق حوالي خمسين سطرا في كتاب احسن التقاسيم (١٧٠) ، يقابلها حوالي اربعين لمكة (١٧١) ، وخمسة وثلاثون للمدينة (١٧٢) . ولا شك ان المؤلف ابن بيت المقدس ، الا ان هذا لا يعلل كل شيء . ففي المحال الاخرى ، يجتذبه الجامع ايضا ، ويفتنه ، ويستوقفه طويلا احيانا ، لكي نعلم نحن من مصنفه اين تقع هذه الجوامع الكبيرة التي نفتش عنها .

اذن مكة خطت حول الكعبة . والكعبة في وسط المسجد الحرام . وفيه باب الكعبة ، وتقع عن الارض نحو قامة ، وعليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة قد طليت بالذهب . والحجر الاسود على الركن الشرقي . وفيه بئر زمزم تقابل الباب ، والطواف بينهما . وفيه اثر قدم ابراهيم . وقد فرش الطواف بالرمل والمسجد بالحصى . وادير على صحنه اروقة ثلاثة على اعمدة رخام . وقد البست حيطان الاروقة من الظاهر بالفسيفساء ، حملها اليها صناع الشام ومصر . وترى اسماؤهم عليه . وقد احاط بالطواف اميال من الصفر ، وخشبات فيها قناديل معلقة ، ويجعل فوقها الشمع . ويحتفظ المسجد الحرام من

---

(١٧٠) المقدسي ، ١٦٨ — ١٧١ .

(١٧١) المقدسي ، ٧١ (س١١) — ٧٣ (س ١١) و ٧٤ (س ٣ — ٥) . بضعة اسطر اخرى اذا أضيفت مني وعرفة (المرجع ذاته ، ٧٦ ، ٧٧) .

(١٧٢) المقدسي ، ٨٠ — ٨٢ .

خلال تجميلاته وصدقاته والايمان بالافعال والرموز ، بتقلبات تاريخ البشر لاسيما بثورة عبد الله بن الزبير (١٧٣) .

والمسجد في المدينة ليس بالكبير ، وعلى عمل جامع دمشق . بناه الوليد بن عبد الملك وتبارى الخلفاء من عمر بن الخطاب إلى المهدي بتوسيعه وزيادة الاساطين عليه وتكبير صحنه . وهو مقدس ، فيه اضرحة الرسول وابي بكر وعمر ، ومنبر النبي وسط المغطى . ويعدّ مسجدا استثنائيا ومتميزا على الدوام . وروى ان معاوية الخليفة الاموي امر بحمل المنبر إلى جانب المحراب كسائر المنابر . فلما اخذوا في نقله تزلزت المدينة ، واقبلت الصواعق ، وادركوا فورا انه لا يجوز مس المقدسات ، فترك في مكانه ، وعمل له غلاف في روضة مرخمة .

وقد اشرنا عرضا منذ قليل إلى مسجد دمشق ، بل إلى مسجد الشام على حد قول المقدسي (١٧٤) : فمن رسومهم المنابر المربعة ، وبيت المال في المغطى او الصحن معلق على اعمدة ، وسقوف المغطى المجملة ، والصحن المرصوف — ما عدا طبرية — والابواب بين المغطى والصحن — الا اريحا — والقناديل المعلقة بسلاسل والموقدة على الدوام (١٧٥) . ويشتهر هذا النموذج في جوامع دمشق وبيت المقدس على الاجمال او في احد تفاصيله ، ويعثر عليه ايضا في المدينة ، وفي شيراز او اصطخر في فارس (١٧٦) .

---

(١٧٣) انظر ه . ا . ر . جيب ، م١ (٢) ، ج١ ، ج ٥٦ — ٥٧ .

(١٧٤. المقدسي ، ١٨٢ ، عن بيت المال ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، آخر ١٥٧

(١٧٥) « مثل مكة » .

(١٧٦) المقدسي ، ٤٣٠ (و ح ك) ، ٤٣٦ .

ونود الآن ان نستعرض هذه التفاصيل بدقة . لكن نذكر اولا ان الخليفة الوليد بن عبد الملك جمع لبناء جامع دمشق(١٧٧) حذّاق فارس والهند والمغرب والروم ، ولعله اروع جامع في دار الاسلام . ويسترعي الانتباه فيه حيطانه التي رفعت قواعدها بالحجارة الموجهة وجعل عليها شرف بهية ، وقبته الكبيرة التي على رأسها ترنجة (١٧٨) فوقها رمانة كلاهما ذهب . وله اربعة ابواب تؤدي إلى صحن ، بلط جميعه بالرخام الابيض ، واديرت عليه اروقة باعمدة . وفيه روعة يتميز بها ، تتمثل في الفسيفساء التي تزين حيطانه من الداخل، وترصع الشرافيات وقناطر الاروقة ، وحيطان بيت المال المقام في صحنه على ثمانية اعمدة ، وأحد منابره . ويعبر المقدسي عن اعجابه بهذه الكلمات : « في المذهبة صور اشجار وامصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ... فترى الجدار كله ذهبا يقد » .ويرى الناظر في قاعة الصلاة الكبرى اساطين اعمدة سودا ملسا ، ويجول بطرفه على حيطان الرخام المجزع المذهل ، ويرفع لحظه إلى داخل القبة ، ويبصر المحراب ، فيه وحوله ، فصوص عقيقية وفيروزجية (١٧٩) . لكن الا يكاد البذخ يندد به حتى لو في بناء جامع ؟ هذا السؤال طرحه المقدسي على عمه : يا عم لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون

---

(١٧٧) المقدسي ، ١٥٧ – ١٥٩ (والحواشي) ، الترجمة ، ١٦٨ – ١٧٤ .

(١٧٨) ترنجة ، حرفيا كبادة (عن غموض مفردات الحمضيات ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٤٧ ، ح٢) .

(١٧٩) يوجد أيضاً محراب آخر (المقدسي ، ١٥٨) خاص بالسلطان اصغر وأقل جمالا ، وكان قدتشعث وسطه فرمم حتى عاد الى ما كان .

لكان اصوب وافضل . فاجاب العم : الوليد رأى الشام بلد النصارى وبيعها ، فلم يكن يسعه الا ان يتخذ للمسلمين مسجدا جعله احدى عجائب الدنيا (١٨٠) .

وتنتظرنا فلسطين بعد دمشق . ونبدأ بقصبتها الرملة (١٨١) . فجامعها ابهى وارشق من جامع دمشق ، ويسمى الابيض ، ليس في الاسلام اكبر من محرابه ، ولا يعد منبر بيت المقدس احسن من منبره . وله منارة بهية . وارض المغطى مفروشة بالرخام ، والصحن بالحجارة المؤلفة . وابواب المغطى من الشربين والتنوب مداخلة محفورة حسنة جدا . وقد دفع إلى بنائه الحرص على تثبيت الاسلام حيال النصارى ، الذين اخذت منهم اعمدة رخام كانت مدفونة استعدوها لكنيسة بالعة ، ثم اظهروها بعد تهديدهم بهدم كنيسة اللد (١٨٢) .

وننتقل الآن إلى بيت المقدس « والحرم الشريف » (١٨٣) . واساسه من عمل داود ، وقد بنى عليه عبد الملك المسجد الذي كان احسن من جامع دمشق . لكن جاءت زلزلة (١٨٤) ، فطرحت المغطى ، الا ما حول المحراب . فلما بلغ الخليفة المهدي خبره ، وهو

---

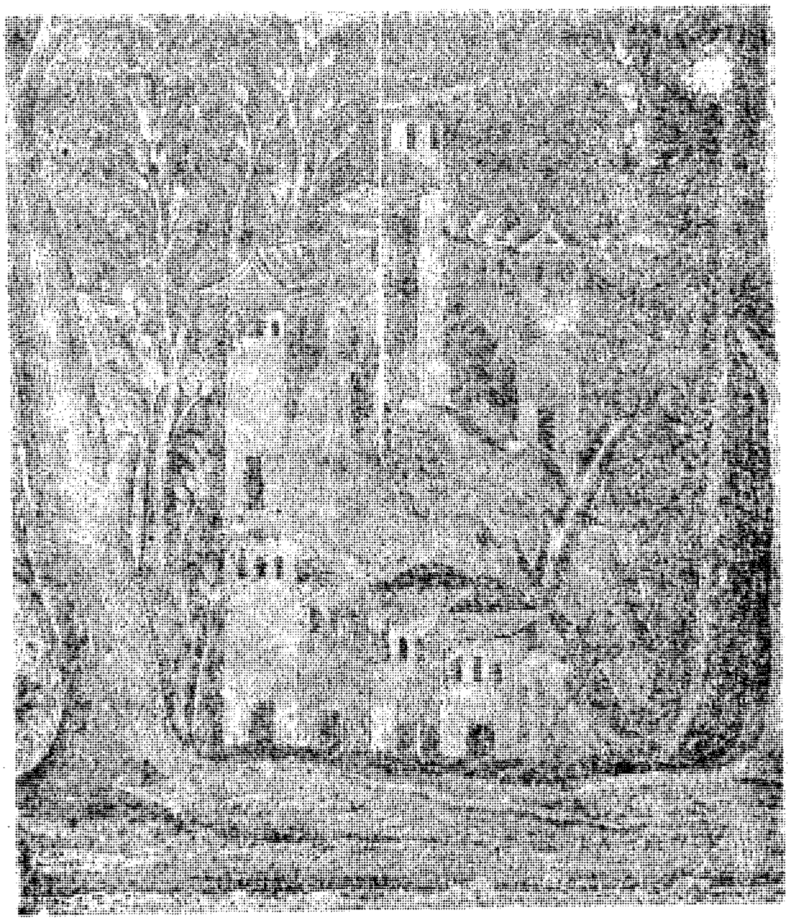
(١٨٠) عن الخصومة المشار اليها وعن عجائب الدنيا ، انظر ما تقدم فصل ١ ،« الاسلام وريث مستقر »،وفصل ٥ ،« القصور وآثار اخرى » .

(١٨١) المقدسي ، ١٦٤ — ١٦٥ .

(١٨٢) اشير اليها من قبل ، فصل ٤ ،« حوالي العام الف » ، في الآخر .

(١٨٣) المقدسي ١٦٣—١٧١ الترجمة ١٩٠-١٩٧ (وح ١٨١ — ٢٠٨) .

(١٨٤) في عهد العباسيين : سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ ، ثم حوالي ١٦٠ هـ / ٧٧٧ ، يقصد المقدسي هذه الزلزلة الأخيرة لما يقال بعد ذلك : حكم الخليفة المهدي من ١٥٨هـ / ٧٧٥م الى ١٦٦هـ / ٧٨٥هـ .



منشورات الفن . البير سكيرا ، ش م . جنيف

الجامع الكبير بدمشق : فسيفساء الحائط الغربي في الصحن

(المصدر : الرسم العربي ' نص ريشار إيتنهاوزن ، جنيف ، البير سكيرا («سكيرا / فلا ماريون ») ، ١٩٧٧) .

(تصوير موريس بابي ، اولتن)

المشار إلى سخائه في توسيع بناء جامع المدينة ، وقيل له ان بيت مال المسلمين لا يفي برده إلى ما كان، امر امراء الاطراف وسائر القواد ان يبني كل واحد منهم رواقا ، فبنيه اوثق واغلظ صناعة مما كان » . مع ذلك بدت هيئته بهية على حد قول المقدسي .

ويدخل إلى المسجد من عشرين بابا . وفي الجنوب ، على وسط المغطى ، جمل عظيم ، خلف قبة حسنة ، ويقع خمسة عشر بابا في جهة الشمال ، واحد عشر بابا نحو المشرق . وبعض الارقام عنه مذهلة . سبع مائة عمود رخام ، اربعة آلاف خشبة في السقوف ، خمسة واربعون الف شقفة رصاص على السطح ، مائة قسط من الزيت (١٨٥) تحرق في قناديله كل شهر ، ثمان مائة الف ذراع من الحصر في كل سنة(١٨٦) . وتتوزع حول المسجد المصليات والمحاريب . وتسمى الابواب باسماء وردت في الاخبار ، تبدأ بابراهيم وتنتهي بآل الرسول . وصحن المسجد كله مبسط وعليه من الشمال والغرب اروقة على اعمدة رخام . وفي وسطه دكة ، وفي الدكة اربع قباب ، اشهرها واكبرها قبة الصخرة ، المسماة مسجد عمر بلا وجه صحة .

وهي على بيت مثمن باربعة أبواب ، في داخله ثلاثة اروقة دائرة على اعمدة معجونة اجل من الرخام واحسن ، لا نظير لها . الا ان ما يسترعي انتباه المقدسي في المسجد هو منطقة متعالية في الهواء فوق

---

(١٨٥) قسط حرفيا اناء . يساوي هذا المكيال نصف ليتر تقريباً . انظر المقدسي، ترجمة ، ١٩٧ ، ح٢٠٧ .

(١٨٦) وظيفته . . . كل سنة ، مقدسي ، ترجمة ١٩٧ ، اي ما يعادل ٤٠٠ كم وهذا مبالغ فيه حقيقة .

قناطر مدورة ، فيها طيقان كبار ، والقبة الواقعة فوق هذه المنطقة ، التي يبلغ طولها من القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع . والقبة ثلاث سافات ، الاولى من الواح مزوقة والثانية من اعمدة حديد ثم الثالثة من خشب . والقبة ملبسة من الخارج بالصفر المذهب : « فاذا بزغت الشمس عليها ، اشرقت القبة ، وتلألات المنطقة ، ورأيت شيئا عجيبا . وعلى الجملة لم أرَ في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة » . والاستنتاج المتوقع ، شبيه بما مر في جامع دمشق وجامع الرملة — وان لم يُصَغْ مباشرة بصراحة : هو ان جامع الشام من بين كل الجوامع سبق في تثبيت الاسلام الفنّي في اراضيه الجديدة (١٨٧) على افضل وجه .

وهكذا نحصل في تاريخ الجوامع واهميتها ، على نوع من الظهرة او خط الذرى ، بين مكة ودمشق مع المرور بالمدينة وبيت المقدس . اما في الغرب ، في مصر ، وبدقة في الفسطاط ، فيتوارى الوصف السريع وراء ظاهرة اخرى ، هي كثرة الجوامع المرتبطة بظاهرة المدينة الكبيرة : ففيها سبعة جوامع كبرى ، كما قلنا (١٨٨) ، لا تدخل في حسابها المساجد الصغيرة . ومع الاستمرار في الاتجاه إلى الغرب ، يتحدث المقدسي سماعاً عن الجوامع ، ويذكر جامع

---

(١٨٧) انظر استنتاجات او . غرابر في م١ (٢) ، ج٥ ، ٢٩٧ — ٢٩٩

(١٨٨) انظر ما تقدم فصل ٩ ، حاشية ١٠٣ . عن جوامع الفسطاط ، انظر المقدسي ، ١٩٩ — ٢٠٠ .

القيروان في الفسطاط الكبير . وهو احد اكبر الجوامع في دار الاسلام (١٨٩) . . .

وباتجاه الشرق ، نلقى مدينة سامراء (١٩٠) ، وان كان جامعها الكبير قد خرب مثلما خربت باجمعها وآثاره رائعة حقا . منها حيطان لبست بالمينا ، واساطين رخام ، ومنارة طويلة شهيرة (١٩١) . ونقف بعدها في شيراز التي يقال ان جامعها لا نظير له في الاقاليم العجمية الثمانية في دار الاسلام (١٩٢) . ونمكث ايضا فترة اطول قليلا في نيسابور (١٩٣) . فالجامع فيها ست قطع ، ومسجد المنبر على سواري خشب وآجر ، وسطه بيت صغير مزخرف ، له احد عشر بابا على اعمدة رخام مجزّع سقفه سدّلا (١٩٤) .

وهكذا ننتهي من زيارة اكبر الجوامع في دار الاسلام . وقد برزت في زيارتنا ، الح على هذه الناحية . جزيرة العرب والشام اللتان لعبت الاولى منهما دور النموذج الرمزي والثانية دور النموذج المعماري . وسواء وقع الجامع في غرب دار الاسلام او في وسطها او

---

(١٨٩) المقدسي ، ٢٢٥ . الجامع اكبر من جامع ابن طولون وجامع ابن طولون اوسع من جامع عمر في الفسطاط أيضاً ، وجامع عمر اوسع من جامع دمشق (المقدسي ١٩٩) . ولا يقول المقدسي شيئاً أو يكاد عن جامع قرطبة (المقدسي ، ٢٣٣) ، وكذالك ابن حوقل (ابن حوقل ، ١١٣) الذي لا يذكر جامع القيروان في حين يؤكد على مسجد الجامع الأكبر في بالرمو (ابن حوقل ، ١١٨ ، ١٢٠) .

(١٩٠) المقدسي ، ١٢٢ — ١٢٣ .

(١٩١) دون الاشارة الى الدرج الحلزوني الذي يصعد الى اعلى المنارة .

(١٩٢) المقدسي ، ٤٣٠ .

(١٩٣) المقدسي ، ٣١٦ (و ح ك) .

(١٩٤) عن سدلا ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٩ : ثلاث شقق أو طوابق .

في شرقها ، فهو يظل دائما علامة رئيسة في مشهدها : لا في المدينة وحدها . فالمسجد الصغير في القرية ، او المصلى البسيط في قلب الريف ، يذكر ان الحضارة كاملة ويمثلان طابعا لها على الداوم . لذلك يدوّن المقدسي الجوامع في صفحاته باشكالها وتفاصيلها والاماكن التي اختارتها . والجامع الكبير يبرز قليلا في خلفية الوصف العام ، لكنه لا ينفرد في تفخيم الاسلام ، وكل ما في الامر ان وضعه يرتبط باهمية المدينة وشهرتها . وفي هذه الحالة ، وفيها بدقة ، يتخذ مكانه الطبيعي في وصف المشهد المديني : ولا ننسى دور المسجد ووجوده في صميم الارياف . وندرك ان اجمل الاسماء يطلق على المسجد في المدينة وحدها وفي المدينة الكبرى بالذات . فهو مسجد في الريف او القرية او الحي ، ويصبح جامعا في قلب المدينة التي يحتشد اهلها في ايام التجمع (الجمع) في المكان السامي المقصود لاداء الصلاة الجماعية ، والمخصص للمسلمين الملتئم شملهم : في الجامع .

المدينة ومرافقها

عندما حاولنا (١٩٥) تعريف المدينة ،أبنّا تلك المرافق التي يستحيل وجود المدينة بدونها : مثل تجمع كل الهيئات الحرفية بلا ريب ، ومثل الابنية والاماكن العامة الاخرى ايضا . وقد اكدنا كثيرا على دور السلطة في تعريف المدينة ذاتها ، فلا يجوز الآن ان نتحاشى ذكر البناء الذي تقوم فيه السلطة ، نعني دار الامارة (١٩٦) . ويشار إلى هذه

---

(١٩٥) ما تقدم فصل ٩ ، « بعض التعاريف المقبولة » .

(١٩٦) دار الامارة ، دار السلطان ، دار الملك ، دار الخليفة (بغداد : المقدسي ز ، ١٢٠) ، دار الأمير (المرجع ذاته) .

الدار تارة في نطاق المدينة بلا تدقيق اضافي (١٩٧) ، وطورا معزولة في الرحبة (١٩٨) ، على شط نهر او قنطرة (١٩٩) ، واحيانا على ظهر مسجد (٢٠٠) او في القهندز (٢٠١) او في الربض بعيدا عن المدينة (٢٠٢) . وفي دار الامارة الديوان ، والخزائن وبيت المال وربما السجن وحمام الامراء (٢٠٣) . وتارة يطلق عليها اسم خاص(٢٠٤) او تنعت بصفة (٢٠٥) ، ويندر ان يذكر ما تحويه بدقة (٢٠٦) ، ما عدا دار الامارة في شيراز التي زارها المقدسي (٢٠٧) : فالعارف يستدل بها على نعمة الجنة ، فقد احيطت بالبساتين ، ونصب عليها القباب ، وحفر فيها الحياض ، وبنيت الاروقة ، وخرقت فيها الأنهار وفيها ثلاث مائة وستون حجرة ، مختلفة ومؤثثة بفاخر الاثاث ،

(١٩٧) ابن الفقيه ، ٣٠٤ ، المقدسي ، ٢٣١ ، ٢٨٧ .

(١٩٨) ابن الفقيه ، ١٨٨ ، ابن حوقل ، ٤٣١ .

(١٩٩) ابن حوقل ، آخر ٥٠٢ – ٥٠٣ ، المقدسي ، آخر ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٢٠٠) ابن حوقل آخر ٤٣٤ – ٤٣٥ ، المقدسي ، ٨٦ ، ١٥٩ (ومن الخضراء وهي دار السلطان ابواب الى المقصورة) ، ٤٢٦ .

(٢٠١) المقدسي ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ .

(٢٠٢) ابن حوقل ، ٤٣٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، المقدسي ، ٢٣٣ .

(٢٠٣) ابن الفقيه ، ١٨٨ ، المقدسي ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤٤٩ .

(٢٠٤) الخضراء دار الامارة الأموية في دمشق ، المقدسي ، ١٥٩ ، ترجمة ١٧٢ – ١٧٣ ، ح ١١٥ و ١٢٠ . انظر أيضاً دار البطيخ في الري (الملاحظة ذاتها) ، المقدسي ، آخر ٣٩١ ، ودار الشط (في الفسطاط ، الملاحظة ذاتها)، المقدسي ، ١٩٩ دار عبد العزيز بن مروان في الفسطاط (ابن حوقل، ١٤٦ : تسمى أيضاً باسم الحاكم الأموي المقيم فيها) .

(٢٠٥) الا ترى لملك مثلها : المقدسي ، ٤٣٠ (و ح ك) .

(٢٠٦) ودار الامارة متقابلة كثيرة القصور المقدسي ، ٤٢٦ .

(٢٠٧ المقدسي ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (ح ب) .

ومزخرفة ، ومبردة ، وكان السلطان يجلس كل يوم في حجرة إلى الحول .

لكن للسلطة وجوه اخرى ، اقصد وجوه القمع . ففي هذا المشهد الخاص ، اشير إلى المشانق (٢٠٨) ، وبخاصة إلى السجن (٢٠٩) قرب الجامع مباشرة ، او قرب دار السطان او القلعة ، او ضمن دار الامارة او الحصن . واكاد اقول ان هذا مشهد ، والحقيقة ان الوصف يختفي وراء الاسم وكأنه يكفي إلى حد كبير . وتستثنى الري من ذلك : فابو دلف مسعر يتحدث عن سجن واسع ورهيب فيها ، من طين ، قاس جدا ، حتى ان لا احد من المساجين استطاع ان يخترق حيطانه ليهرب . من ناحية اخرى ، احيط بناء السجن بخندق عميق مملوء بالمياه ، وبغيل عريض من القصب ....

وتعبر اماكن وابنية اخرى عن حياة خفية في مدينة كاملة تحت الارض احيانا ، كما في مكامن ومخابىء همذان (٢١٠) ، وتحكي في الاغلب بمزيد من الابتذال عن ضآلة ضرورات الحياة اليومية وصعوباتها ونهايتها . وقطعا تعد فضلات المدينة الكبيرة ونفاياتها مبتذلة . فالكناسة على طرف البادية ، الا ان توسع المدينة يجتاحها احيانا ويطغى عليها ، حتى ان هذا اللفظ اصبح يعني في الكوفة حي السنة دون الشيعة (**٢١١**) .

---

(٢٠٨) اليعقوبي ، ٢٦٢ .

(٢٠) اليعقوبي ، ٢٤٨ واماكن مفرقة ، ابن فقه ، ١٨٨ ، مسعر (ب) ٣١ ابن حوقل ، ٤١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٨ ، ٤٩٢ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، المقدسي ، ٣٠٥ .

(٢١٠) المقدسي ٣٤٣ .

(٢١١) **اليعقوبي** ، ٢٤٤ ، المقدسي ، ١١٧ ، ١٢٦ .

واهم من ذلك دار الغرباء او الضيوف الرسميين ، كما في شيراز ونيسابور (٢١٢) ، والمؤسسات الخيرية (٢١٣) كالملجأ والضيافة الدائمة التي فيها طباخ وخباز وخدام مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء والمسافرين ، او البيمارستان الحقيقي ، كما في اصبهان وشيراز ، الذي به آلات حسنة واطباء حذاق . اخيرا تذكر المقابر على اطراف المدينة او على الجبل المشرف عليها ، او على ضفة النهر المقابلة لها ، واحيانا في وسطها (٢١٤) . وتستحق الذكر المقابر العالية، بقبابها العجيبة ، في بعض بلدان فارس(٢١٥) . وعلى صبيحة من الفسطاط مقابر القرافة في غاية الحسن والعمارة (٢١٦) .

---

(٢١٢) المقدسي، ٤٣٠ (عن شبستان، انظر م ج ع، ج ٤ ، ٢٧٠ : Xenodochium)
يبدو هذا البناء مختلفاً جداً عن الفنادق والخانات العادية: فقد جاء في النص ، لمدح شيراز، ان: لها شبستان شبيها بشبستان نيسابور ، يسمى دار قرى. ويمكن أيضاً التفكير بمؤسسة خيرية، اذا افترضنا انه يستعمل تسمية محلية (مطبقاً على هذا النحو نهجا اعلن عنه عند المقدسي، ٢٤ ، ٣٢، لكن لم يتقيد به دوماً)، لأن المقدسي يستخدم للمؤسسات الخيرية لفظي بيمارستان أو ضيافة : انظر ما يلي ح ٢١٣ .

(٢١٣) ابن حوقل ، ٤١٥ ، آخر ٤٥٤ ، المقدسي ، ١٢٠ ، آخر ١٧٢ — ١٧٣ (و ح د : معلن دون تعيين مكان ، المرجع ذاته ، آخر ٤٤ . عن ضيافة ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٨٦ : دار الضيافة) ، ٣٥٩ ، ٤٣٠ (و ح ك) . انظر د . م . د نلوب و ج.س . كولن ، بيمارستان ، م١ (٢) ، ج١ ، ١٢٥٩ — ١٢٦١ وما تقدم ، فصل ٤ ، ص ٨٥ (دير) .

(٢١٤) اليعقوبي ، ٢٤٤ ، الاصطخري ، ٤٤٨ ، ابن حوقل ، ٤٣٢ ، المقدسي، ١٦١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ (وثم موضع قد نضدد فيه موتى الكفار بعض على بعض ، ومقابر المسلمين وسط البلد (تنيس) : انظر ما تقدم ، فصل ٥ ، ح ٤٢) ، ٢٠٩ ، ٣٥٨ ، ٤٠٩

(٢١٥) المقدسي ، ٤٣٨ (ح ق) : منطقة بين فارس وكرمان .

(٢١٦) المقدسي ، ١٩٩ (ح ا ف) ، ٢٠٩ . وعلى النقيض ، في المقابر مجتمع الفساق : المقدسي ، ٤٢٩ .

ترى البلد غبراء ، والمقابر بيضاء ، وفيها جامع حسن وموضع بجلوة وسوق لطلاب الآخرة وعيون ، وقبور بعض الاولياء المسلمين .

بقي ان نتحدث عن المتنزهات والمستجمات . فقد يتخذ ميدان الجامع ، كما رأينا ، اشكالا اخرى ، ويصبح عندئذ مصلى او فناءا واسعا مخصصا للاعياد الاسلامية الرئيسة في المدينة او الربض او حقل النخيل المجاور (٢١٧) . ويصير متنزها (٢١٨) في امكنة اخرى ، او حتى حديقة حيوان، كما في سر من رأى، حيث يشاهد الوحش من الظباء وحمر الوحش والايايل والارانب والنعام (٢١٩) . الا ان افضل مكان راحة ، ولو كان مقتصرا على المثقفين ، الذين يفتخر المقدسي بكونه واحدا منهم ، هو خزانة الكتب (الخزانة ، دار الكتب) (٢٢٠) . ويشير كتابه احسن التقاسيم (٢٢١) إلى وجود

---

(٢١٧) ابن حوقل ، ٤٣٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ، المقدسي ، ٩٢ ، ٢٠٠ ، ٤١٣ .

(٢١٨) المقدسي ، ٢٠٠ (ومتنزه أمير المؤمنين عند الخليج بموضع يسمى المختارة) .

(٢١٩) اليعقوبي ، ٢٦٣ .

(٢٢٠) ضمير « لا يدخلها » يمكن ان يعود الى دار علي بن بويه بكاملها لكن هذا التأويل يتناقض مع قيل ص ٤٤٩ ، س ٦ . عن دور الكتب ، انظر ي . إيش ، خزائن الكتب العربية العامة ونصف العامة في الجزيرة والشام ومصر في القرون الوسطى ، دمشق ١٩٦٧ .

(٢٢١) عامة أو خاصة : المقدسي ، ٣ ، ٤ (ح ل) ، ٥ (و ح١) ، ٦ (ح١) ، ١٠ (خزانة«أمير خراسان» ، أي الملك الساماني : انظر ح ٢٢٢) ، ٣٩ ، ١٣٣ ، ١٣٣ ، ١٥٥ (خلب : خزائن ، بيت مال ، محفوظات ، مكتبة ، انظر الاستشهاد اللاحق) ، آخر ١٥٩ (ووجدت في كتاب في خزائن عضد الدولة) ، آخر ٢٥٨ ، ٣٩١ (عن احدوثة ، «رائع» ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٣) ، ٤١٣ ، في ص ٤٤٩ و ٤٥٠ يستعمل جمع خزائن بمعنى«حجيرات مكتبة» : انظر ما يلي عن خزانة كتب شيراز . انظر أيضاً ابن حوقل ، ٤٤١ .

خزائن في نيسابور ، وبخارى (٢٢٢) ، وحلب ، والبصرة ، ورامهرمز ، والري وشيراز . ويصف دار كتب شيراز بافتتان ويقول عنها : وخزانة الكتب حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد (٢٢٣) . ولم يبق كتاب صنف إلى وقته بانواع العلوم كلها ، الا وحصله فيها . وهي ازج طويل في صفة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه . وقد الصق إلى جميع حيطان الازج والخزائن بيوتا (٢٢٤) من الخشب المزوق ، عليها ابواب تنحدر من فوق . والدفاتر منضدة على الرقوق لكل نوع بيوت ، وفهارس فيها اسامي الكتب .

وقد اشرفت نزهتنا على الانتهاء . ونختمها بالمتعة المقترنة بواجب في الحديث عن احد الابنية الضرورية جدا في مشهد المدينة أي الحمامات (٢٢٥) . مرة اخرى ايضا ، يتضح ان المقدسي يوليها مزيدا من الاهتمام بانتظام فريد دون سائر الجغرافيين العرب . لنتبعه اذن حتى الحمام في المدينة بلا تدقيق موضع (٢٢٦) ، واحيانا في الربض ايضا (٢٢٧) . وقبل الدخول اليه يخبرنا ان الحمام نظيف(٢٢٨)

---

(٢٢٢) خزانة «ملك المشرق» التي يتحدث عنها المقدسي ،٦٦ (ح ١) يقصد الملك الساماني ومقره في بخارى (ابن حوقل ، ٤٨٢ ، المقدسي ، ٢٨٠) .

(٢٢٣) عدول المفرد عدل لعله شخص مكلف على وجه الدقة بتنفيذ الاجراءات عند كتاب العدل أو القضاة : انظر ا . تيان م١(٢) ، ج١ ، ٢١٥ – ٢١٦ . تزيد النسخ المختلفة ، المقدسي ، ٤٥٠ (ح ب) ، البوابين الى موظفي خزانة الكتب ، وتؤكد ان الحجرة تقفل بالمفتاح .

(٢٢٤) « طولها قامة في عرض ثلاثة اذرع » (حوالي ٥ ، ١ م) .

(٢٢٥) عنها ، انظر ج . سورديل – تومين ، م١ (٢) ، ج٣ ، ١٤٢ – ١٤٧ .

(٢٢٦) استثناء : المقدسي ، ٤٦٥ ، مع تسمية اسم الشارع .

(٢٢٧) المقدسي ، ٨٤ ، ٣١٢ (انظر ابن حوقل ، ٣٣٩) .

(٢٢٨) المقدسي ٨٤ .

وحسن وجيد ، لا مثيل له (٢٢٩) ، او على النقيض ،وسخ (٢٣٠) ، رديء(٢٣١) ووضر(٢٣٢) . وتخرج بعض الحمامات على الاعراف عندما يحرسها النساء ويدخلها الناس بلا ميازر (٢٣٣) . ويبدو بعضها ممتازا بسبب او آخر . ففي فارس مثلا البيت الداخل من الحمام لا يمكن فيه المكث من الحر (٢٣٤) . وفي الرملة ، في الحمام ديوان ، ويدور في الدولاب خدام (٢٣٥) . اخيرا في طبرية ، الحمامات الثمانية تستغني كلها تقريبا عن الوقيد . فهنا كما في تفليس يأتي الماء الساخن من باطن الارض ويكفي بخاره (٢٣٦) .

المدينة كيان

لا ريب ان المدينة تفرض نفسها على العين وعلى القلم . فمشهدها ،

---

(٢٢٩) المقدسي ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٨٩ ، ٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ (ح١) ، ٤٠٧ ، آخر ٤٦٣ ، ٤٦٥ .

(٢٣٠) المقدسي ، ٢٠١ .

(٢٣١) المقدسي ، ٨٥ ، ٣١٩ .

(٢٣٢) المقدسي ، ٨٦ ، ٣١٥ ، ٤٣٨ .

(٢٣٣) المقدسي ، ٣٩٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ (و ح ز) : النطاق الفارسي (الجبال ، خوزستان وفارس) . هذا المئزر فوطة مربوطة حول الخصر : انظر سورديل تومين ، مشار اليه .

(٢٣٤) المقدسي ، ٤٤٠ (فارق مشار اليه حول هذه النقطة بين فارس وفلسطين) .

(٢٣٥) المقدسي ، آخر ١٦٤ – ١٦٥ . الاستشهاد مأخوذ من مقطع خاص بمثالب المدينة (الرملة) : فالدولاب يحركه عادة حيوان أهلي . يشار أيضاً الى«الديوان»الذي يبدو انه يدل على اسعار ثابتة ومحاسبة نظامية : والحمام مريح بلا شك ويدر امتيازه واردات ثابتة ، لكنه مؤسسة خيرية وكل من يدخله يجب عليه ان يدفع أفضل ما يستطيع دفعه، لا ان يؤدي رسما : على الأقل هذا ما يوحي به المقدسي . انظر أيضاً في نفس الذهنية، ما تقدم، حاشية ١٥٠ .

(٢٣٦) المقدسي ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٣٨٠ .

واحاطتها بالاسوار ، وابنيتها وفي طليعتها جامعها ، ومشاهير رجالها او محاصيلها الهامة ، وممارستها السلطة على ما حولها على مسافة قريبة او بعيدة ، كل ذلك يسهم في جعلها معلما من معالم الحضارة . ولا ننسى مابينها وبين المدن المجاورة لها من فوارق قد تؤدي إلى ظهور خصومة مكشوفة (٢٣٧) . وقد الح كلود كاهين في دراسة عميقة على بعض عناصر نشيطة من سكان المدن من دائمي الحركة ومثيري الاضطراب بلا ريب ، وان كانوا دعامة صريحة ومقبولة بصورة متفاوتة في المطالبة بالاستقلال الذاتي عن السلطة المركزية خاصة (٢٣٨) . ويطبق الجغرافيون العرب اسم العيارين على هذه العناصر ، ويندون بها طبعا ، ويستغربون ، متى سنحت لهم الفرصة افلاتهم من نيل جزاء آثامهم (٢٣٩) ، لكن لا يسعهم الا ان يشيروا الى وجودهم وإلى دورهم في اثبات هوية محلية .

بقي ان نقول ان الحياة النشيطة جدا في المدينة تبدو في النهاية مضطربة إلى اقصى حد ، ومشوشة ، بل مدمرة . ويعتبر المقدسي ان البلدان التي تنعم بالسلام المدني (٢٤٠) تمثل حالات استثنائية ، وان الوضع العام ميال كثيرا جدا إلى الفوضى والانتفاضات ، حتى ان هذه التوترات الاجتماعية تعد في الغالب في رأي المقدسي نفسه ، عنوانا

---

(٢٣٧) المقدسي ، ٣٧١ ، ٤١٧ .

(٢٣٨) ك . كاهين ، «الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي المديني في آسية المسلمة في القرون الوسطى» ، ارابيكا ، ٥ روماني ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢٦ — ٢٥٠ و ٦ روماني ، ١٩٥٩ ، ص ٢٣٣ — ٢٦٠ .

(٢٣٩) المقدسي ، ١٣٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٤٦٣ (عن طارق ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٨٩) .

(٢٤٠) المقدسي ، ٢٢٥ — ٤٨١ .

حتميا في وصف الأقاليم والمدن ، يرسم بالفاظ عصبيات ، حروب ، عداوات ، عنف وحشي لم يسمع بمثله « على المذهب او الاسباب الاخرى » (٢٤١) . اذن عصبيات بين اتباع هذا المذهب او ذاك(٢٤٢) او بين اتباع المذهب الواحد (٢٤٣) ، او بين اصحاب المهن (٢٤٤) ، او بين الاحياء (٢٤٥) او بين القبائل (٢٤٦) او بين الاتنيات (٢٤٧) . وقد تقع تداخلات ، كما حدث في مكة بين الخياطين وهم شيعة وبين الجزارين وهم سنة (٢٤٨) ، وكما حصل في البصرة بين الشيعة والسنة ودخل فيها اهل الرساتيق (٢٤٩) .

وهل يصدق المقدسي نفسه ما يسمعه؛ وهل يعتقد ان احدا لم يشرب من ماء قويق الا تعصب(٢٥٠). مهما يكن، يؤكد على ان المجابهات داخلية صرفة . ولا تنقص صيغ التعبير : فالفتن تعمي القلب والعصبية تجرح الصدر . واهل الرساتيق خير من اهل القصبة، تراهم سباعا وفي غيرها نعاجا وهم في ذاتهم عقارب يطعن بعضهم بعضا في القصائد ،

(٢٤١) على المذهب، على غير المذهب ، عصبيات ، حروب ، عداوات ، تنعت أحيانا بـ وحش أو عجيب : المقدسي ، ١٠٢ ، آخر ١٢٩ — ١٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ ، ٣٧١ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤١٧ واماكن متفرقة .

(٢٤٢) المقدسي ، ١٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٧

(٢٤٣) المقدسي ، ٢٠٠ .

(٢٤٤) المقدسي ، ١٠٢ .

(٢٤٥) المقدسي ، ٣٣٦ .

(٢٤٦) المقدسي ، ١٣٠ .

(٢٤٧) المقدسي ، ١٠٢ .

(٢٤٨) المرجع ذاته (وبين هؤلاء الجزارين والبدو في اليمامة المرجع ذاته) .

(٢٤٩) المقدسي ، ١٣٠ .

(٢٥٠) المقدسي ، ٣٣٦ .

ويقتلون بعضهم بعضا (٢٥١) . ويقولون للغريب القادم إلى مدن جزيرة العرب : « كن مع أيّنا شئت ، وإلاّ فاخرج » (٢٥٢) .

فماذا نستنتج ؟ ايجب ان نلح على قوة المدينة ورغبتها بالاستقلال الذاتي ، ام على تمزقها الداخلي ؟ سوف يتردد التاريخ بعد العام الف ، ويقدم للغزاة الجدد من اتراك ومغول ، بلدانا منقسمة على نفسها ، يسهل فتحها . وسوف يمحي فعلا من الخريطة بعض المدن او يحولها إلى قرى ، لكنه سيبقي اقواها واشدّها تماسكا وحذرا على الارجح . ويتوقع ان يكون الثمن احتجاب طويل احيانا . لنتأمل مرة اخرى مصير بغداد النموذجي . فقد كانت شاهدا رائعا على حضارة حددها كثيرون من خلالها . واذا بها في آخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، تستعد استعدادا سيئا لمجابهة الاضطرابات المنتظرة في دار الاسلام . لابأس، مصيرها مجهول . مع ذلك حملت ما استطاعت من مقومات قوتها من تجارة وانتاج وثقافة وسلطة ، وهذه كلها وسائل نجاح في الايام العصيبة المقبلة ، او في اسوأ الاحتمالات ، وسائل ترك ذكرى عظيمة تسمح لها بالبقاء او بالنهوض من كبوتها اذا ساعدها الحظ .

* * *

(٢٥١) المقدسي ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ .

(٢٥٢) المقدسي ، ١٠٢ .

القسم الثالث

البشر والحياة

الفصل الحادي عشر

البشر جسديًا وأخلاقيًا

وصلنا إلى القسم الاخير من الكتاب ، بعد استعراضنا اوصاف مملكة الاسلام العامة . ولم يبق علينا الا ان نتعرف على حياتها اليومية ونوعيتها . ونكتشف سكانها ، لا من زاوية صنعهم التاريخ او بنائهم الاقتصاد ، بل باعتبارهم كائنات حية من لحم ودم ، تتغذى وتكد وتلهو وتتكلم ... ونتسائل لاول وهلة عن جبلتهم . وندرك ان التأمل في تكوينهم وتصرفاتهم وجداراتهم لا يمكن ان يعزل مسلم العام الف عن اقرانه على سطح الكرة الارضية . هذا هو النهج العام المتبع ، بذهنية الادب ، في الموسوعات والمختارات التي استقت منها الجغرافية الاولى بعض موضوعاتها وصيغها (١) . وسنبدأ بها دون ان نتوقف طويلا عندها . فهي تهم البشر في الدنيا كلها ، لا سكان مملكة الاسلام وحدهم ، وهذه ناحية يجب التأكيد عليها . وسوف نفتش عن هؤلاء

(١) احيل الى جغراخية دار الاسلام ، ج١ (الفصل ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦) لدراسة هذه المصنفات ، والى ج٢ ، اماكن متفرقة لدراسة طبائع شتى الشعوب ' والى ج٣ ، . و ج٢ ، فصل ١ و ٢ . من اجل علاقات الانسان بوسطه . فالتفصيلات المعطاة من قبل تدفعنا الى عدم التوقف طويلا جداً عند هذه المصنفات ، واحدها مشروح فيما يلي .

البشر ، مرة اخرى ، في تصانيف جغرافي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الذين يعتمدون على تجربتهم الشخصية في حديثهم لنا عن الخصائص الجسدية او الصفات الاخلاقية التي يتميز بها سكان دار الاسلام . ولا يمكننا في هذه الظروف ان نهمل كليا المصنفات الاولى ، لأن المقدسي وابن حوقل يثابران على السير في اتجاه درس حفظوه على ضوء تجربتهم الميدانية ، عندما يتكلمون بطريقتهم الخاصة امام الناس .

مما يتكون البشر

يستشهد الموسوعيون وأصحاب المختارات بالآيات القرآنية ، او يستندون اليها ليأمنوا النقد (٢) . لكنهم لا يفوتهم ان يعرضوا كل ما قيل عن سر الحياة عند الاغارقة وعند عرب الجاهلية . اذن المدينا من جهة مذاهب العرب في الجاهلية (٣) في النفوس . فمنهم من زعم ان الروح هي الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، وان النفس هي الدم لا غير . وزعمت طائفة منهم ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فاذا مات او قتل ، لم يزل مطيفا به ، يصرخ على قبره مستوحشا .

وترد قضية الحمل بدقة في القرآن الكريم : فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفه ثم من علقة (٤)

---

(٢) انظر مثلا المسعودي (م) فقرة ١٣٢٠ – ١٣٢٣ (عرض النظريات اليونانية) ، ١٣٢٤ (تذكير بالآيات القرآنية المتعلقة باصل الحياة) .

(٣) مثال المسعودي (م) فقرة ١١٩٠ – ١١٩٥ .

(٤) المسعودي (م) فقرة ١٣٢٤ . تحيل الى القرآن ٣ ، ٤ / ٦ ، ٢٢ ، ٥ ، ٣٣ ، ١٤ ، ٤٩ ، ١٢ .

لكن في هذا المجال ، نتمسك باليونان بالدرجة الأولى ، ونتوسّع بأموالهم ، كما ألمحنا من قبل ، وفي المقام الأول ، بأصل الأصول ، نقصد الحبّ ، الذي تنمّيه عوامل عديدة ، منها قرانات الكواكب وتبدلات الأمزجة ، ويرتكز على المبدأ التالي : حبا الله كل روح شكلاً مستديراً على صورة الكرة السماوية . ثم قسّمه إلى نصفين ، يؤلف كل نصف منها جزءاً مختلفاً ، يوحّدهما الحب من جديد في وقت لاحق (٥)

ومنذ تلك اللحظة، يشرف كائن حيّ جديد على رؤية النور ، وهو مكوّن ، مثل جميع الكائنات الحية الّتي سبقته من اربعة أمزجة أساسية : الدم والصفراء والسوداء والبلغم ، يشترط توازنها صحة البدن (٦) . لكن مرة أخرى ، ينحصر السرّ العظيم في ما يحدث قبل الولادة . وهذا مايشرحه بوضوح مصنّف مثل ابن عبد ربّه ، حيث يقول : فما دام الطمث يتوقف عند المرأة الحامل ، فلا بدّ أن يذهب دمها إلى مكان ما ، هو حتماً الجنين الذي يغذّيه الحبل السري (٧) أما المسعودي (٨) فارصن— ولا أجروء ان أقول انه أكثر اطلاعاً — فيقابل تصور ارسطوطاليس بتصور جالينوس . ويقول صاحب المنطق ان المني بمنزلة الفاعل ، وان

---

(٥) المسعودي (م) ج٦ ، ٣٧٦ – ٣٨٦ .

(٦) ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٢٢٩ .

(٧) العقد ، ج٦ ، ٢٣٢ .ذكر هذا الدور الحيوي للسرة في عجائب الهند ، فقرة ١٢١ : عندما تنتزع ، يموت الانسان .

(٨) المسعودي (م) فقرة ١٣٢٠ – ١٣٢٣ .

الجنين يتصور في دم الطمث من المني والمني يعطي الدم حياة وحركة. وذكر جالينوس ، الذي يفضله المسعودي ، في كتابه عن بقراط أن «مقام المني مقام الفاعل والمفعول في تصور الجنين » . وان الجنين يكون من المني . ويجذب إليه دم الطمث والروح والريح من العروق والشريانات. وحكى جالينوس عن انبدقلس ان اجزاء الولد منقسمة في مني الذكر والأنثى ، وان شهوة الجماع تسوق هذه الأجزاء إلى الالتئام . ومهما كانت أصول الجنين ، فهو ينمو في وقت لاحق كالنبات . وكما ينبت سوق من بزر النبات ، ومن السوق أغصان كبار ، ثم من هذه الأغصان أغصان أخرى . تتفرع أولاً حتى تنتهي إلى الأقاصي ، نظير ذلك يوجد في الجنين ، حول ثلاثة محاور رئيسة هي الشريان الأعظم والعرق الأجوف والنخاع .

ويبعدّ موضوع الحياة واسعا جدا بعيد الغور ، اضافة إلى آليتها وعجزها (٩) ، وحالاتها الانتقالية ، كالنوم (١٠) ، واشخاصها الغامضين ، كالخصيان والخلاسيين (١١) ، وذوي العاهات او المشوهين ، والاجسام الناقصة او المديزة ، وحاملي القوى الخيرة او

---

(٩) انظر مثلا المسعودي (م) ، فقرة ٩٨٨ (علاقة الجسم بالوطن) ، ١٣٢٦ (تأثير القمر في الأمراض)، ١٣٥٨ (الهضم) ، ١٣٦٨ (أسس الطب وتطبيقاته : انظر أيضاً ٢٨٥٧ وما يليها) ، ج٧ ، ١٨٠ – ١٨١ (الاسنان) .

(١٠) انظر المسعودي (م) ، فقرة ١٢٤٢ – ١٢٤٦ ، عن النوم في القرآن ، انظر ا . ميكيل ، اعادة قراءة القرآن : حول الجذر نوم ، دراسات اسلامية ، ٤٨ . روماني ، ١٩٧٨ ، ص ٥ – ٤٣ .

(١١) اهتم بهم الجاحظ في كتاب الحيوان ، اماكن متفرقة : انظر أيضاً البيهقي ، محاسن ، ١٠٦ – ١٠٧ ، والمسعودي (م) ، ج٧ ، ١٤٩ – ١٥٠ .

الخبيثة ، او امارات تحتاج إلى اكتشاف (١٢) . وعظيم جدا ايضا ، حقل تأثيرات الكون في البشر (١٣) . وبخاصة الرقمين سبعة واربعة التي تتحكم بها (١٤) . وعلاقة الانسان بوسطه الطبيعي المباشر ، اهم من ذلك كله ، بالنسبة إلى الجغرافية ،، بمعناها الصحيح ، لاسيما جغرافية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . التي اتخذتها احدى مواضيعها المفضلة فهنا لابد من وقفة اطول .

الانسان والطبيعة

في الاصل ، لا نجد الا ما هو معروف جيدا . ومثلت حركة الترجمة الكبرى احد امجاد الخلافة في بغداد ، ونقلت إلى اللغة ، العربية (١٥) ابحاث الطب والفيزياء اليونانيين ، فتدرجت في الادب كما هي او مختصرة . ويعد الجاحظ رائد ما اتفق على تسميته ثقافة العصر العامة . فهو الذي كتب عددا من النماذج ، التي اشتهرت بعده ، نذكر منها ثلاثة : فالاهواز قصبة خوزستان تولد الحمّيات

---

(١٢) الاهتمام بهم تمثل بقدر كاف في قوائم اصحاب العاهات أو التشوهات الجسدية الأخرى ،على نحو ما وردت عند ابن رسته، ٢٢١ — ٢٢٧ (حسب ابن قتيبة : انظر المرجع ذاته ، ترجمة ٢٦٤ ، ح٤) . انظر امثلة على حالات خارقة جسمية أو رمزية عند هذه . الكائنات عند المسعودي (م) فقرة ١٢٣٨ آخرها ، ج٤ ، ٤١٦ ، ج٥ ، ١١٥ . يذكر بهذا الشأن بما قاله لـ . ليفي ستروس في « النيء والمشوي ، باريس ١٩٦٤ ، ص ٦١

(١٣) انظر اخوان الصفاء ، ج١ ، ١٤٨ وما يليها ، الخوارزمي (م) ٢٢٧ — ٢٢٨ ، المسعودي (م)، فقرة ١٣١٣ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٥ ، ١٣٣٠ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨١، المسعودي (ت) ، ٤٧ ، ٥٤ — ٥٥ ، ١٠٤ — ١٠٦ ، المقدسي ، ج٢ ، ٥١ — ٥٢

(١٤) انظر المسعودي (م) فقرة ٧٤٢ ، ١٣٣٠ ، ١٣٥٩ — ١٣٦٠ .

(١٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١٤ — ١٧ .

والبخل (١٦) ؛ ومن دخل ارض تبت لم يزل ضاحكا مشروحاً حتى يخرج منها (١٧) ، ولا بد لكل من قدم إلى بلاد الزنج ، في افريقية الشرقية ، الا يزال جربا ما اقام بها (١٨) .

ويعتبر ابن خرداذبة احد رواد الجغرافية العربية . ويحوي مصنفه وصف الارض ، والخريطة الادارية لدار الاسلام ، والادب (١٩) ، ويكرر المواضيع السابقة وغيرها (٢٠) . ولا ينفرد بهذا الاتجاه . فقد حرص جماعة من الجغرافيين ان يثبتوا هم ايضا انهم يعرفون هذه او تلك من الكتابات البارعة او احيانا النظرية التي ترتكز عليها ، والهمداني ، والثعالبي واخوان الصفا (٢١) ، وطبعا الاديبان الكبيران المسعودي وابن الفقيه . واتحدث عن المسعودي لأنه يعرف حق المعرفة ، دون غيره ، كيف يحلل المعطى ، ويستخرج منه المواضيع

---

(١٦) الجاحظ (ح) ، ج٤ ، ١٤٠ – ١٤٣ ، مترجم في ج دا ، ج١ ، ٤٨ – ٤٩ (و ح١ ، عن استثمار الموضوع بعد الجاحظ) ، انظر أيضاً مختصرا له ، الجاحظ (١) ورقة ٢٣ – ٢٤ .

(١٧) الجاحظ (ح) ، ج٤ ، ١٣٥ ، ج٧ ، ٢٣٠ (عن الموضوع بعد الجاحظ انظر ج دا ، ج٢ ، ٨٢ ، ح٣) .

(١٨) الجاحظ (ح) ، ج٤ ، ١٣٩ (عن الموضوع بعد الجاحظ انظر ج دا ، ج٢، ١٤٤) ، ح٦) . امثلة اخرى معروفة : الجاحظ(١) ورقة ١٢ (تبدلات نسب ولادات الذكور أو الاناث حسب البلدان) ، ٢٤ – ٢٧ (ضرر الماء بالجسم أو فائدته) ، ٣٣ (تأثير مناخ البحرين) .

(١٩) انظر ج دا ، ج١ ، ٨٨ – ٩٢ .

(٢٠) ابن خرداذبه ، ١٧٠ – ١٧٢ .

(٢١) مثال قدامة (فصل ٢ و ٨ من كتاب الخراج) ، ابن رسته ، ٨٢ – ٣٣ ، المقدسي ، ج٢ ، ٦٩ ، مسعر (ب) ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، الهمداني ،١٩٣، الثعالبي ، ٩٦ – ٩٧ ، ١٣١ ، اخوان الصفا ، ج١ ، ١٤٨ – ١٥٣ ، ٣٠٢ وما يليها .

الاساسية ، ويلخصها ويعرضها على « الرجل الشريف » المعاصر له بصيغة سهلة الفهم ، خالية من كل تعقيد علمي بالمعنى الضيق . وهكذا يعرض (٢٢) شتى العوامل التي تحدد تأثير الوسط في حياة البشر : الوسط القصي اعني الكواكب ، والوسط القريب المباشر بالقدر ذاته ، اي موضع البلد على خريطة الارض ، وما فيه من مياه وغابات ، وقربه من الجبال او البحار ، وارتفاعه ، وتركيب تربته... وتلي التطبيقات النظرية بعد ذلك في الحديث عن احد تلك العوامل(٢٣) : فالمسعودي يوزع المناطق الكبرى في دار الاسلام على ارباع العالم ثم يحدد تأثيراتها في الطبيعة من جهة وفي جسم الانسان وعقله من جهة اخرى.

ومقطع ارباع العالم اساسي ، لأنه يرسم الخطوط الرئيسة ، ولو من بعيد جدا ، لأطلس طبائع البشر ومؤهلاتهم وتصرفاتهم في اقاليم دار الاسلام : الشام ، مصر ، اليمن ، الحجاز ، المغرب ، العراق ، الجبال ، خراسان ، فارس ، خوزستان ، الجزيرة ، وسوف ينهج ابن الفقيه مثل هذه المحاولة ، ويضع لها اول مخطط ، وينقل مواضيعها بقوة وبطريقة لا مثيل لها إلى الجغرافيين بعده ، ويعتبر عرابهم في هذا المجال (٢٤) .

ويتخذ هذا العمل منحى مزدوجا ، من زاوية الوضع ومن

---

(٢٢) المسعودي (ت) ، ٣٩ — ٤٠ ، ٤٦ — ٤٧ .

(٢٣) المسعودي (م) فقرة ٩٧٣ وما يليها ، مع استنتاج عن امتياز العراق : انظر أيضاً المرجع ذاته ، فقرة ١٣٦١ — ١٣٦٣ .

(٢٤) انظر ج دا ، ج١ ، ١٨٧ — ١٨٩ .

الناحية التطبيقية . فالتأمل العام في العلاقة بين الطبيعة والانسان يندرج بعد الآن في عمل الادب بلا ريب ، لكن نقصد الادب الذي يريد ان يكون جغرافيا ، بمعنى انه يتخذ البلدان اساسا لعرض معطياته : فالحديث لا يتغير كثيرا ، بل توزيعه هو الذي يتبدل ، اذ يحل علم البلدان محل الموسوعة (٢٥) . وهكذا قبلت جغرافية الانسان جسديا واخلاقيا ، في العلم الجديد الذي اسسه ابن الفقيه ، وتلقت منه عنوانا ثابتا ، لن يفوت اخلافه الانتفاع منه (٢٦) . اما من الناحية التطبيقية ، فسوف تتناول جغرافية الانسان على هذا النحو ، مع ابن الفقيه ، الامثلة المعروفة من قبل ، لكنها سوف تطور غيرها ، متقيدة بالذهنية ذاتها ، حسبما يمدها الوحي ، فتغني « الاطلس » المشار اليه سابقا ، في نطاق لوحات المقارنة بين البلدان (٢٧) والتدوينات الدقيقة عند وصف احد البلدان (٢٨) .

لم يبق على الجغرافيين من خلفاء ابن الفقيه ، كما قلنا، الا ان يحذوا حذوه . وافكر بابن حوقل (٢٩) وبخاصة بالمقدسي الذي يعود صراحة ، في عدة اماكن من كتابه ، إلى الجاحظ ، وابن خرداذبة ، وقدامه وابن الفقيه (٣٠) . ولا شك انه ينتقدهم ، ويزعم انه يؤسس

---

(٢٥) انظر ج دا ، ج١ ، آخر ١٦١ – ١٦٢ ، ١٧٧ وما يليها .

(٢٦) شريطة اجراء بعض التحفظات ، اسوة بالمقدسي ، لكن تحفظات لا تؤدي الى التخلي عن استثمار هذا النوع من المواضيع .

(٢٧) ابن الفقيه ، ٧٦ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٨٦ – ١٨٧ .

(٢٨) ابن الفقيه ، ٥٩ ، ٧٤ – ٧٥ ، ٨٤ واماكن متفرقة .

(٢٩) ابن حوقل يذكر الجاحظ ، وابن خرداذبه وقدامة ،من بين المصنفين السابقين، ابن حوقل ، ٥، ٣٢٩ ، ٣٧٢ ، ٤٥٣ ، ٤٧٣ .

(٣٠) المقدسي ، ٤ ، ٥ (ح ١) ، ١٦ (ح و) ، ٣٣ ، ٥٧ ، ٦٨ (ح ا ف) ، ١٠٥ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٤٠ (ح د) ٣٦٢، .

الجغرافية الحقيقية بعدهم وضدهم . لابأس . فلولا ان هؤلاء الرواد في ادب البلدان فرصوا مبدأ معرفة البشر جسديا وروحيا ، ووصفوا نماذجهم الاولى ، لما استطعنا البتة ان نفتح كتابي ابن حوقل والمقدسي ، ونلاحظ معهم مملكة الاسلام في العام الف .

ابن حوقل والمقدسي : التركة الموروثة

اذن يأتي الثقات في الطليعة . وهم الائمة القدامى ، سواء ذكروا صراحة ام لم يذكروا : وتشهد على هذه الحالة نبذة المقدسي عن الاهواز (٣١) ، المنقولة عن الجاحظ بداهة . وبعد ان انطلقت جغرافية صفات البشر ومكوناتهم ، بذلت كل ما في وسعها لتنجح ، واستقت من شتى الاماكن التي استطاعت الوصول اليها . واثرت فيها الامثال والمعتقدات (٣٢) ، وفقه اللغة الذي يزعم انه يكشف مزايا السكان وعيوبهم (٣٣) من احرف اسم المكان واصواته . واقترنت المواضيع بمنهج آخر : هو لائحة خصائص شتى البلدان والسكان على غرار الجاحظ (٣٤) ايضا ، وتأثير فارس بالقدر ذاته في هذه الحالة : وهكذا تبين اللائحة الشهيرة التي نظمها ملوكها ، بلا ترتيب ، الجيد والسيء من اراضيها واهلها (٣٥) . ويعاد سرد جميع ذلك ، ويخلط به ، ويسهب ، ويؤلف من جديد احيانا . ومن مزايا المقدسي ، تنهيج

---

(٣١) المقدسي ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ (ح ١) .

(٣٢) مثال المقدسي ، ١٦٠ — ١٦١ .

(٣٣) انظر ما تقدم ، فصل ٦ ، ص ١٣١ .

(٣٤) انظر ما تقدم ، فصل ٦ ، ص ١٢٨ وما يليها (عن هذه التشابهات ، انظر مثلا حالة الرحاب ، وكرمان والسند . . . المرجع ذاته ، ص ١٣٠) .

(٣٥) المقدسي ، ٢٥٧ — ٢٥٨ . (ابن الفقيه ، ٢٠٩ — ٢١١) .

مقارنة المؤهلات والنواقص لا بين بلدين او مدينتين على الدوام ، بل ضمن كل منهما ، ومدحها او ذمها على التوالي (٣٦) : وهذا العمل تمرين انشائي في الحد الاقصى ، لا يجوز قبول معطياته الا بتحفظات صريحة جدا ، الا اذا تمكنا بواسطتها من بلوغ حكمة نهائية لا تختلف كثيرا عن حكمة المألوف ، على نحو ما نتوصل إلى معرفته من خلال مصنفه : فمهما يكن ، لكل بلد ولكل انسان محاسنه ومساوئه،وجميعهم متساوون .

وتبدو مقاطع لا تحصى ، ارصن وافضل للاستفادة منها ، لأن التدوين لا يعني الا بما يسجل فيه : وتسمح اولا بادراك المرتكز النظري الذي عرفناه من قبل ، اقصد العلاقة بين الانسان والارض ، انما بشكل ايضاحات حسية تتعلق بالموقع والخريطة والمناخ والمياه والتربة(٣٧) فالموقع يبين مثلا ان الاتجاه إلى الغرب يزيد بياض البشرة ، وصفاء العيون،وكثاثة اللحى. ويقول المقدسي ان هذه الظاهرة بادية في بلاد المغرب(٣٨). فالهواء «رديء» في زم على جيحون، لذلك اهلها مصفرو الالوان،والهواء قوى في نيسابور، لذلك تطول اعمارهم ، وهذا تضاد واضح بين زم ونيسابور(٣٩).والغالب على اهل كرمان السمرة لشدة

---

(٣٦) على الأقل اهمها : وهي اقاليم ومدن ، وصفها المتضاد شبه منهج ، يبدأ معظم الاحيان بالخصال الحميدة ونادرا بالمساوىء (المقدسي ، ٣٦٠ ، ٤٢٩) . يلاحظ هنا أيضاً ، وجود سابقات ، مثلا الجدل بين أهل الكوفة وأهل البصرة عند ابن الفقيه .

(٣٧) حيث يعثر على بعض العوامل الواردة عند المسعودي كما نرى .

(٣٨) المقدسي ، ٢٤٣ .

(٣٩) المقدسي ، ٣٣٢ .

الحر (٤٠) وكل بلد شديد البرد ، فاهله اسمن واضخم واحسن واكبر لحى ، مثل فرغانة وخوارزم وارمينية (٤١) . وآثار المياه معروفة ايضا : فصغر بلد قاتل للغرباء ورديء الماء ، واهلها سودان غلاظ وماؤها حميم ، وهنا تتميز الارجاء الجنوبية من البحيرة المنتنة(٤٢) : اخيرا لنسمع ابن حوقل يتحدث عن قرية سمرقند : « وتربة سمرقند من اصح الترب وايبسها ، ولولا كثرة البخارات من المياه الجارية بها في سككهم ودورهم ، وكثرة اشجار الخلاف بينهم ، لأضر بهم فرط يبسها على ما يحكيه بعض الاطباء (٤٣) » .

وهنالك فكرة رئيسة اخرى ، معروفة ايضا ، ومدروسة على ضوء حالات حسية : هي الصلة التي لا تنفصم بين الطبيعة والاخلاق بسلسلة كاملة من الآليات ،اولها تأثيرات الكواكب التي تعمل في العقول والابدان معا : فلدمشق مثلا خاصية بطالعها المحيل بطاعتها إلى الخلاف (٤٤) . وترتبط العلاقة احيانا بحالة بيولوجية ناشئة عن النظام الغذائي . ويقول ابن حوقل عن ذلك في حديثه عن بلرمو (٤٥) :

---

(٤٠) بن حوقل ، ٣١١ ، انظر أيضاً ابن حوقل ، ٢٨٩ (الصرود والجروم في فارس) .

(٤١) المقدسي ، ٣٦ ، وبذا ترتسم منطقة برد نحو المناطق القصوى في الشمال والغرب ، كما قيل من قبل .

(٤٢) المقدسي ، ١٧٨ ، لم يبرز صلة العلة والمعلول بصراحة، الا ان المقطع بكامله وارد في سياق الحديث عن الماء (« ولا اعرف في الاسلام لها نظيرا في هذا الباب » . عن تأثيرات المياه ، انظر ج دا ، ج٣ ، آخر ١٤١ — ١٤٢ وما يليها .

(٤٣) ابن حوقل ، ٤٩٤ .

(٤٤) ابن حوقل ، آخر ١٧٥ .

(٤٥) ابن حوقل ، ١٢٣ — ١٢٤ .

« واكثر مياه البلد والحارات من الآبار ثقيلة غير مريئة . وانما صرفهم إلى شربها، رغبة عن شرب الماء الجاري العذب، ثقلة مروءاتهم (٤٦)، وكثرة اكلهم للبصل ، وفساد حواسهم بكثرة تغذيهم بالني منه ، وما فيهم من لا يأكله كل يوم او يؤكل في داره صباح مساء من سائر طبقاتهم ، وهو الذي افسد تخيلهم ، وضر ادمغتهم ، وحير حواسهم وغير عقولهم ، ونقص افهامهم ، وبلد معارفهم ، وافسد سحنة وجوههم ، واحال امزجتهم حتى رأوا الاشياء او اكثرها على خلاف ما هي به .:. فاما نتيجتها ، فليس بالبلد عاقل ، ولا فاضل ، ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم ، ولا ذو مروءة و متدين » .

وتطرأ بعض التبدلات على الموضوع ذاته . فالمقدسي يوحي بطيبة خاطر بوجود ذهن ثاقب مثقف يتناسب مع حد ادنى من رغد العيش . فحلب في نظره بلد نفيس في اهلها ظرف ، ولهم يسار وعقول — واليسار مادي ومعنوي (٤٧) . والعراق اخف على القلب ، واحد للذهن ، وبها تكون النفس اطيب ، والخاطر ادق ، اذا كانت كفاية (٤٨) . وتختفي الآليات في بعض الاحيان وراء حدة الذهن والتفاعل ، لأن المؤهلات تؤثر في الاوضاع الاقتصادية ، التي تؤثر بدورها في تصرفات البشر . ويشرح ابن حوقل (٤٩) الوضع في مثال الموصل ويعتبر ان غنى البلد « دليل على اوصاف اهله وشأنهم في ذات انفسهم » . ويضيف

(٤٦) حرفيا : « المروءات » . ويتمثل هذا النقص في مياه الآبار « غير المريئة » تلاحظ المقابلة الدقيقة بين العنصرين الطبيعي والبشري ، التي تبرزها المفردات

(٤٧) المقدسي ، ١٥٥ .

(٤٨) المقدسي ، ٌخر ٣٢ — ٣٣ ، ذكر من قبل ، الفصل ٦ .

(٤٩) ابن حوقل ، ٢١٦ و (عن القسم الثاني من جملة الجاحظ ، المذكورة في ج دا ، ج ١ ، ٤٩ (« يشتهر الناس بأموالهم) . انظر أيضاً ماتقدم ، فصل ٨ ص١٩٦ آخرها–١٩٧ .

مباشرة : « قوام الدنيا واهلها بالاموال ، اذ محلهم في انفسهم ، . وكيفيتهم في عيشهم وسياستهم في مروءاتهم بمقدار ما يملكونه ، وبه يمكنهم المروءة والافضال والتصرف في كل جهة وحالة » .

لقد اختيرت هذه الامثلة من بين كثير غيرها . وهي تشهد على حفظ الدروس واختباره بالوقائع . وفي تاريخ الجغرافية العربية يثبت الرجوع ، بصراحة او ضمنا ، إلى طروحات معروفة من قبل ، ان التطور الجاري فيها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، نشأ عن وراثة النظرية وعن مقتضيات التطبيق : بقي ان نعرف الآن ما يقوله التطبيق في الوقائع .

خريطة بيولوجية معممة لبلدان دار الاسلام

لا نتوقع من ابن حوقل والمقدسي بيانا كاملا عن بنية الجسم عند شعوب دار الاسلام (٥٠) . ويقبل وضع وسطي ضمنيا،لذلك نُعْنَى بالحالات المثيرة مثل الصحة الجيدة الاستثنائية ، والامراض المستوطنة مثلا ، او ايضا حالة شخص هامشي يكشف قدومه عن وضع تآلف معه سائر الناس ،نقصد الغريب الذي تضره هنا وهناك المياه الرديئة او الهواء الوبيء (٥١) . اذن لدينا من جهة البلدان السيئة ، المليئة بالحميات والامراض بدون تدقيق اضافي : كخوزستان وفارس (٥٢)،

(٥٠) تناولنا هذه المعطيات من وجهة نظر اخرى ، هي الوسط الطبيعي في ج دا ، ج٣ ، ١٦٧ وما يليها و ٣٠١ وما يليها .

(٥١) ابن حوقل ، ٧٣ ، ٢٥٤ ، المقدسي ، ١٧٨ ، ٤١٠ ، وج دا ، ج٣ ، ٣٠٤ ، ج٣ . نذكر بشأن هذا الموضوع ، بصيغة الجاحظ (مرت في ج دا ، ج١ ، ٤٩) «آلة لقتل الغريب »،في حديثه عن الاهواز .

(٥٢) ابن حوقل ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، المقدسي ، آخر ٧٧ — ٧٨ (الجحفة في جزيرة العرب) ، ٤٣٣ .

او التي يخيم عليها شؤم ظل الجرب في مصر (٥٣) ، والشلل في فارس(٥٤) والجذام في مصر خاصة ، وايضا في المغرب وكرمان والشام وصنعاء باليمن ، التي يظهر لقلة سطوة الشمس وتافه تحليلها عن جسومهم (٥٥) ، حسب ابن حوقل . وتأتي في الجهة الثانية الاستثناءات : فخراسان وما وراء النهر ليس فيهما جذام ولا يعرفونه ، وبفارس مجذومون قلائل، فهي تبدو بمنجاة منه في الحد الادنى (٥٦) .

وهنالك بعض التدوينات الحسنة في سياق وصف الاجسام : فالغالب على اهل بصرة المغرب جمال القدود عند البربر ، والصحة ونقاء البشرة في اهل خوزستان فيما بعد عن مياه دجلة المالحة ؟ (٥٧) . والصحة واللحية الكثيفة ظاهرتان من مرتفعات ارمينية الى اذربيجان وبحر قزوين(٥٨).وحسن القدود والشطاط دليل اعتدال الخلق او الابتلاء، ومصدر فوضى (٥٩) مثل كل تفريط . ويشاهد في خوزستان بعض حالات غريبة، منها رؤوس اهل رامهرمز المفلطحة، والتشوهات التكوينية

---

(٥٣) المقدسي ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ (لعله متصل بالجذام على الأرجح ، وبالقذارة وبالافراط باستهلاك السمك) .

(٥٤) المقدسي ، ٤٣٩ (مع كثرة العور أيضاً) .

(٥٥) ابن حوقل ، ٣٧ ، المقدسي ، ٩٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ (عن الجذام ، انظر ما تقدم ، ح ٥٣) ، ٢٣٦ (مع خصيان كثر في المغرب والاندلس من الرقيق المستورد طبعاً) ، آخر ٤٦٨ .

(٥٦) المقدسي ، ٣٢٣ ، ٤٣٩ .

(٥٧) ابن حوقل ، ٨٠ ، ١٠٣ ، ٢٥٣ ، ٢٨٩ .

(٥٨) المقدسي ، ٣٦٨ ، آخر ٣٧٨ ، تردد عند ابن حوقل ، آخر ٣٧٦ ، ٣٨١ حول قضية زوال الشعر في هذه المناطق .

(٥٩) ابن حوقل ، ٨٠ ، المقدسي ، ٣٦٨ (حول ابتلاء انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٣ ، ٤٢٥ (و ح ق : عن اغن انظر م ج ع ، ج٤ ، آخر ٣١١ — ٣١٢) .

عند بعض الرجال الذين لهم ثدي كبير كثدي النساء ، واذناب بين القبل والدبر مثل الاصابع (٦٠) ، ثم مجموعة الاعلاء واللمفاويين والسقماء ، ممن عمرهم قصير وشعرهم قليل ، واجسامهم نحيفة تحاكي الخلال ، كما في كرمان (٦١) .

والموقف مماثل في ملاحظة الوان البشرة . ويفترض ان اللون « الجميل » و« الصافي » هو القاعدة (٦٢) . لذلك ، لن نذكر الا الشواذات : فكل مصفر عليل (٦٣) ، كما قلنا . والبشرة سمراء او سوداء في البلدان الشديدة الحر ، كبطائح العراق وجزيرة العرب الجنوبية وبلد الاردن والبحيرة المنتنة ، والفسطاط وفارس وكرمان والسند (٦٤) . ولتلك الاوضاع حالات خاصة هنا ايضا . فارض برقة حمراء خلوقية التربة ، وثياب اهلها ابدا محمرة . ويعرف اهلها بالفسطاط من بين اهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم (٦٥) : وصفاء

---

(٦٠) المقدسي ، آخر ٤٠٣ (ومن الاهانة الذنباني : أبو ذنب ، انظر م ج ع ، ج٤ ٢٤٢) ، ٤١٨ (عن مبلطح ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٣) .

(٦١) ابن حوقل ، ٢٥٤ (نحافة وخفة شعر متناقصة مرتبطتان بالبلدان الحارة) ، المقدسي ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ٣٦٨ ، ٤٣٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، آخر ٤٦٨ ، ٤٧٩ (عن بلغماني ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٣) .

(٦٢) تدوينات نادرة بهذا المعنى ، تبرز جمالا استثنائيا (ابن حوقل ، ١٠٣ ، المقدسي ، ٣٦٨ ، والأمثلة المذكورة في ما يلي) أو ليس للبشرة صفاء (المقدسي ، ٤١٨) .

(٦٣) ابن حوقل ، ٢٥٤ « خوزستان وبلدان حارة اخرى » ، ٢٨٩ (فارس) ، المقدسي ، ٤٠٤ (ح ١ : خوزستان) ، ٤٣٣ « سابور في فارس) ، ٤٤٨ (فارس)، وما تقدم ، حاشية ٣٩ .

(٦٤) ابن حوقل ، ٢٨٩ ، المقدسي ، ٨٧ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٠ (بشرة غامقة محسوبة ضد الفسطاط ، آخر ٤٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، وما تقدم حاشية ٤٠ .

(٦٥) ابن حوقل ، ٦٦ .

البشرة الرائع « والوجوه الجميلة كاللؤلؤ والمرجان » في البلدان الواقعة على سواحل بحر الخزر (٦٦) . واهل الري احسن الوانا من سائر اهل الجبال ، والباقون مخضرون (٦٧) . وقد خلف المقدسي دراسة وافية (٦٨) صغيرة عن بلدان شمالي شرقي دار الاسلام ، فقال : « والوانهم مختلفة ، احسنهم اهل الشاش وفرغانة وما وقع في ذلك الصقع ، ثم اهل نسف وطراز وباراب ، ولا نظير لنسائهم . ثم السمرقنديون ، ثم البخاريون ثم المراوزة ، ثم لا شيء ، والوان طبس التمر حجازية ، مثل سجستان وغزنة . واهل خوارزم بيض حمر ، غير ان لهم خلقة اخرى » (٦٩) .

في الختام ، نطرح تساؤلا حتميا في هذا المجال : هل ينطوي هذا الموضوع على شيء من العصبية العرقية ؟ فصحيح ان اللون الصافي المعقول مفضل ، وان البشرة السوداء القاتمة المنتشرة في البلدان الحارة منبوذة (٧٠) . لكن في النهاية لا يحكم ابن حوقل ولا المقدسي على الشعوب المدروسة على هذه الاسس . والاخلاق ترتبط بصفات الاجسام ، الا ان الحكم الاجمالي لا يتم الا اعتمادا عليها (٧١) .

(٦٦) المقدسي ٣٦٨ ، ٣٧٨ .

(٦٧) المقدسي ، ٣٩٨ ،(عن مخضر زيتوني ،انظر م ج ع ،ج ٤ ، ٢٢٦ ، Fuscus)

(٦٨) المقدسي ، ٣٣٦ ، توجد دراسة اخرى ، ليست كاملة مثل هذه تتناول الديلم (المقدسي ، ٣٦٨ : انظر ما تقدم ، ح ٦٦) .

(٦٩) مذكورة بلا اضافة ولا تدقيق .

(٧٠) نبذ ضمني (مثال الجبال) أو معلن عنه صراحة (ما تقدم ، حاشية ٦٤ للفسطاط) .

(٧١) مثال المقدسي ، ١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٤٨٢ : التدوينات الجسدية أقل من تدوينات التصرف الاخلاقي والخقي أو اللغوي ، أو بالنسبة الى التدوينات المتعلقة بشوط الحياة .

ومن هنا نشأت اهمية جغرافية التصرفات والاهليات التي لا تنفصل عن جغرافية الطبائع . وهي اهم في نظر الجغرافيين كما ونوعا .

الخطوط الكبرى في الجغرافية الأخلاقية في دار الاسلام :

يرتبط المعطى الجغرافي ارتباطا عضويا ، صراحة او ضمنا ، بالبيئة . فعلى غرار الجسم وبواسطته في الغالب ، يؤدي العقل ضريبة إلى الوسط الذي يعيش فيه . وأحيل من اجل هذه الناحية إلى الامثلة المذكورة من قبل عن الاهواز ودمشق وبلرمو. وقلت ايضا ان هذه الجغرافية اساسية في نظر الجغرافيين . ونتغاضى عن التدوينات المتفرقة التي لا تحصى الواردة في كتابي ابن حوقل والمقدسي ونذكر ان هذا الاخير يشعر احيانا بالحاجة إلى إفراد نبذة لهذه المواضيع يعنونها « الاخلاق » (٧٢) . اذن هذا المعطى غني جدا ، لكن لا يجوز تناوله والحكم عليه الا بعد اتخاذ كثير من الاحتياطات ، لأن هذه الجغرافية تميل في الغالب إلى التطرف ، والتفضيل ، والآليات الذاتية .

وعلى غرار الجسم ، لا يسترعي العقل انتباهنا الا عندما يحيد ، بالخير او الشر عن متوسط مقبول ضمنيا . ولابد من الاعتقاد اصلا بان هذا المتوسط ، الفكري ، او الاخلاقي ، في هذه الحالة ، ينتشر انتشاراً او يتيسّر تيسّراً ، يقل كثيرا عما نتصوره . والبرهان على ذلك ان جذر « وسط » الذي يعبر عنه ، عند المقدسي ، يتجه اما إلى ما

(٧٢) اخلاق : المقدسي ، ١٠٣ ، تتوفر تدوينات اخرى أيضاً تحت عنوان اكثر انتظاماً مسمى رسوما ، سوف ندرس الجوهري فيه في الفصل التالي . يلاحظ في اقليم الجبال عنوان « عيوبهم » . (المقدسي ، ٣٩٩) .

دون هذا المتوسط وحتى إلى الاسوأ ، واما إلى الوضع النموذجي الكامل (٧٣) . مهما يكن فهذه مؤهلات او مواقف بينة بوضوح في هذا الاتجاه او ذاك ، يعرضها بكثرة ابن حوقل والمقدسي .

ويعلل قسم كبير منها ، حتى في تطرفه ، بافضليات المصنفين الجغرافيين . فاذا سيطر مذهب شرعي او فقهي يحبذونه في احدى المدن ، او حكمت سلالة يعتبرونها شرعية ، انطلقت السنتهم بالمديح ، وعلى النقيض ، اذا حفظوا ذكرى سيئة عن بلد من البلدان ، حار جدا او بارد جدا ، او قصر في استقبالهم عما كانوا يتوقعونه ، ثارت ثائرتهم بالنقد اللاذع لاهله . ولابن حوقل مثالان مكملان وطويلان عن هذا الرأي القبلي : هما مثال صقلية التي مرغت في الوحل ، وما وراء النهر الذي اطنب في اطرائه . ونستطيع ان نستشف على وجه التقريب الخيارات السياسية الكامنة وراء هذه المقاطع (٧٤) ، لذلك لا يجوز اخذ مضمونها حرفيا ، وهذا اقل ما يمكن التفكير به .

يضاف إلى ما تقدم الاهتمام بالتعبير ، قلّ ما يكون عند المقدسي وقد اشرت من قبل إلى المقابلات والمقارنات ، وقلت انها ترتبط في اغلب الاحيان بتمرين الانشاء ، لا بالتقصي . فعندما يتوخى الانسان اثبات امكاناته الكتابية بالادلة المادية ، ويصمم على عرض افكاره

---

(٧٣) المقدسي ، ٣٣ ، ٦٨ (ح او)،٤١٦٦(ح١)،٤٧٨،م ج ع، ج٤،٣٧٥، ودوزي ، ج١ ، ٨٠١ — ٨٠٢ .

(٧٤) عن صقلية المشكوك دوما تقريباً بنزعتها الى الاستقلال الذاتي عن السلطة الفاطمية ، انظر ا . ميكيل « ابن حوقل»، م١ (٢) ، ج٣ ، ٨١٠ و ١او = ريزتانو «الكلبيون» ، المرجع ذاته ، ج٤ ، ٥١٧ — ٥١٨ . أما الموقف من السامانيين فاسبابه قريبة بلا ريب من اسباب المقدسي : انظر ج د ١ ، ج١ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ .

باسلوب ثقافة عصره ، ويبالغ فيه ، ويعدل احيانا إلى استعمال النثر المسجوع الذي يُعْنَى بالجرس اكثر من المعنى ، فيغالي في تسيير منحى النقاش في اتجاه خير او سيء . وطبعا اختيرت هذه الغالاة لأنها اهم من اي متوسط ، ودغدغتها خيارات سياسية او عاطفية ، وجمّلتها ميول الكاتب المفرطة . فاصبحت تمثل مجازفة خطرة تضلل القارىء ، وتقوده إلى حيث تريد ، اي إلى التطرف بالذات . اذن علينا نحن ان نتصف بالتعقل ، وان نقوم اولا جميع هذه المقاطع التي شاء حسن الحظ بوضوح الا تتدخل فيها لا الحاجة إلى الاصالة باي ثمن ، ولا الخيار الشخصي ، ولا غاية الاسلوب . وفيما تبقى ، اعني حيث تتدخل هذه العناصر – صراحة في غمرة تحمس القلم ، او بطريقة خفية بالنسبة إلى العاملين الآخرين – يجب علينا ايضاح الامور ، وتحاشي عقبتين : عقبة السذاجة التي تدفع إلى التسليم بصحة المعطى بلا تمحيص ، وعقبة التشدد بالنقد الذي يرفضه دفعة واحدة لأنه مبالغ به ، او شخصي او ادبي (٧٥) .

اخلاق البشر في مغرب دار الاسلام

اذا ألقينا نظرة عامة إلى مختلف اقاليم دار الاسلام ، وراقبنا الناس فيها ، استجلينا ثلاث نواحي تتعلق بهم ، هي جدارتهم للقيام باحد الانشطة ، وخاصة استعدادهم الفكري وصفاتهم الاخلاقية . وقد تتميز كلها بعلامات فارقة أبنّاها من قبل مبتدئين ببلدان المغرب .

(٧٥) واحيانا ناحيتان معا أو ثلاث .

بالفعل ، لا يعتبر ابن حوقل ، ولا حتى المقدسي (٧٦) المغرب بمعناه الواسع ارضا لا يعتد بها بل على النقيض ، لابد من اخذ التعاطف الفاطمي بعين الاعتبار ، حيال بلاد الاندلس التي بقيت متعصبة للامويين ، وحيال جزيرة صقلية التي لم يحل الحكم الفاطمي فيها دون ظهور محاولات استقلال ذاتي ، وحيال مدن او امارات صغيرة متمردة باستمرار وموزعة في جميع الاماكن . ولابد من وضع البربر في فئة مستقلة تلام تارة ويُثْنَى عليها طورا(٧٧) . فلديهم استعداد خاص ، هو قدرتهم الفائقة على تنظيم حياتهم وتجوالهم في الصحراء مثل اقرانهم البدو في آسية الوسطى (٧٩) .

ولابد من وضع سجلماسة على حدة ايضا . فهي مركز كبير للتجارة والقوافل ، على تخوم مراكش والصحراء . واهلها سراة مع كرم وثقافة وصيانة ولباقة ، وقد اكتسبوا هذه الخصال لانفتاح اذهانهم من كثرة اسفارهم وتغربهم عن اوطانهم (٨٠) . ويوحد باقي المغرب الاقصى الأفضل والاسوأ ، الموروث بالاحرى عن المالكيين – والفكرة من ابن حوقل فلا تستغرب – خصوم الشيعة (٨١) . ومع الاتجاه إلى الشرق ،

---

(٧٦) المقدسي لا يعرف المغرب الا بصورة غير مباشرة ، وسماعا . يوجد تقويم عام ومختصر جدا أو نقدي جداً عند المقدسي ، ٣٣ (انظر أيضاً ما يلي حاشية ٨١) .

(٧٧) انظر ابن حوقل ، ٦٨ ، ٨٣ آخرها – ٨٥ ، ٩٥ .

(٧٨) ابن حوقل ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٤، ٩٣ ، ٩٥ – ٩٦ ، ٩٨، ١٠٠ وما يليها ، وما تقدم فصل ٣ .

(٧٩) ابن حوقل ، آخر ١٠١ – ١٠٢ .

(٨٠) ابن حوقل ، ٩١ ، ٩٩ .

(٨١) ابن حوقل ، ٨٠ ، ٩١ ، المقدسي ، آخر ٢٢٩ – ٢٣٠ ، يشير الى كثرة الحروب والقتل في فاس (المرجع ذاته ، ٢٣٦ ، معلومات عامه عن الاندلس والمغرب) : يحبون العلم وأهله ، ويكثرون التجارات والتغرب ، كثيرو الثقلاء والبخلاء) .

يشمل المديح (٨٢) بلا تمييز جميع البلدان الساحلية المعروف انها خاضعة لسلطة الفاطميين (٨٣) لاسيما بنزرت ، و سوسه ، وفاس ، وبخاصة طرابلس ، التي اشتهرت « بمذهب في طاعة السلطان سديد » .

ويشاد بغنى الاندلس ، لكن يقسى عليها (٨٤) ، لأن غنى اهلها وادارتهم البسيطة الموفقة ، يتناقضان تناقضا كبيرا مع عيوب اهلها من ضعة في نفوسهم ، ونقص في عقولهم ، وبعدهم عن البأس والشجاعة ، والفروسية والبسالة . لذلك يحلمون بان يأتي الفاطميون في يوم من الايام ، ليقفوا ضد اعدائهم النصارى ، ويرفعوا عاليا شأن الاندلس ، ويوفروا لها مبرر وجودها تقريبا (٨٥) . لكن لا علاقة لهذه الاعتبارات في نقد صقلية (٨٦) . ففي هذه الجزيرة ، التناقض باد بين موارد الحقول وكثرة السكان ومشهد البشر الحزين . وقد اشرنا من قبل إلى ما اصاب اهلها من فساد في دماغهم من جراء اكل البصل ، ومن رياء ونفاق دفعهم إلى تحويل الرباطات على ساحل البحر ، من ثغور جهاد إلى اماكن فسق (٨٧) . وشر ما عندهم المعلمون الذين ينتقدون في صفحات كاملة (٨٨) ، وتعبّر عدتهم المفرطة في الزيادة — خمسة

---

(٨٢) ابن حوقل ، ٦٩ ، ٧٠ (قابس : وأهلها قليلو الدماثة غير محظوظين من الجمال والنظافة ، ولهم سلامة .) ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٧٨

(٨٣) ابن حوقل ، آخر ٨٣ .

(٨٤) بالنسبة الى المقدسي ، انظر ما تقدم ، حاشية ٨١ : المرجع ذاته ، ٣٥ (ح ح) امان وعدالة في قرطبة .

(٨٥) ابن حوقل ، ١٠٨ — ١٠٩ ، ١١٣ .

(٨٦) ابن حوقل ، ١٢٠ وما يليها ، (المقدسي ، ٢٣١ — ٢٣٢ لايتحدث بهذا الشان) .

(٨٧) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، آخره عن الرباطات .

(٨٨) ابن حوقل ، ١٢٦ — ١٣٠ .

معلمين في المكتب الواحد ، وبالبلد منهم ما يقارب ثلاث مائة معلم ، ولا ينقصون عن ذلك الا قليلا ، وهم فارون من الغزو وراغبون عن الجهاد — عن تفضيلهم المناظرات الكلامية ، لقاء اجر فاقة ، على الجهاد في سبيل الله ،لأنهم يمضون اوقاتهم باطلاق النميمة وسرد الحماقات . ويعتقد جميع اهل صقلية ، البلهاء الفاسدون ، ان طائفة المعلمين اعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم (٨٩) . ونكتفي بهذا القدر لأن الموضوع اصبح اتهاما لا بحثا جغرافيا .

ولا يتطرق ابن حوقل (٩٠) إلى عرض احوال مصر ، ويحل المقدسي محله ، فيمدح الفاطميين وفسطاط مصر المدعو إلى نسخ بغداد (٩١) . مع ذلك في وصفه البلد او بالاحرى فسطاطها ، تفاوت بل تناقض . فالفسطاط في نظره معدن الخير والعلم الا انه كرب البيوت ، قذر الدور ، فظيع اليمين ، لا يتورع مشايخهم عن شرب الخمور ، ونساوءهم عن الفجور ، وللمرأة زوجان(٩٢) .

ويهتم ابن حوقل بجزيرة العرب من زاوية سياسية . فهو لا يشير البتة إلى تصرف اهلها ، الا ان لديه مقاطع عديدة تتحدث عن السلالات المحلية ، واماكن نزول القبائل ، وتاريخ البلاد الحديث ، وكل هذه

---

(٨٩) ابن حوقل ، ١٢٧ ، ١٢٩

(٩٠) عن موقفه من سياسة مصر واقتصادها ، انظر ابن حوقل ،١٤٣ ، ١٥٣ ، و ج د ا ، ج١ ، ٣٠٠ . مع ذلك ، يلاحظ في هذا الشأن الذي يهمنا ، مدح البربر (في الواحات) ابن حوقل ، آخر ١٥٣ — ١٥٤ (مقارنة بما يقال عن بربر المغرب) عن الاقباط ، انظر ما تقدم ، فصل ٣ ، « بعض الشعوب الاخرى » .

(٩١) المقدسي ، ٣٦ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٩٢) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ .

النواحي مفيدة ، بل لا يستغنى عنها لتأمين مصالح الفاطميين ووسائل دعاوتهم (٩٣) . وتختلف نظرة المقدسي عن نظرة ابن حوقل ، وتدعو كثيرا إلى الدهشة ، اذ ان جزيرة العرب بلاد عربية اصيلة ، وفيها الاماكن المقدسة المسلمة . فهو يبجلها مضطرا في مقدمة مصنفه او في عرض اقليمها عرضا عاما (٩٤) . ويثني في الختام على اهلها اصحاب القناعة والنحافة (٩٥) . وتتخلل هذا الشرح مجموعة تدوينات يغلب فيها النقد . ويتصف العرب بالبأس والشدة (٩٦) ، وفي صنعاء مشايخ ليس بجميع اليمن مثلهم هيبة وعقلا (٩٧) وفيما عدا ذلك ، يتهمون بلا خفاء عند الحديث عن احدى المدن ان المناطق ، بآثام كبيرة مثل التمرد الدائم ، والمستوى الثقافي المتدني جدا ، والشح والجفاء وانعدام الظرف والفسق ، ولا يتورع (٩٨) عن التجريح باهل مكة .

ولنصعد الآن إلى الشمال . فابن حوقل يرى ان الشام قسمان : قسم جنوبي منفتح على اطماع الفاطميين (٩٩) . وتمثله دمشق ، المندد

---

(٩٣) اشير اليها صراحة عند ابن حوقل ، ٣٧ ، عن هذه المعطيات السياسية . انظر المرجع ذاته ، ٢٣ — ٢٧ . ٣٤ ، ٣٩ ، ٤١ .

(٩٤) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٥ (و ح ب) ، ٦٧ .

(٩٥) المقدسي ، ١٠٥ ، نحافة (هزال) يجب أخذها هنا بالمعنى الجيد : هيف ، قد حسن

(٩٦) المقدسي ، ٩٣ ، وتوام قد غلب عليها قوم من قريش فيهم باس وشدة ، تدفعانها الى العنف .

(٩٧) المقدسي ، ٣٥ (و ح ز : الأمن والعدل في صعدة) ، ٨٦ .

(٩٨) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٩٣ ، ٩٥ (تدوين عام : قليل الفقهاء والمذكرين والقراء) ، ٩٦ ، ١٠٣ .

(٩٩) مشار اليهم صراحة عند ابن حوقل ، ١٧٢ وعند المقدسي ، ١٨٠ ، ١٨٩ .

بها ، لغلظ طباعها ، وميلها إلى التمرد على وجه التخصيص (١٠٠) . ويثنى على بنادر الساحل مثل طرابلس وخاصة بيروت (١٠١) التي يرابط بها اهل دمشق وسائر جندها ، وينفرون اليهم عند استنفارهم. والشجاعة نادرة ومفقودة في الاماكن الاخرى ، متى وصلنا إلى القسم الثاني من الشام ولا يعلل طمع الروم كل شيء . ولم يكن بوسعهم ان يفتتحوا ارجاء كاملة في الشمال ، لولا سوء تدبير الحمدانيين في حلب (سيف الدولة) ، وما علق ببلاد المسلمين من الخذلان وقلة الايمان والتخاذل (١٠٢) .

ولا يدون المقدسي الا ما يعاينه فيما يبدو ، على غرار ما فعل في اقليم جزيرة العرب . ولا شك ان فلسطين « بلده » ، لذلك يكيل لها المديح في عدة اسطر بكلام مسجوع (١٠٣) . ويقول ان كل شيء فيها افضل من غيرها ، والحياة اسعد (١٠٤) . وعندما ينتهي من ذكر فضائل المناطق والمدن ، يستعرض ما لها من عيوب . اذن من جهة اولى حسناتها ، وفي طليعتها الايمان ، المعهود في بلاد التاريخ المقدس . ومن جهة ثانية ، عامتهم الجهال ، ولا نهضة عندهم في جهاد ، ولا حمية على الاعداء ولديهم استعداد للتمرد والاضطراب (١٠٥)

---

(١٠٠) ابن حوقل ، آخر ١٧٥ — ١٧٦ . رأينا من قبل ان هذه الصفة عائدة الى تأثير الكواكب .

(١٠١) ابن حوقل ، المرجع ذاته .

(١٠٢) ابن حوقل ، ١٧٦ — ١٨٤ ، ١٨٨ ، وما تقدم فصل ١ ، آخره .

(١٠٣) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ (و ح و) ، ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٧٩ .

(١٠٤) المقدسي ، ٣٦ (عن الرملة) .

(١٠٥) المقدسي، ١٥٢ (مع بيان الأضرار التي احدثها الروم : موقف مماثل لموقف ابن حوقل لكنه أقل الحاحا وأقل عنفا) ١٧٩ .

وتتوالى المقايسات من مدينة إلى اخرى . فاهل حلب اهل ظرف ، ولهم يسار وعقول ، وبيسان رحبة في حوض نهر الاردن . ولعاقر بين الرملة وحبرون (الخليل) رغبة بالخير ، والاناقة في نابلس (١٠٦). بالمقابل ، اهل عمان والرملة ؟ جهال ، واهل بعلبك يفرطون بشرب الخمر (١٠٧) . ويظهر التناقض احيانا ضمن المدينة الواحدة . فبيت جبريل بلد الغوالي والرخاء (١٠٨) . وتقع صغر جنوبي البحيرة المقلوبة ، واهلها غلاظ . وهي بقية مدائن لوط وانما نجت لأن سكانها لم يكونوا يعملون الفاحشة (١٠٩) . واهل دمشق اعصى الناس ، وفيهم شغب وخروج (١١٠) . واهل حمص حمقى (١١١) . وبيت المقدس مثال لكل البلد ، بين الخير والشر فهي جنة من احد الوجوه ، و« طشت ذهب مليء عقارب » من ناحية اخرى (١١٢) .

ويرى ابن حوقل في العراق ذكرى عظمة العباسيين ومجد علي ونجله الحسين . فهذا الاقليم اعظم الاقاليم ، واهله اوفر عقولا واوسع علوما وافسح فطنة . وهذا الكلام قليل ، لكنه يخلو من تجريح ، العراقيين (١١٣) . ويشعر المقدسي بمجد بغداد الغابر . وبشقائها

---

(١٠٦) المقدسي ، ٣٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٧٦ .

(١٠٧) المقدسي ، ٣٤ ، ٣٦ ، ١٧٥ .

(١٠٨) المقدسي ، ١٧٤ .

(١٠٩) المقدسي ، ١٧٨ .

(١١٠) المقدسي ، ٣٤ ، ٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٠ .

(١١١) المقدسي ، ٣٤ ، ١٥٦ .

(١١٢) المقدسي ٧ ، ١٦٦ ، ١٦٧ (يذكر النص ان الاحالة مأخوذة من التورية (التوراة) ، عن صور بيت المقدس ، انظر اشعيا ، ٥٩ ، ٤ — ٥ ، حزقيال ٨ ، ١٠)

(١١٣) ابن حوقل ، ٢٣٤ .

الحاضر (١١٤) ، فيصف العراق وصفا مزدوجا من زاويتين . فالعراق على الاجمال او من خلال مدنه ، يبدي مجموعة مذهلة من الخصال : الذكاء والاستقامة ، الورع والمعرفة ، اللباقة والمروءة ، وخبرة في الملاحة ايضا (١١٥) . غير انه ، من ناحية ثانية ، بلد الجور ، وبيت الفتن والغلاة من جميع الجوانب خاصة الدينية ، مع قذارة وجشع وسخافة (١١٦) .

والجزيرة آخر الاقاليم العربية حسب تصنيف المقدسي . وبها يجد ابن حوقل اعداءه الالداء ، اي الحمدانيين . وهذا يعني ان الحكام واهلها معا لهم صورة قاتمة مثل القسم الشمالي من اقليم الشام وتزيد ، مع شيء من المغالاة في الوصف (١١٧) . ويتعارض هذا الموقف مع موقف المقدسي . ولا نبالغ تقريبا اذا قلنا ان الجزيرة لا يوجد لها نقد البتة من ناحية الاخلاق ، وتعد وطن الفضائل والخصال الحميدة بانواعها ، مع الوقوف بحزم في وجه الروم جيرانهم واعدائهم .

---

(١١٤) تحدثنا من قبل عن انحطاطها وازدهار الفسطاط . انظر أيضاً نبوءة الرسول الوارد ، عند المقدس بآخر ١٢٠ » وجبابرتها يخسف بهم ، فهم أسرع هويا في الأرض من الوتد الحديد في الأرض »

(١١٥) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١١٣ ، ١١٧ — ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠

(١١٦) المقدسي ، ١١٣ (غلاء تلميح إلى الشيعة المتطرفين)(الغلا ة) يمكن أن نفكر أيضاً بـ « غلا ء » ، أي ارتفاع الأسعار . أو أن مجاورة فتن « اضطرابات » تدفعني إلى تبني التأويل الأول) ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠

(١١٧) احيل الى ما قيل من قبل عن الشام والى الفصل ١ ، آخره .

باختصار ، تتجلى فيها الصورة الكاملة التي ينبغي ان تظهر بها دار الاسلام (١١٨) .

اخلاق البشر في مشرق دار الاسلام

يطلق المقدسي اسم الرحاب على الجبال الممتدة من ارمينية إلى اذربيجان . ويكيل ابن حوقل المديح لهذا الاقليم . ويستنكر موقف بعض الامراء (١١٩) ، لكنه يلاحظ ان اهل الرحاب سعداء ، وان اكثر اهل اذربيجان وارمينية والران اهل سلامة ورغبة في الخير وطلب المعاش والستر لمادهمهم من المصائب وتكاثف عليهم من النوائب . وليس فيهم متكلم ولا متعصب للكلام والنظر ، وفيهم اطباء عقلاء اجلاء ، مياسير بصناعة الطب . وفيهم قبول للغريب وميل إلى الطارىء عليهم ، حتى ان احاطتهم المسافر بالملاطفات تثقل عليه (١٢٠) . ويرى المقدسي ان فيهم اريحية لاسيما صلابة في الدفاع عن دار الاسلام

---

(١١٨) يتجلى الاسلوب العام عند المقدسي ، ٣٣ : اوسط الاقاليم اقور (عن جذر وسط ، انظر ما تقدم م ح ٧٣) . انظر أيضاً المقدسي ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١
وسط ، انظر ما تقدم م ح ٧٣) . انظر أيضاً المقدسي ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١
يلاحظ ان احالة المقدسي العامة ، ص ٣٣ ، غير واردة في المخطوطة ب ، المعروفة بزيادة تعاطفها مع الفاطميين (عن هذه القضية ، انظر ج دا ، ج ١ ، ٣١٧ – ٣١٨) . وهكذا نعود الى موقف اقرب من موقف ابن حوقل ، حيال الحمدانيين ، الذين تضلل سلطتهم في شمالي الاقليم الشامي الاطماع الفاطمية . الا ان الاسلوب العام يتعارض مع لهجة ابن حوقل (البرهان وجود احالات اخرى في النسختين ب و ج) .

(١١٩) ابن حوقل ، ٣٣١ وما يليها ، واماكن متفرقة .

(١٢٠) ابن حوقل ، ٣٤٠ – ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ .

ضد الروم . وهم على العموم ثقلاء وبخلاء ، لا ينظرون في العواقب ، ولا يعذرون اهل المذاهب (١٢١) .

وتغلب العجلة والطيش ، حسب ابن حوقل ، على اهل البلدان الواقعة على شط بحر الخزر (١٢٢) ولا يحب المقدسي السلالة البويهية لأن اصلها من تلك الارجاء (١٢٣) . فيوجه اليهم نقدا لاذعا ، ويرميهم بالمقذعات من الوسخ إلى الخفة إلى ايمان ضعيف وفسق عظيم ، وكلام عجل ، وغير ذلك (١٢٤) . لكن لا يسعه من جهة اخرى الا ان يعجب بنجاح البويهيين ، فيذكر انهم رجال في القتال (١٢٥) . ويصفهم بخصال تتنافى كليا مع عيوبهم السابقة . ففيهم مجافة ، وتقاليدهم نقية وشريفة ، ويرحمون الضعيف ، ويجلّون الشريف ، اذكياء ، كبراء في الفقه واجلة في الحديث ، ولهم عمل لطيف ، وهم ماهرون في الحياكة (١٢٦) . وقد ابرز المقدسي بجلاء مثالين على هذا التردد : في قصبة شهرستان (١٢٧) وخاصة في مدينة بيار موطن اجداده

---

(١٢١) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ (مع ملاحظة تتعارض مع ملاحظة ابن حوقل : ولا طبيب حاذق) .

(١٢٢) ابن حوقل آخر ٣٧٦ – ٣٧٧ ، ٣٨١ . العزة والأباء والفروسية . منفية (على الاصح مختفية : ابن حوقل ، ٣٨٢) أو مقتصرة على بعض الفئات الارستقراطية (ابن حوقل ، ٣٧٩) .

(١٢٣) انظر ج دا ، ج ١ ، آخر ٣١٦ – ٣١٧ ، والمقدسي ، ٤٧٢

(١٢٤) المقدسي ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(١٢٥) المقدسي ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، . ٤٠٠ وما تقدم ، فصل ١ ، «البلدان والسلطات » .

(١٢٦) المقدسي، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٨ (عن نحافة، انظر ماتقدم، ح ٩٥)=٣٦٠ ٣٧٠ .

(١٢٧) المقدسي ٣٥٧، – ٣٥٨

لأمه (١٢٨) . فهل هذا تردد ام موضوعية ؟ نميل الى الموضوعية لأنه كان بالاحرى بالمقدسي ان يبدأ بالاشياء السيئة وينتهي بالحسنة بالنسبة إلى بيار ، لكنه عمل العكس . وهذا يعني انه لا يأبه لترتيبها ، وما يهمه فقط عناصر الوصف .

وننتقل الآن إلى اقليم الجبال ، الذي نلمس في الحديث عنه سماحة ابن حوقل الذي يصف بالنبل والشجاعة والنباهة والثقافة — الدينية خاصة — الارستقراطية الارضية او المدينية (١٢٩) ، او مدن الري وقزوين والدينور (١٣٠) . اما المقدسي فيواصل اندفاعه ، فيتناول الاقاليم عامة او بعض المدن ، ويذكر ما لها وما عليها (١٣١) ، ويغالي احيانا بالعيوب : فاصبهان والري جيدتان في زعمه حتى ليمكن تقديسهما او نبذهما (١٣٢) .

ويمثل اقليما خوزستان وفارس في جغرافية الاخلاق ، بلدين متميزين في عرف ابن حوقل ، وبلدا واحدا في نظر المقدسي . فابن حوقل (١٣٣) يروي ان الغالب على اخلاق خوزستان الشراسة والمناقشة

---

(١٢٨) المقدسي ، ٣٤ ، ٣٥٦ — ٣٥٧ ، ٣٦٧ (مهارة في البناء مع التذكير بأسرة ابن حوقل لجهة أمه) .

(١٢٩) ابن حوقل ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ .

(١٣٠) ابن حوقل ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، على النقيض ، نقد ضمني للشرب والقصف والعزف إبان النيروز في سوق كرينه في منطقة اصفهان (ابن حوقل ، ٣٦٤ ، يذكر في ما تقدم ، فصل ٧ ، « المعارض والأسواق ») .

(١٣١) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨٤ . ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩واحالات الحاشية اللاحقة .

(١٣٢) المقدسي ٣٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، آخر ٣٩٠ — ٣٩١ ، ٣٩٩ (وفي أهل اصبهان بله وغلو في معاوية) .

(١٣٣) ابن حوقل ، ٢٥٤ — ٢٥٥ (مع البخل كصفة ثانوية) .

فيما بينهم في اليسير من الامور . وفي عوامهم واهل مهنهم من الرياضة بالكلام والعلم به وبوجهه ، ما يضاهون به الخواص من ارباب البلاد وعلمائهم . ثم يقول حرفيا : « ولقد رأيت حمالا عبر وعلى رأسه وقر ثقيل او على ظهره ، وهو يساير حمالا آخر على حاله ، وهما يتنازعان في التأويل وحقائق الكلام غير (١٣٤) مكترثين بما عليهما في جنب ما خطر لهما » (١٣٥) .

ويحظى اقليم فارس بثقة ابن حوقل باهله لأن العلم شائع فيهم جميعا ، وانهم منزهون عن الاخلاق الدنية (١٣٦) ، ما عدا الأراء المتطرفة في النسك والتصوف بزعامة الحسين بن منصور الحلاج ، او في بعض التشيع او الاعتزال (١٣٧) ، ويذكر ولع اهل بندر سيراف العظيم بالسفر ، وان رجلا منه الف البحر ، ولم يخرج من السفينة نحو اربعين سنة ، وكان اذا قارب البر اخرج صاحبه ، فقضى حوائجه في كل مدينة ولو كانت موطنه (١٣٨) .

أمّا المقدسي ، فلا يزكي خوزستان وفارس . فما يخصان به من مديح ، ينصب في الاساس على الحياة المادية ، والثروة الناشئة عن التجارة ، وانتاج الاصناف الشهيرة وفي طليعتها النسيج (١٣٩) .

---

(١٣٤) عن حقيقة ، انظر ل . غرديه ، م١ (٢) ، ج٣ ، ٧٧ — ٧٨ .
(١٣٥) عن في جنب (بمقارنة) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٩ .
(١٣٦) ابن حوقل ، ٢٠٠ — ٢٩٢ .
(١٣٧) ابن حوقل ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ وما يليها .
(١٣٨) ابن حوقل ، ٢٩٠ .
(١٣٩) انظر ما تقدم ، الفصل ٨ . تستر معدن كل حاذق في عمل الديباج والقطن ، المقدسي ، ٤٩٠ . تلاحظ صيغة المقدسي ، ٤٠٣ ، من أجل خوزستان : « فما أجله من اقليم لولا أهله . . . وأهله شر الناس » .

وما عدا ذلك . فالنواحي الجيدة نادرة جدا ، مثل صحة موازين ومكاييل عسكر مكرم (١٤٠) ، ومثل بعض آثار الفضائل والثقافة التي تقضي عليها العيوب مباشرة تقريبا (١٤١) . ويستشهد بارفع الثقات مثل علي وعمر والنبي نفسه (١٤٢) في اعطاء حكم عام يشمل جميع السكان ، بلا استثناء الارستقراطية (١٤٣) . ونستعيض عن تعداد مسميات هذه اللائحة الحزينة (١٤٤) بالصيغ او الاوصاف التالية : « الاهواز مزبلة الدنيا » ، « رسوم شيراز عار على الاسلام » ، وفي المقابر مجتمع الفساق ، وتنزو النساء كالقطط عندما تزهر الغبيراء ، ودور الزنا بشيراز ظاهرة حتى قرب الجوامع ، يدخلون اليها بقبالات كالحمامات (١٤٥) . فما الداعي إلى هذه الفظاظة ، وهذا التواطؤ في الطرد من المجتمع ؟ ربما لأننا هنا عند البويهيين ، ولأن الاعجاب بنجاح هؤلاء الامراء لا يستبعد التنديد بدورهم عند خلفاء بغداد الخاضعين لوصايتهم ، من خلال تساهلهم الاخلاقي عند رعاياهم :

---

(١٤٠) المقدسي ، ٣٤ ، ٤١٦ .

(١٤١) المقدسي ، ٣٤ ، مدينة فسا) ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ – ٤١١ ، آخر ٤٢٩ – ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، اشير في المخطوطة ج الى تصحيحات لإلغاء مديح أو نقد : المقدسي ، ٤١١ (ح هـ) ، ٤٢٩ (ح م) .

(١٤٢) المقدسي ٤٠٣ ، لا ننسى أيضاً تأثير الجاحظ ، المشار اليه من قبل والواضح ، المرجع ذاته ، من أجل الاهواز .

(١٤٣) المقدسي ، ٣٣ ، ٤١٤ .

(١٤٤) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ (ح ١) ، ٤٠٨ - ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ (عن اغن ، انظر ما تقدم ، ح ٥٩) - ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ (ح ا) ، ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(١٤٥) المقدسي ، ٣٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ (مذكور في ج دا ، ج٣ ٣٣٦ ؛ ٤٧٥) ، ٤٤١ (ح آ) .

ومن هنا على النقيض ، الثناء على الخراسانيين الذين اعتبروا اخلص انصار الخلافة (١٤٦) .

ونعود إلى مزيد من الكلاسيكية في اقليمي كرمان والسند . فالتوازن فيهما دقيق بين الحسنات والعيوب . ففي كرمان (١٤٧) - باستثناء مناطق اللصوصية وفقدان الامن(١٤٨) ذكرت بين ضروب المديح ،سنّة جروم جيرفت الذين لا يرفعون من تمورهم ما اسقطته الريح ، ويأخذه الضعفاء والمساكين بغير كره من اربابها (١٤٩) . ومن بين نواحي النقد ، فساد النسوان (في نرماسير) (١٥٠) . لكن يبدو جميع ذلك في النهاية بجلاء احدى الممارسات القسرية ، واميل إلى الظن بان ايس لابن حوقل والمقدسي ما يقولانه . والبرهان مدينة بم المعتبر سكانها اهل صناعة وحذاقة ، لكنها تنتقد ... لأن عامتهم حاكة (١٥١) .

---

(١٤٦) المقدسي، آخر ٢٩٣ - ٢٩٤ (ابن الفقيه ، ٣١٥) ، ٤٤٨ - ٤٤٩ . الموقف ذاته بالنسبة الى البويهيين والديلم ، بلدهم الأصلي ، لكنه مخفف كما رأينا لهذا البلد ، لأنه أيضاً موطن اجداد المقدسي لأمه . عن التناقض مع خراسان ، انظر أيضاً ج دا ج١ ، آخر ٣١٨ – ٣١٩ .

(١٤٧) ابن حوقل ، ٣١٢ – ٣١٣ ، ٣١٥ ، المقدسي ، ٣٣ ، ٤٥٩ – ٤٦٠ ، ٤٦٢ (و ح ه : تصحيح المخطوط ج) – ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(١٤٨) تعلل اللصوصية بالفقر : ابن حوقل ، ٣١٣ . عن القفص والبلوص والأقوام الأخرى في هذه الأصقاع ، انظر ما تقدم ، الفصل ٣ ، «بعض الأقوام الأخرى» . يلاحظ أيضاً الأنتقاد الخبيث عند ابن حوقل للتفريط في المادة الدينية عند الخوارج خاصة (ابن حوقل ، ٣١٢) .

(١٤٩) ابن حوقل ، آخر ٣١٢ – ٣١٣ (مذكور في ج دا ، ج٣ ، ٤٦٧) .

(١٥٠) المقدسي يذكره مرتين : المقدسي ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ .

(١٥١) المقدسي ، ٤٦٥ .

ويغلب انطباع مماثل في السند (١٥٢) . فليس لاهله « رسوم تذكر » (١٥٣) . والواقع ان الجدل يستهدف التضاد بين البدهة او الميذ النازلين في جميع الاماكن وبين المسلمين الذين يحاولون مناوءتهم بلغتهم العربية وعلمائهم او انصاف علمائهم ، مثل ابي القاسم البصري الذي كان يتولى « القضاء والامارة والبندرة ، وكان لا يعرف ثلاثة في عشرة ، بل كان رجلا من اهل القرآن » (١٥٤) .

والحكم متوازن ايضا في سجستان(١٥٥)وافغانستان(١٥٦).ويبرز ابن حوقل مهارة اهل سجستان وخبرتهم في نقل الرمل العنيد اوالداهم. اما افغانستان . وبدقة الغرج (غرج الشار ، غرجستان) ، شمالي خط يمر في هراة وفي باميان ، فالمقدسي يدوّن ثلاث مرات ، ما بدا له ابرز ما في جميع هذه الارجاء ، وربما في جميع الدنيا : اي مجتمعا كاملا مبنيا على « العدل الحقيقي » ونظر العزيزي الحكيم وبقية من سنن العمرين . وفيه قوم سلماء صالحون من « الطينة الاولى » (١٥٧) .

---

(١٥٢) ابن حوقل ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، المقدسي ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ – ٤٨٢ . عن أهل السند ، انظر ما تقدم ، فصل ٣ مذكور سابقاً .

(١٥٣) المقدسي ، ٤٨١ .

(١٥٤) ابن حوقل ، ٣٢٤ . عن بندرة ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٤ .

(١٥٥) ابن حوقل ، ٤١٥ – ٤١ ، ٤١٩ ، المقدسي ، ٣٤ (عن تاويل انقب ، انظر الترجمة ، ٧٨ ، ح١٣) ، ٣٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(١٥٦) ابن حوقل ، ٤٣٨ ، ٤٤٩ ، المقدسي ، ٣٤ ، ٣٥ (ح ز) ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(١٥٧) من الطينة الاولى : حرفيا من الطبيعة الاولى (طينة ، طبيعة ، خلق ، عن طين «غضار») .

ونختتم باقليمي خراسان وما وراء النهر ، اللذين يوحدهما ابن حوقل والمقدسي (١٥٨) ، لأن خراسان تساند باخلاص القضية العباسية كما قلنا ، ولأن السامانيين في ما وراء النهر ملوك مستنيرون وحكماء (١٥٩) . لذلك يعبر عن الرضى التام عن خراسان (١٦٠) ، ويخص ما وراء النهر بصفحات من التقريظ (١٦١) في ثلاث نواح ، هي حسن السلوك والمعرفة والنشاط البارز بخاصة على التخوم التركية العدوة احيانا . ويقول المقدسي (١٦٢) عن هذه البلدان (في اقاليم المشرق) انها « مفخر المسلمين » واهلها اصحاب دين مستقيم « وقوم لباسهم الحديد ، واكلهم القديد ، وشربهم الجليد » . وعلى وجه الاجمال ، يخلو كلام ابن حوقل عنهم من النقد ، ونقدهم نادر جدا

(١٥٨) نذكر ان البلدين يشكلان عند المقدسي اقليما واحدا يسميه المشرق ، في حين يميز ابن حوقل ما وراء النهر وخراسان (مع افغانستان) وسجستان . ويوزع المديح على المشرق اجمالا ، فيجب ان ينعكس بالتالي حسب المقدسي ، على سجستان وافغانستان ، لكن رأينا في الواقع ان الحكم اكثر تدرجا .

(١٥٩) انظر ما تقدم ، ح ٧٤ .

(١٦٠) ابن حوقل ، ٤٣٠ ، المقدسي ، ٣٣ ، ٢٦٠ ، ٢٩٣ – ٢٩٤ (ص ٢٩٥ ، نقد مختصر لازدياد فساد الاخلاق . انظر أيضاً ٣٢٣ عن المذاهب ، و ٣٣٦ عن العصبيات) .

(١٦١) ابن حوقل ، ٤٦٤ – ٤٧٢ ، المقدسي ، ٣٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ (نقد ضمن مدح « أغلظ رقابا » . بلا شك خطأ نسخ اذ ان التعبير ذاته (اغلظهم رقابا) يصف الأتراك فيما بعد : المقدسي ، ٢٩٤ ، يكرر ابن الفقيه ، ٣١٦) ، ٣٢٣ (مع بعض التحفظات بشأن بعض نقاط ايمان هنا وهناك) ، ٣٣٦ (ملاحظة مماثلة) .

(١٦٢) المقدسي ، ٢٦٠ – ٢٦١ .

وقصير عند المقدسي (١٦٣) . بالمقابل ، المديح (١٦٤) وافر وعام او مفصل في الحديث عن المدن او الرساتيق ، ويبرز مدن مرو ونيسابور وبلخ وسمرقند وبخارى ، ويجعلها منابر الثقافة والاخلاق .

اذن هذا هو وصف الاخلاق في دار الاسلام حوالي العام الف . ولا شك انه متفرق ، الا ان تناثره اضعف بكثير من تناثر جغرافية الامزجة . وفي الاصل، لابد ان نضيف إلى علم المؤهلات الفكرية والاخلاقية اسماء جميع الاعلام الشهيرة المولودين او المتوفين هنا وهناك . فذكراهم ترمز إلى فضائل البلد ، ويحتمل ان تقترن آثارها بذكرى الاتقياء والشهداء والزهاد والعلماء (١٦٥) . وبذا تحبو جغرافية المشاهد بمعرفة الطبيعة البشرية وثيقة اخرى تثبت فائدتها وصحتها .

وقد يؤخذ على هذه المعرفة تأثرها المفرط بميول المصنف السياسية

---

(١٦٣) نادر الى اقصى حد على المستوى العام (انظر ما تقدم ، ح ١٦٠ — ١٦١) وبالتالي في الأساس خاص بمدن أو رساتيق وأقصر من المديح : المقدسي ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ (فضائل وعيوب متوازنة في العرض) ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ . ٣١١ (نقد اطول قليلا لمرو) ، آخر ٣١٥ — ٣١٦ (ملاحظة مماثلة لنيسابور) ، ٣١٩ ، ٣٢٠ : حوالي مرتين أقل من تدوينات الحسنات (انظر الحاشية التالية) .

(١٦٤) من أجل الأمور العامة ، انظر ما تقدم ، ح . ١٦٠ — ١٦١ . من أجل المدن أو الرساتيق ، انظر ابن حوقل ، ٤٣٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ، آخر ٤٥٢ ، ٤٨١، ٤٩٠ ، آخر ٤٩٤ (كثرة الخير تؤدي الى انحطاط اقتصادي) ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ،المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ (انظر ح . سابقة) ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٣٠١ — ٣٠٢، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤ — ٣١٥ ، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ ، آخر ٣٢٧ — ٣٢٨ ، آخر ٣٣٢ .

(١٦٥) عن«جغرافية الشفاعات الروحية» ، انظر ما تقدم ، فصل ٢ ،«الايمان بالأعمال والسفر » .

او العاطفية ، وبتخصيص حيز كبير للمؤلف . مع ذلك ، لم يزعم ابن حوقل والمقدسي البتة ان شخصيتهما تزول في كتابيهما . فقد كانا يتوخيان تأسيس جغرافية بشرية يثبت فيها الانسان وجوده في البداية والنهاية من خلالهما وعبر الكائنات البشرية المعاينة (١٦٦) . بالتالي ، يتحتم تدوين المعطى الانساني في جغرافية ابن حوقل والمقدسي مثلما تصوراه وحسب اهميته الكبرى ، ولا يجوز رفض هذا الاجراء ، والا اتهمهما الباحث زورا .

* * *

(١٦٦) انظر ج دا ، ج٢ ، ص ١٢ روماني .

الفصل الثاني عشر

الناس في الأسرة والمجتمع

كيف يتصرف هؤلاء الناس الذين تحدثنا عن بنيتهم الجسدية ، وعن تكوينهم الذهني والاخلاقي ، في حياتهم اليومية ؟ هنا ايضا ، لا يهم الوصف العام ، النادر جدا ، الجغرافيين العرب ، مثلما تهمهم بعض الخصائص المميزة . وتبدو عادات الطبخ المحلية في نظر ابن حوقل او المقدسي ، جذابة إلى اقصى حد ، اكثر من العادات التي تقارن بها ليحكم عليها ، ونحن لا نعرفها في الغالب . ويستحيل تقريبا استخلاص وصف شامل للطعام اليومي في دار الاسلام حوالي العام الف من نصوص الجغرافيين .

بعض الاطعمة

بعد هذا التمهيد ، لا يجوز الظن بان ما لدينا من وسائل ، اعني الجغرافيين ، محدود لا يعتد به . وبرهاننا على ذلك ، ما يقرب من عشرين مصطلحا فنيا ، جمعناها من كتابي ابن حوقل والمقدسي ، ما عدا اسماء الاصناف مثل الخبز او السمك او الارز . ولنا استطراد

من هذه المواضيع الطبخية ، نود ان نعرضه قبل الدخول في صميم بحثنا .

تقضي آداب الرجل الشريف ان يتقيد باصول الجلوس إلى المائدة كما جاءت في ثقافة العصر العامة ، التي لم تدرج الاطعمة في عداد المعارف الموصى بحفظها . ونشير إلى بعض الامثلة المتفرقة عليها : كالمقارنة بين الاطعمة وآثارها من جهة وبين عناصر الجسم الاربعة الدم والمرة الصفراء والمرة السوداء والبلغم ، وافضل الاوقات لاستهلاكها من جهة اخرى ، ومن هنا جاءت فكرة النظام الغذائي المنسجم مع المزاج (١) . والجاحظ ، امام الادب العربي ، بخاري ، هو ايضا ، مثلا في حديثه عن عادات البدو الغذائية التي يتجلى فيها كرم العرب وضيافتهم(٢). ويذكر الجاحظ شراب العسل الذي ينتبذ في مصر ، ويتخذ ، على حد قول ابن الفقيه ، في زمان مدود النيل ، ويعمل من ذلك الماء الخاثر الكدر ، لا من الماء الصافي النقي (٣) . واختم هذا الاستطراد المختصر بما ذكره ابن الفقيه من ان اول من ثرد الثريد عمرو ، وهو هاشم بن عبد المناف ، والد جد النبي (٤) .

لنرجع الآن إلى الاسماء التي اعلنا عنها من قبل . فتسعة منها تختص بالمعجنات والحلويات والمربيات وغيرها من السكاكر (٥) ،

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد ، ج٦ ، ٣٠٨ وما يليها (انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ٥٣٣) . عن ادب الفقه والحديث ، انظر مثلا البخاري ، ج٣ ، ٦٥٤ وما يليها

(٢) انظر ش . بيلا ، مجلة ارابيكا ، ٢ روماني ، ١٩٥٥ ، ص ٣٢٢ وما يليها ، في حديثه عن الفصل الأخير من كتاب البخلاء . نذكر بان الجاحظ الف في الموضوع ذاته كتاب اطعمة العرب .

(٣) الجاحظ (ح) ، ج٥ ، ص ٤٢٩ ، نقله ابن الفقيه ، ٦٦ .

(٤) ابن الفقيه ، ١٨ ، انظر عن تجديد آخر في مجال الغذاء ، ابن رسته ، ١٩٢

(٥) م ج ع ، ج٤ ، لفظة افروشة ، عسل القطر ، عصيدة ، حيس ملبن ، ناطف ، نيده ،قبيت ، سمنو .

يليها ، في ثلاثة استشهادات ، الخبز والجبن والملح (٦) ، وضروب القديد والحساء والهريس والمسلوق (٧) ، واخيرا اللحم المذكور مرة واحدة (٨)

لا ريب ان هذه الاطعمة اصناف محلية ، لا يجوز ان تنسينا كل ما ورد في كتابي ابن حوقل والمقدسي عن الثمار والسماك (٩) ، والارز ، والعسل ، اضافة إلى الخمور . ويعثر في شرح هذه الأصناف ذاتها على بعض المعطيات الممتازة ، المعروفة اصلا ، والداخلة في تاريخ التغذية في الشرق (١٠) : مثل طعم السكر بل الولع به ، وهو غذاء اساسي مصنوع من خبز وألبان ، ومثل اهمية الملح الذي يسهم مع التوابل الاخرى بتبديل وتيرة مطبخ ثابتة لا تتغير الا في حالات استثنائية : فاللحم المذكور منفردا مرة واحدة (١١) ، كما قلت ،

---

(٦) انظر على التوالي م ج ع ، ج٤ ، لفظه اثير ، كعك ، رستاقي ، حالوم ، رخبين ، شيراز (الحليب يدخل أيضاً في تركيب اطباق اخرى) : انظر ملبن في ح . سابقة) منثور (ملح ناعم)، مرى (مملح) نفطي (ملح رائحته نفطية غريبه جدا) .

(٧) المرجع ذاته ، لفظ بيسار ، هريسة ، ثريد .

(٨) المرجع ذاته ، لفظ نمكسود بقي لختام هذه اللائحة : ندا أو نده ، وهو غامض .

(٩) حوالي ثلاثين اسما تشير اكثريتها الساحقة الى اسماك نهر دجلة (المقدسي ، ١٣١ ، ح يو من ١٣٠) انظر م ج ع ، ج٤ ، الفاظ : العروس ، العين (العير) ، البمي ، البرسوح ، البيضاوي ، البني ، الدبقاة ، الجري ، الحراق ، الاربيان ، الاسبول ، الكرتلك ، المارماهي ، الربلتي (الربيثي) ، الرماين ، الساح ، السائم ، الشلاني ، الشليق ، الشوب (السرب) ، الشيم ، سرماهي ، صير ، تريخ ، عشب ، ورق ، زجر ، الزجر ، زراقن ، الزنجور . (القرش ، المذكور عند المقدسي ، ١٠١ ، ح . يد ، انه رديء)، انظر الأسماك في ج دا ، ج٣ ، ٣٦٥ وما يليها .

(١٠) انظر م . ر رودنسون ، غذاء ، م١ (٢) ، ج٣ ، ١٠٨١ - ١٠٩٧ .

(١١) نمكسود تعني لحماً مقسما الى شرائح مملحا ومبهرا (المقدسي ١٤٥ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦ و م ج ع ، ج٤ ، ٣٦٨) .

يطبخ عادة قطعا مخلوطة مع شيء مساوق او يخنة او حساء . وكنت اتحدث عن الشرق. الا ان هذه الاطعمة، او بعضها على الاقل ، تمثل عادات شاعت في العالم القديم في القرون الوسطى على مدى زمني طويل جدا (١٢) .

ونذكر بعض الخصائص من هنا وهناك ، قبل ان نصل إلى جغرافيي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فثمر البلوط احلى من اي مكان في سهل فحص البلوط الشهير في الاندلس . والسمك وافر في مصر ، وهو من حقيقي يسقط على رمال الساحل ، ولا يحتاج إلى صيد (١٤) . وطين الاكل مشهور بنيسابور ، لكن استبدلته جزيرة العرب بورق التنبول (١٥) . وفي اليمن لحم ضانهم وبقرهم لا ينضج الا على الجمر (١٦) ، ويحفظون الشهد الحصوري الماذي (١٧) على الوجه التالي : يحرونه في الشمس ، ويصيرونه في عقود قصب اليراع ، ويضعون قصبته اياما في بيت بارد حتى يعود إلى جموده ، ثم تختم افواه القصب ، ومتى اريد تقديمه على الموائد ، تضرب الارض بالقصبة ، فتنفلق عن اصبع عسل يقطع بالسكين .

(١٢) تخزين اللحم في اوربة « اللاحمة » : انظر ف . بروديل ، الحضارة المادية . والاقتصاد والراسمالية ، من القرن ١٥ الى ١٨ ، ج١، بنيات . الوضع اليومي: الممكن والمستحيل ، باريس ، ١٩٧٩ ، الفصل ٢ و ٣ .

(١٣) الرازي ، ٨٣ . تلاحظ عنده أيضاً الاحالات إلى القنص والصيد : الرازي، ٩٠ – ٩١ .

(١٤) اسحاق ، ٤٤٧ (منطقة تنيس) .

(١٥) ابن رسته ، ١١٢ .

(١٦) إبن رسته ، ١١٢

(١٧) الهمداني ، ١٩٨ – ١٩٩ .

الاطعمة الاساسية

والآن نتبع ابن حوقل والمقدسي . لكن قبل الحديث عن الاطعمة ، نقول بضع كلمات عن المطبخ عامة . ولا يتوفر لدينا الا النزر القليل عنه في الحقيقة. ويقال ان مدينة فربر في اقليم ماوراء النهر مقصودة لفاخر المطاعم والمآكل اللذيذة الطيبة (١٨) . ويعدد المقدسي عرضا بلا توقف بعض الاطباق المألوفة عند بعض الفئات الاجتماعية او المهنية او غيرها كهرائس الصوفية ، وثرائد الخانقائيين ، وعصائد النواتي ، والخبز والجلبان في اديرة الشام النصرانية ، وحساء البلوط المحلي والشعير عند صوفيي اسحاق البلوطي في جبل الجولان(١٩). اخيرا تُعدُّ أهمّ من ذلك الفوارق والمقارنات الواردة عند المقدسي (٢٠) : " ولهم الافرنة ، والقرياقيين الطوابين ، تنور في الارض صغير ، قد فرش بالحصى . فيوقد الزبل حواله وفوقه . فاذا احمر ، طرحت الارغفة على الحصى (٢١) . وبه طباخون (٢٢) للعدس والبيسار . ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويسلقونه (٢٣) ، ويباع مع الزيتون . ويملحون

(١٨) ابن حوقل ، آخر ٤٨٩ .

(١٩) المقدسي ، ٤٤ ، ١١٨ . عن السيق (دير شامي من الطقس الملكي) ، انظر المرجع ذاته الترجمة ، ١١٢ ، ح ١٤ .

(٢٠) المقدسي ، ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢١) لا يقول النص اذا كانت الأرغفة توضع مباشرة على الحصى أو على اثافي موضوعة فوق الحصى. زبل يمكن ان تعني أيضاً قش الدواب، قش الاصطبل: انظر دوزي، ج ١ ، ٥٨٠ .

(٢٢) عن طباخ ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٨٢ .

(٢٣) عن سلق عوضا عن السلق ، انظر م ٦ ع ، ٤٦ ، ٢٨٢ ، و دوزي ، ج ١ ، ٨٤٣ .

الترمس ، ويكثرون اكاه . ويصنعون من الخرنوب ناطفا ، يسمونه القبيط . ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفا . ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين ، غير مشبكة (٢٤) . وعلى اكثر هذه الرسوم اهل مصر ، وعلى اقلها اهل العراق واقور » .

ويبدأ الطعام بالخبز (٢٥) . وتقدر اهميته بسهولة بالانتباه إلى سعره (٢٦) ، وصنعه (٢٧) ، وتجارته (٢٨) ، وجودته او رداءته : الخبز الحواري ، من بر صافي لا نظير له ، معجون بالزيت والادهان(٢٩) او على النقيص ، اثير ، ويسكر استهلاكه (٣٠) . ويلي الرز الخبز ، ويصنع منه خبزا او لا يذكر عن اكله شيء في البلدان الواقعة على شواطيء بحر الخزر وفي افغانستان وخوزستان والسند حيث يستهلك المسلمون خبز الحنطة والوثنيون خبز الارز (٣١) . ويقال عوضا ان دقة الاختصار من اكل الاور (٣٢) . اخيرا تأتي الذرة والدخن بعيدا

---

(٢٤) مشبكة : معمول بشكل دقران مع خطوط مليئة بالعسل (م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٠
(٢٥) اضافة الى الاحالات المذكورة فيما يلي ، يمكن الرجوع الى ما قيل من قبل ، فصل ٨ ، و ج د ا ، ج ٣ ، فصل ٥ و ٦ .
(٢٦) ابن حوقل ، ٣٣٥ .
(٢٧) ابن حوقل ، ٣٤٦ (بورق الخبازين) ، المقدسي ، ٢٠٥ (مجفف في مصر
(٢٨) ابن حوقل،آخر ٣٣٧ (علامة انحطاط مدينة : ٥ خبازين عوضا عن ١٢٠٠ في الماضي) .
(٢٩) المقدسي ، ٣٣ ، آخر ١٥١ ، ١٩٩ ، ٣٥٧ ، ٣٠٧ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ٤٢٩، ٤٦٩. عن حوارة وحواري، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٠ ، و دوزي، ج ١ ، ٣٣٤ .
(٣٠) المقدسي ، ٣٥٩ (عن اثير ، من اليونانية اثر ، حساء طحين أو برغل ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٧٧) . يسكر : حرفيا : يفقد العقل .
(٣١) ابن حوقل ، ٣٨١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، المقدسي ، ٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧١ ، ٤١٦ ، ٤٨٠ . عن تقدمه نحو الغرب ، انظر ٦ ج دا ، ج ٣ ، ٤٠٥ .
(٣٢) المقدسي ، ٣٧١ .

وراء الارز ، في اصبهان وجزيرة العرب الجنوبية وجامة كرمان والهند (٣٣) .

والبقول عنصر آخر اساسي في الغذاء ، يذكر الجغرافيون ، زراعتها (٣٤) ، ونادرا اعدادها او استهلاكها وتكثر في انحاء بحر الخزر ، حيث يقول المقدسي ان حدة الابصار وحسنها من اكل الخضرة (٣٥) . وتلتهم صقلية البصل التهاما (٣٦) : اخيرا في مصر من خصائص فلسطين ، القلقاس (٣٧) . ويذكر اللحم في تدوينات متفرقة واذربيجان مستهلكة كبيرة له (٣٨) ، واستهلاكه ضئيل في مصر (٣٩) . وكل ما تبقى اعراف غريبة او مرفوضة : وفيما يتعلق باعداد اللحم ، لا يسلخون في المغرب الاغنام اذا شووها (٤٠) . وفي بونه ، قل من اهلها من تفوته الخيل السائمة للنتاج ، وليس ، للحمها (٤١) : وفيما يختص باكل اللحم . يربون في مصر — القبطية

---

(٣٣) ابن حوقل ، ٣١٢ ، ٣٦٦ ، المقدسي ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٤٧٠ .

(٣٤) انظر ج دا ، ج٣ ، ٤١٤ وما يليها .

(٣٥) المقدسي ، ٣٧١ .

(٣٦) ابن حوقل ، ١٢٣ — ١٢٤ ،ذكر من قبل،فصل ١١ ،«ابن حوقل»،والمقدسي التركة الموروثة .

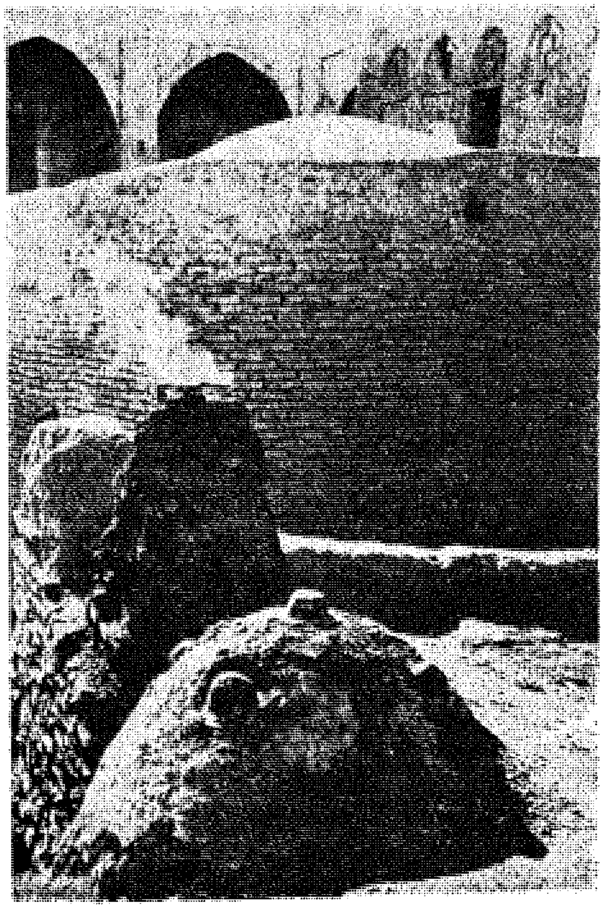
(٣٧) المقدسي، ٢٠٤ (و ح ج) . عرف مشترك مع فلسطين (عن القلقاس انظر ج دا ، ج٣ ، ٤١٧) ينبغي اكمال اللوحة بكل ما قيل عن بستان البقول (ما تقدم ، ح ٣٤) . عن فلسطين مثلا ، انظر ما تقدم فصل ٨ ، «الحقل والمحرف». .

(٣٨) ابن حوقل ، ٣٣٥ (مدينة اردبيل) من خلال تحديد اسعار متدنية جداً ،

(٣٩) المقدسي ، ٢٠٥ .

(٤٠) المقدسي ، آخر ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٤١) ابن حوقل ، ٧٦ .



(تصوير توماس هوبكر / الأكبر)

فرن خبز في فارس

طبعا – قطعانا كبيرة من الخنازير ، ويأكلون لحم الكلاب (٤٢) في المجاعة في الهرائس : وتباع لحوم الكلاب على القنارات في مدينتي قسطيلية ونفطة في المغرب (٤٣) . وهنالك شواذات وفظاعات اخرى : ففي القازم في موقع قفر ، قرب سويس الحالية ، يأكلون لحم التيس (٤٤) ويقددون الرئة في اليهودية (اصبهان) ويقدمونها في المآدب (٤٥) .

ولا تذكر الدواجن والطرائد الا عرضا عند تسمية الطيور وغيرها ، مثل الدجاج ، والدجاج السندي والسماني ، والحجل او اليربوع الذي يتذوقه كثيرا بدو جزيرة العرب (٤٦) . واصناف البحر والمياه العذبة اوفر انتشارا (٤٧) . ويعد السمك طعاما اساسيا في مجمل دار الاسلام . مهما يكن يعثر عليه على شواطىء بحر الروم وفي جزيرة العرب الجنوبية ، وفلسطين ، وبحيرتي طبرية والحولة حيث يربى السمك البني العراقي ، وفي الجزيرة وارمينية واذربيجان ، وعلى سواحل بحر الخزر ، وفي العراق ، وفي بحيرات فارس وسجستان ، حيث يكثر جدا حتى انه يؤكل مع جميع الاطعمة (٤٨) . ومن رسوم

---

(٤٢) المقدسي ، ٤٠ (مع المدينة ، العصائد) ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ .

(٤٣) المقدسي ، ٤٠ ، ٢٤٣ .

(٤٤) المقدسي ، ١٩٦ .

(٤٥) المقدسي ، ٣٨٨ ، ٣٩٩ .

(٤٦) انظر ج دا ، ج٣ ، ٣٤٧ – ٣٥١ .

(٤٧) المرجع ذاته ، آخر ٣٦٦ – ٨ ٣ ، ٣٧٥ – ٣٧٧ .

(٤٨) ابن حوقل ، ٣٨ (علف الابل : انظر ج دا ، ج٣ ، آخر ٣٧٦) ، ٧١ ، ٢٧٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٨١ ، ٤١٧ ، المقدسي ، ٨٧ ، ٩٨، ١١٨، ١١٩ ، ١٣١ (ح يو من ١٣٠ ، قائمة اسماك نهر دجلة : انظر ما تقدم ح٩) ١٤٥ (تحمل من الموصل) ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٤٤٦ .

مصر ، حسب المقدسي ، حبهم المفرط لرؤوس السمك ، واكثارهم من اكل الدلّينس الذي يفلقون زلفتيه ، ويحتسونه مثل المخاط(٤٩) .

ويعتبر اللبن ومشتقاته احد الاطعمة الاساسية الاخرى ، ويشتهر بها جميعا اقايم الجبال . بجودتها فيه وتنوعها(٥٠) . ويعد الحالوم(٥١) احد الاجبان الشهيرة في مصر : وتمثل الفواكه على الاجمال انتاجا شهيرا في بعض البلدان مثل فلسطين وارمينية واذربيجان وصغانيان على ضفة نهر جيحون الاعلى اليمنى (٥٢) ، وتقطف من البساتين او تؤخذ من البرية ، ويتبوأ مكانة خاصة بينها البطيخ الاخضر والاصفر ، والخوخ ، والمشمش ، والعناب والتين ، واللوز والجوز ، والتفاح والاعناب والتمور التي تؤمن قسما كبيرا من الغذاء في جزيرة العرب وكرمان (٥٣) :

مواد الطعام وما يؤخذ معها

ويحتاج اعداد الطعام بالدرجة الاولى إلى الزيت ، اي زيت الزيتون الذي يأتي معظمه من المغرب والشام (٥٤) : ولا نظير لزيت الانفاق (امفاكيون باليونانية) في فلسطين ، المأخوذ من الزيتون قبل تمام

---

(٤٩) المقدسي ، ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٥٠) ابن حوقل (جزيرة العرب الجنوبية) ، ٣٧٣ (ترجمة ، ٣٦٤ ،ح ٨٧٢–آ) المقدسي ، ٣٣ .

(٥١) المقدسي ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٨ ودوزي ، ج١ ، ٣١٨ (جبن مالح) .

(٥٢) المقدسي ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٥٣) ابن حوقل ، ٣٨ ، المقدسي ، ٤٧٠ ج دا ، ج٣ ، ٤١٤ – ٤١٥ ، ٤٤١ وما يليها .

(٥٤) انظر ج دا ، ج٣ ، ٤٥٠ – ٤٥٢ .

نضجه (٥٥) . ويذكر الملح في جميع انحاء دار الاسلام ، ويستخرج من المنجم او من ماء البحيرات ، ويعثر عليه من تخوم صحراء المغرب إلى اقليم ما وراء النهر ، مرورا بفلسطين والجزيرة والعراق وخراسان وفارس (٥٦) . ولا يكفي اعداد الاطباق . ولابد من تحسينها ايضا : فعلى مائدة المسلم في العام الف . يؤكل الثوم لأنه يطيب النكهة (٥٧) والسمسم (٥٨) والحلتيت (٥٩) . ويضاف اليها البصل في صقلية في الحد الادنى ، لأن اهلها يضعونه في جميع المرق ، ثم الترمس الذي يملحونه ويكثرون اكله في اقليم الشام (٦٠) : ويحلونه في مصر ، ويملحونه ويحمل الى بخارى (٦١)

انتهت مواد اعداد الطعام ، ومواد تحسينه : بقي استعراض ما يتناوله الناس معه . ويذكر ابن حوقل من الحلويات ناطف الزبيب المعمول في منبج بالجوز والفستق والسمسم ، الذي ليس له شبه الا ما ببخارى منه ، فانه يزيد عليه حلاوة ، ويجعل البخاريون فيه الطيب على العموم ، فهو لذيذ (٦٢) . ويبدو المقدسي اشره من ابن حوقل ، فهو ينظم قائمة حقيقية بالتحليات : ونتغاضى عن العسل الصافي ، ولو كان من رحيق الزعتر وما اشهاه (٦٣) ، وننتقل إلى المآكل

---

(٥٥) المقدسي ، ١٨١ ، م ج ع ، ج ٤ ، ١٨٢ ودوزي ١٦ ، آخر ٤١ — ٤٢ .

(٥٦) ابن حوقل ، ٩٢ ، آخر ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٢٧٧ ، ٤٨٧ (ملاحات) ، ٥٠٢ ، المقدسي ، ١١٩ ، ١٨٤ (البحيرة المنتنة) ، ٣٣٣ ، ٤٤٦ . عن سباخ البحر المتوسط الكاثوليكي ، انظر بروديل ، الحضارة المادية ، ج ١ ، مشار اليه .

(٥٧) ابن حوقل ، ٣٨١ ، المقدسي ، ٣٥٩ ، ٣٧١ .

(٥٨) ابن حوقل ، ٣٦٦ .

(٥٩) ابن حوقل ، ٤١٨ (انظر ج دا ، ج ٣ ، ٤٢٢) .

(٦٠) المقدسي ، آخر ١٨٣ ، ذكر من قبل .

(٦١) المقدسي ، ٢٠٤ (و ح ج) : انظر ٦ دا ، ج٣ ، ٤١٦ .

الطيبة فعلا . فالعصيدة حساء مُحَلّى بالعسل او التمور (٦٤). والحيس طعام من التمر المعجون والدقيق والسمن واللبن (٦٥) ، على ما جاء في المعاجم . والناطف ايضا نوع من المعجنات مع الفواكة (٦٦) وافضلها جميعا النيدة والافروشة . فالنيدة معروفة في مصر والشام وبلدان فارس التي تسمى فيها سمنو ، وتصنع من حب البر المنقوع والمجروش والمطبوخ بالماء كي يعطي نوعا من العجينة الحلوة التي تجفف (٦٧) . اما الآفروشة (٦٨) فتشتهر بها مدينة بيار ، موطن اجداد المقدسي لأمه ، بين بحر الخزر وخراسان . وهي هدية حتمية في حفلات الزواج ، التي تختتم بها بعد تناول طبق من اللحم المجرد من العظام ، والمرق والارز . وتعد من الدقيق والسمن والدوشاب (٦٩) . ويمكن ان تحفظ مدة طويلة تمتد شهورا . وتفضل طازجة على كل شيء .

---

(٦٢) ابن حوقل ، آخر ١٨٠ – ١٨١ .

(٦٣) المقدسي ، ٣٣ ، ٨٤ ، ٨ ، ١٨٤ . انظر أيضاً عسل القطر : المقدسي ، ٤٠٢ و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٢٧). القبيط (ذكر من قبل) والمعجنات بالألبان (ملبن : المقدسي ، ١٨١ ، ٣٢٥ ، ٣٢ و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٤٧) .

(٦٤) المقدسي ، ٤٦٨ و ح ج) ، ٤٧٠ .

(٦٥) المقدسي ، ٢٠٤ .

(٦٦) المقدسي ، ٣٧٦ ، في الشام ، معدة بالسكر : المقدسي ، آخر ١٨٣ – ١٨٤ ، ذكر من قبل .

(٦٧) المقدسي ، ٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ (ح ج) ، ٢٠٦ ، م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٥ (لفظ سمانا) ، ٣٦٩ ، ودوزي ، ج ٢ ، ٧٤١ .

(٦٨) المقدسي ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ (و ح يا) ، م ج ع ، ج ٤ ، ١٧٥ .

(٦٩) دوشاب ، انظر ابن الفقيه ، ١٢٤ ، ترجمة ، ١٥١ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٤٠ (عسل : انظر المرجع ذاته ، ١٧٥ ، لفظ افروشة) .

ايجب ادخال طين الاكل في عداد الوان الموائد الطيبة ؟ انه مستحب كثيرا ، ولو اعتبر من الاصناف الاضافية . وهو يؤكل اخضر لمّاعاً ويحمل من فارس وخراسان إلى بلدان الترك وإلى مصر (٧٠). والاشربة مرغوب بها جدا ، والخمر والاشربة المخمرة (٧١) مضمنة في وصف الذين يكثرون الشرب ويسكرون (٧٢) : ويرد ذكر شراب النارجيل ، والمزر ، وشراب العسل في مصر ويستعمل له ماء فيضان النيل ، كما يقول الجاحظ (٧٣) : الا ان الماء يظل افضل شراب ، خاصة اذا برد بجمد (٧٤)

الاستشفاء ان امكن

اشرنا إلى الطب في الفصل السابق ، عندما تحدثنا عن علاقات الجسم بالعالم ، التي تتحكم بالطبائع والامزجة والخلق : وهذه معارف قديمة في الحقيقة ، ترافقت مع غيرها في مهد الجغرافية العربية ، ثم مثلت ، عندما نظرت إلى ارض البشر والشعوب الغريبة عناصر الاطار الطبيعي في دار الاسلام : كالتراب والمياه والحيوانات والنباتات (٧٥) .

---

(٧٠) ابن حوقل ، ٢٩٨ ، آخر ٤٤٦ — ٤٤٧ ، المقدسي ، ٣٢٦ (وح يه) ، م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٣ وما تقدم ح ١٥ .

(٧١) المقدسي ، ٢٠٠ .

(٧٢) مثال ابن حوقل ، ٣٦٤ ، المقدسي ، ٧ ، ٢٠٠ .

(٧٣) ابن حوقل ، ١٦١ ، ٣٢٤ ، المقدسي ، ٣٩٣ . عن فقاع ومزر ، انظر دوزي ، ج ٢ ، ٢٧٤ و ٥٨٧ .

(٧٤) ابن حوقل ، ٣١١ ، ٣٦٤ ، ٣٨٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ (توزيع ماء مسبل بجمد في شوارع سمرقند : انظر ما تقدم ، فصل ١٠ ، «المدينة والماء») المقدسي ، ٤٣٩ ، ٤٦٦ .

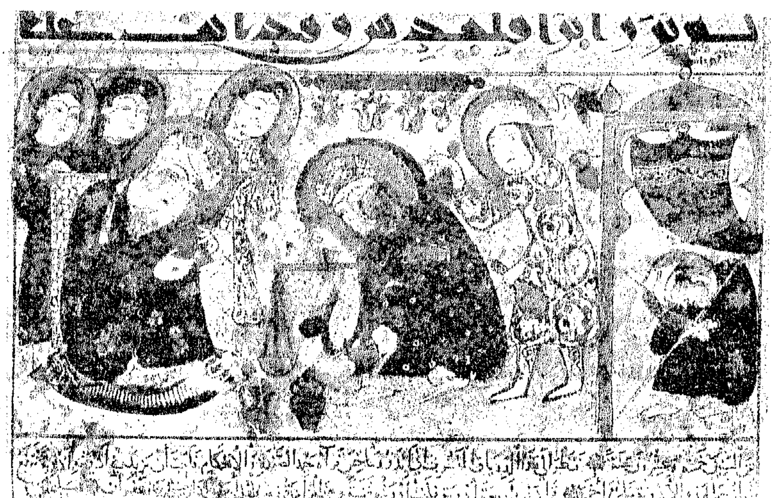
(٧٥) انظر ج دا ، ج ١ ، ١٦ — ١٧ ، ج ٢ ، ٣٤ وما يليها ، والفهرس ، آخر ٦١٦ ، ٦١٨ ، ج ٣ ، اماكن متفرقة .



تصوير المكتبة الوطنية ، باريس   المكتبة الوطنية ، المخطوطات العربية ورقة ١٥

استشارة طبية

تصوير المكتبة الوطنية ، باريس   المكتبة الوطنية ، المخطوطات العربية ، ٢٩٦٤ ورقة ١٧



ولابد من العودة اليها مرة اخرى ، وفي مملكة الاسلام دوما ، لكي نرى كيف يعتني الانسان بصحته ، ويشفى باذن الله . وفي البدء نطرح سؤالا ينصب على احتمال استمرار المواضيع ، من النصوص الاولى التي نشأت فيها الجغرافية العربية إلى المتون التي شاهدت ازدهارها النهائي في نطاق وصف دار الاسلام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ونميز هنا مجالين : من جهة اولى مجال التطورات النظرية في الطب واسمائها ومبادئها ومناهجها ، مثلما نراها معروضة عند المسعودي مثلا (٧٦) ، ومن جهة ثانية التطبيقات . لكن يجب ان نحدد معنى هذا اللفظ . اجل يعلن الهمداني (٧٧) ان حشائش اليمن « فيها اكثر حشائش العقار . لكن اهلها البدوية لا يعرفونها ، وانما يعرفها الحكيم من الناس من اهل صناعة الطب »، اي فن الطب وممارسته . ويبني هذا النص التمرين على المعرفة (٧٨) . لكن كم من النصوص غيره ، ان لم نقل

---

(٧٦) المسعودي (م)،ج٧ ، ١٧٣ – ١٨٠ . يلاحظ ان مصنف ادب مثل مصنف ابن الفقيه يغفل ذكر اسماء الأطباء العظام : فلا يذكر جالينوس وبقراط لايشار إليه إلا في سياق الحديث عن علاقات الجسم بالوسط ،أو في سياق معطيات خرافية : ابن الفقيه، ١٥٢، ٢٣٨، ٣٠١ .

(٧٧) الهمداني ، آخر ١٣٣ .

(٧٨) يحتل القمة عالم مثل ابن البيطار طبعا . لكن يمكن جمع امثلة اخرى هنا وهناك في كتب الادب : انظر البيهقي ، محاسن ، ٢٩٤ – ٢٩٦ (نصائح طبية وصحية) ، ابن عبد ربه ، العقد ،ج ٦ ، ٢٢٩ – ٢٣٠ (الطب والفصول) ، ٢٣١ ، ٢٧١ (الصحة العامة والجنس) . عن الفقه والحديث ، انظر البخاري ، ج٤ ، ٥٠ وما يليها ، ٦٢ وما يليها .

كل النصوص تقريبا ، تجعل صناعة الطب نتيجة بسيطة ناشئة عن استعمال اختبر (٧٩) ان لم يكن ظنا طارئا او وهما فقط .

ومتى وضعنا النظرية والتطبيق ، يسهل علينا كثيرا اثبات احتمال استمرار المواضيع . فالنظرية لا ترد البتة في مصنفي ابن حوقل ، والمقدسي (٨٠) . لكن على ضوء ما بيناه بدقة ، استمر التطبيق يلهم الجغرافيين العرب حتى عهد هذين الكاتبين ، ولا نرى بالتالي ما يدعو لتمييزهما هذه المرة . والافضل ان يوزع المعطى حسب اسس هذا الطب اليومي ، طب العوام اي جميع الناس تقريبا : مع ذلك نعلم ان هذا الطب لا يعرض عرضا منهجيا مثلما يعرضه مصنف اختصاصي لابن البيطار او سواه ، بل حسب ما يبين في هذا المظهر الخاص او ذلك وفي مناسبته .

ونبدأ بالمياه . فاحيانا يُكْتَفَى بتحديد نجوعها في العلاج ، ولا شيء آخر (٨١) . لكن على وجه العموم ، يحدد اصلها اولا : وهو عين دائما تقريبا ، ونهر في بعض الاحيان (٨٢) ، ثم نوعيتها : هل تستحيل إلى حجر ، ام هي مرة او آزوتية ، او كبريتية او قيرية(٨٣) ،

---

(٧٩) عند ابن البيطار نفسه .

(٨٠) ذكر جالينوس مرة واحدة عند ابن حوقل ، في سياق الاشارة الى وجود قبره في تنيس . ابن حوقل ، ١٦٠ .

(٨١) الشابشتي ، ١١٥ ، مسعر (ب) ، ٢١ ، المقدسي ، ٤٤٨ .

(٨٢) ابن الفقيه ، ١٧٥ (الفرات) . انظر أيضاً المقدسي آخر ٣٩٦ — ٣٩٧ (رشح كرشح العرق لا يسيل ، دون تحديد الافادة منه) .

(٨٣) مسعر (ب) ، ١٠ ، ١١ ، ٢١ ، ٣٨ ، الشابشتي ، ١٩٧ .



تصوير المكتبة الوطنية باريس

المكتبة الوطنية المخطوطات العربية ٢٥٦٤ ورقة ٥ روماني

الترياق . إعداد عقار

وعلاقتها بالشهر او بوقت معين من النهار (٨٤) ، وطريقة المعالجة(٨٥) وعضو الجسم الواجب معالجته (٨٦) ، ومزية معنوية منسوبة إلى المياه كما في حوض الطهر في مصر ، الذي تملأه عين من جبل ، فاذا مس الماء جنب او حائض ، انقطع من ساعته وانتن ما في الحوض منه ، حتى ينظفه الناس ، فيعود الماء إلى الجريان (٨٧) . وتسترعي الانتباه العلة الواجب شفاؤها (٨٨) في معظم الاحيان ، كما نتوقع : كالحمى ، والبواسير ، والكلب ، والجرب ، والبثور والجروح ، والقوباء ، والنفس الرديء ، ومضاعفات السكري ، واصابات العيون او الطحال ، والامساك ، والخناق ، والكآبة والحصاة (٨٩) .

ونذكر على وجه التخصيص المياه الحارة المعدنية (٩٠) في فلسطين وارمينية او بلدان فارس النافعة في علاج التهاب المفاصل ، والجروح ،

---

(٨٤) ابن رسته ، ١٥٨ (تير شهر فارسي) ، مسعر (ب) ، ٣٨ (صائ) ، المقدسي آخر ١٨٥ .

(٨٥) مسعر (ب) ، ٣٨ (غسل) ، المقدسي ، آخر ١٨٥ (غسل) .

(٨٦) مسعر (ب) ١٥ (العيون) .

(٨٧) ابن رسته ، ٨٢ .

(٨٨) انظر العرض المنهجي عند المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٧ (شتى تايرات المياه المتنوعة) .

(٨٩) ابن رسته ، ١٥٨ ، ابن الفقيه ، ١٧٥ ، الهمداني ، ١٠٤ ، الشابشتي ، ١٩٦ – ١٩٨ ، مسعر (ب) ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ٣٨ ، المقدسي ، ٤٤٤ (عن عنا ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٦) . عن حفاء (تقرح الأرجل من جراء فرط السير ، خاصة على الرمال الحارقة) ، انظر دوزي ، ج ١ ، ٣٠٥ .

(٩٠) ابن رسته ، ١٥٨ ، مسعر (ب) ، ١٠ – ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٣ ، الهمداني ١٠٤ ، ابن حوقل ، ٣٦٦ ، المقدسي ، ١٨٥ (و ح . ١٠) ، ابن حوقل ٤٨٨ ، يذكر حمة في ما وراء النهر ، لكن دون تعيين وجهة العلاج بها .

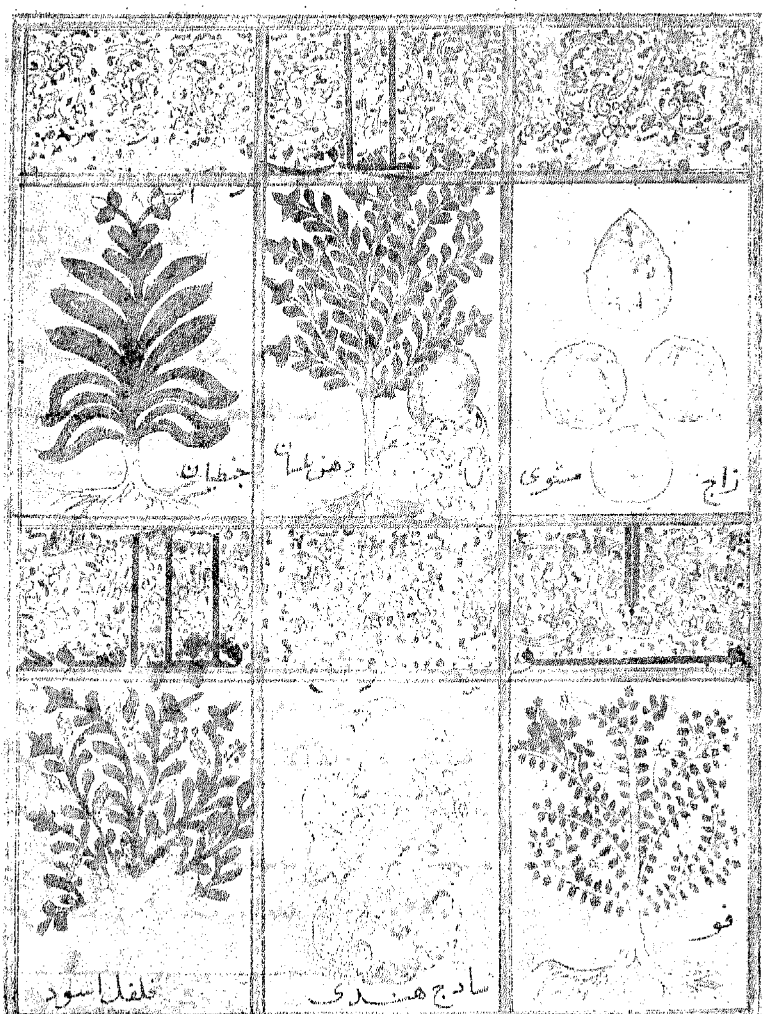
والشرث ، والقرح ، والقرحة ، والجرب وغيره من الامراض الجلدية . وبرستاق كه كاوسان ، في منطقة أصبهان ، حمة شبه عجيبة ، موصوفة للاورام والعلل القديمة والاسقام : يرجع المقعد منها على رجليه سليما ماشيا ، والمريض صحيحا . ويذكر المقدسي ان بكورة طبرية ماءا مسخنا ، يسمى الحمة ، حاراً ، من اغتسل فيه ثلاثة ايام ، ثم اغتسل في ماء آخر بارد ، وبه جرب او قروح او ناسور ، برأ باذن الله . ويروي الطبرانيون انه « كان عليها ، بما يدور ، بيوت كل بيت لعلة . فكل من به تلك العلة ، واغتسل فيه ، برأ إلى وقت لكن جاء ارسطوطاليس : ثم سأل ملك ذلك الزمان هدم هذه البيوت ، لئلا يستغنوا عن الاطباء . وصحت للمقدسي هذه الحكاية ، لأن كل من دخله من أصحاب العلل ، وجب ان يخوض الماء كله ، ليوافق موضع شفائه (٩١) » .

وتشمل النباتات الطبية الافسنتين ، طارد الدود ، وحب الزلم ، وهو عسقول السعد لتنشيط الجنس ، ونوعا من الهال (قاقلة) ضد النقرس ، والتنبول ضد الانتفاخ ، ويمضغ بالنورة المبلولة مع الفوفل فيطيب النكهة ، ويبعث على الباه ، والجدامية تمر ينتفع من البواسير ، ونوعا من خلاف اصفهان يربى به السمسم ، فينفع دهنه من لسع الجرارات (الحيات والعقارب) (٩٢) .

---

(٩١) تصحيح الترجمة التي اجريتها : المقدسي ،ترجمة ٢٣٠ ، اعتمادا على تدقيقاتي.

(٩٢) انظر ابن رسته ، ١٥٧ ، ابن الفقيه ، ٢٩ ، مـــعر (ب) ، ١٥ ، ١٩ ٤١ ، المسعودي (م) ، فقرة ٥١٤ واقل وضوحاً بالنسبة الى الآثار المتوقعة أو الى اسم النبات : الهمداني ، ٢٠٠ ، المقدسي ، آخر ١٤٦ — ١٤٧ ، ٣٩٧ ، آخر ٤٨١ . لا يجوز ان ننسى بهذا الشأن انه يمكن ان يذكر النبات وحده ، اذ يفترض بداهة ان استعماله معروف : انظر ج دا ، ج ٣ ، ٤١٩ — ٤٢١ .



تصوير المكتبة الوطنية باريس — المكتبة الوطنية المخطوطات العربية ٢٩٦٤
ورقة ٥٧

الترياق . النباتات الطبية

اما المواد المعدنية . فتذكر على انها نوادر لمواد مشهورة (٩٣) . فالكسور تجبر بالقير الاسود والابيض الذي يظن انه محلول كربونات الكالسيوم المتبلور المسمى موندملخ (٩٤) عند علماء الكهوف . وهناك حجر ابيض معتم . تمتمط عليه دويبة من الغيوم ، يعالج به سقوط الشعر (٩٥) . ويستعمل اهل الطب الاحجار التي تخرج من البحيرة المنتنة لمن به وجع الحصاة في المثانة . وهو نوعان ذكر وانثى (٩٦) . والحجر المعروف باليشب نافع لاوجاع البطن والمعدة وللماء الاصفر (٩٧) وحجر الدم ماص له (٩٨) . اخيرا الملسوع . اذا سقي من الزمرد الخالص ، امن على نفسه من ان يسري السم في جسده (٩٩) .

ويلجأ إلى الحيوانات ايضا في العلاج . لكن على نطاق ضيق .

---

(٩٣) استثناء: ابن حوقل ، ٥٠٢ (« المواد المعدنية المستعملة في الطب »، بلا تدقيق اضافي) .

(٩٤) الثعالبي ، ١١٠ ، ١٩٩ — ٢٠٠ : كهف قرب ارجان ، على تخوم فارس وخوزستان « يتفجر ماؤها ، ثم يتحول ، فيصير قيرا ابيض ». يفكر المرء طبعاً بعين متحجرة ، الاان المادةالمجموعةسنويأفيوعاء (قنينة) تحت رقابة السلطات تؤخذ في داخل الكهف بعيدا عن الباب المقفول . لذلك افكر ان هذا القير الأبيض هو رقائق من الكلسيت الطافي فوق الماء (الا ان الشبه بالقير لا يتلاءم مع هذا التأويل) أو « موندملخ »؟ خاص محاول جداً . . عن أنواع القير (موميا) انظر دي ساسي رحلة عبد اللطيف الى مصر ، باريس ، ١٨١٠ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٧١ — ٢٧٧ .

(٩٥) مسعر (ب) ، ١٠ .

(٩٦) المسعودي (م)، فقرة ٩٠ (الحجارةالذكر للرجال الحجارة والأنثى للنساء ، بلا تفصيل اضافي عن العلامات التي تسمح بتصنيف الأحجار) .

(٩٧) المسعودي (ت) ، ٨٩ (القول ذاته عن جذر المرجان) .

(٩٨) المسعودي (م) ، فقرة ٨١٦ .

(٩٩) المسعودي (م) ، فقرة ٨٨٩ (تبلع بشكل قطع) ، علاج مبني على خوف الحية من الزمرد الذي تذيب عينيها

فقد ذكر جالينوس ان السمك المعروف بالرعاد ، اذا جعل على رأس من به صداع شديد او شقيقة ، وهي في الحياة ، هدأ من ساعته(١٠٠) وترياق بيت المقدس من لحوم الحيات (١٠١) . والخنزير موصوف عند المسيحيين طبعا ، ضد الغدب (١٠٢) .

اخيرا ، نختم مجموعة وسائل الشفاء الكاملة بالاماكن ، المسيحية على وجه الدقة . فبعض الاديرة يعالج فيها الكلب والامراض الجلدية (١٠٣) . ويخرج تراب ابيض من بيت بقاليقلا في بيعة النصارى في ليلة الشعانين ، خاصيته ضد سموم العقارب والحيات (١٠٤) . قلت الاماكن المسيحية ، لأن الايمان الزائف والوهم (١٠٥) مرفوضان في جوامع دار الاسلام . وفي الحد الادنى ، اذا وقعت الابصار عليهما ، تجاهلتها الاقلام ، لأن الجامع ، كما رأينا ، مخصص لشعائر اخرى وذهنية مغايرة ، تقرب من الايمان الحقيقي (١٠٦) .

---

(١٠٠) المسعودي (م) فقرة ٨٠٤ .

(١٠١) المقدسي ، ١٧٥ (ح . ب) يضيف ان الحيات من اريحا في الحقيقة ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٩٧ ، لفظ ترياق .

(١٠٢) انظر ما تقدم ، فصل٤ ، « ديارات الشابشتي » .

(١٠٣) يرتبط المكان احياناً بعناصر اخرى مثل ماء العين مثلا : انظر ما تقدم، فصل ٤ مشار اليه انظر أيضاً المقدسي ، آخر ١٤٦ .

(١٠٤) ابن الفقيه ، ٢٩٥ ، المقدسي ، ٤٤٤ ، يسمي أيضاً مكانا يوضع فيه الحيوان المريض حتى يشفى .

(١٠٥) عنه انظر ما يلي .

(١٠٦) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ٥١ وما يليها (مع التمييز بين مشاهد وعجائب أو خصائص) يرد مثال واضح جداً عن هذا الموقف في كتاب الهروى ، كتاب الزيارات، المخصص للاماكن المكرمة في دار الاسلام : لا أجد فيه سوى حوالي عشرين ممارسة خرافية أو علاجية (ترجمة ، ص٩ ، ١٢ (مثالان) ، ٢١ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ١٠٩-١١٠ ، آخر ١٢١ - ١٢٢ ١٢٦ ، آخر ١٣١ - ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ (مثالان) ، آخر ١٥١ - ١٥٢ ، ١٦٧ ، ٢٠٩ ، آخر ٢٢١ - ٢٢٢ .

الهندام : موضوع تابع لذوق العصر

تحدثنا من قبل في بحث المدن عن اهمية الحمام . ويوصي الاسلام بالحاح بتطبيق هذا المبدأ الصحي . مع ذلك ، يندر وجود تفاصيل عنه — مثل استعمال حجر الخفان (١٠٧) . بالمقابل يهتم اناس كثر بالهندام ، بمعناه الواسع . كالفقهاء (١٠٨) والشرفاء المعنيين بالادب ويعرض قدامة اساسها القانوني في دراسة عامة عن نشاط البشر المرتبط بوسطهم (١٠٩) ويعدد ابن رسته اسماء المجددين في ارتداء الالبسة (١١٠) وتعلل الذهنية ذاتها الاهتمام بالحجارة الكريمة والمعادن الثمينة (١١١) او الذبل او العاج او العطور (١١٢) او الفراء (١١٣) وتجهيزات السفر الخاصة (١١٤) .

ويعتمد الاصطخري وابن حوقل والمقدسي على وجه التخصيص ، على هذه التقاليد ، فيستفيضون في بحث جغرافية هندام حقيقية ويستدل على الاهتمام بها وعلى اهميتها ، من الانسجة الخام او المفصلة ، التي تحصل منها عدة اقاليم من دار الاسلام على اسباب حياتها . ويتضح

---

(١٠٧) وصيف شاه ، ٦٨ ، تدوين آخر فريد : الشعر الطويل في بعض مناطق جزيرة العرب الجنوبية : المسعودي (م) ، فقرة ٣٦٤ .

(١٠٨) انظر البخاري ، ج٤ ، ٩٢ وما يليها .

(١٠٩) قدامة ، م ١٢٥ — ١٢٦ .

(١١٠) ابن رسته ، ١٩٢ .

(١١١) انظر ج دا ، ج٢ ، الفهرس ، ٦١٠ — ٦١٤ .

(١١٢) المرجع ذاته ، ٥٩٤ ، ج دا ، ج٣ ، ٤٢٣ — ٤٢٨ .

(١١٣) انظر ج دا ، ج٣ ، ٣٤٧ ، والمسعودي (م) ، فقرة ٤٥٤ .

(١١٤) ابن خرداذبه ، ١٦٣ ، ابن فضلان ، ١٨٧ (وترجمة ، ٦٤ ، ح ٩١) .

من مفرداتها التي دأب على جمعها دي خويه بصبر بالغ . انها تشمل ما يزيد على سبعين اسما تتناول احدى النواحي التالية او عدة اوجه منها احيانا : كالمادة والشكل واللون والمنشأ . والتركيب . والنوعية . والتقنية (١١٥) . ويجب ان يضاف اليها بعض الاسماء الخاصة المطلقة على الالبسة (١١٦) . والجلود . والاحذية (١١٧) ، ونعوت الانسجة (١١٨) :

ويتحدث جغرافيو مملكة الاسلام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عن الالبسة والهندام فيها اقليما اقليما . لكنهم لا يشيرون إلى ظاهرة عامة او بكادون ، ما عدا المقدسي ، الذي يذكر عرضاً امثلة تتعارض صراحة مع حسن التصرف . ويستاء منها . من ذلك كساءان يسميان دراعة وطيلسان ، يختلف شكلهما . فللدراعة اكمام . والطيلسان شبه عباءة متصلة بالعمامة ، له شكل هلال او نصف دائرة

---

(١١٥) م ج ع ، ج٤ ، الألفاظ التالية : اباني ، عدني ، آرنج ، ارمني ، عتابي بدن ، بغدادي ، بلميسي ، بمي ، بنبوزي بركان ، بيباف ، بين الثوبين ، بطانة ، بيشكس ، بخاري ، بويبي ، بزبست ، دبيقي ، دق ، جنابي، جز، حفي ، خلدي، كرباسه ، كندكي ، لحاف ، مغربي ، مكي ، مروى ، مثقالي ، مبطنة ، خمل ، ملحم، مرجل ، منير ، مشطي ، مثلث ، نفوسي ، نيسابوري ، قلمون (ابو) ، قصري ، قنب ، قرقوبي ، راختج ، سبني ، سابورى ، شاهجاني، سعيدي ، سكب ، سمرقندي ، صنعاني ، شرابي ، شرب ، شطوى ، صقلي ، سقلاطون ، سينيزي ، سوسنجرد ، طبري ، تاختج ، طيبي ، تنيسي ، تونسي ، اشموني ، وبذاري ، واسطي، يجانجي ، زنبفت ، ظرائفي .

(١١٦) سيجدها القارىء فيما يلي ،مع بعض اسماء النسيج والجلود أو الأحذية .

(١١٧) انظر ، م ج ع ، ج٤ ، الفاظ حذوة ، هملخت (ران ، طماق) كنباتي، كسر ، شمشك ، صندل ، طاق .

(١١٨) مثال رفرف ، رفيع (م ج ع ، ج٤ ، ٢٤٨ – ٢٤٩) .

متّى نشر : ويدلان ايضا على مرتبة اجتماعية ، على الاقل الطيلسان ، الذي ترتديه الشخصيات البارزة بمنصبها او علمها او مرتبتها الدينية . ومن هنا تقصد شيراز التي تفرض الدراعة فيها الاحترام . ولا مقدار بها لاهل الطيالسة ، وتغلق الابواب في وجوههم ، ذلك ان الطيلسان لباس المكدين والنصارى والمتسولين الذين يتبعثرون بطيالسهم ، ويسحبونها (١١٩) . والوضع يختلف في اليهودية (اصبهان) ، ففيها يرى احدهم بخفيه وبزته وفي كمه رغيف يكدمه او زبيب يقضمه ، وتحت عمائمهم مخاد (١٢٠) :

اللباس في البلدان العربية

لا يأتي ابن حوقل الا على ذكر القليل عن لباس المغرب . وجل ما يقوله ان اهل طرابلس مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الثياب ، متميزون في اللباس وحسن الصور (١٢١) . وعادة « اهل البرانس ان يتلثموا ، وهم اطفال ، وينشؤون على ذلك . ولا يرى لاحدهم من وجوههم غير عيونهم (١٢٢) . ويشاء حسن الحال ان يسهب المقدسي في حديثه عنهم (١٢٣) . ويقول : « ويدخلون الحمامات بلا ميازر الا القليل ، وبالمغرب رسومهم مصرية ، الا انهم

(١١٩) المقدسي ، ٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، عن هذين الكسائين ، انظر لسان العرب اللفظان ، دوزي ، ج١ ، ٤٣٤ ومعجم مفصل لاسماء الثياب عند العرب ، امستردام ، ١٨٤٥ ، ص ١٧٧ — ١٨١ و ٢٧٨ — ٢٨٠ .

(١٢٠) المقدسي ، آخر ٣٨٨ ، ٣٩٩ .

(١٢١) ابن حوقل ، ٦٩ .

(١٢٢) ابن حوقل ، ١٠٢ .

(١٢٣) المقدسي ، ٢٣٩ .

قلّ ما يتطلسون ، وكثيرا ما يجعلون الرداء بطاقين ، ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباءة (١٢٤) ، أصحاب قلانس مصبّغة . والبربر ببرانس سود . واهل الرساتيق بأكسية (١٢٥) والسوقة بمناديل (١٢٦) والتجار يركبون احمرة مصرية وبغلا » .

لكن ماذا نقول عن مصر التي يتشبه بها ويقاس عليها هنا ؟ الحقيقة انها غامضة : فتارة يشاد باناقة اهلها . وطورا تذم ببضع كلمات قاسية جدا ، كأن يقال : قلّ ما يلبسون ثوبا غسيلا او نعلا قد امتعطت (١٢٧) . اما جزيرة العرب . فتتلازم مع مقتضيات شدة الحر الدائمة تقريبا . فلا يتقون المطر ، ولباسهم في الصيف والشتاء واحد ، ومن قطن في الغالب . والرسوم في هذا الاقليم لبس الوزر والازر بلا قميص الا القليل ، وبنخا يعيبون على من يتزر ، انما هو ازار واحد يلتف فيه (١٢٨) . وتبدو الشام (١٢٩) على خلاف ذلك : فلهم تجمل يلبسون الاردية كل عالم وجاهل ، ولا يتخففون في

---

(١٢٤) عباءة ، عباية : معطف بدو جزيرة العرب : انظر دوزي ، الثياب ، ٢٩٢ — ٢٩٧ .

(١٢٥) كساء : قطعة صوف تستعمل غطاء سرير أو معطفا : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٤١ ، دوزي ، ج٢ ، ٤٦٨ والثياب ، ٣٨٣ — ٣٨٦ .

(١٢٦) منديل : قطعة قماش مستطيلة ملفوفة كالعمامة : انظر دوزي ، ج٢ ، ٦٥٣ والثياب ، ٤١٤ — ٤١٨ .

(١٢٧) المقدسي ، ٢٠٥ (عن امتعط ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٥) .

(١٢٨) المقدسي ، ٩٥ ، آخر ٩٩ — ١٠٠ ، ١٠٥ ، تفصيل آخر : استعمال عجينة سوداء : استعمال عجينة سوداء لازالة الشعر أو الوشم ، عن وزر وازر ، انظر م ج ع ، ج٤ ، آخر ٣٧٤ — ٣٧٥ ، ودوزي ، تا الثياب ، ٢٤ — ٣٨ .

(١٢٩) المقدسي ، ١٨٣ .

الصيف ، انما في نعال الطاق (١٣٠) . ويكشفون المماطر (١٣١) ، ولا يقورون الطيالسة . وترد بعض التفاصيل المحلية او الخاصة بطبقة اجتماعية . فلأ جلّة البزازين بالرملة حُمُرٌ مصرية بسروج، ولا يركب الخيل الا امير او رئيس ، ولا يتدرع الا اهل العرى والكتبة . ولباس القرياتيين برستاق ايليا ونابلس كساء واحد بلا سراويل (١٣٢) : ورسوم العراق التجمل (١٣٣) ، ولبس الشروب (١٣٤) والتطلس ، ويكثرون التنعل وتسطيل العمائم (١٣٥) . ويلبس الخطباء الاقبية(١٣٦) والمناطق .

اللباس في بلدان العجم

ويزداد الاهتمام باللباس مع الاتجاه نحو الشرق إلى اقاليم العجم الثمانية عند المقدسي (١٣٧) . ويقال ان اهل جرجان جنوبي بحر

---

(١٣٠) نعال الطاق ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٩٢ .

(١٣١) يكشفون المماطر ، حرفيا يبينون ثياب المطر . ترجمت سابقا (المقدسي ، ترجمة ، ٢٢٦) يطوون ، لكن لم تعد هذه الترجمة تبدو لي ملائمة للتأويل الوارد هنا . عندئذ قد يكون القماش مشمعا وغير منفذ (دوزي ، ج٢ ، ٦٠٠) يظهر الحرص على الاناقة أو التباهي . سوف يذكر فيما بعد (انظر ما يلي ح ١٤٦) الفعل ذاته في الحديث عن ثياب الصوف ، الا انني اعترف ان تأويلي مشكوك فيه .

(١٣٢) عن كساء ، انظر ما تقدم حاشية ١٢٥ ،سروال : يحتمل معنى اللباس تحت الثياب ومعنى البنطال : انظر دوزي ، الثياب ، ٢٠٣ — ٢٠٩ .

(١٣٣) المقدسي ، ١٢٩ .

(١٣٤) شرب انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٠ .

(١٣٥) عن سطل ، انظر م ج ع ، ٢٦٠ .

(١٣٦) كبن ، الأصل : لباس خارجي باكمام وازرار : انظر دوزي ، الثياب ، ٣٥٢ — ٣٦٢ .

(١٣٧) تحفظ بالنسبة لهذا الاهتمام لبلدان ارمينية واذربيجان ، التي يقول عنها المقدسي ان كل من كان من اصحاب السلطان يتختم بالذهب : خاتم مع ختم لتكون الأعمال رسمية : المقدسي ، ٣٨١ (و ح . يب) .

الخزر لا يكثرون التطالس (١٣٨) . وزي اهل اقليم الجبال زي اهل العراق ، على الاقل في الري (١٣٩) على حد قول ابن حوقل . ويتحدث المقدسي عن اليهودية (اصبهان) ، فيذكر ان تحت عمائمهم مخادّ ، وان البستهم واسعة الاكمام ، كما اسلفنا ، وانهم يتنعلون الخفوف (١٤٠) يمتد تأثير العراق إلى خوزستان (١٤١) : فزيهم زي اهل العراق في الملابس من القميص والطيالسة والعمائم ، وفي اضعافهم من يلبس الازر والميازر (١٤٢) : ويعمل بالأهواز فوط من القزّ حسنة ، تلبسها النساء (١٤٣) . ويختصون بركوب البقر (١٤٤) عوضاً عن الدواب : ويذهل المقدسي على نحو ما أشرت من قبل ، لعكس العرف المألوف في فارس (١٤٥) ، وجعل المقدار لأصحاب الدراريع ، لا لأهل الطيالسة : وترد عنده تفصيلات أخرى أيضاً ، منها ان الطيالسة لباس الحائك والحجام والرستاقي ، وان العوام يلبسون الثياب السود ويكثرون لبس الشمشكات والنعال ويسطاون العمائم ، ويكشفون الصوف (١٤٦) . وقد خلف ابن حوقل (١٤٧) وصفا مفصلا — او

---

(١٣٨) المقدسي ، ٣٦٨ .
(١٣٩) ابن حوقل ، ٣٧٩
(١٤٠) المقدسي ، ٣٨٨ (مع تدقيق : مخدة على الرأس مغلفة بالعمامة ، مما يبرر المقارنة السابقة) ، ٣٩٩ .
(١٤١) ابن حوقل ، ٢٥٤ .
(١٤٢) ازرا انظر ما تقدم حاشية ١٢٨) ومئزر (م ج غ ، ج٤ ، اخر ١٧٨ — ١٧٩) ودوزي ، الثياب ، ٣٨ — ٤٦ .
(١٤٣) المقدسي ، ٤١٦ ، الذي يضيف بعض التباينات بالنسبة الى ابن حوقل .
(١٤٤) المقدسي ، ٤١٦ .
(١٤٥) المقدسي ، ٧ ، ٤٢٩ ، آخر ٤٣٩ — ٤٤٠ ، ٤٤١ (ح ١) عن شمشك (نعل حذاء) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٧ ، ودوزي ، الثياب ، ٢٣١ .
(١٤٦) بطانة أو صوف ثياب الجلد : عن المعنى ، انظر ما تقدم ، ح ١٣١ .
(١٤٧) ابن حوقل ، ٢٨٩ — ٢٩٠ .

واضحا جدا (١٤٨) — للباس اصحاب المراتب العليا ، فقال : « واما زيهم ، فكان السلطان زيه الاقبية ، وقد تلبس سلاطينهم الدراريع ، وان كانوا فرساً (١٤٩) : ومن لبس الدراريع منهم ، اوسع فروجها ، وعرض جرباناتها (١٥٠) . وجيوب دراريعهم كدراريع الكتاب . والعمائم تحتها القلانس المرتفعة : ويلبسون السيوف بحمائل ، وفي اوساطهم المناطق ، وخفافهم تصغر عن خفاف اهل خراسان : وقد تغير زي سلطانهم في وقتنا هذا ، لأن الغالب على اصحابه لباس الديلم (١٥١) . وقضاتهم يلبسون الدنيات (١٥٢) وما اشبهها من القلانس المشمرة عن الاذنين مع الطيالسة (١٥٣) . والقمص والجباب (١٥٤) . ولا يلبسون دراعة (١٥٥) ، ولا خف بكسرة(١٥٦) ولا قلنسوة تغطي الاذنين . وكتابهم يلبسون ملابس كتاب العراق ، ولا يستعملون القبي ولا الطيلسان . وتناؤهم (١٥٧) بين لباس الكتاب

---

(١٤٨) انظر ملاحظة وايت عند ابن حوقل ، ترجمة ، ٢٨٣ ، ح ٢٨٩ .

(١٤٩) يتوقع بالاحرى خاصة اذا كانوا فرسا (اعتمادا على لبسهم الدراعة حسب المقدسي) . اذن يجب ان نفهم ان الدراعة لباس جميع الناس المرموقين . ولم تكن الشخصيات الرسمية تتميز بلباس خاص . سنرى فيما بعد التغييرات الطارئة .

(١٥٠) جربان . يمكن أيضاً توسيع الظهر (جربان بمعنى قطعة قماش تغطي الظهر : انظر دوزي ، ج١ ، ١٨١)

(١٥١) تحت تأثير البويهيين اسياد البلاد .

(١٥٢) دنية : بشكل برميل (دن) (دوزي ، الثياب ، ١٨٥) .

(١٥٣) بالتالي مثل العوام .

(١٥٤) انظر دوزي ، الثياب ، ١٠٧ — ١١٧ .

(١٥٥) الاختلاف عن الجبة بالخفة وازرار الدراعة تقديرا : دوزي ، الثياب ، ١٧٧ ، ١٨١ .

(١٥٦) بكسرة : انظر م ج ع ، ج٤ ، آخر ، ٣٤٠—٣٤١ .

(١٥٧) م ج ع ، ج٤ ١٩٨ لفظ تانئ .

والتجار من الطيالسة والاردية والأكسية القومسية والخز والعمائم والخفاف التي لا كسر فيها والقمص والجباب والمبطنات (١٥٨) : ويتفاضلون في جودة الملابس وحسن الزي ، وزيهم كزي اهل العراق » .

وتعبر تفاصيل هذا النص عن ظاهرتين عامتين : اولاهما تصنيف — متبدل اصلا — اللباس حسب طبقات المجتمع او الوظائف ، والثانية تصدير الزي ، كنموذج من العراق — او كفرض من السلطة — البويهيون في الديلم : ويلاحظ وصول تأثير العراق إلى سجستان(١٥٩) حيث يكورون العمائم مثل التيجان (١٦٠) في حين يقارب اهل كرمان ، حسب المقدسي ، اهل فارس في اكثر رسومهم (١٦١) :

وتتميز السند ، البلد الهندي ، ببعض الخصائص ، على طرف دار الاسلام الشرقي : فاهل مكران ، حسب المقدسي (١٦٢) ، يلبسون القراطق (١٦٣) ، ويسبلون الشعور ، ويشققون الآذان مثل الهند ، ويكثرون لبس الازر ، الا التجار والمشايخ ، وقل ما يلبسون الاخفاف . واهل الملتان لا يحنكون العمائم (١٦٤) . ويذكر ابن حوقل (١٦٥) ان زي اهل المنصورة كزي اهل العراق ، غير ان زي

---

(١٥٨) مبطنة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩١ .
(١٥٩) ابن حوقل ، ٤١٩ .
(١٦٠) المقدسي ، ٣٢٨ .
(١٦١) المقدسي ، ٤٦٩ ، مع ابراز اناقة اللباس ، يقاربون الفرس في اكثر رسومهم التي تحل محل العواق حسب ابن حوقل .
(١٦٢) المقدسي ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ (و ح . ﻫ) .
(١٦٣) قرطق : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٢٣ ودوزي الثياب ، ٣٦٢ .
(١٦٤) عن حنك عوضا عن تحنك ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٠ .
(١٦٥) ابن حوقل ، ٣٢١ ، ٣٢٥ .

ملوكهم يقارب زي ملوك الهند في الشعور والقراطق . وفي السند عامة ، حسب ابن حوقل ، زي المسلمين والكفار واحد في اللباس ، وارسال الشعر . ولباسهم الازر والميازر لشدة الحر ببلدانهم .

ولا يتوسع ابن حوقل كثيرا في الحديث عن المناطق الشمالية الشرقية في دار الاسلام ، ويكتفي بذكر لبس الاقبية والقلانس في ما وراء النهر (١٦٦) . والمقدسي (١٦٧) ادق ملاحظة ، يستخلص من العرف العام فوارق بالطبقة الاجتماعية او الوظيفة او المنطقة . فالخفاف تلبس في الشتاء والصيف ، وقل ما تنتعل النعال : ويلبس العوام الاقبية المفتوحة في ما وراء النهر . ويتطلس الفقهاء المسنون والكبراء وكبار التجار ، ويقال بان انصاف العلماء (١٦٨) بمرو يجعلون الطيالسة على احد اكتافهم مجتمعة : ويتحنك الفقهاء ، والكبراء (١٦٩) ، ولا يتحنك كبار التجار ومن دونهم . ولهم جميعا ، وبجماعة (١٧٠) من طوس وابيورد وهراة ، فوق ذلك دراعة ، ويرخي ما فوق العمامة على طرف الدراعة من خلف . ولا يتردى الخطيب ، ولا يتقبى ، انما عليه دراعة (١٧١) . واكمام اقبية الجند

---

(١٦٦) ابن حوقل ، ٤٩٠ .

(١٦٧) المقدسي ، ٣٢٧ (و ح ز) ، ٣٢٨ (ح . و) .

(١٦٨) انصاف العلماء : م ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٠

(١٦٩) اتبع هنا المقدسي ، ٣٢٨ (ح . و) وهو تباين اصح من النص الذي اتبعه دي خويه (انظر اصلا المرجع ذاته ، ح ب) . هنا تحنك (انظر ما تقدم حاشية ١٦٤) .

(١٧٠) جماعة بلا تدقيق آخر .

(١٧١) مع منطقة . المقدسي ، ٣٢٧ (ح . ر) .

ضيقة . وركوب الخيل مباح لجميع الناس . واذا تكلم اهل بخارى ، هزوا اكتافهم إلى فوق : وتضرب الغرائق قدام السلاطين (١٧٢) .

بعض الاعراف او الرسوم

تسترعي الاعراف ، باوسع معانيها ، انتباه المقدسي باستمرار . وهو الوحيد الذي يفرد لها في حديثه عن كل اقليم عنوانا خاصا يسمى رسوما (١٧٣) . وتتضمن هذه الرسوم ، عدا المقارنات العامة بين البلدان (١٧٤) ، وبعض التفاصيل عنها (١٧٥) ، ثلاثة حقول رئيسة هي اللباس الذي استعرضناه منذ قليل ، واوجه التباين في الممارسة الثقافية او التطبيق الشرعي ، وعادات الزواج او الجنازة .

وهذه بعض التفاصيل التمهيدية : ففي العراق (١٧٦) ، للهراسين مواضع ،فوق دكاكينهم،فيها الحصر والموائد والمري وخدام(١٧٧)

---

(١٧٢) فرائق عوضا عن فراقع : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١٦ ودوزي ، ج٢ ، ٢٦٠ .

(١٧٣) رسوم : المقدسي ، آخر ٩٩ — ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ ، ٣٢٧ — ٣٢٨ ، ٣٦٨ — ٣٧٠ ، ٣٨١ ، ٤١٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٠ ، ٤٦٩ .

(١٧٤) مثال المقدسي ، ١٤٢ (اقور تأخذ عن الشام وعن العراق معاً) ، ٣٢٧ المشرق يختلف عن مجمل الاقاليم العربية) ، ٤١٦ (خوزستان يتقيد بالعراق أو الشام أو مصر) ، ٤٦٩ (كرمان تقلد فارس) ، ٤٧٩ (مدينة المنصورة في السند تتبع عرف العراق ، انظر ما تقدم عن المدينة ذاتها، بشآن اللباس:وهذا دليل علي تعريب ظاهر فيها اكثر من باقي الأقليم) .

(١٧٥) ذكر عدد منها من قبل ، مثلا ما يتعلق بالجامع وغيره من الأبنية العامة ، والسلوك الأخلاقي ، والمطبخ اضافة الى اللباس الذي اتحدث عنه هنا .

(١٧٦) المقدسي ، ١٢٩ .

(١٧٧) هراس : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٠ ، ودوزي ، ج٢ ، ٧٥٤ .

وطشبوت واباريق واشنان ، فاذا انحدر الرجل ، دفع دانقا ، وهذا منتهى الرخص (١٧٨) . وفي الديلم يقصد الغريب دورهم ، فيأخذ من الطعام ما يحتاج اليه ، وذلك ما يسرهم (١٧٩) : ولاهل الديلم ايضا مجالس في السكك والاسواق مرتفعة ، يجتمعون بها ، بايديهم الروبينات ، وعليهم الاكسية الطبرية (١٨٠) . وفي المقطم مواضع يفضلونها ، وصوامع يقصدونها ليالي الجمع . ويمينهم الكبرى « ورأس الله » والصغرى « وحق علي » (١٨١) .

ويقودنا هذا القول إلى حقل آخر ، اعني ما يخص الدين من قريب او بعيد ، والطقوس والشرائع . ويدون المقدسي بدقة التنوع الكبير في تنظيم داخل الجامع ، وترتيب الصلاة ، ونداء المؤذن ، وشهر رمضان ، والادعية الخاصة . ونستخلص من هذا التعداد انه يعكس تنوع الشرع وغيره إلى اقصى حد في الاسلام : ولن ندخل في التفاصيل ، ونحيل المختص إلى حرفية نص المقدسي (١٨٢) .

ولم يدون طقوس الزواج بطريقة اخرى . مع ذلك ، خص الزواج عند الديلم بمقطع رائع ، اشير فيه إلى اعراف اخرى . وانا انقله حرفيا

(١٧٨) حوالي سدس درهم . هذه المطاعم خاصة بالرجال طبعاً : يسمى الداخل اليها الرجل - .

(١٧٩) المقدسي ، ٣٦٩ .

(١٨٠) المقدسي ، المرجع ذاته ، عن زوبين ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٥ ، وديميزون ، معجم فارسي فرنسي ، ج٢ ، ١٢٩ (رمح برأسين) .

(١٨١) المقدسي ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ . يلاحظ سنة القاجارية بكر في النيل كل عام ، وابطال الاسلام لها : المقدسي ، آخر ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(١٨٢) انظر المقدسي ، احالة في ما تقدم في الحاشية ١٧٣ واماكن آخرى .

عن المقدسي (١٨٣) عالم الاجناس . قال : وللديلم رسوم عجيبة لا يزوجون إلى غيرهم . وكنت في بعض الخانات ، فاذا بصبية تعدو ورجل شاهر سيفه يعدو خلفها يروم قتلها . فقلت ما فعلت حتى استوجبت القتل؟قال: انها زُوِّجت إلى غيرنا . وقتل من فعل ذلك واجب عندنا .... ولهم اسواق على ايام الجمعة في السهل ، لكل قرية يوم . فاذا فرغوا ، انحاز الرجال والنساء إلى معزل ، يتصارعون فيه ، ورجل جالس معه حبل كل من غلب عقد له عقدة . فاذا هوى الرجل امرأة ، راح معها . فيتلقاه اهلها بالبشر والترحيب ، ويتباهون به اذا رغب في كرمهم ، فيضيّفونه ثلاثة ايام ، ثم ينادي المنادي بعدما اجتمع معها اسبوعا في عمارة له بمعزل . فيجتمعون ، ويختطون . وسألت ابا نابتة الانصارى قلت : هل يصيبها قبل العقد ؟ قال او علموا بذلك قتلوه . وكثيرا ما حضرت عقود اهل بيار . يجتمع الناس بعد العتمة مع كل رجل قارورة من ماء ورد ، والنيران تقد على باب الختن والعروس . فيبدأ بعض المشايخ ، فيخطب خطبة بليغة يطلب فيها الزوجين ويطلب المرأة . ثم يجيبه آخر من قبل العروس في خطبة باحسن جواب . واكثرهم خطباء ادباء . ثم يعقدون النكاح . ويقوم اصحاب القوارير ، فيضربون

---

(١٨٣) المقدسي : آخر ٣٦٨ – ٣٧٠ . ترجم في مقال ا . ميكيل ، « جغرافية واتنوغرافية » : حالة المقدسي (القرن الرابع – القرن العاشر) » ، في«الطاهي والفيلسوف». تكريم مكسيم رودنسون (دراسات اتنوغرافية تاريخية للشرق الأدنى ، جمعها ج . ب . ديغار) ، باريس ، ١٩٨٢ ، ص ١٩١ – ١٩٧ . ينطبق الحذف في المقطع مع بعض الأحداث التي اشير اليها من قبل (صيانة الشوارع ، اللباس ، الغذاء) أو التي سوف تذكر فيما بعد (الدفن) وفي الفصل الأخير (اللغة) .

(١٨٤) اصحح النص حسب المقدسي ، ٣٧٠ (ح ١) .

بها الحيطان ، ثم يعطى صاحب كل قارورة طبقا من آفروشة (١٨٥)... ومكثت اربعة اشهر احضر دعواتهم واعراسهم، فمارأيتهم يزيدون(١٨٦) على ثردة بعد لحم قد اخرج عظامه ، ثم الارز ، ثم الآفروشة الرطبة ... ولا ترى امرأة بالنهار ، انما يخرجن بالليل في اكسية سود . ولا تتزوج امرأة مات عنها زوجها، فان فعلت ، ضرب الصبيان على بابها بالخزف وحوانيتهم في الدور ، والباعة نساء » . (١٨٧) .

وتدوينات عادات الجنائز اقصر ، لكنها اوفر عددا . ويقصد بها ابراز ما يحيد هنا وهنالك عن العرف المفروض معرفته . وهذا ما جرى قبل المقدسي ، بخاصة فيما يتعلق بموت احد العظماء : فعند السغد يعبر عن الحزن بقطع الاذان حسب ابن عبد ربه (١٨٨) . ويقول الهمداني (١٨٩) عن النياحة في جزيرة العرب (خيوان) انه اذا مات الرجل المنظور منهم ، لا يزال يناح إلى ان يموت مثله ، فيتصل النواح على الاول بالنواح على الآخر ، وتكون النياحة بشعر ضعيف تلّحنه النساء ويتخالسنه بينهن ، وللرجال من الموالي لحون غير ذلك .

لكن لنعد إلى المقدسي . ففي العراق ، يجعلون على جنائز النساء

---

(١٨٥) بشأن الغذاء ، انظر ما تقدم « المواد وما يتبعها » .

(١٨٦) المقدسي ٣٧٠ (حاشية يا) يبدل ترتيب الطبقين الأولين .

(١٨٧) أخذت هذه الجملة (مع التصحيح العائد الى غياب النساء كليا في المشهد المديني من المقدسي ، ٣٧٠ (ح بو) .

(١٨٨) العقد الفريد ، ج٦ ، ٢٥٤ .

(١٨٩) الهمداني ، ٢٠٣ .

قبابا عالية وجشة (١٩٠) . وفي الشام (١٩١) قبورهم مسنمة ، ويمشون خلف الجنائز ، ويسلون الميت (١٩٢) ويخرجون إلى المقابر بختم القرآن ثلاثة ايام (١٩٣) . وفي المغرب ، لا يأخذون الميت الا من الراس او الرجلين (١٩٤)

وفي بلدان شمالي شرقي دار الاسلام ، يأخذون الميت عند الدفن من قبل القبلة ، الا الشيعة ، فانهم يسلونه . فاستغرب المقدسي ، وقال لاهل ابيورد : انتم على مذهب الشافعي ، والامر لكم في بلادكم ، فلم لا تسلون الميت سلا . ولا ستغرابه ما يبرره لأن الشافعين والشيعة يتبعون عادة واحدة في اماكن اخرى (١٩٦) . وقد اجابوه : « ما كنا لنتابع الشيعة ، ونخالف المسلمين » والمقصود مجمل السنة .

وعلى شواطيء بحر الخزر ، اذا كان لهم مآتم ، كشفوا رؤوسهم ، واجتمعوا ، وقد التف المعزي والمعزى في الاكسية ، وادروها على رؤوسهم ولحاهم (١٩٧) . وفي فارس ، يأخذون الميت سلا ، ويمشي الرجال قدام الجنازة ، والنساء خلفها . وفي خوزستان ، يمشون من الناحيتين ، ويقيمون الزمر والطبل في المآتم وفي المقابر . ويضيف

(١٩٠) المقدسي ، ١٢٩ .
(١٩١) المقدسي ، ١٨٣ .
(١٩٢) عادة شافعية وشيعة : انظر المقدسي ، ٣٢٧ (مشار اليها فيما يلي)والترجمة ٢٢٥ ، ح٦٣ .
(١٩٣) انظر ف . بوهل ، ختمة ، م١ (٢) ، ج٤ ، ١١٤٤ .
(١٩٤) المقدسي ، ٢٣٨ .
(١٩٥) المقدسي ، ٣٢٧ .
(١٩٦) من هنا اهمية الخريطة الدينية للشام في هذا الوقت ، واهمية الملاحظة السابقة عن عادات الجنائز في هذا البلد : فالشافعيون والشيعة اكثرية فيما يبدو ، ويأتي الحنفيون بعدهم : انظر المقدسي ، آخر ١٧٩ — ١٨٠ .
(١٩٧) المقدسي ، ٣٦٩ .

المقدسي ان اقاليم العجم لا تعرف الخروج إلى المقابر لختم القرآن ، وانما يجلسون للتعزية في المساجد ثلاثة ايام (١٩٨) .



النمسة ، محفوظات المكتبة الوطنية النمساوية القسم الطبي اليوناني ١ ، ورقة ١٥
الألوة (الصبر) القسطنطينية قبل ٥١٢ ه
(المصدر : ديوسقريدس، المواد الطبية)

التقاويم :

كيف يسمى الزمن الذي يمضي يوما يوما ، الوقت الذي نحياه ؟ وكيف نحسبه ؟ لا ريب ان للاسلام تقويمه ، الا ان ذاكرة العلماء والمثقفين وذاكرة الشعوب احيانا حفظت لنا ذكرى تقاويم اعياد قديمة طبقت في الماضي في الاراضي التي خضعت للاسلام في وقت لاحق . وسوف نلقي نظرة إلى تقويم البلدان المجاورة مثل الهند والصين والروم (١٩٩) عند الحاجة ، لكن نادرا . اخيرا يوحي توالي الزمن

(١٩٨) المقدسي ، آخر ٤٤٠ .

(١٩٩) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ : ١١٥ ، ٤٦٦ . بشأن الهند يذكر عمل البيروني الاساسي طبعاً . ويلاحظ ان التقويم التركي مجهول في النصوص الجغرافية . بشأنه، انظر ل. بازين، التقاويم التركية وتقاويم القرون الوسطى، جامعة ليل الثالثة، ١٩٧٤.



النمسة ، محفوظات المكتبة الوطنية النمساوية ، القسم الطبي اليوناني، ١ ، ورقة ٢١ظ
الاميروازية Ambroisie ، القسطنطينية قبل ٥١٢ هـ
(المصدر ، ديوسقريدس ، المواد الطبية)

بطريقة هامشية جدا ، بادب مختص ، هو ادب العمل في الحقول . وقد خلّف لنا ابن حوقل مثالا عن مصر(٢٠٠) . وعلى وجه التخصيص، صنف في الاندلس كتاب كامل سمي تقويم قرطبة ، يتميز بتفاصيله الدقيقة واطلاعه الواسع ، لكنه حرر لقراء معينين ، لأنه كتاب هندسة زراعية (٢٠١) .

ويرد افضل عرض منهجي لشتى التقاويم الاسلامية (٢٠٢) عند

(٢٠٠) ابن حوقل ، ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢٠١) انظر ش . بيلا ، امثال مسجوعة ، انواء ومنازل القمر عند العرب ، ارابيكا، ٢ روماني ، ١٩٥٥ ، ص ٤١ : في هذا المجال أيضاً الاصالة استثنائية . عن مصر في القرن ٧ هـ / ١٣ م - ١١ هـ / ١٧ م ، انظر ش . بيلا ، خمسة تقاويم مصرية ، القاهرة، ١٩٨٦ .

(٢٠٢) أو الباقية مستقلة عنه (وضع بيزنطة) أو في كنفه (حالة التقويم القبطي ابن فوقل ، ١٣٦ - ١٣٧) .

المسعودي (٢٠٣) الذي يشرح اصل التسمية اللغوي ونشوء الحساب وتبدلاته ، وكبس الايام او الشهور للتوفيق بين التقويم وبين السنة الشمسية . ويعطي الجدول التالي قائمة هذه التقاويم ، وتشير النجمة إلى اول شهر في السنة (٢٠٤) .

أسماء شهور التقاويم

الجاهلية	المسلمة	الرومية	السريانية	القبطية	الفارسية
ناجر	ربيع الآخر	ينواريوس*	كانون الثاني	طوبه	فروردين ماه*
اسلخ	جمادى الاولى	فبرواريوس	شباط	امشير	ارديبهشت ماه
اميح	جمادى الأخرة	مرتيوس	آذار	برمهات	جرداذ ماه
احلك	رجب	ابريليوس	نيسان	برموه	تيرماه
كسع	شعبان	مايوس	ايار	بشنس	مرداذماه
زاهر	رمضان	يونيوس	حزيران	بؤونه	شهر يرماه
برك	شوال	يوليوس	تموز	ابيب	مهرماه
حرف	ذو القعدة	اغسطوس	آب	مسرى	ابان ماه
نعس	ذو الحجة	ستمبريوس	ايلول	توت*	اذرماه
ناتق*	محرم*	اكتبريوس	تشرين الأول	بابه	داي ماه
ثقيل	صفر	نوفمبريوس	تشرين الثاني	هاتور	بهمان ماه
طالق	ربيع الأول	دجمبريوس	كانون الأول	هيهك	اسفندر ماذماه

(٢٠٣) المسعودي (م) فقرة ١٢٨٢ - ١٢٩٠ ، ١٢٩٤ - ١٣١٨ ، المسعودي (ت) ، ٢٨٧ - ٢٩٢ .

(٢٠٤) المقصود نقطة انطلاق بالنسبة الى اشهر السنة المسلمة ، من أجل التواقف مع الفصول ومع شهور سائر التقاويم (مع الانتباه الى الغاء الاسلام لشهر النسيء مرة كل ثلاث سنوات) ففي التقويم القديم ، كان شهر ناتق - المحرم بداية اشهر الشتاء الثلاثة : انظر م . بليسنر ، م١ ، ج٣ ، ٧٤٦ . التوافق توت — اذرماه (المسعودي (م) فقرة ١٢٨٢) يستتبع بدايتين للسنة الفارسية : هذه (انظر أيضاً ابن الفقيه ، ترجمة ، ٣١٩ ، ح١) والنيروز : اعتدال ربيعي أو انقلاب صيفي (انظر ر. ليفي ، نوروز ، م١ ، ج٣ ، =

وبقيت هذه التقاويم في ذاكرة العلماء فقط . وقد قضى الاسلام على التقويم الجاهلي . واستمرت بيزنطة تستخدم الاشهر الرومية . وحوفظ على التقاويم الفرسية والسريانية والقبطية في نطاقاتها التقليدية . فالتقويم الفارسي والسرياني تحسب بهما الاعياد (٢٠٥) . والتقليد القبطي يستعرض حياة الريف المصري وما يتعلق بمحاصيله الزراعية المرتبطة بنهر النيل وفيضانه (٢٠٦) . ولا يتحدث احد عن التقويم الا الاسلامي او يكاد . ولا غرابة في ذلك لأن دار الاسلام تحسبه على الدوام وتحياه يوما يوما ....

الاعياد

والحديث عن الاعياد قليل . والتدوينات بشأنها محدودة ومتناثرة ، تشير إلى صفات فريدة تخالف الاعراف ، لكنها تعين مكان الاحتفال او تحددها . وعلى هذا النحو ، يذكر ابن حوقل في سياق كلامه عن

=٩٤٩ — ٩٥٠) . يلاحظ ان الاعدال الربيعي يمكن استنتاجه من مقطع آخر من نص المسعودي ذاته ، (م) فقرة ١٢٨٧ : اذا وقع عيد المهرجان ، وهو بداية فصل الشتاء (تشرين الاول) بعد ١٦٩ يوماً (أو ١٩٤ : (م) فقرة ١٢٩٨) بعد النيروز يأتي النيروز في الربيع . يلاحظ أيضاً التردد بشأن بدء السنة الرومية : ينواريوس (المسعودي (م) فقرة ١٢٩٧ أو تشرين الاول (المرجع ذاته فقرة ١٣١٢ آخرها) . اشكالات آخرى ابرزها بيلا ، في خمسة تقاويم . . . مشار اليه ص ٦ — ٧ و ١٥ روماني .

(٢٠٥) انظر ما يلي . انظر أيضاً من أجل التقويم السرياني ، المقدسي ، ١٨٣ : وشهورهم (اي في الشام) رومية — كذا — : تشرين الأول والثاني . . . » وللتقويم الفارسي ، المقدسي ، ٤٤١ — ٤٤٢ .

(٢٠٦) ابن حوقل ، ١٣٦ — ١٣٧ . انظر أيضاً المسعودي (م) فقرة ٧٧٤ ، (ترجم في ج دا ، ج٣ ، ١٨٤) ويميل الى كثير من الحماس وقليل من التقنية . يلاحظ ان التقويمين السرياني والقبطي يتداخلان احياناً : قارن المسعودي (م) فقرة ٧٣٤ و ١٢٨٦ بالمرجع ذاته فقرة ٧٧٩ .

مرو او احدى مدن ما وراء النهر مصلى العيد في مربعة ابي جهر(٢٠٧) اما المقدسي ، فيبين العدول عن المذاهب في اربع (٢٠٨) ، ويشيد بكلمة هنا او هناك ببهجة الاعياد او التأثر بها (٢٠٩) ، ويقدم لنا وصفين دقيقين في مناسبتين . الاولى في اليمن (٢١٠) حيث يقول : « ويزينون بعدن السطوح قبل رمضان بيومين ويضربون عليها الدبادب . فاذا دخل رمضان ، اجتمع رفق يدورون عند السحر ، يقرؤون القصائد إلى آخر الليل . فاذا قرب العيد (٢١١) . جبوا الناس » . والثانية في مكة هذه المرة (٢١٢) : « وبمكة تنصب القباب ليلة الفطر ، ويزين السوق بين الصفا والمروة (٢١٣) ، ويضربون الدبادب إلى الصباح » .

والاعياد مهمة ايضا عند اليهود والفرس والنصارى (٢١٤) . ونرجع إلى المقدسي (٢١٥) بشأن اعياد اليهود . فهو يعدد خمسة منها .

---

(٢٠٧) ابن حوقل ، ٤٣٥ ، ٥١٢ .

(٢٠٨) المقدسي ، آخر ٣٩ ، ٤١ .

(٢٠٩) المقدسي ، ١٨٣ .

(٢١٠) المقدسي ، ١٠٠ . من أجل تأويل هذه الفتات ، وجمع رفق لرفيق (هنا صاحب ، شريك ، قرين) انظر دوزي ، ج١ ، ٥٤٤ . عن جبى (طلب مالا أوصدقة انظر المرجع ذاته ، ج١ ، ١٧٢ .

(٢١١) عيد الفطر .

(٢١٢) المقدسي ، ١٠٠ .

(٢١٣) استوحي هنا من النص ومن تباينه (ح يا) . قباب : جمع قبه ، أو تعني خيمة ابهة : انظر دوزي ، ج٢ ، ٢٩٧ .

(٢١٤) من أجل فترة لا حقة ، لكن تبقى معلوماتها صحيحة على نطاق واسع ، انظر النويري ، نهاية الارب ، ترجمة اسبيرونيه .

(٢١٥) المقدسي ، ج٤ ، ٣٩ .

ففي الخامس عشر من شهر نيسان ، يحتفلون بعيد الفطير الذي يحي فيما يزعمون ذكرى غرق فرعون . وبعد سبعة اسابيع منه ، يقع عيد العنصرة (٢١٦) او استلام موسى الواح الشريعة في طور سيناء . وفي اول تشرين الاول من السنة التاسعة (٢١٧) ذكرى خلاص اسحاق من التضحية . وتنتهي قائمة الاعياد بانكبور ، يوم الصوم الكبير والغفران الكبير ، وبعيد انظال الذي يستظل فيه اليهود تحت اغصان الآس والصفصاف لاحياء ذكرى الخروج إلى الصحراء .

وقد يرتبط العيد عند الفرس ببيت النار . كما في مدينة جور في فارس (٢١٨) التي تتدفق عليها الجماهير مرة في السنة على « عين هناك عجيبة » . ويذكر احتفال آخر يسمى السدق ، تقد النيران فيه طيلة الليل (٢١٩) . وعندهم ثلاثة اعياد عظيمة . اولها المهرجان ، ويحتفل به في العراق ويذكر بوفاة مهر ، احد ملوك الفرس الطغاة ، وهو اول يوم من الشتاء ، وتغير فيه الفرش والآلات وكثير من الملابس(٢٢٠) وفي اول يوم من اذرماه . يخرج الكوسج — يبدو ان هذا التقليد بطل

(٢١٦) مشار اليه ، ح٢ .

(٢١٧) يرى التباين مع معطيات المسعودي .

(٢١٨) المسعودي (م) فقرة ١٤٠٤ ، لا ادري اذا كان المقدسي يشير الى هذه العين ، ٤٥ ، من ضمن اسفاره: «ورايت يوم الفوارة» (عين غزيره ، نافورة ماء ، والفوارة موجودة في المغرب : المقدسي ، ٢٤٦)) .

(٢١٩) المقدسي ، ٤٥ (ح د : ذكر فقط باملاء مختلف : السدة) من أجل اصل العيد وتاريخه . انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٩ ، ودوزي ، ج١ ، ٨٢٥ ، لفظ صدق . انظر النويري ، مشار اليه ، ٨٨ — ٨٩ .

(٢٢٠) المسعودي (م) ، فقرة ٥٣٨ (مع صيغة مختلفة عن اصل العيد) ، ١٢٨٧ ، المسعودي (ت) ، ١٢٨٧ ، المقدسي (ت)، ٤٥ (ح د) ، ٤٤١ .

تدريجيا – والكوسج شخص يمثل شدة الشتاء – راكبا بغاله بالعراق وارض فارس ، ويطعم مدة من الايام الجوز والثوم واللحم السمين ، وما عدا ذلك من الاطعمة الحارة والاشربة المسخنة (٢٢١) ، ويصب عليه الماء البارد ، فلا يجد ذلك شيئا من الم ويصيح بالفارسية كرما كرما يعني الحر الحر . ويحتفلون اروع احتفال في الايام الجميلة بعيد رأس السنة او النيروز (النوروز) (٢٢٢) . ففي فارس طبعا ، في شيراز مثلا ، تزين الاسواق . ويعيّد المسلمون مع المجوس (٢٢٣) قرب اصبهان ، اذ يجتمع الناس في سوق كرينة كالموسم للشرب والقصف والعزف ابان النيروز ، فيندمج المعرض والعيد (٢٢٤) وفي عدن ايضا (٢٢٥) ، يجتمع رفاق كما في رمضان ، « ويتخذون في النيروز قبابا (٢٢٦) يدورون بها على المباشرين ، ومعهم الطبول فيجمعون مالا جزيلا » (٢٢٧) .

---

(٢٢١) المسعودي (م) فقرة ١٢٩٩ ، المسعودي (ت) ، ٢٨٨ ، لم يذكر النويري هذا العيد .

(٢٢٢) المسعودي (م) ، فقرة ١٢٨٧ ، المسعودي (ت) ، ٢٨٧ عن الموضع انظر ما تقدم ، حاشية ٢٠٤ وما يلي ، ح ٢٣٣ ، والنويري ، مشار اليه ، ٨٣ .

(٢٢٣) المقدسي ، ٤٢٩ ، ٤٤١ .

(٢٢٤) ابن حوقل ، ٣٦٤ ، مترجم في ما تقدم ، فصل ٧ ، المعارض والأسواق (مكان مسمى كرينة) .

(٢٢٥) المقدسي ، ٤٥ (ح د) ، ١٠٠ .

(٢٢٦) القباب غامضة بالنسبة الى رغم تفتيشي في المعاجم (انظر دوزي ، ج٢ ، ٢٩٧ خاصة) . فهل نفكر بمحفة محدبة تنتقل في المدينة الا ان الوضع الاجتماعي لهؤلاء المستجدين يتناسب قليلا مع هذا التأويل . ومعنى « خيمة مستديرة » لا يتفق أيضاً مع جو التسكع . ارى في النهاية دون ان اكون واثقاً جداً ، ان قباب جمع قبة ، اسم وحدة قب تمر نصف رطب صف ناضج ، تقدم للمارة كتعويض .

(٢٢٧) عن باشر ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٩٠ ، عن دار (دوارة) على (فتش عن أحد الأشخاص) ، انظر دوزي ، ج١ ، آخر ٤٧٠ ، ٤٧١ .

اخيرا، يُعْنَى الجغرافيون كثيرا باعياد النصارى ، لأن المسلمين يحضرونها في الغالب بدافع الفضول على الاغلب (٢٢٨) . واول يوم من كانون الثاني ، يوقدون في ليلته النيران ، ويظهرون الافراح في جميع الأرض النصرانية تقريبا ، لاسيما في مدينة انطاكية : عرض القربان المقدس : قدّاس،ثم ولائم ونيران مباهج اتضاً . ويأتي بعده ظهور المسيح للملوك (٢٢٩) ، وليلة الغطاس (٢٣٠) التي خلف المسعودي وصفا رائعا لها في الفسطاط . وهي تحيي ذكرى معمودية المسيح (٢٣١) بلا ريب ، لكنها تقترن باقامة الافراح : فالناس يجوبون النيل بالزوارق ، ويسرجون المشاعل والشمع في شطوطه ، ويحضرون المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة ، ويغطس اكثرهم في النيل مسلمون ونصارى ، ويزعمون ان ذلك امان من المرض ومبرىء للداء (٢٣٢) . وفي اليوم الثاني والاربعين من الصوم يقع احد الشعانين ، ويذكر بدخول المسيح إلى بيت المقدس . ثم يأتي عيد الفصح بعد اربعة ايام ، إحياءاً لذكرى الخروج من مصر (٢٣٣) والقيامة بعد ذلك بثلاثة ايام . وبعد اسبوع يجيء الاحد الجديد الذي

---

(٢٢٨) انظر عن هذه الأعياد، المسعودي (م) فقرة ٧٧٩ – ٧٨٠، ١٢٨٦ ، ١٢٨٨ –١٢٩٠ المقدسي ، ج٤ ، ٤٥ ، ابن النديم ، ٣٢٢ – ٣٢٥ ، المقدسي ، آخر ١٨٢ – ١٨٣، ٢٠٦ .

(٣٢٩) مذكور عند المسعودي ، مشار اليه .

(٢٣٠) من ١٠ الى ١١ طوبه ، أو ٥ – ٦ كانون الثاني : المسعودي (م) ،فقرة ٧٧٩ – ٧٨٠ .

(٢٣١) عن الغطاس ، بهذا المعنى ، انظر دوزي ، ج٢ ، ٢١٦ .

(٢٣٢) مترجم ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٩٠ .

(٢٣٣) المقدسي ، آخر ١٨٢ ، يحددها في النيروز : عن تحديد رأس السنة ، انظر ما تقدم ، حاشية ٢٠٤ و ٢٢٢ .

ظهر فيه المسيح لتلامذته ، والصعود بعد ثمانية وثلاثين يوما ، والعنصرة في وقت الحر ، واخيرا عيد الميلاد وقت البرد .

تضاف اعياد القديسين إلى الاعياد السابقة ، مثل عيد مار سرجه (٢٣٤) وعيد القديس جاورجيوس في اللد ، ويحضره المسلمون (٢٣٥) . ولخمس من أيلول عيد زكريا (٢٣٦) ، وعيد البرباره وقت الامطار في الرابع من كانون الاول (٢٣٧) . وهنالك ايضا احتفالان عظيمان : فلخمس من تشرين الاول عيد كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وفي هذا اليوم يجتمع النصارى من سائر الارض على حد قول المسعودي ، وتنزل عليهم نار من السماء ، فيسرج هناك الشمع (٢٣٨) . ويقع عيد الصليب في ١٣ او ١٤ ايلول في وقت قطاف العنب ، وفي هذا اليوم تفتح الترع بمصر (٢٣٩) لفيضان النيل .

ونذكر في الختام بعض الاحتفالات الدنيوية . ففي اقليم الجبال ، في قرية البارجي ، عند اهلها خضراء اسمانجونية ، يزعمون انها طلسم للبرد : فاذا كان ايام الربيع ، وخافوا على زروعهم وثمارهم منه ، نصبوها على قناة إلى موضع عيد لهم معروف في يوم من السنة معروف

(٢٣٤) على أقل ، هكذا اقرأ المقدسي ، ٤٥ (ح د) : مار سرجه .

(٢٣٥) ابن خرداذبه ، ٧٩ ، المقدسي ، ١٨٣ (ح ا) : « عيد اللد » في وقت الزرع (عيد القديس جاورجيوس يحتفل به في ٢٣ نيسان) .

(٢٣٦) المسعودي (م) فقرة ١٢٨٦ ! .

(٢٣٧) المقدسي ، ٤٥ ، آخر ١٨٢ (الترجمة ، ٢٢٤ ، ح ٥٢) .

(٢٣٨) المسعودي (م) فقرة ١٢٨٨ مع تفصيل آخر : «ويقتلع فيه ورق الزيتون».

(٢٣٩) المسعودي (م) ، فقرة ١٢٨٦ ، المقدسي ، ج ٤ ، ٤٥ ، المقدسي ، ١٨٣ ، ٢٠٦ .

فلا يصيبهم البرد . وفي ملك فيروز ، مطر الناس في فروردين ماه في اوزابان بعد سبع سنين من الجفاف التام (٢٤٠) . فصبوا الماء بعضهم على بعض اطول عهدهم به ، فصارت تلك سنة إلى اليوم . وفي العراق ، اذا كان بوقت حمل التمر الحديث إلى واسط (٢٤١) نظر اول سفينة نقل ، فيزين لها ذلك البائع (٢٤٢) الشط إلى دكانه بالانماط والستور . وفي العراق ايضا ، اذا كان اول البنفسج ، داروا به في الاسواق ، وتجملوا عليه . (٢٤٣) . اخيرا ، مدينة كرد فنا خسرو ، قرب شيراز ، خفت بعد موت مؤسسها عضد الدولة ، واشرفت على الخراب وكان لها عيد في كل سنة ، يجتمع فيه للفسق واللهو (٢٤٤) .

المعتقدات والاوهام الشائعة

لا يقضي الدين ، لا هنا ولا في اماكن اخرى ، على المعتقدات القديمة الموروثة عن الازمنة الغابرة . ويعتبر موضوعها حقلا شاسعا في الحقيقة ، يستوعب كتابا كاملا ، بل عدة كتب . وقد اخذ منه جغرافيونا واسلافهم . ويستحيل علينا ايفاءه حقه في نطاق هذا الكتاب (٢٤٥) ، فنكتفي بالاحالة إلى ما وصف من عجائب العالم الطبيعي (٢٤٦) وباقتراح بعض الارشادات الاساسية .

---

(٢٤٠) ابن الفقيه ، آخر ٢٦٥ ، ٢٦٧ .
(٢٤١) المقدسي ، ١٢٩ .
(٢٤٢) بيع : انظر دوزي ، ج١ ، ١٣٦ .
(٢٤٣) المقدسي ، ١٢٩ ، عن تجمل على ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٨ .
(٢٤٤) المقدسي ، آخر ٤٣٠ – ٤٣١ .
(٢٤٥) ما عدا ما يتعلق بالمصنفين المختصين بوصف مملكة الاسلام (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) الذين حللنا مؤلفاتهم .
(٢٤٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، اماكن متفرقة .

ونتقصى اولاً المعطيات المجردة عن الارقام والزمن مثلا . فعلى مستوى الارقام ، ينصبّ الجدل على الاربعة او السبعة (٢٤٧) . وعلى مستوى الزمن ، نتناول طول اعمار البشر في الماضي : فابن رسته يقول عن ايام العماليق (٢٤٨) : لقد كان في ذلك الزمان الاول تمضي اربع مائة سنة ، وما يسمع بجنازة » ، وخص المسعودي (٢٤٩) علل هذه الظاهرة بتحليل مستفيض . اما الايام ، فيتحدث المقدسي عن اعتقاد الفرس بعودة روح الاموات في الايام الخمسة الاخيرة من شهر فروردين (٢٥٠) ، ويقول المسعودي عن الايام النحسات انها يوم اربعاء يوافق اربعا من الشهر ، مثل اربع خاون ، واربع عشرة خلت ، واربع عشرة بقيت ، واربع وعشرين واربع بقين ، اي المحسوب من اول الشهر او من آخره (٢٥١) : وهنالك اصرار على تأثير الحجارة الكريمة : فالحيات والافاعي والثعابين اذا ابصرت الزمرد الخالص ، سالت احداقها (٢٥٢) ، والفيروز يشجع ويحيي الامل ، والياقوت يفرح (٢٥٣) . ويقول ابو دلف مسعر عن احدى مناطق فارس (٢٥٤) « عندما يشاهد النمل يكثر من تجميع الحب خلافاً لعادته ، يستنتج ان السنة القابلة جافة ومجدبة . على النقيض ، في حالة الامطار الدائمة

---

(٢٤٧) المسعودي (م) فقرة ١٣٥٩ — ١٣٦٠ ، المقدسي ، ١٦ — ١٩ ،آخر ٤١
(٢٤٨) ابن رسته ، ٩٠ .
(٢٤٩) المسعودي (م) ، فقرة ١٢٦٠ — ١٢٦٣ ، انظر أيضاً المقدسي ، ج٣ ، ٣٧ .
(٢٥٠) المقدسي ، ج٢ ، ١١١ (اشير اليه ، في الفصل ٤ ،«في التبعية الفارسية») .
(٢٥١) المسعودي (م) ، فقرة ١٣١٠ .
(٢٥٢) المسعودي (م) ، فقرة ٨٨٩ . انظر ما تقدم ، حاشية ٩٩ .
(٢٥٣) الثعالبي ، ١١٦ .
(٢٥٤) مسعر (ب) ، ٣٥ .

التي يراد ايقاف اضرارها ،يسكب على النار حليب معز » . اما المسعودي فيسمي ثلاث مدن (حمص ، المعرة ، البصرة) لا يدخلها عقرب ولا حية ، ويذكر ان البق كان لا يدخل إلى انطاكية ، ثم صار يعم اكثر دورها (٢٥٥) . والاشق دابة انيابها جيدة للمحبة ، يؤخذ انيابها ومخالبيها ، وتجفف ، وتسقيه من تحب ، فانه يحباك حبا شديدا (٢٥٦). ويقولون في مصر (٢٥٧) ، حسب المقدسي ، ان الجدي اول ما يولد يقول اخرجوا يا غرباء . وبالاسكندرية سمك مخطط من اكل منه ، رأى منامات وحشة ، الا ان يكون ممن يشرب الخمر ، فانه لا يضره . وبالفرما طير السماني ، من اكل منه زَمّنَ ، وتعقدت مفاصله . اخيرا في الفسطاط من واظب على اكل السمك ، جرب جربا لا يفارقه سبع سنين .

وتعد المياه شكل حياة جوهريا ، ويمكن ان تتميز بخصائص متضادة . ففي فسا ماء ، اذا شرب منه الانسان عناه كما يعنيه الداء . وهنالك ماء من شرب منه مات ، واذا كانت بحلقه علقة ماتت في الوقت (٢٥٨) . وماذا نقول عن عيون في المغرب ، تخرج في اوقات الصلاة ، ثم تغور ، فان قصدها رجل كان قد قتل نفسا بغير حق ، لم يخرج له شيء (٢٥٩) .

---

(٢٥٥) المسعودي (م) ، فقرة ٨١٥ .

(٢٥٦) ابن الفقيه ، ٢٩٧ ومعجم الألفاظ ٥٢ .

(٢٥٧) المقدسي ، آخر ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢٥٨) المقدسي ، ١٤٦ ، ٣٩٧ ، ٤٤٤ .

(٢٥٩) المقدسي ، ٢٤١ .

وللأماكن قوتها ... فعندما تصل الامطار إلى مكة ، تعم سنة خصب جميع البلدان الواقعة من جهة من يرى الغيث قادما . ومن لا يعلم ان المدينة « العطرة » لا تجتذب اليها نفحة جميع الارائج(٢٦٠) ويتفاوض اهل بخارى في الحديث عن غير خلاف ، ان من بركة قلعتهم وقهندزهم انه ما اخرج منها جنازة وال قط ولا عقد فيه لواء ولا راية خرجت منه ، فهزمت ابدا (٢٦١) . ويتحدث المصريون عن لعنة الفراعنة في وصف هلاك نحو الفي عامل في الحفر عن دفائن ارضهم تحت انظار ديك من ذهب عيناه ياقوتتان ، يقوم بحراستها(٢٦٢)

وباليمن جبل به شق ، يدخل منه الرجل الضخم حتى ينفذ إلى الجانب الآخر ، ما خلا ولد الزنا ، فانه يضيق عليه حتى لا يقدر ان ينفذ منه (٢٦٣) . وفي فارس ينبىء جبل دنباوند اهل الارض في اتجاه بدء ذوبان ثلج القمة ، بالاضطرابات والدماء (٢٦٤) . وقرب نهاوند صخرة عظيمة ، من نام عندها يرى في النوم غائبه او آبقه وما سرق له (٢٦٥) . وبعض الاماكن محرمة. ففي طبرستان ، شبيه

---

(٢٦٠) الثعالبي ، ٩٣ — ٩٤ . انظر أيضاً البخاري ، ٥٩٩ — ٦٠٥ (مع بعض الأقوال المتناقضة عن سوء مناخ المدينة) .

(٢٦١) ابن حوقل ، آخر ٤٩٠ — ٤٩١ مع هذا الاستنتاج : وهذا من الأتفاق العجيب .

(٢٦٢) المسعودي (م) ، ٨٢٣ — ٨٢٤ (حفر ناجح ، المرجع ذاته ، فقرة ٨٢٥) .

(٢٦٣) ابن الفقيه ، آخر ٣٨ (يعثر على القصة ذاتها في منطقة عمان عند اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ترجمة ا . ميكيل ، كتاب الاعتبار ، باريس ، ١٩٨٣ ، ص ١١١) .

(٢٦٤) مسعر (ب) ، ٣٥ .

(٢٦٥) ابن الفقيه ، ٢٩٠ .

بدكان ، ان صار اليه انسان ، ولطخه بعذرة ، ارتفعت سحابات عجيبة ، ومطرت عليه حتى تغسله وتنظفه (٢٦٦) . وعلى الطريق ، من هراة إلى سجستان ، موضع ، شبه جبل صغير بين الرمل ، اذا القي عليه قذر او بول ، سمع منه صوت شديد ودوي هائل (٢٦٧) . اخيرا في خوزستان ، منزلان مهجوران لا يجرؤ انسان ان يمضي فيهما ليلة واحدة (٢٦٨) .

وقد تكلمنا من قبل عن ممارسات طبية ، يقترب بعضها احيانا من التخوم المبهمة للاوهام الشائعة ومثلما يمكن ان نتوقع ، قد تحتل حيز العناية الطبية باجمعه . ويذكر المقدسي (٢٦٩) ان بنواحي قاشان جبلا يرشح كرشح العرق ، ولا يسيل ، يجتمع اليه الناس بالاواني ، ويقرعه صاحب الآنية بفهر ، ويقول له اسقنا من مائك لعلة كذا وكذا . ويدعون ان كعب الارنب ، اذا شد بساق الملسوع لم يضره (٢٧٠) : والحَمْل من المواضيع المفضلة ففي احدى كنائس مصر ذخيرة ، اذا حملتها المرأة بحجرها ، عرفت انها حامل ام لا (٢٧١) ، وتجعل خرزة في حقو المرأة لكي لا تحبل (٢٧٢) ، وعلى شفير حمة قرب منبج صورة رجل من حجر اسود تزعم النساء ان كل من لا تلد ، تحك فرجها بانف الصورة ، فيولد لها (٢٧٣) .

---

(٢٦٦) ابن الفقيه ، ٣١٠ .
(٢٦٧) ابن رسته ، ١٧٤ .
(٢٦٨) اليعقوبي ، ترجمة ، ٢٢٨ .
(٢٦٩) المقدسي ، آخر ٢٩٦ – ٣٩٧ .
(٢٧٠) ابن الفقيه ، ٧٦ .
(٢٧١) انظر ما تقدم ، فصل ٥ ، «مغرب رزين ، ومصر جليلة» ، آخرها .
(٢٧٢) ابن الفقيه ٧٦ .
(٢٧٣) ابن الفقيه ، ١١٧ .

وهكذا نقترب من الطلسمات . فبعضها يشفي مثل سمكة حمص التي تديرها الرياح ، وابو رياح حمص للعقارب (٢٧٤) . وبعضها يحمي بالمعنى الواسع : ففي بعض المواضع من جزيرة العرب ، لا تضر الافاعي (٢٧٥) ، وفي جكذه ، احدى قرى فارس ، الحيات كثيرة ومطلسمة ، لا تؤذي حتى ان الصبيان يلعبون بها ولا تضرهم ، وفي قرية اخرى منها ، يقال لها اباذ ، لا يعرض فيها الثعالب للدجاج (٢٧٦) . ولا يدخل البق إلى انطاكية ، كما رأينا (٢٧٧) ، بفعل حق من نحاس في داخله بق مصور من نحاس ، موضوع في اعلى عمود . وسور اصبهان مطاسم من الفأر ، فانعدمت به الحيات ايضا ، لأنه لم يعد لها اجحار تأوي اليها (٢٧٨) . ولا تضر التماسيح في كورة الفسطاط بسبب طلسمي منارتي عين شمس او مسلتيها (٢٧٩) . اخيرا ، بنيت منارة الاسكندرية طلسماً لئلا يغلب ماء البحر على ارض مصر (٢٨٠) :

ولا تكون الطلسمات الا بمصر والشام وفارس (٢٨١) ، ويقال انها من عمل الانبياء ، على حد قول المقدسي ولا منازعة في ان ابن

---

(٢٧٤) المقدسي ، ١٥٦ ، ١٨٦ (وح يب : طلسم في بيت المقدس له صلة بما قيل عن الممارسات الطبية عن النادرة الموضوعة عن هذا البلد) .

(٢٧٥) الهمداني ، ٢٠١ .

(٢٧٦) ابن رسته ، ١٥٩ .

(٢٧٧) المسعودي (م) ، فقرة ٨١٥ ذكر من قبل .

(٢٧٨) ابن رسته ، ١٦١ .

(٢٧٩) المقدسي ، آخر ٢١٠ — ٢١١ .

(٢٨٠) المقدسي ، ٢١١ .

(٢٨١) المقدسي ، آخر ٢١١ . تصحح بمعطيات ابن الفقيه (انظر ما يلي) الذي ينسب عددا منها الى الجبال .

الفقيه خصها باوسع حيز (٢٨٢) من مؤلفه ، دون سائر الجغرافيين : والطلسمات مجهولة الفاعل او تنسب في اغلب الاحيان إلى المعلم بليناس (ابولونيوس التياني) (٢٨٣) : ولا يعرف احد شكلها ولا مادتها فهي نصب او بيت ، او صور بشر او حيوانات ، كالأسد والسمك والثور ، وتمثال الحصان ، وثلج او عشب ، وهي تخفي مناجم الذهب والفضة ، وتؤمن النصر ، وتحمي من الريح والبرد والثلج ، والعقارب والاسود والحيات ، والبراغيث ، والذباب والزنابير ، والحميات او الآفات ، والشقاق ، وضعف الدولة ، والغرق ، والقير والملح اللذين يلوثان الماء ، وغمر الارض او على النقيض ، نضوب العيون ، وجفاف العشب ، والارض الاسفنجية التي تبتلع البشر والدواب ... فالطلسمات متنوعة الطبيعة والوظيفة ، نشوءها قديم وراسخ ، لذلك تقضي ، كما قلنا ، ببقاء معتقدات عتيقة ، لم ينجح الاسلام حتى ذلك التاريخ في استئصالها من عقول الشعوب .

الأمثال

نشأ ادب شعبي ، بالمعنى الصحيح ، والله اعلم ، من الادب

---

(٢٨٢) والمسعودي أيضاً في كتابه المفقود أخبار الزمان : المسعودي (م) ، فقرة ١٤٢٢ . التدوينات التالية مأخوذة من ابن الفقيه ، ٢١٢ – ٢١٤ ، ٢٤٠ – ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٣١٩ ، يلاحظ ذكر الطلسمات الضارة عندما اراد ابولونيوس (بالياناس) ان يبطش عندما استهان أهل اروند به : به : ابن الفقيه ، آخر ٢٤٠ – ٢٤١ ، ٢٦٦ ٢٧٤ .

(٢٨٣) ذكر اشخاص اتخذوا الطلسمات بصورة عابرة ابن الفقيه ، ابن الفقيه ، ٢٩٦ .

العربي الكلاسيكي (٢٨٤) ، وجاء ضعيفا ، ومثل هذا النشوء حجة اضافية دفعتنا إلى جمع شذراته من الكتب ، بطلاوتها الابداعية المغفلة ، وإلى تحية المؤلفين الذين نقلناها عنهم . ومنهم ابن الفقيه الذي روى بعد كثيرين سواه عن مدينة همذان ان « نهارها رقّاص ، واما ليلهم فحمّال » . يعني انهم يرقصون بالنهار ليخصر اطرافهم ، وبالليل يتدثرون ويحملون الثياب (٢٨٥) . مع ذلك ، يعدّ المقدسي الوحيد الذي يستحق تقديرنا ، والوحيد ، فيما يبدو الذي شغف بسرد الامثال ، كلما سنحت له الفرصة . ونحن نستعرضها الآن فيمايلي تكريما له .

— فعن اهل طبرية (٢٨٦) « يقال شهرين يرقصون ، وشهرين يقمقمون ، (٢٨٧) وشهرين يثاقفون ، وشهرين عراة ، وشهرين يزمرون ، وشهرين يخوضون يعني يرقصون من كثرة البراغيث . ويلوكون النبق (٢٨٨) . ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذب ، وعراة من شدة الحر : ويمصون قصب السكر ، ويخوضون الوحل » .

— « ومن امثال اقليم الشام عن البرد (٢٨٩) قيل للبرد اين نطلبك ؟ قال بالبلقاء (٢٩٠) : قال فان لم نجدك ؟ قال : بعلبك بيتي » .

---

(٢٨٤) غالباً ما استشهدنا بألف ليلة وليلة ذاتها التي لا يجوز ان توصف بالشعبية ، في بعض اجزائها في الحد الأدنى ، باعتبار المعنى والمبنى معاً لأن الناسخ عدل انشاءها. بالتالي لا بد من الترحيب بعمل ج . بوهاس و ب . غليوم: فقد باشرا تنفيذ مشروع نشر سيرة بيبرس حسب نص القصاصين الشاميين الذين حفظوها لنا بصيغتها الشعبية الحقيقية.

(٢٨٥) ابن الفقيه : ٢٣٠ .

(٢٨٦) المقدسي : ١٦١ (مكرر في نبذة ياقوت : معجم البلدان ، عن طبرية .

(٢٨٧) قمقم : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٣٣ .

(٢٨٨) النبق : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٤٢ ، ح٤ .

(٢٨٩) المقدسي : ١٧٩ (يمكن ان نقرأ برد بفتح الراء عوضاً عن بَرْد) .

(٢٩٠) منطقة عمان .

ـ ومن امثال الناس عن مناخ فلسطين : « اذا جاء عيد بربارة ، فليتخذ البناء زماره « يعني » فليجلس في البيت في فصل الشتاء (٢٩١) . « ... ومن امثالهم اذا جاء القلندس ، فتدفأ واحتبس » (٢٩٢) .

ـ ولديس شمويل ، وهي قرية قريبة من ايليا ، هذا الوصف القصير (٢٩٣) : « قريبة من السما ، بعيدة من الوطا ، قليلة الابروط ، كثيرة البلوط ، تحتاج إلى الكد ، ولا تزكي بالردّ ، يغالب غرّ ولوز مرّ . ازرع قبّا وخذ قبّا ، الا ان الذي نذرت كان انبل جبّا » .

ـ ومن امثالهم عن اهل القلزم ، في موقع حرمته الطبيعة ، قرب السويس : « ميرة اهل القلزم من بلبيس ، وشربهم من سويس »(٢٩٤)

ـ وعن اهل مصر يقول اهل الشام (٢٩٥): « مطر اهل مصر الندى ، وطيرهم الحدا ، وكلامهم يا سيدي ، رخو مثل النسا » .

ـ وعن التماسيح الخطرة جدا بجوار سردوس على النيل ، من امثالهم : « (٢٩٦) : « احذر سردوس ، ولو كان الماء في قادوس » (٢٩٧) :

---

(٢٩١) المقدسي : آخر ١٨٢ . بشأن عيد البربارة ، انظر ما تقدم ح ٢٣٧ .

(٢٩٢) المقدسي : آخر ١٨٢ – ١٨٣ .

(٢٩٣) المقدسي : ١٨٨ (وترجمة ٢٣٦، ح ١٠٥ – ١٠٧ من أجل شرح بعض المقاطع) .

(٢٩٤) المقدسي : ١٩٦

(٢٩٥) المقدسي : آخر ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٢٩٦) المقدسي : ٢٠٨ .

(٢٩٧) والقادوس كوز معلق بدولاب ناعورة : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٢١ ، ودوزي ج ٢ ، ٣١٤ . اعطى المقدسي نفسه هذا الشرح ، المرجع ذاته) .

— وقد قالت الحكماء عن اهمية قبا في فرغانة (٢٩٨) : « فرغانة قبا ، وما سواها حشيش وما » .

هذا ما يخص المقدسي . ونهي بمقطع شعبي لكاتب آخر ، هو المسعودي يجيب فيه القمر عن اسئلة تطرح عليه حول طلوعه وزيادة ضوئه وتناقصه (٢٩٩) .

قيل للقمر : ما انت ابن ليلة — قال : رضاع سخيلة ، حلّ اهلها برميلة . قيل لليلتين ؟ — قال : حديث امتين ، ذواتي افك ومين : قيل فما انت لثلاث ؟ — قال : حديث فتيات ، يجتمعن من شتات : قيل : فما انت لاربع ؟ — قال غنمة رتع ، غير جائع ولا مرضع : قيل : فما انت لخمس ؟ قال حديث لثمان انس . قيل : فما انت لست ؟ — قال سر وبت . قيل : فما انت لسبع ؟ قال تصفر في الشفع . قيل : فما انت لثمان ؟ — قال : قمر اصبحان ، وقيل رغيف اقتسمه اخوان . قيل : فما انت لتسع ؟ قال : تلتقط في الجوع : قيل : فما انت لعشر ؟ — قال : محق الفجر (٣٠٠) . قيل : فما انت لاحدى عشرة ؟ — قال : ارى مساءاً وبكرة . قيل : فما انت لاثنّي عشرة ؟ — قال : موفق للسير في البدو والحضر . قيل : فما انت لثلاث عشرة ؟ — قال : قمر باهر ، يعشي عين

(٢٩٨) المقدسي : ٢٧٢ .

(٢٩٩) المسعودي (م): فقرة ١٣١٥ . لضرورات السجع عدلت القافية بالفرنسية (عممته ليشمل الحالات النادرة غير الموجود فيها بالعربية)، وعدلت ترجمة ش . بيلا التي احيل اليها من أجل التأويل الحرفي الدقيق (الأكمل ، نظرا للتباينات التي احتفظت بها احيانا أو اخترت بينها) .

(٣٠٠) انظر النص العربي ، حاشية ٨ .

الناظر . قيل : فما انت لاربع عشرة ؟ قال : مقتبل الشباب ، اضيء بين السحاب . قيل : فما انت لخمس عشرة ؟ — قال : تم التمام ، ونفذت الايام : قيل : فما انت لست عشرة ؟ — قال : ناقص الخلق في الغرب والشرق . قيل فما انت لسبع عشرة ؟ — قال : ركب الفقير الفقر . قيل : فما انت لثمان عشرة ؟ — قال : البقاء ، سريع الفناء . قيل : فما انت لتسع عشرة ؟ — قال : بطيء الطلوع من الخشوع . قيل : فما انت لعشرين ؟ — قال : اطلع سحرة ، وارى بكرة . قيل : فما انت لاحدى وعشرين ؟ — قال : لا اطيل السرى الا ريثما ارى : قيل : فما انت لاثنتين وعشرين ؟ — قال : مسفع خطب ، وليث حرب : قيل : فما انت لثلاث وعشرين ؟ — قال : كالقبس ، اطلع في الغلس : قيل : فما انت لاربع وعشرين ؟ — قال : اطلع في قسمة ، ولا اجلي ظلمة . قيل : فما انت لخمس وعشرين ؟ — قال : انا في تلك الليالي ، لا قمر ولا هلال : قيل : فما انت لست وعشرين ؟ — قال : دنا الاجل ، وانقطع الامل : قيل : فما انت لسبع وعشرين ؟ — قال : دنا ما دنا ، فليس في من سنا : قيل : فما انت لثمان وعشرين ؟ — قال : اطلع بكرا ، ولا ارى ظهرا . قيل : فما انت لتسع وعشرين ؟ — قال : اسبق شعاع الشمس ، ولا اطيل الجلس : قيل : فما انت لثلاثين ؟ — قال : هلال مستقبل سريع الافل .

* * *

الفصل الثالث عشر

الانسان المبدع

لقد فتحنا اضبارة الاختراعات والتقنيات من قبل[1]، في هذا الكتاب ذاته وفي الكتاب (١) السابق ، في الاعمال المائية او الملاحة او في احد افضل انشطة المدن ، اعني الحياكة . وينبغي علينا الآن ان نكمل هذه المعطيات عند اللزوم ، او نجمع غيرها . وسوف ننجز ما هو جوهري منها في ثلاثة عناوين كبرى باوسع معانيها ، اي الزراعة والبناء والعمل الحرفي .

الارض والماء

لا يتصدر وصف الفلاح كتابنا ولا سائر الادب العربي الكلاسيكي ولا نلمحه الا بين الفينة والفينة ، او يتوارى عنا ، كما يخيل الينا ، محتجبا وراء الحديث عن قراه او عن محاصيل ارضه ، او مشهد حقوله . باختصار ، يسمح لنا عمل هذه الكتل البشرية ان نتصورها

(١) من أجل التقنيات المستعملة عند الأقوام الغريبة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، الفهرس .

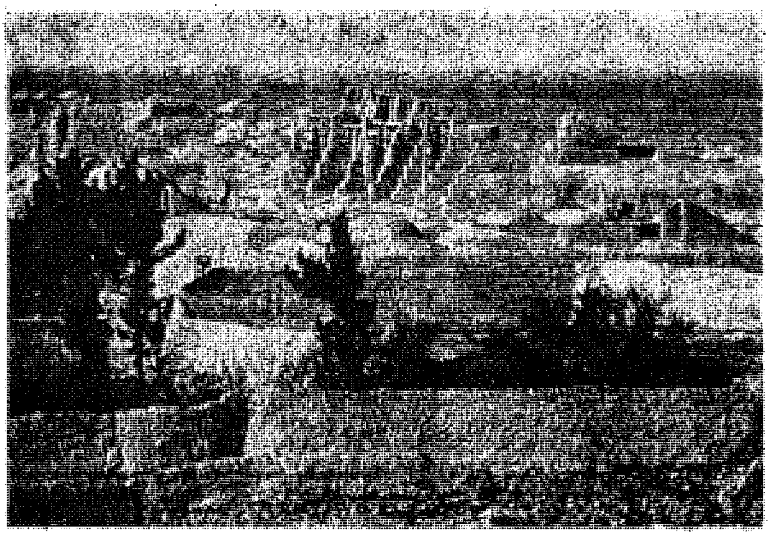
رغم شح السماء والارض ، مكبّة بحماس على كسب قوتها من المناطق الجافة ، او موفقة في ادامة التقاليد المستقرة في اودية الغذاء الكبرى : وادي النيل ، او بلاد ما بين النهرين ، او ما وراء النهر . عندئذ يمر امام ناظرنا تنوع الحقول وكثرة الخضرة ، ومشهد الارياف المذهل في دار الاسلام (٢) ، وفي الحد الاقصى ، رؤية فردوسية عندما يتوخى العمل المنجز على الارض والماء والاشجار ذاتها ، اقرار العين به ، ويؤول إلى هذه المعجزة ، التي قد تعد نادرة ،لكنها استحقت ثناء ابن حوقل ، واعتبرها بستان متعة مثل جنان سمرقند (٣) .

لكن كم بذلت جهود قبل وصول الطبيعة إلى هذا الوضع ؟ فالارض تختلف من مكان إلى آخر ، منها الجيدة ومنها الرديئة ، بل العدوة ، اعني الرمل وتهديده الدائم بطمّ عمل البشر . عندئذ ، اذا عجز الناس عن التغلب عليه،يحتالون عليه مثلما فعل اهل سجستان الماهرون في مكافحته ، ويستعينون بالريح ، فيجعلون زربا وسياجا كالحائط من خشب وشوك حول الرمل الذي يريدون نقله ، ويفتحون في اسفله بابا من تلقاء الريح ، فتدخله الريح ، وتطير بالرمل إلى حيث آثروا نقله بعيدا عن المزارع (٤) في جميع الاحوال :

وهناك موضوع بحث آخر ، يتصف بالهدوء ، لكن يعوز الاستمرار والكمال ، نعني موضوع الارض والماء . فبلدان الانهار والسواقي

(٢) من أجل ذكرها ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٨٧ ، وما يليها .
(٣) ابن حوقل ،٤٩٢ ، مترجم في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ،١٥١ — ١٥٢ .
(٤) ابن حوقل ،آخر ٤١٥ — ٤١٦ .

والأفنية القريبة ، سعيدة ، ترتع في سحر الجريان المتواصل الأمين وصوت النواعير (٥) : ومباركة ايضا الحقول المسقية من الآبار ، ومن المياه المستقاة دلوا دلوا ، او ، بسهولة ، بآلة رافعة ، تحركها الرياح (٦) ، او الابل او الابقار بخطاها المتئدة : اخيرا لا تستقر



(تصوير رولان وسبرينه ميشو رافو)

طاحونة هواء قديمة ، خرجد (خراسان)

---

(٥) احيل اجمالا الى ما قيل بهذا الشأن في الفصل ٢ ، جغرافية دار الاسلام ، ج٣ . انظر من بين الاحالات ١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ابن حوقل ، ٩١ . ٢٢٠ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ، آخر ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٣٦٢ ، آخر ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٤٣٨ ، آخر ٤٧٨ — ٤٨٠ ، ٤٨٤ — ٤٨٧ ، ٤٩٥ — ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، المقدسي ، آخر ١٦١ — ١٦٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٣٣٠ — ٣٣١ ، ٣٥٧ (عن طرجهاره ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٨٧ — ٢٨٨) ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤٤٤ ، ٤٦٢ ، ٤٨٣ .

(٦) انظر اليعقوبي ، ٣١٣ ، ابن رسته ، ١١٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٠٨ — =

أوضاع الزروع ، اذا عقدت الآمال على مطر السماء ، ان شاءت السماء ان تستجيب لها (٧) :

بعد هذه المقدمات ، يجب العمل في الارض ، والافادة من طمي النيل — وهذه حالة شهيرة — ومن طمي نهر تاجه في سنتريم او نهر مونديغو في كويمبره (٨) . يلي دمل الارض على طريقة النبي داود(٩) فيما يقال ، وهذا ما يحصل في اغلب الاحيان ، باستعمال جميع انواع الاقذار ،بدءاً بالبلاذات الجافة على حد قول الجاحظ (١٠) . اخيرا ، ينتفع بالبقر للحرث ، وبالحمير للحمل (١١) . وفي رساتيق اردبيل ، في اذربيجان ، يحرثون بثمانية ثيران واربعة سوائق ، لكل ثورين سائق ، لا لصعوبة الارض ، حسب المقدسي ، بل من اجل الثلوج ، فلعلهم يريدونها ان تتغلغل في الارض ، وتشكل مصدر رطوبة في المستقبل (١٢) .

---

٣٠٩ (تقنيات القنقن : ترجم في ج دا ، ج٣، ١٣٩ — ١٤٠) ، ٥١٠ ، ابن حوقل ، ٢٢٢ ، المقدسي ، ٢٣٣ (عن سانية جمعها سواني ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٥) ، ٤٢٩ .

(٧) انظر ابن رسته ، ١١٠ ، ١١٢ ، ابن حوقل ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، المقدسي ، ٢٣٣، ٣٠٨ ، ٣١٩ (و ح ج)، ٤١٤، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤ . عن المباخس وبعل ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٥، ١٩١ ، ودوزي ، ج١ ٥٥ ، ١٠٠ .

(٨) الرازي ، ٨٨ — ٨٩ ، ٩٨ (ريو بربات) .

(٩) ابن رسته ، ١٩٨ .

(١٠) الجاحظ(١) ، ورقة ٢٩ — ٣٠ ، المقدسي ، ٢٨٨ .

(١١) الهمداني ، ١٩٤ .

(١٢) المقدسي ، ٣٨١ .

وهنالك علامات اخرى ، يستدل بها على تصميم الفلاح على الحصول على انتاج افضل من الارض . تشهد على ذلك كلمات ابن حوقل عن بعض رساتيق اذربيجان : « التامة العمارة بالكراب والفلاحين » (١٣) وقول ابن رسته الذي تذهله خيرات اليمن : تدرك عندهم الحنطة دفعتين ، والشعير والارز ثلاث دفعات واربعا(١٤) ويتحدث الرازي عن منطقة تاجه الاسفل وعن غنى لحقياتها ، ويذكر ان الحصاد يتم سبعة اسابيع بعد البذر فقط (١٥) . اخيرا في سجلماسة، في المغرب الاقصى الجنوبي ، ينضر الزرع بالري نضارة عالية جدا : فربما زرعوا سنة عن بذر، وحصدوا ماراع من زرعه، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تلك الارض سنة في عقب اخرى ، حصدوه إلى سبع سنين (١٦) .

ويلاحظ وجود تلميحات إلى التقويم عامة ، هنا وهناك ، وإلى تقويم قرطبة الذي احيل اليه ، او تقويم النيل ، الذي حفظه لنا المسعودي وابن حوقل والمقدسي (١٧) : فاذا انحسر ماء النيل في شهر بابه (تشرين الاول) ، وقعت باكورة البذور بالاقراط والكتان والحبوب، والقرط الرطبة . وبهاتور (تشرين الثاني) يبتدأ بالحرث ، ويحصد الارز ، ويكون الزرع البذري في اكثر نواحيهم . وبهيهك (كانون

---

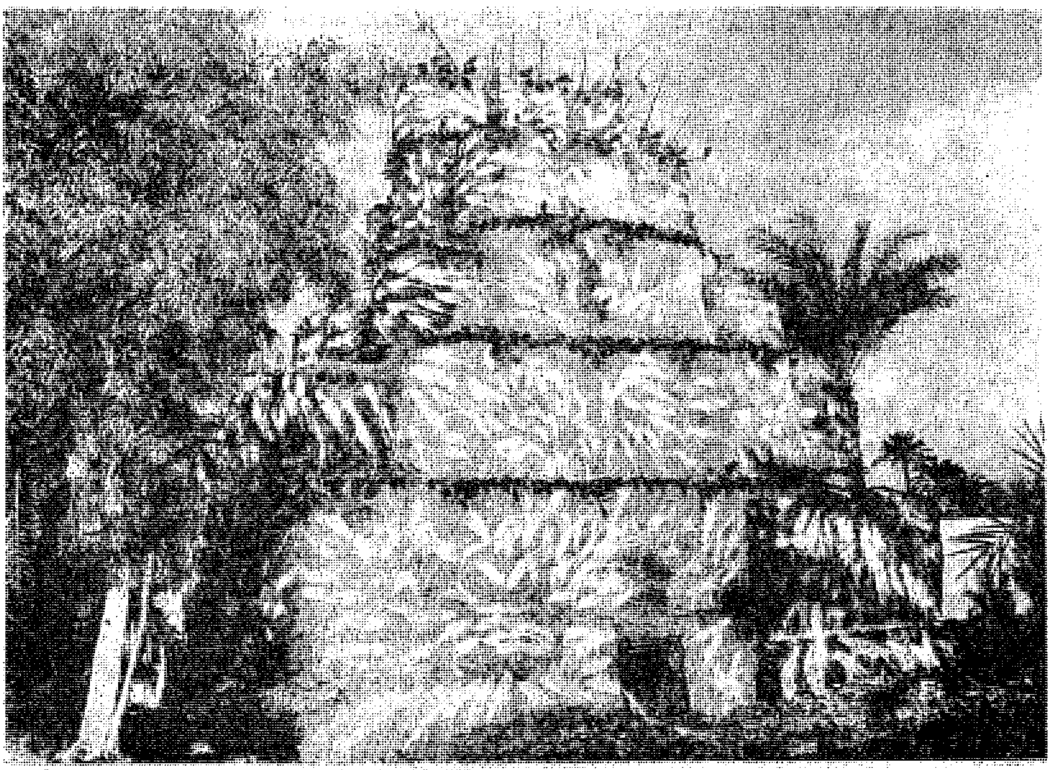
(١٣) ابن حوقل ، آخر ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(١٤) ابن رسته ، ١٠٩ ، اسحاق ، ٤٣٤ . يتحدث ابن رسته عن ثمارهم وعنبهم الذي يدرك في السنة دفعتين دون ان يحدد الثمار المقصودة .

(١٥) الرازي ، ٨٨ — ٨٩ ، يشير الى محصولين سنويين في بعض الأماكن .

(١٦) ابن حوقل ، ٩١ .

(١٧) ذكر في جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٨١ وما يليها .



(تصوير ش. بستين و ج. افرارد ، بروكسيل)

برج حمام مبني من طين مضغوط بواحة الفيوم ، مصر

الاول يزرع من اوله إلى آخره الزروع المتأخرة ، ولا يزرع بعده في شيء من ارض مصر غير السمسم والمقاثي والعطب . وببرمهات (اذار) يزرع قصب السكر وما يشبهه . وببرموده (نيسان) يحصد بذرى الزرع . وبابيب (تموز) ، اصل زيادة ماء النيل ويكون ضعيفا ، وفيه يزرع الارز في الفيوم ، ويحصد في هاتور وهيهك . اما الكتان ، فيسل في توت (ايلول) ، ويدق في بابه (تشرين الاو ل) في الوقت ذاته الذي يبذر فيه كتان السنة القابلة (١٨) . اما في اليمن فيذكر الهمداني ان الجربة تحرث بايلول ، ثم تحرث في تشرين الاول كرة اخرى ، ثم في تشرين الآخر كرة ثالثة ، ثم تبذر في كانون الاول ، ويقيم الزرع فيها إلى ايار ، ويضرب (١٩) .

ونذكر بعض الامور النادرة التي تذكر عرضا : منها الحمرية التي تخرج من البحر الميت ، ويطلى به المناجل ، ويكسح بها الكروم ، ليؤمن من الدود عليها وغيرها من العلاجات (٢٠) . وفي فلسطين يقال ايضا ان اهل مدينة زغر يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما تلقح النخل بالطلع الذكر ، وكما يلقح اهل المغرب تينهم بذكارهم(٢١) ويسترعي انتباه ابن حوقل في تربية حيوانات بلخ واعمالها ، النوق المتقدمة على سائر ما في جنسها ، وخلوص نتاجها والبخاتي التي بها تختار (٢٢) ، في حين يتحدث المقدسي عن كثرة ابراج الحمام في

---

(١٨) أخذت هذه المعلومات من ابن حوقل ، ١٣٦ — ١٣٧ ، على وجه التدقيق . عن القطن ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٣٢ (و ح٢) .

(١٩) الهمداني ، ١٩٩ .

(٢٠) المسعودي (ت) ، ١٠٨ .

(٢١) ابن حوقل ، آخر ١٨٤ .

(٢٢) ابن حوقل ، آخر ٤٥٠ .

الجزيرة (٢٣) . اخيرا ، اشير إلى ملاحظات الهمداني عن اليمن بشأن خزن الحبوب لحفظها: فقد رأى في جبل مسور بُرّاً اتى عليه ثلاثون سنة ، لم يخنز ، ولم يتغير . فاما الذرة فانها لا تكون الا في بلد حار ولا تختزن في البيوت لحال ما يسرع اليها من الفساد ، ولكن يحفر لها في الارض ، وتدفن في مدافن ، ويسد عليها حتى ربما نبت على السداد الشجر العري ، وتقيم العمر ولا تنخفش ، ولكن تغير رايحتها وطعمها (٢٤) .

ويتمم وصول الحبوب إلى الطواحين اقصى امتداد النشاط الزراعي. ولا بد من الاعتقاد ان سحر الرحى والدولاب ، رمزي الحياة ، الدائرين بهدوء واطمئنان ، قد اثرا في الجغرافيين العرب وفينا ايضا . في جميع الاحوال ، تكثر التدوينات بشأنهما عند ابن حوقل والمقدسي . وتذكر اولا الطواحين او الدواميس او الارحية باختصار ، دون اي ايضاح اضافي . ونجدها في اذربيجان ، وفي مصر في بلبيس — ثلاث مائة وستون طاحونة — وفي متيجة ، وفي الاندلس ، وفي فاس وبالرمو ، والجزيرة وخراسان وفارس وخوزستان (٢٥) . وتدير الدواب الارحية احيانا (سرخس ، خراسان) ، وتدار الطواحين بالحمال(٢٦) في خوناوب في خوزستان . وادارة الطواحين بالرياح اقل شيوعا ،

---

(٢٣) المقدسي ، ١٣٩ .

(٢٤) الهمداني ، ١٠٨ .

(٢٥) ابن حوقل ، ٢١٤ ، ٣٤٣ ، المقدسي ، ١٦١ ، ١٧٤ (و ح بج) ، ١٩٥ (وح يا) ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٤٠٢ ، ٤٥٠ (ح ب) عن داموس ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٧ .

(٢٦) الرازي ، ٦٥ ، ٧٦ ، ابن حوقل ، ٤٤٥ ، المقدسي ، آخر ٤٦٢ .

لكنها مثيرة للاعجاب . فبلاد سجستان بلاد الرياح على حد قول المسعودي ، وهو البلد الموصوف بان الريح به تدير الارحية وتسقي الماء من الآبار (٢٧) . ويقول ابن حوقل ان رياح سجستان تشتد وتدوم حتى انهم نصبوا عليها ارحية لطحن قموحهم يديرونها بها (٢٨) . ويعتبر المقدسي طواحين الريح بسجستان من العجائب (٢٩)

وطواحين الماء كلاسيكية واوسع انتشارا إلى ما لا نهاية له ، ويشار اليها بلا اوصاف اضافية في طول دار الاسلام وعرضها (٣٠) . وقد تقام الطاحونة على عين(٣١) او بئر(٣٢) او تيار المد والجزر (٣٣) وقد تكون تحت الارض هي والقناة التي تمدّها بالماء المحرك لها (٣٤)، او تطفو كما في خوزستان او تفليس او على دجلة ، الا انها تمثل مشهدا خاصا في الموصل ، وتذهل ابن حوقل : فهي تعرف بالعروب ، في كل عربة منها اربعة احجار ، وهي من الخشب والحديد ، قائمة

---

(٢٧) المسعودي (م) ، فقرة ٥١٠ .

(٢٨) ابن حوقل ، آخر ٤١٥ .

(٢٩) المقدسي ، ٣٣٣ (وح ز) .

(٣٠) ابن حوقل ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٢ ، ٣١١ (فيه ماهو بالتقدير يدير ٥٠ رحى بجيرفت في كرمان)٣٤٩،٣٦٣،٤١٢،٤١٥،٤٤٨،٤٨٣،آخر ٤٨٤ ، ٥٠٤ ،المقدسي، المقدسي ، ١٧٥ ، ٣٥٩ ، ٤٠٧ ، ٤٤٤ ، آخر ٤٦٥ ، ٤٦٦ (٢٠ طاحونة في في جيرفت : انظر ما تقدم) .

(٣١) الرازي ، ٨٣ .

(٣٢) المقدسي ، ٤٤٥ (بئر لا يقف لها على قعر ، يفور منها ماء يدير رحى) .

(٣٣) المقدسي ، ١٢٥ .

(٣٤) ابن رستة . ١٧٠ ، المقدسي ، ٣٥٧ .

في وسط الماء ، وموثقة بالسلاسل الحديد ، وتشكل مشاريع كبيرة لأن كل حجرين يطحنان في اليوم والليلة خمسين وقرا (٣٥) .

بناء الدور

ايتحتم على الناس بناء الدور ؟ الجواب بديهي في رأينا ، لكنه ليس كذلك في عرف ابن الفقيه وما يمثله من ادب تمثيلا جيدا جدا . وسواء اعتبر الجدل اكاديميا او زعم انه يديم اتخاذ الاسلام الفنّي احتياطات ، ان لم يكن ضد الحاجة إلى التعمير ، ففي الحد الادنى ضد الهوى او البذخ الذي يمكن ان يتخلل عملية القيام به ، فان ابن الفقيه يخص هذه القضية الشائكة بحوالي عشر صفحات تتضمن فيما يبدو كل ما يمكن قوله (٣٦) .

فمن جهة اولى يتصف البنيان بالعالمية . وتتخذ العالمية مدلولين ، فتشمل كافة الارض وتاريخها اجمع ، بتأييد الثقات المحتج بهم من اليونان وفارس وبعض اساطين الاسلام . والبنيان عالمي ايضا بمعنى ان الدار ، على غرار بانيها ، في جميع الدنيا ، ولا بد لها ان تأخذ بعين الاعتبار الموقع على الكرة الارضية ، والمناخ ، والتوجيه ، وحتى كواكب الفلك . وجملة القول ان « دار الرجل دنياه » . من جهة ثانية ، يعتمد البعض على آيات قرآنية واحاديث نبوية واقوال صحابة ، فينددون بترف القصور ، ويسترشدون بقول ابي ذر لمعاوية عن قصر

(٣٥) ابن حوقل ، ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٣٤٠ ، المقدسي ، ٤٠٨ ، اشرنا من قبل الى طواطين الموصل : جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ٢٠٩ . عن العروب، جمع عربة، انظر م ج ع ، ج٤ ، آخر ٢٩٧ — ٢٩٨ ، كان منها في بغداد أيضاً : ابن حوقل . ٢٢٠

(٣٦) ابن الفقيه ، ١٥١ — ١٦١ .

الخضراء : ان كنت بنيته من مال الله فانت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك ، فانت من المسرفين . وفوق ذلك كله ، يرد التأسي الدائم على زوال الاشياء ، حتى ان الحجر نفسه يلقى مصيرا مماثلا .

مع ذلك ، يميل الميزان لصالح البناة ، اذا كان لا بد من حسم الموضوع . ويتم الامر بذكر روائع البنيان ، مثل افخم الجوامع ، وابدع الكنائس ، واجمل القناطر ، وابنية مصر والشام والعراق او فارس ، وهيكل بيت المقدس (٣٧) ، والاحتياطات المتخذة في اثناء البناء وفي طليعتها الطلسمات (٣٨) ، والثقات المعتمد عليها ، مسلمة وغير مسلمة (٣٩) . وليس انتصار المؤسسين نظريا فقط ، فهو يؤدي في واقع الحال ، إلى استمرار الاهتمام بعجائب البناء القائم ، والجوامع الكبرى في دار الاسلام ، وابنية المدن ، واسوارها ، وحماماتها ، وقصورها . ويتبع الجغرافيون الميدانيون في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، هذا التقليد في اصغر آثاره ، ويريدون ببساطة ان يسجلوا كل ما يشاهدونه هنا وهناك ، فيفتحون صفحة جديدة ، يعنونونها البناء ، ويصفون فيها ليس فقط اعظم ما شيد ، بل اول ما بني واصغره . وعلى هذا الاساس ، نحصل منهم ، ان لم يكن على خريطة كاملة ومكملة للابنية ففي الحد الادنى على عناصر هامة جدا في لوحة البناء في بلدان دار الاسلام حولي العام الف .

---

(٣٧) ابن الفقيه ، آخر ٥٠ — ٥١ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٩٨ وما يليها ، ١٠٦ ، ١٠٨— ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ، ابن رسته ، ٣٦ ، ٦٤ وما يليها.

(٣٨) ابن الفقية ، ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣٩) ابن الفقية ، ١٠٨ — ١٠٩ ، ١٨١ — ١٨٣ ، ابن رستة ، ١٩٦ .

طريقة البناء

تنتظم الصورة العامة لطريقة البناء حول اربع مواد اساسية : يختلف استعمال كل منها من منطقة إلى اخرى ، وحسب الابنية من دور وقصور ، وهي الحجارة ، والطوب ، واللبن والآجر (٤٠) . ونتحدث عنها بدءاً من المغرب . ففي المغرب ، تستخدم المواد الاربع ، لكن يقل البناء بالطين ، ويكثر البناء بالحجارة الخشنة او المكسية في ساحل تونس وفي صقلية والاندلس (٤١) . وتعد مصر ، اذا حكم عليها على اساس مثال الفسطاط ، بلد البنيان بالطوب ، يليه البنيان بالآجر واللبن الاسود ، الا ان الحجارة تحتل مكانة مرموقة في اسوار دمياط ودور الإسكندرية المبنية بحجارة بحرية ، معدن الرخام (٤٢) .

ويغلب البناء بالطين في جزيرة العرب ، يليه الآجر (٤٣) ، في حين يبدو ان الشام لا يتفوق فيها الطين او الآجر ، بل الحجارة المنحوتة ، او الخام او الحجر الرملي اللين ، او الرخام احيانا ، وكلها

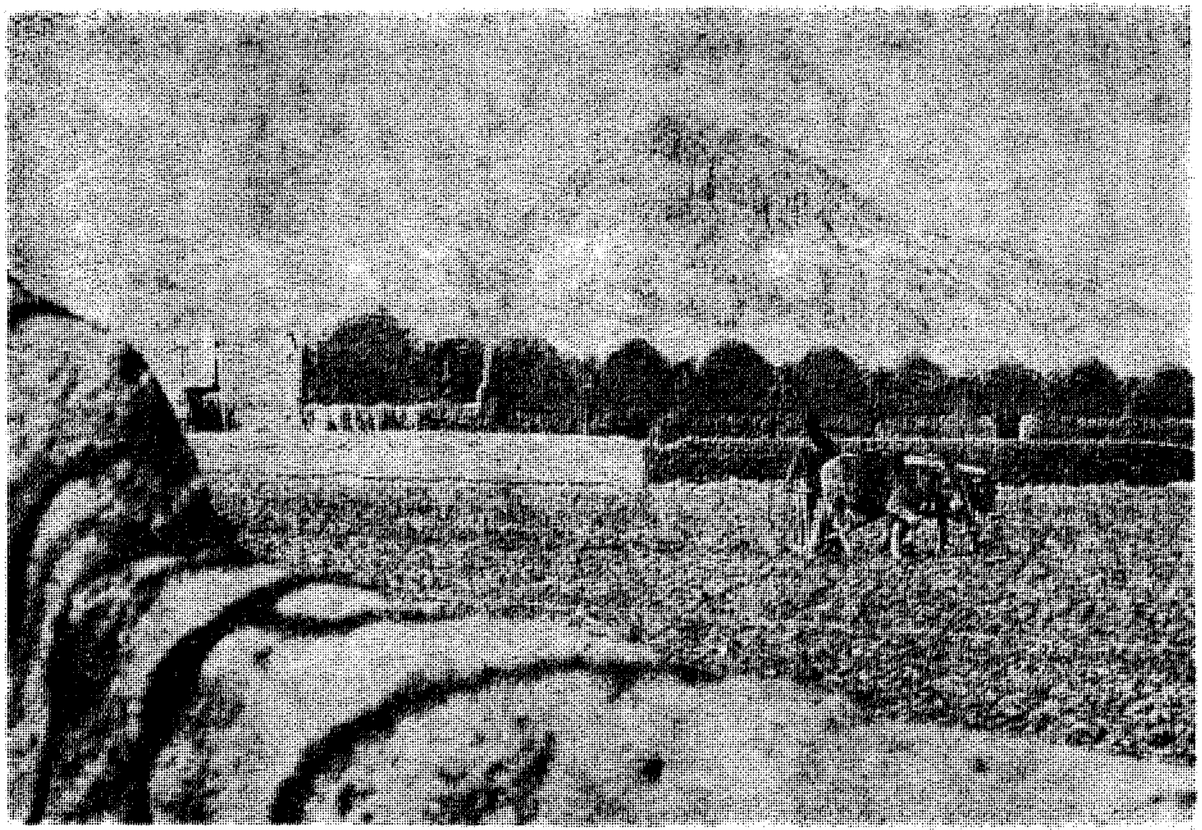
---

(٤٠) حجارة ، آجر ، طوب ولبن ، طين، مدر (غضار مجفف قوالب) طابية (سياع مع قش . يبدو خاصاً بالمغرب) : انظر ابن حوقل ، ٦٨ ، ٨٧) انظر ج . مارسيه « بناء » ، م١ (٢) ، ج١ ، ١٢٦٤ ، دوزي ، ج٢ ، ٦٥ – ٦٦ ، ٥٧٥ . أو. اورنش، البيت الشرقي، هندسة الشرق الأدنى القديم من البدء حتى منتصف الألف الرابعة باريس ، ١٩٨١ ، ٣ م ، انظر م١ ، ص ١١ – ٩١ .

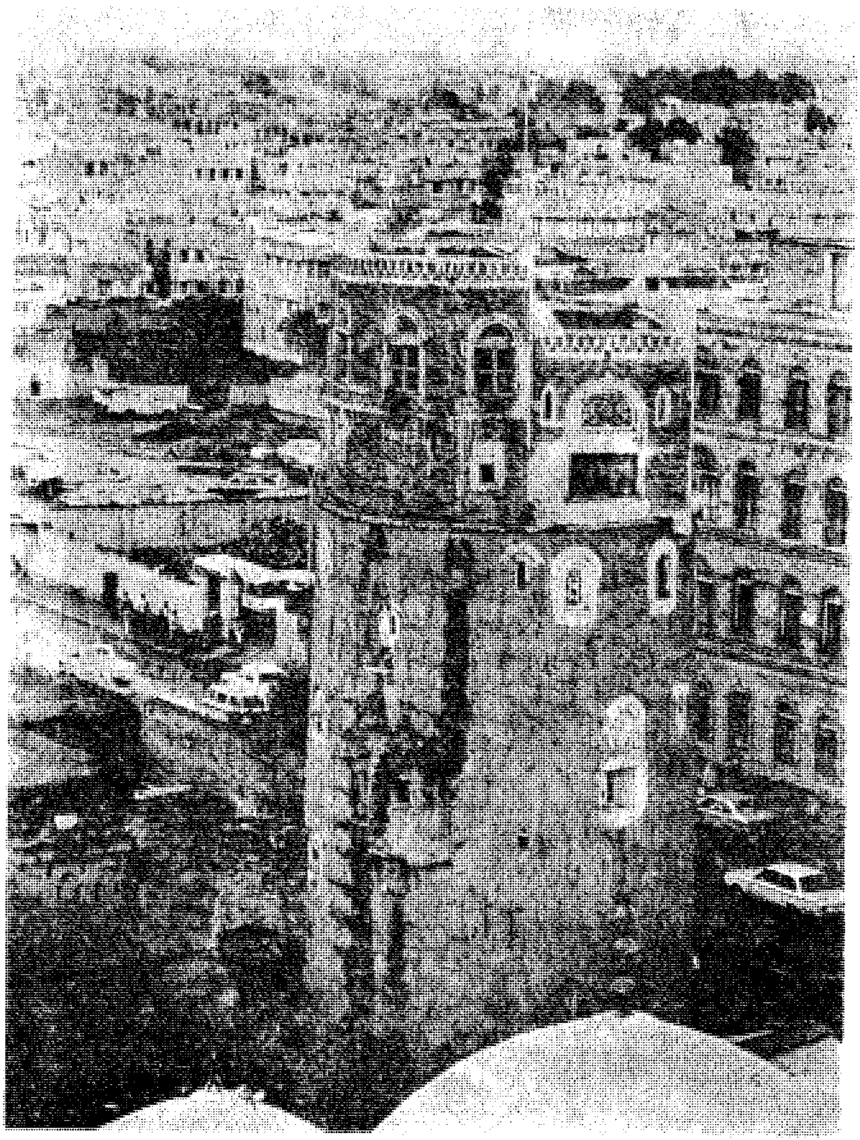
(٤١) ابن حوقل ، ٦٧ – ٦٩ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، المقدسي ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ – ٢٣٥ .

(٤٢) ابن حوقل، ١٤٦ ، المقدسي ، ١٩٥ ، ١٩٦ (و ح يب) ، ١٩٧، ٢٠٢ ٢٨٠ ، عن الحجارة البحرية في الاسكندرية انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٥ .

(٤٣) المقدسي ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ابن رسته ، ١٠٩ (صنعاء) : الآجر والجص والحجارة المهندمة .



(تصوير توماس هوبكر / الأكبر)
الزراعة التقليدية ، منازل مبنية بالطوب في فارس



تصوير ش . بستين وج. (فرارد ، بروكسيل)
صنعاء في اليمن الشمالية : احد ابراج السور
بالطين المضغوط (الأسفل) والآجر (الأعلى)
في الخلف : منزل مبني بالحجر ، وبعده منزل مبني بالطوب

يهندمها بسهولة حرفيون ورثوا تقليدا قديما (٤٤) . وبنيان العراق من الطين واللبن ، ومن الحجارة في الجبال القريبة من الحدود الفارسية (٤٥) واكثر ابنية الجزيرة بالحجارة والطين والحصى واللبن والجص ، او بحجارة الارحية السوداء او الرخام اللين ، ويبنى بها دور لها قبساب احيانا (٤٦) .

وتشاهد ابنية مماثلة تقريبا في جبال ارمينية واذربيجان ، لكن يبدو ان الحجر يترافق فيها مع الآجر والجص خاصة (٤٧) . اما المناطق المشرفة على بحر الخزر فتتنوع مواد بنائها كثيرا ، وتشمل اللبن الذي يتقنه اهلها ، والطين والجص والآجر للسقوف المحدبة لاتقاء كثرة الامطار ، والخشب والقصب . ودور حشيش (٤٨) يزدريها المقدسي .

ويجمع اقليم الجبال الحجر والجص احيانا ، خاصة في الري ، او الجص والطين . لكن يبدو ان اللبن هو الشائع . وبالجامع اليهودية ، قصبة اصبهان ، منارة طولها سبعون ذراعا كلها من لبن لم يتغير منها شيء (٤٩) . وترى ابنية مشابهة وتنوع مماثل مع الاتجاه إلى الجنوب

---

(٤٤) المقدسي ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧٤ (وح يح) ، ١٨٤ (وترجمة ٢٢٧ ، ح٧٣) ، ٤٤٠ ، عن الحوارة والسماق ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ .

(٤٥) المقدسي ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٤٦) ابن حوقل ، ٢١٥ ، ٢٢٢ – ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٣٦٨ ، المقدسي ، ١٣٨ – ١٤٢ عن باناط ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٣ – ١٨٤ .

(٤٧) ابن حوقل ، ٣٣٤ ، المقدسي ، ٣٧٥ – ٣٧٧ .

(٤٨) ابن حوقل ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، المقدسي ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ . عن خركاه ، كوخ أو خيمة من قطع خشب) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٤ ، ودوزي ، ج١ ، ٣٦٦ .

(٤٩) ابن حوقل ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ ، المقدسي ، ٣٨٨ – ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ وح يد) .

والجنوب الشرقي حتى فارس وكرمان ، لكن أبنية كرمان أزاج ذات سقوف معقودة ، لقلة الخشب المستعمل في السقوف المستوية ، على ما يقال ، أو هكذا ينبغي أن نفهم وضعها (٥٠) . هذا ما يرويه ابن حوقل ، أما المقدسي ، فيدقق كثيرا في وصفه . ويذكر بلا شك البناء باللبن ، بخاصة في كرمان ، والبناء بالطين العلك (٥١) . ويتحدث ايضا عن البناء بالآجر وخاصة بالحجارة المؤلفة — تأليفا سيئا احيانا — او غير مؤلفة ، وعن البناء بالحجارة والجص ، وطين اساسه حجر (٥٢)

وتتبع سجستان باصرار اعراف كرمان في ابنية كلها من طين ازاج معقودة ، لا لنقص الخشب بل لأن الخشب يأرض بها ولا يلبث . ولا يبنون بالحجارة الا في اماكن محدودة (٥٣) . وبناء افغانستان وخراسان باللبن ، ويستخدمون الحجارة والجص ايضا (٥٤) هنا وهناك . بقي علينا بلدان نهر جيحون وما وراء النهر لننهي البحث . ففي ترمذ في ما وراء النهر ، البناء بالطين ، الاسود او المبيض بالكلس ، ومعظم سككها واسواقها مفروشة بالطين او بالآجر (٥٥) .

---

(٥٠) ابن حوقل ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ — ٢٨٢ ، ٣١٢ .

(٥١) المقدسي ، ٤٣٦ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، عن علك (دبق) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٥٢) المقدسي ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ، ٤٦٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٥٣) ابن حوقل ، آخر ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، المقدسي ، ٣٠٦ .

(٥٤) ابن حوقل ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ — ٤٤٩ المقدسي ، ٣٠٢ (ح د.عن ازار ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٧٨) ، ٣٠٧ — ٣٠٨ ، ٣٢٢ ٢٢٢ (ح ز من ٣٢١) .

(٥٥) ابن حوقل ، ٤٧٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، المقدسي ، ٢٧٧ ، آخر ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ .

ويحسن بنا ان نضيف الخشب إلى المواد الأربع الاساسية ، لا خشب السقوف او الابواب ، بل خشب البناء ذاته . ويمكن ان يجتمع الخشب واللبن بشكل الواح ، كما في دمشق وفارس وخاصة ما وراء النهر (٥٦) . ويجتاح الخشب احيانا كل البناء ، وجميع الابنية في منطقة معينة . لذلك يجب ان يضاف إلى انحاء بحر قزوين المذكورة آنفا ، اكواخ القصب في بطائح العراق ، والسند ، التي بنيت فيها مدن كاملة بالقش والخشب ، ما عدا الملتان ، وربما وقع حريق في بناء القصب (٥٧) . وفي غزنين (غزنه) في افغانستان ، عامة بنيانهم خشب يقع فيه شيء يقال له غشك ، وهو فسيفساء يشبه فسيفس مصر(٥٨) . اخيرا يمكن تحديد نطاق انتشار استعمال الساج من الملتان إلى البنادر التي يصل اليها ، نعني صحار العمانية وسيراف الفارسية ، وهو خشب بديع يقترن في البناء بالآجر بلا شك ، لكنه يرى ، ويمد على الواجهات ببزخ وفخفخة لم يسمع بهما (٥٩) .

---

(٥٦) ابن حوقل ، ٢٨١ (خشب سرو) ٤٨٢ (خشب مشبك) : انظر م ج ع،ج٤ ٢٧٠) ، ٤٩٤ ، ٥٠٤ ، المقدسي ، آخر ١٥٦ ، ٢٧٧ ، آخر ٢٧٨ ، ٢٨٢ .

(٥٧) ابن رسته ، ١٨٥ ، المقدسي ، ٤٨٠ ، مذكور أيضاً جمع الخشب واللبن (المقدسي ، ٤٧٩) أو اللبن وحده (المقدسي ، ٤٧٨ في مكران ، المتوسط بين السند وكرمان) .

(٥٨) المقدسي ، ٣٠٤ ، عن غشك ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٩ .

(٥٩) ابن حوقل ، ٤٩ ، ٢٨١ (مع نوع من الخشب غير محدد محمول من بلاد الزنج) ، المقدسي ، ٩٢ ، ٤٢٦ ، ٤٨٠ . انظر أيضاً الجاحظ(١) ، ورقة ٣١ (البصرة لكن لم تبرز) ، نطاق الانتشار يمكن ان يمتد باتجاه الداخل : انظر المقدسي، ٧٦ (حوانيت متى قرب مكة حسنة البناء بالحجر وخشب الساج) . اشرنا الى دور سيراف فيما تقدم ، الفصل ٩ ، ص ٢٠٩ و ٢٢٢ .

البنيان ايضا : داخل الدار واثاثها

بقي ان نشير إلى بعض الخصائص المجمعة من هنا وهناك . فاولا ، اكثر البيوت تحت الارض في اردبيل في اذربيجان ، ويبدو ان هذه الظاهرة عامة (٦٠) . وكانت ديار ثمود في الحجر في جزيرة العرب ، كهوفا ، جاء في القرآن الكريم ذكر نحتها في الجبال (٦١) . وفي اقليم الجبال ، للمجوس المزدكية قرية ، بنيانهم من عظام البهائم (٦٢) . وفي منطقة سيراف ، يستخدمون اضلاع الحوت في هيكل سقوف دورهم (٦٣) . وفي صنعاء في اليمن ، اكثر سطوح منازلهم مفروشة بالحصى اتقاءا لكثرة الامطار (٦٤) . ويعجب الجاحظ ابن البصرة لرؤية تناوب الآجر الاصفر والجص الابيض ،ولمعانهما لمعان الذهب والفضة على حد قوله (٦٥) . ويعدد الجاحظ ايضا جميع مواد البناء ويذكر اللبن والطين والآجر وجذوع النخل والخشب والساج وسواه والحديد (٦٦) .

ولا يعثر الا على النزر القليل من المعطيات عن تقسيم البناء الداخلي . ولا يذكر عن ترتيبه العام سوى الارتفاع اي توالي الطوابق في سيراف والملتان وصنعاء والفسطاط . والبناء في الفسطاط ليس مجموع منازل

(٦٠) المقدسي ، ٣٧٥ .
(٦١) القرآن ٧ / ٧٢ ، الاصطخري ، ٢٤ ، ابن حوقل ، ٣٢ .
(٦٢) المسعودي (م) فقرة ٨٦٨ .
(٦٣) السيرافي ، ١٣٣ .
(٦٤) ابن رسته ، ١٠٩ ، عن منازل صنعاء ، انظر الهمداني ، ١٩٥ — ١٩٦ .
(٦٥) الجاحظ(١) ، ورقة ٢٧ .
(٦٦) الجاحظ(١) ، ورقة ٣١ .

عائلية ، بل مبنى حقيقي يأوي اليه جماعة من السكان (٦٧) . ويذكر المقدسي معلومتين هامتين : ففي بنكث ، قصبة الشاش في ما وراء النهر ، المنازل فسيحة ، اقل بيت فيه البستان والاصطبل والكرم . وفي شيراز ، الرواشن ضيقة جدا حتى ان رؤوس اهل البيت تنطحها اذا ما ارادوا القاء نظرة إلى الخارج (٦٨) .

واذا لم يسعد الحظ صاحب المنزل ، ولم يقم منزله في احد البلدان المباركة التي تصل المياه فيها إلى دورها(٦٩)، اضطر إلى الاستقاء من بئر (صهريج) (٧٠) ، او من عين عامة (٧١) ، او من بائعي الماء بنصف دانق مزبقة لكل طابق يصعدون اليه (٧٢) . والصمت مطبق او يكاد بشأن زخرفة البيوت ، ما عدا اشارة عابرة إلى تزويق صنعاء بالاحمر او الاخضر (٧٣) . وما تبقى فلا بد من تصور كل ما هو بين الزخرفة والاثاث مثل البسط التي ذكرناها من قبل ويمكن جمع اسمائها من مصنفات الجغرافيين (٧٤) ، او حصر بلعيسي في دمشق وقدس ، قرب بحيرة الحولة ، وحصر الحلفاء والحصر السامان .

---

(٦٧) ابن رسته ، ١٠٩ ، ابن حوقل ، ٢٨١ ، المقدسي ، ٤٨٠ ، عن الفسطاط ، انظر ما تقدم ، الفصل ٩ ، ص ٢٠٧ .

(٦٨) المقدسي ، ٢٧٦ ، ٤٢٩ (س ١٠ و ١٧ — ١٨) ، عن الروشن نافذة بخرجة) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٤٧ ، و دوزي ، ج١ ، ٥٣٢ .

(٦٩) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٥٠ ، وما تقدم ، الفصل ٩ ، ص ٢١٤ ، والفصل ١٠ ، ص ٢٣٢ آخرها .

(٧٠) ابن رسته ، ١١١ ، اسحاق ، ٤٣٤ .

(٧١) انظر ما تقدم ، الفصل ١٠ ، ص ٢٣٣ .

(٧٢) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ١٤٠ .

(٧٣) ابن رسته ، ١٠٩ ، اسحاق ، ٤٣٤ ، التزويق الخارجي بلا شك .

(٧٤) انظر ما تقدم ، الفصل ٨ وأماكن اخرى ، عن انتاجات مختلف الاقاليم ، م ج ع ، ج٤ ٢٠٩ (جهرمي) ، ٢٧٦ (شقة) ، ٣١٨ (فندقي) ، ٣٦١ (نخ) .

(خيزران) من بحيرة الحولة ايضا ، وحصر العباداني نسبة إلى مدينة عبادان الهامة على حدود العراق وخوزستان (٧٥) .

ولا يقال شيء عن الاثاث بالمعنى الضيق ، فيما عدا استعمال الخشب في صنع بعض الادوات والاواني (٧٦) ، او حجر الفتيلة في بلدان جيحون الأعلى ، وهو شيء « يشبه البردى» ، تنسج منه اشرطة سهلة الصيانة إلى أقصى حد : متى اتسخت ، تفرش في فرن ، فتنظفها الحرارة . ويستعمل حجر الفتيلة في الاضاءة، لا تحرقه النار ، يوضع في الدهن ، فيقد كما تقد الفتيلة ، ولا ينقص ، ويخرج ، ويطرح في النار المتأججة ، فيعود إلى ما كان عليه (٧٨) . وتوقد المصابيح بالصيفة وهي دهن السماك في جزيرة العرب (٧٩) ، أو يستعمل حجر يجعل في البيت المظلم فيضيء ادنى شيء (٨٠) في النهاية تعطى معلومتان عن الاتقاء من الحر : ففي فارس بيوت الخيش ، على السطوح ، ينثر عليها الماء على الدوام ، فتبقى ابدا مبلولة (٨١) ، وفي مصر لهم باذهنجات مثل اهل الشام ، يجتذبون بها الهواء البارد بمجرى مجهز لهذه الغاية (٨٢).

(٧٥) ابن حوقل ، ٢٤٠ ، المقدسي ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ، ٤٤٢ ، ٤٥١ (ح ب من ٤٥٠) ، م ج ع ، ج٤ ، ١٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ ، دوزي ، ج١ ، ٦٢٢ ، ج٢ ، ٩٠ - ٩١ .

(٧٦) جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٧٣ ، ح٤ ، ٤٧٥ ، ح١ .

(٧٧) المقدسي ، آخر ٣٠٣ ، عن خوان ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣١ .

(٧٨) المقدسي ، آخر ٣٠٣ .

(٧٩) المقدسي ، ١٠٠ ، (صيفه مشروحة دهن سمك) .

(٨٠) حجر فوسفوري طبعاً : المقدسي ، آخر ٣٠٣ . صححت حجم وجعلته حجر في طبعة دي خويه .

(٨١) المقدسي ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (ح ب) محسن إلى أقصى حد (ري بالأقنية). الموضوع يتعلق فعلا ببناء أميري ، لكن لاشيء يمنع التفكير باستعمال عام (ري باليد) . عن استعمالات أخرى لهذا القماش (خيش) ، انظر دوزي ، ج١ ، ٤١٧ (مروحة يدوية ، بانكا) ، جغرافية دار الاسلام ٣ ، ص ٤٣١ . س٢ : اقرأ سقوف ، لا خيطان) وح٢ .

(٨٢) باذهنج : المقدسي ، ٢٠٥ ، م ج ع ، ج٤ ، ١٨٣ ، ودوزي ، ج١ ، ٤٧

موضوع القناطر

لايستوفي فن البناء حقه في دار الاسلام بدراسة الدار وحدها: فهنالك ايضا الجوامع ،التي تحدثنا عنها مع المدن، والسدود والاقنية(٨٣)، والجسور المسماة قناطر عند الجغرافيين العرب : وتعتبر احدى هذه القناطر في الحد الادنى ، نعني قنطرة سنجة ، احدى عجايب الدنيا(٨٤) لكنها ليست الوحيدة التي استحوزت على تفكير الجغرافيين ، لاسباب لم تكن ذات صلة بفن العمارة في البدء ، بل لعلاقتها بالجدل الثقافي الشعوبي ، الذي كان يتعارض فيه العرب مع الاثنيات الاخرى ، وفي طليعتها الفرس : فالقنطرة ، كالقصر او الاعمال المائية ، سواء بنيت قبل ظهور الاسلام ام بعده ، تحمل في طياتها تاريخا متواصلا، وتعد رمزه (٨٥) : ولا شك ان جغرافيي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اهتموا قبل كل شيء بما يشاهدونه : بقي ان ندرك ان نظرتهم إلى القناطر تندرج ، غالبا جدا ، في تراث يجعل هذا البناء إلى جانب الجامع او القصر او اسوار المدينة ، عنصرا من العناصر المتميزة في مشهد خلقه الاسلام او رضي به :

ونتغاضى عن الحديث عن قنطرة سنجه الفريدة ، وعن القناطر الحجرية التي بناها الروم حسب اليعقوبي (٨٦) . ونتغافل ايضا عن

(٨٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، الفصل ٢ ، اماكن متفرقة .

(٨٤) انظر ما تقدم ، الفصل ٥ ،« القصور وآثار اخرى » .

(٨٥) انظر ما تقدم ، الفصل الأول ص ٢٢ آخرها ، الفصل الخامس، ص ١١٥، ح٧

(٨٦) اليعقوبي ، ٣٦٢ . عن قنطرة سنجة ، انظر ما تقدم الفصل ٥ ،«نحو الشمال الغربي : ذكريات مبهمة» آخرها، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ص ١١٥ .

جسور المراكب مثل جسر بست في سجستان ، او جسر عسكر مكرم في خوزستان في نحو عشرين سفينة ، (٨٧) او جسر الكوفة بسبع سفن حسب قول الجاحظ (٨٨) ، تحمل جذوع نخل مثبتة فوقها ببساطة وغير مغطاة بتراب ، حتى ان المشاة يجازفون بصعوبة بالمرور عليها ، ويحظر عبور الدواب والقطعان فوقه .

ويستحيل ، كما يتوقع المرء ، الحديث عن جميع القناطر ، التي تذكر على طول المسالك او الدروب ، او تندرج في مشهد نهري او مديني . ولا اتكلم الا عن الجسور التي استرعت انتباه الجغرافيين باحد تفاصيلها : فاليعقوبي يشير إلى قنطرة نهر الصراة العظمى ، في منطقة بغداد ، المعقودة بالجص والآجر ، المحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة(٨٩) . ويستفيض ابو دلف مسعر (٩٠) في الحديث عن قنطرة خوراذ ، في فارس : فهنا يذاب الحديد والرصاص والنحاس خاصة ، لتثبت دعائمها على الضفتين اللتين ترتكز عليهما . وقد مرت هذه القنطرة بتقلبات كثيرة ، وتعرضت للتخريب مرارا إلى ان قرر البويهيون ترميمها ، الذي استغرق عدة سنوات من الاعمال المتواصلة ، واذيب لها مزيد من الرصاص والحديد الجديدين. واشترك في التنفيذ عدد كبير من المهندسين والعمال ، وانفقت مبالغ طائلة بلغت ما لا يقل عن ثلاثماية وخمسين الف دينار: وتمثلت التقنية المطبقة بانزال المادة

(٨٧) ابن حوقل ، ٢٥٣ ، المقدسي ، آخر ٣٠٤ ، ٤١٠ (جسران) .

(٨٨) الجاحظ(١) ، ورقة ٢٨ .

(٨٩) اليعقوبي ، ٢٤٣ .

(٩٠) مسعر (ب) ، ٤٦ .

الاساسية اي الحجارة بالحبال والبكرات ، قبل تغطيتها بالمعدن المذاب . الخلاصة مشهد القنطرة مليء بالعبرة لمن يعتبر .

ويذكر ابن حوقل قنطرة حجارة عادية ، تعرف بقنطرة سيوك في فارس (٩١) ، وقنطرة ثكان ، وهي قنطرة بين فارس وخوزستان ، قليلة النظير ، ويعتبرها ابن حوقل اجل من قنطرة قرطبة التي بالاندلس (٩٢) ، ومحدثها بعض تناء فارس . ويقول ان على باب ارجان ، ممايلي خوزستان ، قنطرة على نهر طاب تنسب إلى الديلمي طبيب الحجاج بن يوسف ، وهي طاق واخد سعة ما بين عموديه على وجه الارض ثمانون خطوة وارتفاعها مقدار ما يجوز فيه راكب الجمل بيده علم من اطول ما يكون من الاعلام (٩٣) . اخيرا في المنطقة ذاتها نهر طاب عميق ، وعلية جسر من خشب معلق بين السماء والماء (٩٤) .

ويشير المقدسي (٩٥) اشارة عابرة إلى عدة قناطر عجيبة (٩٦)

---

(٩١) ابن حوقل ، ٢٧٦ .

(٩٢) ابن حوقل ، آخر ٢٧٤ .

(٩٣) ابن حوقل ، ٢٩٨ ، الموضع نفس موضع الجسر السابق ، الا ان الاسمين مختلفان ، والنص رغم عدم دقته بهذا المعنى ، يمكن ان يشير الى نهر طاب الى فرع هام عنه

(٩٤) ابن حوقل ، ٢٤٩ ، تدوين غمائي مبالغ به لأن الارتفاع عشر اذرع . يستعمل لفظ جسر لجسر السفن ، لكن يتساءل لماذا أبرز المصنف التفصيل المتعلق بالخشب انظر عن لفظ جسر ما يلي ، المقدسي ، حاشية ٩٥ .

(٩٥) يستعمل المقدسي فيما يبدو لفظي جسر وقنطرة بلا تفريق ، بينما تعني القنطرة مبدئياً الجسر المبني والجسر جسر السفن . انظر خاصة المقدسي ، ٣٧٦ (جسر لقنطرة تفليس المبنية من حجارة وخشب) ، آخر ٣٠٤ ، ٤١٠ (جسر من سفن) .

(٩٦) المقدسي ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ (و ح د) ، ٤٤٦ (و ح ا) .

لا نظير لها ، ويعطي تفاصيل عنها احيانا . فتفليس يخترقها نهر الكر ، فتصبح جانبين بينهما جسر قد بني حيطانه بالحجارة ثم طرح عليها الخشب (٩٧) . وفي خوزستان ، سوق الاربعاء جانبان ايضا بينهما قنطرة من خشب ، تجري تحتها السفن (٩٨) . والاهواز جانبان بينهما قنطرة هندوان من الآجر ، عليها مسجد يشرف على النهر حسن (٩٩) وفي فارس قنطرة ابي طالب من الجبل إلى الجبل (١٠٠) . وفي شهرستان ، قصبة سابور ، خارج البلد ، قنطرة عظيمة ، كانت وقت مرور المقدسي بها (١٠١) منقطعة : خلاصة القول ، في هذه المناطق قناطر كثيرة عجيبة محدثة وجاهلية (١٠٢) . وتعتبر فارس وخوزستان ، في رأي المقدسي وابن حوقل ، بقناطرهما . وابنية اخرى فيهما ، شواهد على استمرار تاريخي يتصف به التراث الفارسي القديم الذي قبله الاسلام .

موضوع النسيج

قيل الشيء الاساسي (١٠٣) عن النسيج ، وعن مناطق انتاجه

---

(٩٧) المقدسي ، ٣٧٦ .

(٩٨) المقدسي ، ٤١٢ .

(٩٩) المقدسي ، ٤١١ .

(١٠٠) المقدسي ، ٤٤٦ (ح ا) .

(١٠١) المقدسي ، ٤٣٣ .

(١٠٢) المقدسي ، ٤٤٠ ، آخر ٤٤٥ ، ٤٤٦ (و ح ا) . بما فيه القناطر المعاد بناؤها (انظر ما تقدم استشهاد ابي دلف مسعر لجسر هنا أيضاً في التبعية الفارسية) .

(١٠٣) انظر ما تقدم ، الفصل ٨ ، اماكن متفرقة ، الفصل ١٢ ، موضوع الثياب الفصل ١٣ ، البنيان أيضاً والتنظيم آخرها (عن حجر الفتيلة) أيضاً ج دا ، ج٣، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٤٢٨ وما يليها . عن النسيج ، انظر م . لومبار المنسوجات في عالم الاسلام ، من القرن ٧ إلى القرن ١٢ ، باريس لا هاي ، نيويورك ، ١٩٧٨ ، ر.ب . سارجنت ، « مواد لتاريخ المنسوجات المسلمة حتى الفتح المغولي » ، الفنون الاسلامية ، ٩ روماني ، ١٩٤٢ و ١٦ روماني ، ١٩٥١ .

الكبرى ، ومواده الاولية . مع ذلك ، الح ايضا ، ولو عرضا ، على الولع بالاقمشة والجنون بها : فهي مصدر حياة بلدان باجمعها ، يعمل كل اهلها بالحياكة (١٠٤) . بقي ان نقول بضع كلمات عن طريقة صيانتها او تهيئتها : فالمغسيل ، نعلم ان بالامكان استعمال طين ابيض خاص والرماد (١٠٥) : اما الصباغة ، فيستخدمون فيها الورس من اليمن لتلوين الاصفر كما قلت من قبل (١٠٦) ، والبقم لتلوين الاحمر الغامق ، والعصفر للاحمر البرتقالي . لكن تستعمل اربعة اصناف اساسية في الصبغ ، هي القرمز والزعفران والنيل والفوة :

ويدل لفظ قرمز (١٠٧) على النبات وعلى الحشرة الطفيلية ، ويعرف في الاندلس ، وفارس ، وارمينية وحتى مشارف قزوين الجنوبية الغربية . ويحصل اللون الاحمر القرمزي من اليرقة(١٠٨) التي يغزها الارمن بابرة نحاس : والزعفران (١٠٩) اصفر صاف او برتقالي ، واوفر انتشارا ، لكن يبدو مع ذلك انه يفضل المغرب الشرقي وبلدان بحر قزوين ، ووادي جيحون ، وخاصة اقليم الجبال . اما النيل (١١٠) ، فيعثر عليه في البلدان الحارة ومنخفض نهر الاردن

(١٠٤) انظر مثلا المقدسي ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٠٤ (ح١) ، ٤٢٨ .

(١٠٥) ابن رسته ، ١٧٦ ، ابن حوقل ، ٥١٥ .

(١٠٦) جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٣٤ — ٤٣٥ .

(١٠٧) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٣٤ — ٤٣٥ .

(١٠٨) وليس كما يتوقع المرء من البيوض المجففة . لكن انظر ر . دوغران و ر. فراس ، لنغدوك المنخفض ، الكوص ، السيفين ، باريس ، ١٩٧٤ ، ص ٢٨ يرقات حمراء معجونة بالخل .

(١٠٩) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٤٣٥ .

(١١٠) انظر المرجع ذاته ، آخر ٤٣٥ — ٤٣٦ .

والبحر الميت ، واليمن ، وكرمان ، ومنطقة كابل التي تأتي في الطليعة بالجودة ووفرة الانتاج ، بحاصل سنوي مقداره مليونا دينار من الموسم دون ما يكسب من بيع المخزون . ومناطق الفوة (١١١) متنوعة اكثر من سائر الاصناف . ويستخرج من جذورها لون احمر رائع . ويمكن تصديرها حتى الهند ، وهي تنمو برية و تزرع في الاندلس ، وفي واحات مصر ، وبلدان نهر جيحون ، وبخاصة في الاودية النازلة نحو بحر الخزر وجزره .

موضوع المعادن

يتكرر الحديث عن غنى دار الاسلام بشتى المعادن بانتظام في الكلام عن الاقاليم . اما تقنيات استخراجها فلا تلقى اهتماما دؤوبا مماثلا . ويذكر المقدسي (١١٢) ان بنيسابور جبالا يقطعون منها الملح كما يقطع الحجر : ويقول ابن الفقيه (١١٣) ان بجوار همذان بحيرة برستاق الفراهان « تكون اربع فراسخ طولا في عرض فرسخ اقل واكثر » (١١٤) ، طلسم عليها بليناس (ابولونيوس) التياني ، ما دام لا يحظر عليها ، فاذا حظر عليها جفت . واذا كانت ايام الخريف ، واستغنى اهل الرستاق عن الماء للزراعة ، القي جميع امواه الرستاق إلى هذه البحيرة، فلا يزال ينصب اليها الماء في الخريف

---

(١١١) انظر المرجع ذاته ، ٤٣٥ . اضف الى هذه النظرة الاجمالية ، ابن حوقل ، ١١٤ ، من أجل الأندلس : حشائش صبغ تختص بالاندلس بلا تدقيق .

(١١٢) المقدسي ، ٣٣٣ .

(١١٣) ابن الفقيه ، ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(١١٤) اي حوالي ٢٣ كم على ٧ ، ٥ .

وطول الشتاء ، حتى اذا جاء الربيع واحتيج إلى الماء ، قطع الماء عن البحيرة ، فصار ذلك الماء كله ملحا » .

لننتقل إلى نحت الحجارة . يقول المقدسي (١١٥) انه وحش بشيراز ، ينقشونها بمعاول وحشة ، تكسر البلاطة حيث لا يريدون ، لكنه رأى لهم اعمالا يعجز عن مثلها كل بنّاء في الشام واقور . ويروى (١١٦) ان في المقطم ، المشرف على الفسطاط ، مقاطع حجارة بيض حسنة تنشر كما ينشر الخشب .

ويفوق سحر المنجم سحر غيره ، لأنه يكشف اسرار باطن الارض . ويشير ابن عبد ربه (١١٧) إلى الاحتياطات الضرورية الواجب اتخاذها بداهة ضد غاز الكربون ، وذلك بوضع مصباح على طرف عصا طويلة تمد امام حاملها ، ويجب ان يبقى لهبه جميلا ، والا تحتم التراجع . اما الحجارة الكريمة ، فيتم الحصول عليها على ثلاث مراحل ، تبدأ بحفر التراب من معدنه ، ثم تستخرج من غلافها ، وينتهي العمل بغسلها (١١٨) . ويصف ابن رسته استخراج المعادن وصفا يبدو حديثا جدا ، اذا ما نقل إلى اجواء الغرب في اوربة وامريكة ويقول (١١٩) عن مناجم الفضة المهجورة في وقته التي لا يعمل فيها : « واثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة ، من آبار محفورة ،

(١١٥) المقدسي ، ٤٤٠ .
(١١٦) المقدسي ، ٢٠٩ .
(١١٧) العقد الفريد ، ج٦ ، ٢٣٢ .
(١١٨) ابن الفقيه ، ٧٨ ، الأسواني ، ٢٦٧ (يستشهد بالجاحظ) : مناجم البجة والنوبة .
(١١٩) ابن رسته ، ١٥٦ .

كان يستخرج منها الجوهر ، ومعادن ظاهرة ، ومواضع مضارب كانت مضروبة ، وآثار المواضع المسكونة ، ومن اماكن السبك ، وما كان يحتاج اليه في استخراج الفضة من الحجر ، وتخلصها منه . كل ذلك قائم بين ظاهر . وكان العمل فيها قائما حتى جاء الله ، بالاسلام » (١٢٠) .

ونرجع إلى ما قاله ابن حوقل (١٢١) عن الموميای . فلقرية من قرى ورابجرد في فارس ، غار في جبل قد وكل به من يحفظه ، وهو مسدود الباب والمدخل مغلق مقفل مختوم ، معلم بعلامات كثيرة لمن يحضر فتحه من ثقات السلطان ، ويفتح في كل سنة في وقت معروف . فاذا جمع الموميای ، يكون الموجود منه في كل سنة كالرمانة ، ثم يختم بمشهد من ثقات السلطان والحكام واصحاب البرد والمعدلين من اهل الأمانة . ويشرح المقدسي (١٢٢) كيف يعمل اهل القرى في جبال كرمان ليحصلوا على اكسيد الزنك (التوتياء) : فلكي يحفظوا المعدن بشكل ملائم ، يتخذون اصابع من الخزف كبارا ، ثم يصبونه عليها ، فيلتزق بها ، فيبقى كالمرازيب اخيرا نعود إلى ابن حوقل(١٢٣)

---

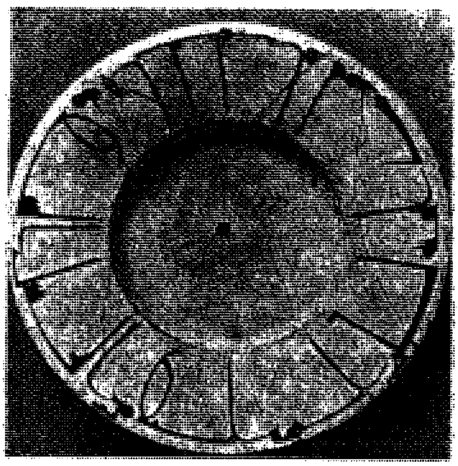
(١٢٠) « جاء الله بالاسلام » في النص ثم وكان أهلها مجوساً ، فأخذوا بالجزية ، ولم يكونوا عهدوها ، فشغلوا عن العمل بها ، فتعطلت » .

(١٢١) ابن حوقل ، ٣٠٠ ، انظر أيضاً الثعالبي ، ١١٠ ، للتأكد من جودة الصنف ، تكسر رجل ديك ، ويوضع قليل من الموميای على الكسر ، فاذا كان جيداً تقلص الكسر . (يبين ابن حوقل استعمال هذا الموميای) . عن الموميای الأبيض انظر ما تقدم الفصل ١٢ «الاستشفاء ان امكن» .

(١٢٢) المقدسي ، ٤٥٩ ، ٤٧٠ (وح ط) و م ج ع ، ج٤ ، لفظ ر ز ح

(١٢٣) ابن حوقل ، ٥٠٥ — ٥٠٦ ، المقدسي ، آخر ٢٣٩ ٢٤٠ ويرتفع من اصقيلية نوشاذر كثير أبيض ، وسمعت انه انقطع معدنه واستغنى عنه أهل مصر بدخان (انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٣) الحمامات ، هذا ما يقوله .

ونأخذ عنه ما يتعلق بالنوشاذر . ففي كل جبل من جبال البتم ، في ما وراء النهر ، كالغار ، قد بني كالبيت ، وفيه عين يرتفع منها بخار ، يشبه بالنهار بالدخان وفي الليل كالنار . وعندما يراد جمعه ، يستوثق من اغلاق ابواب البيت وكواه ، فيتلبد البخار على حيطان وسقفه معطيا النوشاذر . وداخل هذا البيت من شدة الحر ، ما لا يتهيأ لاحد ان يدخله الا احترق ، الا ان يلبس اللبود المبلولة ويدخل كالمختلس ويأخذ ما يقدر عليه . اذن هذا العمل محفوف بالاخطار وغير مضمون النتائج لأن البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيحفر عليه ، حتى يظهر ، فاذا خفي في مكان حفر عليه في آخر إلى ان يوجد .



متحف لوفر ، القسم الاسلامي ، آ ٩٦٦٣

صحن كبير منقوش عليه كتابة . سمرقند . ماوراء النهر . القرن العاشر ، خزف مزخرف أسمر ضارب إلى السواد . على خلفية بيضاء . مع دهان عديم اللون
مذاق العلم مر في أوله ، لكنه أحلى من العسل في آخره صحه
(تصوير ا . شوزفيل)



متحف اللوفر ، القسم الاسلامي ، ماو ، س ٥٦ رسم المتاحف الوطنية
ناطل عليه انصاف سعيفات . فارس . سوس . القرن التاسع . خزف مزخرف ملون
بلون أزرق كوبالت على دهان أبيض مظلم
(تصوير ا . شوزفيل)

حرف متنوعة

تبدع الحرفة جميع الطرف اذا خرجت عن الاشياء المألوفة ، بجودة مبتكراتها واصالتها : والدليل على ذلك استعانة عظماء العالم بها عندما يريدون ان يبنوا او يزينوا بفخامة ، كما في جامع دمشق او قصور سر من رأى (١٢٤) : فالزجاج يتطلب تقنية عالية ، حسب شرح المسعودي (١٢٥) ، لأن حدوث جوهره يقتضي جمع الرمل والمنغنيزيا والقلي عند الطبخ والسبك . ويذكر الجغرافيون هنا وهناك بعض المواد الاستثنائية كما ونوعا : ففي جبل ماردين ، في الجزيرة ، يعثر على جوهر الزجاج الجيد (١٢٦) ، وبجبل كوهك ، بسمرقند

---

(١٢٤) المقدسي ، ١٥٨ ، اليعقوبي ، ٢٦٤ .
(١٢٥) المسعودي (م) فقرة ٨١٦ .
(١٢٦) انظر ما تقدم ، فصل ٨ ، « الحقل والمحرف » .

طين مستعمل في الزجاج (١٢٧) ، واهل قاشان ، في اقليم الجبال حذاق في عمل القماقم (١٢٨) : ولاتُعنَى الحرف بالزجاج وحده ، بل تهتم بالخزف والحجر . فابن رسته (١٢٩) يروي قصة ماء ، ان انصدعت آنية ، والقيت فيه ثلاثة ايام ، التأم صدعها : ويذكر ابن حوقل ان اهل تونس يعملون غضارا حسن الصباغ وخزفا حسنا كالعراقي المجلوب (١٣٠) . اما في فارس وخراسان ، فينحتون الموائد والغضار والآنية المستظرفة وقدور البرام (١٣١) .

والفسيفساء اشهرها جميعا . فالمسعودي (١٣٢) يعرفها بقوله : « والفسيفساء هي شيء يطبخ من الزجاج والاحجار ذو بهجة والوان ، يدخل فيما فرش من الارض والبنيان كالفصوص ومنه على هيئة الجامات شاف » . والمقدسي ادق من المسعودي في حديثه عن الفسيفساء الشهيرة في جامع دمشق(١٣٣) : « واما الفسافسا ، فانه شيء يعمل من الزجاج على شبه سنجة الدرهمين(١٣٤) ، اصفر واغبر واسود واحمر واندق والمذهب وقد جعل على وجهه ذهب من فوقه زجاج رقيق ، ثم يعجن الشيد

(١٢٧) ابن حوقل ، ٤٩٥ .
(١٢٨) المقدسي ، ٣٩٠ .
(١٢٩) ابن رستة ، ١٥٩ .
(١٣٠) ابن حوقل ، ٧٣ .
(١٣١) ابن حوقل ، ٣٠٠ ، ٤٣٤ ، المقدسي ، ٣١٩ (عن برام ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٨ ، ودوزي ، ج١ ، ٧٧ — ٧٨) .
(١٣٢) المسعودي (م) فقرة ٦٢١ .
(١٣٣) المقدسي ، ١٥٨ (ح ه) .
(١٣٤) حرفيا الوزن الأصلي (سنجة ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٥ ودوزي ، ج١ ٦٩٠) .

بالصمغ العربي ، ويبسط على الحائط ، ثم يرصع عليه هذا الفسافسا ويؤلف صورا وكتابات . وبعض يرصع عليه كله مذهبة ، فترى الجدار كله ذهبا يقد » . بالمقابل، التفاصيل قليلة عن نحت الحجارة ، وعن عمل الحجارة الثمنية : فابن حوقل يتحدث عن الحجر المعروف بالجمشت في ديار العرب ، ويصيبه المطالبيون بالناحية غشيما ، كسائر الحجارة فاذا عمل ظهر جوهره بالنار (١٣٥) : ثم يأتي الاختبار : فالفيروز يعرف جماله اذا قاوم النار والمبرد ، وبدا لونه بين الاخضر والانعكاسات البيضاء (١٣٦) ، في حين لا تلائم العروق البيضاء الزمرد وتشوبه(١٣٧) اخيرا الصياغة بالمعنى الضيق : صقل الفضة والذهب بالشب ، ولحمها بالبورق (١٣٨) ، وتركيب الحجارة الكريمة الذي يجب ان يبرز بالنسبة إلى اليشب تألقا في اللون الاحمر والاخضر والاصفر لا لأنه طبيعي فقط ، بل لأنه يرتبط بالتقطيع والمنظر (١٣٩) .

وهناك مواد ثمنية اخرى ، كالعنبر والمرجان واللؤلؤ ، ينظر اليها من زاوية محصولها ومظهرها . واحيل إلى الجزء الثالث في كل ما يتعلق بها (١٤٠) . ولا يقال شيء او يكاد عن معالجة الحديد مما يدعونا إلى ابراز ما يقوله ابن حوقل عن الآت الحديد التي تتخذ في فرغانة

---

(١٣٥) ابن حوقل ، ٣٧ .

(١٣٦) الثعالبي ز ، ١١٦ (ومعجم الألفاظ ٢٣ روماني ، لفظ شيربامیه) .

(١٣٧) المسعودي (م) فقرة ٨٨٩ .

(١٣٨) يختلق عن بورق الخبازين : ابن حوقل ، ٣٤٦ ، مسعر (ب) ، ٣٦ .

(١٣٩) المسعودي (م) فقرة ٨٤٠ .

(١٤٠) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، ٣٨٠ ، آخر ٣٨٢ — ٣٨٣ ، ٤٨١ — ٤٨٢ .

وتجهز إلى العراق : « ذلك لأن الحديد بفرغانة لين ممكن لما يراد ، قنيته في اي صنعة قصد منه ، وتتفتق لهم الخواطر بالغرائب التي يتخذونها منه (١٤١) .

والحديث قليل ايضا عن نسج الحصر وفتل الحبال ، ويترك الجغرافيون لقرائهم تصور تقنياتها (١٤٢) ، وعن العطور والزيوت ومستحضرات الزينة ، التي تشكل تجارتها ، كما رأينا ، احد اصنافها الرئيسة . ويذكر ابن رسته اسم مخترع عطر الغالية (ابا جعفر عبد الله بن جعفر بن ابي طالب) في عداد مشاهير العالم ، لكنه لا يعطي ، تركيبها (١٤٣) : ويعدد ابن حوقل (١٤٤) المواد العطرية المجلوبة من فارس مثل ماء الورد ودهنه وماء الطلع ،وماء ألقيسوم ، وماء الزعفران وماء الخلاف ، والقرنفل او البنفسج ، لكنه لا يبين صنعها .

والمعلومات افضل عن الجلود . فالمسعودي يخبرنا ان شعر الزق يجز مدرجا (١٤٥) ، وان جلد الدرق ينبغي ان ينقع في اللبن ليكون كاملا (١٤٦) : ويتحدث الرازي عن جودة مياه بيجا في البرتغال

(١٤١) ابن حوقل آخر ٥٠٦ . عن تتفتق ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١٣ ، انظر أيضاً ما تقدم الفصل ٨ :«من فارس الجنوبية الى الهند» ، عن فارس ، منطقة اخرى كبيرة لصناعة الحديد .

(١٤٢) ابن حوقل ، ٢٧٧ ، المقدسي ، ١٦٢ ، وما تقدم الفصل ٨ ، «الحقل والمحرف»(بربير صقيلية يفتل حبالا لمراسي المراكب) وفصل١٣«البنيان أيضاً داخل الدار واثاثها (حصر) » .

(١٤٣) ابن رسته ، ١٩٨ ، عن هذا العطر انظر المرجع ذاته ، ترجمة ، ٢٣١ ، ح٢

(١٤٤) ابن حوقل ، ٢٩٨ — ٢٩٩

(١٤٥) المسعودي (م) فقرة ٣٧٧ .

(١٤٦) المسعودي (م) فقرة ٨٥٩ .

للدباغة (١٤٧) : ويشيد ابن حوقل بجلود قابس ، التي تدبغ . بالقرظ (١٤٠) ، فتأتي بطيب الرائحة ونعومة الملمس ويتحمس لجلود خوارزم وتركستان القريبة منها (١٤٩) : جلود حملان وجداء حمر قانئة الصبغ وسود حالكة وبيضاء ناصعة ، يعود جمال الوانها إلى استعمال النتاج الثالث .

الكتابة

يهتم الجغرافيون اهتماما حقيقيا بكل ما يمت بصلة إلى دعائم نشاطهم المادية . فهل ترتبط هذه الظاهرة بكونهم كتابا ؟ مهما يكن لدينا هنا حقل اوسع من ذي قبل . لكن اولا على اي شيء يكتبون ؟ اصطدم بردى مصر وبربير صقلية بنجاح خصم لهما في اوج الانتشار ، يسمى ورق سمرقند التي تَلَقَّتْ من الصين سرّ صنعه(١٥٠). وتقهقرت الرقوق هي ايضا فيما يبدو حسب الثعالبي في الحد الادنى (١٥١) ، لكنه يبالغ بلا شك او انه يستبق احداث المستقبل : فالمقدسي (١٥٢) يحدثنا عن رقوق المغرب حيث يعم استعمالها، والمسعودي عن حك الدفاتر بحجارة خفاف بيض على هيئة الشهد (١٥٣) والطرافة في الواح يكتب عليها في تبريز (١٥٤) .

---

(١٤٧) الرازي ، ٨٧ .
(١٤٨) ابن حوقل ، ٧٠ .
(١٤٩) ابن حوقل ، ١٦٢ .
(١٥٠) ابن حوقل ، آخر ١٢٢ — ١٢٣ ، ٤٦٥ ، وما تقدم فصل ٨ ، اشية ٣٢
(١٥١) الثعالبي ، ١٢٦ .
(١٥٢) المقدسي ٢٣٩ .
(١٥٣) المسعودي (م) ، فقرة ٩١٢ ، المسعودي (ت)، ٨٩ .
(١٥٤) لوح : المقدسي ، آخر ٤٤٣ و م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٠ .

ويكتب الصبيان على تلك الالواح بطين ابيض (١٥٥) . ويحدثنا الجغرافيون في اماكن اخرى عن طين اسود للختم والكتابة بلا تحديد اساس ، او عن تراب اسود فقط (١٥٦) . ولديهم في مصر معادن زاج الحبر لا ترى مثله (١٥٧) . ويعمل بفارس مداد اسود لدوى الكتاب واصباغ التزاويق (١٥٨)، فيفضل على كل مداد في الارض غير الصيني ، لأنهما جميعا من تذاكي اكبر النيران المجوسية المتقادمة ، وهو في نفسه دخانها لا غير . اما ما تبقى ، فنذكر طين الختم (١٥٩) ، وخطوط اهل الاندلس المدورة (١٦٠) والتجليد الذي يدون المقدسي وضعه في اليمن (١٦١) كمايلي : « وفي اليمن يلزقون الدروج (١٦٢)، ويبطنون الدفاتر بالنشأ . وبعث إلي امير عدن مصحفا اجلّده فسألت عن الاشراس (١٦٣) بالعطارين .فلم يعرفوه ودلوني على ، المحتسب (١٦٤) وقالوا عساه يعرفه . فلما سألته من اين انت ، قلت من فلسطين . قال انت من بلدة الرخاء لو كان لهم اشراس لأكلوه ، عليك بالنشأ ، ويعجبهم التجليد الحسن ، ويبذلون فيه الاجرة الوافرة . وربما كنت اعطى على المصحف دينارين » .

---

(١٥٥) المقدسي الاحالة ذاتها .
(١٥٦) المقدسي ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ .
(١٥٧) المقدسي ، ٢٠٩ .
(١٥٨) ابن حوقل ، ٣٠٠ .
(١٥٩) ابن حوقل ، ٢٦٠ ، المقدسي ، ٣٢٦ .
(١٦٠) المقدسي ، ٢٣٩ .
(١٦١) المقدسي ، ١٠٠ .
(١٦٢) دروج : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٣ و دوزي ، ج١ ، ٤٣١ .
(١٦٣) اشراس : انظر دوزي ، ج١ ، ٢٥ .
(١٦٤) عن هذا الشخص ، انظر ما تقدم فصل ٩ ، ص ٢٠٩ .
(١٦٥) مصحف : هنا كمل من قبل ، لعل المقصود ببساطة : كتاب ، مجلد .

الفصل الرابع عشر

شبه خاتمة
جغرافية الفوارق

هل جمعنا ما يكفي من الفوارق ؟ فقد ضممنا إلى العرب جميع الامم الاخرى كالفرس والترك والبربر والاكراد والهنود او الافارقة، وإلى آثار الماضي الأقدم ابنية التاريخ الجديد ، وإلى المسلمين ،النصارى واليهود والمجوس ، وإلى احد مذاهب الاسلام،المذاهب الاخرى بكثرتها اللامتناهية ، وإلى المدن الارياف ، وإلى بلدان الحجارة بلدان الآجر او الطين ، وإلى الخبز الارز ، وإلى مزروعات المناطق الجافة ارياف الاودية الكبرى مثل وادي النيل والجزيرة وآسيه الوسطى ، وإلى المهارات الفذة،العيوب التي لا تقل بروزا عنها . واقتصرت تلك البحوث على ذكر لوحات ضمن اللوحة العامة ، في مشهد دار الاسلام بمعناه الواسع ، في نهاية العام الف تقريبا . لكن بقي علينا ان نتحدث عن اللغات وعن الطبقات الاجتماعية .

الالسنة : المبادىء

يمكن استعراض الالسنة بطرق عديدة : فالفيلسوف يتساءل عن

اصلها وتنوعها ، او عن اختراع الابجدية . وهذا ما فعله اخوان الصفا او ابن النديم او المسعودي (١) : وهذا كلام عام ، لا يدخل مباشرة في نطاق هذه الدراسة ، ما عدا ابراز المواريث . فالتفكير في اللغة او اللغات والبحث فيها جزء متمم لثقافة الرجل الشريف ، يقترن بطرح السؤال التالي صراحة احيانا وضمنا على الدوام : بماذا تثبت اللغة العربية ما حباها الله من تفوق ورد في القرآن ؟ يأتي احد الاجوبة من ابن الفقيه (٢) ، الذي يروي جدلا بين اليمنيين الذين يفخرون بأنهم العرب العاربة وغيرهم متعربة وبين خصومهم الذين اجابوهم : « وكيف يكون ذلك لقوم ليست لهم السن فصيحة ، ولا لغة صحيحة ، ولا حجةنزل بها كتاب ، ولا جاءت بها سنة ؟ » .

تتفق نتائج هذه الفكرة مع خاطر آخر يرتبط بالادب ويتناول هذه المرة مضمون اللغة العربية ذاته . ويضم كتاب هذه اللغة الكبير مواضيع كثيرة تمثل كنوزها وتشمل الصرف والنحو والمعاجم والشواهد الشعرية والاخبار والامثال ، وما يشبه بحوث الجغرافية من اسماء الاماكن وتخريج اشتقاقها ، على نحو ما فعل ابن الفقيه (٣) : « وانما سميت الجزيرة لأنها تقطع الفرات ودجلة وبعد تقطع البر . وانما سميت الموصل ، لأنها وصلت بين الجزيرة والشام » .

وهكذا فعل آخرون بعد ابن الفقيه ، ومنهم المقدسي عندما اقترح

---

(١) المسعودي (م) ، فقرة ١١٦٤ ، ١١٨٠ ، الاخوان ، ج٣ ، ٨٤ وما يليها ابن النديم ، ٤ — ٢١ .

(٢) ابن الفقيه ، ٤٠ .

(٣) ابن الفقيه ، ٢٦ ، المرجع ذاته ، ٢٧ ، شرح اسم الحجاز .

اشتقاقات لاسماء البصرة او دمشق او الشام (٤) . الا انه يتفوق على ابن الفقيه في كثرة معطياته . فهو يقبل جوهر ما جاء به اسلافه من افكار ، ولا يتقيد بحرفية صيغها . اعني ان تقليد الاشتقاق اصبح متبعا ، فصار المقدسي يعتمد عليه ويستند اليه ليجدده . وليفتح جميع الابواب الكبرى مشرعة امام جغرافية لغوية على طريقته الخاصة : فمع المقدسي — ومع ابن حوقل على نطاق ضيق — لم تعد اللغة موضوع جدل ، بل اسلوب مشاهدة ميدانية .

وصار لزاما على الجغرافي بعد الآن ان يستبين اذا كانت اللغة عربية او فارسية او سواهما في جميع اراضي دار الاسلام ، وان يقوّم ايضا نوعيتها ، لا على اساس مبادىء نظرية ، بل اعتمادا على شيوع استعمالها الذي يحبوها اعلى مستوى من الفهم والوضوح . ويعلن المقدسي (٥) في كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم مايلي : « وسنتكلم في كل اقليم بلسانهم ، ونناظر على طريقتهم ، ونضرب من امثالهم ، لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم . فان كنا في غير الاقاليم مثل هذه الابواب ، تكلمنا بلغة الشام ، لأنها اقليمي الذي به نشأت ، وناظرت على طريقة القاضي ابي الحسين القزويني ، لأنه اول امام عليه درست : الا ترى إلى بلاغتنا في اقاليم المشرق ، لأنهم اصح الناس عربية (٦) ،

---

(٤) المقدسي ، ١١٨ ، ١٥٢ ، آخر ١٥٩ — ١٦٠ .

(٥) المقدسي ، ٣٢ .

(٦) كلام غريب ، لأن الأمر يتعلق ببلدان فارسية : وينتقل المؤلف من وجود مراكز ثقافة عربية حقيقية وحية في هذه البلدان ، الى الثناء الشامل على السلالة الساسانية. وتتفق النسختان ب و ح على هذه النقطة .

لأنهم تكلفوها تكلفا ، وتعلموها تلقُّفاً ، ثم إلى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب وقبحه في ناحية البطائح . لأنه لسان القوم .

وهذا الرهان رائع ، لكنه كله تبجّح. وسوف يتخلى عنه المقدسي او يغفله . مع ذلك يبقى اثر الاهتمام بالظاهرة اللغوية ملحوظا. فاولا يشار إلى تنوع المفردات ، الذي يدون مع توالي الوصف او يرد في مدخل المصنف عندما يتعلق ببعض الحالات مثل اشياء المنزل وتعداد المهن واصناف السفن (٧) . وتذكر ايضا العناية بتباين اللفظ ، وتبدل الصرف او النحو ، ليس بالنسبة إلى اللغة العربية فقط ، بل إلى الفارسية ايضا . ويتحدث المقدسي عن اللهجات المستعملة في البلدان الشرقية من الاسلام ، ويقول (٨) : « وجميعها تسمى الفارسية ، واختلافها بيِّن ، وانعجامها (٩) مشكل . وسنبين ذلك في موضعه ... ونقربه جهدنا ، ونذكر من كلام كل قوم حروفا يستدل بها على مواضعها من سمعها في الآفاق » . وسوف يحافظ على وعده هذه المرة في اكثر من محل مثلما سوف نرى :

وهنالك ناحية اخرى ايضا . فاللغة تسمح باجراء مقاربة انسانية ، لأن اواخر اسماء الاماكن تدل على خلق السكان . « فكل بلد آخره «ان»، له خاصية . قيل له بكثرة التجارب » . (١٠) ولا نظنّ ان هذا

---

(٧) المقدسي ، ٣١ - ٣٢ .

(٨) المقدسي ، آخر ٢٥٩ .

(٩) الانعجام مرتبط بعض الشيء بصفة اللغة غير العربية (عجمية) . وانا عودة الى هذا المقطع .

(١٠) نص وارد مع امثلة اخرى فيما تقدم ، الفصل ٦ ، ص ١٣١ .

الكلام من نوادر العلماء ، لأن المقدسي يرجع إلى هذا الموضوع (١١) في مقطع آخر ، ويقول : « فان قال قائل : ومن اين علمت ان كل بلد آخره « آن » ، له خاصية ، قيل له ، بكثرة التجارب . وله ايضا دليل من كتاب الله تعالى . الا ترى ان المخلوق « يجوز ان يسمى رحيما . فاذا دخلت الالف والنون ، صار رحمان ، وصار خاصاً لله عز وجل . والا ترى ان كل ماء حار يسمى حميما ، فلما تبعته الالف والنون ، صار لجهنم خاصا (١٢) . والقطر هو النحاس ، فلما اراد الله تعالى ان يعلمنا انه عذاب على اهل جهنم ، الحق به الالف والنون : قطران » (١٣) :

اخيرا ، تحسم اللغة احيانا نقاش رسم الخريطة . فكيف تجيز صيغة اسم احدى المدن ادخالها في احد اقليمين يتنازعان عليها ؟ يقول المقدسي (١٤) : « ومن الناس من جعل عبادان من هذه الكورة (الدورق) . وانما هي من العراق . فان قيل انما جعلناها من هذا

---

(١١) المقدسي ، ٤٦٧ ، يجب ان نفهم ان المهم في الأمثلة التالية ، انما هو القافية ان النهاية « آن» يجب أن تصحب الجذر الثلاثي الصامت ، لا اللفظ الأصلي حتماً بحد ذاته حسب شكله الأصلي .

(١٢) انظر القرآن ٥٥ / ٤٤ ، حميم ، حميما ، يرى بعض المعلقين ان هذه النهاية الأخيرة تشير إلى أحد الأودية في جهنم . عن ورود حميم في أماكن أخرى انظر القرآن : ٦/ ٦٩ -- ٧٠ ، ٤/١٠ ، ٢٢ ، ١٩/٢٠ ، ٣٧ ، ٦٧/٦٥ ، ٥٧/٣٨ ، ٤٠ ، ٧٢/٧٣ ، ٤٤ / ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ١٧ / ١٥ ، ٥٦ / ٤١ ، ٥٤ ، ٩٣ ، ٧٨ / ٢٥) .
تصحح ماء جار في طبعة دي خويه الى ماء حار .

(١٣) نحاس مرادف قطر ، ينبغي ان يؤخذ بمعنى شظايا معدن ملتهب مطروق بالمطرقة ، وصيغة التكثير قطران بمعنى القار الملتهب الذي يحيط بالهالكين : القرآن ، ١٤ ، ٥١ / ٥٠ .

(١٤) المقدسي ، آخر ٤١٢ – ٤١٣ .

الاقليم لاتفاقهم باللسان (١٥) . اما اتفاقهم في اللسان ، فليس بحجة . لأن سواد البصرة كلّهم عجم . واما موافقتها هذه المدائن في آخر اساميها فأن لها نظائر في هذا الاقليم في القافية . الا ترى انك تقول عبّادان ، مثل ما تقول باسيان ميراقيان البذان ؟ فالجواب : اما اتفاقهم في اللسان ، فليس بحجة لأن سواد البصرة كلهم عجم (١٦) ، واما موافقتها هذه المدائن في آخر اساميها ، فان لها ايضا نظائر من مدن البصرة في هذا المعنى . مثل بدران رومان وشق عثمان (١٧) . فان قيل ما قلناه اولاً ، لأن هنا ترجيحا ليس معكم ، وذاك انها توافق الاقليم ايضا في هذه العلة . الا ترى انك تقول خوزستان . فالجواب يجب ان تجرى العلة في جميع المعلومات وتعم سائر النظائر ، فنقول ان سامان وسليمانان(١٨) ايضا من خوزستان فان ارتكب ذلك ، قيل له فما تنكر على قائل يقول ان عبادان من جزيرة العرب ، لأن لها نظائر فيها : وهي عمان ، نجران ، سمران فاذا لم يجزان نجعلها من الجزيرة من اجل هذه العلة ، علمت انها لا تشبه بدليس لما قسناها على تفليس (١٩) ، لانا لم نجد باقور موضعا على هذه القافية ، ووجدنا بالرحاب عدة من مدن وقرى » .

---

(١٥) الفارسية

(١٦) مستتر : ومع ذلك تابع الى هذه المدينة العراقية العربية . اذن لا مانع مع عدم جواز ربط عبادان ، حتى لو كانت فارسية ، بتبعية البصرة .

(١٧) هذا الأسم عربي .

(١٨) سامان ، غير واردة في مكان آخر ، ينبغي ان تكون مثل سليمانان ، مدينة تابعة للبصرة : انظر المقدسي ، ١١٤ ، يتبع ابن حوقل سليمانان بخوزستان بسبب وقوعها على الضفة اليسرى من دجلة العوراء (شط العرب) عند مصبها في البحر : ابن حوقل ، ٢٣٣ (الخريطة) . ٢٥١ (الخريطة) — ٢٥٣ .

(١٩) تجرى المحاجة على الوجه التالي : هل يجب اتباع بدليس بالرحاب(ارمينية واران واذربيجان) أم باقور (الجزيرة) الجواب : القافية يس خاصة بتفليس وغيرها من مدن الرحاب عندئذ يثير ادخال بدليس في اقليم الرحاب أو اقليم اقور مشكلة(انظر المقدسي، ١٤١، ٣٧٥) لأن ضمها الى اقليم اقور يجعلها المدينة الوحيدةفيه التي تنتهي بالقافية يس .

الألسنة : خريطة

يحدد المقدسي انتشار لسانين كبيرين اساسيين في دار الاسلام . فيذكر من جهة اولى اللغة العربية في اقاليم العرب من المغرب إلى الجزيرة ، واللغة الفارسية (٢٠) على وجه العموم من ناحية الشرق في اقاليم العجم الثمانية . وتشير تسمية الاقاليم ، مثلما سوف نرى ، حسب كل حالة ، إلى استعمال اللغة الشامل او إلى استعمال اكثرية السكان لها . فالمغرب مثلا عربي في التصنيف السابق ، مع ذلك يحوي مراكز لغوية غير عربية ، كما هي حال البربر الذين يتكلمون لغة عربية منغلقة « ولهم لسان آخر يقارب الرومي » ، اصله اللغة الشعبية الخليطة التي يتحدث عنها لومبار ، « ودامت مدة طويلة اذ ان آخر شخص يحكي بها توفي في منتصف القرن التاسع عشر في مدينة راغوز (٢١) . واذا ثابرنا على الاتجاه إلى الشرق ، وجدنا ان مصر العربية تتميز عن مصر النصرانية التي تتكلم اللغة القبطية (٢٢) .

وتعد جزيرة العرب مهد اللغة العربية ، لكن هل يعني هذا الحدث ان استعمال اللغة العربية عام فيها ؟ تصحح عدة تعليقات هذا الانطباع

---

(٢٠) المقدسي ، آخر ٩ — ١٠ . انظر الفصل السادس ، «لوحة واقعية مجددة : المقدسي» . لابد من التفكير بالعبرية لغة الطوائف اليهودية (انظر في مايلي ما يقوله ابن حوقل عن فارس اضافة الى شتى الألسنة التي سوف نتحدث عنها)

(٢١) المقدسي ، ٢٤٣ . م . لومبار ، الاسلام في عظمته الاولى ، باريس ١٩٧١ ، الفصل الرابع . لعله تلميح (لكن غير صريح) الى الاندلس والى اللهجات الايبيرية في طور تكوينها (انظر لومبار ، المرجع ذاته) .

(٢٢) المقدسي ، ٢٠٣ .

عند الضرورة ، وتمثل تنوعا مقابلا لها . فابو زيد السيرافي يخبرنا مثلا ان لاهل بلاد الشحر « السنة بالعربية عادية قديمة ، لا يعرف اكثرها العرب » (٢٣) . يعلن المقدسي ان « جميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة » ، ويذكر ان بطرف الحميري قبيلة من العرب « لا يفهم كلامهم » ، ويجزم ايضا ان صحار في عمان ، عربية ، لكن نداهم وكلامهم بالفارسية ، في حين اكثر اهل عدن وجدة فرس ، الا ان لغتهم عربية (٢٤) . وينفرد الهمداني ، وهو يمني ، باعطاء اوفى التفاصيل عن السنة جزيرة العرب ، ويلح في عرضه (٢٥) على تنوع اللهجات الكبير جدا ، وعلى غلبة النجدية والحميرية (٢٦) ، ويبرز على وجه التخصيص ان انتشار اللغة العربية ، وافصحها يصل إلى اقليم الجزيرة .

ولنترك الآن جزيرة العرب . فيبدو ،والحق يقال ،ان الجغرافيين لا يثيرون جدلا حول خريطة الهمداني التي ابان فيها توزيع الالسنة خارج هذا الاقليم. ويوحي اغفالهم لها ان الامر بدهي لديهم . وينفرد المقدسي بابراز تعريب اقليم الجزيرة تعريبا شاملا في رأيه ، يجعله احسن من اقليم الشام من هذه الناحية (٢٧) ومن اقليم العراق ،

---

(٢٣) السيرافي ، ١٢٩ ، المقدسي ، ج٤ ، ٦٧ وما يلي حاشية ٢٦ .

(٢٤) المقدسي ، ٩٦ ، ٩٧ .

(٢٥) الهمداني ، ١٣٤ — ١٣٦ .

(٢٦) لسان عربي غربي قديم متأثر كثيراً بلغة جزيرة العرب الجنوبية : ج . و . فوك « العربية » ، م١ (٢) ، ج١ ، ٥٨٢(١) آخرها .

(٢٧) المقدسي ، ١٤٦ . لعل في ذلك بالنسبة الى اقليم الشام ، اشارة الى بعض الأنحاء التي تتكلم الآرامية (انظر ما يلي ما يقوله ابن حوقل عن السنة فارس ، محيلا الى معرفة باللغة السريانية) .

الجنوبي في الحد الادنى ، الذي بقيت اريافه فارسية حول البصرة ، كما ذكرنا من قبل . على نقيض ذلك ، تتنوع لوحة السن اقاليم العجم تنوعا لا نهاية له مثلما سوف نرى .

وقد ابنا سابقا ان المقدسي الحّ على اختلاف الالسن المسماة فارسية ، نسبة إلى اقليم فارس ، التي تدل على ان لهذه اللغة الاخيرة لهجات متنوعة متفرعة عنها وشائعة بين الناس . ويتأيد هذا الرأي على الارجح بما جاء من الفاظ في مطلع النص ذاته (٢٨) : « وكلام هذه الاقاليم الثمانية بالعجمية ، الا ان منها درية ، ومنها منغلقة (٢٩) ؛ وجميعها تسمى الفارسية ، واختلافها بيِّن وانعجامها مشكل » .

وفي الشمال الغربي ، تعطي ظاهرة التنوع الانطباع بان بهاانعكاس لظاهرة مماثلة غريبة بائنة في جبل القبق المجاور (٣٠) . ويقال بان اهل ارمينية واذربيجان وارّان يتكلمون لغتين ، هما الفارسية — التي تقارب الخرسانية ببعض حروفها — والعربية ، يضاف اليهما الارمنية والرانية والاذرية في الاطراف . وفي منطقة سبلان — وهو جبل اردبيل — لاهل كل قرية لسان يتخاطبون به غير لسان الفارسية والاذرية (٣١) .

---

(٢٨) المقدسي ، آخر ٢٥٩ .

(٢٩) حول هذين اللفظين انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ، وما يلي ما يقال عن الصغد .

(٣٠) انظر ابن الفقيه ، ٢٥ ، ٢٩٥ ، المقدسي ، ٣٧٥ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ . يبرز ابن حوقل ، ٣٤٧ ، بصراحة الانعكاس الذي اتحدث عنه هنا .

(٣١) ابن حوقل ، ٣٤٧ ، آخر ٣٤٨ — ٣٤٩ ، المقدسي ، آخر ٣٧٨ . بقعة تتكلم العربية بجوار دربند : المسعودي (م) ، فقرة ٤٧٦ .

ويلاحظ تنوع مماثل على ساحل بحر الخرر : فكل من بلدانه الصغيرة ، اي الجيلان، والديلم ، وطبرستان ، وجرجان ، وقومس(٣٢) ينفرد بلسانه . ويتحدث المقدسي ايضا عن تنوع الالسنة على اساس وجود اللغة العربية هنا وهناك إلى جانب اللغة الفارسية (٣٣) ، لكن يبدو ان لسان السكان الفارسية ، حتى لو كان اصلهم عربيا (٣٤) . اما لسان اهل خوزستان ، فان عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية ، غير ان لهم لسانا آخر خوزياً ، « ليس بعبراني ولا سرياني ولا فارسي » ، على حد قول ابن حوقل (٣٥) .

وفي فارس قرأ احدهم بالفهلوية على بيت نار بارين ، وحدّث ابن حوقل عن تكاليف بنائه (٣٦) . « ولهم في هذا الاقليم (٣٧) ثلاثة السنة : الفارسية التي يتكلمون بها وجميع اهل فارس يفقهونها ، وبكلم بعضهم بعضا بها ، الا الفاظا تختلف لا تستعجم على عامتهم ، ولسانهم الذي به كتب العجم وايامهم (٣٨) ومكاتبات المجرس فيما بينهم من الفهلوية التي تحتاج إلى تفسير حتى يعرفها الفرس ، ولسان العربية الذي به مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس » : (٣٩) :

---

(٣٢) ابن حوقل ، آخر ٣٧٦ ، المقدسي ، ٣٦٨ .

(٣٣) المقدسي ، ٣٩٨ ، مع امثلة عن تحريف لفظ اللغة العربية .

(٣٤) ابن حوقل ، ٣٧٠ (حالة مدينة قم) .

(٣٥) اليعقوبي ، ٣٦١ ، ابن حوقل ، ٢٥٤ ، المقدسي ، ٤١٨ .

(٣٦) ابن حوقل ، آخر ٢٧٣ .

(٣٧) ابن حوقل ، ٢٨٩ . الصيح في حدود اقليم فارس .

(٣٨) أيام ، انظر م ج ع ، ج؟ ، ٣٨٠ .

(٣٩) وايت ، ترجمة ، ٢٨٣ ، يقول: « . . . تستعمل في وثائق الدولة وادارتها وعند الشعب عامة » . لكن يبدو ان الشعب (عامة الناس) مضاف اليه الى (في الواقع مكاتبات) . ثم ان هذا التأويل يتناقض ما قيل من قبل عن استعمال الفارسية .

وباتجاه الشرق ، لسان اهل كرمان الفارسية ، وهو مفهوم يقارب الخراساني ، وربما انغلق لسان الرستاق . ولسان القفص والبلوص غير مفهوم يشابه السندي او احدى اللهجات الفارسية (٤٠). ولسان اهل مكران الفارسية والمكرانية والبلوصية (٤١). ولغة السند خلاف لغة الهند (٤٢)، ويقول ابن حوقل والمقدسي ان كلامهم سندي وعربي ، ويفقهون الفارسية (٤٣) .

اخيرا ، تُعْطَى تفصيلات هامة عن شمالي شرقي دار الاسلام . فبجانب نهر جيحون لهجات خراسان خمسة : السجستاني . والهروي ، والنيسابوري ، والمروزي ، والبلخي ، وغيرها تبع لها ومشتق منها (٤٤). وفيما وراء النهر ، لسان اهل خوارزم مفرد بلغتهم ، ولا يفهم (٤٥) ، ويتخاطب اهل بلدي سمرقند وبخارى بالصغدي مع فارقين ، وتتنوع اللهجات في الرساتيق إلى حد كبير ، ويستعملون الدّرية الفصحى والنبيلة ، التي يصفها المقدسي بالالفاظ التالية (٤٦) : « وانما يسمى ما جانسها دريا ، لأنها اللسان الذي تكتب به رسائل السلطان ، وترفع

(٤٠) ابن حوقل ، ٣١٣ ، المقدسي ، ٤٧١ وما تقدم الفصل ٣ « بعض الشعوب الاخرى » .

(٤١) ابن حوقل ، ٣٢٥ ، المقدسي ، ٤٧٨ .

(٤٢) المسعودي (م) ، فقرة ٤٢٣ .

(٤٣) ابن حوقل ، ٣٢٥ ، المقدسي ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٤٤) المقدسي ، آخر ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٤٥) ابن حوقل ، ٤٨١ ، المقدسي ، ٣٣٥ . عن هذه البلدان ، انظر ما تقدم الفصل ٣ الاتراك في دار الاسلام .

(٤٦) ابن حوقل ، ٤٩٠ ، (وترجمة ، ٤٧٠ ، ح ١٥٤٠) ، المقدسي ، ٣٣٥— ٣٣٦ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٣ .

بها اليه القصص (٤٧) . واشتقاقه من الدر وهو الباب (٤٨) ، يعني انه الكلام الذي يتكلم به على الباب » .

الالسنة : الحكم عليها

اشرت من قبل إلى نشوب جدل بلدان او مدن تدعي انها تتكلم افصح لغة عربية . ولم يتوقف الجغرافيون عن اثارة هذا النقاش ، خاصة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، والاصح انهم استمروا يدونونه هنا وهنالك بذهنية جديدة ، لا بتكرار المساجلات القديمة النظرية نوعا ما ، بل بالحكم على اساس ما يسمعونه في الواقع وزيد على بيان تحوير الالفاظ العربية التبدل الطارىء على الالفاظ الفارسية ، واحيانا على اللغة عامة ، اي على طريقة نطقها ولفظها . اذن لم يعد العرض يتناول طرح افكار ، بل تدوين وقائع حسية يمكن التحقق منها على خريطة توزيع ايضاحية .

ولا يرد الا النزر القليل عن اقليم المغرب ، الذي يؤكد المقدسي ان لغته عربية ، غير انها منغلقة ومخالفة لما هو سائر في الاقاليم الاخرى (٤٩) . واللغة في القاهرة وفي اقليم مصر عامة ، عربية الا انها ركيكة ، وكلامهم رخو مثل النساء(٥٠) . وجميع لغات العرب موجودة في جزيرة العرب . الا ان اصحها في الداخل : لغة هذيل

---

(٤٧) قصص : انظر دوزي ، ج٢ ، ٣٥٢ .

(٤٨) حرفياً الباب ، (انظر دوزي ، ج١ ، ١٢٤) .

(٤٩) المقدسي ، ٢٤٣ ونص مذكور من قبل (انظر ح ٥) . عن منغلقة ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١١ .

(٥٠) المقدسي ، ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، آخر ٢٠٥ – ٢٠٦ . انظر أيضاً الاسواني ، ٢٥٣ (عند المسلمين المستقرين جنوبي اسوان : لا أحد يتكلم اللغة العربية) .

والنجديين وبقية الحجاز ، واضعفها في الجنوب والشرق : لسان الاحقاف وحش (٥١) . اما الهمداني ، اليمني ، فيعرض التفاصيل ، بل يتوسع بها ، ويكرر تصنيف اهل الجزيرة إلى فصحاء وغتم ، ويبرز تفوق فصاحة اهل المدن على فصاحة اهل الريف، ويميز فصحاء القبائل عن رديئي اللغة والاوساط بينهما (٥٢) .

ويعتبر المقدسي لغة الشام نغة اقليمه الذي نشأ به ، بالتالي لغته الطبيعية التي يرجع اليها عفويا في كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (٥٣) . ويذكر بدقة ان الكتبة في الشام ومصر والعراق نصارى (٥٤) . ويقول عن العراق (٥٥) : « ولغاتهم مختلفة اصحها الكوفية ، لقربهم من البادية ، وبعدهم عن النبط (٥٦) . ثم هي بعد ذلك حسنة فاسدة (٥٧) بخاصة في بغداد . واما البطائح (٥٨) فنبط ، لا لسان ولا عقل » . ويكرر المقدسي وصف لغة البطائح بتعبير آخر

---

(٥١) ابن حوقل ، ٣٨ ، المقدسي ٩٧ .

(٥٢) الهمداني ، ١٣٤ — ١٣٦ .

(٥٣) نص مذكور من قبل (انظر ح٥) .

(٥٤) المقدسي ، ١٨٣ (نص مذكور من قبل ، الفصل ٤ بآخره) .

(٥٥) المقدسي ، ١٢٨ .

(٥٦) نبط : إما ان يدل هذا اللفظ على اقوام قديمة محدودة العدد جداً آنذاك ، تتكلم الآرامية (انظر ما تقدم ح٢٧) ، أو على سكان الارياف غير البدو ، وبالتالي ممن يتكلمون عربية رديئة : وهذا هو الوضع هنا بالاشارة الى بطائح العراق : انظر ا . هونغمان ، م١ ، ج٣ ، ٨٥٧ .

(٥٧) حسنة فاسدة انظر م ج ع،ج٤ ، آخر ٢١٤ ،لعلها يجب ان تقرأ خشنة فاسدة .

(٥٨) انظر ما تقدم حاشية ٥٦ .

ويقول ان الكلام قبيح في ناحية البطائح لأنه لسان القوم (٥٩) . ويذكر المقدسي مبدأ معادلة اللفظ والتعبير الذهني ، والنظرية القائلة بان افصح لسان عربي موجود في البادية ، التي تحمي الاعراف اللغوية من احتمالات الافساد . وتتراءى الاحالة إلى البادية في تقويم لغة الجزيرة ، فيقول « ولغتهم لغة حسنة ، اصح من لغة الشام ، لأنهم عرب ، احسنها الموصلية » (٦٠) .

وتُولّي اقاليم العجم اهتماما متكررا مثل خريطة توزيع الالسنة. وليس لسان جبال ارمينية واذربيجان بحسن ، وفيه تكلف (٦١) . ولسان الاصفهانيين وحش ، وفيه مد (٦٢) . وللسان بالدان بحر الخزر حلاوه او هو مخالف ومنغلق وفيه عجلة ، حسب المناطق . ولا يرى في السنة الاعاجم اقرب مأخذاً من لسان اهل الري (٦٣) . وليس في اقاليم العجم افصح من لسان خوزستان ، لكنه يوصف بالشيطاني (٦٤). وقد قال رسول الله ابغض الكلام إلى الله الفارسية ، وكلام الشياطين الخوزية ، وكلام اهل النار البخارية ، وكلام اهل الجنة العربية (٦٥) . ويلاحظ تكرار نعت لسان اقليم فارس بالوحش (٦٦) ويظهر التناقض

---

(٥٩) المقدسي ، ٣٢ (مذكور فيما تقدم : انظر ح ٥) ، آخر ٣٤ ، ١١٩ . حول معنى عفط ، حرفيا ضرط ، انظر لسان العرب : عندما يتكلمون ، تكون عربيتهم فاسدة وغير مفهومة .

(٦٠) المقدسي ، ١٤٦ ، مشار اليه من قبل (انظر حاشية ٢٧) .

(٦١) المقدسي ، ٣٧٤ ، آخر ٣٧٨ : لكن قارن بما ورد عند ابن حوقل ز آخر ٣٤٨ : عربية فصحى عند الأثرياء والتجار واصحاب الأطيان .

(٦٢) المقدسي ، ٣٨٩ (ح ب) ، ٣٩٨ .

(٦٣) المقدسي ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ (بشأن منغلق ، انظر ما تقدم،ح ٤٩) ، ٣٩٨ .

(٦٤) المقدسي ، ٤٠٤ (ح ١) ، ٤١٨ .

(٦٥) المقدسي ، ٤١٨ .

(٦٦) المقدسي ، ٤٢١ ، ٤٢٩ .

في وصف اللسان في اقليم كرمان (٦٧) والسند : فالفارسية فيهما مفهومة ، الا ان كلامهم يشاكل اصوات الطيور (٦٨) .

اخيرا تتنوع الالسن ، — مثلما يتوقع لأن الاقليم شاسع — في اقليم يسميه المقدسي المشرق اي سجستان وافغانستان وخراسان وما وراء النهر . وقد قال قبله ابن فضلان عن لسان خوارزم انه يشبه اصوات الزرازير او الضفادع (٦٩) . وقد قال ابن حوقل عن ابي منصور البغوي صاحب بريد نيسابور ،انه ألكنهم بالعربية « وافصحهم بالفارسية » (٧٠) . اما هو ، فيخص السنة المشرق بصفحتين طويلتين ، ويضيف اليها معلومات اخرى يذكرها في وصف المناطق او المدن(٧١)

ويبدأ باعطاء فكرة عامة ، فيقول ان اللسان السجستاني يصلح للقتال ، والنيسابوري للتقاضي ، والمروزي للوزارة ، والبلخي للرسالة ، والهروي للكنيف . فيما عدا ذلك ، يعد ابسط الامور تصنيف الالسن في ثلاث فئات ، تأتي في طليعتها الالسنة الحسنة : وهي لسان الشاش ، ولسان نيسابور وان كان فيه رخاوة وبلجاج . وتقابلها الالسنة الرديئة : وهي السنة قوهستان وباميان وخوارزم وبخارى التي تحدثنا عنها من قبل ، ولسان هراة الوحش الذي يفقمون به ويتكلمون ويتحاملون ،

(٦٧) المقدسي ، ٤٥٩ ، ٤٧١ (انغلق حول منغاق ، انظر ما تقدم ح ٤٩ و ٦٣) .

(٦٨) المقدسي ، آخر ٤٨٠ ، ٤٨٢ (و ح ٨)

(٦٩) ابن فضلان ، **٨٢** (و ح ٢)

(٧٠) ابن حوقل ، ٤٤١ .

(٧١) المقدسي ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، وأيضاً ٣٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ (ح ٨) ، ٤١٨ .

ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكوه (٧٢) ، وكلام سجستان الذي فيه تحامل وخصومة ، يخرجونه من صدورهم ، ويجهرون فيه (٧٣) وتضم الفئة الثالثة لساني طوس ونسا ، ولسان بست ، وهو الاحسن في سجستان ، ولسان بلخ ، وهو احسن الالسن الا ان لاهلها فيه كلمات تستقبح ، ولسان مرو الذي لابأس به وان كان فيه تحامل وطول ومد في اواخر الكلم (٧٤) .

الالسنة : بعض التنوعات

لا ريب ان هذه المعطيات النثرية ، الذاتية احيانا ، تدفع عالم الالسن إلى الابتسام . مع ذلك لم يكن الاهتمام بحماس بنظرية اللغة ، او باللغة الوحيدة التي تستحق التنظير ، اي اللغة العربية ، او بالالسنة المستعملة الاخرى ، عاملا سيئا جدا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . فاللغة العربية طرحت البحث اللغوي الصحيح ، كما نفهمه ، والهمته الفارسية شيئا فشيئا : وهذا الوضع يؤيد المقدسي بلا تحفظ ، وبعض الجغرافيين الآخرين .

ونجد نبذا تتعلق بمغرب دار الاسلام ، اوحت بها كلها جزيرة العرب ، ما عدا تدوينا واحدا خاصا بالاندلس : فهنا ، على حد قول المقدسي ، منية (حرفيا ما يحلم به الانسان) تعني بستانا خارج

---

(٧٢) عن تحامل وفقم ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٩ و ٣١٧ . ملوث بالكوه : حرفيا تشوشه الغباوة (مثل شخص تفوح من نفسه رائحة الخمر) .

(٧٣) عن التحامل ، انظر الحاشية السابقة . عن لفظ خصومة ، انظر م ج ع ، ج ٤ ٢٢٦ . تتفق هذه الاشارة مع ما قيل من قبل عن لسان« القتال» .

(٧٤) تحامل هنا أيضاً .

المدينة ، تستريح فيه احدى الشخصيات البارزة : او البغية (٧٥) . لننتقل اذن إلى جزيرة العرب . فالمسعودي يقول ان اهل الشحر وغيرهم من العرب يجعلون الشين بدلا من الكاف في ضمير المخاطب المفرد ، ويعطي مثالين على ذلك (٧٦) . ويقول ابن الفقيه (٧٧) ان اسم العين بلغة اليمن الجحمة ، والسن الميذر ، والاذن الصنارة ، والاصابع الشناتر ، واللحية الزب ، والذئب الكتع ، وهي اسماء مستعارة (٧٨) . ويبرز الهمداني (٧٩) بعض الخصائص هنا وهناك : كنزوعهم إلى امالة الالف في آخر الكلم ، وابدالهم اللام بالميم في الرجل ، وحذفهم الاحرف في مثل قولهم يابن معم في يا ابن العم وسمع عوضا عن اسمع في صيغة الامر ، واستعمالهم المثنى المرفوع في مثل قولهم قيد بعيراك ورأيت اخواك (٨٠) . ويذكر المقدسي (٨١) . ان اهل عدن يجعلون الجيم كافا (٨٢) فيقولون رجب ركب ولرجل

---

(٧٥) المقدسي ، ٢٣٥ (و ح ز) و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٧ . نستغرب ملاحظة دوزي ج ٢ ، ٦٢٠ — « المقدسي لا يعرف هذا المعنى » لا سيما انه يحيل الى م ج ع المشار اليها .

(٧٦) المسعودي (م) فقرة ٣٦٤ .

(٧٧) في الحقيقة ، في نطاق الجدل الأزلي حول « افصح اللغة العربية » : ابن الفقيه ، ٤٠ — ٤١ . انظر أيضاً الهمداني ، ٨٦ ، ١١٨ واماكن اخرى .

(٧٨) نار «مضطرمة للعين» (ميذر عوضاً ميذار) للسن ، «شص» (انظر دوزي ، ج ١ ، ٨٤٦) للاذن ، الذكر للحية ، «ماهر» أو «خسيس» للذئب . ترد بعض هذه الألفاظ في المعاجم بالمعنى المشتق المستعمل هنا . لا تبدو لفظة شناتر استعارة .

(٧٩) الهمداني ، ١٣٤ — ١٣٥ .

(٨٠) مثلا : قيد بعيراك ، رأيت اخواك .

(٨١) المقدسي ، ٩٦ .

(٨٢) يتردد المخطوطان (انظر الاحالة في ح يو) في اداء الجيم القوية بين الكاف والقاف .

ركل ، ويقولون لرجليه رجلينه وليديه يدينه (٨٣) ، فلا يحذفون من المثنى النون الواقعة قبل الضمير المتصل .

وفي نطاق استعمال الفارسية (٨٤) ، تبرز اولا فروق اللفظ في استبدال الحروف الصامتة : فاهل بلدان بحر الخزر يستعملون الهاء والخاء ، وبقزوين القاف ، واهل الري الراء ، والسغد الكاف ، وفيه «برد» في تقدير المقدسي (٨٥) . ويذكر ايضا استعمال بعض التعابير : فاكثرهم يقول للجيد لوك في الديلم (٨٦) ونج في اقليم الجبال (٨٧) . وفي خوزستان ، يسمون الكباد خيمال (٨٨) ، واذا ارادوا اسمع ، قالوا ببخش (٨٩) .

ويشار في المتن إلى قواعد الصرف او النحو او اساليب الكتابة . ففي اقليم الجبال ، في ساوه ، يضيفون في آخر اسماء العلم ان ، ويقولون ابو العباسان ، حسنان ، جعفران (٩٠) . ويضيف اهل همذان في آخرها

---

(٨٣) موضوع كقاعدة : وقس عليه « لكل مثال مشابه » على حد قول المقدسي بعد هذين المثالين .

(٨٤) المعطيات اللاحقة مأخوذة من المقدسي ، ٣٣٤ – ٣٣٦ (و ح ا) ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٨ ، ٤١٨ .

(٨٥) المقدسي ، آخر ٣٣٥ (و ح س) : «الحرف بين كاف وقاف» .

(٨٦) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٠ .

(٨٧) منقول نج : المقدسي ، ٣٩٨ (وح يح) .

(٨٨) كباد ، لكن ربما كباد أيضاً بتشديد الباء (اترجة ، برتقال مر : انظر دوزي ، ج٢ ، ٤٣٧) : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٢ .

(٨٩) معنى اسمع هنا «اعط» أو «سامح» ، استنادا الى معاني فعل بخشيدن الوارد هنا بصيغة الأمر . ذكرت أمثلة اخرى عن المفردات في خراسان عند الخوارزمي (م) ، ١١٤ وما يليها . نشير أيضاً الى الأسماء العادية الواردة في لائحة المترادفات عند المقدسي ، آخر ٣٠ وما يليها .

(٩٠) المقدسي ، ٣٩٨ (ح يح) ، يقترح نهاية ايان .

لا ، ويقولون احمدلا ، ومحمدلا وعيشلا . وبغيرها اهل الري ويضيفون كا في آخرها ، ويقولون علكا (علي) وحسكا (حسن) وحمكا (احمد) . وفي لسان البخاريين تكرار : فعوضا عن درهم ورجل : درمي ، مردى او يك درم ويك مرد او يك درمي ويك مردي ، يقولون يكي درمي ويكي مردى باضافة ياء إلى يك (٩١) . ويكثر البخاريون قول دانستي في لغتهم الدرية (٩٢) في خلال كلامهم (٩٣) بلا فائدة . وفي نيسابور يكسرون اوائل الكلم ، ويزيدون الياء في فعل الامر مثل بيكو (عوضا عن بوجو : قل) ، وبيشو عوضا عن بشو (ليكن او غسل) ، ويزيدون السين بلا فائدة مثل بخردستي (اكلت) وبكفاستي (ضربت) وبخفتستي (نمت) (٩٤) . ويقولون بفرغانة بازامدم وبازشذم ، مستبدلين نهاية الفعل بميم او بلفظها على هذا النحو (٩٥) . ويقول اهل نيسابور براي ابن ، ويقولون بترون ابن ، يعني من اجل هذا (٩٦) . ويستعملون صيغتي فاتم ، فاتو :

---

(٩١) انظر لازار ، صرف ونحو ، فقرة ٤٧ و ٧٧ .

(٩٢) درية : انظر ما ورد من قبل عن الخريطة في الأخير .

(٩٣) يمكن قراءة المقدسي ، ٣٣٥ ، س ١١) دانستي ، اسم مفعول « معروف » ، او دنستني (واجب معرفته) : انظر لازار ، صرف ونحو ، فقرة ١٦٣ – ١٦٤ .

(٩٤) على الأقل كما افهم ، نظرا لعدم شرح المؤلف .

(٩٥) المقدسي ، ٣٣٦ (ح ا) : باز – آمدم (عوضاً عن باز - امدن : بقي في الخلف) ، باز – شدم (ورد باز – شذم عوضاً عن باز شدن : رجع) .

(٩٦) المقدسي ، ٣٣٤ (حرفيا : « يقولون بمناسبة حكم ، إن (برأي إن) ، هكذا : تفكرون اذن ، فكروا اذن (بترون إن ، معناه من أجل هذا ، باضافة إن . تاملوا قليلا بالحدث تجدوا انه كثير الوقوع. ترون تبدو صيغة عربية ثابتة اضيف في اولها ب لكن برأي إن يمكن قراءتها برأي – إن : بسبب هذا . اعترف بشكي في تفاصيل التأويل .

قات ، قالوا ، في همذان (٩٧) . اخيرا ، كثيرا ما يمزج اهل خوزستان فارسيتهم بالعربية ، وتسمع عندهم تعابير مثل اين كتاب وصلاكن (اعد قراءة ؟ هذا الكتاب) واين كار قطعاكن (اوقف هذا العمل)(٩٨) .

وتغلب احيانا عادة استعمال بعض صيغ اسماء الرجال إلى جانب ما ذكرناه سابقا من تسميات اتبعت فيها قواعد صرفية معينة . ففي جرجان يكثر استعمال « ابو صادق وابو الربيع وابو نعيم » ، وفي طبرستان « ابو حامد »،وفي نيسابور ومرو وسرخس « ابو العباس » ، وفي قم « ابو جعفر » ، وفي اصفهان « ابو مسلم »،وفي قزوين ، « ابو الحسين »(٩٩) . وتعد هذه التسميات من مخلفات ماض ما يزال حيا في الاذهان ، اذ ان هذه الاسماء تذكر بالحركة العباسية التي انطلقت من بلدان فارس بقيادة ابي مسلم ، او بعض الرجال العظام او الشهداء من الشيعة من امثال الحسين بن علي والامام جعفر الصادق والمحدث ابي نعيم ، المتعاطفين صراحة مع انصار علي (١٠٠).

اما اسماء الاماكن ، فتعاد إلى اصل اشتقاقها . فاصل بخارى كوه خوران ، اي الجبل المفترس (١٠١) ، ويذكر اسم خوارزم

---

(٩٧) انظر ديميزون ، معجم ، ج٤ ، ١٦٩ . آخر الكلمة الاول فارسي ، والثاني عربي .

(٩٨) تعابير مبنية على صيغة الأمر كن ، من فعل كردن « عمل » . بشأن وصلا بمعنى خاط معا ، ربط انظر دوزي ، ج٢ ، ٨١٠ — ٨١١ .

(٩٩) المقدسي ، ٢٦٨ ، (ح س ، ٣٩٨ .

(١٠٠) انظر ف . روزنتال ، م١ (٢) ، ج١ ، ١٤٧ .

(١٠١) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٣ ، آخر ١٦٥ — ١٦٦ .

بالغذاء والحطب(١٠٢). واردستان، في هضبة فارس، ارد تدل على بياض الدقيق ومنه اشتق اسمها(١٠٣). والاهواز، لما بناها سابور جانبين، سمى احدهما باسم الله والآخر باسمه، ثم جمعهما باسم واحد، فاسمها هرمزداراوشير، ثم طرح اسمه، ويقي داراوشير، ثم سمتها العرب الاهواز (١٠٩). وجور المشؤومة تذكر باللحد، وكان اسمها بالفارسية كور يوافق اسم القبر، فكان اذا خرج اليها عضد الدولة، قيل ملك بكور رفت، يعني قد ذهب الملك إلى القبر، فقلب اسمها إلى احسن ما يكون وسماها (فيروزاباذ)، يعني في اتم دولة (١٠٥). اما طبرستان (١٠٦)، فيقال انه اجتمع خلق كثير في حبوس كسرى، فوضعهم في جبال لا ساكن فيها، ولما كان بعد حول، وجه اليهم رسولا يقف على خبرهم، فسألهم ماذا تريدون، فقالوا طبرها طبرها اي نريد فؤوسا نقطع بها الشجر، ثم اعاد الرسول من قابل، فسألهم عن حالهم، فقالوا زنان زنان اي نريد نساء، فسمي مكانهم طبرزنان اي الفؤوس والنساء، وحور الناس هذه الكلمة، وقالوا طبرستان.

نظرة إلى بعض عناصر المجتمع

هل يجب الحديث عن طبقات المجتمع ؟ كلا بلا ريب على الاطلاق، بمعنى الطبقة الحالي في عرفنا. ويمكن الكلام مثلا عن

---

(١٠٢) انظر ما تقدم، الفصل ٣، «الأتراك في دار الاسلام».
(١٠٣) المقدسي ٣٩٠.
(١٠٤) المقدسي، ٤٠٦. الملك هو سابور، المسمى هنا عمليا باسم يجمع دارا (ملك كبير) وشير (اسد).
(١٠٥) المقدسي، ٤٣٢.
(١٠٦) ابن الفقيه ٣٠١ — ٣٠٢.

« البرجوازيات الحاكمة » في اصفهان ، مثلما فعل وايت . ويستعمل لها ابن حوقل لفظ « ارباب » ولا شيء سواه (١٠٧) . لذلك يفضل ، حسب منطوق النصوص ، الحديث لا عن طبقات تتمتع بقدرة ، اقتصادية او رأس مال او طاقة عمل ، بل عن فئات اجتماعية تتحدد بشتى وظائفها . ولا تخطر هذه القضايا الا قليلا ببال الجغرافيين ، ولا تنصبّ الشذرات النادرة الواردة عنها في متونهم ، لا على جغرافية اجتماعية ، ولا على وعي ظاهرة الطبقات والتوترات الناشئة عنها . واذا وجدت خصومات نسبت إلى وضع سياسي او ديني (١٠٨) .

وعلى وجه الاجمال ، وفي الحد الادنى ، يبدو المجتمع مقسوما إلى حاكم بيده ، السلطة ، وإلى لفيف من المحكومين . ولعل هذا التقسيم وحيد . ولا يتحدث الجغرافيون عن المحكومين او يكادون . ولا يشيرون اليهم الا في تدوينات قليلة تتناول مساكنهم او حوانيتهم او ملابسهم ، او ، في الغالب ، في سياق الكلام عن حصيلة عملهم الظاهرة او المستخدمة او المتفاوض عليها ، في الحقل او في المنزل او في المحرف . اما الرقيق فلا يرى تقريبا . ولا شك ان الفلاحين ، والحرفيين الصغار من اصحاب الدكاكين مفيدون في تأمين الغذاء والمأوى والاثاث واللباس . لكن من اهتم بوصفهم فعلا ؟ فذكرهم يأتي عرضا ، ويقال عنهم ، مثلما جاء عند المقدسي ، ان بفارس منازه كثيرة ، الا ان الطيلسان النبيل يرتديه الحائك والحجام والرستاقي ، او ان بم في كرمان قصبة جليلة طيبة اولا ان عامتها حاكة (١٠٩) .

---

(١٠٧) ابن حوقل ، ٣٦٧ ، ترجمة ٣٥٩ .
(١٠٨) انظر مثلا ابن حوقل ، آخر ١٥٧ — ١٥٨ ، ٢٩٥ — ٢٩٦ .
(١٠٩) المقدسي ، ٤٤١ (ح ا) ، ٤٦٥ .

فالمديح خاص بالعظماء ، كذلك الاهتمام والوصف ، كالمثقفين الذين يفتخر بهم المقدسي وبالانتماء اليهم بشيء من المغالاة ، ويقول ، وخزانة الكتب في شيراز لا يدخلها الا وجيه . وطفت في هذه الدار كلها سفلها وعلوها (١١٠) . ولا يدخل في عداد هؤلاء المفكرين الكبار ، المعلمون ، وهم من ارثّ الناس واغشّهم واشدهم ضررا ، كما يؤكد ابن حوقل بحنق في حديثه عن صقلية (١١١) . ويخص بالاكرام العلماء المشهورين ، النافذة كلمتهم ، الذين تتناسب سلطتهم الاجتماعية والاخلاقية مع علمهم . ويبرز المقدسي هذا الفارق ويقول : « وكما يرفع بالمشرق العلماء ، ها هنا ترفع الكتبة » (١١٢) .

فماذا يقول الجغرافيون عن صاحب السلطة الحقيقية على رأس الدولة ؟ لا ريب انه لا ينجو من طعنهم اذا لم يجدوه كاملا ، او اعتبروه ظالما جدا . وقد تكلمنا عن تجريح ابن حوقل للحمدانيين(١١٣) الا ان هذه الحالات الاستثنائية لا تحول دون الثناء على الملوك والامراء والموظفين الكبار كلما اتيحت الفرصة . والدليل على ذلك بيوتات يتوارثون فيما بينهم اعمال الدواوين في فارس (١١٤) ، واشراف العجم في خراسان او اصبهان (١١٥) ، وارباب الضياع في اذربيجان (١١٦) .

---

(١١٠) المقدسي ، ٤٤٩ (انظر ما تقدم الفصل ١٠ ، ص ٢٤٩ آخرها - ٢٥٠
(١١١) ابن حوقل ، ١٢٦ وما يليها .
(١١٢) المقدسي ، ٤٤٠ .
(١١٣) انظر ما تقدم ، الفصل ١ ، آخره .
(١١٤) ابن حوقل ، آخر ٢٩٢ وما يليها .
(١١٥) اليعقوبي ، ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن رسته ، ١٥٣ .
(١١٦) ابن حوقل ، ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ولا ننسى التجارة ، نعني تجارة الجملة ، التي تلح الاعراف على ضرورتها وتثني على فضائلها . فبها تكثر الحاجات ، وتشحذ الهمم . ونشير إلى مياسير تجار سيراف ومنازلهم الفخمة (١١٧) ، وإلى التجار الذين يركبون احمرة مصرية وبغالا في المغرب وفلسطين (١١٨) . في الختام، نذكر الثناء وبلا تخصيص على صغار اشراف العجم من زعماء الرساتيق ، الذين يمتلكون اراضي موروثة — تقتصر اصلا احيانا على بضع قطع من الارض ويمارسون السلطة المحلية قبل استيفاء الضرائب. وقد كانت جميع هذه الاوضاع سائدة في عهد الساسانيين ، وابقتها دار الاسلام (١١٩) . ويسمي الجغرافيون (١٢٠) الواحد منهم دهقانا وتانئاً (١٢١) ، ويصفونه وهو مقيم في ارضه في العراق الشرقي وفارس وما وراء النهر واذربيجان ، ومرتبط بها ، يديرها من منزله فيها او من حصن في المدينة الصغيرة المجاورة ، ويحرص على امتيازات ،

(١١٧) انظر ما تقدم الفصل ٩ ، ص ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، والفصل ١٣ ، ص ٣١٩ .

(١١٨) المقدسي ، ١٨٣ ، ٢٣٩ .

(١١٩) حول التعريف بهذه الشخصية ومنصبها ، انظر ا . ك . س . لمبتون ، دهقان، م١ (٢) ، ج٢ ، ٢٦١ .

(١٢٠) اليعقوبي ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ - ٢٨٠ (اشراف العجم) ، ٢٩٣ ، ٣٢١ - ٣٢٢ ، ابن الفقيه ، ١٩١ ، ٢٤٤ ، ٣١٦ ، المسعودي (م) ، فقرة ٦٦٢ ، ابن حوقل ، آخر ٢٨٩، ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، آخر ٤٩٩ — ٥٠٠ المقدسي ، آخر ٢٨٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٣٦ (ح يد) ، ٤٣٠ ، ابن حوقل ، ١٩٦ يستعمل أيضاً تأنيء للدلالة على ارباب الضياع في الامبراطورية البيزنطية .

(١٢١) حول هذه الكلمة (وتناية) انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٨ .

ويدخل في نزاع مع جيرانه (١٢٢) ، فيكاد يكون اقطاعياً على حد تعبيرنا (١٢٣) .

* * *

كيف نختتم دراستنا ؟ لابد ان نبني نقاشنا على اساس وحدتها واوجه تباينها ، على غرار ما فعل آخرون قبلنا . ففي الجزء الاول منها ، حاولنا ان نبين تعدد المراجع التي استقت منها الجغرافية العربية الناشئة ، وتنوع فروعها بعدما وصلت إلى طور النضج . لكننا ابنا في الوقت ذاته تماسكها الكبير في صميم الادب الذي اندرجت فيه جميع اعمالها على مدى زمن طويل شمل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عندما عبر الجغرافيون الاقليميون ، الاختصاصيون في وصف مملكة الاسلام عن رغبة مزدوجة تمثلت في تصنيف مؤلفات طريقة لم تعرف من قبل ، وفي استعمال جميع الوسائل ، بما فيها اساليب الكتابة ، لكي تتمتع هذه المؤلفات بالنفوذ في ذلك الادب وتحظى باقراره .

واستعرض الجزء الثاني الشعوب الغريبة عن دار الاسلام . وظهر التنوع هذه المرة في الخارج ، حسب تسليط الانوار على عوالم مختلفة : كالصين والهند وآسية التركية وافريقية السوداء وبيزنطة واوربة الطفلة . وقد بدت وحدة دار الاسلام قوية حيال هذه العوالم . ولم

(١٢٢) يستخلص من المقدسي ، ٣٣٦ (ح يو) : وجود عصبية بين الدهاقين .

(١٢٣) يستعمل لمبتون (ما تقدم ح ١١٩) هذا اللفظ . مع ذلك يجدر بنا ان نلاحظ ان الاقطاع في دار الاسلام لم يكن له الاتساع والتجانس والوضع المعروف في الغرب ، مع انابة معممة في الاقطاعة وسلطات اقطاعية كاملة في التشريع والعدالة والمالية والجيش .

يؤد عرض الحضارات الاخرى التي اثني على مزاياها — او حسدت عليها احيانا — إلى الغض من فضل دار الاسلام الكبير او انقاصه ، نعني دينها الذي يصونها من جميع الانحرافات الملحوظة عند عبور الحدود ، مما دفع إلى القول بوجود شرخ تام وانتقال إلى عالم مختلف : فدار الاسلام ، بمعناها الصريح ، لا ارباض لها .

ويبحث الجزء الثالث في الوسط الطبيعي في دار الاسلام . وتبدو قضية الوحدة والتنوع فيه خارجة عن موضوعه . مع ذلك ... لم يحل النمو والازدهار ، في البساتين مثلا ، دون تعارف البشر الحتمي واجتماعهم حول بعض الشعارات ، بل حول رمزين هما الجمل والنخل اللذين اعتبر الاول حيوان العرب والثاني شجرة العرب . ونذكر عرضا ان استعادة الاندلس من العرب ترافقت مع القضاء عليهما في اقصى مغرب دار الاسلام . فهل تم ذلك بدافع الثأر الحانق ؟ (١٢٩) .

اما الجزء الرابع ، فقد بدأنا فصله الاخير بكلمة ذكرنا فيها العديد من وجوه الرجال والنساء في دار الاسلام . فهل نقف عند هذا الحد ؟ ام نبرز كل ما يجمعهم ؟ فالجغرافيون كما قلنا ، اناس من الطبقة المتوسطة ، يؤمنون باسلام متوسط ، يرفض التطرف من حيث يأتي ، من اجل المصلحة والخلاص العامين . ويتمثل التماسك عندهم

---

(١٢٤) تعد حقول النخيل (وليس الأشجار افراديا) الشهيرة في الش،العائدة اصلا الى عهد الفينيقيين ، حالة شاذة : « وهي الوحيدة التي تستحق هذا الأسم في شبه جزيرة ايبيرية » (ا . ليفي بروفنسال ، تاريخ الأندلس المسلمة ، باريس — ليدن ، ٣ مجلدات ، ١٩٥٠ و ١٩٦٧ ، المجلد ٣ ص ٢٨٤ و ح١ مع ما لمراجع) .

في لزوم قبول المدارس والاثنيات والاوضاع الاجتماعية والألسن ، كما هي ، لا كحالات تصدع . وتهن دار الاسلام ، اذا اصبحت تلك الظاهرات خطرة . على هذا النحو ، ينبغي فهم تأنيب ابن حوقل ، الذي هاله توسع الروم في بلاد الشام الشمالية ، ولا يجوز اعتباره ذما موجها إلى هذا الشخص او ذاك ، الذي يسمى بسهولة كبش الفداء . وهذا التماسك جماعي في هذه الحال : فدار الاسلام مسؤولة كلها ، وسوف تزول كلها او تنقذ نفسها كاملة .

وبدا تاريخ جديد بعد العام الف . نعني تاريخ توسعات اخرى ، لكن تسيطر عليها شعوب اخرى ، على رأسها الاتراك . وتاريخ اختلاجات اخرى ايضا ، اخطرها زوال الخلافة تحت ضربات المغول سنة ١٢٥٨ ، وتبدل الخريطة تماما ، وتغيير المعارف . وقد آلت دار الاسلام إلى الزوال ككيان سياسي موحد فعلا او رمزيا . وسوف تظهر آداب اخرى وجغرافيون آخرون (١٢٥) يعبرون عن تنوعات اخرى وعن وحدة اخرى ايضا تراءت في الحقيقة قبل العام الف ، وسوف تحتل دار الاسلام باجمعها بعد الآن : فالحياة المشتركة ، والحياة اليومية ، وطريقة مواجهة المكان والزمان ، وعلاقة الانسان بالله والمعرفة ، باختصار كل هذه الامور تتكون منها وتتميز بها حضارة دار الاسلام حتى في ايامنا .

---

(١٢٥) انظر ا . . ميكيل ، « الجغرافية العربية بعد العام الف »
Popoli e paesi nella cultura altomedievale, Settimane di Studio del Centro italiano di studi suu' alto medievo,
سبوليتو ، ٢٩ روماني (٢٣ – ٢٩ نيسان ١٩٨١) ، ص ١٥٣ – ١٧٤ .

المصـادر والمراجـع

لا تذكر هنا إلا أسماء المؤلفين ، التي لم ترد في مصادر المجلدات السابقة الأول والثاني والثالث بأقسامها . مع ذلك نكرر ثبت المؤلفين بالرموز.

اشتور (١) ، تاريخ الأسعار والمرتبات في الشرق في القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٦٩

الياد (م .) ، مظاهر الاسطورة ، باريس ، ١٩٦٣

اورنش (او .) ، الدار الشرقية ، عمارة الشرق الأدنى من البدء حتى منتصف الألف الرابع ، باريس ٣ مجلدات ، ١٩٨١

ايش (ى) ، الخزائن العربية للكتب ، العامة ونصف العامة ، في بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) والشام ، ومصر في القرون الوسطى ، دمشق ، ١٩٦٧

بروديل (ف.) ، الحضارة المادية ، والاقتصاد والرأسمالية ، من القرن ١٥ إلى القرن ١٧ ، م ١ ، بنيات التصرف اليومي : الممكن والمستحيل ، باريس ، ١٩٧٩

بروديل (ف.) ، هوية فرنسة ، م ١ ، الحيز الأرضي ، التاريخ ، باريس ، ١٩٨٦

بولينياك (ف . دى) ، « الأسكندرية : عين العالم وحدود المجهول » ، منوعات المدرسة الفرنسية في رومة ، القرون الوسطى – العصور الحديثة ، ٩٦ روماني (١) ، ١٩٨٤ ، ص ٤٢٥ – ٤٣٩

بولينياك (ف . دى) ، « ذو القرنين ، بصورة الاسكندر ، من الرمزية الاغريقية إلى علامات يوم الدين في الاسلام ، المرجع ذاته ، ص ٢٩ – ٥١

بيلا (ش .) خمسة تقاويم مصرية ، القاهرة ، ١٩٨٦

بيلا (ش .) ، « اللغة والأدب العربيان » الطبعة الثانية ، باريس ، ١٩٧٠

تارديو (م .) ، « الصابئة في القرآن وصابئة حران » ، المجلة الاسيوية ، ٢٧٤ روماني ، (١ - ٢) ، ١٩٨٦ ، ص ١ – ٤٤

جايت (هـ .) ، الكوفة ، نشوء مدينة اسلامية ، باريس ، ١٩٨٦

جل (م) ، « التجار الراذانيون وارض راذان ، » مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الشرق ، ١٧ روماني (٣) و » ايلول ١٩٧٤ ، ص ٢٩٩ – ٣٢٨

حوراني (ج . ف.) ، الملاحة العربية في المحيط الهندي في القرون الوسطى القديمة والأولى برنستاون ، ١٩٥١

دوزي (ر .) المعجم المفصل لأسماء الثياب عند العرب ، امستردام ، ١٨٤٥

ريغ (د .) ، معجم عربي فرنسي ، فرنسي عربي ، باريس ، ١٩٨٥

ريمون (ا .) ، الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثالث عشر ، دمشق ، مجلدان ، ١٩٧٤

ريمون (ا .) ، المدن العربية الكبرى في العهد العثماني ، باريس ، ١٩٨٥

ساسي (ا. ي. سلفستر دي) ، رحلة مصر لعبد اللطيف ، باريس ، ، ١٨١٠

سورديل (د .) ، الاسلام في القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٧٩

سورديل (د . و ج.) ، حضارة الاسلام الكلاسيكي ، باريس ، ١٩٦٨

سوفاجيه (ج .) ، حلب ، دراسة طور مدينة كبيرة سورية من البدء إلى منتصف القرن ١٩ ، باريس ، ١٩٤١

شلميتا (ب .) ، سيد زوكو في اسبانية ، مدريد ، ١٩٧٣

عزيزي (محسن) ، السيطرة العربية وانتعاش الشعور القومي في فارس في القرنين ٢ ، ٣ ، باريس ، ١٩٣٨

غرسين (ج. س) ، « ابن حوقل والمشرق والمغرب » ، مجلة المغرب الاسلامي والبحر المتوسط ، ٣٥ روماني (١) ، ١٩٨٣ ، ص ٧٧ – ١٩١

غيلد ميستر (ج .) ، –
«Beiträge zur Palästina kunde aus arebischen Quellen», Zeitschrift des deutschen Palästina - Veriens,
٧ روماني ، ١٨٨٤ ، ص ١٤٣ – ١٧٢ ، و ٢١٥ – ٢٢٦

كريستنسن (ا .) ، فارس في عهد الساسانيين ، كوبنهاغن – باريس ، ١٩٣٦

كوريو (ج.) ، اطلس العالم العربي الاسلامي في الحقبة الكلاسيكية ، القرن ٩ – ١٠ ، لايدن ، ١٩٨٣ – ١٩٨٥

لازار (ج.) ، صرف ونحو اللغة الفارسية المعاصرة ، باريس ، ١٩٥٧

لا ووست (هـ .) ، الا نشتاقات في الا سلا م ، الطبعة الثانية ، ياريس ، ١٩٧٧

لومبار (م.) ، المعادن في العالم القديم من القرن ٥ إلى القرن ١١ ، باريس ، ١٩٧٤

ليسكور (ر .) ، « مزار أهل الكهف في الأردن » ، مجلة الدراسات الا سلا مية ، ٣٦ روماني (١) ، ١٩٦٨ ، ص ٣ — ٩

ليفي ستروس (ك.) الفكر البدائي ، باريس ، ١٩٦٢

ليفي ستروس (ك.) ، « المدارات الحزينة ، باريس ، ١٩٥٥

ليفي ستروس (ك .) « النيء والمطهو ، باريس ، ١٩٦٤

متنوعات ، تكريما لفرنان يروديل ، باريس ، مجلدان ، ١٩٧٣

المغربي (س .) رحالة المغرب المسلم من القرن ١٢ إلى القرن ١٤ ، باريس (اطروحة ، جامعة باريس ٣)، ١٩٨٦ (لم نطلع عليها إلا بعد انجاز الكتابة)

ميكيل (ا.) ، الا مبراطورية العربية الا سلا مية (القرن ٧ — ١٣) في « مفهوم الا مبراطورية (باشراف م . دوفيرجيه) ، بار ١٩٨٠

ميكيل (ا.) جغرافية دار الا سلا م البشرية . . . باريس — لا هاي ، م ١ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ، م ٢ ، ١٩٧٥ ، م٣ ، ١٩٨٨

ميكيل (ا.) ، « الجغرافية العربية بعد العام الف » (ايطالي) سبوليتو ، ٢٩ روماني (٢٣ — ٢٩ نيسان ١٩٨١ ص ١٥٣ — ١٧٤

النويري ، نهاية الأرب ، مختارات مترجمة ومعلق عليها لـ م . اسبيرونية ، «النويري: اعياد الا سلا م ، والفرس والنصارى واليهود » مجلة أرابيكا ، ٢٢ روماني (١) ، اذار ١٩٨٥ ، ص ٨٠ — ١٠١

هوبرت (د.) ، « قيسريات النسيج : تجهيز في المدينة » ، مجلة الدراسات الشرقية ، ٢٦ روماني ، ١٩٨٤ ، ص ١٣٧ — ١٣٥

* * *

ثبت المؤلفين ومصنفاتهم (بالرموز)

نكرر هنا ثبت الجزء السابق مع بعض الا ضافات لتيسير الرجوع إليه

اسم المؤلف	اسم المصنف	الرمز
ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الاصطخري أبو اسحاق	كتاب المسالك والمسالك	اصط
ابراهيم بن وصيف شاه	مختصر العجائب	و ص
ابراهيم بن يعقوب الا سرائلي	رحلة إلى أوربة الغربية	ابرا (ا)
الطرطوشي	رحلة إلى الصقالية (١)	ابرا(ص)
احمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب	كتاب البلدان	يعق
ابن واضح اليعقوبي ، أبو العباس		
أحمد بن عمر ابن رسته ، أبو علي	كتاب الأعلاق النفيسة	رست
أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد	رسالة	فض
أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمداني، ابن الفقيه	كتاب البلدان	فق
أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر	صفة الأندلس	راز
اخوان الصفاء وخلان الوفاء	رسائل	اخ
اسحق بن الحسين	كتاب آكام المرجان	اسح

(١) لا سباب تتعلق بتسير المراجعة ، سوف نشير ، بعد الا حالة إلى طبعة كوالسكي ، إلى طبعة الحجي .

تميم بن بحر المطوعي	رحلة في بلاد خاقان التغزغز (١)	تم
الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود من بني همدان ، أبو محمد ، ابن الحائك أو ابن ذي الدمينة	صفة جزيرة العرب	هم
الحسن بن أحمد (محمد) المهلبي	مقاطع من أبي الفداء	مه(ف)
	مقاطع من صلاح المنجد	مه (م)
	مقاطع من ياقوت	مه (ي)
سهر آب (ابن سرابيون) مع احالات إلى طبعة فون مزيك	كتاب عجائب الاقاليم السبعة	سر
عبدالله بن أحمد بن سليم الأسواني ، أبو محمد	كتاب أخبار النوبة	اسو
عبدالملك بن محمد بن اسماعيل ، أبو المنصور الثعالبي	لطائف المعارف	ثعا
عبيدالله بن أحمد ابن خرداذبه ، أبو القاسم	كتاب المسالك و الممالك	خر
علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن	مروج الذهب	مس(م)
	التنبيه و الاشراف	مس(ت)
علي بن محمد الشابشتي ، أبو الحسن	كتاب الديارات	شاب
عمرو بن بحر بن محجوب ، الكناني بالولاء ،	كتاب الامصار و عجائب البلدان	جا(أ)
أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ	كتاب الحيوان	جا(ح)
	كتاب التبصر بالتجارة	جا(ت)
قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، البغدادي ، أبو الفرج	كتاب الخراج و صناعة الكتابة	قد
ماشاءالله بن سارية	كتاب الاسعار	ماش
محمد بن أحمد بن أبي البناء الشامي المقدسي البشار شمس الدين ، أبو عبدالله	أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	مقت

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٤ .

محمدبن أحمدبن يوسف ، أبوعبدالله ، الكاتب البلخي الخوارزمي	مفاتيح العلوم	خو(م)
محمدبن اسحاق بن محمدبن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب ، ابن النديم	الفهرست	ند
محمدبن حوقل البغدادي الموصلي	كتاب صورة الأرض	حو
محمدبن موسى الخوارزمي ، أبوعبدالله	صورة الأرض	خو(ص)
محمدبن يزيد السيرافي ، أبوزيد	ملحق أخبار الصين والهند	سيرا
محمدبن يوسف الوراق ، أبوعبدالله	كتاب المسالك والممالك	ور
	ترجمة جزئية للبكري لف. مونتيل ذكر في جغرافية دار الاسلام البشرية ج ٢ قسم أول ، ص ٢٨	ور(م)
مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ، أبو دلف	الطريق إلى آسية	مس(ا)
	الرسالة الثانية	مس(ب)
مطهر بن طاهر المقدسي	كتاب البدء والتاريخ	مقب
مغرورون	قصة رحلتهم	مغ
يحيى بن الحكم البكري الجياني ، المعروف بالغزال	رحلة إلى القسطنطينية	غز(ق)
	رحلة إلى بلاد النورمان	غز(ن)
يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي	رسائل فلسفية	كن(ر)
مجهول	أخبار الصين والهند	اخب
مجهول	تقويم قرطبة	تق
مجهول	حدود العالم	حد
مجهول	عجائب الهند	عج

* * *

الفهــــارس

أولاً — فهرس أعلام الأماكن والمياه بأنواعها

ثانياً ـ فهرس أعلام الرجال والنساء والأمم والقبائل والسلالات ونحوها

* * *

ثالثاً – فهرس المصطلحات التقنية

١ – الادارة

٢ – الموازين والمكاييل

٣ – الطوائف والمذاهب

٤ ـ الحيـاة اليوميـة

٥ ـ الأغذيـة

الأســماك

٦ ـ النسيج والمناسج

٧ ـ الثياب والأحذية

٨ ـ اللغات والألسنة

٩ ـ التقاويم

١٠ ـ المتنوعات

رابعاً ـ فهرس الأشكال والصور

* * *

تذكير
مواد الأجزاء الثلاثة السابقة من
جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الأول
الجغرافية والجغرافية البشرية في الأدب العربي
من البدء حتى عام ١٠٥٠ م

١ ــ فهرس مواد القسم الأول من الجزء الأول

الفصل الأول
أصول الجغرافية العربية
العلوم الجديدة والعلوم التقليدية

الفصل الثاني
الاتجاهات الحاسمة
الجغرافية والأدب
عند الجاحظ وابن الفقيه

الفصل الثالث

الاهتمامات التقنية

علم الخرائط في صورة الأرض وتطوره

الأدب الاداري وتطوره — التحقيقات التجارية

الفصل الرابع

الرحالة

الفصل الخامس
ابن الفقيه أو
الجغرافية من وجهة نظر الأدب

* * *

٢ — فهرس مواد القسم الثاني من الجزء الأول

الفصل السادس
الموسوعيون والمكثرون والمؤرخون وغيرهم

الفصل السابع
الدراسات الاحادية والمعاجم

الفصل الثامن

ظهور جغرافية بشرية حقيقية . المسالك والممالك ودراسة أرض البشر

الفصل التاسع

الجغرافية في محيطها

الملاحق

حواشي القسم الثاني

فهارس القسمين الأول والثاني

الجزء الثاني
الجغرافية العربية وتصوّرها العالم
الأرض وممالك الأغراب
١ – فهرس مواد القسم الأول من الجزء الثاني

الفصل الأول
الأرض التامة

الفصل الثاني
الأرض المجزأة

الفصل الثالث

الشرق الأقصى أو حضارات عظيمة ناقصة

الفصل الرابع
افريقية السوداء أو قارة مترائية

الفصل الخامس
السهوب الفسيحة بين جبال الأورال

الفهارس

* * *

٢ — فهرس مواد القسم الثاني من الجزء الثاني

الفصل السادس
اوربة الشرقية

الفصل السابع
اوربة الغربية

الفصل الثامن

اقرب البلدان إلى دار الاسلام : بيزنطة

الفصل التاسع
أبعد البلدان عن دار الاسلام
بلدان الأساطير

الفصل العاشر
مستوطنات المسلمين خارج دار الاسلام

الفصل الحادي عشر
دار الاسلام على الأرض

حواشي القسم الثاني

الفهارس

الفهرس التحليلي لقسمي الجزء الثاني

* * *

الجـزء الثـالث

الوسـط الطبيعي

١ ــ فهرس مواد القسم الأول من الجزء الثالث

الفصل الأول

الأرض

الفصل الثاني

الماء على الأرض

الفصل الثالث

مجامع المياه

* * *

٢ ـ فهرس مواد القسم الثاني من الجزء الثالث

الفصل الرابع

الهواء

الفصل الخامس

الحيوان وكتاب الحيوان

الفصل السادس

النبات

حواشي القسم الثاني

* * *

الجزء الرابع
الأعمال والأيام

١ — فهرس مواد القسم ١—٢ من الجزء الرابع

القسم الأول
الخلفية التاريخية
الفصل الأول
التاريخ والسلطات

الفصل الثاني
دار الاسلام : المذاهب ، الشعائر ، الأماكن

القسم الثاني
دار الإسلام عضوية كبيرة حية
الفصل السادس
تنظيم دار الاسلام

الفصل السابع
الطرق البرية والمائية

الفصل الثامن
أصناف المبادلات التجارية وركائزها

٢ ــ فهرس مواد القسم ٢ (تتمة) ــ ٣ من الجزء الرابع

القسم الثاني
دار الاسلام عضوية حيّة
(تتمة)

الفصل التاسع
نظرة إجمالية إلى المدن

الفصل العاشر
نظرة مفصلة إلى المدن

القسم الثالث
البشر والحياة

الفصل الحادي عشر
البشر جسدياً وأخلاقياً

الفصل الثاني عشر
الناس في الأسرة والمجتمع

الفصل الثالث عشر
الانسان المبدع

الفصل الرابع عشر
شبه خاتمة
جغرافيق الفوارق

* * *

٣٠٠٠٠ ط١ /١٠/١٩٩٥